بداية الوصول

بلب

صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي

عفا الله تعالى عنه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ»، حديث نبويّ صحيح.

المجلد التاسع

قسم السيرة النبوية العطرة

دار ابن حزم


بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7



الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

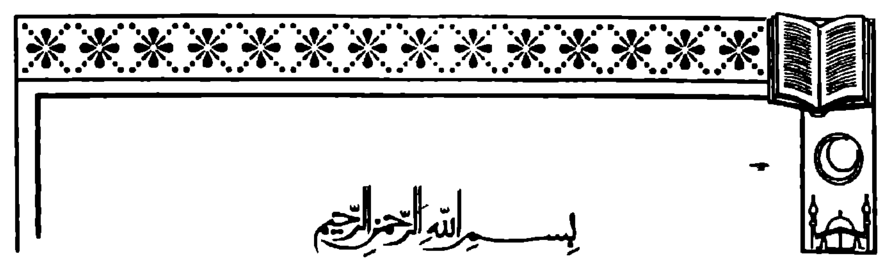
دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله حقَّ حمده، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

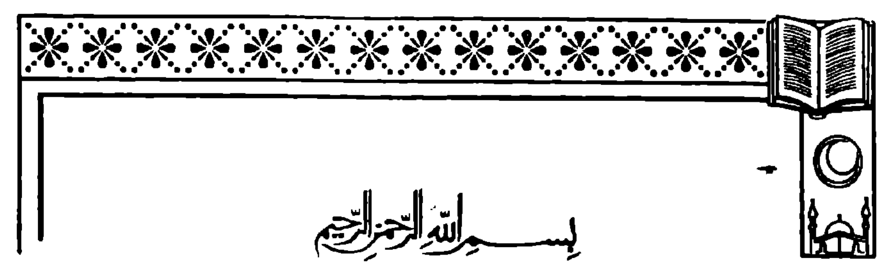
وبعد؛ فهذا هو قسم السيرة النبويّة من بداية الوصول نقدّمه لقرائنا الميامن على شرطنا المتقدم، وهو أن لا نورد فيه إلاَّ ما صح أو حسن من الحديث... وهذا عزيز جداً في كتب السيرة النبوية على الرغم مما كتب فيها من المجلّدات والأسفار في كل العصور، فإن الأحداث النبويّة والمغازي التي ذكرها علماء السيرة من حياة النبيّ ﷺ؛ لا تعدو ما ذكره ابن إسحاق أو موسى بن عقبة أو ابن سعد أو غيرهم من السلف الذين اعتنوا بذلك، وهم في الأكثر يذكرونها بلاغات ومعضلات ومراسيل، وكثير منها لا سند له أصلاً ويقرؤها الناس ويتلقّونها من المسلّمات.

ولذلك، فإني بإذن الله تعالى وإرادته وتوفيقه تتبّعت حياة النبيّ ﷺ وغزواته والأحداث التي حصلت له من كتب السنّة المشرفة على اختلافها، مع رجوعي إلى ما ذكره ابن إسحاق الذي كان إماماً في هذا الشأن، فإن كل من جاء بعده أو كان قبله عيال عليه في ذلك.

ولذلك، فقد جاءت بحمد الله وتوفيقه سيرة نقيّة معزوّة للأمّهات والأُصول الحديثية، مبيّنة مراتبها، مع شرح ملائم وذكر فوائد الأحداث على عادتنا في الكتاب، وهذا العمل على هذه الطريقة في السيرة النبويّة لا نعلم أحداً سلكه، نعم كان لابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ الفضل الأول في عزو

أحداث السيرة إلى كتب السنة وأصولها في تاريخه «البداية والنهاية»، لكنه لم يتحرّ الصحة والحسن بل ذكر ما هبّ ودبَّ، ثم وجدنا العلاّمة الأستاذ إبراهيم العلي سلك هذا المسلك، وله الفضل الكبير أيضاً في عزو السيرة للأمهات في كتابه القيم: «صحيح السيرة النبوية» فقد استفدنا منه كثيراً كسابقه جزاهما الله خيراً وأثابهما على علمهما، ونسأل الله عزّ وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل ما كتبناه ونكتبه خالصاً لوجهه الكريم عارياً عن كل شائبة من رياء أو سمعة أو اعجاب أو افتخار، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على أشرف خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه.





وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه

كتاب السيرة النبويّة

السيرة هي الطريقة والحالة التي يكون عليها الإنسان في حياته، والسيرة النبوية العطرة هي عبارة عن حياة النبيّ ﷺ وظروفه التي عاشها بداية من نسبه، فمولده، فمراحل حياته من الطفولة فالصبوة فالشباب، إلى بعثته وظاهرة الوحي، فدعوته، وما لاقى بمكّة المكرّمة في مرحلته الأولى من أنواع الإذايات من طرف قومه، ثم هجرته، ومرحلته الثانية فغزواته وجهاده... وتعامله مع أصحابه وحسن عشرته مع زوجاته وبرّه بأهله... وشمائله وأخلاقه وفضائله ومعجزاته... إلى التحاقه بالرفيق الأعلى وجوار ربّه؛ هذه مضامن السيرة النبويّة الخالدة.

ثم إن قراءة السيرة النبوية ليس الغرض منها مجرد الاطّلاع على حياته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم، والتعرّف على الأحداث التي مرّت به كتاريخ مثلاً، بل أهدافها أبعد من ذلك؛ فالسيرة في الحقيقة بيان لأحكام الإسلام وأخلاقه... التي ظهرت متمثلة في شخصية هذا الرسول العظيم ﷺ؛ فحياته ﷺ نسخة عملية من القرآن الكريم، إذ هو كان أخلاقه كما قالت حبيبته عائشة رضي الله تعالى عنها حينما سألها سعد بن هشام: «كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خُلُقه القرآن»، رواه

مسلم ويأتي، ولذلك كانت دراسة السيرة النبويّة والتعمّق فيها أكبر مُعين على فهم القرآن الكريم؛ إذ أن كثيراً من الأحداث التي مرَّت بالنبيّ ﷺ مع قومه كفار قريش بمكّة، ومع اليهود والمنافقين بالمدينة، أضِفْ إلى ذلك غزواته وحروبه، كل ذلك جاء مفصّلاً في القرآن الكريم في غير ما سورة المكيّ منها والمدني.

وأكبر غزواته: بدر، وأُحد، والخندق، وقريظة، والحديبية، والنضير، والفتح الأكبر، وحنين، وتبوك، وكلّها مستوفاة مفرّقة في سور من القرآن الكريم.

إذن، فالسيرة النبوية هي مزيج من القرآن الكريم، والسنّة النبوية القولية والعملية والتقريرية وذلكم هو الوحي الإلٰهي؛ ولذا كان قارىء السيرة المتعمّق فيها المتدبّر لها يخرج بإذن الله تعالى من قراءتها بعلوم غزيرة، يأخذها مباشرة من معدنها الأصيل الصافي. هذا وقد تناولت هذه السيرة الفذّة أقلام العلماء عبر العصور والأجيال، فكتبوا فيها المجلّدات والأسفار، وجمعوا كل ما طاب لهم أن يجمعوه في هذا الشأن، فلهذه الأقلام فضل على اللاحقين فجزى الله أصحابها خير الجزاء وأوْفاه.

وقد ذكرت جملة وافرة ممن كتبوا في هذا الجانب الطاهر في مقدمتي كتابي «تهذيب الخصائص»، و«تهذيب الشفا» فليرجع إليهما، والله المستعان وعليه التُكلان وهو حسبي ونِعْم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العظيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه عدد خلقه ورضاء نفسه وزِنَة عرشه ومِداد كلماته.

* * *

❊ نسبه الشريف وطهارة أصله ﷺ

[١] عن الأَشْعَثِ بن قَيْس رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ في وَفْدٍ لا يَرَوْن أني أفضلُهم، فقلت: يا رسول الله إنا

نزعم أنكم منّا؟ قال: «**نحن بنُو النَّضر بن كِنانة، لا نَقْفُو أُمَّنا ولا نَنتفِي مِنْ أَبِينا**»، قال: فكان الأشعث يقول: لا أُوتَي برجل نفَى قُريشاً من النَّضر بن كِنانة إلاّ جَلَدتُه الحدَّ. (١)

رواه أحمد (٢١١/٥، ٢١٢٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٦١٢). قال البوصيري: هذا الإسناد صحيح رجاله ثقات. أمّا ابن كثير فقال: وهذا إسناد جيّد قوي... لا نقفو أُمّنا أي لا نقذفها ونتّهمها.

[٢] وعن كُلَيْب بن وائِل ـ رحمه الله تعالى ـ قال: حدَّثَتْني ربيبة النبيّ ﷺ زَيْنبُ ابنةُ أبي سَلَمة رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لها: أرأيتِ النبيّ ﷺ، أكانَ مِن مُضَرَ؟ قالت: مِمَّن كانَ إلاّ مِنْ مُضَرَ؛ وفي رواية: أَخْبِرِيني النبيّ ﷺ مِمَّن كانَ؟ مِنْ مُضَرَ كانَ؟ قالت: فَمِمَّنْ كانَ إلاّ مِنْ مُضَر، كان من ولد النَّضْر بْنِ كِنانة...

رواه البخاري في مناقب قريش (٣٣٨/٧، ٣٣٩).

مُضَر ـ بضم الميم وفتح الضاد ـ أحد أجداد رسول الله ﷺ كما يأتي.

[٣] وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله اصْطَفَى كِنانة مِن وَلَدِ إسماعيل، واصْطَفى قُرَيشاً مِن كِنانة، واصْطَفى هاشِماً من قُرَيش، واصْطفاني مِن بَني هاشم**».

رواه أحمد (١٠٧/٤)، ومسلم في الفضائل (٣٦/١٥)، والترمذي في المناقب (٣٣٧٤، ٣٣٧٦) بتهذيبي، والبخاري في التاريخ الكبير (٤/١)، والخطيب في التاريخ (٦٤/١٣) وحسّنه الترمذي وصححه.

[٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرونِ بَنِي آدمَ قَرْناً فَقَرْناً، حتَّى كنتُ مِن القرنِ الذي كُنْتُ مِنْهُ**».

رواه أحمد (٣٧٣/٢، ٤١٧)، والبخاري في صفة النبيّ ﷺ (٣٨٤/٧).

[٥] وعن المُطَّلِبِ بن أبي وَدَاعَةَ رضي الله تعالى عنه قال: جاء العباس رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله ﷺ وكأنه سَمِعَ شيئاً، فقام النبيّ ﷺ على المنبر فقال: **«مَنْ أنا؟»** قالوا: أنت رسولُ الله عليك السلام، قال: **«أنا محمد بن عبد الله بن عبدِ المطّلب، إنَّ الله خلقَ الخلقَ فجعَلَني في خَيْرِهم، ثم جعلهم فِرْقَتين فجعلني في خَيْرِهم، ثم جعلهُم قبائِلَ، فجعلني في خَيْرِهم قبيلةً، ثم جعلهم بُيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نَفْساً»**.

رواه أحمد (١/٢١٠)، والطيالسي (٢٤٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٣٧٥) وحسّنه وصححه، وعن العباس نحوه، رواه أحمد (٤/١٦٥، ١٦٦)، والترمذي قال الهيثمي (٨/٢١٥) رجاله رجال الصحيح.

[٦] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ قال: **«خرجتُ مِن نِكاحٍ ولَمْ أَخرُج من سِفاحٍ، مِن لَدُن آدم إلى أن ولدَنِي أبِي وأُمّي، لم يُصِبْنِي مِن سِفاحِ الجاهلية شيءٌ»**.

رواه العدَني في مسنده مُسَلْسلاً بآل البيت، وفيه إرسالٌ.

ورواه عبدالرزّاق عن محمد الباقر رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، قال: لم يصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ: **«إني خرجت من نكاح ولم أخرُج مِن سِفاح»**.

ورواه أيضاً البيهقي في السنن (٧/١٩٠) وله شواهد عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة، وقال فيه ابن كثير في البداية: وهذا مرسل جيّد وأورده النور في المجمع (٨/٢١٤) برواية أوسط الطبراني (٥/٣٦٦) قال: وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي، صحّح له الحاكم، وقد تكلّم فيه وبقية رجاله ثقات؛ فالحديث على كل حال ثابت سنداً ومعنىً، وقد استوعب الكلام عليه الشيخ ناصر الألباني رحمه الله تعالى في الإرواء، فأجاد وأفاد وجعله من قسم الحسن لغيره، وهو كما قال.

«اصطفى» بمعنى اختار، وقوله: «بعثت» إلخ... يريد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم أنه كان يَتَقَلَّبُ في أصلاب آبائه وأرحام أُمّهاته الذين كانوا

يعيشون في خَيْرِ طبَقاتِ أجيالِهم طبقةً طبقةً وجيلاً جيلاً إلى أن وُجِد عليه السلام في عصره الذي كان بيتُه أشرفَ البيوت وأطْهرَها. . . والقَرْنُ: الجيل من الناس إذا انقرضوا.

وقولُه: «سفاح» هو الزنا والنكاح اللاشرعي.

في هذه الأحاديث فوائد وأُمور:

١ - **أولاً**: ثبوت انتساب النبيّ ﷺ إلى عدنان، فهو هاشمي قرشي كناني مُضرِي عَدْنانيّ مختارٌ من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهذا نسبه وأسماء أجداده إلى عدنان:

قال البخاري - رحمه الله تعالى - في باب مبعث النبيّ ﷺ (١٦٢/٨، ١٦٣، ١٦٤): محمدُ بن عبدالله بن عبد المُطّلب، بن هاشم، بن عَبْدِ مَنافِ، بن قُصَيٍّ، بن كِلاب، بن مُرَّةَ، بن كَعْب، بن لُؤَيّ، بن غالِب، بن فِهر، بن مالِك، بن النَّضْر، بن كِنانة، بن خُزَيْمَة، بن مُدْرِكَة، بن إلياس، بن مُضَرَ، بن نِزَار، بن مَعَدٍّ، بن عَدْنان. . .

فهذا النَّسب الشريف هو المتّفق عليه بين المحدثين وعلماء السيرة وغيرهم، ولا يصح بعد عدنان شيءٌ، مع اتّفاق العلماء على أن عدنان من بني إسماعيل عليه السلام، قال ابن عبدالبرّ رحمه الله تعالى في «الاستيعاب»: هذا ما لم يختلِفْ فيه أحدٌ من الناس، ثم صرَّح بأن رفعه إلى عدنان إجماعُ أهل السِّيَر والعلمِ بالأثر. ونقل النووي رحمه الله تعالى في أوائل تهذيب الأسماء إجماعَ الأمّة عليه. وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى في الهدي النبويّ: إلى هنا - يعني عدنان - معلوم الصحة متفقٌ عليه بين النسّابين ولا خلاف ألبتَّة، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، قال: ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وقال الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه السيرة النبويّة: وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء، وانظر: شرح السنة للبغوي (١٩٣/١٣)، والفتح (٣٣٨/٦)، والطبقات لابن سعد (١٥٨/١) وغيرها.

ثانياً: في هذه الأحاديث أن آباء النبيّ ﷺ وأجداده كانوا أشرفَ أهلِ زمانهم وساداتهم وخيارهم، وأن الله عزّ وجلّ اختارهم على غيرهم؛ نظراً لما كان يتقلّب في أصلابهم... من نور هذا النبيّ الكريم ونَسَمَتِه ﷺ، وهذا مما لا مجال للتشكّك فيه، فهو كما قال ابن القيّم في الهدي: خير أهل الأرض نسباً، فأشرف القوم قومه وأشرفُ الأفخاذ فخذه...

ولذلك لما طعن الكفار في نسبه ﷺ وشبَّهُوه بنَخْلَةَ نَبَتَتْ في زُبالة وكَبْوَة، قام خطيباً مبيّناً اختيار نسبه في كل العصور وأنه أشرف بني آدم فرقة، وقبيلة، وبيتاً، ونسباً. وقد اعترف بذلك عدوّه إذ ذاك أبو سفيان أمامَ هِرَقْل، فقال له: إنه ذو نسب فينا...

ثالثاً: الذي ندين الله تعالى به ونعتقده في أجداد النبيّ ﷺ وآبائه أنهم كانوا كلّهم مسلمين على دين إبراهيم عليه السلام، وكل ما ورد بضدّ ذلك فهو مؤوّل كما قال كثير من أهل العلم. وقد روى ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: مات عَدْنان وأبوه وابنه معد وربيعة ومضر وقيس وتميم وأسد وضبّة على الإسلام على ملّة إبراهيم، وروى الزبير بن بكار من وجه آخر عن ابن عباس: لا تسبّوا مضر ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين؛ نقلهما الحافظ في الفتح (٣٣٩/٦).

رابعاً: الطعن في نسب النبيّ ﷺ كُفرٌ يُوجب لصاحبه القتل واللَّعْنَة؛ لأن فيه الجمع بين القذف والإذاية له ﷺ وقذفه عليه الصلاة والسلام كفرٌ باتفاق، وهكذا إذايتُه عليه الصّلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾، وانظر لهذا «الصارم المسلول» لأبي العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وهذا بخلاف غيره، فإن من أخرج شخصاً من نسبه وطعن فيه وجب عليه حَدُّ القذف إنْ لم يأتِ ببيّنة تُثْبِتُ له ذلك، فليتّق الله أولئك الذين يتكلّمون في نسب نبيّنا الكريم ويؤذونه بالطعن في بعض آبائه وأجداده، فإن ذلك أمرٌ خطير.

خامساً: إن الله عزّ وجلّ نزّه أجداده عن سفاح الجاهلية وأنهم كانوا

يَلْتَقُون على نكاح صحيح؛ كنكاح ملّة الإسلام، وهذا مما أجمع عليه العلماء، ومن قال خلاف ذلك لم يكن من المسلمين.

سادساً : إن معرفة علم الأنساب قد تكون واجبة كمعرفة نسب النبيّ ﷺ بأنه هاشميّ قرشي مضري إبراهيمي، وكمعرفة من يلتقي معه في النسب من الرجال والنساء لِيَتَجَنَّب من تحرُم عليه من النساء، وليتعرّف على من يَتوارثُ معه، إضافة إلى معرفة أقاربه ليصل الرحم معهم[1].

* * *

البشارة بالنبيّ ﷺ على لسان إبراهيم وعيسى عليهما السلام

[٧] عن العِرْباضِ بْن سَارِيَةَ رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إني عِند الله في أمّ الكتاب لَخاتمُ النبيّين، وإنّ آدم لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِهِ، وسأُنَبِّئُكم بتأويل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى قومَه، ورُؤيا أمي التي رأتْ أنه خرج منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشام، وكذلك ترى أمّهات النبيّين صلوات الله عليهم»**.

رواه أحمد (١٢٧/٤، ١٢٨)، وابن حبان (٢٠٩٣) بالموارد، والحاكم (٦٠٠/٢)، والبيهقي في دلائل النبوّة (٨٠/١) وغيرهم، وسنده صحيح عند أحمد وابن حبان، وانظر مجمع الزوائد (٢٢٣/٨)، وله شاهد حسن عن أبي أمامة رواه أحمد (٢٦٢/٥)، وابن سعد (١٠٢/١)، والبيهقي في الدلائل (٨٤/١) وغيرهم.

قوله: «المنجدل» ـ بضم الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر الدال ـ أي؛ ملقى على الجدالة، وهي الأرض، ومعناه: الإخبار بثبوت نُبُوَّته لِرُوحه الطاهرة الموجودة قبل الأرواح، وأن الله عزّ وجلّ أفاض عليها وَصْفَ النبوّة في وقت كان آدمُ لا يزال طريحاً في الأرض لَمْ يُنْفَخْ فيه الروحُ بعدُ، وهذا مما اختصّ به ﷺ عن سائر الخلق.

---

(١) أفاده ابن حزم رحمه الله تعالى.

وقوله: «دعوة أبي إبراهيم» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾، فخليل الرحمٰن عليه السلام كان قد دعا بدعوات عند بيت الله الحرام، كان من جملتها أن دعا الله عزّ وجلّ مع بَنِيهِ وأن يُخرِجَ من نسلهم رَسُولاً يقرأ عليهم آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فأجاب الله تعالى دعاءه، فكان المَدْعُوُّ به هو هذا النبيّ الكريم ﷺ.

وقوله: «وبشارة عيسى» يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾، وهو نصّ في أن عيسى بَشَّر قومَه الإسرائيليّين بهذا النبيّ العظيم ﷺ.

وقوله: «ورؤيا أمي» الخ... يأتي الكلام على هذه القطعة في ميلاده ورضاعه ﷺ.

* * *

❋ البشارة به ﷺ في التوراة والإنجيل

[٨] عن عطاء بن يَسَار رحمه الله تعالى قال: لقيتُ عبدَالله بن عَمرو بْنِ العاص رضي الله تعالى عنه قلت: أخبِرْني عن صِفةِ رسولِ الله ﷺ في التَّوْرَاةِ فقال: أجَلْ واللهِ إنَّه لمَوْصُوفٌ في التوراة ببعضِ صِفتِه في القرآن: «يا أيُّها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً وحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ أنتَ عبدِي ورسُولي سمَّيتُك المُتوَكِّل، ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظ ولا صخَّاب في الأسْواق، ولا يَجْزِي السَّيِّئةَ بالسيّئة، ولكن يَعْفُو ويَصْفَح، ولن يقبضهُ الله حتى يُقِيمَ به المِلَّة العَوْجاء بأن يقولوا لا إلٰه إلاَّ الله، ويَفْتَح به أعْيُناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً».

رواه أحمد (١٧٤/٢)، والبخاري في البيوع (٢٤٦/٥) وفي تفسير سورة الفتح (٢٠٧/١٠، ٢٠٨) وفي الأدب المفرد (٢٤٦)، وابن سعد في الطبقات، والبيهقي في الدلائل (٣٧٤/١، ٣٧٥).

«أجل» بمعنى: نعم. «شاهداً» أي: على الأمّة يوم القيامة، «ومبشراً» أي: مُخبراً من آمن بك واتّبعك بما يَسُرُّهم من نعيم خالدٍ. «ونذيراً» أي: مُخْبِراً ومُخوِّفاً من كَفَر بك بالعذاب الأليم الدائم، «وحرزاً» أي: أنت حِصْنٌ للعرب الأمّيين المبعوث فيهم من الزّيغ والضلال وحجابٌ لهم من النار إذا آمنوا بك وأيّدوك ونصروك واتّبعوك. «ليْس بفظٍّ ولا غليظ» الفظاظة والغلظة هي الخشونة والشدّة فمؤداهما واحد. «ولا صخاب» بالصاد والسين هو الذي يرفع صوته بكلامه، وخصّه بالسوق لأن رفع الصوت عنده من صفات الهَمَج والرّعاع. «الملّة العوجاء» الملة هي الدين ووصفها بالعوج لأن العرب كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسلام لكنهم أحدثوا فيها ما ليس منها ومَسَخُوها مَسْخاً وعوّجُوها بالبِدَع والخُرافات الشِّرْكِيّة، فبعث الله تعالى إليهم الرسول الكريم ﷺ ليُقيم لهم هذه الملّة ويُرْجِعَهم إلى التوحيد الخالص والعقيدة السّالِمَة، فتُفْتح به الأعيُن العُمْيُ، والأذانُ الصُّمُّ، والقُلوب الغُلْفُ.

[٩] وعن كعب الأحبار رحمه الله تعالى قال: «نَجِدُه مكتوباً: مُحمّد رسولُ الله ﷺ لا فَظٌ ولا غَلِيظٌ ولا صخّابٌ بالأسواق، ولا يَجْزِي بالسيّئةِ السيّئة، ولكن يَعفو ويَغفِر، وأُمّتُه الحَمّادُون ويُكَبّرُون الله عزّ وجلّ على كلّ نَجْدٍ، ويَحمدُونه في كل مَنْزِلَة، ويأْتَزِرُون على أنصافِهم، ويَتَوَضّؤُون على أطْرافِهم، مُنادِيهم يُنادي في جَوّ السّماء، صَفُّهُم في القتال وصَفُّهم في الصلاة سواءٌ، لهم باللّيل دَوِيٌّ كَدَوِيّ النّحْلِ، ومولِدُه بمكّة، ومُهاجرُه بطَيْبَة، ومُلْكُه بالشام».

ـ رواه الدارمي في أوائِل سننه رقم (٥) بسند صحيح، ورواه من طريقين آخرين (٨/٧) بنحوه وأحدهما سنده حسن.

«الحمّادون» الذين يحمدون الله تعالى كثيراً في كل أحوالهم. «نَجْد» النَّجْد كل ما ارتفع من الأرض... ويأْتَزِرُون أي: يشدُّون أُزُرَهم على أوساطهم. «أطرافُهم» الأطراف من الإنسان هي يداه، ورجلاه، ورأسه... «الدَّوِيّ» هو الصوت الخفي الذي لا يُفهم.

وفي هذين الحديثين التصريح بصفات النبيّ ﷺ في التوراة والبشارة به، وقد كان اليهود والنصارى يعرفون ذلك حقّ المعرفة، ولكنهم لما جاءهم ما عرفوا كفروا به بغياً وحسداً منهم، كما يأتي قريباً.

وقد جاء في القرآن الإخبار عن صفته ﷺ في التوراة والإنجيل؛ ففي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

بل جاء في آية أخرى في سورة الفتح مع ذكره في التوراة والإنجيل ذكر صفات أصحابه، حيث قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

***

❋ تبشير اليهود والأحبار والرهبان به ﷺ

[١٠] وعن سَلَمَة بن سَلامَة بن وَقْشٍ رضي الله تعالى عنه، وكان من أصحاب بدر، قال: كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهَلِ قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مَبْعَث النبيّ ﷺ بيَسِيرٍ فوقف على مَجْلِسِ عبد الأشهَلِ قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدثُ مَنْ فيه سنّاً عليّ بُرْدَةٌ مُضْطَجِعاً فيها بفِناءِ أَهْلِي، فذكر البَعْثَ، والقيامة، والحسابَ، والمِيزان، والجنةَ، والنارَ، فقال ذلك لقوم أهلِ شركٍ أصحاب أوثانٍ لا يرون أنَّ بَعْثاً كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: وَيْحَكَ يا فُلانٌ ترى هذا كائناً؛ أن الناس يُبْعَثُون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جَنَّةٌ ونارٌ يُجْزَون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به لَوَدَّ أن له بِحَظِّه من تلك النار أعْظَمَ تَنُّورٍ في الدنيا يُحْمُونَه، ثم يُدْخلونه إياه، فيطبق به عليه وأن ينجو من تلك النار غداً، قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟

قال: نبيٌّ يُبعثُ من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكّة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قالوا: فنظر إليّ وأنا من أحْدَثِهم سِنّاً، فقال: إن يَسْتَنْفِذْ هذا الغلامُ عُمرَه يدرِكْه، قال سَلَمَةُ: فوالله ما ذهب الليلُ والنهار حتى بعث الله محمّداً ﷺ وهو حيٌّ بين أظْهُرِنا فآمَنّا به وكفَرَ به بَغْياً وحسَداً، قال: فقلنا له: ويحك يا فلان ألستَ الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، ولكن ليس به.

رواه ابن إسحاق (١٤١/١) بتهذيب ابن هشام مع الروض، ومن طريقه أحمد (٤٦٧/٣)، والحاكم (٤١٧/٣، ٤١٨)، والبخاري في التاريخ (٦٨/٤، ٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٧٨/٢، ٧٩)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن إسحاق صرّح بالتحديث، وانظر: مجمع الزوائد (٢٣٠/٨).

«وقش» بفتح الواو وسكون القاف بعده شين من الأوس، «وبنو عبد الأشهل» حيّ من الأنصار، والأشهل اسم صنم كان لهم في الجاهلية. «أحْدَثُ» أي: أصغر. «بفناء» بكسر الفاء، هو ما امتدَّ من جوانب الدار. «وَيْحَكَ» أي: ويلك، وقد تأتي للترحم ولك أن ترفعها على الابتداء، أو تنصبها على إضمار فعل محذوف. «لَوَدَّ» أي: لتمنّى وأحبَّ. «التنور» بفتح التاء ثم نون مشدّدة مضمومة هو الفرن. «فيطبق» أي: يغلق عليه ويغطى. «وما آية» أي: وما علامة ذلك. «ومتى تراه» أي: متى تظنّه خارجاً. «يستنفذ» أي: يفني عمره ويتمّه.

[١١] وعن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: إن الله تعالى لمّا أراد هَدْيَ زيد بن سُعْنَة، قال زيد بن سُعْنة: إنه لم يبق من علامات النبوّة شيء إلاّ وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلاّ اثنين لم أخْبُرْهُمَا منه: يَسبق حِلمُه جَهْلَه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلاّ حلماً، فكنت أتلطّف له لأن أخالِطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعتُ منه تمراً معلوماً إلى أجلٍ وأعطيتُه الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجهٍ غليظ، ثم قلت: ألا

تقضي يا محمد حقي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لمَطْلٌ، ولقد كان لي بمخالطتكم عِلْمٌ. فقال ابن الخطّاب: أي عدوّ الله، تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكون وتُؤَدَةٍ وتَبَسُّم، ثم قال: **«أنا وهو كنا أحوجُ إلى غير هذا مِنكَ يا عُمَر، أن تأمُرَني بحُسْنِ الأداء، وتأمُرَه بحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَب به يا عمرُ فاقْضِهِ حقَّه وزِدْه عِشرين صاعاً مكان ما روَّعتَه»**، ففعل فقلت: يا عمر كل علامات النبوّة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلاّ اثنين لم أَخْبُرْهما منه: يَسْبِق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلا حِلماً، فقد خَبَرْتُهما، فأُشْهِدُكَ أني قد رَضِيتُ بالله رَبّاً وبالإسلام دِيناً ومحمد نَبِيّاً.

رواه ابن حبان (٢١٠٥) مع الموارد، والحاكم (٦٠٤/٣، ٦٠٥)، وأبو نعيم في الدلائل، وصححه الحاكم. والوليد بن مسلم صرّح بالتحديث، ومحمد بن المتوكّل مختلف فيه وللحديث شاهد عند ابن سعد وغيره، والحديث أورده النور في المجمع (٢٣٩/٨، ٢٤٠) برواية الطبراني، وقال: رجاله ثقات، فالحديث حسن.

زيد بن سَعْنَةَ هو بضمّ السين وسكون العين ثم نون مفتوحة كان يهودياً. «لم أَخْبُرْهُما» مضارع خَبَر بفتح الباء يخبُر بضمّها أي: لم أعلمهما. «حِلْمُه» الحلم بكسر الحاء هو الأناة وعدم الاستعجال عند الغضب وضبط النفس. «أتلطف» التلطف: الترفّق للأمر. «فابتعت» أي: اشتريت منه. «ألا تقضي» أي: ألا تؤدي لي حقي. «المطل» بفتح الميم وسكون الطاء أي: أصحاب تسويف وتأخير في قضاء الدَّيْن وأداء الحقوق من مَطَلَه حقّه سوَّفَه بوعد الوفاء المرة بعد المرّة. وفي الحديث الصحيح: «مطل الغني ظلم» وقد تقدم. «أُحاذِرُ» أي: أخاف فوته. «وتُؤَدة» بضم التاء ثم همزة مفتوحة، فدال مهملة، هي التأنّي والرّزانة. «بحُسْن التِّباعة» أي: بحسن المطالبة والمتابعة. «روَّعتَه» أي: أفْزَعْتَه.

[١٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدَّثَنِي سلمانُ الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: كنتُ من أهل فارس وكان أبي دُهْقانَ

أرْضِه، فكان يُحِبُّني حُباً شديداً حتى حَبَسني في بيته كما تُحْبَسُ الجارية، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنتُ قَطِنَ النار الذي يُوقِدها، فكنتُ كذلك لا أعْرِفُ من أمر الناس شيئاً إلاَّ ما أنا فيه، وكان لأبي ضَيْعَةٌ فيها بعضُ العمل فدَعاني فقال لي: أيْ بُنَيّ، إني قد شُغِلْتُ عن ضيعتي هذه ولا بُدَّ لي من إصْلاَحِها فانطلق إليها فمُرْهم بكذا وَكذا، ولا تَحْتَبِسْ عني، فإنك إن احتبستَ عني شَغَلْتَنِي عن كل شيء، فخرجت أُريد ضَيْعَتَهُ فمررت بكنيسة النصارى فسمعتُ أصواتَهم فيها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: هؤلاء النصارى يُصَلُّون، فدخلتُ أنظر، فأعجبني ما رأيت من حالهم فوالله ما زلت جالساً عندهم حتى غربت الشمس، وبعث أبي، فطلبني في كل وجه حتى جئت حين أمسيت ولم أذهب إلى ضيعته، فقال أبي: أين كنت؟ ألم أكُنْ قلت لك؟ فقلت: يا أبتاه مررت بناس يقال لهم النصارى فأعجبَتْنِي صلاتُهم ودعاؤهم فجلستُ أنظر كيف يفعلون، فقال لي: أيْ بُني دينُك ودينُ آبائك خيرٌ من دينهم، فقلت: لا والله ما هو بخير مِن دينهم، هؤلاء قوم يعبدون الله ويدعونه ويُصَلُّون له، ونحن إنما نعبد ناراً نُوقِدُها بأيدينا إذا تركناها ماتتْ، فخافني فجعل في رجلي حَدِيداً وحَبَسني في بيت عنده، فبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: أين أجد هذا الدِّين الذي أراكم عليه؟ فقالوا: بالشام، فقلت: فإذا قدِم عليكم مِن هناك ناسٌ فآذِنُوني، فقالوا: نفعلُ، فقدم عليهم ناسٌ من تُجّارهم، فبعثوا إليَّ أنه قد قدم علينا تُجّارٌ من تجارنا، فبعثت إليهم إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الخروج فآذنوني، فقالوا: نفعل، فلما قضوا حوائجهم وأرادوا الرَّحِيل بعثُوا إليَّ بذلك، فطرحْت الحديد الذي في رجلي ولحِقْتُ بهم، فانطلقت معهم حتى قدمت الشام، فلما قَدِمْتُها قلت: مَنْ أفضلُ أهل هذا الدِّين؟ فقالوا: الأُسْقُف صاحب الكَنِيسَةِ، فجئتُه فقلت له: إني أحْبَبْتُ أن أكونَ معك في كنيستك وأعبدَ الله معك فيها وأتعلَّم منك الخير، قال: فكُنْ معي، قال: فكنتُ معه وكان رجلَ سَوْء، كان يأمرهم بالصدقة ويُرَغِّبُهم فيها فإذا جمعها إليه اكْتَنَزَها ولم يُعْطِها المساكين، فأبغضْتُه بُغْضاً شديداً لِمَا رأيْتُ من حاله، فلم يلبثْ أن مات، فلما جاءوا ليدْفِنُوه قلت لهم: إنّ هذا رجلُ سوء، كان يأمركم

بالصدقة ويُرَغِّبُكم فيها حتى إذا جَمَعْتُمُوهَا إليه اكْتَنَزَها ولم يُعْطِها المساكين، فقالوا: وما علامة ذلك؟ فقلت: أنا أُخْرِجُ لكم كنزَهُ، فقالوا: هاته، فأخرجت لهم سبع قِلالٍ مملوءة ذهباً وورِقاً، فلما رأوا ذلك قالوا: والله لا يُدْفَنُ أبداً فصلبوه على خشبة ورموه بالحجارة... وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فلا والله ما رأيت رجلاً قطّ لا يُصلّي الخمس أرى أنه أفضل منه وأشدّ اجتهاداً، ولا زَهادة في الدّنيا، ولا أدْأبَ ليلاً ونهاراً منه ما أعلمني أحببت شيئاً قبله حُبَّه فلم أزل معه حتى حَضَرَتْه الوفاة، فقلت: يا فلان قد حضرك ما ترى من الله وإني والله ما أحببت شيئاً قطُّ حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى مَنْ تُوصِيني؟ فقال لي: أيْ بُنَيّ، والله ما أعلمه إلاّ رجلاً بالموصل، فائته فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغُيِّبَ لحقتُ بالموصل، فأتيت صاحبها فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهادة في الدنيا، فقلت له: إنّ فلاناً أوصى بي إليك أن آتيك وأكون معك، قال: فأقم أيْ بنيّ، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة، فقلت له: إن فلاناً أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من تُوصيني؟ قال: والله ما أعلمه أي بنيّ إلا رجلاً بنصِيبين، وهو على مثل ما نحن عليه فالحق به، فلما دفنّاه لحقت بالآخر، فقلت له: يا فلان إنّ فلاناً أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى بي إليك، قال: فأقم يا بني، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إنه قد حضرك من الله ما ترى، وقد كان فلان أوصى بي إلى فلان، . وفلان أوصى بي إلى فلان، . وأوصى بي فلان إليك، فإلى من تُوصِيني؟ قال: أي بنيّ والله ما أعلم أحداً على مثل ما نحن عليه إلا رجلاً بعَمُورِية من أرض الروم فائتِه فإنك ستجده على مثل ما كنّا عليه، فلما وَارَيْتُه خرجت حتى قدمتُ على صاحب عمورية فوجدته على مثل حالهم، فأقمت عنده واكتسبت حتى كانت لي غُنَيْمَة وبَقَراتٌ، ثم حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى بي فلان، وفلان إليك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى مَن تُوصيني؟ قال: أي بنيّ والله ما أعلم بقي أحد على مثل ما كنّا عليه

آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلّك زمان نبيّ يُبْعث من الحرم، مُهاجرُه بين حرّتَيْنِ إلى أرض سَبِخَةٍ ذات نخيل، وأن فيه علامات لا تخفى بين كتفيه خاتم النبوّة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تَخْلُصَ إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلّك زمانه...

فلمّا واريناه أقمتُ حتى مَرَّ بنا رجالٌ من تجّار العرب من كَلْب، فقلت لهم: تحملوني معكم حتى تقدموا بي في أرض العرب، وأعطيكم غُنَيْمَتِي وبقراتي، قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، فوالله لقد رأيتُ النخل وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لها صاحبي، وما حَقَّتْ عندي حتى قدم رجل من قُرَيْظَة من يهود وادي القرى فابتاعني من صاحبي الذي كنت عنده فخرج بي حتى قدم بي المدينة، فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها فعرفت نعتها، فأقمت في رقّي مع صاحبي، وبعث الله رسوله ﷺ بمكّةَ لا يُذْكَرُ لي شيءٌ من أمره مع ما أنا فيه من الرّقّ، حتى قدم رسول الله ﷺ قُبَاء، وأنا أعملُ لصاحبي في نخلةٍ له، فوالله إني لفيها إذ جاء ابنُ عمٍّ له فقال: يا فلان قاتل الله بني قَيْلَة، ووالله إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل من مكّة يزعمون أنه نبيّ، فوالله ما هو إلا أن سمعتُها فأخذَتْني العُرَوَاءُ ـ يقول الرِّعْدَة ـ حتى ظننتُ لأَسْقُطَنَّ على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبرُ؟ ما هو؟ فرفع مولاي يداه فلَكَمَنِي لَكْمَةً شديدةً، وقال: ما لك ولهذا؟ أقبِلْ على عملك، فقلت: لا شيء، إنّما سمعت خبراً فأحببتُ أن أعلمه)فخرجت وسألت، فلقيت امرأة من أهل بلادي فسألْتُها، فإذا أهل بيتها قد أسلموا، فدلَّتْنِي على رسول الله ﷺ، فلما أمسيتُ وكان عندي شيء من طعام فحملتُه وذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فقلت له: إنه بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة، فرأيتكم أحقّ مَن بِهَذِهِ البلاد به، فها هوذا، فكُلْ منه، فأمسك رسولُ الله ﷺ يدَه، وقال لأصحابه: «كُلُوا» ولم يأكل، فقلت في نفسي: هذه خَلَّةٌ مما وصف لي صاحبي، ثم رجعت، وتحوّل رسولُ الله ﷺ إلى المدينة فجمعت شيئاً كان عندي ثم جئت به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هديةٌ

وكرامةٌ ليست بالصدقة، فأكل رسولُ الله ﷺ وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلَّتانِ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعليه شَمْلَتَانِ وهو في أصحابه فاسْتَدَرْتُ لأنظرَ إلى الخاتم في ظهره، فلما رآني رسول الله ﷺ استدرتُه عرف أني أَسْتَثْبِتُ شيئاً قد وُصِفَ لي، فوضع رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم بين كتفيه كما وصف لي صاحبي، فأكببتُ عليه أُقَبِّلُه وأبْكِي، فقال: تحوّل يا سلمان هكذا، فتحوَّلْتُ، فجلستُ بين يديه وأَحَبَّ أن يُسْمِعَ أصحابه حديثي عنه، فحدَّثْتُه فلما فرغت قال: كاتِبْ يا سلمان، فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحْيِيهَا، وأربعين أُوقية، وأعانني أصحاب رسول الله ﷺ بالنخل ثلاثين ودِيَّةً وعشرين وديَّة وعَشْرٍ، كل رجل منهم على قدر ما عنده، فقال لي رسول الله ﷺ: **«فَقِرْها فإذا فرغت فآذنّي حتى أكون أنا الذي أضعها بيدي»**، ففقَّرْتُها وأعانني أصحابي، يقول: حفرت لها حيث توضع حتى فرغنا منها، فجاء رسول الله ﷺ، فكنّا نحمل إليه الودى ويضعه ويسوي عليها، فوالذي بعثه بالحقّ ما ماتت منها ودية واحدة، وبقيت عليَّ الدراهم فأتاه رجل من بعض المعادن بمثل بيضة من الذهب، فقال رسول الله ﷺ: **«أين الفارسي المسلم المكاتب»**؟ فدُعِيتُ له، فقال: **«خذ هذه يا سلمان فأدِّها مما عليك»**، فقلت: يا رسول الله وأين تقع هذه مما عليّ؟ قال: **«فإن الله سيؤدّي بها عنك»**، فوالذي نفس سلمان بيده لوَزَنْتُ لهم منها أربعين أُوقيّة فأدّيتها إليهم وبقي عنده مثل ما أعطيتهم، وعُتِقَ سلمان، وكان الرِّقُّ قد حَبَسَني حتى فاتَني مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُدٌ، ثم عتقت، فشهدت الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد...

رواه ابن إسحاق في السيرة ومن طريقه أحمد (٤٤١/٥، ٤٤٤)، وابن سعد في الطبقات (٧٥/٤، ٨٠)، والبيهقي (٩٢/٢، ٩٧)، وأبو نعيم (١٩٩) كلاهما في الدلائل، والخطيب في التاريخ (١٦٤/١، ١٦٩)، والطبراني في الكبير رقم (٦٠٦٥) وسنده صحيح على شرط مسلم، وابن إسحاق صرَّح بالتحديث ولذا قوّاه ابن كثير في السيرة، وللحديث طرق وروايات هو بها صحيح، وقد أورده النور في المجمع (٣٣٦/٩، ٣٣٧) برواية أحمد وكبير الطبراني بأسانيد، وقال: إسناد الرواية الأُولى عند أحمد والطبراني رجالها

رجال الصحيح غير عمرو ابن أبي قرّة الكندي وهو ثقة، ثم ذكره مختصراً برواية أحمد والبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح.

«دهقان» بضم الدال وكسرها كلمة فارسية ومعناها الرئيس. «قَطَن النار» أي: خادمها والقيّم عليها وهو بَفتح القاف وكسر الطّاء وفتحها. «ضيعة» بفتح الضاد وسكون الياء بعدها عين مهملة مفتوحة، هي العقار والأراضي المُغِلّة، وتُطلق على صناعة الرجل وحرفته. «فآذِنُوني» أي: اعلموني. «الأُسْقُفّ» بضم الهمزة وسكون السين بعده قاف مضمومة ثم فاء مشدّدة هو الرئيس الديني عند النصارى فوق القسيس. «فلم يلبث» أي: لم ينشب كما في رواية ولم يمكث. «ويرغبكم» الترغيب في الشيء التحبيب فيه والحضّ عليه. «قلال» بكسر القاف جمع قلّة وهي الجرة الكبيرة. «وورق» بكسر الراء الفضة. «فصلبوه» أي: أقاموه مربوطاً على خشبة. «بالموصل» بلدة بالعراق، ومنها كان خليل الرحمٰن عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام. «نصيبين» بفتح النون وكسر الصاد بعدها ياء ثم باء مكسورة؛ بلدة من بلاد الجزيرة بينها وبين الموصل نحو ٣٠٠ كيلو ومنها كان الجنّ الذين استمعوا إلى قراءة النبيّ ﷺ وهو ببطن نخلة يصلّي الصبح بأصحابه كما يأتي في محلّه. «أذأب» أي: أتعب وأشدّ عبادة. «أظلّك» أي: دنا وقرب منك وقته. «حرتين» تثنية حرّة وهي الحجارة السود والمدينة المنوّرة كانت تكتنفها حرّتان شرقية وغربيّة، وقد بنيت عليهما العمارات الآن. «سبخة» بفتح السين وكسر الباء الأرض ذات الملح. «خاتم النبوّة» هو غُدَّةُ لحم كانت بين كتفيه مثل بيض الحمامة أو الحجلة عليها شعرات وتآليل. «تخلص» بضم اللام أي: تصل إليها. «وارايناه» أي: دفنّاه وسترناه بالتراب. «وادي القرى» موضع بين تبوك وخيبر كان يسكنه في القديم اليهود. «فابْتَاعَنِي» أي: اشتراني. «في رقّي» أي: في عبوديتي مملوكاً. «قباء» بضم القاف هي قرية بني عمرو بن عوف منزل رسول الله ﷺ الأول عند قدومه في هجرته وبها مسجده العظيم التاريخي الذي أسّس على التقوى من أول يوم. «بني قيلة» بفتح القاف وسكون الياء هم الأنصار من الأوْس والخزرج، وقيلة كانت أُمّهم الأولى. «فلكمني» أي: ضربني بكفّه مجموعة. «امرأة من

أهل بلادي» يعني: من أصبهان الإيرانية إذ كان سلمان رضي الله تعالى عنه من هنالك. «خلّة» أي: خصلة وهي بفتح الخاء. «شملتان» تثنية شملة وهي كساء كان العرب يلتحفون به. «فأكببت عليه» أي: أقبلت عليه والتزمته. «أقبّله وأبكي» يعني: شوقاً ومحبة وفرحاً حيث بلغه الله تعالى مرادهُ بعد بلايا وشدائد مرّت عليه. «كاتب» بمعناه اطلب من سيّدك اليهودي الكتابة واشترِ نفسك منه لتنقلب حُرّاً. «ودية» بفتح الواو وكسر الدال المهملة ثم ياء مشدّدة مفتوحة هي واحدة الودي وهي صغار النخل ونقلتها. «فَقِّرْها» أي: احفر لها مواضعها.

* * *

فوائد هذه الأحاديث

وفي هذه القصص الثلاث: قصة اليهودي الأشهلي، وقصة زيد بن سُعْنة، وقصة سلمان الفارسي عِبَر وفوائد نجملها في الآتي:

ففي جملتها: أن اليهود والنصارى كان لهم علم بالنبيّ ﷺ وخاصّة علماءهم ورهبانهم حسبما كانوا يعرفونه من صفاته ﷺ والبشارة به، والأمر بالإيمان به واتّبَاعه مما كان عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا أمرٌ واضح بحمد الله تعالى.

ومنها: أن اليهود من يوم كانوا وهم يجحدون الحقّ ويخالفونه مع معرفتهم إيّاه بغياً وحسداً منهم، فذلك اليهودي الأشهلي مع إيمانه بالله واليوم الآخر... ومعرفته بخروج النبيّ ﷺ من ناحية مكّة لما عرفه من التوراة كفر به وجحده عندما بعث وظهر فأضلّه الله تعالى على علمه، وفرق كبير بينه وبين زيد بن سُعْنَة اليهودي هو الآخر الذي أشهر إسلامه والإيمان بالنبيّ ﷺ بمجرّد تحقّقه بوجود الصّفات التي عرفها في النبيّ ﷺ مما علمها عنه في التوراة، فكان ممن أراد الله به خيراً وأعطاه الله الأجر مرّتين كعبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه وغيره ممن آمَنَ مِنَ اليهود.

ومنها: وهي في قصة سلمان رضي الله تعالى أن من سبقت له السعادة لا تضرّه الجناية، فلقد كان قطن النار التي كانوا يعبدونها ووالده رئيس قومه المجوس، ولما أراد الله به خيراً لما سبق له في الأزل أنقذه الله تعالى من المجوسيّة إلى دين الله الحقّ.

ومنها: أن دين النصارى كان منتشراً قبل بعثة النبيّ ﷺ حتى في بلاد فارس ولا ندري كيف كانت ديانتهم، والظاهر أنهم كانوا ضالّين عن دين عيسى عليه السلام بدليل ما يأتي عن أولئك القساوسة.

ومنها: أن دين النصرانية كانت قاعدته بالشام، والشام تشمل فلسطين والأردن وسوريا ولبنان؛ فهذه البلاد كلها يُطلق عليها الشام ولم تزل مواطن للنصارى بمدنها وقراها إلى الآن لكنهم ضلّوا وأضلّوا...

ومنها: أن دين عيسى الصحيح كان قد تغرّب بدليل القساوسة الذين صحبهم سلمان، فإنهم كانوا غرباء وكان الأخير منهم هو خاتمهم، ولذلك أوصى سلمان بالذهاب إلى بلاد العرب حيث سيبعث منها نبيّ في القريب العاجل، فلو كان أحد ممن يقتدى به من النصارى موجوداً وقته لأرشده إليه ودلّه عليه، ولكنه قال له: «والله ما أعلم بقي أحد على مثل ما كنّا عليه آمرك أن تأتيه».

ومنها: معرفة ذلك الأسقف بصفات النبيّ ﷺ ككونه يبعث من مكّة ويهاجر إلى المدينة، وأن بين كتفيه خاتم النبوّة وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة مع معرفته بوقت خروجه، كل ذلك عرفه من الإنجيل الذي تحدّث عنه ﷺ وبشّر به.

ومنها: هداية سلمان لطلب الدِّين الحقّ ومهاجرته والديه وأسرته وبلاده إلى حيث يوجد دين الله، وتجشّمه السفر الطويل من بلاد فارس إلى الشام وهي مسافة طويلة تتطلّب زاداً وأياماً كثيرة، فقطعها وبلغ مراده.

ومنها: فطنته حيث سأل عن أفضل أهل دين النصارى ليتمكّن من أخذه مباشرة عن علمائه الأفاضل.

ومنها: صبره على خدمة أولئك القَسَاوِسَة واحداً تلو الآخر حتى مات آخرهم.

ومنها: تسهيل الله عزّ وجلّ له السبيل إلى الدخول لبلاد العرب حتى وصل إلى المدينة حيث سيسعد بالاجتماع بالحبيب المصطفى ﷺ.

ومنها: وهي من الأهمية بمكان، معاونة النبيّ ﷺ وأصحابه إيّاه، ومساعدته في فكّ رقّه والحصول على حريته وإنقاذه من عبوديته لغير الله تعالى، ولا سيما وقد كان عبداً ليهودي، وما فعله رسول الله ﷺ وأصحابه مع سلمان ينبغي أن يكون نموذجاً للمسلمين في كل العصور؛ لأن الإسلام يأمر بذلك ويحضّ عليه ويرغّب فيه هدانا الله وجميع المسلمين إلى ما فيه رضاه.

* * *

إخبار الكهّان ببعثته ﷺ

[١٣] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ما سمعت عُمَر بشيءٍ قطُّ يقول: إني لأظُنُّه كذا إلاّ كان كما يَظُنُّ، بَيْنَمَا عُمَرُ جالس إذ مَرَّ به رجلٌ جميلٌ، فقال عمر: لقد أخطأ ظنّي، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنَهم، عليَّ الرجل، فدُعِيَ له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم، أستقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلاّ ما أخْبَرْتَنِي، قال: كنت كاهنَهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنّيَتُك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتْني أعرف منها الفَزَعَ، فقالت:

أَلَـمْ تَـرَ الـجِـنّ وإبْـلاَسَـهَـا ... ويَـأْسَـهـا مِنْ بَـعْـدِ إنْـكَـاسِـهَـا
وَلُـحُـوقَـهـا بِـالـقِـلاصِ وأحْـلاَسِـهـا

قال: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قطّ أشدّ صوتاً منه يقول: يا جَلِيحْ أمْرٌ نَجِيحْ، رجلٌ فَصِيحْ يقول: لا إله إلاّ الله، فوثب القوم قلت: لا أبرح حتى

أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح يقول لا إله إلاَّ الله، فقمتَ فما نَشَبْنَا أن قيل: هذا نبيّ.

رواه البخاري في إسلام عمر من مبعث النبيّ ﷺ (١٧٨/٨، ١٨٠)، والبيهقي في الدلائل (٢٤٨/٢) وغيرهما.

[١٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ أولَ خبر قدم علينا عن رسول الله ﷺ أن امرأة كان لها تابع، قال: فأتاها في صورة طَيْرٍ فوقع على جِذْعٍ لهم، قال: فقالت: ألا تنزل فنخبرك وتخبرنا، قال: إنه قد خرج رجل بمكّة حرّم علينا الزّنا ومنع منا القرار.

رواه أحمد (٣٥٦/٣)، وابن سعد في الطبقات (١٨٩/١، ١٩٠)، وسنده حسن.

في الحديثين أن الجنّ كان لهم علم ببعثة النبيّ ﷺ لما كانوا يسمعونه من الملائكة عند استراق السمع، وكانوا يخبرون أصحابهم من الكهنة بذلك، وقد جاء في ذلك أخبار عديدة أضربنا عنها اكتفاء بما ذكرنا.

* * *

مولده ﷺ

[١٥] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن أعرابياً قال: يا رسول الله ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: **«ذاكَ يومٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وأُنْزِلَ عليَّ فيهِ»**.

رواه أحمد (٢٩٧/٥)، ومسلم (٥١/٨، ٥٢)، وأبو داود (٢٤٢٦) كلاهما في الصوم.

[١٦] وعن ابن عباس وجابر رضي الله تعالى عنهم أنّهما قالا: وُلِد رسولُ الله ﷺ عامَ الفيل يومَ الاثنين الثاني عَشر من شهر ربيع الأول، وفيه بُعِث، وفيه عُرِجَ به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

رواه ابن أبي شيبة في المصنّف، والحاكم (٦٠٣/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، لكن الحاكم اقتصر على عام الفيل وولادته يوم الاثنين.

[١٧] وعن قيس بن مَخْرَمة رضي الله تعالى عنه قال: وُلِدْتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل فنحن لِدَانِ، وُلِدْنا مَوْلداً واحداً. قال: وسأل عثمانُ بنُ عفّان رضي الله تعالى عنه قَباثَ بن أشْيَم أخا بَني يَعْمَر بن ليث: أنت أكبر أم رسولُ الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبرُ مِنّي، وأنا أقدَمُ منه في الميلادِ، قال: ورأيتُ خَذَق الطير أخضر مُحِيلاً.

رواه أحمد (٢١٥/٤)، والترمذي في المناقب (٣٣٨٨) بتهذيبي، والحاكم (٦٠٣/٢) من طريق ابن إسحاق (١٠٢/١) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

قوله: «قباث» بفتح القاف والباء. «أشيم» على وزن أحمد. «خَذَق» بفتح المعجمتين ثم قاف هو الرّوث. «محيلاً» بضمّ الميم من الإحالة أي متغيّراً.

وجملة هذه الأحاديث تدلّ على أن النبيّ ﷺ وُلد يوم الاثنين من ربيع الأول عام الفيل، وهذا متفقٌ عليه بين علماء السيرة والمؤرخين والعلماء، وإنما وقع الخلاف في تعيين اليوم، فالجمهور على أنه اليوم الثاني عشر، وعليه يدلّ حديث ابن عباس وجابر، وقيل: الثامن، ورجحه ابن حزم وابن دحية، ونقل ابن عبد البرّ تصحيحه عن المؤرخين، وهو قول للمحدثين وهو الصحيح من جهة الحساب وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.



من فوائد هذه الأحاديث

في هذه الأحاديث فوائد:

منها: قصة الفيل وخلاصتها: أن أبْرَهَة الأشْرَم ملك اليمن كان قد بنى

كنيسة بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها الحجيج فجاء رجل من كنانة وتغوّط فيها ليلاً، ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب أَبْرَهَةُ وحلف أن يُهَدِّمَ الكعبة، وجاء مكة المكرمة بجيش كبير على أفيال يتقدَّمُهم فيلٌ هو أعظم الفِيَلَة، فلما وصل قريباً من مكة فرَّ أهلُها إلى الجبال خوفاً من جنده وجبروته، فلما دخل مكّة وأراد هدم الكعبة بفيله أرسل الله عزّ وجلّ عليهم طيوراً سوداً جاءت من قبل البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر في منقره وحجران في رجليه، فرمتهم الطيور بتلك الحجارة، فكان الحجر يقع على رأس أحدهم فيخرج من دبره فيرمى جثة هامدة حتى أهلكهم الله عن آخرهم، فكان هذا الحادث إرهاصاً للنبي ﷺ ومعجزة مُقدَّمةً له لأنه كان حملاً في بطن أمّه السيدة آمنة العزيزة، وهو بالتالي عبرة للمعتبرين وإلى هذا الحادث العظيم أشار الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [سورة الفيل].

قوله: «في تضليل» أي جعل تعالى مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار، وقوله: «طيراً أبابيل» أي بعث إليهم طيوراً أتتهم جماعات بعضها في إثر بعض ترميهم وتقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجّر كأنّها رَصاصة ثاقبة، فجعلهم كورَق الشجر الذي عصَفَتْ به الريح وأكلَته الدوابُّ، ثم راثته فأهلكهم عن بكرة أبيهم.

وهذه الطيور كانت حقيقة فهي على ظاهرها ولم يقل أحد من المسلمين غيرها، حتى جاء بعض العقلانيين الملحدين الذين لا يقبلون من الدين والقرآن والسنّة إلاّ ما تقبله عقولهم المنكوسة، فأوّلوا الطيور بميكروب ومرض سلّط عليهم... وهذا زيغ وضلال.

ومنها: في قوله: ولد عام الفيل يعنون في العام الذي حصل فيه هجوم أبرهة بفيله العظيم على الكعبة، وكان ميلاده بعد هذا الحادث بخمسين يوماً كما قال الجمهور.

ومنها: عظم حرمة الكعبة عند الله عزّ وجلّ حيث أهلك ذلك الجيش العرمرم الذي أراد انتهاك حرم الله عزّ وجلّ، وأنه تعالى يغار على حرماته وينتقم ممن لا يحترمها فليتّق الله المسلمون وليعظموا حرمات الله تعالى وليعتبروا بهذا الحادث.

ومنها: أن لله جنوداً في هذا الكون يبعثهم على من شاء؛ قد يكونون وحوشاً وحشرات وأفاعي وريحاً ومياهاً وما إلى ذلك من الجنود الإلٰهيّة، ولله جنود السمٰوات والأرض.

ومنها: فضل يوم الاثنين وأن له مزايا هامّة حيث وقع فيه ميلاد النبيّ ﷺ وبدايةُ بعثته ونزول الوحي عليه، ووقوعُ الإسراء به، وحصولُ هجرته وبالتالي موته ﷺ، وهذه مزايا ونِعَم وأحداث هامّة ينبغي أن يكون يومها عيداً وذكرى للمسلمين أسبوعياً يشكرون الله فيه على هذه النِّعم والأحداث الجليلة، ولذلك كان النبيّ ﷺ يصوم هذا اليوم بخصوصه شكراً لله تعالى على ما حصل له فيه، ولذلك قال للسائل عنه: «ذاك يومٌ ولدتُ فيه وأنزل عليّ فيه».

ومنها: أدب قَبَاث بن أَشْيَمَ مع الحضرة النبويّة حيث قال لسائله سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه وقد سأله من أكبر أنت ورسول الله؟ فأجابه: هو أكبر مني، يعني قدراً وأنا أقدم، يعني في الميلاد.

[١٨] وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني عند الله خاتم النبيّين**» فذكر الحديث، وفي آخِرِهِ: «**ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمّهات النبيّين**».

رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم وقد تقدم مطولاً رقم (٧).

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ عند ولادته، فخروج النُّور العظيم من والدته حتى أضاءت له قصور الشام؛ هو آية عظيمة وخارق من الخوارق أجراه الله على ذات والدته مولاتنا آمنة، فهي بالتالي لهذا الخارق امرأة صالحة لأن هذا لا يصدر من الكافر، فهو أهون على الله من ذلك.

* * *

❁ خاتمة

الإجماع على أن النبيّ ﷺ وُلد بمكّة المكرمة من أبويه الكريمين: عبدالله بن عبد المطلب، وكان من أحبّ ولد أبيه إليه، وآمنة بنت وهب الزهرية، زوّجه بها والدُه عبد المطلب وعمره إذ ذاك نحو ثماني عشرة سنة، وكانت آمنة من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولمّا حملت به لم يلبث والده إلاّ قليلاً فتوفي بالمدينة وهو راجع من الشام في تجارة له والنبيّ ﷺ حمل في بطن أمّه من شهرين كما رجحه ابن سعد والواقدي والبلاذري والذهبي وابن كثير، وورد فيه حديث رواه الحاكم وصححه.

ثم يجب أن يعلم أن ما ذكره أصحاب السير والمواليد من أحاديث عند مولده ﷺ؛ كولادته ساجداً مقطوع السرّة مختوناً، وحضور مريم وآسية ولادته، وأن الملائكة أخذته من آمنة وطافت به الأرض تبشّر به، وأن نارَ بلاد فارِس خمَدَتْ بعد إيقادِها ألفَ سنةٍ وارتجاس إيوان كسرى وسقوط شُرُفاتِه إلى غير ذلك من الأخبار، كلّها ساقطة موضوعة أو منكرة أو شديدة الضعف، وليس فيها ما يحسن فضلاً عن التصحيح ولذلك أعرضنا عنها، وأنا أتعجّب كثيراً من أمثال البيهقي وابن كثير وغيرهما من الكبار! حيث ذكروا هذه الموضوعات والواهيات والمناكر في كتبهم، وفي الصحاح والحسان ما يُغني عنها.

❁ ❁ ❁

❁ ذكر رضاعه ﷺ وما حصل له أيامه

[١٩] عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: لما وُلِد رسول الله ﷺ قَدِمَتْ حَليمةُ بنتُ الحارث في نِسْوَةٍ من بني سَعْد بن بَكْر يَلْتَمِسُون الرُّضَعَاء بمكّة، قالت حليمة: فخرجتُ في أوائل النسوة على أتان لي قَمْراء، ومعي زوجي الحارثُ بن عبدالعُزّى أحدُ بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة قد أذَمَّتْ أتانُنا، ومعي بالركب شارِفٌ والله ما تَبِض بقطرة لبن في سنة شهْباء قد جاع الناس حتى خلَص إليهم الجهد، ومعي ابنٌ لي،

والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئاً أُعَلِّلُهُ به، إلاّ أنّا نرجو الغيث، وكانت لنا غنمٌ، فنحن نرجوها، فلما قدمنا مكّة فما بقي منّا أحد إلاّ عُرِضَ عليها رسولُ الله ﷺ فكَرِهَتْهُ فقلنا: إنه يتيم، وإنما يُكْرِمُ الظِّئْرَ ويُحْسِنُ إليها الوالدُ، فقلنا: ما عسى أن تَصنعَ بنا أُمّه، أو عمُّه، أو جدُّه، فكل صواحبي أخذ رضيعاً، فلما لم أجد غيره رجعتُ إليه وأخذتُه، والله ما أخذتُه إلاّ أني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لآخذنّ هذا اليتيم من بني عبدالمطّلب فعسى الله أن ينفعَنَا به، ولا أرجعُ من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبتِ، قالت: فأخذتُه فأتيت به الرَّحْلَ، فوالله ما هو إلاّ أن أتيتُ به الرَّحْلَ فأمسيتُ أقبَل ثَدْيايَ باللَّبَنِ، حتى أرْوَيْتُه وأرْوَيْتُ أخاه، وقام أبوه إلى شارِفِنا تلك يَلْمَسُها فإذا هي حافِلٌ، فحلبَها فأرواني وروى، فقال: يا حليمة تَعْلَمِين والله لقد أصَبْنا نسمَةً مباركةً، ولقد أعطى الله تعالى علينا ما لم نَتَمَنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شِباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبيّنا، ثم اغْتَدَيْنا راجعين إلى بلادِنا أنا وصاحبي، فركبتُ أتانِي القَمْراء، فحملتُه معي، فوالذي نفسُ حليمةَ بيده لقطعتُ الركبَ حتى إن النّسوة ليَقُلْن: امْسِكِي علينا، أهذه أتانُك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدَمَّت حين أقبلنا فما شأنُها؟ قالت: فقلت: والله حملت عليها غلاماً مباركاً، قالت: فخرجنا فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيراً، حتى قدمنا والبلاد سنةٌ، ولقد كان رُعَاتُنا يَسْرَحُون ثم يُرِيحُون، فترُوح أغنامُ بَني سعد جِياعاً، وتروحُ غَنَمِي شِباعاً، بِطاناً، حفلاً، فنَحْتَلِبُ، ونشرَب، فيقولون: ما شأن غنمِ الحارث بن عبدالعُزى، وغنم حليمة ترُوح شباعاً حفلاً، وتروح غنمكمَ جياعاً؟ ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً كما كانت وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يَشِبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبّ في اليوم شباب الغلام في الشهر، ويشبّ في الشهر شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقْدَمْناه مكّة أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع، فلما أتينا أمّه قلنا: أي ظِئْر والله ما رأينا صبياً قطّ أعظمَ بركةً منه، وإنّا نتخوّف عليه وباء مكّة وأسقامها فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى

أذنت، فرجعنا به فأقمنا أشهراً ثلاثة أو أربعة، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بهم له، إذ أتى أخوه يشتدُّ وأنا وأبوه في البُدْن، فقال: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض فأخذاه وأضجعاه فشقّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتدّ، فوجدناه قائماً قد انتقع لونه فلما رآنا أجهش إلينا وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه فضممناه إلينا، فقلنا: ما لك بأبي أنت؟ فقال: أتاني رجلان فأضجعاني فشقّا بطني، وصنعا بي شيئاً ثم ردّاه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلاّ وقد أصيب، الحقي بأهله فردّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أُمّه، فلما رأتنا أنكرت شأننا وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكُمَاه وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلاّ أن قد قضى الله الرضاعة وسرنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحب إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره إني حملت به فوالله ما حملت حملاً قطّ كان أخفّ عليّ منه، ولا أيسر منه، ثم أُريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصرى، أو قالت: قصور بصرى، ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما فقبضَتْه وانطلقنا. . .

رواه ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (١/١٨٧، ١٩٠)، وابن سعد في الطبقات (١/١١١، ١١٢)، وابن حبان (٢٠٩٤) بالموارد، وأبو يعلى رقم (٧١٢٧)، والطبراني في الكبير (٢٤/٢١٢، ٢١٥)، والبيهقي في الدلائل (١/١٣٣، ١٣٦)، وللحديث طرق وشواهد يحسن أو يصحح بها، وقد أورده النور في المجمع (٨/٢٢٧) برواية أبي يعلى والطبراني، وقال: ورجالهما ثقات، وقال الذهبي في السيرة: هذا حديث جيّد الإسناد. وقال ابن كثير في البداية: وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السِّيَر والمغازي.

[٣٠] وعن عُتْبَةَ بن عَبْدٍ السُّلَمِيّ رضي الله تعالى عنه أنه حدَّثهم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال له رجل: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «**كانت حاضِنَتِي من بني سعد بن بكر،**

فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فأتِنا بزادٍ من عند أُمّنا فانطلق أخي ومكثتُ عند البهم فأقبل طائِران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال الآخر: نعم، فأقبلا يَبْتَدِرَانِي، فأخذاني فبطَحاني إلى القفا، فشقَّا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقَّاه فأخرجا منه عَلَقَتَيْنِ سوداوَيْنِ، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثَلْج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرَّاها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْهُ فخاطه وختم عليه بخاتم النبوّة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفَّةٍ واجعل ألفاً من أُمّته في كفَّةٍ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أُشْفِقُ أن يَخِرَّ عليَّ بعضُهم، فقال: لو أن أُمّته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني وفَرِقْتُ فَرَقاً شديداً، ثم انطلقتُ إلى أُمّي فأخبرتُها بالذي لقيتُه فأشفقتْ عليَّ أن يكون أُلْبِسَ بي، قالت: أُعِيذُك بالله، فرحَلتْ بعيراً لها فجعلتْنِي أو فحَمَلَتْني على الرحل وركبتْ خَلْفِي حتى بلغنا إلى أُمّي فقالت: أدّيتُ أمانتي وذمّتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يَرُعْها ذلك، فقالت لي: رأيتُ خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

رواه أحمد (١٨٤/٤، ١٨٥)، والدارمي (١٣)، والطبراني في الكبير (١٣١/١٧)، والحاكم (٦١٦/٢، ٦١٧) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأورده النور (٢٢٢/٨) وقال: إسناد أحمد حسن، وبقية بن الوليد صرَّح بالتحديث وشيخه ثقة شامي بلديه.

[٢١] ونحوه عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: أخبرنا عن نفسك، قال: **«نعم، أنا دعوة إبراهيم»** فذكر الحديث وفيه: **«واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينا أنا في بَهْم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طَسْتٌ من ذهب مملوء ثلجاً فأضْجعاني فشقَّا قلبي وبَطْنِي وغسَلاه بذلك الثلج حتى إذا أنقياه ردّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرة من أُمّته، فوزنني فوزنتهم، ثم قال: زِنْه بمائة من أُمّته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زِنْهُ بألف من أُمّته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأُمّته لوزنهم».**

رواه ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (١٩١/١)، والحاكم (٦٠٠/٢)، والبيهقي في الدلائل (١٤٦/١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ونحوه عن أبي ذرّ، رواه الدارمي رقم (١٤) بسند حسن في الشواهد.

[٢٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشقّ عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقةً سوداء، فقال: **«هذا حظّ الشيطان»**، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَهُ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه يعني ظئره، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللونِ. قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المَخِيط في صَدْرِه.

رواه أحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٢٨)، ومسلم في الإسراء من كتاب الإيمان (٢١٦/٢، ٢١٧)، والحاكم (١١٦/٢، ١١٧)، والبيهقي في الدلائل (٧/٢، ٨).

ذكر غريب هذه الأحاديث:

«الأتان» أُنثى الحمير. «قمراء» أي شديدة البياض. «أذَمَّت» بالذال المعجمة وتشديد الميم أي أبطأتْ حتى حَبَسَتْهُم. «شارف» ناقة مُسِنَّةٌ. «ما تَبِضُّ» بضّ الماء يبض بكسر الباء إذا سال وقطر. «شهباء» أي سنة ذات قحط وجدب. «أُعَلِّلُهُ» أي ما أجد شيئاً أُسكته به. «الظّئر» هي المُرْضِعَةُ وَلَدَ غَيْرِها. «حافِلٌ» أي: ضرعها مليء لبناً. «حاضنتي» الحاضنة هي المربية القائمة بشؤون الأطفال. «بهم لنا» بفتح الباء وسكون الهاء ولد الضأن والمعز. «وفرقت» بكسر الراء أي: خفت. «واسترضعت» أي: طلب لي الإرضاع أو المرضعة في قبيلة بني سعد. «ثم لأمه» بفتحات أي ضمّ اللحم إلى بعضه وسدّه. «منتقع اللون» أي متغيّر أصفر.

في جملة هذه الأحاديث فوائد وفضائل وآيات:

منها: أن العرب كانت عادتهم أن يسترضعوا أولادهم في البادية لمنافع ترجع إلى تربية الأولاد وعقليتهم وقوتهم وفصاحتهم.

ومنها: أن رضاع النبيّ ﷺ كان في بني سعد، وكانت مرضعته

حليمة السعدية التي حَظِيَتْ بأخذه وإرضاعه وإغداق الخير والبركة عليها وعلى أهلها وبقي عندها حتى حصل له حادثُ شَقِّ صدره، وكان عمره أكثر من سنتين فأرجعته إلى أُمّه آمنة. وهذا الرضاع عند حليمة لا خلاف فيه بين المسلمين، فهو إجماع من أهل السِّيَر والحديث والتاريخ.

علماً بأنه كان له مرضعات أُخر فقد أرْضَعَتْه ثُوَيْبَةُ جارية أبي لهب، أرضعته قبل حليمة كما أرضعت معه حمزة عمّه، وأبا سلمة، وعبدالله بن جحش فكان هؤلاء الثلاثة إخوة له ﷺ من الرّضاعة، وأرضعته أيضاً أم أيْمَنَ بَرَكَة الحبشية الفاضلة الصالحة كان ﷺ ورثها من أبيه وزوجها من حبّه زيد بن حارثة، فولدت له أُسامة رضي الله تعالى عنهم وستأتي في المناقب؛ فهؤلاء المرضعات كلهن تشرفن بإرضاع هذا النبيّ الكريم وحظين بفضل عظيم ومزية لا يستهان بها، فكُنَّ بذلك من فاضلات النساء.

ولم يكن لِيُدْخِلَ الله عزّ وجلّ في جوف نبيّه العظيم ﷺ إلاّ لبن النساء المختارات... وأصبحن أُمّهات له عليه الصلاة والسلام، وقد كان باراً بهنّ يسأل عنهنّ ويتَفَقَّدُهُنَّ ويُكْرِمُهُنَّ ويُرسل إليهنّ الهدايا وبالأخصّ أمّ أيمن حتى كان يتنازل معها ويصبر على رفع صوتها عليه وتعامله معاملةَ الأمّ لولدها، وستأتي قصة لها معه في الغزوات إن شاء الله تعالى في ذلك.

ومنها: وقوع ذلك الحادث العظيم والمعجزة الكبرى والخصيصة التي خصّه الله تعالى بها، وهو شقّ صدره الشريف واستخراج حظّ الشيطان منه وغسله بماء زمزم، فإن مثل هذا لم يقع لنبيّ قبله ﷺ، وهذا الشقّ قد تكرّر له غير ما مرّة كما سيأتي في الإسراء إن شاء الله تعالى.

ومنها: أن هذا الشقّ واستخراج القلب واستخراج حظّ الشيطان منه وإرجاعه كما كان؛ كل ذلك على الحقيقة وليس مجازاً وتمثيلاً كما يقال، فإن التأويل يخالف ظواهر النصوص الصحيحة الصريحة فلا يَرُدُّها إلاّ ضعيفُ الإيمان عَقْلاَنِي التَّفْكِير يؤمن بما يقبلُه عقله وينكرُ ما سوى ذلك من الخوارق والآيات، وفي هذه الأحاديث غير ذلك من الفضائل والمزايا.

***

❋ وفاة أُمّه آمنة بنت وهب وكفالة جده ﷺ وموته وكفالة عمّه أبي طالب

أجمعَ أهل السير على أن النبيّ ﷺ لما رُدَّ من بني سعد إلى أُمّه آمنة بقي عندها في كفالتها وحضانتها، وما أن بلغ ست سنين حتى توفيت ثم كفله جدّه عبد المطلب، وما أن تحوّل إلى كفالته حتى فوجىء ﷺ بوفاته وقد تمّ له عليه الصلاة والسلام ثمان سنوات، ثم كفله عمّه أبو طالب حتى شبّ. . . فهذا القدر لا خلاف فيه بين أهل السِّيَر إلاَّ في سنّه ﷺ عند موت أمّه وجدّه.

غير أنني بعد البحث الشديد لم أجد لهذه الجمل أثراً ثابت السند، غير حديث كنذير بن سعيد في احتباسه ﷺ عن جدّه في طلبه الإبل، وإنما هي معضلات ومراسل، وإلى القارىء أشهر ما ورد في ذلك:

[٢٣] قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع أمّه آمنة بنت وهب، وجدّه عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله تعالى وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أُمّه آمنة بنت وهب. قال ابن إسحاق: حدّثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أمّ رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ستّ سنين بالأبواء بين مكّة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تُزِيرُه إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكّة.

رواه ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (١/١٩٣) ومن طريقه البيهقي في الدلائل (١/١٨٨) وهو مرسل حسن.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبدالمطلب، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْرٌ حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن

له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويَسُرُّه ما يراه يصنع. انظر: سيرة ابن هشام (١/١٩٤)، وسيرة ابن كثير (١/٢٣٩، ٢٤٠).

[٢٤] قال ابن إسحاق: وحدّثني العباس بن عبد الله بن معبد بن عباس عن بعض أهله أن عبد المطلب توفي ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين.

ابن هشام (١/١٩٤).

[٢٥] وعن كِنْدِير بن سعيدٍ عن أبيه قال: حججتُ في الجاهلية فإذا رجل يطوف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رَبِّ رُدَّ رَاكِبِي مُحَمَّداً   رُدَّهُ لي واصْطَنِعْ عِنْدِي يَدا

قلت: من هذا يعني؟ قال: عبد المطلب بن هاشم ذهبَتْ إبل له فأرسل ابن ابنه في طَلَبَتِها، فاحْتُبِسَ عليه، ولم يُرْسِلْه في حاجة قطّ إلاَّ جاء بها، قال: فما بَرِحْتُ حتى جاء النبيّ ﷺ وجاء بالإبل، فقال: يا بني لقد حَزِنْتُ عليك كالمرأة حُزناً لا يُفارقُني أبداً.

رواه ابن سعد (١/١١٢)، والطبراني في الكبير والحاكم (٢/٦٠٣، ٦٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢٠، ٢١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وعزاه النور في المجمع (٨/٢٢٤) لأبي يعلى والطبراني وحسّنه.

[٢٦] وأخرج ابن سعد (ح ١/١١٦) من طريق الواقدي عن جماعة دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب فلما بلغ ستّ سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به، ومعه أمّ أيمن تحضنه وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة، فأقامت به عندهم شهراً، فكان رسول الله ﷺ يذكر أُموراً كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أُطُم بني عَدِيّ بن النجار عرفه وقال: كنت ألاعِبُ أُنَيْسَة جارية من الأنصار على هذا الأُطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نُطَيِّرُ طائراً كان يقع عليه، ونظر إلى الدار فقال: هٰهنا نزلتْ بي أُمّي، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب، وأحسنتُ العومَ في بئر بني عَدِي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون

إليه، فقالت أمّ أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبيّ هذه الأمّة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كلّه من كلامه، ثم رجعت به أمّه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللّذين قدموا عليهما مكّة، وكانت تحضنه مع أمّه ثم بعد أن ماتت، فلما مرّ رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية بالأبواء، قال: «إن الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمّه»، فأتاه رسول الله ﷺ فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، فقيل له، فقال: «أدركتني رحمتها فبكيت».

[٢٧] وأخرج أيضاً (١١٧/١، ١١٨) من طرق عن جماعة قالوا: كان رسول الله ﷺ يكون معه أمّه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جدّه عبدُ المطّلب وضمّه ورقّ عليه رِقّةً لم يرقّها على ولده، وكان يقرّبه منه ويُدْنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً إلخ...

وأخرج (١١٩/١) عن الواقدي أيضاً من طرق، قالوا: لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ إليه، فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبّه حباً شديداً لا يحبّه ولده، وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه ويخرج فيخرج معه، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، إلخ...

فهذه الأخبار وأمثالها وإن لم تصح سنداً على طريقة المحدثين، فمؤدّاها صحيح متفقٌ عليه بين علماء السيرة.

والذي نستخلصه من هذه الأخبار وما أجمع عليه أهل السيرة؛ هو أن النبيّ ﷺ تربّى ونشأ يتيماً، فَقَدَ أباه وهو لا يزال حِمْلاً في بطن أُمّه، ثم فقد أُمّه وهو في سِنّه السادسة وأصبح بلا أبٍ ولا أمٍّ، فعطف الله تعالى عليه جدّه عبد المطلب فضمّه وآواه وجعله كأحد أولاده، ثم لما فقده أيضاً وهو لا يزال في سِنّه الثامنة أخذه عمّه أبو طالب وكان به رحيماً وعليه عطوفاً وفي بيته ورحابه شبَّ وقضى آخر طُفُولتِه وصَبْوَتِهِ وأوائل شبابه، وهو

الذي كان يدافع ويكافح عنه أيام دعوته الأُولى وبقي متّصلاً به موالياً له إلى أن توفي، وللنبيّ ﷺ أكثر من خمسين سنة، هذا مما لا نعلم فيه خلافاً.

* * *

❋ نشاته على مجانبة أمور الجاهلية وحفظه من آفات الشباب

[٢٨] عن جارٍ لخديجة رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول لخديجة: «**أي خديجة والله لا أعْبد اللات أبداً، والله لا أعْبُد العُزّى أبداً**».

رواه أحمد (٤/٢٢٢) و(٥/٣٦٢) بسند صحيح.

[٢٩] وعن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف أو نائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررتُ مَسَحْتُ به، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَمَسَّه**»، قال زيد: فطفنا به، ثم قلت في نفسي: لأَمَسَّهُ حتى أنظر ما يكون، فمسَحْتُه فقال رسول الله ﷺ: «**ألم تُنَهَ؟**» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنماً حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

رواه أبو نعيم والبيهقي (٢/٣٤) كلاهما في الدلائل وصححه الحاكم وعزاه النور في المجمع (٨/٢٢٦) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

[٣٠] وعن عليّ عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما همَمْتُ بشيء مما كان أهلُ الجاهلية يَهُمُّون به من النّساء إلا ليلتين كلتاهما عَصَمَني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فِتْيان مكة ونحن في رِعاية غنم أهلِنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخلَ مكة فأسْمُرَ بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عَزفاً بالغرابيل والمزامير، قلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة، فجلست**

أنظر وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكّة، ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء، ثم أخبرتُهُ الخبر، فوالله ما هَمَمْتُ ولا عُذت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوّته».

رواه ابن إسحاق والبزار (٢٤٠٣)، وابن حبان (٥٦/٨)، والحاكم (٢٢٥/٤)، وأبو نعيم (١٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣٤/٢، ٣٥) بسند حسن، وأورده النور (٢٢٦/٨) برواية البزار وقال: رجاله ثقات، وحسّنه الحافظ وصححه السيوطي في مناهل الصفا، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[٣١] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما بُنِيَتْ الكعبةُ ذهبَ رسول الله ﷺ والعباس يَنْقُلانِ الحجارة، فقال العباس للنبيّ ﷺ: اجْعَلْ إزارَك على عاتِقك يَقِيك مِن الحجارة، ففعل فخرَّ إلى الأرض وطَمَحَتْ عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: **إزاري**»، فشدّ عليه إزاره فما رُؤِي بعد ذلك عُرْياناً.

رواه أحمد (٢٩٥/٣، ٣٨٠)، والبخاري في الحج وفي المناقب (١٤٦/٨)، ومسلم في الطهارة (٣٣/٤، ٣٤).

اللات والعُزّى: صنمان كانا لقريش؛ اللات أخذوه من الله، والعزّى من العزة تعالى الله تعالى عن شركياتهم ووثنياتهم علوّاً كبيراً.

إساف ونائلة: قد قدّمنا في خبر خزاعة أنهما كانا رجلاً وامرأة ففجرا وزنيا في الكعبة فمسخا حجرين فوضعهما الناس عند الكعبة للاعتبار بهما، فلما طال الأمد عُبدا من دون الله تعالى. قوله: «ما هممت» الهمّ بالشيء؛ إرادته ويُطلق على العزم عليه، وعلى مجرّد حديث النفس به كما هنا وكما وقع من الكريم يوسف عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ . . . «فخر

إلى الأرض» أي: سقط. «وطمحت عيناه» بفتحات أي: ارتفعت.

وفي هذه الأحاديث بيان عناية الله تعالى بنبيّه ﷺ وما أكرمه به من العصمة والحفظ منذ صغره من القبائح وأخلاق الجاهلية وشركياتها وفجورها وانحرافها وسقطاتها.

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فشبّ رسول الله ﷺ ويكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقاً، وأكرمَهم حَسَباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزّهاً وتكرّماً، حتى ما اسْمُه في قومه إلاّ الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

ويؤخذ من حديثي جار خديجة، وزيد بن حارثة أنه ﷺ كان منزّهاً عن عبادة الأصنام والتمسّح بها، بعيداً عنها، فما جاء في بعض الأخبار بأنه كان يحضر مشاهد المشركين ويستلم أصنامهم كما رواه أبو يعلى وابن عدي وغيرهما هو منكر أنكره العلماء على عثمان بن أبي شيبة كما قال الحافظ في المطالب العالية، بل هو ﷺ كباقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مُنَزَّهون ومعصومون من مطلق الآثام كبيرها وصغيرها قبل النبوّة وبعدها، كما هو قول المحقّقين من أهل السنّة، فكيف بالشركيات... كمايؤخذ من حديث عليّ عليه السلام والرّضا من الله أنه ﷺ كان قد حفظه الله عزّ وجلّ من انحرافات الشباب، فإنه كما يحكي عن نفسه رغم أنه أراد السمر مع شباب مكّة وعزم على ذلك مرّتين، فإن الله تعالى صرفه عن ذلك وحالَ بينه وبين ما أراد بالنوم حتى طلعت الشمس ثم عُصِم عن إرادة ذلك نهائياً، فلم يعد يحدّث نفسه بذلك.

وفي حديث جابر عناية أخرى برسول الله ﷺ؛ وهي حفظ عورته من التكشّف خلاف ما كان عليه أهل الجاهلية من كشف عوراتهم وعدم اهتمامهم بسترها.

فقد قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يحدّث عما

كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليّته أنه قال: **«لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لَكَمَنِي لاَكِمٌ ما أراه لَكْمَةً وجيعة، ثم قال: شدّ عليك إزارك...»** ولا شكّ أن ستر العورات من محاسن الأخلاق الواجبة في الإسلام، وقد جاء في الصحيح: **«لا تمشوا عراة»**، بل في القرآن: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ الآية.

* * *

رعيه الغنم في صغره ﷺ

[٣٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: **«ما بَعَثَ الله نبيّاً إلا رعَى الغنم»**، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: **«نعم، كنتُ أرْعَاهَا على قَرَارِيطَ لأهل مكّة»**.

رواه البخاري في الإجارة (٣٤٨/٥)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٩)، وابن سعد في الطبقات (١٤٥/١).

[٣٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ نَجْتَنِي الكَبَاثَ، فقال: **«عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبُه»**، قال: قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: **«نعم، وهل من نبيّ إلا قد رعاها»**.

رواه البخاري في الأنبياء وفي الأطعمة (٥٠٩/١١)، ومسلم كذلك (٥/١٤، ٦) وغيرهما.

«القراريط» جمع قيراط وهو جزء من الدينار أو الدرهم، وقوله: «الكباث» بفتح الكاف وفتح الباء المخفّفة وهو ثمر الأراك وقد تقدم بيانه في الأطعمة.

وفي الحديثين دليل على أن كل الأنبياء كانوا يرعون الأغنام لما في ذلك من الحكم الإلٰهية. قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي

الغنم قبل النبوّة أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما يُكَلّفُونَه من القيام بأمرِ أُمَمِهِم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرّقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوّها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحمّلهم لمشقّة ذلك أسهل مما لو كلّفوا القيام بذلك من أوّل وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرّقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة... ذكره الحافظ في الفتح.

وفي قوله: «على قراريط» هو يدلّ على أنه كان يأخذ الأجر على رعايته لتلك الأغنام ولا غضاضة في ذلك كما لا غضاضة في رعيه الغنم، فلا يحط ذلك من عظيم منزلته وقدره ﷺ، فإن مثل هذا العمل كسب وكل الناس مطالبون باكتساب العيش، وذلك من الأعراض البشرية التي يستوي فيها الأنبياء وغيرهم.

* * *

❁ سفره ﷺ مع عمّه أبي طالب إلى الشام وقصة بَحِيرًا الراهب

[٣٤] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبيّ ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشْرَفُوا على الراهب هَبَط فحَلُّوا رِحالَهم، فخرج إليهم الراهبُ، وكانوا قبل ذلك يَمُرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفتُ، قال: فهم يحملون رِحالَهم فجعل يَتَخَلَّلُهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيّدُ العالمين، هذا رسولُ ربّ العالمين، يَبْعَثُه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما عِلمُك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقَ حجرٌ ولا شَجَرٌ إلاَّ خرّ ساجداً، ولا يَسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوّة أسفل من غُضْرُوفِ

كتفِهِ مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به فكان هو في رعية الإبل، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامةٌ تُظِلُّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيءُ الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فَيْء الشجرة مالَ عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يُناشِدُهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبيّ خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنّا قد أُخْبِرْنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس ردّه؟ قالوا: لا، قال: فبَايَعُوهُ وأقاموا معه. قال: أُنشُدُكم بالله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى ردّه أبو طالب وبعث معه أبا بكر وبلالاً وزوّده الراهبُ من الكَعْكِ والزيت.

رواه ابن أبي شيبة في أول المغازي من مصنّفه رقم (٣٦٥٤١) والترمذي في المناقب (٣٣٨٩) بتهذيبي والحاكم (٦١٥/٢) وأبو نعيم (٥١، ٥٤)، والبيهقي (٣٠٧/١، ٣١٢) كلاهما في الدلائل وصححه الحاكم، وسنده صحيح على شرط البخاري عند الترمذي وله شواهد عند ابن سعد (١٢٠/١، ١٢١)، وعند ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (٢٠٤/١) غير أن فيه ألفاظاً منكرة كذكر أبي بكر وبلال وقدوم الروم لقتله ﷺ، وقولهم إنه خارج في هذا الشهر وغير ذلك، ولذلك أنكره الذهبي وابن كثير وابن سيد الناس وأبطله من عدة وجوه أستاذنا الحافظ سيدي أحمد الصديق رحمه الله تعالى في الجؤنة.

ومع ذلك، فإن ما ذكروه لا ينافي صحة أصل الحديث.

قوله: «يتخلّلهم» أي: يمشي وسطهم. «غُضْرُوف» بضم العين المعجمة ثم ضاد ساكنة هو؛ نُغَض الكتف وهو ما يجيء ويذهب من الكتف عند التحرّك. «فيء الشجرة» أي: ظلها. «يناشدهم» أي يسألهم بالله تعالى.

كان النبيّ ﷺ بحكم يُتْمه وفقدانه والده وأمّه قد ألف عمّه أبا طالب واتّخذه كأب له لما كان يعامله كأحد أولاده، فكان ﷺ لا يصبر على مفارقته، ولما بلغ ﷺ من العمر اثني عشر عاماً عرضت لأبي طالب رحلة تجارية للشام وهي رحلة تَسْتَغْرِقُ أكثر من أربعين يوماً فشقّ على النبيّ ﷺ مفارقة عمّه، فما كان إلا أن صحبه معه في تلك الرحلة الشاقّة الطويلة، وهو لا يزال لم يحتلم بعد، فكانت هذه الرحلة هي أول رحلة يخرج فيها من مكّة المكرمة.

وفي هذه القصة بيان أن أهل الكتاب من النصارى وغيرهم كان لهم علم بالنبيّ ﷺ وصفاته بما كانوا يعرفونه من كتبهم كما تقدم، ولكنهم لما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وفيها تلك المعجزة من تظليل فيء الشجرة إياه وانتقاله إليه ﷺ، كما فيها سجود الحجر والشجر له وهما خلق لله تعالى مسخران ليس لهما حول ولا قوّة إلاَّ بالله تعالى، فسجودهما كان بإذن الله عزّ وجلّ تعظيماً لهذا النبيّ الكريم وإعلاماً لمن شاهد ذلك بأنه سيكون له شأن في مستقبل حياته.

فيا سعادة من آمن به واتّبع دينه، ويا بشرى من أحبّه واقتفى أثره ﷺ حتى الموت.

وفي هذا الحديث أيضاً أنه ﷺ دخل الشام لأول مرة وكانت رحلات العرب التجارية للشام تارة لبُصْرَى ـ بضم الباء ـ وهي قريبة من دمشق، ومرة لغَزَّة وهي بفلسطين، وكلاهما دخلهما النبيّ ﷺ في أسفاره التجارية.

* * *

❁ حضور النبيّ ﷺ حلف الفضول

[٣٥] عن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَيَّبِينَ مع عُمُومَتِي وأنا غلامٌ، فما أُحِبُّ أن لي حُمْرَ النَّعَم، وأني أنكُثُه»**.

رواه أحمد (١/١٩٠، ١٩٣)، وأبو يعلى (٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢)، والبزار (١٩١٤، ٣٣٠٨)، والبيهقي في السنن (٣٦٦/٦) وسنده صحيح وله شواهد، عن أبي هريرة رواه البيهقي في السنن (٣٦٦/٩) وفي الدلائل (٣٨/٢)، وعن طلحة بن عبدالله بن عوف رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في السنن (٣٦٧/٦) وهو مرسل صحيح، وزاد فيه: «ولو دُعيتُ به في الإسلام لأَجَبْتُ».

حلف الفضول؛ هو تحالف وقع بين بطون من أهل مكّة على أن ينصروا المظلوم ويأخذوا على يد المعتدي، ووقع ذلك بدار عبدالله بن جدعان وحضره النبيّ ﷺ مع أعمامه، وله عشرون سنة.

وكان سببه كما ذكره أهل السير أن رجلاً من زبيد قدم مكّة ببضاعة فاشتراها العاص بن وائل، فحبس عنه حقّه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً، وجمحاً، وسهماً، وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه، أي انتهروه، فلما رأى الزبيدي الشرّ، أَوْفَى على أبي قُبَيْسٍ عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته:

يا آلَ فِهْر لِمَظْلُوم بِضاعَتَهُ، بِبَطْن مكّة نائِي الدَّارِ والنَّفَرِ،

ومُحْرِمٍ أشْعَثَ لم يَقْضِ عُمْرَتَهُ، يا للرِّجالِ وبين الحِجْرِ والحَجَر،

إنَّ الحرامَ لمَن تَمَّت كرامَتُه، ولا حرامَ لثَوْبِ الفاجر الغَدِرِ،

فقام الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لِهَذَا مَتْرَكٌ،

فاجتمعت هاشم، وزهرة، وتَيْم بن مرّة في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقّه ما بَلَّ بَحْرٌ صوفة، وما رَسَى ثبيرُ وحراءُ مكانَهما، وعلى التآسي في المعاش.

فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه، فقال الزبير في ذلك:

حلفْتُ لنَعْقِدَنْ حِلْفاً عَلَيْهِمْ وإن كُنَّا جميعاً أهلَ دارِ
نُسَمِّيهِ الفُضُول إذا عَقَدْنَا يَعِزُّ به الغريبُ لِذي الجِوارِ
ويَعلمُ مَن حَوالَي البيت أنَّا أُباةُ الضَّيْمِ نَمْنعُ كلَّ عارِ

وقال:

إنّ الفضولَ تعاقَدُوا وتحالفوا ألاَّ يُقيمَ بِبَطْنِ مكّة ظالِمُ
أمْرٌ عليه تعاقَدُوا وتواثَقُوا فالجار والمُعْتر فيهم سالِمُ

فكان هذا الحلف من أفضل وأحسن ما تعاقدت عليه قبائل قريش وبطونها، وأثنى عليه النبيّ ﷺ وحمد حضوره وتمنّى أن لو دُعِيَ لمثله في الإسلام لأجاب إليه لأنه من محاسن الأخلاق ومكارمها.

* * *

تزوّج رسول الله ﷺ خديجة رضي الله تعالى عنها

[٣٦] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر خديجة رضي الله تعالى عنها، وكان أبوها يَرْغَبُ عنْ أن يُزَوِّجه، فصَنَعَتْ طعاماً وشراباً، فدعَتْ أباها وزُمَراً من قريش، فطعِمُوا وشَرِبوا حتى ثَمِلُوا، فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبدالله يخطبُني فزَوِّجْني إياه، فزوّجها إياه، فخلَّقَتْه، وألْبَسَتْه حُلَّة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سُرِّي عنه سُكْرُه نظر، فإذا هو مُخلَّق، وعليه حلة، فقال: ما شأني؟ ما هذا؟ فقالت: زوّجتني محمد بن عبدالله، قال: أزوّج يتيم أبي طالب، لا لَعَمْرِي، فقالت خديجة: أما تستحي!؟ تريد أن تُسَفِّه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران؟ فلم تزل به حتى رضي.

رواه أحمد (٣١٢/١)، والطبراني في الكبير وعنهما أورده الهيثمي (٢٢٠/٩) وقال: رجالهما رجال الصحيح، وعن جابر بن سمرة نحوه عزاه في المجمع (٢٢٢/٩) للطبراني والبزار بسند صحيح. قال أهل السيرة:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها امرأة حازمة لبيبة أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأجملهنّ صورة وأحسنهنّ جسماً، كل قومها كان حريصاً على التزوّج بها، وكانت ثريّةً ذات مال تاجرةً تستأجر الرجال على مالها مُضاربةً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرَم أخلاقه بعثَتْ إليه، فعرضَتْ عليه أن يَخْرُجَ لها في مال تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجّار مع غلام لها يقال له مَيْسَرةُ، فقَبِلَ رسول الله ﷺ ما عرَضَتْ عليه، فخرج ومعه غلامُها ميسرة حتى نزل الشام، فباع سلعته واشترى ما أراد أن يشتري وجاء بربح عظيم، فلما قدم مكّة على خديجة وقد رأت ما جاء به من الربح وحدَّثها ميسرة ما شاهد منه من الأخلاق الكريمة والخوارق التي رآها في رحلته منه ﷺ بعثَتْ إليه ﷺ أنها راغِبَةٌ في التزوُّج بك لقرابتك ووسطك في قومك وأمانتك وحُسْن خلقك وصدق حديثك، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة فخطبها من أبيها، فتزوّجها عليه الصلاة والسلام وأصدقها عشرين بكرة، وحضر أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب، فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرّية إبراهيم وذرية إسماعيل وضِئْضِي معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه... إلى آخر الخطبة، وكانت أول امرأة تزوّجها ولم يتزوّج عليها غيرها حتى ماتت، وكان عُمرها أربعين سنة، وعمره ﷺ خمساً وعشرين سنة، وظلّت معه حتى توفيت عن خمس وستين سنة، وقد ناهز النبيّ ﷺ الخمسين من عمره، وفي أيامها وحياتها المباركة معه أكرمه الله عزّ وجلّ بالوحي والرسالة.

وأنجبت له كل أولاده، وهم القاسم وبه كان يكنى بعد النبوّة ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، وكان يلقّب بالطيب والطاهر، ومات القاسم بعد أن بلغ ركوب الدابّة ومات عبدالله وهو طفل.

وعاش بناته الأربع وتزوّجن ومات سائرهنّ في حياته رضوان الله عليهنّ إلا فاطمة عليها السلام، فماتت بعده بستّة أشهر.

أما ولده إبراهيم، فكان من مارية القبطية كما يأتي في الغزوات...

ولخديجة رضي الله تعالى عنها فضائل جمّة، فهي من النساء الكاملات اللاتي تحدّث عنهنّ النبيّ ﷺ وبشّرها الله بالجنّة كما يأتي ذلك في مناقبها كبناتها في الفضائل والمناقب إن شاء الله تعالى.

ملحوظة: قد وقع اختلاف في كيفية تزوّجه ﷺ بسيّدتنا خديجة رضي الله تعالى عنها وسببه، كما اختلف فيمن زوّجها هل كان أبوها أم عمّها؟ وعلى أيٍّ فكلّ ذلك غير ضائر. والإجماع على أنه ﷺ تزوّجها وأنها والدة بناته وأولادها، فمن أنكر ذلك لم يكن من المسلمين؛ لأن ذلك معلوم من الدين ضرورة.

❋ ❋ ❋

❋ مشاركة النبيّ ﷺ في بناء الكعبة مع قريش

[٣٧] عن أبي الطفيل رضي الله تعالى عنه قال: كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرضم، وكانت قدر ما يفتحها العناقة، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثيابها عليها ثم تسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها تأدباً، وكانت ذات ركنين كهيئة الحلقة، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريباً من جدة تكسّرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها فأخذوا الخشب أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا وقدموا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب من السفينة بيت ربّنا، فلما أرادوا هدمه، إذا هم بحيّة على سور البيت مثل قطعة الحائر، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد إلى البيت ليهدمه أو يأخذ من حجارته سعَتْ إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عند المقام فعجوا إلى الله تعالى، فقالوا: ربنا لم ترع، أردنا تشريف بيتك، فإن كنت ترضى بذلك، وإلاّ فافعل ما بدا لك، فسمعوا خواراً في السماء، فإذا بطائر أسود الظهر، أبيض البطن والرجلين، أعظم من البشر، فغرز مخاليبه في رأس الحيّة، حتى انطلق بها يجرّ ذنبها أعظم من كذا وكذا ساقطاً، فانطلق نحو أجياد، فهدمتها قريش،

وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً.

فبينما النبيّ ﷺ يحمل حجارة من أجياد، وعليه نمرة، فضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه فترى عورته من صغر النمرة، فنودي: يا محمد خَمِّر عورتك، فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك، وكان يرى بين بناء الكعبة وبين ما أنزل عليه خمس سنين، وبين مخرجه وبنيانها خمس عشرة سنة.

رواه أحمد (٤٥٥/٥) مختصراً، والطبراني مطولاً كما عزاه إلى النور في المجمع (٢٨٩/٣) وقال: رجالهما رجال الصحيح.

[٣٨] وعن عليّ عليه السلام قال: لما أرادوا أن يرفعوا الحجر - يعني قريشاً - اختصموا فيه، فقالوا: يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكّة، وكان رسول الله ﷺ أوّل من خرج عليهم، فجعلوه في مِرْطٍ، ثم رفعه جميعُ القبائل كلّها ورسول الله ﷺ يومئذ رجلٌ شابٌ - يعني قبل البعثة - وفي رواية: لما رأوا النبيّ ﷺ قد دخل قالوا: قد جاء الأمين. وفي رواية: لما انهدم البيت بعد جرهم فبنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا مَنْ يَضعه، إلخ. . .

رواه الطيالسي (٢٣١٦) مع المنحة بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع (٢٢٩/٨) لأوسط الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح. وعمير بن حفص بن عمر الضرير، وخالد بن عرعرة كلاهما ثقة، وله شاهد عن السائب بن عبد الله رواه أحمد (٤٢٥/٣) بسند حسن بنحوه.

قوله مبنية «بالرضم» أي: بالصخور، وقوله: «العناقة» أي: الطويل العنق. وقوله: «فعجوا» أي: رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله تعالى.

الكعبة المكرمة: هي أول بيت وُضع للناس في الأرض لعبادته عزّ وجلّ وحده كما في القرآن الكريم وكما في حديث أبي ذرّ في الصحيحين وقد تقدم في المساجد من كتاب الصلاة رقم (٥٤٥) من الجزء الأول، وكان أول من بناها لأول مرة الخليل؛ سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام على القول الصحيح كما قدّمناه في قصته من الأنبياء.

وبناها ثانيةً جرهم ثم تعرّضت بعد ممرّ الزمان للعوادي التي أوْهَتْ بنيانها وصدعت جدرانها، وكان من بين ذلك سيل عرم جرف مكة المكرمة قبل بعثة النبيّ ﷺ بخمس سنوات، فأرادت قريش تجديدها وتشييدها حرصاً منهم على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة، وقد كان احترامهم لهذا البيت وتعظيمهم له بقية ممّا ظل محفوظاً من شرعة الخليل بينهم، ولكن قريشاً كانوا متهيبين لتهديم البيت ثم تجديده، وقد زادهم مهابة وخوفاً تلك الحيّة التي كانت تثب عليهم كلما حاولوا هدم البيت أو إحداث شيء فيه، حتى أراحهم الله تعالى منها فأرسل إليها طائراً فأبعدها عن الكعبة، فكان ذلك كالإذن لهم في تشييدها.

فشرعوا في تهديمها وتجديدها واتّفقوا أن لا ينفقوا فيها مالاً نتج عن خمر أو قمار أو زنا، فبنوها وجعلوا طولها في السماء عشرين ذراعاً، وجعلوا لها باباً مرتفعاً من ناحية الشرق لئلاً يدخل إليها كل أحد، وأرادوا أن يجعلوا البيت على قواعد إبراهيم لكن النفقة قصرت بهم فلم يتمكّنوا من ذلك، فأخرجوا منه الحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو نصف دائرة من ناحية الشمال قدر ثلاثة أمتار ونحوها.

ولما فرغوا من بنائها وقع بينهم نزاع أيّهم يضع الحجر الأسود في موضعه حتى همّوا بالقتال ثم اتّفقوا على أن يُحَكِّمُوا بينهم أول داخل من باب بني شيبة، فكان أوّل داخل الصادق الأمين ﷺ فحكّموه في ذلك؛ فأمرهم بثوب فأُتِي به فوضع الحجر فيه ثم أمر المتنازعين فأمسكوا بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الركن، فحمل ﷺ الحجر ووضعه في مكانه، فانتهت المشكلة وكان للنبي ﷺ مشاركة في هذا البناء المقدّس الخالد، وعمره إذ ذاك خمسة وثلاثون عاماً، وكان ينقل مع أعمامه الحجارة على عاتقه من أجياد، وفي إحدى المرات سقط عنه ثوبه حتى عري تماماً وسقط إلى الأرض ورفع عينيه إلى السماء، فقال: إزاري إزاري، فلم يُرَ بعد مكشوفاً قطّ، وقد تقدم هذا في حفظ الله تعالى إياه من سقطات الجاهلية.

[٣٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عائشة لولا أن قومَكِ حديثُو عَهْدٍ بشِرْكٍ لهدَّمتُ الكعبة فألْزَقْتُها بالأرض وجعلتُ لها بابين باباً شرقياً وباباً غربِيّاً، وزدتُ فيها ستَّة أذرُع من الحِجْرِ، فإن قُرَيْشاً اقتصرتْها حيث بنت الكعبة».

وفي رواية: **«لولا حداثة عهد قومِك بالكفر لنَقَضْتُ الكعبة ولجعلتُها على أساسِ إبراهيم، فإنّ قريشاً حين بنت البيت استقْصَرَتْ»**.

وفي أخرى: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: **«نعم»**، قلت: فلِمَ لَمْ يُدخلوه في البيت؟ قال: **«إن قومكِ قصُرت بهم النفقة»**.

وفي أخرى: **«لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال: بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها من الحجْر...»**.

رواه البخاري (١٨٣/٥، ١٨٩)، ومسلم (٨٨/٩، ٩٧) كلاهما في الحجّ.

في هذا الحديث الشريف زيادة على ما تقدم من بناء كفار قريش البيت في الجاهلية؛ أن النبيّ ﷺ بعد أن فتح مكّة المكرّمة وأصبحت دار إسلام تمنّى أن لو هدم البيت وأنشأه من جديد على قواعد وأُسس إبراهيم عليه الصّلاة والسلام، وأن يدخل فيه الحجر الذي أخرجه كفّار قريش، وأن يجعل له بابين ملتصقين بالأرض؛ باباً للدخول وباباً للخروج، ولكنه ترك ذلك خشية مما عسى أن يصدر من أهل مكّة من استنكارهم ذلك، حيث إنهم كانوا قريبي عهدهم بكفر وجاهلية فترك ذلك نظراً للمصلحة التي رآها أرجح من غيرها.

وقد أخذ العلماء رحمهم الله تعالى من هذا الحديث وغيره قاعدة عظيمة، وهي: «إذا تعارضت المصالح»، أو «تعارضت مصلحة ومفسدة»، وتعذّر الجمع قدم الأهم مصلحة أو الأكثر مفسدة، فإن النبيّ ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردّها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً، وذلك لما

كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة وقداستها فيرون تغييرها على ما كانت عليه عظيماً.

وقد تقدم أن قلنا بأن أول من بنى البيت خليل الله عليه الصلاة والسلام، وبناه ثانياً الجراهمة ثم ثالثاً كفار قريش ثم بناه رابعاً عبدالله بن الزبير بعد استيلائه على الحرمين أيامَ عبدالملك بن مروان اعتماداً منه على ما حدّثته به خالته مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها فهدمه وبناه على قواعد إبراهيم وعلى ما تمنّاه النبيّ ﷺ، ولكنه لما قتل واستولى عبدالملك المرواني على الحرم الشريف هدمه وأرجعه إلى ما كان عليه رغم أنه علم ما حدثت به سيّدنا عائشة رضي الله تعالى عنها، فكان هذا هو بناء البيت الخامس وهو الموجود الآن، فلا يعرف أن أحداً من ملوك المسلمين عبر العصور هدمه وبناه من جديد بعد البناء المرواني. نعم وقع إصلاحه وترميم بعض جدرانه كثيراً في عصور مختلفة، وذكروا أن أبا جعفر العباسي أراد إرجاعه إلى ما كان عليه بناءُ ابنِ الزبير، فاستشار مالك بن أنس رحمه الله تعالى فنهاه عن ذلك خشية أن يظلّ لُعْبةً بأيدي الملوك، والله المستعان وله البقاء.

❋ ❋ ❋

❋ تسليم الحَجَرِ على النبيّ ﷺ قبل المبعث

[٤٠] عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّي لأَعْرِفُ حَجَراً بمكَّة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبْعَثَ إني لأعرفه الآن**».

رواه أحمد (٥/٨٩)، والطيالسي (٢٤٥٠)، ومسلم في الفضائل (١٥/٣٦)، والترمذي في المناقب (٣٣٩٣) بتهذيبي.

قيل: هذا الحجر هو الأسود الموجود في الركن وقيل غيره، وعلى أيٍّ فذلك آية من آيات الله الباهرة، فإن الحجر جماد لا روح فيه ولا حياة، ومع ذلك قد أعطاه الله عزّ وجلّ شعوراً عرف به النبيّ ﷺ وما سيراد به

في المستقبل، فكان يؤانسه ﷺ بسلامه عليه ويُشعره بأنه سيكون له شأن.

ومثل هذا الخارق قد وقع لبعض أفراد أُمته ﷺ وأتباعه الصالحين، فكان إذا خرج سمع السلام عليه من الأشجار والأعشاب والأحجار. والله يختصّ بفضله من يشاء، فلا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه.

* * *

خاتمة

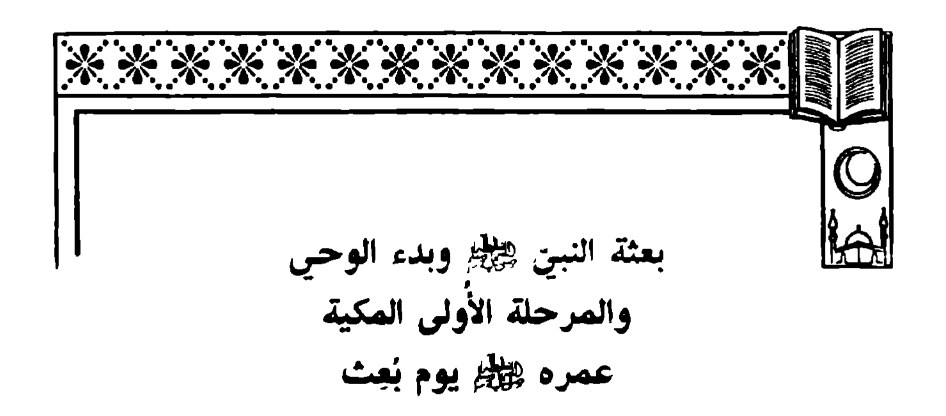
جاء في الأبواب السابقة إلى هنا عدّة أحداث تتعلّق بالحبيب سيّدنا رسول الله ﷺ، وهذه خلاصتها:

افتتحنا بنسبه الشريف الطاهر، ثم بالبشارة على لسان خليل الرحمٰن، وعيسى ابن مريم به عليه وعليهما الصّلاة والسلام، ثم بالبشارة به في التوراة والإنجيل، ثم تبشير اليهود والأحبار والرهبان ببعثته وفي ذلك ذكر قصة سلمان رضي الله تعالى عنه وطلبه الدين الحقّ حتى اتّصل بالنبيّ ﷺ وقصّته ممتعة فيها عِبَر، ثم مولده الشريف وذكر ما قيل في وقته المتفق عليه والمختلف فيه، ووفاة والده وهو جنين من شهرين في رحم والدته، ثم رضاعه ومرضعاته وما حدث له تلك الأيام من شقّ صدره الشريف، ثم وفاة أُمّه وجدّه وكفالتهما إياه، ثم نشأته على مجانبة أمور الجاهلية وحفظه أيام شبابه مما يدنّس كرامته وعرضه، ثم سفره إلى الشام للمرة الأولى مع عمّه أبي طالب وعمره اثنا عشر عاماً، ثم حضوره مع أعمامه حِلْف الفضول والتعاقد على نصر المظلوم، ثم تزوّجه بالسيّدة الجليلة مولاتنا خديجة رضي الله تعالى عنها وعمره خمسة وعشرون عاماً وعمرها هي الأخرى أربعون سنة، ثم مشاركته في بناء الكعبة قبل البعثة بخمس سنوات وعمره خمس وثلاثون سنة، ثم تسليم الحجر عليه ﷺ.

وولد ﷺ يتيماً وتربّى وشبّ كذلك، لكنه كان تحت رعاية الله تعالى وعنايته وحفظه، فقد كان كما قال تعالى ممتناً عليه في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ

يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾، أي كنت يتيماً فآواك الله إلى جدّك ثم إلى عمّك فشملاك بالرعاية والمحبة، وكنت تائهاً عن معرفة الشريعة والدّين الحق فهداك إليها كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، وكنت عائلاً أي فقيراً لا مال لك فأغناك عن الخلق بتجارتك في مال خديجة.





بعثة النبيّ ﷺ وبدء الوحي
والمرحلة الأُولى المكية
عمره ﷺ يوم بُعِث

[٤١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لأربعين سنةً، فمكث بمكّة ثلاثَ عشرةَ سنة يُوحَى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عَشْرَ سنين ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستّين.

رواه أحمد (٢/٢٣٦، ٢٤٩)، والبخاري في المبعث باب هجرة النبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٢٣٠/٩)، ومسلم في الفضائل باب قدر عمره ﷺ وإقامته بمكّة والمدينة (١١٢/١٥) وغيرهم.

في الحديث بيان عمره ﷺ عند بعثته وأنه كان ابن أربعين سنة؛ وهي سنّ الكمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الآية، جاءت الآية في قصة كليم الله موسى ومثلها في يوسف عليهما الصلاة والسلام، والحديث يدلّ على أنه أقام بمكّة يوحى إليه ثلاث عشرة وبالمدينة بعد الهجرة عشراً وتوفي وهو ابن ثلاث وستين، وهذا أصح ما ورد كما اتّفق عليه العلماء، وما جاء بخلاف ذلك فمؤوّل أو غلط من بعض الرواة كما قال النووي، وقول ابن عباس: فهاجر عشر سنين، أي أقام مهاجراً عشر سنين، قاله الحافظ.

* * *

❋ بداية الوحي وصفته

[٤٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقام ﷺ بمكّة خمس عشرة سنة، **يَسْمعُ الصَّوْتَ ويرَى الضَّوْء سَبْعَ سِنِينَ ولا يَرَى شيئاً،** وثَمانِي سِنين يُوحَى إليه، وأقام بالمدينة عَشْراً. وفي رواية: **ثمان سنين أو سبعاً يرى الضوء ويسمع الصوت، وثمانياً أو سبعاً يوحى إليه.**

رواه أحمد بالرواية الثانية (٢٦٦/١)، ومسلم بالأولى في الفضائل (١٠٣/١٥، ١٠٤).

قال القاضي عياض على قوله: «يسمع الصوت ويرى الضوء»، أي صوت الهاتف به من الملائكة، ويرى الضوء أي: نور الملائكة ونور آيات الله تعالى حتى رأى الملك بعينه وشافهه بوحي الله تعالى.

[٤٣] وعنه أيضاً أن النبيّ ﷺ قال لخديجة رضي الله تعالى عنها: **«إني أرَى ضَوْءاً، وأسْمَعُ صوتاً، وإني أخشَى أن يكونَ بي جنونٌ»**، قالت: لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبدالله، ثم أتت به وَرَقة بن نَوْفَل فذكرت ذلك له، فقال: إن يكن صادقاً فإن هذا ناموسٌ مِثْلُ ناموس موسى، فإن بُعِثَ وأنا حَيٌّ فسأعَزِّرُه، وأنصُرُه، وأُومِنُ به.

رواه أحمد (٣١٢/١) بسند صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٥٥/٨) وعزاه لأحمد متّصلاً ومرسلاً وللطبراني بنحوه، وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح وهو عند ابن سعد (١٩٥/١) من هذا الطريق.

[٤٤] وعن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: أولُ ما بُدِيءَ به رسولُ الله ﷺ من الوَحْيِ؛ الرُّؤْيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبح، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يَخْلُو بغار حِراء فيَتَحَنَّثُ فيه وهو التعبُّد الليالي ذواتِ العَدد قبل أن ينزِعَ إلى أهْلِه، ويَتَزَوَّد لذلك، ثم يَرجعُ إلى خديجة فيَتزوَّدُ لمِثْلِها، حتى جاءَهُ الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملكُ فقال: **«إقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغَطَّنِي حتى بلغَ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: إقرأ، قال: ما أنا**

بقارىء»، قال: فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤادُه فدخل على خديجة بنت خُوَيْلد رضي الله تعالى عنها، فقال: «**زمِّلوني زمِّلوني**»، فزمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خَشيتُ على نفسي**»، فقالت خديجة: كلاَّ والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتكسِبُ المَعدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائِبِ الحقّ، فانطلقتْ به خديجةُ حتى أتَتْ به ورقةَ بنَ نوفل بن أسدِ بن عبد العزّى ابن عمّ خديجة، وكان امرأً تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العِبْرانِيَّ فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتُبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجةُ: يا ابن عمّ اسْمَعْ من ابن أخيكَ، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله ﷺ خَبَرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعاً، ليتني أكونُ حياً إذ يُخْرِجُكَ قومُك، فقال رسول الله ﷺ: «**أوَ مُخرِجِيَّ هُمْ؟**» قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْنِي يومُك أنصُرْك نَصْراً مُؤَزَّراً، ثم لم يَنْشَبْ ورقَةُ أن تُوُفِّي وفَتَرَ الوَحْيُ.

رواه أحمد (٢٣٢/٦، ٢٣٣)، والبخاري في بدء الوحي (٢٥/١، ٣٠) وفي التفسير (٣٤٤/١٠، ٣٥٠) وفي التعبير وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان (١٩٧/٢، ٢٠٥).

وزاد أحمد: وفتر الوحي حتى حَزِنَ رسولُ الله ﷺ فيما بلغنا حُزْناً غَدَا مِنه مِراراً كَيْ يَتَرَدَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذِرْوَة جبل لِكي يُلْقي نَفْسَه تَبَدَّى له جبريل عليه السلام، فقال له: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيَسْكُنُ ذلك جَأْشُه، وتَقَرُّ نفسُه عليه الصلاة والسلام فيَرجعُ، فإذا طالتْ عليه وفَتَر الوَحْيُ غَدَا لِمِثْل ذلك، فإذا أَوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ تبدّى له جبريل عليه السلام فقال له مثل ذلك.

ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان (١٠٨٤، ١٠٨٥) بالموارد، والحاكم (٢/٤ ج ٣٢٥/٤) وغيرهم من حديث جابر وهو حديث صحيح لشواهده.

الثالثة: إنه ﷺ كان يتمثّل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً ـ كما في حديث جبريل المعروف ـ.

الرابعة: إنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدّه عليه فيتلبّس به الملك حتى إن جَبِينَه لتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقُلَتْ عليه حتى كادت تَرُضَّها.

الخامسة: إنه يرى الملك في صورته التي خُلِق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يُوحيه، وهذا وقع له مرّتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السمٰوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلّم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنصّ القرآن، وثبوتها لنبيّنا ﷺ هو في حديث الإسراء، وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تَكْليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربّه تبارك وتعالى وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف. . .

ثانياً: قولها: الرؤيا الصالحة، اتّفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ، وقد قال تعالى عن سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، والجمهور على أنه مكث يوحى إليه بالرؤيا ستّة أشهر، ولذلك قال في الحديث الصحيح: «**رُؤيا المُؤمِن جُزءٌ من سِتّةٍ وأربعين جُزءاً من النُّبُوّةِ**»، وقد تقدم مع معناه في الرؤيا والتعبير.

ثالثاً: في الحديث مشروعيّة الخلوة للتفرّغ للعبادة والتعرض لنفحات الله تعالى ومعرفته، وهي طبعاً ناشئة عن العزلة، فهما متلازمان، وقد ورد فيهما أحاديث وسنن ستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

رابعاً: فيه أن أول ما نزل من القرآن وأكرم الله تعالى به نبيّه ﷺ سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ إلى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، وهذا قول جمهور العلماء للأدلّة المتضافرة على ذلك.

فكانت أول رحمة رحم الله تعالى بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم...

قال ابن كثير: وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن مِنْ كَرَمِهِ تعالى أنْ عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم، فشَرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، الخ.

خامساً: فيه فضل مولاتنا خديجة رضي الله تعالى عنها ورجاحة عقلها، ويؤخذ من ذلك أنها أوّل من آمن به ﷺ وبما جاء به على الإطلاق.

سادساً: فيه أن النبيّ ﷺ كان متّصفاً بمكارم الأخلاق والشِّيَم الحميدة قبل نبوّته، وقد عرفت ذلك خديجة منه كما كان ذلك معروفاً عند كل من عرفه، ولذلك لما قال لها: «**لقد خشيت على نفسي**» يعني من الشياطين، وقوله: «**إني أخشى أن يكون بي جنون**» طمأنَتْه، وقالت له: «كلاّ والله لا يخزيك الله أبداً» الخ.

وعرفت عنه أنه ليس ممن تسلّط عليهم الشياطين كالكهّان... وذلك لما هو متّصف به من الأخلاق الحسنة والشمائل الكريمة.

سابعاً: فيه الفزع إلى أهل العلم والدين عند نزول الأحداث والمهمات بالإنسان مما لا يدري المخرج منها.

ثامناً: فيه فضل ورقة بن نوفل وأنه آمن بالنبيّ ﷺ وتمنّى نصره

وتأييده عندما يدعو قومه ويُخرجونه من بلدته، وقد جاء في رؤيا له ﷺ ما يدلّ على أنه من أهل الجنّة، ولا ينبغي أن يشكّ في ذلك.

تاسعاً: قال القاضي عياض والعيني وغيرهما ما معناه: إنما بدىء ﷺ بالرؤيا الصالحة في الوحي مع ما كان يشاهده من الضوء وما يسمعه من الصوت وسلام الحجر والشجر عليه وغير ذلك من التباشير، كان ذلك إرهاصاً له فيستشعر ما يُراد به ويستعد لما سيفاجأ به من مجيء الملك.

عاشراً: في قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أقام بمكّة خمس عشرة سنة يسمع الصوتَ ويرى الضوء سبع سنين... وثمان سنين يُوحَى إليه، هو مخالف للأحاديث الأخرى بالنسبة لإقامته بمكّة خمس عشرة سنة كما تقدّم ويأتي، كما أن قوله: يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين، وقوله: ثمان سنين يوحى إليه هو شاذّ ومخالف لما عليه الجمهور، ووجهه الخازن بأن يحمل قوله: على سنتين قبل النبوّة فيما كان يراه من الضوء والتباشير، وثلاث سنين بعدها قبل إظهار الدعوة، وعشر سنين معلناً بالدعوة بمكّة، ومع ذلك فلا يزال الإشكال قائماً، فإن قوله: وثمان سنين يوحى إليه ينافي ما قاله، فالله أعلم كيف حصل ذلك، رغم أنه في صحيح مسلم، ولم يعرج القاضي عياض ولا النووي على توجيه ذلك.

حادي عشر: إن خلوته ﷺ بغار حراء البعيد عن العمران كان إلهاماً من الله تعالى، فإنه لما رأى قومه وما هم عليه من أعمال الجاهلية وفشوّ الشرك بالله وعبادة الأوثان من أحجار وأشجار مضافة إلى كثرة فجورهم وارتكابهم الفواحش ومظاهر تنافي الفطرة، فعند ذلك اعتزل مجتمعهم وصعد إلى قمّة ذلك الجبل الوعر فجعل يتعبّد ويتفكّر في عظمة الله التي تتجلّى في هذا الكون الفسيح حتى أكرمه الله تعالى بما أكرمه.

وقد ضلّ هنا أقوام، فقالوا: إن النبوّة قد تُدرك بالعبادة والانقطاع عن المخلوقات، وأنها مكتسبة وهذا جهل وضلال، فإن النبوّة منّة وفضل من الله تعالى يضعها حيث شاء؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾. نعم؛ التي تُكتسب هي: الولاية وأنواع مقاماتها إلى مقام الصدّيقية.

ثاني عشر: قولها: «**وفتر الوحي**»، أي احتبس جبريل عليه السلام عن مجيئه إليه، وقد اختلفوا كم بقي احتباسه عنه؟ فقيل: ثلاث سنين، وقيل: سنتان ونصف وقيل غير ذلك، وفي هذه المدة كان يحزن ويأتي رؤوس شواهق الجبال ليلقي نفسه، فكان كلما أوفى بذروة جبل تظاهر له جبريل عليه السلام فيطمئنه ويقول له: يا محمد إنك رسول الله فيسكن ذلك جأشه، وهكذا حتى رآه على كرسي بين السماء والأرض، كما في الحديث التالي.

[٤٥] فعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن رضي الله تعالى عنهما، أن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله تعالى عنهما قال وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرة الوَحْي، فقال في حديثه: «**بَيْنَا أنا أَمْشِي إذ سمعتُ صوتاً من السَّماء، فرفعتُ بصَرِي فإذا الملك الذي جاءَني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء الأرض فرُعِبْتُ منه فرجعتُ، فقلت: زمّلوني**»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، فحَمِي الوَحي وتَواتَر.

رواه البخاري في بِدء الوحي (٣١/١) وفي بدء الخلق وفي الأدب وفي التفسير (٣٠٥/١٠، ٣٠٦)، ومسلم في الإيمان رقم (١٦١، ٢٥٥، ٢٥٦)، والترمذي في التفسير (٣١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٥٠٢/٦، ٥٠٣) وغيرهم.

وفي رواية عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: سألت أبا سلَمةَ: أيُّ القرآن أُنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، فقلت: أُنبِئْتُ أنه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله: أيّ القرآن أُنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، فقلت: نُبِّئْتُ أنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ فقال: لا أخبرك إلاَّ بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**جاورْتُ في حراء فلما قضيتُ جواري هبطت فاسْتَبْطَنْتُ الوادِي فنُودِيتُ فنظرت أمامِي، وخَلْفِي، وعن يَميني، وعن شمالي، فإذا هو على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، وأنزل عليَّ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾».

رواه البخاري بهذه الرواية في التفسير، ومسلم رقم (٢٥٧) في الإيمان.

قوله: «فرُعِبْتُ» في رواية: «فَجُئِثْتُ منه فَرَقاً» أي: فزعت منه خوفاً وهو معنى فرعبت، وقوله: «فحمي الوحي» أي تتابع بلا انقطاع، وقوله: «جاورت في حراء» أي: جلست واعتكفت فيه، وقوله: «فاستبطنت» أي: نزلت إلى وسط الوادي.

وفي هذا الحديث بروايتيه أمرانِ:

أولاً: فيه أنه ﷺ كان يتردّد إلى حراء بعد فترة الوحي لتشوّقه إلى جبريل.

ثانياً: كان جابر يعتقد أن أول ما نزل من القرآن هو سورة المدّثر، وهو خلاف حديث عائشة المتقدم وخلاف قول جمهور العلماء إن لم يكونوا كلّهم، وقد جمع بعضهم بينهما بأن أوّل ما نزل من الوحي: سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وأوّل ما نزل بعد فترة الوحي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾، وفيها أمر ﷺ بالتبليغ والإنذار، وهذا جمع حسن بل هو الواجب إن شاء الله تعالى، وما كان يفعله ﷺ من إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال كان ذلك قبل مجيء الشرع، فلا إشكال فيه كما قد يتوهّم.

* * *

صفة الوحي وكيف كان يتلقاه النبيّ ﷺ؟

[٤٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحياناً يأتيني في مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أشدُّه عليَّ فيَفْصِمُ عنّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يَتَمَثَّلُ لِي الملَكُ رجلاً، فيُكَلِّمُني فأعِي ما يقول»**، قالت عائشة: ولقد رأيتُه ينزل عليه في اليوم الشّاتِي الشديد البَرْدِ فيَفْصِمُ عنه وإنّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً.

رواه البخاري في بدء الوحي (٢٠/١، ٢٤)، ومسلم في الفضائل (٨٨/١٥)، وكذا أحمد (١٥٨/٦، ٢٥٧)، والترمذي في المناقب (٣٤٠٩)، والنسائي في الصلاة.

«صلصة الجرس»، الصلصلة بفتح الصادين بينهما لام ساكنة أطلق على كل صوت له طنين، والجرس بفتحتين ناقوس صغير. قوله: «فيفصم عنّي» بفتح الياء وكسر الصاد وجاء مبنيّاً للمجهول بضم الياء وفتح الصاد، ومعناه يقلع ويتجلّى ما يغشاني. وقوله: «لَيَتَفَصَّدُ» أي ليسيل.

[٤٧] وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا أُنْزِلَ عليه الوَحْيُ نَكَّسَ رأسَه، ونَكَّسَ أصحابُه رُؤوسَهم، فلما انْجَلَى عنه رفع رأسَه.

وفي رواية: كان إذا أُنْزِلَ عليه كُرِبَ لذلك وتَرَبَّدَ وجهُهُ.

رواه أحمد (٣١٣/٥، ٣٢٧، ٣٢٠)، ومسلم في الفضائل (٨٩/١٥) وفي الحدود (١٨٨/١١)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٣٠٤) وغيرهم مطوّلاً ومختصراً، وقد تقدم في التفسير من سورة النساء.

قوله: «نَكَس رأسه» أي طأطأه، وقوله: «تربّد وجهه» أي تغيّر حتى صار كلون الرماد، وقوله: «كرب» بضم الكاف أي أصابه كرب وشدّة.

[٤٨] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أمْلَى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾... قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ وفَخِذُه على فَخِذِي، فثقُلَتْ عليَّ حتى خِفْتُ أن تُرَضَّ فَخِذِي، ثم سُرِّي عنه...

رواه البخاري (٣٢٨/٩) في التفسير وفي الجهاد وفي فضائل القرآن، والترمذي في التفسير (٢٨٣٧)، وابن جرير (٢٢٨/٤، ٢٢٩)، وابن أبي حاتم (١٠٤٣/٣) وغيرهم وقد تقدم مطوّلاً في التفسير.

[٤٩] وعن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن النبيّ ﷺ كان إذا أُوحِيَ إليه وهو على ناقته وضعتْ جِرَانَها فلم تَسْتَطِعْ أن تَتَحَرَّكَ.

رواه أحمد (٦/١١٨)، والحاكم (٢/٥٠٥) وصححه ووافقه الذهبي وقال النور في المجمع (٨/٢٥٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ومع ذلك فله شواهد أخرى.

قوله: «حتى خفت أن ترضّ فخذي» أي تَتَكَسَّر، وقوله: سُرّي عنه بضم السين وكسر الراء المشدّدة أي ذهب ما كان نزل به.

وفي هذه الأحاديث بيان أحوال الوحي التي كانت تتعاقب على النبيّ ﷺ وما كان يحدث له عندها، فالوحي له شأن عظيم لا يستطيع تلقّيه إلاّ من قوّى الله تعالى روحانيّته وجسمه، فهو أمر ثقيل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾، ولذلك كان النبيّ ﷺ يعاني منه شدائِد ومشاقاً، فكان تارة يسمع عنده طنيناً كصوت الجرس، وكان ذلك أشدّه عليه، وكان إذا نزل به تغيّر وجهه الشريف حتى يصير كالرماد وسال جَبِينُه وجَبْهتُه عرقاً في اليوم الشديد البرد، هذا بالنسبة له ﷺ مع قوّة روحانيّته وجسمه. أما غيره ممن يتّصل به وقت نزول الوحي عليه، فكان كما قال زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه حيث إن فخذ النبيّ ﷺ كانت على فخذه فثقلت عليه حتى خاف أن ترضّ وتكسر، وكما حصل لناقته العظيمة الضخمة حيث إنها لمّا نزل عليها من ثِقَلِ الوحي الذي أصابه ﷺ كادت أن تَبْرُكَ فوضعت مُقَدَّم عُنُقِها على الأرض. والمقصود أن الوحي له شأن عظيم، وكيف لا وهو يأتي من قِبَل ربّ الأرض والسماء العزيز الجبّار المتكبّر العليّ العظيم. هذا وإن أقسام الوحي ومراتبه قد تقدّمت في حديث عائشة في بدْء الوحي.

[٥٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾، قال: كان رسول الله ﷺ يُعالِجُ مِن التَّنْزيل شِدَّةً، وكان مِمَّا يُحَرّكُ شَفَتَيْهِ، فقال ابن عباس: فأنا أُحَرّكُهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يُحَرّكُهما، وقال سعيد: أنا أحرّكهما كما رأيت ابن عباس يحرّكهما، فحرّك شَفَتَيْه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، قال: جمعُه له في صدرك وتَقْرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ

﴿قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾، قال: فاستَمِعْ له وأنْصِتْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ ثم إن علينا أن تَقْرَأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبيّ ﷺ كما قرأه.

رواه البخاري في بدء الوحي (١/٣٢، ٣٣) وفي التفسير (١٠/٣٠٩، ٣١٠) وفي فضائل القرآن. ومسلم في الصلاة رقم (٤٤٨)، والترمذي في التفسير (٣١١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٣).

قوله: «كان يعالج» أي: يحاول حفظه بمشقّة.

كان النبيّ ﷺ في ابتداء الوحي إذا جاءه جبريل وألقى عليه القرآن تعجّل، فجعل يحفظه مباشرة عند التلقّي فأرشده الله عزّ وجلّ إلى ما هو أسهل وأوْلى له، فأمره أن يستمع له أولاً وينصت، وتكفّل له أن يجمعه له في صدره، وثانياً بعد إلقائه أن يقرأه ثم ثالثاً على الله تعالى بيانه وإيضاحه.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: علينا أن نقرأه عليك ونجمعه في صدرك بدون معاناة ولا معالجة، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: قراءته، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: علينا أن نبيّنه ونوضحه لك، وهذا من لطف الله تعالى ورفقه بنبيّه ورحمته به ﷺ. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، يعني: إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تعجل بالقراءة معه بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته.

* * *

❁ بداية الدعوة

قد تقدم حديث جابر في نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ رواه الشيخان، فكان هذا أول خطاب وجه للنبيّ ﷺ من قِبَل الله عزّ وجلّ آمراً له أن يبلّغ الدعوة وينذر كل من ردّ دعوته من الكافرين، فقام يدعو في ابتداء أمره كل من يتّصل به ويعرف أمانته من الأقارب والمعارف، وذلك عن طريق السرّ والتكتّم حذراً من أن يفاجىء متعصّبة قريش الذين كانوا

غرقى في الوثنيّات والشركيات، وبقي على دعوته سرّاً، كما قال علماء السيرة ثلاث سنين حتى دخل في الإسلام عدد لا بأس به وانتشرت الدعوة بين أوساط بيوتات كثيرة من قريش، فحينئذ أمر بالجهر بالدعوة، كما يأتي.

* * *

مراحل الدعوة في حياة النبيّ ﷺ

ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن الدعوة الإسلامية مرّت في حياة النبيّ ﷺ منذ بعثته إلى وفاته بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: دعوته سرّاً، واستمرّت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً وباللسان فقط، واستمرّت إلى الهجرة إلى المدينة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال للمعتدين والبادئين بالقتال أو الشرّ، واستمرّت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع من الدخول في الإسلام بعد فترة الدعوة والإعلام من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيّين. أما أهل الكتاب فلهم حكم خاص تقدم في الجهاد.

وهذه المرحلة عليها استقرّ أمر الشريعة الإسلامية وقام عليها حكم الجهاد في الإسلام، وهي المقرّرة عند سائر المذاهب في كتبهم.

* * *

السابقون إلى الإسلام وأول من أسلم منهم

[٥٩] عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: أوّلُ من صَلَّى، وفي لفظ: أوّلُ من أسلم مع رسول الله ﷺ عَلِيٌّ عليه السلام.

رواه أحمد (٣٦٨/٤، ٣٧١)، والترمذي في المناقب (٣٧٣٥)، والحاكم (١٣٦/٣) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٥٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أوّل من صلّى مع النبيّ ﷺ بعد خديجة عليّ رضي الله تعالى عنهما.

روه أحمد (٣٣٠/١، ٣٣١)، والترمذي في المناقب (٣٧٣٤) وسنده حسن.

[٥٣] وعن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها ﷺ أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

رواه الطبراني (٦١٧٤)، والحاكم (١٣٦/٣)، قال الهيثمي (١٠٢/٩): ورجاله ثقات.

[٥٤] وعن عمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسُ أعْبُدٍ، وامرأتان، وأبو بكر رضي الله تعالى عنهم.

رواه البخاري في الفضائل (٢٠/٩).

[٥٥] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَق، وواسَاني بنَفْسه وماله فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟»**.

رواه البخاري في المناقب أيضاً (٢١/٩)، ويأتي في مناقبه إن شاء الله تعالى مطوّلاً.

في هذه الأحاديث بيان من سبق إلى اعتناق الإسلام، فأحاديث زيد وابن ياسر وسلمان رضي الله تعالى عنهم تدلّ على أن أوّل من أسلم الإمام عليّ عليه السلام، ولا شكّ في ذلك غير أنه كان إسلامه بعد مولاتنا خديجة كما في حديث ابن عباس، وكما يؤخذ من حديث عائشة المتقدم في بدء الوحي.

وحديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه يدلّ ظاهره على أن الصديق هو أوّل من آمن وصدق النبيّ ﷺ.

والصحيح الذي مشى عليه المحقّقون من المحدثين وأهل السِّيَر وغيرهم أن أوّل من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصدّيق، ومن الصّبيان الإمام علي، ومن النساء خديجة. ومن العبيد بلال، ومن الموالي زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم.

ومن السابقين إلى الإسلام عمار بن ياسر كما في حديثه السابق، فإنه أسلم ومع النبيّ ﷺ خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر.

والأعبد هم: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر، وأبو فُكَيهة، والخامس شقران مولى النبيّ ﷺ، والمرأتان خديجةُ وأمّ أيْمَن رضي الله تعالى عنهم جميعاً، وإنما لم يعد هنا عليّاً لأنه كان لا يزال طفلاً لم يجاوز العشرة من عمره.

[٥٦] وعن عَمْرو بن عَبَسَة رضي الله تعالى عنه قال: كنت وأنا في الجاهلية أظنّ أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكّة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُرَآءُ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكّة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «**أنا نبيّ**»، فقلت: وما نبيّ، قال: «**أرسلني الله**»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوحَّدَ الله لا يُشْرَكَ به شيءٌ**»، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «**حُرٌّ وعبدٌ**»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متّبعك، قال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**».

رواه أحمد (١١٢/٤)، ومسلم في الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها (١١٤/٦، ١١٥).

قوله: «جُرَآءُ» جمع جريء من الجرأة أي هم متسلّطون عليه، ويريدون الإقدام على إذايته. وقوله: تلطفت أي ترفّقت.

وفي هذا الحديث بيان أن عمراً هذا كان من الأوّلين إسلاماً بدليل قوله: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، والظاهر أنه لم يطلع على غيرهما ممن كان أسلم، وعلى كلٍّ فهو من الرعيل الأول، ولكنه رجع إلى قبيلته وأخفى إسلامه حتى ظهر النبيّ ﷺ ولم يفتن عن دينه كما فتن وابتلي من كان بمكّة مع النبيّ ﷺ.

[٥٧] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: ما أسلم أحد إلاَّ في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثتُ سبعة أيام وإني لثلث الإسلام.

رواه البخاري في المناقب (٨٥/٩).

وهذا أيضاً يدلّ على أن سعداً هذا كان من الأوائل، وما قاله من أنه لم يسلم أحد إلاَّ في اليوم الذي أسلم فيه، ظاهره مشكل، فإنه قد أسلم قبله جماعة. وقوله: ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام، هذا على حسب ما علمه وبلغه، فإن الناس كانوا يخفون إسلامهم خوفاً من إذاية الكفار.

هذا وممن سبق إلى الإسلام بالاتفاق عثمان، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمٰن بن عوف وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

❋ ❋ ❋

❋ الجهر بالدعوة إلى الله تعالى

[٥٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قال: **«يا مَعْشَرَ قُرَيْش** ـ أو كلمة نحوها ـ **اشتروا أنفُسَكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بَني عبدِ مَنافٍ لا أُغنِي عنكم من الله شيئاً، يا عباسُ بنَ عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيةُ عمَّةُ رسول الله ﷺ لا أغني عنكِ من الله شيئاً،**

ويا فاطمةُ بنتُ محمد ﷺ سَلِيني ما شِئْتِ من مالي، لا أُغْني عنك من الله شيئاً».

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٢٠) وفي الوصايا رقم (٢٧٥٣) وفي المناقب (٣٥٢٧)، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠٤/٢٠٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٣).

وفي رواية لمسلم قال: دعا رسولُ الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ، فقال: **«يا بني كعب بن لؤي أَنقِذُوا أنفُسَكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدِ المُطَّلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمةُ أنقِذِي نفسَك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غيرَ أَنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبلالِهَا»**.

[**٥٩**] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ورهطَك منهم المُخْلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِدَ الصَّفا فهَتَفَ: **«يا صَبَاحَاهُ»**، فقالوا: مَنْ هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: **«أرأيتُم إن أخبَرْتُكم أن خَيلاً تخرج من سَفحِ هذا الجبل أكُنتُم مُصَدِّقِيَّ؟»** قالوا: ما جرَّبنا عليك كَذِباً، قال: **«فإنِّي نذيرٌ لكم بين يدَيْ عذاب شديدٍ»**، قالَ أبو لهب: تبّاً لك ما جمَعْتَنا إلاَّ لهذا؟ ثم قام فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾، وقد تَبَّ هكذا قرأها الأعمش يومئذ.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٣٦٨)، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠٨)، والترمذي في التفسير (٣١٤٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٦)، وفي الباب عن عائشة في مسلم وعن قبيصة بن المخارق وزُهَيْر بن عمر، وفيه أيضاً قوله: **«غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها»** البلال الماء، ومعناه سأصلها، يعني بالشفاعة، وقوله: **«سَفْحَ الجبل»** أي وَجْهَه.

كان قد دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء أيام دعوته ﷺ سرّاً حتى فشي بمكّة وتُحُدِّثَ به، فأمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ

أن يَصْدَعَ ويَجْهَرَ بما جاءه وأُمِرَ به، وأن يظهر ذلك لعموم الناس ويدعو إليه، فقال له عزّ وجلّ:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الآية.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما زال النبيّ ﷺ مستَخفياً حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه، رواه ابن جرير (١٤/٦٨).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذا أَمْرٌ مِن الله تعالى لنبيّه ﷺ بتبليغ رسالته قومه وجميع من أُرْسِلَ إليهم، رواه ابن جرير أيضاً (١٤/٦٧)، فكان الأمر في هذه الآية بتبليغ الدعوة لكافّة الناس.

وقوله: «وأعرض عن المشركين» إلخ، أي: بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ولا تَلْتَفِتْ إلى هؤلاء المشركين ولا تخفهم، فإن الله كافيك إيّاهم وحافظك منهم، وقد فعل سبحانه كما يأتي.

وفيما ذكرنا من حديثي أبي هريرة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم بيان أنه ﷺ أمر أولاً بالتبليغ لأقاربه وعشيرته؛ لأنها مسؤولية أولية، فالأقربون أولى بالمعروف كما يقولون، ولذلك فقد امتثل ﷺ أمر ربّه في ذلك، فجمع بطون أقاربه وبيوتات عشيرته فعمّم وخصّص ثم ناداهم جميعاً وأعلمهم جهاراً بأنه رسول من الله تعالى ونذير لهم بين يديّ عذاب شديد، وأمرهم أن ينقذوا أنفسهم من عذاب الله تعالى، وذلك يكون بالإيمان به وبما جاء به واتّباعه في ذلك.

وفي الحديثين دليل على أن من مات كافراً لا تنفعه قرابة ولو كانت من بيوت النبوّة، ولذلك قال النبيّ ﷺ لأقاربه: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، وفي قوله: «**غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلالها**» يخصّص قوله: «**لا أغني عنكم**» إلخ، فإنه سيشفع لمن مات منهم مؤمناً، وذلك بإذن من الله تعالى، ويلاحظ أن ذكر فاطمة في هذا النداء وَهْمٌ بلا شك، فإنها في ذلك الوقت كانت لا تزال صغيرة لا تجاوز الخمس سنوات، فالله أعلم كيف وقع في الحديث.

***

❊ الإيذاء لرسول الله ﷺ

[٦٠] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ كان يصلّي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوسٌ؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيّكم يجيء بِسلَى جزور بني فلان فيضعُه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القومِ فجاء به، فنظر حتى سجد النبيّ ﷺ وضعه على ظهره بين كَتِفَيْه، وأنا أنظر لا أُغيّر شيئاً، لو كان لِي مَنَعَةٌ قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره فرفع رأسه، وفي رواية: فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جُوَيْرِيَةٌ فأقبلت تَسْعَى وثَبَتَ النبيّ ﷺ ساجداً حتى أَلْقَتْه عنه فأقبلت عليهم تسُبُّهم، فلما قضَى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «**اللّهمّ عليك بقُرَيْش - ثلاثاً - اللّهمّ عليك بعَمْرو بن هِشام، وعُتْبة بن ربيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة، وأُمَيّة بن خَلَفٍ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وعُمارة بن الوليد**»، قال عبدالله: فوالله لقد رأيتُهم صَرْعَى يوم بدرٍ، ثم سُحِبوا إلى القَلِيبِ قليبِ بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأتبع أصحاب القليب لعنةً**».

رواه البخاري في الطهارة وفي الصلاة وفي الجهاد وفي المغازي وفي الفضائل (١٦٦/٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٥١/١٢، ١٥٤) وغيرهما.

قوله: سَلَى جزور، السَّلى هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائِر الحيوان، والجزور هو الإبل. وقوله: «فانبعث أشقى القوم» الذي فعل به ذلك هو عقبة بن أبي مُعَيط كما في رواية عند مسلم وغيره قوله: عمرو بن هشام هو أبو جهل كما صرِّحت به رواية أخرى.

[٦١] وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدّ ما صنعَه المشركون برسول الله ﷺ قال: بَيْنَا رسولُ الله ﷺ يُصَلِّي بفِناءِ الكعبة إذْ أقْبَلَ عُقبة بن أبي مُعَيْط فأخَذَ بمنكبِ رسول الله ﷺ ولَوى ثوبَه في عُنُقِه فخَنَقَه به خَنْقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بِمَنْكَبَيْهِ ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: أتَقْتُلُون رجُلاً أن يَقُول ربّي الله، وقد جاءَكُم بالبيّنات.

رواه البخاري في أوائل السيرة النبويّة (١٦٨/٨) وفي التفسير (١٧٥/١٠)، وكذا أحمد (٢٠٤/٢)، ورواه أحمد (٢١٨/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٥٠/٦) من طريق أبي إسحاق مطوّلاً بسند صحيح بلفظ: قال: حَضَرْتُهُم وقد اجتمع أشرافُهم يوماً في الحِجْر فذكروا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صَبَرْنا عليه من هذا الرجل قطّ سفَّه أحلامنا، وشَتَم آباءنا، وعابَ دِينَنا، وفرّق جمَاعَتَنا، وسَبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ، قال: فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلمّا أن مرّ بهم غمزوه ببعض ما يقال، قال: فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى، فلما مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: **«تَسْمَعُون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكُم بالذبح»**، فأخذت القوم كلمتُه، حتى ما منهم رجلاً إلا كأنما على رأسه طائر واقعٌ، حتى إن أشدّهم فيه وصاة من قبل ذلك لَيَرْفاهُ بأحسنِ ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثَبُوا إليه وثْبَةَ رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، كما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: **«نَعَمْ أنا الذِي أقُولُ ذلك»**، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه دونه يقول وهو يبكي: أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشدّ ما رأيت قريشاً بلغت منه.

قوله: «سفّه أحلامنا» أي: نسب عقولنا للحمق والجهالة والطيش. وقوله: «غمزوه» أي: طعنوا فيه. قوله: «لقد جئتكم بالذبح» أي: بالقتل والإبادة أو أتيتكم بما يكون كالذبح من الآيات والحجج. وقوله: «كأنما على رؤوسهم طائر» هو عبارة عن هُدُوئِهم وسكوتهم. وقوله: «وَصاة» بفتح الواو توصية. وقوله: «لَيَرْفَأُهُ» بفتح الياء من رَفَأ كمنع أي: يسكنه. قوله:

«جهولاً» أي سفيهاً. قوله: «فوثبوا» أي: انقضّوا عليه. وقوله: «فأحاطوا» أي: داروا به.

[٦٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو جهل: هل يُعَفِّر محمد وجهَه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللاّتِ والعُزّى لئن رأيتُه يَفعلُ ذلك لأَطَأَنَّ على رَقَبَتِهِ أو لأُعَفِّرَنَّ وجهه في التراب، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يُصلّي لِيَطأ على رقبته، فما فجَأهم منه إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْه يَتَقِي بيديه، فقيل له: ما لك؟ قال: إنّ بيني وبينه خَنْدَقاً من نار وهولاً وأجْنِحَة، فقال رسول الله ﷺ: **«لَوْ دَنا مِنّي لاَخْتَطَفَتْهُ الملائكةُ عُضواً عُضواً»**، وأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ إلى آخر السورة.

رواه أحمد (٣٧٠/٢)، ومسلم في صفة المنافقين (١٣٩/١٧، ١٤٠)، والنسائي في الكبرى (٥١٨/٦)، وابن جرير (٢٥٦/٣٠)، ومن طريقه ابن أبي حاتم (٣٤٥٠/١٠).

[٦٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ ﷺ يصلّي فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبيّ ﷺ فزَبَرَهُ، فقال أبو جهل: إنك لَتعلمُ ما بها نادٍ أكثرَ مني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾، قال ابن عباس: والله لو دَعَا نَادِيَهُ لأخذته زبانية الله.

رواه أحمد (٢٥٦/١، ٣٢٩، ٣٦٨)، والترمذي في التفسير (٣١٣١)، والنسائي في الكبرى (٥١٨/٦)، وابن جرير (٢٥٦/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم.

[٦٤] وعنه في رواية: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلّي عند الكعبة لأَطأنَّ على عُنُقِهِ، فبلغ النبيّ ﷺ ذلك، فقال: **«لو فعل لأخذته الملائكة عِياناً»**.

رواه عبدالرزّاق (٣٨٤/٢)، وأحمد رقم (٣٤٨٣)، والبخاري (٣٥٣/١٠، ٣٥٤)، والترمذي (٣١٣٠)، والنسائي في الكبرى (٥١٨/٦)، وابن جرير (٢٥٦/٣، ٢٥٧) كلّهم في التفسير.

قوله: «فزَبَره» بفتح الزاي والباء أي: نهره وأغلظ له. وقوله: «لأخذته زبانية الله» الزبانية هم الملائكة المكلّفون بالنار وبأهلها. وقوله: «لأعفرن» أي لألْصِقَنّ وجهه بالتراب وأُمَرّغه. وقوله: «يَنْكُصُ» أي: يرجع إلى الوراء.

[٦٥] وعنه أيضاً قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ونائِلةَ وإساف، لو قد رأينا محمداً - ﷺ - لقد قمنا إليه قيامَ رجُل واحدٍ فلم نُفارِقه حتى نَقْتُله، فأقبلتْ ابنتُه فاطمةُ - عليها السلام والرضا من الله - تبكي حتى دخلتْ على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، فقال: **«يا بنيّة أرِيني وَضُوءاً»**، فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه قالوا: هَا هُوذا، وخفَضُوا أبصارهم، وسقطتْ أذقانُهم في صُدورهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصراً، ولم يَقُمْ إليه رجلٌ، فأقبلَ رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: **«شاهَتْ الوُجوه»**، ثم حَصَبهم بها فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قُتِل يوم بدر كافراً.

رواه أحمد (١/٣٠٣، ٣٦٨)، وابن حبان في صحيحه (١٦٩١) مع الموارد بسند صحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٢٨): أخرجه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح.

[٦٦] وعن رَبِيعَة بن عبَّاد الدُّؤلي وكان جاهلياً أسلم، قال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: **«يا أيها الناس قولوا: لا إله إلاَّ الله تُفْلِحُوا»**، ويدخل في فِجاجِها والناس مُتَقَصِّفُون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: **«يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**، إلا أن وراءه رجلاً أحولَ، وضِيءَ الوجه ذي غَدِيرَتَيْنِ يقول: إنه صابىء كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبدالله، وهو يذكر النبوّة، قلت: ومن هذا الذي يكذّبه؟ قالوا: عمّه أبو لهب.

وفي رواية قال: إني لمع أبي رجل شابّ أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجلٌ أحولُ وَضِيءٌ ذو جُمَّةٍ يقف رسول الله ﷺ على

القبيلة ويقول: «**يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تُصَدِّقُوني حتى أُنَفِّذَ عن الله ما بعثني به**»، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مَقالتِهِ قال الآخر مِن خَلْفِهِ: يا بني فلان، إن هذا يريد منكم أن تَسْلُخُوا اللات والعزّى، وحلفاءكم من الجنّ بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب.

رواه أحمد (٤٩١/٣، ٤٩٢، ٤٩٣ و٣٤١/٤) من طرق هو بها صحيح. وله شاهد عن طارق بن عبدالله المحاربي رواه ابن حبان (١٦٨٣) بالموارد، والحاكم (٦١٢/٢) وصححه ووافقه الذهبي وعزاه البوصيري في الإتحاف (٤٧٨٨) لابن أبي شيبة بسند صحيح وأبي يعلى وابن حبان والحاكم قال: وورواه النسائي وابن ماجه مختصراً... وقوله: «مُتَقَصّفون» أي مجتمعون ومزدحمون عليه.

[٦٧] وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أن عائشة رضي الله تعالى عنها حدَّثَته أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ فقال: «**لقد لقيتُ من قومِكِ وكان أشدُّ ما لقيت منهم يومَ العقبة إذ عرضْت نفسي على ابن عَبْدِ ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أستَفِقْ إلا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني، فقال: إن الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَه بما شِئْت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمُرني بأمْرك فما شئت؟ إن شئت أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشْرك به شيئاً**».

رواه البخاري في بدء الخلق في ذكر الملائكة (١٢٣/٧)، ومسلم في الجهاد (١٥٤/١٢).

ابن عبد ياليل كان من سادات الطائف. قوله: «مهموم» أي: أصابني

همّ وغمّ. «فلم أستفق» أي: لم أشعر بنفسي وحالتي لعظيم ما أصابني حتى وصلت لقرن الثعالب ويقال له قرن المنازل اسم جبل وهو موقت إحرام أهل نجد. قوله: «أطبق» بضمّ الهمزة وكسر الباء أي أضمّهما عليهم، «والأخشبان» الجبلان الغليظان والمراد بهما هنا جبل أبي قُبيس المشرف على البيت من جهة الشروق، والجبل المقابل له المشرف على قُعَيْقِعَان.

في هذه الأحاديث الثمانية نماذج وأمثلة من إيذاء كفار قريش للنبيّ ﷺ واعتدائهم عليه، وتلك هي سنّة الله تعالى في رسله عليهم الصلاة والسلام مع أممهم يبتلون من طرف قومهم، ثم تكون لهم العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

[٦٨] وقد قال ﷺ: **«أشدُ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثل، يُبْتَلى الرجلُ على حسَب دينه فإن كان في دينه صُلْباً اشتدّ بلاؤُه، وإن كان في دينه رِقّةٌ ابتلي على قدر دينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَه يَمْشي على الأرض وما عليه خطيئة»**.

رواه أحمد (١/١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٣٣)، وابن حبان (٦٩٩)، والحاكم (١/٤٠، ٤١) وحسّنه الترمذي وصححه.

فلا عجب إذاً مما أُصيب به نبيّنا ﷺ من أنواع تلك الإذايات البالغة المتناهية من طرف قومه فله أسوة بإخوانه الأنبياء الذين سبقوه إلى ذلك، وما ذكرت قصصهم في القرآن الكريم بأساليب متنوّعة إلا تذكرة له ﷺ وتثبيتاً لفؤاده، وتسلية له كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

ولذلك أمره تعالى أن يأتَسِيَ بأُولي العزم من الرسل في الصبر على ما يصيبه من بلاء، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، ونهاه تعالى عن الضجر من الدعوة فيفرّ من قومه كما فعل ذو النون، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الآية، والقرآن ملآن بأمثال هذه التأييدات.

هذا وقد مضت على النبيّ ﷺ مدة لم يكن يُظهر فيها دعوته في مجامع قريش العمومية، بل كانت دعوته مقصورة على أقاربه ومعارفه مع كامل التستّر حذراً من تعصّب قريش، لكنه لمّا نزلت عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أظهر الدعوة ونادى الجميع بما أمره الله تعالى من عبادة الله تعالى وحده وترك الأنداد والأصنام وعبادة غيره، فتنكروا لدعوته وقابلوه بالجحود ورموه بالعظائم ولَمَزُوه بالجنون والكهانة والسحر كما صرّح به القرآن في غير ما آية، واستدلّوا عليه بتقليد الأباء ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، وتعجّبوا من توحيد الألوهية فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾، ثم لما لم يستجيبوا له ﷺ وتمسّكوا بحجّة التقليد سفّه أحلامهم، وشتم آباءهم وعابَ آلهتهم، وقال لهم: إنكم خالفتم دين أبيكم إبراهيم عليه السلام، فعند ذلك ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة منهم على تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها ويعبدها آباؤهم من قبل وهاجت أضغانهم وأضمروا له ﷺ العداوة وجعلوا يسخرون منه ﷺ ويهزءون به في مجالسهم، فيقولون إذا مرّ بهم: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء.

❋ الكفار يامرون أبا طالب بكف النبيّ عن سبهم وسب آلهتهم

ثم لما تزايد أمره ﷺ في الطعن فيهم وفي آلهتهم بما كان ينزل عليه من القرآن ضاقوا ذرعاً وعرفوا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا به شيئاً مع وجود عمّه أبي طالب الذي كان يحميه ـ وهو من سادات بني هاشم ـ قرّروا أن يرفعوا أمره إليه ليكفّ عنهم وعن آلهتهم، فذهبوا إليه ودار بينهم وبينه ما في الحديث التالي:

[٦٩] فعن عَقِيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مسجدنا فانهه عن أذانا، فقال: يا عقيل ائتني بمحمد ـ ﷺ ـ فذهبت فأتيت به، فقال: يا ابن أخي إن بَنِي عمّك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، قال: فحَلّق رسول الله ﷺ بصَرَه إلى السماء،

فقال: **«أترَوْن هذه الشَّمس»؟** قالوا: نعم، قال: **«ما أنا بأقْدَر على أن أدعَ لكم ذلك إلا أن تُشعِلوا لي منها شُعْلةً»**، قال: فقال أبو طالب: ما كذَبنا ابن أخي فارجعوا.

رواه أبو يعلى (ج ٦/٣٩) بسند صحيح، وعزاه الهيثمي (٦/١٥) لكبير الطبراني وأوسطه وأبي يعلى وقال: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح وأورده الحافظ في المطالب العالية رقم (٤٢٧٨)، وعزاه لأبي يعلى وقال: هذا إسناد صحيح، أما الحافظ البوصيري فعزاه في الإتحاف رقم (٧٠٩٣) لأبي يعلى أيضاً وقال: بسند رواته ثقات.

هذا ما صح فيما دار بين قريش وبين أبي طالب في شأن النبيّ ﷺ عندما شكوه إليه.

نعم ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل السير قصة ذهاب كفار قريش إلى أبي طالب مرّة أو مرتين، وكان فيما قالوا له: يا أبا طالب إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استَنْهَيْناكَ من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا، من شَتْم آبائِنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم يَطِبْ نَفْساً بإسلام رسول الله ﷺ ولا خِذْلانِه ثم بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له، فأبْقِ عليّ وعلى نفسِك، ولا تُحَمّلْني من الأمر ما لا أُطيق، قال: فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمّه فيه بَدَاءٌ أنه خاذلُه ومُسَلِّمُه، وأنه قد ضعُف عن نُصْرَتِهِ والقيام معه، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمّ، والله لو وَضَعُوا الشمسَ في يَمِيني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِرَه الله أو أهلك فيه ما تَرَكْتُه»**، قال: ثم استَعْبر رسولُ الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبِلْ يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسَلِّمُك لشيء أبداً.

فهذه الرواية مشهورة بل متواترة عند أهل السِّيَر لكنها لا تصحّ سنداً، فهي معضلة ككثير من نصوص السيرة.

وعلى أيٍّ فلنرجع للأحاديث التي أوردناها في إذاية الكفار للنبيّ ﷺ لنستخرج بعض ما فيها من العِبَر والفوائد.

ففي حديث ابن مسعود بيان ما فعله ذلك الأشقى عقبة بن أبي معيط من وضعه سَلَى الجزور على ظهر النبيّ ﷺ وفرح الكفار بذلك وتضاحكهم عليه.

وفيه شجاعة مولاتنا فاطمة عليها السلام على صغرها حيث ألقت عن أبيها السلى وواجهت أولئك الملأ بالسّباب، كما فيه دعاؤه ﷺ على أولئك الصناديد وأساطين الكفر واستجابة دعائه فيهم حيث قتلوا جميعهم بغزوة بدر، وفيه جواز الدعاء على الكفار وأعداء الإسلام بالهلاك.

أما حديث ابن عَمْرو ففيه إذاية ذلك الأشقى للحبيب ﷺ وتلويته ثوبه في عنقه وخنقه به خنقاً شديداً، وفيه قوّة إيمان الصدّيق رضي الله تعالى عنه وشجاعته حيث أنقذ النبيّ ﷺ من يد ذلك الخاسر اللعين ودفعه عنه، وأنكر عليه قتل من يوحّد الله الذي جاء بالآيات الواضحات مستدلاً على ذلك بالآية التي تتحدث عن مؤمن آل فرعون، وفيه دليل على أن النبيّ ﷺ كان يواجههم بتسفيه أحلامهم، وشتم آبائهم، وعَيْب دينهم، وسبّ آلهتهم، وتفريق جماعتهم حتى تحدّثوا في ذلك فيما بينهم ولم يبق لهم صبر على ما يسمعون أو يبلغهم عنه ﷺ، فلذلك قرّروا أن ينالوا منه، ولكنه ﷺ أوعدهم بالهلاك فدخلهم الرعب والفزع مما أوعدهم به، فجعلوا يسكتونهُ ويرفقون به ولكنهم من الغد وثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحدقوا به وآذوه عليهم لعائن الله المتوالية.

وفي حديث أبي هريرة معجزة ظاهرة وحماية لنبيّنا ﷺ حيث حماه الله عزّ وجلّ من ذلك الخاسر الهالك أبي جهل لعنه الله، فها هو يقسم بآلهته العفنة القذرة لَيَطَأَنَّ على رقبة نبيّ الله ﷺ ويعفّر وجهه في التراب، فيفاجىء إخوانه صناديد الكفر الملاعين بنكوصه إلى الوراء مرعوباً يتّقي بيديه ما شاهد من الهول الذي حِيل بينه وبين ما أراد ويعود مرّة أخرى فينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة عند البيت ويهدّده بكثرة الأتباع والأنصار

فيقابله الله تعالى بقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾، وهل يستطيع أبو جهل وكل كفار أهل الأرض مقاومة ملك واحد من زبانية جهنّم؟ كلا.

وفي حديث ابن عباس رقم (٦٤) إخبار بتعاقد جماعة قريش بآلهتهم الخمس المنتنة أنهم سيقومون إلى رسول الله ﷺ جميعهم فلا يفارقونه حتى يقتلوه، لكنّ عناية الله وحمايته لنبيّه فوق ما عزموا عليه، فها هم خافضو أبصارهم ساقطو أذقانهم على صدورهم مبهوتون لا يستطيعون فعل أي شيء به، وكيف وقد دعا عليهم الحبيب ﷺ بخيبة وجوههم ثم رماهم بالتراب والحصباء، وكانت عاقبتهم القتل ببدر.

أما حديث ربيعة الدُّؤلي فيدلّ على أمرين اثنين:

أحدهما: ما كان يقوم به النبيّ ﷺ من الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ رسالة ربه بين عموم الناس وتتبّع القبائل العربية في أسواقها ومجامعها العامة ودعوتهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده وأن يصدّقوه بأنه رسول الله من عند الله عزّ وجلّ.

ثانيهما: ما كان يقوم به ذلك الشقيّ الخاسر أبو لهب حيث كان يخذل النبيّ ﷺ ويحذّر الناس منه ويكذّبه ولا يعرف لأحد من الكفار صنع صنيعه هذا، باستثناء أبي جهل كما يأتي لاحقاً، وقد كان أبو لهب عدوّ الله شديد الإذاية لرسول الله ﷺ هو وزوجته اللعينة وقد نزلت فيهما سورة من القرآن تسجل عليهما التباب والخسارة تُقرأ على ألسنة المؤمنين على ممرّ العصور والأجيال، فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾، والتباب الخسران والجِيد العنق والمَسَد الصوف، يقال: إنه كان في عنقها حبل من صوف فخنقها به جبريل عليه السلام.

أمّا حديث عائشة الأخير فسيأتي الكلام عليه في ذهابه ﷺ إلى الطائف.

* * *

❃ إيذاء صحابة رسول الله ﷺ وعدوان المشركين عليهم

[٧٠] عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أوّل من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمّه سُمَيّة، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب، وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلاَّ وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكّة، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ.

رواه ابن ماجه في المقدمة رقم (١٥٠)، قال البوصيري: إسناده ثقات، ورواه ابن حبان والحاكم (٣/٣٨٤)، وكذا ابن سعد في الطبقات، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «وصهروهم في الشمس» يعني: أحموهم فيها وأحرقوهم بها.

[٧١] وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي نَتَمَشّى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمّار بن ياسرٍ، فقال أبو عمار: يا رسول الله الدّهر هكذا؟ فقال له النبيّ ﷺ: «اصبر»، ثم قال: «**اللّهمّ اغفر لآلَ ياسِرِ وقد فعلت**»، وفي رواية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبي عمّار، وأمّ عمّار، وعمّار: «**اصْبِرُوا آلَ ياسِرِ، فإنّ مَوْعِدكُم الجنّةُ**».

رواه بالرواية الأُولى أحمد (١/٦٢)، وابن سعد في الطبقات بسند صحيح.

ورواه بالرواية الثانية الطبراني، قال النور في المجمع (٩/٢٩٣): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

[٧٢] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ مرّ بعمّارِ بنِ ياسرِ وبأهلِهِ يُعَذَّبُون في الله عزّ وجلّ، فقال: «**أبْشِرُوا آلَ ياسِرِ مَوْعِدُكُم الجنّة**».

رواه الحاكم (٣/٣٨٨)، والطبراني في الأوسط (١٥٣١) وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وعزاه النور في المحمع (٩/٢٩٣) لأوسط الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبدالعزيز المقدم وهو ثقة.

[٧٣] وعن خبّاب بن الأرَتّ رضي الله تعالى عنه قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو في ظلّ الكعبة مُتَوَسّداً بُرْدَةً له، فقلنا: يا رسول الله ادْعُ الله تبارك وتعالى لنا واسْتَنْصِرْه، قال: فاحمرّ لونه أو تغيّر، فقال: «**لقَدْ كانَ مَن كان قَبْلَكم يُحْفَرُ له حُفرةً ويُجاء بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسه فيُشَقّ، ما يَصْرِفُه عن دينه، ويُمشط بأمْشاطِ مِن الحديد ما دون عظمه من لحم أو عَصَب، ما يَصرفُه عن دينه، ولَيُتِمَّنّ الله تبارك وتعالى هذا الأَمْرَ حتى يسيرَ الراكبُ ما بين صنعاء إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخافُ إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تَعْجَلُون**».

رواه أحمد (٥/١١١)، والبخاري في المبعث (٩/١٦٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٩).

وكما أُوذي رسول الله ﷺ أُوذي أصحابه لإيمانهم به واتّباعهم له، وخاصة من لم تكن له عشيرة تَحْميه، فثبّتهم الله عزّ وجلّ ولم يفتنوا فيرتدوا عن دينهم. وحديث ابن مسعود يدلّ على أن المذكورين فيه هم أوّل من تظاهروا بالإسلام وأعلنوه، رغم ما كانوا يلاقونه من طرف الكفار، وصنيعهم ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على قوّة إيمانهم وفنائهم في محبّة الله ورسوله ﷺ وانقلاب البلاء والعذاب حلاوة، وظاهر الحديث يدلّ على أن المعذبين منهم قد قاموا بما كان الكفارُ يطالبونه، ومنهم من مدح الأصنام مثلاً وسبّ النبيّ ﷺ، بل والنطق بالكفر كما صدر من عمار الذي نزلت فيه آية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وفي الحديث أن بلالاً وحده ثبت وصمد ولم يجبهم إلى ما كانوا يريدونه منه، ولذلك أذاقُوه أنواعاً وألواناً من العذاب، وهو صابر موحّد لله تعالى لا يزيد على قوله: أحد، أحد.

أما عمّار وأبوه ياسر وأمّه سُمَيّة فلم يَلْقَ أحدٌ من التعذيب ما لقوا، بل

ياسر وزوجته سمّية ماتا تحت العذاب وعمار فكَّ نفسه بالتفوّه بكلمة الكفر، فتركوه وقد بشّر النبيّ ﷺ جميع آل ياسر بالجنّة، وأنها الموعد إن شاء الله تعالى.

وفي قول النبيّ ﷺ لخباب ومن كان معه: «**لقد كان من كان قبلكم يحفر له**» الخ، تثبيت وتسلية لهم. وقد قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ الآية.

وقال تعالى في هذا الصدد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

فهذه سنّة إلٰهيّة ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، فلا بدّ للمؤمن من امتحانه وابتلائه، وفي ذلك حكم وأسرار لله عزّ وجلّ وإن كنّا لا نعلم الكثير منها.

وفي قوله ﷺ: «**وليُتِمَنَّ الله تعالى هذا الأمر**» الخ، معجزة لرسوله الكريم عليه الصّلاة والسّلام حيث تنبّأ بشيء كان من المستحيل عادة أن يقع، فلم تمض إلا بضعة عقود فوقع ذلك كما أخبر ﷺ، وسيأتي لهذا مزيد في معجزاته ﷺ.

[٧٤] وعن سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل رضي الله تعالى عنه، قال: **والله لقد رأيتُني، وأنّ عُمَر لمُوثِقي على الإسلام قبل أن يُسْلم عمر... وفي رواية: أنا وأُختُه...**

رواه البخاري في المبعث (١٧٦/٩، ١٨١).

كان سعيد هذا من السابقين وهو زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر رضي الله تعالى عنهم، فلما أسلم هو وزوجته كان عمر يؤذيهما ويربطهما إهانة لهما، وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام، فيؤخذ من هذا الحديث أن سعيداً

هذا وزوجته كانا ممّن أُوذي في الله عزّ وجلّ وصمدا ولم يرتدّا عن دينهما، وكانا السبب في إسلام عمر رضي الله تعالى عنه كما يأتي.

***

الوليد بن المغيرة وقوله في القرآن

[٧٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ، إن قومَك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ؟ قال: لِيُعْطُوكَهُ، فإنك أتيت محمداً تَتَعَرَّضُ لِمَا قِبَلَهُ، قال: قد علمتْ قريشٌ أنّي مِن أكثَرِها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلُغُ قومَك أنك مُنْكِرٌ لَهُ، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزِهِ ولا بقَصِيده مني، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول: حلاوةً، وأن عليه لطلاوةً، وأنه لمُثْمِرٌ أعْلاهُ مُغْدِقٌ أسْفَلُه، وأنه ليعلو وما يُعْلى، وأنه ليُحَطِّمُ ما تحته، قال: لا يَرْضَى عنك قومُك حتى تقول فيه، قال: فدَعْني حتى أُفكِّرَ فيه، فلما فكَّر قال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يُؤْثِرُهُ عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَآئِكَةً﴾ إلخ.

رواه الحاكم (٥٠٦/٢، ٥٠٧) من طريق ابن راهويه وعنه البيهقي في الدلائل (٥٥٦/١) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو كما قالا وذكر ابن إسحاق نحوه.

قوله: «الطلاوة» بضم الطاء وفتحها أي: رونقاً وحسناً. قوله: «وإنه لمُثمِرٌ أعلاه» إلخ شبّه القرآن بالشجرة المثمرة أعلاها الكثيرة السقي أسفلها. قوله: «ليُحطِّم» أي: يكسر ما تحته. قوله: «سحر يُؤثَر» أي: ينقل عن الغير. قوله: «ذرني» أي: اتركني، وهذا العدوّ الذي من صفته ما ذكر وهذا الشقي مع اعترافه بحسن القرآن ورونقه، وأنه لا يشبه كلام أحد من الإنس والجنّ وأنه في غاية من الفصاحة والبيان يعلو ولا يُعْلى عليه مع كل ذلك أعرض عنه وعاند واستكبر وقال: إنه سحر ينقله محمد عن غيره، وهذا نهاية ما يكون من الخذلان والضلال عياذاً بالله، وفي هذا الشقي نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ الآية.

فوصفه المولى عزّ وجلّ بتسع صفات كلّها سافلات ساقطات لم تجمع في القرآن لغيره.

* * *

تفاوض قريش مع نبيّ الله ﷺ

[٧٦] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: اجتمعت قريش للنبيّ ﷺ يوماً، فقالوا: انظُرُوا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرّق جَماعتنا وشتّت أمْرَنا، وعابَ ديننا، فَلْيُكَلِّمْه ولينظر ما يَرُدُّ عليه.

قالوا: ما نعلم أحداً غيرَ عُتْبة بنِ ربيعة، قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خيرٌ أم عبدُالله؟ فسكت النبيّ ﷺ قال: أنت خَيْرٌ أم عبدالمطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك قد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخطة أشأمَ على قومِهم منكَ، فرّقتَ جماعتنا، وشتّتّ أمرنا، وعِبْتَ ديننا، وفضحْتَنا في العرب، حتى طار

فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما ينتظر إلا مثل صيحة الحُبْلَى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف نَتَفَانَى. أيّها الرجل إن كان إنّما بِكَ الحاجةُ جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أيّ نساء قريش فنزوّجك عشراً.

وفي رواية: وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد**»؟ قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «**فاسمع مني**»، ثم قال:

﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم، تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكفّ عن القراءة، فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ فقال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلّمونه به إلا كلمته، قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم، قال: والذي نصبها بُنْيَةً ما فهِمْتُ شيئاً مما قال غير أنه قال: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، قالوا: ويلك يكلّمك بالعربية فلا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت مما قال غير ذكر الصاعقة.

وفي رواية: والله قد سمعتُ قولاً ما سمعتُ بمِثْلِهِ قطّ، والله ما هو بالشعر، ولا السحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعتُ منه نَبأ، فإن تُصِبْه العربُ فقد كُفِيتُمُوه بغيركم، وإنْ يظهر على العرب فمُلْكه مُلْكُكم، وعِزّه عِزُّكم، وكنتم أسْعَد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأيي فيكم، فاصْنَعُوا ما بدَا لكُمْ.

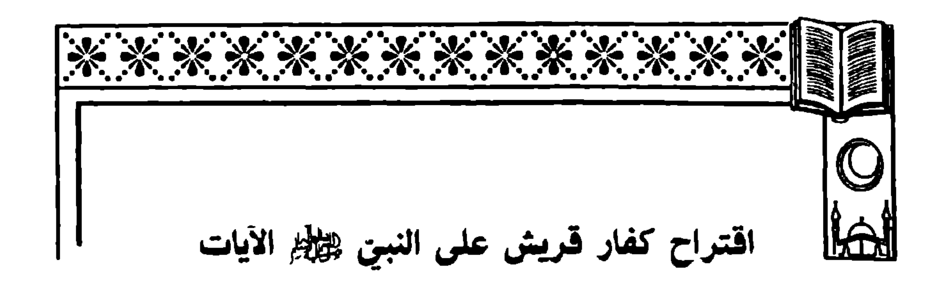
رواه ابن أبي شيبة رقم (٣٦٥٦٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (١١٢٣)، وأبو يعلى رقم (١٨١٢)، والحاكم (٢/٢٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي وفي سنده الأجلح الكندي مختلف فيه كما فيه الذيال بن حرملة مجهول الحال، ورواه ابن إسحاق (١/١٨٥، ١٨٦) مع الروض مرسلاً بسند حسن، فالحديث حسن أو صحيح بطريقيه.

الحديث يدلّ على أُمور، **أولاً**: إن كفار قريش كانوا مقرّين ومعترفين بأن ما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن لا يشبه كلام البشر، وأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله كما يأتي في المعجزات.

ثانياً: اعترف عتبة بن ربيعة أمام ملئه القرشيّين أن ما سمعه من النبيّ ﷺ ليس بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة وهذه شهادة عالمهم بهذه الأشياء، وفيه ردّ لقول الوليد السابق: إنه سحر يُؤثر.

ثالثاً: عرض عتبة على النبيّ ﷺ تلك الخلال الثلاث يدلّ على أن أهل الدنيا أيّاً كانوا ليس لهم هَمٌّ إلا التمتّع بالحياة من كثرة الأموال والتلذّذ بالنساء والزّعامة والرياسة، ولذلك خصّ هذه الأشياء بالعرض عليه ﷺ وغاب عنه أن الرسول الكريم عليه الصّلاة والسلام لم يكن هدفه ذلك، ولذا قال كما في بعض الروايات: **«ما جِئْتُ بما جئتُكُم به أطلبُ أموالَكم ولا الشرف فيكم ولا المُلك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فإن تَقْبَلُوا مِنّي ما جِئتُكُمْ به، فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة وإن تَرُدُّوه عليّ أصْبِرْ لأمر الله تعالى حتى يحكمَ الله بيني وبينكم»**.

رابعاً: إنه كان في إمكانه ﷺ أن ينتهز الفرصة في الزعامة أو الملك عليهم ويتّخذ ذلك وسيلة للدّعوة كما يفعل ذلك أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الاستيلاء على الحكم ليستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم ومذاهبهم على الناس، لكن النبيّ ﷺ لم يرض سلوك هذه السياسة إلى دعوته لأن ذلك ينافي مبادىء دعوته التي أمره الله بها، وقد كان ﷺ أزهد الناس في هذه الحياة وكان كثيراً ما يحذّر منها ومن مفاتنها التي منها الزعامة والرياسة والأموال والنساء، فكيف يستجيب لهم إليها؟



اقتراح كفار قريش على النبي ﷺ الآيات

❁ انشقاق القمر

[٧٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أهل مكّة سألوا رسول الله ﷺ أن يُرِيَهم آية، فأراهم انْشِقاق القمر مرّتين.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٤١) وفي المناقب، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٤٥).

[٧٨] وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: انْشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ حتى صارَ فرقَتَيْن على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقالوا: سَحرنا محمدٌ، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يَسْتَطِيعُ أن يَسْحَرَ الناس كلّهم.

رواه أحمد (٨١/٤، ٨٢)، والترمذي (٣٠٧٢)، والحاكم (٤٧٢/٢) بسند صحيح على شرط مسلم.

معجزة انشقاق القمر نطق بها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ وأحاديثه وردت من طرق صحيحة شتّى لا يمترى فيها، ومع مشاهدة الكفار لذلك أعرضوا وعاندوا، وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

❁ ❁ ❁

❊ اقتراحهم عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً

[٧٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قالت قريش للنبيّ ﷺ: ادعُ لنا ربّك أن يجعل لنا الصّفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون»؟ قالوا: نعم.

قال: فدعا فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: «**إن ربّك عز وجلْ يَقرَأ عليك السلام ويقول: إن شِئْتَ أصبحَ لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عَذَّبتُه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن شِئْتَ فتحتُ لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: بل باب التوبة والرحمة**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٥٨/١)، والنسائي في الكبرى (٣٨٠/٦)، والحاكم (٣٦٢/٢)، والبيهقي في الدلائل (٢٧١/٢) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال في المجمع (٥٠/٧): ورجال الروايتين رجال الصحيح.

إن كفار قريش لما رأوا أن تلك المطالب التي عرضوها على النبيّ ﷺ لم يقبلها منهم أرادوا أن يدخلوا مِن باب آخر وهو تعجيزه بطلب الآيات، فطلبوا منه انشقاق القمر فأراهموه فأعرضوا عنه وكذّبوه فسألوه أن يجعل لهم الصّفا ذهباً، فأجابهم لذلك لكن الله عزّ وجلّ خيّره بين فتح باب التوبة والرحمة وبين تعذيبهم العذاب الشديد إن كفروا بعد مشاهدتهم الصفا ذهباً، فاختار ﷺ فتح باب التوبة، وأخبر تعالى بأن المَانِعَ مِن إرسالِ الآيات تكذيبُ من سبَقهم من الأُمم حيث اقترحوا ثم كذبوا، فأهلكهم الله ودمّرهم، وهكذا هؤلاء فإنهم لو أُجيبوا إلى ما اقترحوا ثم كذبوا لاستأصلهم الله وأبادَهم... ومن تعنّتهم وعنادهم ما قصّه الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

فلم يجبهم الله عزّ وجلّ لِمَا اقترحوا؛ لأنه تعالى علم ما تكنّه صدورهم من التعصّب والعناد والكفر والتكذيب والتعجيز كما هو ظاهر أيضاً من مقترحاتهم.

* * *

إسلام حمزة عمّ النبيّ ﷺ

[٨٠] عن محمد بن كعب القرظيّ قال: كان إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه حَمِيَّةً وكان يخرج من الحرم فإذا رجع مرّ بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصّفا والمروة فيمرّ بهم، فيقول: رميتُ كذا وكذا، وصنعتُ كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله فأقبل من رميه ذاتَ يوم فلقيته امرأةٌ، فقالت: يا أبا عمارة ماذا لَقِيَ ابنُ أخِيكَ من أبي جهل بن هشام شَتَمه وتَناوله وعمِل وفعَلَ، فقال: هل رآه أحدٌ؟ قالت: إي والله لقد رآه ناسٌ، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصّفا والمروة، فإذا هم جلوسٌ وأبو جهل فيهم، فاتّكأ على قَوْسه وقال: رَمَيتُ كذا وكذا، وفعلتُ كذا وكذا، ثم جمع يدَيْه بالقوس فضَرَب بها بين أُذُنَيْ أبي جَهْلٍ فوق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف واشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله، قالوا: يا أبا عمارة، إنه سبّ آلهتنا وإن كنتَ أنت وأنت أفضل منه ما أقررناك وذاك وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً.

رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح كذا في المجمع (٢٦٧/٩)، وله طرق أخرى مرسلة تؤيّده، وانظر سيرة ابن هشام (٣٢١/١)، وسيرة ابن كثير.

كان إسلام حمزة رضي الله تعالى عنه فتحاً ونصراً للإسلام والمسلمين لأنه كان ذا شجاعة وشكيمة وقوّة، وكان يسمّى أسد الله وهو عمّ

رسول الله ﷺ وأخوه من الرّضاعة، ويأتي بقية كلام عليه في غزوة أحد إن شاء الله تعالى.

* * *

إسلام أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه

[٨١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: لمّا بلغ أبا ذرّ مَبْعَث النبيّ ﷺ قال لأخيه: إركب إلى هذا الوادي فاعلم لي عِلم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ، يأتِيهِ الخبرُ من السماء، واسمعْ من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قَدِمه، وسمِع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذرّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شَفَيْتَنِي مما أردتُ فتزوّد وحمل شَنَّةً له فيها ماءٌ حتى قدم مكّة، فأتى المسجد فالتمس النبيّ ﷺ ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى أدركَه بعضُ الليل، فرآه عَلِيٌّ عليه السلام فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظلّ ذلك اليوم ولا يراه النبيّ ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمرّ به عليّ، فقال: أمَا نال للرجل أن يعلم منزله، فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان يوم الثالث، فعاد على مثل ذلك فأقام معه، ثم قال: ألاَ تُحَدِّثُني ما الذي أقْدمك؟ قال: إن أعْطَيْتَني عَهْداً أو ميثاقاً لتُرْشِدَنّني فعلتُ ففعل فأخبره، قال: فإنه حَقٌّ وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحتَ فاتْبَعْنِي، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمتُ كأني أُرِيقُ الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخلَ مَدْخَلِي ففعل، فانطلق يَقفُوه حتى دخل على النبيّ ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبيّ ﷺ: **«ارْجع إلى قومِك فأخبِرْهم حتى يأتيك أَمْرِي»**، قال: والذي نفسي بيده لأَصْرُخَنَّ بها بين ظَهْرَانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أضْجَعُوه، وأتى العباسُ فأكبَّ عليه قال: وَيْلكم أَلَسْتُم تعلمون أنه من غِفار،

وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم فأنْقَذَهُ منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباسُ عليه.

رواه البخاري في المبعث (١٧٣/٨، ١٧٤) وفي المناقب (٣٥٢٢)، ومسلم في الفضائل (٢٧/١٦، ٣١، ٣٤) بسياق آخر، ويأتي في المناقب إن شاء الله تعالى.

كان أبو ذرّ رضي الله تعالى موفقاً قبل اتّصاله بالنبيّ ﷺ، فكان موحداً يصلّي لله تعالى ولما سمع برسول الله ﷺ بعث إليه أخاه ليأتيه بخبره ثم شدّ الرحلة إليه بنفسه حتى لَقِيه وأشهر إسلامه وأظهره بين ظهراني الكفار ونال نصيباً من إذايتهم، ولولا أن العباس أنقذه منهم لَقَتَلُوه، وذلك يدلّ على متانة إيمانه وقوّته وأبو ذرّ رضي الله تعالى عنه يعدّ من نوادر الصحابة الزهّاد، وتأتي فضائله في المناقب.

* * *

إسلامُ ضِماد الأزْدِي

[٨٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ضِماداً قدم مكّة، وكان من أَزْد شَنُوءَة، وكان يَرْقي من هذه الريح فسمع سُفهاءَ من أهل مكّة يقولون: إن محمداً لمجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعلّ الله يَشْفيه على يديَّ، قال: فلقيته، فقال: يا محمد إني أرقِي من هذه الريح، وأن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أمّا بعد»**، قال: فقال: أعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهنّ عليه رسول الله ﷺ ثلاثَ مراتٍ، قال: فقال: لقد سمعتُ قول الكَهَنَة وقول السَّحَرة وقول الشُّعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن قَامُوس البحر، قال: فقال: هات يدك أُبَايِعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ:

«وعلى قومك»، قال: وعلى قومي، قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطْهرةً، فقال: ردّوها فإن هؤلاء قوم ضماد.

رواه أحمد (٣٠٣/١)، ومسلم في الجمعة (١٥٦/٦، ١٥٧).

قوله: أزد شنوءة هي من اليمن. قوله من الريح يعني الجنون، قوله: «قاموس البحر» أي بطنه ووسطه.

وفي الحديث دليل على أن النبيّ ﷺ كان قد أُوتي من الفصاحة والبيان ما فاق به أهل زمانه من العرب البلغاء وأنه كان يؤثر في قلب كل من سمعه كما حصل لضماد، فإنه جاء بقصد علاج النبيّ ﷺ الذي كان يشاع عنه أنه مجنون، فلما سمع كلامه لم يتوان عن تصديقه والإيمان به لما دهمه من نور الحقّ وسحر كلامه ﷺ.

* * *

إسلام الجنّ

[٨٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ ولا رآهم، انطلق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامِدين إلى سُوق عُكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُب فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حَدَث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا... فانطلق الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تَسَمَّعُوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، وأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وإنما أوحى الله قول الجنّ.

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى وتقدم في التفسير، انظر سورتي الأحقاف والجنّ.

وفي الحديث دليل على أن الجنّ مخاطبون بالتكاليف الشرعيّة كالإنس، ولا فارق وأنه يوجد فيهم مؤمنون وكافرون وأنهم عالم يعيشون معنا ولا نراهم وأخبارهم كثيرة ولهم عجائب وغرائب ونوادر، وتقدّم الكلام عليهم في التفسير في الأحقاف، وفي سورة الجنّ. وفي الحديث بيان أن بعثة نبيّنا ﷺ كانت حائِلة بين الشياطين وبين خبر السماء، فمن أراد استراق السمع منهم أرسلت عليه الشُّهب بواسطة ملائكة الله المكلّفين بحراسة السماء، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ الآية. وفي الحديث بيان عناية الله وسابق فضله، وأن أولئك الشياطين كانوا من جند إبليس صباحاً، فلما كان المساء أصبحوا من جند الله تعالى، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* * *

تحطيم رسول الله والإمام عليّ وأسامة بن زيد الأصنام وتلطيخها بالعذرة

[٨٤] عن الإمام عليّ عليه السلام قال: كنت أَنْطَلِقُ أنا وأُسامةُ بن زَيْد إلى أصْنام قُريش التي حولَ الكعبة، فنأتي بالعَذِرات، فنأخذُ حَريراق بأيدينا، فننطلق به إلى أصنام قريش فنُلَطِّخُها فيصبحون يقولون: من فعل بآلهتنا؟ فينطلقون إليها ويغسلونها باللّبن والماء...

عزاه الحافظ في المطالب العالية رقم (٤٢٧٥) لإسحاق بن راهويه وقال: إسناده صحيح.

في هذا الأثر مشروعية إهانة معابد الكفار والنَّيل منها بإلقاء القاذورات عليها ونحو ذلك، وهذا طبعاً إذا لم يؤدّ إلى إهانة مقدّساتنا وسبّ الله أو رسوله مثلاً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وما فعله الإمام علي وأسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهم كان في ظروف خاصّة.

[٨٥] وعن عليّ أيضاً رضي الله تعالى عنه قال: انطلقتُ أنا والنبيّ ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اجلس**» وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس لي رسول الله ﷺ فقال: «**اصعد على منكبي**»، قال: فنهض بي قال: فإنّه يُخيل إليّ أني لو شئت لنلتُ أفق السّماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تِمْثالُ صُفْر أو نُحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى استمكنتُ منه، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اقْذِفْ**»، فقذفتُ به فتكسَّر كما تتكسَّر القوارير ثم نزلت، فانطلقتُ أنا ورسولُ الله ﷺ نَسْتَبِقُ حتى توارَيْنا بالبيوت، خشيةَ أن يلقانا أحدٌ من الناس. وفي رواية: كان على الكعبة أصنام، فذهبت أحمل النبيّ ﷺ فلم أستطع، فحملني فجعلت أقطّعها ولو شئت لنلت السماء.

رواه أحمد (٨٤/١) وابنه في زوائد أبيه (١٥١/١)، وأبو يعلى، وقال النور في المجمع (٢٣/٦) ورجال الجميع ثقات.

كان هذا التحطيم للأصنام قريباً من وقت الجهر بالدعوة، وذلك يُعتبر تغييراً لأعظم منكر يوجد عند الكعبة، وفي ذلك منه ﷺ اتساء بأبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسلام مع ما في ذلك من ردود فعل، فإن المشركين كانوا في ذلك الحين أشدّ ما يكون من إذاية النبيّ ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❋ الهجرة إلى الحبشة

[٨٦] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين[1] رجلاً، فيهم عبدالله بن مسعود،

(١) كانت هذه الهجرة الثانية.

وجعفر وعبدالله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى؛ فأتوا النجاشي وبعثت قريشٌ عَمْرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دَخَلا على النجاشيّ سجَدَا له ثم ابتدرَاه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنّا وعن ملّتنا، قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنّا لا نسجد إلاّ لله عزّ وجلّ، قال: وما ذاك؟ قال: إن الله عزّ وجلّ بعث إلينا رسوله ﷺ وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمّه؟ قالوا: نقول كما قال الله عزّ وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ولم يفرضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقِسّيسين والرُّهْبان والله ما يزيدون عن الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى ابن مريم انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من المُلْك لأتيته حتى أكون أنا أحمِلُ نعليه وأُوَضِّئُه، وأمر بهدِيَّةِ الآخَرين فردَّت إليهما، ثم تعجّل عبدالله بن مسعود حتى أدرك بَدْراً وزعم أن النبيّ ﷺ استغفر له حين بلغه موتُه.

رواه بهذا السياق أحمد (٤٦١/١) وسنده حسن وجوّده ابن كثير وقوّاه وحسّنه ورواه بنحوه الطبراني عن أبي موسى، قال الهيثمي في المجمع (٣٠/٦، ٣١) ورجاله رجال الصحيح.

[٨٧] وعن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ قالت: لمّا نزلنا أرض الحبشة جَاوَرْنا بها خَيْرَ جارٍ النجاشي أمِنَّا على ديننا، وعَبَدْنا الله وحده لا نُؤْذَى، ولا نَسْمَعُ شيئاً نكرهُه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جَلْدَيْن، وأن يُهْدُوا النجاشي هدايا ما يُسْتَطْرَفُ من متاع مكّة، وكان أعْجَب ما يأتيه منها الأدَمُ، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتِه بِطْرِيقاً إلا أهدوا له هدية، وبعثوا بذلك مع

عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كُلِّ بِطْرِيق هديَّته قبل أن تكلّموا النجاشي فيهم، ثم قدّموا النجاشي هداياه ثم اسْألُوه أن يسلّمهم إليكم قبل أن يُكلّمهم.

قالت: فخرجا فقدما على النجاشيّ ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمانٌ سُفهاءُ فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم لِيَردُّهم إليهم، فإذا كلَّمْنا المِلِك فيهم فأشِيرُوا عليه أن يُسلِّمهم إلينا ولا يكلّمهم، فإن قومهم أعلم بهم عَيْباً، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نِعِمَّا، ثم قرّبوا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم، ثم كلّماه فقالوا له: أيّها الملك قد صبأ إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائِهم وأبنائهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بهم عَيْباً وأعلم بما عابوا وعايبوهم فيه. فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلم بهم عيباً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسْلِمْهم إليهم فليردّهم إلى بلادهم وقومهم؛ فغضب النجاشي وقال: لا هيم الله إذ لا أسلّمهم إليهما، ولا أكاد، قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلَمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحتسب جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا فقالوا بعضهم لبعض: ما تقولون في الرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبيّنا ﷺ كائِن في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوه وقد دعا النجاشيّ أساقِفَتَهُ فنشَرُوا مصاحِفهم حوله سألهم، فقال: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الأُمم؟ قالت: وكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال: أيها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل المَيْتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيءُ الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنّا نَعْرِفُ نسبَه وصِدْقَه،

وأمانتَه، وعفافَه، فدعانا إلى الله عزّ وجلّ لنُوَحِّدَه ونَعبدَه ونَخلعَ ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام فصدّقناه وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عزّ وجلّ، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك. قال: فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، قالت: فقال له النجاشي: فاقرأه، فقرأ عليه صدراً من «كهيعص»، قالت: فبكى النجاشي حتى أخْضَبَ لِحْيَتَه، وبكتْ أساقِفَتُه حتى أخْضَبُوا مصاحِفَهم حين سمعوا ما تُلِيَ عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلّمهم إليكم ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينهم غداً أعِيبُهم عنده بما استأْصِل به خَضْراءَهم. فقال له عبدالله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عليه السلام عبدٌ. قالت: ثم غدا عليه، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها، واجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله سبحانه وتعالى وما جاء به نبيّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ونقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده

على الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فناخَرَت بطارِقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله إذهبوا فأنتم سيوح بأرضي، والسيوح الآمنون من سَبَّكُم غرّم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبّكم غرم، فما أحبّ أن لي دير ذهب، وإني آذيت رجلاً منكم، والدير بلسان الحبشة الجبل: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه وما أطاع في الناس فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت: فوالله إنّا على ذلك إذ نزل به - يعني من ينازعه في ملكه - قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشدّ من حزن حزناه عند ذلك تخوّفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقّنا ما كان النجاشي يعرف منه. قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سنّاً، قالت: فنَفَخُوا له قِرْبَة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوّه والتمكين له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكّة.

رواه أحمد (٥/٢٩٠، ٢٩٢) من طريق ابن إسحاق، وأبو نعيم في الحلية (١/١١٥) بسند صحيح، قال الهيثمي (٦/٢٤، ٢٧): ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث وهو عند ابن هشام (١/٣٦٠، ٣٦٤).

عندما اشتدّ البلاء بالصحابة من طرف قريش ولم يكن للنبيّ ﷺ وقته ما يحميهم به، قال لهم: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ حتى يجعل الله تعالى لكم فرجاً مما أنتم فيه»**، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله تعالى بدينهم، وكانت أول هجرة في الإسلام.

فخرجوا متسلّلين مختفين وكان عددهم في هذه الهجرة عشرة رجال، وخمس نسوة وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة وزوجه أمّ سلمة، وأخوه لأمّه أبو سبرة بن أبي رهم، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبدالرحمٰن بن عوف وعثمان بن مظعُون ومُصعب بن عُمير وسهل بن البيضاء والزبير بن العوام وجلّهم من قريش، وكان عليهم عثمان بن مظعون، فساروا ولمّا انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة، فأقاموا بها آمنين لكنهم سرعان أن أُشيع بأن مشركي مكّة أسلموا فرجع هؤلاء المهاجرون إلى مكّة فوجدوا الأمر على خلاف ما أشيع ولم يتمكّنوا من الدخول إليها إلا بمجير يحميهم، ومن لم يجد منهم مجيراً اشتدّ عليه البلاء واستُأنِفَتْ فِتْنَتُهُ من جديدٍ.

* * *

الهجرة الثانية

ثم لما تألّب الكفار على الصحابة وتكالبوا عليهم بالعداوة وألوان الإذاية والتعذيب أمر رسول الله ﷺ أصحابه جميعاً ممن قدر أن يهاجر إلى أرض الحبشة، فهاجر معظمهم، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً، ثماني عشرة امرأة، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عُمَيْس، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن مسعود، وعبيدالله بن جحش[1] وامرأته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان...

ولما رأت قريش ذلك أرسلت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ليسلّمهم إليهما مرتين: مرّة كان فيهما عمرو وعمارة، ومرة كان مع عمرو عبدالله بن أبي ربيعة، وقد رأينا كيف انتصر المسلمون على وفد

(١) وكان من قدر الله أن ارتد هذا ومات بالحبشة كافراً وفارقته أم حبيبة فتزوجها النبي ﷺ كما يأتي.

قريش ورجوعهم مخذولين مخزيين، حيث إن النجاشي أجار المسلمين وحماهم ورحّب بهم وأمّنهم في بلاده لمّا عَلِمَ صِدْقهم وافتراءَ أعدائهم.

* * *

من فوائد حادث الهجرة إلى الحبشة وعِبَره

يؤخذ من حادث الهجرة إلى الحبشة أمور:

أولاً: مشروعية الهجرة فراراً بالدين من الفتن، ولا خلاف في وجوبها أو استحبابها عند المقتضي لها وهي سنة من سُنن الأنبياء.

ثانياً: يشترك فيها الرجال والنساء، فالنساء شقائق الرجال في الأحكام والتكاليف الشرعية بدون أي فارق، ولذلك نرى بنات سادات قريش يهاجرن بدينهن مع أزواجهنّ كرقية بنت رسول الله ﷺ وأمّ سلمة المخزوميّة، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان... رضي الله تعالى عنهنّ.

ثالثاً: فيه ما كان عليه ملوك النصارى من استعباد شعوبهم بالسجود لهم بينما جاء الإسلام بتحريم السجود لغير الله تعالى.

رابعاً: فيه جواز الإقامة بدار الكفر لأجل اللجوء... إذا كان المسلم مأموناً على إقامة دينه ونفسه وأهله، وقد فصّلت القول في هذا في الجهاد، فارجع إليه.

خامساً: فيه ما كان عليه عمرو بن العاص من العداوة للمسلمين حتى افترى عليهم أمام النجاشي وأساقفته لِيُرْغِمَهُم على الرجوع إلى مكّة ليتشفى منهم.

سادساً: يبدو أن النجاشي كان عاقلاً حكيماً، فإنه لم يقض لعمرو بمجرّد ما قال له عن الصحابة، بل تروَّى حتى بعث إليهم وسمع كلامهم، فعندئذ قضى بما ظهر له من الحقّ، فردّ المبعوثين خائبين خاسئين.

سابعاً: يظهر من سياق الحادث أن النجاشي كان موحّداً ولم يكن من

أهل التثليث والشرك، وكان ذلك الحامل له على الإسلام، فآمن بالنبيّ ﷺ وبقي ملكاً على النصارى إلى أن توفي في السنة التاسعة للهجرة، وصلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب كما تقدّم في الجنائز، وسيأتي مزيد لهذا في المناقب، وانظر صحيح البخاري (١٩١/٨) من المبعث.

ثامناً: في هؤلاء المهاجرين مَن كان هاجر الهجرتين للحبشة، وكان منهم سيّدنا عثمان ذو النورين رضي الله تعالى عنه كما يأتي في المناقب.

تاسعاً: فيه بيان عظمة سيدنا جعفر رضي الله تعالى عنه وفضله وشجاعته وقوّة عارضته، وفصاحته وبيانه، واقتداره على المحاورة وملاقاة الملوك، وإفحام الخصم.

عاشراً: استحضاره لكثير من أصول الدين وقواعده وإلقاؤها على الملك والقساوسة بدون تلعثم... فرضي الله تعالى عنه.

حادي عشر: بقي المسلمون مهاجرو الحبشة بها إلى زمن خيبر.

[٨٨] فعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: بلغنا مخرج النبيّ ﷺ ونحن باليمن، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافقنا النبيّ ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبي ﷺ: **«لكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان»**.

رواه البخاري في المبعث (١٩٠/٨)، ويأتي في الغزوات وفي المناقب.

❋ ❋ ❋

❋ أحداث وقعت بين الهجرة إلى الحبشة وبين الإسراء
إسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

[٨٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«اللّهمّ أعِزّ الإسلام بأحَبّ هذَين الرّجُلين إليك: بأبي جَهل، أو بعُمَر بن الخطّاب»**، قال: وكان أحبَّهما إليه عُمر.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٤٧) بتهذيبي، وابن حبان (٢١٧٩) بالموارد وحسّنه الترمذي وصححه وله شواهد ذكرتها في تهذيب الترمذي.

[٩٠] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ما زِلْنا أعِزَّةً منذُ أسلَمَ عُمَرُ.

رواه البخاري في المبعث (١٧٦/٨) رقم (٣٦٨٤).

[٩١] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا أسلم عمر اجتمع الناس عند داره، وقالوا: صَبَأَ عُمر، وأنا غلام فوق ظهر بيتي فجاء رجل عليه قباءٌ من ديباج فقال: قد صبأ عمر! فما ذاك؟ فأنالَهُ جارٌ، قال: فرأيت الناس تَصَدَّعُوا عنه، فقلت: من هذا؟ قالوا: العاص بن وائل.

رواه البخاري في المبعث (١٧٧/٨).

كان إسلام عمر نصراً وعِزّاً للإسلام لما كان له من الشجاعة والقوّة والشهامة بعد أن كان أقسى الناس على المسلمين وأشدّهم كراهة للإسلام وأبعدهم منه، فاستجاب الله تعالى دعاء النبيّ ﷺ فيه، كما قال: **«اللّهمّ أعِزّ الإسلام بأحبِّ الرجُلَين إليك»**، فكان أحبّهما إليه تعالى عمر رضي الله تعالى عنه، وكان سبب إسلامه كما ذكره أهل السيرة إذايته لأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد، فبعد أن آذاهما خرج قاصداً دار الأرقم بن الأرقم حيث كان يجتمع النبيّ ﷺ بأصحابه، فطرق الباب وأذنوا له، فأخذ النبيّ ﷺ بِتَلاَبِيبِهِ وقال له: **«ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنْزِلَ الله تعالى بك قارعةً»**، فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، فكَبّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. هكذا ذكره ابن هشام في السيرة.

[٩٢] وعندما أسلم قال للنبيّ ﷺ: يا رسول الله إني لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش مُتحلِّقة فجعل يُعلنُ الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله،

فثار المشركون فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا عليه خلَّصه العاص بن وائل.

أورده في المجمع (٩/٦٥) وعزاه لأوسط الطبراني، وقال: رجاله ثقات وتأتي أحاديث أخرى في مناقبه إن شاء الله تعالى.

* * *

❊ حصار النبيّ ﷺ ومن كان معه من بني هاشم وبني المطلب في الشِّعْب

[٩٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أراد حُنَيْناً: **«منزلُنا غداً إن شاء الله بخَيْف بَنِي كِنانة حيثُ تقاسَمُوا على الكفر»**، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يُناكحوهم، ولا يبايعوهم حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ، وفي رواية: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى: **«نحن نازلون غداً»** إلخ.

رواه البخاري في المبعث (٨/١٩٢) وفي الحج، ومسلم في الحج أيضاً رقم (١٣١٤).

خيف بني كنانة: هو الأبطح ويقال له المحصب. «تقاسموا على الكفر» تعاهدوا وتحالفوا.

[٩٤] وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أين تنزل غداً؟ في حجته، قال: **«وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟»** ثم قال: **«نحن نازلون غداً إن شاء الله تعالى بخيف بني كنانة ـ يعني المحصب ـ حيث قاسمت قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم، أن لا يُناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يؤوهم»**.

رواه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤)، ومسلم فيه (١٦١٤)، وأبو داود (٢٩٠٩)، وأحمد (٥/٢٠٠، ٢٠٩) وغيرهم.

«تقاسموا» أي: تحالفوا وتعاقدوا على مقاطعة النبيّ ﷺ ومن كان معه.

ذكر أهل السِّيَر كابن إسحاق وابن عقبة وغيرهما أن قريشاً لمّا رأت الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً، وأن عمر قد أسلم، وأن الإسلام فشا في القبائل أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعب أبي طالب ومنعوه ممن أراد قتله فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية، فلما رأت قريش ذلك أجمعوا أن يكتبوا صحيفة على منابذة بني هاشم وبني المطلب والتضييق عليهم بأن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم... حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ، ففعلوا ذلك وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فكانوا معه كلّهم إلاّ أبا لهب، فكان مع قريش فأقاموا على ذلك نحواً من ثلاث سنين حتى جهدوا ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية حتى كانوا يؤذون من اطلعوا عليه أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصّلات إلى أن قام نفر منهم بنقض الصحيفة وكانوا خمسة من أشراف قريش، وهم هشام بن عمرو بن الحارث العامري وهو أعظمهم في ذلك بلاء، وزهير بن أبي أُمية المخزومي ابن عمّة الرسول عاتكة، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختري بن هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي، واتّفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلّة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكّة أنأكُلُ الطعام ونَلْبسُ الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك وصدق على ما قيل هشام بن عمرو، فقام إليها المطعم بن عدي فشقّها، وكانت الأَرَضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلاّ ما

فيه اسم الله تعالى، فخرج القوم إلى أماكنهم بعد هذه الشدّة. هذا ما ذكره علماء السير والمغازي وهو شرح لقوله ﷺ... «حيث تقاسموا على الكفر» إلخ.

هذا الحصار الظالم الذي وقع على النبيّ ﷺ ومن كان معه، الذي دام ثلاث سنوات يدلّ على أن أُولئك الكفار كانوا منسلخين من الإنسانية قد بلغوا من قساوة القلوب وصلابتها ما لا يمكن التعبير عنه، وفعلهم ذلك أشبه شيء بقُساةِ وقتِنا الكفرة الذين يضربون الحصار على ضعفاء الدول، فيحولون بينهم وبين اقتصاد العالم كما يُحاصَرُ الدعاة إلى الله تعالى وعلماء الإسلام والمصلحون، فالتاريخ يُعيد نفسه.

والذي يلفت الأنظار من هذا الحادث هو انحياز كفار بني هاشم وبني المطلب إلى صفّ النبيّ ﷺ، مع العلم بأنه لم يكن ذلك منهم تديّناً وتصديقاً لما جاء به النبيّ ﷺ كما كان حال المسلمين منهم، وإنما فعلوا ذلك حمية منهم وخوفاً من أن تعيّرهم العرب إذا ما قتل النبيّ ﷺ كفارُ قريش ولم يحمه وينصره أقاربه، وحيث إنهم قاسوا شدائد الجوع والعُرْي ومقاطعة قومهم إيّاهم حماية للنبيّ ﷺ ودفاعاً عنه جعل لهم ﷺ حظّاً من خمس الفَيْء والغنيمة دون بني عمّهم من بني عبد شمس ونوفل، ولما قيل له في ذلك قال: إن بني هاشم والمطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام، وكم كنّا نتمنّى أن يُسلم الذين ماتوا على الكفر منهم وفي طليعتهم أبو طالب كما كَمْ كُنَّا نتمنّى أن يُسلم جميع أولئك الخمسة الذين نقضوا الصحيفة الظالمة لما أسدوا للنبيّ ﷺ من خير ومعروف، ونرجو الله أن يخفّف عنهم العذاب كما يخفّفه على أبي طالب وأبي لهب.

* * *

❁ الانتقام من المستهزئين برسول الله ﷺ

[٩٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا

كَفَيْنَكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ الآية، قال: المستهزئون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأبو زمعة الأسود بن المطلب من بني أسد، والحارث بن عيطل السَّهْمي، والعاص بن وائل، فأتاه جبريل عليه السلام فشكاهم النبيّ ﷺ إليه، فأراه الوليد وأومأ جبريل إلى أبجله، فقال: ما صنعت؟ قال: كُفِيتَه، ثم أراه الأسود فأومأ جبريل إلى عينه فقال: ما صنعتَ؟ قال: كُفيتَه، ثم أراه أبا زمعة فأومأ إلى رأسه فقال: ما صنعت؟ قال: كُفيتَه، ثم أراه الحارث فأومأ إلى رأسه أو بطنه وقال: كفيته، ومرّ به العاص فأومأ إلى أخْمَصِه وقال: كُفيتَه، فأمّا الوليد فمرّ برجل من خزاعة وهو يريش نبالاً، فأصاب أبجله فقطعها، وأما الأسود فعمي، وأما ابن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها، وأمّا الحارث فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرؤه من فيه فمات منها، وأما العاص فدخل في رأسه شُبْرُقَة حتى امتلأت فمات منها، وقال غيره: إنه ركب إلى الطائف حماراً فربض به على شوكة فدخلت في أخْمَصِه فمات منها.

رواه البيهقي في السنن (٨/٩) والدلائل (٣١٦/٢) وسنده صحيح وصححه الذهبي في السيرة.

«الأبْجَل» هو عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل بين العصب والعظمِ. «شُبْرقة» بضم الشين والراء بينهما باء ساكنة؛ نبت له شوك.

وفي هذا الأثر بيان المستهزئين الذين كانوا يسخرون من النبيّ ﷺ ويضحكون عليه ويتهكّمون، وأن الله عزّ وجلّ كفاه إيّاهم فأهلكهم جميعاً.

ومن أنواع استهزاء العاص به ﷺ ما جاء في الحديث التالي:

[٩٦] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء فَفَتَّهُ بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيُحْيِي الله هذا بَعْدَ ما أرم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«نعم، يُمِيتك الله ثم يُحْيِيك ثم يُدْخِلُك جهنّم»**، قال: ونزلت الآيات من آخر سورة يَس.

رواه ابن جرير (٢٣/٣٠، ٣١)، وابن أبي حاتم (٣٢٠٢/١٠)، والحاكم (٤٢٩/٢)، وصححه على شرط الشيخين، والآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ الآية. وقوله: «رميم» أي بالٍ، وقوله: «بعدما أرم» أي بَلِيَ، كان العرب لا يعترفون بالحياة بعد الموت ولذلك كَثُر الكلام في القرآن الكريم على البعث، وضرب الله لذلك أمثالاً كثيرة، وهذا الشقيّ العاص كان ممن يُنكر البعث واستبعد ذلك فقال: من يُحيي العظام وهي رميم.

فالإنسان رغم أنه ضعيف خُلِق من نطفة ثم علقة ثم مضغة... إلى آخر أطواره العجيبة يتعاظم على الله خالقه، ويعترض عليه ويَنْسُبُه للعجز، ويُحَكِّمُ عقلَه ويُكَذِّب ما جاءت به رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم من عنده عزّ وجلّ، فيا عجباً للإنسان.

* * *

قصة ابن أم مكتوم الأعمى مع النبيّ ﷺ

[٩٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أنزل «عبس وتولى» في ابن مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِض عنه ويُقبل على الآخر، ويقول: «**أترى بما أقول بأساً**»؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزل.

رواه الترمذي (٣١١٤)، وابن جرير (٥٠/٣٠) كلاهما في التفسير، وابن حبان (١٧٦٩) بالموارد، والحاكم (٥١٤/٢) وسنده صحيح على شرط الشيخين كما قال الحاكم ولا يضرّ من أرسله.

قوله: عبس أي: كلح وجهه وتولّى أي: أعرض عنه، ولم يكن ذلك منه ﷺ احتقاراً له واستخفافاً به، بل حاشاه من ذلك، وإنما كان ذلك حرصاً منه ﷺ على إسلام ذلك الكافر، فجاءت الآيات الكريمات

تُرْشِدُهُ ﷺ إلى ما كان الأَوْلى له أن يسلكه، وهو تذكير للأعمى وإرشاده رضي الله تعالى عنه لعلّه يزكّى.

***

دعاء النبيّ ﷺ على قريش لما استعصوا

[٩٨] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، وفي رواية: أبطأوا على الإسلام، فدعا عليهم النبيّ ﷺ فقال: «**اللّهمّ أعِنّي عليهم بسبعٍ كسبع يُوسف**»، فأخذَتْهم سَنةٌ حتى هلكوا فيها، وأكلوا الجِيفَة والعِظامَ، ويرى الرجلُ ما بين السماء والأرض كهيئة الدُّخان، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وأن قومك قد هلكوا، فادع الله، فقرأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾، أفيُكْشَفُ عنهم عذاب الآخرة إذا جاء ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يوم بدر ولِزَاماً يوم بدر. وفي رواية: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم.

رواه البخاري في التفسير (١١٣/١٠) وغيره، ومسلم آخر الكتاب (٢٧٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦) وتقدّم في التفسير.

قوله: أبطأوا أي: تأخروا فلم يسلموا. وقوله: «كسبع يوسف» أي: كالسبع السنين المجدبة التي أصابت الناس أيام نبيّ الله يوسف عليه السلام.

وفي الحديث دعاء النبيّ ﷺ على كفار قريش بالجدب والجوع، وقد استجاب الله تعالى دعاءه فيهم، فبعث عليهم سنة مجدبة هلكوا فيها جوعاً حتى أكلوا الجيفة والعظام، فبالأمس القريب كانوا ضاربين الحصار على النبيّ ﷺ وذويه حتى هلكوا جوعاً، فها هم اليوم يأكلون الجيفة والعظام ويفزعون إلى النبيّ ﷺ مطأطئي رؤوسهم له يستعطفونه بأن يَدْعُو الله لهم بكشف ما حلّ بهم، معترفين له بأنه جاء يدعو إلى مكارم الأخلاق فيدعو الله

فيكشف ما نزل ثم يعودون لكفرهم وطغيانهم وعنادهم، ولكنه تعالى أوعدهم بالانتقام منهم وقد فعل جلّ علاه.

***

قصة غلبة الروم والرهان بين الصديق وبين قريش

[٩٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية، قال: غُلِبَتْ، وغَلَبَتْ قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: **«أما إنهم سيغلبون»**، فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: **«ألا جعلته إلى دون»**، قال: أراه العشر، قال: قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾، قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر.

رواه أحمد (٢٧٦/١، ٣٠٣)، والترمذي (٢٩٨٥)، والنسائي في الكبرى (٤٢٦/٦) كلاهما في التفسير، والحاكم (٤١٠/٢) وصححه الترمذي والحاكم وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

في الحديث بيان لقصة الروم مع فارس وانتصار الثانية على الأولى وإخبار القرآن بأن الروم ستنتصر على فارس في بضع سنين، فكان الأمر كما أخبر، فكان ذلك من أعظم معجزات القرآن الغيبيّة، ومع ظهور ذلك وتحقّق الكفار بصحة ما نطق به القرآن وما حدثهم به النبيّ ﷺ تمادوا في طغيانهم وضلالهم واعتبروا ذلك سحراً وكهانة.

والرهان الذي وقع بين الصدّيق والكفار كان قبل أن يحرمه الله تعالى، وقد قدمنا حكمه في المعاملات.

وفي الحديث دليل على أن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من الوثنيّين والمجوس، وأنه قد يكون بينهما تحابب في انتصارهم على اللادينيين، ولا يعدّ ذلك من الموالاة المنهيّ عنها.

* * *

❋ أبو طالب: وفاته وترجمته ومآله

[١٠٠] عن المُسَيّب حَزْنِ بن أبي وَهْب رضي الله تعالى عنه قال: لما حَضرتْ أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبدالله بن أبي أُمَيّة، فقال رسول الله ﷺ: **«أي عم، قل لا إله إلاَّ الله كلمةً أُحَاجُّ لك بها عند الله»**، وفي رواية: **«كلمة أشهَدُ لك بها عند الله»**، فقال أبو جهل، وعبدالله بن أبي أُمَيَّة: يا أبا طالب تَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدالمطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملّة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: **«والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك»**، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ الآية، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

رواه أحمد (٥/٤٣٣)، والبخاري في الجنائز وفي الأيمان والنذور وفي التفسير (٩/٤١١) وفي المبعث (٩/١٩٤)، ومسلم في الإيمان (١/٢١٤، ٢١٥، ٢١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٥٩)، وفي المجتبى وغيرهم.

[١٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمّه: **«قل لا إله إلاّ الله أشهد لك بها يومَ القيامة»**، قال: لولا أن تُعَيِّرَني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجَزَعُ لأقْرَرْتُ بها عينَك، فأنزل الله

تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

رواه أحمد (٤٤١/٢)، ومسلم في الإيمان (٢١٦/١)، والترمذي في التفسير (٢٩٨١) بتهذيبي وغيرهم.

[١٠٢] وعن عليّ عليه السلام أنه أتى النبيّ ﷺ لما مات أبو طالب، فقال: يا رسول الله إن عمّك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهَب فوَارِهِ»، قلتُ: إنه مات مشركاً، فقال: «اذهب فواره»، فلما واريتُه رجعت إلى النبيّ ﷺ فقال لي: «اغتسل».

رواه أحمد (٩٥/١، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١)، وأبو داود في الجنائز (٣٢١٤)، والنسائي في الطهارة وفي الجنائز (٦٥/٤) بسند صحيح.

أبو طالب اسمه عبد مناف وكان شَقِيقاً لعبدالله والد رسول الله ﷺ، ولما حضرت الموت عبد المطلب أوصى به إليه فكفله إلى أن كبر وكان به رحيماً وعليه عطوفاً، ولما بعث ﷺ نصره وآزره وحماه من كَيْد الكفار ودافع عنه وكان يذبّ عنه ويردّ كل من يُؤذيه، يفعل هذا وهو مقيم على دين قومه! وأخباره في نصرته ﷺ والذبّ عنه معروفة متواترة، ولاميّته المشهورة تدلّ على إيمانه بالنبيّ ﷺ وتصديقه بقلبه ومحبّته له ودفاعه عنه وعدم تسليمه ومعاداة من عاداه ومدحه إياه، وهكذا بقي إلى جانبه إلى أن وقع حصارهم في الشعب وبعد خروجهم منه توفي، وذلك آخر السنة العاشرة من المبعث.

وأحاديث الباب مع ظاهر القرآن تدلّ على أنه مات على غير الإسلام، مقدماً عليه ملّة عبد المطلب ولم يقدر له أن ينطق بالشهادة وهي شرط صحة للإيمان، فهو وإن كان معترفاً بقلبه بصحة ما جاء به النبيّ ﷺ مؤمناً به امتنع من النطق بالشهادة خوفاً من العار الذي يصيبه بعد موته من طرف الكفار.

وهكذا شاء الله عزّ وجلّ فله شؤون في خلقه، وأكثر الشرائع والأحكام تحار العقول في حِكَمِهَا وأسرارها، فلْنَكِلْ أمر أبي طالب إلى الله تعالى. وكم كنا نتمنّى أن يقر عين ابن أخيه ﷺ بالتلفّظ بكلمة الإخلاص

ليكون رفيقه في دار النعيم جزاء ما فعله معه من معروف طوال حياته من الطفولة إلى الكهولة، ومع ذلك فالله عزّ وجلّ لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فقد نفعت أبا طالب حمايته للنبيّ ﷺ ونصرته إيّاه ودفاعه عنه، فشفع له ﷺ إلى الله فقبل شفاعته فخفّف عنه العذاب كما سنذكر.

[١٠٣] فعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يَحُوطكَ ويغضَبُ لك؟ قال: «**نعم، هو في ضَحْضَاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرَكِ الأسفل من النار**».

وفي رواية: «**نعم وجدته في غمرات من النار، فأخرجتُه إلى ضحضاح**».

رواه البخاري في المبعث (١٩٣/٨) وفي الأدب رقم (٦٢٠٨)، ومسلم في الإيمان (٨٤/٣).

[١٠٤] وعن أبي سعيدٍ رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ ﷺ وذكر عنده عمّه أبو طالب، فقال: «**لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يَغْلِي منه دِماغُه**».

رواه البخاري في المبعث (١٩٥/٨)، ومسلم في الإيمان (٨٥/٣)، ويأتي في الرقاق بسياقٍ آخر.

[١٠٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**».

رواه مسلم (٨٥/٣).

«الضحضاح» ما رَقّ من الماء على وجه الأرض. وقوله: «يحوطك» الحياطة هي الصيانة والحفظ والذبّ.

وهذه الأحاديث نصّ في أن أبا طالب في النار وأنه سيخفّف عنه العذاب بشفاعة رسول الله ﷺ وهو أقل أهل النار عذاباً، ولولا شفاعة رسول الله ﷺ لكان في الدّرك الأسفل من النار عياذاً بالله تعالى.

وهذه الأحاديث تردّ على الروافض ومن نحا نحوهم في قولهم بنجاة أبي طالب وأنه مات مؤمناً، حتى إن بعض أهل السنّة كتب رسالة في ذلك أسماها «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب».

ويؤخذ من هذه الأحاديث أن عذاب الكفار متفاوت كأهل الإيمان، غير أن الشفاعة في الكفار لا تُقبل، وما حصل لأبي طالب من خصائص النبيّ ﷺ.

* * *

وفاة خديجة وتزوج الرسول ﷺ بعائشة وسودة

[١٠٦] عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: «**تُوُفِّيَتْ خديجة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قبل مَخْرَجِ النبيّ ﷺ إلى المدينة بثلاثِ سِنين، فلبِث سَنتين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة وهي بنتُ ستّ سنين، ثم بَنَى بها وهي بنت تسع سنين**».

رواه البخاري في المبعث (٨/٢٢٥).

[١٠٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قال: لمّا توفيت خديجة قالت خَوْلة بنت حكيم امرأةُ عثمان بن مظعون: يا رسول الله ألا تَزَوَّجُ؟ قال: «**نعم، فما عِندكِ؟**» قالت: بِكْرٌ وثَيِّبٌ، البكر بنت أحبّ خلق الله إليك عائشة، والثيّب سودة بنتُ زَمْعَة، فدخلت على أبي بكر فقال: إنما هي ابنة أخيه، قال: «**قولي له: أنت أخي في الإسلام، وابنتك تَصْلح لي**»، فجاءه فأنكحه ثم دخلت على سودة فقالت لها: أخْبِري أبي، فذكرت له فزوّجه.

رواه أحمد (٦/٢١٠، ٢١١)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٣) مختصراً ومطوّلاً، قال النور في المجمع (٩/٢٢٥): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وكذا حسّنه الذهبي والحافظ.

ذُكِرَ في الحديثين ثلاثُ نسوة من أُمّهات المؤمنين الأوائل رضي الله تعالى عنهنّ:

خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية الطاهرة حبيبة رسول الله ﷺ الأولى تزوّجها قبل البعثة بخمسة عشر عاماً، وهي ثيب من رجلين سابقين وعمرها أربعون سنة، وكانت أجمل أهل زمانها وأشرفهم حسباً ونسباً وجاهاً وعاشت تحت عصمة النبيّ ﷺ ربع قرن، وكانت أوّل من آمن به، وتُثَبِّته وتُهَوِّن عليه ما يَنْزِلُ به، وقد سبق في حديث بدء الوحي ماذا قالت له في هذا الصدد، ولما قالت عائشة للنبيّ ﷺ: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب ثم قال: **«لا واللهِ ما أبْدَلَنِي الله خيراً مِنْها آمَنَتْ إذ كَفَرَ الناسُ، وصدَّقَتْنِي إذ كذَّبَنِي النَّاس، وَوَاسَتْنِي بِما لها إذ حَرمَنِي النَّاسُ، ورَزَقَنِي منها الله الوَلَدَ دُونَ غيرِها من النساء»**.

وهي أم جميع أولاده غير إبراهيم عليهم السلام والرضوان.

كان له ﷺ منها رضي الله تعالى عنها أربع بنات، وذكران:

زينب وهي أكبرهن تزوّجها أبو العاص بن الربيع، ورقيّة وأم كلثوم تزوّجهما عثمان رضي الله تعالى عنه تزوج رقية بمكة وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت أيام بدر ثم تزوّج بأم كلثوم، وفاطمة وهي أصغرهن تزوّجها الإمام عليّ، ثم القاسم وبه كان يُكنى، وعبدالله الملقّب بالطيّب والطاهر والجميع ماتوا في حياة النبيّ ﷺ ولم يعش بعده إلا فاطمة ثم لحقته بعد ستّة أشهر من وفاته ﷺ.

وتوفيت خديجة رضي الله تعالى عنها في شهر واحد مع أبي طالب بعد خروجهم من الحصار سنة عشر من البعثة، ولها من العمر خمس وستون سنة، وللنبيّ ﷺ خمسون سنة ودُفنت بالحجون وقبرها معروف بالمعلاة يؤمّه الزوّار من الحجاج والمعتمرين طوال السنة، وستأتي فضائلها في المناقب.

وفي الشهر الذي توفيت فيه خديجة تزوّج سودة بنت زمعة العامرية القرشية، وكانت قد آمنت بالله وبرسوله ﷺ وخالفت أقاربها وهاجرت مع زوجها ابن عمها السكران بن عمرو إلى الحبشة وعقب رجوعه من المهجر توفي فتزوجها الرسول الكريم ﷺ، وهي أول امرأة تزوجها بعد خديجة وبقيت تحته إلى أن توفي فمكثت بعده إلى آخر زمان عمر رضي الله تعالى

عنهما، وتقدم في التفسير وفي النكاح الكلام على إرادة النبيّ ﷺ تطليقها وما حصل في ذلك، ويأتي مزيد لهذا في المناقب.

وبعد زواجه بسودة بشهر عقد على مولاتنا عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين ولم يتزوّج بكراً غيرها وتزوجها بإذن من الله تعالى وكانت أحبّ نسائه إليه بعد خديجة، ولها مناقب كثيرة تأتي في المناقب، وفي سنن الترمذي عن عمرو بن غالب رحمه الله أن رجلاً نال من عائشة عند عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم فقال[1]: أغْرُبْ مقبوحاً، أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ، وأخرجه ابن سعد بنحوه وزاد: إنها لزوجته في الجنّة. توفيت سنة ثمان وخمسين للهجرة، وكانت ولادتها بعد المبعث بأربع سنين أو خمس رضي الله تعالى عنها. وقبرها بالبقيع مع سائر نساء النبيّ ﷺ، غير خديجة وميمونة فإنهما بمكّة المكرمة رضي الله تعالى عنهما.

***

خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف

[١٠٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ أنها قالت للنبيّ ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحُدٍ؟ قال: **«لقد لقيتُ من قومِكِ ما لقيتُ، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يومُ العقبة، إذْ عَرَضْتُ نَفْسي على ابنِ عبدِ ياليل بن عَبْدِ كُلال، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال، لتأمُرَه بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال، فسلّم عليّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ؟ فقال**

(١) يعني عماراً.

النبيّ ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله وَحْدَه لا يُشرِكُ به شيئاً».

رواه البخاري ومسلم وغيرهما وتقدّم في الإيذاء لرسول الله ﷺ رقم (٦٧) وأحلت الكلام عليه إلى هنا.

كانت خديجة رضي الله تعالى عنها وأبو طالب أعظم حائل بين النبيّ ﷺ وبين كفار قريش لما كان لهما من المكانة والسيادة والجاه عندهم، فكانوا يحترمونه ﷺ لأجلهما في الجملة، فلما توفّيا نالوا منه ﷺ ما لم يكونوا ينالونه في حياتهما، ولذلك جاء عنه ﷺ أنه قال: «**ما نالت مني قريش شيئاً أكرهُه حتى مات أبو طالب**» رواه ابن إسحاق عن عروة مرسلاً بسند صحيح.

فاشتدّ الأمر عليه من طرف قريش وأصيب بنكبات حتى سمّى ذلك العام عام الحزن لشدّة ما كابد فيه من الشدائد ووفاة حبيبته خديجة وعمّه أبي طالب، وهما من هما، ثم تألُّبِ قريش وتَكالُبِها عليه ﷺ، فكان العام بحق عام الحزن.

فلما رأى استهانة قريش به وما قابلوه به من شدّة الأذى خرج من مكّة وتوجه إلى:

[١٠٩] الطائف يرجو منهم نصرته ومساعدته حتى يتمّم أمر ربّه ﷺ، فقد عمد إلى نفر من سادات ثقيف يومه وهم عَبْدُ ياليل، ومسعود، وحَبيب أولاد عمرو بن عُمَيْر الثَّقَفِيّ فعَرَض عليهم نُصْرَتَه حتى يُؤَدِّيَ دعوتَه فردوا عليه ردّاً قبيحاً وأغرَوْا به سُفهاءَهم يرمُونه بالحجارة ويطاردونه حتى أدْمَوْا عقبه ﷺ وزيدُ بن حارثةَ رضي الله تعالى عنه يَدْرَأُ عنه، إلى أن انتهى إلى شجرة كَرَم واستظلّ بها، وكانت بجوار بستان لعُتْبة وشَيْبَة ابْنَيْ ربيعة، وهما من أعدائه وكانا في البستان، فلما رأياه رقّا له وأرْسَلا إليه بقِطْفٍ من العِنَب مع مَوْلَى لهما نَصْرَانِيّ اسمه عدّاس، فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم**»، فقال عداس: هذا الكلام ما يقولُهُ أهل هذه البلاد، فقال له عليه الصلاة والسلام: «**مِن أي**

البلاد أنتَ وما دينُك؟» فقال: نصراني من نِينَوى، فقال عليه الصّلاة والسلام: **«من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى»**، قال: وما علمك بيونس، **فقرأ** عليه من القرآن ما فيه قصة يونس، فلمّا سمع ذلك عداس **أشهَرَ** إسلامه وأكبَّ على يَدَيْ رسول الله ﷺ ورجليه يقبّلهما، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غُلامُك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالا له: **ويحك ما هذا؟** قال: ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل.

روى هذه القصة ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٦٧/٢، ٦٩) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع (٣٥/٦) إلى الطبراني.

[١١٠] وعن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: لما توفّي أبو طالب خرج النبيّ ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه، يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فانصرف فأتى ظلّ شجرة فصلّى ركعتين، ثم قال: **«اللّهُمّ إنّي أشكُو إلَيكَ ضَعْفَ قُوّتِي، وهَوَانِي على النّاس، أنتَ أرْحَمُ الراحمين، إلَى مَن تَكِلُني إلى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُني أمْ إلى قريبٍ ملَّكْتَه أمْري، إن لم تَكن غضبان عليّ فلا أبالي، غيرَ أن عافِيَتَك أوْسَعُ لي، أعوذُ بِوَجْهِكَ الذي أشرَقَتْ له الظلماتُ وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، أن يَنْزِل بِي غَضَبُك، أو يحلّ بي سخطُك، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى ولا قُوّة إلا بالله»**.

أورده الهيثمي (٣٥/٦) برجال ثقات، وفيه ابن إسحاق لم يصرح فيه بالسماع... ولا يضرّ هنا.

وكل ما ذكرناه هو شرح لحديث عائشة رضي الله تعالى عنها الذي يخبر فيه النبيّ ﷺ بأشدّ ما لقي من الأذى، فأشدّ ما لقي ما قابَلَه به أهلُ الطائف من الثقفيّين، وفي هذا الحديث عناية كبيرة من الله لنبيّه ﷺ حيث سخر له ملك الجبال أن يأمره بما يشاء في أهل مكّة الذين بالغوا في إذايته حتى ألجأوه إلى الذهاب إلى الطائف على قدميه، وبينها وبين مكّة نحو من ستين كيلو أو أكثر، فخيّره في أمره بهم بأن يهلكهم بإطباق الجبلين عليهم... فاختار ﷺ تَرْكَهُم والعَفْوَ عنهم عسى الله عزّ وجلّ أن يُخرج من أصلابهم من يُوحِّدُ الله ويعبدُه، فكان الأمرُ كما رَجَا، فقد حقّق الله عزّ

وجلّ مُبتغاه، فكان كثير من أبناء أولئك الصناديد أبطالَ الإسلام وأنصاره والداعين إليه، بل والفاتحين للأقطار الكُفرِيّة؛ كخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وجُبَيْر بن مطعم، وأبي عُبَيْدة بن الجراح، وعَمْرو بن العاص... كل هذا حصل بمعاملته الطيبة وعفوه وصفحه عن أولئك الأعداء، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وجزاه الله عنا وعن الإسلام خيراً.

واتّفق أهل السِّيَر على أن النبيّ ﷺ لما أراد الرجوع إلى مكّة دخل إليها في جوار المطعم بن عدي وبقي مدة ثم ردّ إليه جواره.

[١١١] وهذا مع اتّفاق أهل السيرة عليه لم يوجد له سند غير أن حديث جبير بن مطعم الذي رواه البخاري في الخمس (٢/٧) الذي يقول فيه النبيّ ﷺ في أسارى بدر: «**لو كان المُطْعِم بنُ عَدِيٍّ حياً ثم كلَّمَني في هؤلاء النَّتْنى لتركتُهم له**»، هو يدل على صحة أصل القصة فإنه ﷺ تمنّى أن يكون المطعم في غزوة بدرٍ حيّاً فيكلمه ﷺ في أسارى بدر مستشفعاً فيهم فيتركُهُم له، وما ذلك إلا لما سبق له من جواره ﷺ، وإلا فإنه كان من جملة أعدائه. والله تعالى أعلم.

* * *

خروج الصدّيق مهاجراً إلى الحبشة ورجوعه في جوار ابنِ الدَّغِنَّةِ

[١١٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم أعقل أبَوَيَّ قطّ إلا وهما يَدِينان الدِّينَ، ولم يمُرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسولُ الله ﷺ طرفي النهار بُكرةً وعشيّةً، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ الغِماد، لقيه ابن الدَّغِنَّة وهو سيّدُ القارَةِ، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسِيحَ في الأرض وأعبد ربّي، قال ابن الدّغنة: فإنَّ مِثلك يا أبا بكر لا يَخْرُجُ ولا يُخرَجُ، إنك تُكْسِبُ المعدوم، وتَصِلُ الرَّحم، وتَحْمِلُ الكلَّ، وتَقْرِي الضَّيْف، وتُعِين

على نوائب الحقّ، فأنا لك جارٌ، ارجع واعبد ربّك بِبَلدِكَ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشيّةً في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثلُه ولا يُخْرَجُ، أتُخرِجُونَ رَجُلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويَحمل الكَلّ، ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق، فلم تُكَذِّبْ قريش بجوار ابن الدّغنة وقالوا لابن الدَّغنة: مُرْ أبا بكر فليَعبد ربّه في داره فليصلّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يَفتِن نساءَنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدّغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربّه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فيَتَقَذّفُ عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يَمْلِك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفْزَعَ ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدّغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانْهَهُ، فإن أحَبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يُعلن بذلك فسَلْه أن يرد إليك ذمّتك، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَك، ولسنا بمُقِرّين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابنُ الدّغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليّ ذمّتي، فإني لا أحبّ أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عزّ وجلّ، والنبيّ ﷺ يومئذ بمكّة.

رواه أحمد (٣٤٦/٦)، والبخاري في المبعث (٢٣١/٨، ٢٣٤)، وابن سعد في الطبقات والبيهقي في الدلائل (٤٧١/٢، ٤٧٢).

قوله: «برك الغماد» هو بفتح الباء وسكون الراء، والغماد بكسر الغين وفتح الميم المخفّفة موضع من خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن. قوله: أنا لك جار، أي مُجير وحَام. وقوله: نُخْفِرك بضم النون أي نغدر بك. وفي هذا الحديث أمور، ففيه فضل الصدّيق رضي الله تعالى عنه وأنه كان

متّصفاً بمكارم الأخلاق التي كان معروفاً ومشهوراً بها، وفيه قوّة إيمانه وتوكّله على الله تعالى حيث ردّ جوار ابن الدّغنة اعتماداً على الله تعالى، وفيه أن إرادته الهجرة إلى الحبشة كانت بسبب تكالب الكفار عليه وإذايتهم إياه الإذاية الشديدة، وفيه دليل على أن النساء والصبيان أقرب إلى قبول الحقّ وأنهم يتأثّرون سريعاً بالمواعظ والرقائق، ولذلك خشي الكفار على نسائهم وأطفالهم من تأثرهم بقراءة الصدّيق وبكائه ودخولهم في الإسلام، وفيه غير ذلك.





الإسـراء والمعـراج

[١١٣] عن أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعَة رضي الله تعالى عنهما أن نبيّ الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به، قال: «**بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فقدّ، قال: وسمعته يقول: فشقّ ما بين هذه إلى هذه**»، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرةِ نَحْرِهِ إلى شِعْرَتِهِ، وسمعته يقول من قَصّه إلى شعرته، «**فاستخرج قلبي، ثم أُتِيتُ بطَسْتٍ من ذهب مملوءةٍ إيماناً فغُسل قلبي، ثم حُشِيَ ثم أُعيد ثم أُتِيتُ بدابّة دون البغل وفوق الحمار أبيضَ**»، فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة، قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه، «**فحُمِلْتُ عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فَنِعْمَ المَجِيءُ جاء، ففُتِح فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدم ـ عليه السلام ـ فقال: هذا أبوك آدم فسلّم عليه، فسلَّمتُ عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء ففُتح، فلما خلَصْتُ إذا يحيىٰ وعيسى ـ عليهما السلام ـ وهما ابنا الخالة؟ قال: هذا يحيىٰ وعيسى فسلّم عليهما، فسلّمت فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد**

أُرْسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فَنِعْم المجيء جاء، فَفُتِح فلما خلَصتُ إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه فسلَّمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء، ففتح فلما خلَصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ـ ﷺ ـ قيل: وقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فَنِعْم المجيء جاء، فلما خلَصت فإذا هٰرون، قال: هذا هٰرون فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فَنِعْم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، فلما تَجاوَزْتُ بكى، قيل له: ما يُبْكيك؟ قال: أبْكِي لأنَّ غلاماً بُعِثَ بعدي يَدخل الجنّة من أُمّته أكثرُ من يَدخُلها من أُمّتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فَنِعْمَ المجيء جاء، فلما خلَصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، قال: فسلَّمت عليه فردّ السلام، قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح ثم رُفِعتْ لي سِدْرَةُ المُنتهى، فإذا نَبِقُها مثل قِلالِ هجر، وإذا ورَقُها مثل آذانِ الفِيَلةِ، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنّة وأما الظاهران فالنيل والفرات[1]، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أُتيتُ بإناء من خمر وإناء من

(١) يأتي الكلام على أنهار الجنة في الرقاق.

لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة أنت عليها وأُمّتك ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاةً كلَّ يوم، فرجعتُ فمررتُ على موسى فقال: بِمَ أُمِرتَ؟ قال: أُمرتُ بخمسين صلاة كل يوم، قال: أُمّتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جَرّبتُ الناس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجةِ، فارْجعْ إلى ربّك فاسْأله التخفيفَ لأُمّتك، فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعتُ فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى، فقال: بِم أمرتَ؟ قلتُ: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمّتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأمّتك، قال: سألت ربّي حتى استحييت ولكن أرضى وأُسَلِّمُ، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيتُ فَرِيضَتِي، وخفَّفْتُ عن عبادي».

رواه البخاري في بدء الخلق وفي أحاديث الأنبياء وفي المبعث (٣٨٨٧) ج (٨/١٩٦، ٢١٦)، ومسلم في الإيمان رقم (١٦٤) ح (٢/٢٢٣، ٢٢٥).

حادث الإسراء جاء مطوّلاً ومختصراً عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة متواترة.

وقد ذكرت جملة منها في سورتي الإسراء والنجم من التفسير، فارجع إليه.

وخلاصتها: أن النبيّ ﷺ كان في الحجر فأتاه ملكان فشقّا صدره ثم أخرجا منه حظّ الشيطان ثم غسلاه بماء زمزم وملآه حكمة وإيماناً ثم أُتِي بالبراق فركبه ثم أُسري به إلى بيت المقدس صحبة جبريل ومرّ على موسى وهو قائم يصلّي في قبره، ولما وصل إلى بيت المقدس ربط البراق بالصخرة ثم صلّى ركعتين ثم صعد به جبريل عليه السلام إلى السمٰوات فجعل كلما وصلا إلى سماء استفتح فيسأل من؟ فيقول: جبريل، فيقال: من

معك، فيقول: محمد، فيقال: أأرسل إليه؟ فيقول: نعم، فوجد في كل سماء نبياً فيسلّم عليه فيردّ عليه ويرحّب به، فوجدا في السماء الأولى آدم عليه السلام وعن يمينه أسودة، وعن يساره مثلها، فإذا نظر إلى جهة يمينه ضحك وإذا نظر إلى جهة يساره بكى، فقيل له: إن الأسودة التي عن يمينه المؤمنون أهل الجنّة من بنيه، والأسودة التي عن يساره الكفار أهل النار من بنيه، ووجدا في السماء الثانية ابني الخالة عيسى ويحيىٰ، وفي الثالثة يوسف، وقد أُعطي شطر الحسن، وفي الرابعة إدريس ثم قرأ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، وفي الخامسة هٰرون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، ولما رفع إلى البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون، ورأى جبريل وذهب به إلى سدرة المنتهى وهي شجرة قد غشيها من أمر الله ما غشي، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها وإذا ثمارها مثل قلة من قلال هجر في الكبر، وإلى هذه الشجرة ينتهي عِلْمُ المخلوقات ورأى النار، فرأى فيها أقواماً يأكلون الجيف فقيل له: إنهم الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى فيها عاقر الناقة كما رأى خطباء أُمّته تقرض شفاههم بمقاريض من نار، ومرّ على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات تُرى من خارج بطونهم فأخبرهُ جبريل بأنهم أكلة الربا ورأى شبه فرن يشتعل ناراً فيه نساء ورجال عرايا وعراة، فقيل له: هؤلاء الزناة والزواني، ورأى في الجنّة قصراً وحوراء تتوضأ عنده فقيل له: إن ذلك لعمر بن الخطاب وسمع خشخشة فقيل له: إنه بلال بن رباح، ومرّت به رائحة طيّبة فقيل له: إنها ماشطة بنت فرعون التي أحرقها وأولادها فرعون، ورأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح عليه، وشاهد من آيات الله الكبرى وأوحى الله تعالى إليه ما أوحى وما كذب الفؤاد ما رأى، وعندما نزل وجد الأنبياء بالمسجد الأقصى فحانت الصلاة فأمّهم ثم أصبح بمكّة المكرمة فاشتدّ عليه الأمر وعرف أن الناس سيكذّبونه فقعد معتزلاً حزيناً، فمرّ به أبو جهل فقال له مستهزئاً به: هل كان من شيء؟ قال: «نعم، إنّي أُسْرِيَ بي الليلةَ إلى بيت المقدس»، قال: ثم أصبحت بين ظَهْرَانِينا، قال: «نعم»، فنادى: يا معشر بني كعب بن

لؤي فجاءوا، فقال أبو جهل: حَدِّث قومك بما حدَّثتني، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّي أُسْرِيَ بي الليلةَ إلى بيتِ المقدس**»، فكانوا ما بين مُصَفِّقٍ، وما بين واضعٍ يَدَه عى رأسِه مُتَعَجِّباً.

فأرادوا أن يعجزوه فسألوه عن صفة المسجد الأقصى وفيهم من سافر إليه فجلاه الله تعالى له بين يديه وجعل يصفه لهم فصدّقوه في النعت، ولكنهم تمادوا في كفرهم وضلالهم. هذا خلاصة ما وقع في الإسراء والمعراج. وكلامنا عليه هنا باختصار من وجوه:

أما أولاً، فإن هذا الحادث من أبهر المعجزات وأعظم الأحداث التاريخية في الإسلام، وهو من الآيات الظاهرة المتواترة التي وصلت إلينا من طريق القرآن الكريم والسنّة المتواترة التي رواها الجمّ الغفير والعدد الكثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ثانياً: اختلفوا في تاريخ وقوعه والجمهور على أنه كان في رجب، وجزم النووي بأنه كان قبل الهجرة بسنة، وادّعى ابن حزم فيه الإجماع، والأصح أنه حصل بجسمه وروحه ﷺ يقظة مرّة واحدة والأدلّة على ذلك كثيرة.

ثالثاً: اختلف السلف والخلف هل رأى نبيّنا ﷺ ليلة الإسراء ربّه بعينيه، فكانت عائشة وابن مسعود وغيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وجمهور المحدّثين والمتكلّمين وغيرهم يذهبون إلى عدم ذلك، وذهب آخرون إلى وقوعها، ومن هؤلاء ابن عباس وأبو ذرّ وكعب والحسن البصري وأبو هريرة في رواية عنه رضي الله تعالى عنهم، وهو قول الإمام أحمد وأبو الحسن الأَشعَري. قال النووي في شرح مسلم: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربّه بعينيّ رأسه ليلة الإسراء... قال: هذا مما لا ينبغي أن يُتشكّك فيه... وهذا الخلاف إنما هو في وقوعها. أما جوازها فمتّفق عليه بين أهل السنّة؛ لأن كل ما هو موجود يمكن أن يُرَى. ولذا اتّفقوا وأجمعوا على رؤيته تعالى يوم القيامة...

رابعاً: فرضية الصلاة ليلة الإسراء فوق السمٰوات يدلّ على عظمتها في الإسلام، وأنها لا مثيل لها في الشرائع والأحكام ولا يعرف لفريضة من فرائض الإسلام غيرها أنها فرضت على النبيّ ﷺ في السماء، فالصلاة لها أهمية ليست لغيرها من فروع الشريعة، وقد تقدم الكلام عليها في كتاب الصلاة فارجع إلى ذلك.

خامساً: جاءت هذه المعجزة العجيبة الغريبة إثر تلك الشدائد التي أصيب بها نبيّنا ﷺ والنكبات التي حلّت به من طرف أعدائه الألدّاء من كفار قريش وأهل الطائف، فأكرمه الله عزّ وجلّ بإسرائه إلى بيت المقدس وعروجه إلى العالم العلويّ ليجتمع بإخوانه الأنبياء ويرى سكان السمٰوات ويشاهد عجائب الملكوت ويطّلع على الجنّة والنار وأصحابهما ويُطلعه الله عزّ وجلّ على آياته الكبرى ويوحي إليه ما يوحي، فكان ذلك تقوية لجأشه وتَسْلِيَة له وتثبيتاً وتخفيفاً لما نزل به ﷺ.

* * *

❁ عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل العربية في الأسواق ومواسم الحجّ ووفود الأنصار عليه ﷺ

[١١٤] عن رجل من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المَجاز يَتَخَلَّلُها يقول: «**يا أيُها الناس قولوا لا إلٰه إلا الله تُفلِحُوا**»، قال: وأبو جهل يَحْثِي عليه التراب ويقول: لا يَغْوِيَنَّكُم هذا عن دينكم، فإنما يريد لِتَتْرُكُوا آلِهتكم، وتتركوا اللات والعزى، وما يَلْتَفِتُ إليه رسول الله ﷺ، قلت: انْعَتْ لنا رسول الله ﷺ، قال: بين بُرْدَيْن أحمرين، مَربوعٌ، كثيرُ اللّحْمِ، حسَنُ الوجه، شديدُ سَوادِ الشّعر، أبيضُ، شديدُ البياضِ، سابغُ الشعر.

رواه أحمد (٦٣/٤)، قال الهيثمي في المجمع (٢٢/٦) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

[١١٥] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يَعرِضُ نَفْسَه على الناس بالمَوْقِفِ، فيقول: «هل مِن رجل يَحمِلُني إلى قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أُبَلِّغَ كلام ربِّي عز وجلّ»، فأتاه رجلٌ من همذان، فقال: «مِمَّن أنتَ؟» فقال الرجل: من همذان، فقال: «هل عند قومك من مَنَعَةٍ؟» قال: نعم، ثم إن الرجل خَشِيَ أن يُخفِرَهُ قومُه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أُخبِرهم، ثم آتيك من قابل، قال: «نعم»، فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب. وفي رواية: مكث رسولُ الله ﷺ بمكّة عشر سنين يتبع الناسَ في منازِلهم بعُكاظ، ومِجَنَّة، وفي المواسم بمِنَى، يقول: «مَنْ يُؤْوِيني، مَن يَنْصُرُني حتى أُبَلِّغ رسالةَ ربِّي وله الجنّة»، حتى إن الرجل لَيَخْرُج من اليَمَن أو من مُضَرَ فيأتيه قومُه فيقولون: احذَر غُلام قريش لا يَفْتِنْك، ويَمْشي بين رجالهم وهم يُشيرون إليه بالأصابع حتى بَعَثَنا الله إليه من يَثْرِبَ، فآوَيْنَاه وصدَّقْنَاه، فيَخْرُجُ الرجل فيؤمن به ويُقرئُه القرآن، فيَنْقَلِبُ إلى أهله فيُسلمون بإسلامه، حتى لم يَبْقَ دارٌ من دورِ الأنصار إلا وفيها رَهْطٌ من المسلمين يُظْهِرُون الإسلام، ثم ائتَمَرُوا جميعاً، فقلنا: حتَّى مَتَى نَتْرُكُ رسول الله ﷺ يُطْرَدُ في جبال مكّة ويُخافُ، فرحل إليه منّا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعَدْناه شِعْبَ العَقَبةِ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله نُبايِعُك، قال: «تُبايعوني على السمع والطاعة، في النَّشاط والكسل، والنَّفقةِ في العُسْر واليُسْر، وعلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافُون في الله لَوْمَةَ لائم، وعلى أن تَنْصُروني فتَمْنَعُوني إذا قَدِمْتُ عليكم مما تمنعون منه أنفُسَكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنّة»، قال: فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسْعدُ بن زُرارة وهو من أصغرهم فقال: رُوَيْداً يا أهل يثرب، فإنا لم نَضْرِب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسولُ الله ﷺ وأن إخْراجَه اليوم مُفارقةُ العرب كافّةً وقتلُ خياركم، وأن تَعَضَّكم السيوفُ فإمّا أنتم قوم تَصبرُون على ذلك وأجْرُكم على الله، وإما أنتُم قومٌ تخافون مِنْ أنفسكم جُبَيْنَةً، فبيِّنُوا ذلك، فهو عُذْرٌ لكم عند الله، قالوا: أمِطْ عنا يا أسعد، فوالله لا ندعُ هذه البيعة أبداً، ولا

نُسْلَبُها أبداً، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنّة.

رواه أحمد (٣/٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٩٠)، وأبو داود (٤٧٣٤) في السنة، والترمذي آخر فضائل القرآن (٢٧٣٢) بتهذيبي، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١)، والدارمي وابن حبان (١٦٨٦) بالموارد، والحاكم (٢/١١٣) بعضهم مطولاً كأحمد وابن حبان، وبعضهم مختصراً وسنده صحيح عند أحمد وغيره على شرط مسلم، وعند الترمذي وغيره على شرط البخاري.

في الحديثين بيان ما كان يلاقيه رسول الله ﷺ من سفهاء الكفّار في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وخاصّة من أبي جهل كما في الحديث الأول وكما تقدم عن أبي لهب وعقبة بن أبي معيط وغيرهم، كما فيهما إخبار عن عَرْضِه ﷺ نَفْسَه على القبائل في أيام الحجّ بعرفات ومنى... وفي أسواق العرب المشهورة كعكاظ ومجنة وذي المجاز، فكان يحضرها ويدعو الناس إلى الله تعالى ويقول لهم: **«هل فيكم من يأخذني إلى قومه فيحموني ويؤمنوا بي وينصروني، فإن قومي قريشاً حالوا بيني وبين تبليغي كلام الله عزّ وجلّ»**.

وفي حديث جابر رضي الله تعالى عنه بيانُ ما فعله الأنصار بالنبيّ ﷺ من الإيمان به ومبايعته ونصرته وإيوائه إليهم، أمّا ما قالَهُ من رحلة سبعين منهم إليه... إلخ، كان هذا في بيعة العقبة الثانية وسنذكرها فيما بعد.

***

❋ قدوم الأنصار لأول مرة يلقون فيها رسول الله ﷺ وذكر بيعة العقبة الأُولى

[١١٦] عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قدم أبو الحَيْسَرِ أنس بن رافع مكّة ومعه فِتْيَةٌ من بني

عبد الأشهل، منهم إياسُ بن مُعاذ يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسولُ الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال: **«هل لكم إلى خير مما جئتم إليه؟»** قالوا: وما ذاك؟ قال: **«أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدْعُوهُم إلى أن يَعْبُدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنْزَلَ عليَّ كتاباً»**، ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن قال: فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حَدَثاً ـ: أيْ قومي هذا واللهِ خَيْرٌ مما جئتُم إليه، قال: فأخذ أبو الحيسر أنسُ بن رافع حُفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة، فكانت وقعة بُعاثٍ بين الأَوْس والخزرج، قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله ويكبّره ويحمده ويسبّحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

رواه أحمد (٤٢٧/٥)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٧٦/٢)، والبيهقي في الدلائل (٤٢٠/٢، ٤٢١) وهو من صحيح حديث ابن إسحاق إذ صرّحَ بالتحديث، وأورده النور في المجمع (٣٦/٦) برواية أحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات وسنده حسن.

هذا الحديث يدلّ على أن اجتماع النبيّ ﷺ بأولئك النفر الأشهليّين كان أول لقاء مع الأنصار وقد دعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه لذلك إلا إياس بن معاذ، فإن كلامه معهم وحالته بعده يدلان على إسلامه، وبعد هؤلاء كانت بيعة العقبة الأولى كما يأتي.

وقوله: وكانت وقعة بُعاث... إلخ، كانت الحرب دائمة طاحنة بين الأوس والخزرج، وكانت آخر وَقْعة بينهما؛ وقعةُ بُعاث وكان قد قُتِلَ فيها كثير من ساداتهم.

[١١٧] كما قالت سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: كان يومُ بُعاثٍ يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقَدِم رسولُ الله ﷺ وقد افْتَرَقَ ملأُهم وقُتِلَتْ

سَرَواتُهم وجُرِّحوا فقدَّمه الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام.

رواه البخاري في أوّل مناقب الأنصار (٣٧٧٧) (ج ٨/١١١).

سرواتهم: جمع سراة أي شرفاؤهم وخيارهم. وبُعاث: مكان عند بني قريظة على ميلين من المدينة.

* * *

بدء إسلام الأنصار رضي الله تعالى عنهم

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فلما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ وإنجاز مَوْعِدِه لَهُ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيراً.

[١١٨] قال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لمّا لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**مَنْ أنتم؟**» قالوا: نَفَرٌ من الخزرج، قال: «**أمِنْ مَوَالِي اليهود؟**» قالوا: نعم، قال: «**أفلا تجلسون أُكَلِّمْكُم؟**» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعَرَض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: وكان ممّا صنع الله بهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهل شرك وأصحابَ أوْثانٍ، وكانوا قد عَزُّوهُم بِبِلادِهِم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ، قالوا لهم: إن نبيّاً مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانُه نَتَّبِعُه فنَقْتُلُكم معه قتلَ عادٍ وإرَم، فلما كلّم رسولُ الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا تَسْبِقَنَّكُمْ إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة

والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعَزُّ منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقدآمنوا وصدّقوا.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٧٧/٢)، وابن سعد في الطبقات (٢١٧/١، ٢١٨)، والبيهقي في (٤٣٣/٢، ٤٣٥) وسنده حسن، وانظر المجمع (٤٠/٦، ٤٢).

قوله: «وكانوا قد عَزّوهم» أي: غلبوهم.

كان هؤلاء النفر من الخزرج أوّل من أسلم من أهل المدينة بعد إياس بن معاذ الأوسي المتقدم، وكان عدد هؤلاء الرهط الذين أسلموا ستّة، وهم أسعد بن زُرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبدالله كما عند ابن هشام.

❋ ❋ ❋

❋ بيعة العقبة الأُولى

[١١٩] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: لما كان العام المقبل من العام الذي لقي فيه رسول الله ﷺ النفر السِّتَّة لقيَهُ اثنا عشر رجلاً بعد ذلك بعام، وهي العقبة الأُولى... فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: **«فإن وفيتم فلكم الجنّة، ومن غشِيَ من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه»**، ولم يُفرَضْ يومئذ القتال ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام.

وفي رواية قال: كنت فيمن حضر العقبة الأُولى وكنّا اثني عشر رجلاً... إلخ.

وفي رواية: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ... إلخ.

رواه ابن سعد (٣١٩/١، ٢٢٠)، وأحمد (٣٢٣/٥)، والبخاري في وفود الأنصار (٢٢٢/٨، ٢٢٣)، ومسلم في الحدود رقم (١٧٠٩)، وابن هشام عن ابن إسحاق (٨١/٢) بألفاظ.

هذه هي مبايعة العقبة الأولى وكان المبايعون اثني عشر رجلاً عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر من الأوس وأبو الهَيْثَم بن التَّيْهَان، وعُوَيْم بن ساعدة.

وقوله: على بيعة النساء، أي على ما بايع عليه النساء فيما بعد بالمدينة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقد تقدم شرح الحديث في الجزء الأول من كتاب الإيمان.

وقوله: من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، سيأتي الكلام على النقباء لاحقاً.

* * *

❊ إرسال الرسول ﷺ مُصْعَبَ بن عُمَيْر إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها بسببه

[١٢٠] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أوّل من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم، وكانا يقرئان الناس... ويأتي كاملاً.

رواه البخاري في الهجرة النبوية (٢٦٢/٨).

[١٢١] وقال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ إنما بعث مُصْعَباً حين كتبوا إليه أن يبعث إليهم وكان يصلّي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض. رضي الله تعالى عنهم، وفي رواية: بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير مع النفر

الإثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى إلى المدينة يفقّه أهلها ويقرئهم القرآن.

رواه ابن سَعْدٍ (١/ ٢٢٠)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/ ٨٢)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣٨) وهو حسن لطرقه.

بَعْثُ مُصْعَبٍ إلى المدينة داعياً ومقرئاً ومعلّماً عقب البيعة الأولى وقبل هجرة رسول الله ﷺ وأصحابه مُتّفَقٌ عليه بين أهل السيرة، وقد رأيت أن قدومه لذلك جاء في صحيح البخاري عن البراء، ويأتي مطوّلاً.

[١٣٢] قال ابن إسحاق: حدّثني عبيدالله بن المغيرة بن مُعَيْقِيب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعدَ بن زُرارة خرج بمُصعب بن عُمَيْر يريدُ به دارَ بني عبدِ الأشهَلِ، ودارَ بَني ظُفْر، وكان سعدُ بنُ مُعاذ بن النعمان ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر يقال لها: بئر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعدُ بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل[١]، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأُسَيْد بن حُضَيْر: لا أباً لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتَيا دارَيْنا لِيُسَفِّهَ ضُعَفاءَنا، فازْجُرْهُما وانْهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعدَ بن زرارة مني حيث قد علمتَ كَفيتُك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أُسَيْدُ بن حُضَيْر حَرْبَتَه ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عُمير: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله تعالى فيه، قال مصعب: إن يَجْلِسْ أُكَلِّمْه، قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهانِ ضُعَفاءَنا؟ اعْتَزِلانا إن كانت لكما بأنفسِكُما حاجةٌ، فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قَبِلْتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره، قال: أنصَفْتَ، ثم رَكَزَ حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشراقِهِ وتَسَهُّلِهِ، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأجْمَله كيف تَصْنَعُون

---

(١) من الأوس.

إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتَطَّهَّر وتُطَهِّر ثَوْبَيْك، ثم تَشْهَدُ شهادة الحق، ثم تصلّي، قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحدٌ من قومه، وسَأُرْسِلُه إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدُ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخْفِرُوك، قال: فقام سعد مُغْضباً مُبادراً، تَخَوُّفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أُغْنَيْتَ شيئاً، ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعداً أن أُسَيْداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتَشتِّماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أمَا والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني أتَغْشانا في دارَيْنا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أيْ مصعب جاءك والله سيّد مَن وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كَرِهْتَه عزَلْنا منك ما تكره. قال سعد: أنصفتَ، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم لإشراقه وتسهّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وطهّر ثوبيك وتشهد شهادة الحقّ، ثم تصلّي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير قال: فلمّا رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدُنا وأوصَلُنا وأفضَلُنا رأياً وأيْمَنُنا نَقِيبَةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمةً، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده

يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يَبْقَ دارٌ من دور الأنصار إلاَّ وفيها رجال ونساء مسلمون. . .

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٨٣/٢) من طريقين مرسلين والحديث حسن قوي لوروده من طريق آخر مرسلاً أيضاً عن عروة بن الزبير، رواه الطبراني كما عند النور في المجمع (٤٠/٦، ٤١) ولا يضرّ وجود ابن لهيعة هنا.

وهكذا انتشر الإسلام بالمدينة ببركة دعوة مصعب بن عمير وعمّ جميع دورها، وخاصة عندما أسلم سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَير سَيِّدا بني عبد الأشهل من الأوْس، وقد كانت السابقة للخزرج فلهم الفضل في الأسبقية للإسلام وإدخاله المدينة وأكثرهم كان من أهل العقبة الأُولى.

وهؤلاء الأصحاب والأنصار الأُوَلُ وغيرهم ستأتي تراجمهم في المناقب إن شاء الله تعالى.

* * *

بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عُمَير رجع إلى مكة وخرج مَن خرج مِن الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكّة، فوَاعَدُوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله تعالى من كرامته، والنصر لنبيّه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

ثم أسند عن كَعْبِ بن مالكٍ وكان مِمَّن شهد العقَبة وبايع رسول الله ﷺ قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلّينا وفَقِهْنا، معنا البراء بن مَعْرُور كبيرُنا وسيّدُنا، فلما قدمنا مكة خرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكّة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباسَ بن عبد المطلب عَمَّهُ؟ قال: قلنا: نعم، وقد كنا نعرف

العباس كان لا يزال يَقْدَم علينا تاجِراً، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالسٌ معه، فسلَّمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تَعْرِفُ هذين الرجلين يا أبا الفَضْلِ؟» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيِّد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر»؟ قال: نعم، قال: وخرجنا إلى الحجّ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوساط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحجّ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ومعنا عبدالله بن عَمْرو بن حَرام أبو جابر سَيِّدٌ من ساداتنا، وشريفٌ من أشرافِنا أخذناه معنا وكنا نكتُمُ مَنْ مَعَنا من قومِنا من المشركين أمْرَنا فكلَّمْناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغبُ بك عمّا أنت فيه أن تكونَ حَطباً للنار غَداً، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً، قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضَى ثلثُ الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا مستخفين، حتى إذا اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيْبَة بنت كعب أمّ عمارة؛ إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي؛ إحدى نساء بني سَلِمَة وهي أمّ منيع.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحبّ أن يَحْضُر أمْرَ ابن أخيه ويَتَوَثَّقَ له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب إنما يسمّون هذا الحيّ من الأنصار الخزرج خَزْرَجِها وأوْسِها. إن محمداً منّا حيث قد علمتم وقد مَنَعْناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه ومَنَعَةٍ في بَلَدِهِ، وإنه قد أبَى إلا الانحيازَ إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافُون له بما دَعَوْتُمُوه إليه ومَانِعُوه ممن خالفه فأنتم وما تَحَمَّلْتُم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في

عزٍّ ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: **قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت**. قال: **فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله عزّ وجلّ ورغب في الإسلام**، ثم قال: **«أُبَايِعُكم على أن تَمْنَعُوني مِمَّا تَمْنَعُون مِنه نساءَكم وأبناءكم»**، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحقّ نبيّاً **لَنَمْنَعَنَّك مما نمنع منه أُزرنا**، فبايعنا يا رسول الله ﷺ، **فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلَقة** ورثناها كابراً عن كابر. قال: **فاعترض للقول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهَيْثَم بن التَّيْهان**، فقال: يا رسول الله **إن بيننا وبين الرجال حِبالاً وإنا قَاطِعُوها - يعني العهود - فهل عَسِيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟** قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: **«الدَّمُ الدَّم والهَدْمُ الهَدْم، أنا منكم وأنتم مني، أُحَارِبُ مَنْ حاربتُم، وأُسالِمُ مَنْ سالمتُم»**.

وقال رسول الله ﷺ: **«أَخرِجُوا لي اثني عشر نقيباً منكم يكونون على قومهم»**، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وفي رواية قال: كان أوّل من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع بعدُ القومُ، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صَرخَ الشَّيطان، من رأس العقبةِ بأنْفَذِ صوتٍ سَمِعْتَهُ قطُّ: يا أهل الحَباجِب - المنازل - هل لكم في مُذَمَّم والصُّباةُ معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا إزب العقبة، هذا ابن أزيب، أتسمع أي عدوّ الله أما والله لأفرغن لك»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«ارفضوا إلى رِحالكم»**، قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحقّ **إن شئت لَنَمِيلَنَّ على** أهل مِنَى غداً بأسيافنا، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»**، قال: **فرجعنا إلى مضاجعنا فنِمْنا عليها حتى أصبحنا**. قال: فلما أصبحنا غَدَتْ علينا جِلَّةُ قريش جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنّا والله ما من حيٍّ من أحياء العرب

أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمنا، قال: وقد صدقوا لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض...

رواه أحمد (٣/٤٦٠، ٤٦٢)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٨٦/٢، ٨٧، ٨٨)، والحاكم (٦٢٤/٢، ٦٢٥)، والبيهقي في الدلائل (٤٤٥/٥، ٤٤٩) وفي السنن (٩/٩) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، فقال: صحيح وعزاه النور لأحمد والطبراني (٤٢/٦، ٤٥) قال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث.

قوله: «العقبة» كانت عند الجمرة الكبرى عقبة كؤود، ووقعت هذه البيعة قريباً منها ولا يزال أثر موضعها للساعة.

وقوله: «الهَدْم» أي: دمي دمكم، وهدمي أي: نقضي للعهد هدمكم. وقوله: «النقباء» جمع نقيب وهو الذي يتعرف على شؤون القوم، وهو العريف. وقوله: بالشِّعب بكسر الشين وسكون العين يُطلق على انفراج بين الجبلين أو الطريق في الجبل.

وفي هذا الحديث تفصيل ما وقع للأنصار من بيع العقبة الثانية وأنهم خرجوا حاجّين وتواعدوا مع رسول الله ﷺ للاجتماع عند العقبة، فتسلّلوا ليلاً رجلاً ورجلين... حتى تمّ عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، وكان أكثرهم من الخزرج إذ لم يكن من الأوس إلا أحد عشر رجلاً، فبايعوا النبيّ ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقولوا لله لا يخافون لومة لائم، وعلى أن ينصروه ﷺ ويمنعوه إذا قدم عليهم مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، فمن فعل ذلك منهم كانت له الجنّة وقد تقدم هذا في حديث جابر رقم (١١٥)، وقد تجلّى في هذا الحديث فضل الأنصار وإخلاصهم لله ولرسوله ﷺ وأخذهم العهد على أن ينصروا رسول الله ﷺ ويمنعوه من كل ما يمنعون منه نفوسهم وذويهم من أهلٍ وولد... وقد وفوا بذلك فآووه

إليهم ونصروه وقدّموا أرواحهم ومُهَجَهُم بين يديه ﷺ وستأتي مواقفهم في غزواته ﷺ وحروبه كما ستأتي فضائلهم في المناقب.

[١٢٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: حملني خالي جد بن قيس والسبعين راكباً الذين وفدوا على رسول الله ﷺ من قبل الأنصار ليلة العقبة، فخرج علينا رسول الله ﷺ ومعه عمّه العباس بن عبدالمطلب، فقال: **«يا عمّ خذ على أخوالك»**، فقال له السبعون: يا محمد سَلْ لربك ولنفسك ما شئت، فقال: **«أمّا الذي أسألكم لربّي، فتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأما الذي أسألكم لنفسي فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»**، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: **«الجنّة»**.

قال النور في المجمع (٤٨/٦، ٤٩): رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله ثقات، وأوله في صحيح البخاري (٢٢١/٨) قبل هجرة النبيّ ﷺ.

[١٢٤] وعنه قال: لما لقي النبيّ ﷺ النقباء من الأنصار قال لهم: **«تؤويني وتمنعوني»**، قالوا: فما لنا؟ قال: **«الجنّة»**.

رواه أحمد ((٣٢٢/٣، ٣٣٩، ٣٤٠))، وأبو يعلى (١٨٨٧)، والبزار (١٧٥٥)، قال النور (٤٨/٦): ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

جابر كان ممن حضر هذه البيعة وهو صغير أما أبوه فقدم مكّة كافراً، ولكنه أسلم وحضر البيعة مع قومه وجعله النبيّ ﷺ نقيباً على قومه.

والنقباء الذين كلّفهم النبيّ ﷺ بشؤون قومهم هم الآتون:

أبو الهيثم بن التّيهان، أسعد بن زرارة، أُسَيْد بن حُضَيْر، البَراءُ بن معرور، رافع بن مالك، سعد بن أبي خيثمة، سعد بن الربيع، سعد بن عبادة، عبدالله بن رواحة، عبدالله بن عمرو بن حرَام، عبادة بن الصامت، المنذر بن عمرو، رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❋ الهجرة إلى المدينة: رؤيا الرسول ﷺ دار هجرته في منامه

[١٢٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلِي إلى أنها اليَمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينةُ يَثْرِبُ».**

رواه البخاري في باب هجرة النبيّ ﷺ (٢٢٧/٨)، ومسلم في الرؤيا (٣١/١٥).

قوله: «وهلي» بفتح الهاء أي: وهمي واعتقادي. اليمامة بلدة مسيلمة الكذاب، وهجر كانت عاصمة البحرين.

[١٢٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«قد رأيت دار هجرتكم، أُرِيتُ سَبِخَةً ذاتَ نَخْلٍ، بين لاَبَتَيْنِ وهما حَرَّتانِ»** فخرج مَنْ كان مُهاجِراً قِبَل المَدِينةِ حِينَ ذكر رسول الله ﷺ ذلك، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين.

رواه البخاري في الكفالة (٣٨٢/٥) ضمن حديث الهجرة، وأحمد (١٩٨/٦)، والحاكم (٣/٢، ٤) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

أرض سَبِخَةٌ بكسر الباء وسكونها أي ملحة، والحرَّتان تثنية حرة هي حجارة سود.

تأثّر كفار قريش بما بلغهم عن الخزرج من مبايعة النبيّ ﷺ عندما صرخ بذلك الشيطان، وعلموا بَعْدُ أن ذلك حق فضيّقوا الخناق على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضي الله تعالى عنهم واشتدّ عليهم الأمر، فجعل النبيّ ﷺ يفكّر في الهجرة إلى حيث تُسْمَعُ دعوتُه ويُؤَيَّد ويُنْصَرُ، فرأى في منامه أولاً: أنه سيهاجر إلى أرض بها نخل ولم تتبين له أيّ أرض، فذهب وهمه إلى اليمامة وهَجَر وهما من الأراضي التي يكثر فيها النخل، لكنه رأى مرة ثانية دار الهجرة؛ رآها أرضاً سبخةً ذات حرّتين فعرف أنها المدينة

التي كانت تسمّى في الجاهلية يثرب، فعند ذلك أمر أصحابه بالهجرة إليها.

* * *

❊ أوّل من هاجر إلى المدينة من الصحابة

[١٢٧] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أوّل من قدم علينا من أصحاب النبيّ ﷺ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر، وابنُ أُمّ مَكْتُوم، فجعلا يُقرِئَانِنا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر[١] بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبيّ ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء.

رواه البخاري في هجرة النبيّ ﷺ وأصحابه (٨/٢٦٢، ٢٦٣)، وابن أبي شيبة (٧/٣٤٤)، وأحمد (٤/٢٨٤)، والطيالسي رقم (٢٣٣٤)، وابن سعد (١/٢٣٤)، والحاكم (٣/٦٣٤).

الحديث يدلّ على أن هؤلاء الخمسة والعشرين هم أوّل من هاجر، فمصعب وابن أمّ مكتوم قدما عقب البيعة الأولى كما تقدم. أمّا الآخرون، فهاجروا بعد البيعة الثانية، وسعد المذكور هو ابن أبي وقاص، وممن قيل بأنه أول من هاجر أبو سلمة زوج أمّ سلمة، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة وهي أول ظعينة قدمت المدينة رضي الله تعالى عنهم جميعاً، ذكره ابن سعد في الطبقات (١/٢٢٦).

* * *

❊ ما أصاب أبا سلمة وزوجته من البلاء

[١٢٨] عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ قالت: لمّا أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لِي بَعِيره ثم حَمَلَنِي عليه، وحمل

(١) ذكر أهل السيرة أنه لما أراد الهجرة مرّ على مجلس قريش فقال لهم: ها أنا ذا سأهاجر فمن أراد أن يُتيِّم امرأته، أو يُتيِّم أولاده فليتبعني فما تبعه أحدٌ.

معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحِبَتك هذه؟ علام نَتْرُكُك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرّق بيني وبين زوجي وبين ابني، قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها حتى مرّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أُمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي في المدينة، قال: أوَ ما معكِ أحد؟ قالت: لا والله، إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله ما لك من مَتْرَكٍ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب قطّ أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر بعيري فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحّى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيره فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة نازلاً، فادْخُلِيها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكّة، قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم

ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطّ كان أكرم من عثمان
طلحة.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (١١٠/٢) وسنده صحيح وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

لقد اسْتَوْقَفَتْني هذه القصة النادرة الغريبة لما فيها من العبرة والعَجَب، وذلك لأمرين اثنين:

أولاً: شدّة ما أُصيب به أبو سلمة وزوجته أمّ سلمة من البلاء حيث فرّق الكفار بينهما، فتركوا أبا سلمة أن يهاجر وحده مسلوباً من زوجته وابنه وهذا بلاءٌ عظيم، لا يكاد يطاق، وأشدّ منه حبسهم أمّ سلمة المسكينة وحيلولتهم بينها وبين الذهاب مع زوجها وتلك فتنة ومحنة لها تُضاف إليها مصيبة أخرى لا تقلّ عن سابقتها تلك هي قطع يد ولدها سلمة وغيابه عنها عند بني عمّه، فهذه محن وبلايا لا يتحمّلها إلا من شملته عناية الله كأبي سلمة وزوجته الطاهرة التي كاد عقلها أن يعزب عنها لما نزل بها، ولولا أنها كانت تفرج عما أصيبت به بكثرة بكائها المستمر بالأبطح لذهب عقلها فرضي الله تعالى عنها وعن زوجها.

ثانياً: كرم عثمان بن طلحة رضي الله تعالى عنه وعفّته وأخلاقه الطيبة ومعاملته الجميلة مع أمّ سلمة والحالة هذه وهو كافر، والشيء الذي يتعجّب منه هو مرافقته لهذه السيدة مدة من عشر مراحل وكانت من أجمل نساء عصرها وفي مستقبل شبابها، ولم تحدثه نفسه بمراودتها عن نفسها وقضاء شهوته منها، وقد باتا معاً في الفيافي والقفار عشر ليال، فهذا شيء عظيم إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على عفّته وكريم أخلاقه ووفائه، فمثل هذا لا يصدر إلا من أكابر الرجال أهل الدين والتقى، وقد أكرم الله عزّ وجلّ هذا الرجل العظيم بالإسلام فيما بعد، وختم الله تعالى عليه حياته بالشهادة فرضي الله تعالى عنه وجازاه خير الجزاء على ما فعل مع تلك السيدة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

***

❁ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنوّرة

[١٢٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأُمِرَ بالهجرة وأُنزِلَ عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠﴾.

رواه أحمد (٢٢٣/١)، والترمذي (٢٩٣٧) بتهذيبي، وابن جرير (١٤٨/١٥) وحسنه الترمذي وصححه، وقابوس بن أبي ظبيان حجّة عند الترمذي صحح وحسن له غير ما حديث.

والمدخل في الآية هو دخوله المدينة، والمخرج خروجه من مكّة المكرمة؛ ففي الآية الكريمة أمر من الله عزّ وجلّ بأن يدعوه أن يخرجه مخرج صدق ويدخله مدخل صدق... وأن يجعل له من عنده سلطاناً نصيراً، وقد فعل سبحانه به كل ذلك.

❁ ❁ ❁

❁ مؤامرة كفار قريش على قتل النبيّ ﷺ وخروجه من بين أظهرهم ولحوقه والصديق بالغار

[١٣٠] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ﴾ إلخ، قال: تشاورت قريش ليلة بمكّة، فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبيّ ﷺ؛ وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات عليّ رضي الله تعالى عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبيّ ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً ردّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هٰهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

رواه أحمد (٣٤٨/١) بسند حسن وله طرق وشواهد عند ابن إسحاق كما عند ابن هشام في السيرة (١٢١/٢، ١٢٢، ١٢٣)، وابن سعد في الطبقات (٢٢٧/١).

وحسّن الحديث ابن كثير في السيرة، وقال: وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذكره الحافظ في الفتح (٢٣٧/٨) وقال: سنده حسن وعلى أيٍّ فهذه القصة جاءت مرويّة من طرق مختلفة مرسلة ومتّصلة، ورواها عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن جرير والبزار والبيهقي وغيرهم.

لما هاجر إلى المدينة من هاجر من الصحابة بعد الإذن من النبيّ ﷺ لم يبق بمكّة إلا رسول الله ﷺ والإمام عليّ وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما أو من حُبِس أو فتِن من طرف الكفار، وكان رسول الله ﷺ ينتظر الإذن من الله عزّ وجلّ له في الهجرة، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له: **«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً»**.

ولمّا رأى كفار قريش أنه قد صار لرسول الله ﷺ شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه إليهم عرفوا أنه ﷺ قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار ندوتهم وتآمروا على ما يفعلونه به ﷺ، فقال بعضهم: نطرده عنّا، وقال فريق: نوثقه حتى يموت، وقال آخرون: بل نقتله بحيث نأخذ من كل قبيلة غلاماً نهداً جليداً ثم نعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد فيفرّق دمه على القبائل، فلا يدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع، فتفرّقوا على ذلك، وأجمعوا عليه، فأتى جبريل النبيّ ﷺ فأخبره بذلك وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، فجاء رسول الله ﷺ أبا بكر فخرجا حتى وصلا الغار وأقاما به ثلاث ليال، إلى أن خرجا كما سيفصّل في الآتي، وجاءت هذه الآية المدنِيَّةُ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾، تذكُره ﷺ بنعمته تعالى عليه حيث أبطل مكر أولئك الكفرة وفضح أمرهم وخيّب سعيهم، ونجّى نبيّه ونصره عليهم وظفّره بهم.

* * *

❊ تعمية الكفار عن إبصار رسول الله وأبي بكر في الغار

[١٣١] وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدميه رآنا، قال: «**ما ظنّك باثْنَيْن الله ثالِثُهُما**».

رواه أحمد (٤/١)، والبخاري في المناقب (١١/٨) وفي التفسير (٣٩٥/٩)، ومسلم في الفضائل (١٤٩/١٥)، والترمذي (٢٨٩٦)، وابن جرير (١٣٦/١٠)، وابن حبان (٦٢٧٨) وغيرهم.

قال النووي على قوله: ما ظنّك الخ، معناه: الله ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وفي هذا المشهد جاءت الآية الكريمة وهي: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

والمراد بالصاحب في الآية أبو بكر الصديق بالإجماع، وهذه منقبة للصدّيق ليست لغيره وقد استوعبت فضائله رضي الله تعالى عنه في «فضائل الصحابة».

❊ ❊ ❊

❊ حديث هجرة النبيّ ﷺ

[١٣٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ قالت: لم أعْقِلْ أبَوَيّ قطُّ إلاَّ وهُمَا يَدِينَان الدِّينَ، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَيْ النهار بُكرةً وعشيةً، فذكرت قصة أبيها مع ابن الدغنة التي تقدمت، فقالت: فقال النبيّ ﷺ: «**إني أُرِيتُ دارَ هجرتكم ذاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ وهي الحرتان**»، فهاجر مَن هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامّةُ مَن كان هاجر بأرض الحَبَشَة إلى المدينة، وتجهّز أبو بكر قِبل المدينة، فقال له

رسول الله ﷺ: «على رِسْلِكَ فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحَبَس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ لِيَصْحَبَه، وعَلَف راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمُر - وهو الخَبَطُ - أربعةَ أشهرٍ قالت: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر في نَحْرِ الظَّهيرةِ، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فِدًى لك أبي وأُمّي، والله ما جاء بك في هذه الساعة إلا أمْرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ واستأذن فأذن له فدخل، فقال النبيّ ﷺ لأبي بكر: «أَخرِجْ مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، قال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثَّمَنِ»، قالت: فجَهَّزْنَاهُما أحَثَّ الجهاز وصنعنا لهما سُفْرَةً في جِراب فقَطَعَتْ أسماءُ بنت أبي بكر قِطْعةً من نِطاقِها فرَبَطَتْ به على فمِ الجراب، فبذلك سُمِّيَتْ ذاتَ النطاقين.

* * *

رسول الله ﷺ والصديق في الغار ثلاث ليال

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال، يَبِيتُ عندهما عبدُالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيَدَّلِجُ من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ، فلا يَسمعُ أمراً يُكادانِ به إلا وعَاهُ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر مِنْحَة من غنم فيُرِيحُها عليهما حين يذهبُ ساعةٌ من العشاء، فيَبِيتَان في رِسْلٍ وهو لبن منحتهما ورَضِيفُهُما حتى يَنعِقُ بهما عامرُ بن فُهيرة بغلَس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاثة، واستأجر رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خِرِّيتاً، والخرّيت؛ الماهر بالهداية قد غَمَس حلفاً

في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش، فأمِنَاه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، فانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل.

* * *

قصة سراقة مع رسول الله ﷺ والصديق

قال ابن شهاب: وأخبرني عبدالرحمٰن بن مالك المُدْلِجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشم، يقول: جاءنا رسُلُ كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دِيَةَ كل واحدٍ منهما لِمن قتله أو أسَرَه، فبينما أنا جالسٌ في مجلس من مجالس قومي بني مُدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقةُ إني قد رأيت آنفاً أسْوِدةً بالساحل أُراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعْيُنِنا، ثم لبثْتُ في المجلس ساعة ثم قمتُ فدخلتُ فأمرتُ جاريتي أن تَخرُج بفَرسي وهي مِن وراء أكَمَةٍ فتحبِسُها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخطَطْتُ بزُجّه الأرض وخَفَضْتُ عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تُقَرّبُ بي حتى دنوتُ منهم، فعثَرَتْ بي فَرسي فخَرَرْتُ عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانَتِي فاستخرجْت منها الأزلام، فاسْتَقْسَمْتُ بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبتُ فرسي وعصيتُ الأزلام تُقَرّب بي حتى إذا سمعتُ قراءةَ رسول الله ﷺ وهو لا يَلْتَفِتُ وأبو بكر يُكثر الالتفات ساخَتْ يدا فرسِي في الأرض حتى بلغتَا الركبتين فخررتُ عنها ثم زجرتُها فنهَضَتْ فلم تكد تُخْرِجُ يديها، فلما استوتْ قائمةً إذا لِأثَرِ يديها غبارٌ ساطع في السماء مثلَ الدخان، فاستقسمتُ بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيت من الحبس عنهم أن سَيَظْهَرَ أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتُهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم

يرزآني، ولم يسألاني إلا أنه قال: أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رُقعة من أَدَم ثم مضى رسول الله ﷺ.
قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ، وأبا بكر ثياب بياض.

* * *

✻ أهل المدينة ينتظرون رسول الله ﷺ

ويسمعُ المسلمون بالمدينةِ مَخْرجَ رسول الله ﷺ من مكّة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يَردُّهم حَرُّ الظهيرة، فانطلقوا أيضاً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بُيُوتهم أوْفَى رجلٌ مِن اليهود على أُطُم من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه، فبصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين، يزولُ بهم السَّرابُ، فلم يملك اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون، فَثارَ المسلمون إلى السلاح.

* * *

✻ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وتاريخ ذلك

فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة، فعدَل بهم ذاتَ اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطَفِقَ مَن جاء من الأنصار ممن لم يرَ النبيّ ﷺ يُحَيِّي أبا بكر حتى أصابتْ الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه، فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بِضْع عَشْرَةَ ليلةً، وأسَّسَ المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلتَه فسار يمشي معه الناس حتى بَرَكَتْ عند مسجد الرسول ﷺ

بالمدينة وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَداً للتَّمر لسُهَيْل وسَهْل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بَرَكَتْ به راحلتُه: «هذا إن شاء الله المنزلُ»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللبن:

هذا الحِمال لا حِمالَ خَيْبر ... هذا أبَرُّ رَبّنا وأطْهَرْ

ويقول:

اللّهُمّ إنَّ الأَجْرَ أجْرُ الآخِرَة ... فَارْحَمْ الأنصارَ والمُهَاجِرَةْ

فتمثّل ببيت رجل من المسلمين لم يسمّ لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أنّ رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تامّ غير هذه الأبيات.

رواه أحمد (٣٤٦/٦)، والبخاري في المبعث باب هجرة النبيّ ﷺ (٢٣١/٨، ٢٣٤) وفي مواضع كالمساجد والبيوع وفي الكفالة وفي المغازي... وابن سعد في الطبقات (٢٣٩/١، ٢٣٢، ٢٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٤٧١/٢، ٤٧٢) وغيرهم.

* * *

غريب الحديث

«على رسلك» بكسر الراء وسكون السين أي: على هيئتك فلا تعجل. «متقنعاً» أي: لابساً القناع في رأسه. «سُفْرَة» بضم السين وسكون الفاء هي؛ طعام يُصنع ويهيؤ للمسافر وسمّي ما يوضع فيه أو عليه الطعام سفرة مجازاً. «جراب» بكسر الجيم هو وعاء من جلد أو غيره. «نطاقها» النطاق بكسر النون أن تلبس المرأة ثوباً طويلاً تتّزر به وتشدّ وسطها وترسل ثوبها الأعلى على الأسفل. «جبل ثور» هو جبل وعر مرتفع على قمّته غارٌ يقع شمال مكّة المكرمة صعدنا إليه في ظرف ساعة، يعتاد الحجاج والمعتمرون زيارَته

أو الوقوف في أسفله. «ثَقِفٌ» أي: ذو فطنة. «لقن» بكسر القاف كسابقه أي: حسن التلقين لما يسمعه، واللقن الفهم. «فيدلج» يقال أدلج إذا سار الليل كلّه وادَّلَج يَدَّلِجُ إذا سارَ سَحَراً. «رضيفهما» الرضيف اللبن المرضوف وهو الذي يطرح فيه الحجارة المحماة لتذهب وخامته. «خرّيتاً» الخرّيت الدليل الحاذق. «غمس حلفاً» تعني أنه كان حليفاً لهم. «أسودة» جمع سواد وهو شخص الإنسان ونحوه. «أكمة» بفتحات هو ما اجتمع من الحجارة في مكانٍ واحد. «فخررت» أي سقطت على الأرض. «يرزآني» أي لم يسألاني. «أوفى رجل» أي أشرف. «أطم» بضمتين هو الحصن. «هذا جَدُّكم» يعني حظكم ودولتكم «المربد» بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء الموضع الذي يحبس فيه الإبل والغنم، وقد يكون للتمر كالأندر للحبوب.

[١٣٣] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: جاء أبو بكر إلى أبي في منزله فاشترى منه رَحْلاً فقال للعازب: ابعث ابنك يحمله معي، قال: فحملته معه، وخرج أبي ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر حدّثني كيف صنعتما حين سريتَ مع رسول الله ﷺ؟

* * *

استراحته عند صخرة في القائلة وشربه اللبن

قال: نعم أسْرَيْنا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائِم الظهيرة وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحد، فرُفِعتْ لنا صخرةٌ طويلةٌ لها ظِلٌ لم تأتِ عليه الشمسُ، فنزلنا عنده وسوَّيت للنبيّ ﷺ مكاناً بِيدي يَنامُ عليه، وبسَطْتُ عليه فَرْوَةً، وقلت: نَمْ يا رسول الله، وأنا أنفُض ما حَوْلَه، فنام وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعٍ مقبلٍ بغنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت: لِمن أنت يا غلام؟ قال: لرجلٍ من أهل المدينة أو مكة، قلت: أفي غنمك لبنٌ؟ قال: نعم، قلت: أفَتَحْلُبُ؟ قال: نعم، فأخذ شاة، فقلت: انفُضْ الضَّرْعَ من التُّراب والشّعر والقَذَى، قال: فحلب في قَعْبٍ كُثْبَةً من لبن، ومعي إداوةٌ حملتُها للنبيّ ﷺ يرتوي فيها، يشرب ويتوضأ، فأتيت

النبيّ ﷺ فكرهتُ أن أُوقِظَه، فوافقتُه حين استيقظ فَصَبَبْتُ من الماء على اللبن حتى برد أسفلُه، فقلت: اشْرَبْ يا رسول الله، قال: فشرب حتى رضيتُ، ثم قال: **«ألم يأنِ الرحيل»**؟ قلتُ: بلى، قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس وأتبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أُتِينا يا رسول الله، فقال: **«لا تحزن إن الله معنا»**، فدعا عليه النبيّ ﷺ، فارْتَطَمَتْ به فرسه إلى بطنها أُرَى في جَلَدٍ من الأرض، فقال: إني أراكما قد دَعَوْتُما عليَّ، فادْعُوا لي فالله لكما أن أردَّ عنكما الطَّلَب، فدعا له النبيّ ﷺ فنجا، فجعل لا يَلْقَى أحداً إلا قال: كفَيْتُكُم ما هنا، فلا يلقى أحداً إلا ردّه، قال: ووفى لنا.

رواه البخاري في فضائل الصحابة (٩/٨، ١٠) وفي علامات النبوّة (٤٣٥/٧، ٤٣٦)، ومسلم في الزهد في حديث الهجرة رقم (٢٠٠٩)، وهو أيضاً في المسند (٣٠٢/١).

«قائم الظهيرة» أي: وسط النهار. «أنْفُضُ ما حولك» أي: أحرس وأطوف حولك. «والقَعْب» الإناء الصغير. «كثبة من لبن» أي: قليل منه. «ارْتَطَمَتْ» أي: ساخت به في الأرض. «جَلَد» بفتحتين الأرض الغليظة الصُّلبةُ.

* * *

حَدِيث أمّ مَعْبَدٍ الخزاعيّة

[١٣٤] عن حُبَيْشِ بن خالد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ خرج من مكّة مهاجراً إلى المدينة وأبو بكر رضي الله تعالى عنه ومولى أبي بكر عامر بن فُهَيْرة ودليلهما الليثي عبدالله بن أُرَيْقِط مرّوا على خيمة أمّ مَعْبَد الخزاعية، وكانت امرأة بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتَبِي بفِناء الخَيْمة، ثم تَسْقِي وتُطْعِم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتِينَ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: **«ما هذه الشاة يا أم معبد»**؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: **«هل بها من لبن»**؟ قالت: هي أجْهَد من ذلك، فقال: **«أتأذَنِين لي أن**

احلُبَها؟» قالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسَح بيده ضَرْعَها، وسمّى الله تعالى ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه ودرّت فاجْتَرَّتْ فدعا بإناءٍ يَرْبِضُ الرَّهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخِرُهم حتى أراضُوا ثم حلب فيه الثانية على يده حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم بايعها - يعني على الإسلام - ثم ارتحلوا عنها، فقلَّ ما لبثت حتى جاءها زوجُها أبو مَعْبَد يسوقُ أعنُزاً عِجافاً، يَتساوَكْنَ هِزالاً مُخُّهن قليلٌ، فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه، قال: من أين لك هذا يا أم معبد والشاء عازب حائل ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صِفِيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبْلَجَ الوجه حسن الخَلْقِ لم تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ ولم تُزْرِبه صَعْلَةٌ، وسيم قسيم، في عينيه دعج وفي أشفاره وطَفٌ وفي صوته صهل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، أزجّ، أقرن إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلاً، لا نزر ولا هذر كأنَّ منطِقَه خرزات نظم يتحدون ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قِصَر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إن قال سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند. قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصاحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. وأصبح صوت بمكّة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون صاحبه وهو يقول:

جَزَى الله رَبُّ الناس خيْرَ جَزائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حَلاَ خَيْمَتَيْ أمْ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلاها بالهُدَى واهْتَدَتْ بِهِ ... فقَدْ فاز من أمْسَى رفيقَ مُحَمَّدِ
فِيالَقُصَي ما زَوَى الله عنكُم ... به مِن فِعال لا تجازى وسُؤدَدِ
لِيهن أبا بكر سعادةُ جَدِّهِ ... بصحبته مَن يُسْعد الله يَسْعَدِ
وليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلُوا أُختكُم عن شاتِها وإنائِها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلّبت عليه صَريماً ضَرّة الشاةِ مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب يُرَدِّدُها في مَصْدرٍ بعد مَوْرِدِ

رواه الحاكم (١٠٩/٣)، والطبراني في الكبير (٣٦٠٥)، وأبو نعيم في الدلائل (٢٨٣، ٢٨٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي فقال: صحيح وللحديث شواهد عن أبي معبد رواه ابن سعد في الطبقات (٢٣٠/١)، وعن أبي بكر عند البيهقي في الدلائل (٤٩١/٢) وحسّنه ابن كثير في السيرة، فالحديث حسن أو صحيح.

«مُرمَلِين» أي: ليس لهم ما يتقوّتون به. «مُسْنِتِين» أي أصابتهم المجاعة والقحط والجدب. «تفاجت» فتحت رجليها لتحلب. «أراضوا» كرّروا الشرب. وصفات النبيّ ﷺ تأتي في الشمائل.

في هذه الأحاديث الثلاثة استقصاء ما حصل للنبيّ ﷺ في طريق هجرته من يوم أن خرج من بيته والتحق بالغار إلى أن وصل إلى المدينة... ويمكن لنا أن نلخّص ما فيها من الفوائد والعِبَر... في الآتي:

أولاً: إن الهجرة من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأوّل من هاجر منهم إمام الموحدين سيدنا إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام هاجرا الكفار، وبلاد الكفر من العراق إلى فلسطين ثم تلاهما يعقوب وأولاده حيث هاجروا بلاد الكنعانيّين إلى مصر حيث كان يوسف ممكناً فيها عليه السلام، وهاجر كليم الله موسى عليه السلام من مصر إلى بلاد مدين، وهاجر خاتم أنبياء بني إسرائيل عيسى روح الله وكلمته عليه السلام ثم ختم هجرة الأنبياء الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

ثانياً: إن الهجرة قد تكون فرضاً لازماً إذا كان المؤمن مضطهداً في بلد كفر أو ظلم لا يمكنه إقامة شعائر دينه ولا الدعوة إليه بكل حرية فيه؛ لأن المحافظة على العقيدة والدين الحقّ يجب أن يضحّي الإنسان في سبيلها بكل ما يحبه أو يملكه في هذه الحياة من وطن، ومال، وأهل، ولا عِبْرة بالحياة مهما كان للإنسان من رغد في العيش مع ضياع الدين، فضياع الدين مع توفر أسباب الحياه خسارة أبدية. ولنا العبرة في هجرة نبيّنا ﷺ

وأصحابه رضي الله تعالى عنهم؛ فإنهم لم يهاجروا فراراً من الفقر والحاجة، وطلباً للمال والثراء، ولو إلى بلاد الكفر مع ضياع الدين كما يفعله مسلمو عصرنا، بل هاجروا؛ كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

فقد خرجوا من مكّة المكرمة وتركوا فيها الأموال والأزواج والأولاد والآباء والعشائر فراراً بدينهم ومحافظة على عقيدتهم ليس إلاّ. رضي الله تعالى عنهم.

ثالثاً: إن للهجرة في الله فضائل ومزايا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾، والقرآن الكريم ملآن بالكلام على فضل الهجرة والمهاجرين ولعظم شأن الهجرة جاء الحديث التالي:

[١٣٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة، فقال: **«ويحك إن شأنها شديدٌ، فهل لك من إبل تؤدي صدقتها»**، قال: نعم. قال: **«فاعمَلْ مِن وراءِ البحار، فإنّ الله لن يَتِرك مِن عملِك شيئاً»**.

رواه البخاري في الزكاة وفي الهبة وفي الهجرة النبوية رقم (٣٩٢٣) (ج ٨/٢٦١) وفي الأدب، ومسلم رقم (١٨٦٥).

لن يترك أي: لن ينقصك. وهذا الحديث جاء بعد فتح مكة، فإذا كان للمسلم حرّية في دينه فليعبد الله عزّ وجلّ أينما كان ولو كان خلف البحار، وفيه إشارة إلى الإقامة في أمريكا لأنها وراء البحر الأحمر والأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، فلو وجد المسلم حرّيته هنالك آمناً على دينه ونفسه وأهله فليقم وليعبد الله تعالى.

وفي مقابل هذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ الآية.

فالآية نزلت تهدّد المقيمين مع الكفار فاقدين حريتهم في دينهم، ولم يهاجروا مع استطاعتهم ذلك، ثم استثنى الله المستضعفين الذين لا حِيلة لهم في الخروج.

رابعاً: هذا في الهجرة الجسمية وهناك هجرة أخرى وهي أهمّ من المذكورة، تلك هي هجرة المحرمات، وهذه تعمّ بلاد الكفار وبلاد الإسلام، وجاء فيها الحديث التالي:

[١٣٦] عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المُسلم مَن سَلِم المسلمون من لِسانِهِ ويدِهِ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**.

رواه الشيخان وغيرهما وقد تقدم في الإيمان (ج ١ رقم ١٨٧)، فهجران المحرمات والذنوب هي الهجرة الحقيقية التي يطالب بها المسلم في كل مكان وزمان ومهاجرة الذنوب تقتضي هجران قرناء السوء ومواقع المعاصي، والله الموفق الهادي لأقوم طريق.

خامساً: في فراره ﷺ من المشركين متسللاً واختفاؤه بالغار ثلاث ليالٍ وخروجه متستّراً حذراً، كل ذلك فعله سلوكاً منه ﷺ لطريق الأسباب، ولكي تقتدي به أُمّته وخلفاؤه والدعاة إلى الله تعالى إذا اقتضى الحال ذلك، واستعمال الأسباب المادية لا ينافي الإيمان ولا التوكّل على الله والنبيّ ﷺ كان مُوقِناً بنصر الله تعالى وحفظه من المشركين، وفعلُه ﷺ هذا لا يعارض بما صنعه عمر رضي الله تعالى عنه من خروجه علانية؛ لأن عمر فرد من الأُمّة وليس مشرّعاً ففعله ليس بحجّة، بخلاف النبيّ ﷺ فإنه قدوة لكل الأجيال إلى يوم القيامة.

سادساً: في استخلافه ﷺ الإمام علياً عليه السلام يبيت على فراشه نيابة عنه؛ مغامرة محفوفة بالأخطار، فلو كان هناك أشجع من الإمام عليّ، واعتماداً منه على الله عزّ وجلّ لخلفه على فراشه، وفيه فضل الإمام عليّ؛

وكيف لا وهو وليّ كل مؤمن ولم يَرِد من الفضائل لأحد ما ورد له، كما يأتي في الفضائل إن شاء الله تعالى.

سابعاً: هجرة الصدّيق مع الرسول الكريم ﷺ وصحبته إياه كانت ولا شك بإذن من الله عزّ وجلّ، وفي ذلك منقبة له عظيمة وفضيلة ومزية لم يحظ بها أحد دونه، وكانت صحبة خاصة سَخَّرَ فيها الصدّيقُ مالَه وأهله ونفسَه لخِدْمَةِ النبيّ ﷺ في طريق هجرته، فأنفق عليه ماله وأخدمه ولده وخادمه، فكان ولده عبدالله يأتيهما بأخبار المشركين ليلاً، وكان مولاه يبيت عندهما بالغنم فيشربان من لبنها ما يكفيهما، وابنته أسماء هيّأت لهما سفرة وشدّتها بقطعة من نطاقها، ولهذه المزايا التي حظي بها الصدّيق ذكره الله تعالى مقروناً بنبيّه ﷺ حينما أخرجه الكفار ونزلا الغار، وقال له: «لا تحزن إنّ الله معنا»، فأنزل الله السكينة على رسوله وأيّده بجنود من الملائكة لم يرَها أحد وحصل له كل ذلك والصديق بجانبه وسمّاه الله صاحباً له، فسبحان من خصّ من شاء بما شاء. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ثامناً: فيما ذكر من قصة الهجرة، جواز استخدام الكافر إذا كان أميناً، فإنه ﷺ استأجر ذلك الديلي ليدلّهما على الطريق، والحال أنه على دين قومه وهو يدلّ على أن ذلك الرجل كان أميناً لم يَصْدُرْ منه غَدْرٌ ولا خيانةٌ وهذا خُلُقٌ كريم عري جمهور المسلمين اليوم، بل أكثرهم من التخلّق به.

تاسعاً: في خصوص حديث البراء بن عازب شدّة اهتمام الصدّيق رضي الله تعالى عنه بالنبيّ ﷺ وشفقته عليه وإيثاره نفسه وتأدّبه معه.

عاشراً: في هذه الأحاديث عدة معجزات للنبيّ ﷺ وآيات باهرة:

منها: تعمية المشركين عنه ﷺ عند خروجه من منزله وهم محيطون

به، فخرج عليهم ورماهم بالحصى والتراب وهو يقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾، فأعماهم الله عزّ وجلّ ولم يشعروا بخروجه.

ومنها: تعميتهم أيضاً في الغار رغم أنهم كانوا واقفين على بابه، ولو كانوا نظروا فيه لرأوا النبيّ ﷺ وصاحبه، ولكن الله عزّ وجلّ أعمى أبصارهم وألهَم العنكبوت أن تَنسُجَ خيوطَها على باب الغار زيادةً في صَرْفهم عن البحث في الغار.

ومنها: ما حصل لسُراقة وارتطام أرجُلِ فرسه في الأرض وسقوط سُراقة وصعود غبار من الأرض كالدخان حصل له ذلك مرّتين، وفي الثانية منهما اعتبر، فأمَّنهما وطلب منهما الوقوف.

ومنها: ثجّ اللبن من شاة أمّ معبد العجفاء الحائل ببركة حلب النبيّ ﷺ إياها حتى سقى أم معبد ورفاقه وشرب هو الآخر وأبقى لأم معبد إناء ملآن لبناً، فهذه كلّها آيات وقعت له ﷺ في طريق هجرته.

* * *

رسول الله ﷺ بقباء وتاسيسه مسجده

حادي عشر: قد رأينا أن الأنصار لما سمعوا بقدوم النبيّ ﷺ كانوا يخرجون لانتظاره حتى يردّهم حرّ الظهيرة، وعندما وصلهم قدومه أخذوا سلاحهم وخرجوا للقائه، فنزل بني عمرو بن عوف بقباء، ومكث بها بضعة عشر يوماً أسّس خلالها مسجدها التاريخي الذي أشاد به القرآن الكريم وبأهله في قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إلخ.

وكان ذلك يوم الاثنين من ربيع الأول ثاني عشر منه، وهو الذي ذكره ابن سعد في الطبقات (٣٣٣/١)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (١٣٣/٢) وجزم به النووي وهو الراجح وقول الجمهور، وقيل غير ذلك. أما خروجه

من مكّة المكرمة، فقال الحاكم: تواترت الأخبار بأن خروجه كان يوم الاثنين، يعني من شهر ربيع الأول، وخروجه يوم الاثنين كان من بيته وبقي بالغار ثلاث ليال وخرج منه يوم الخميس وبقي بالطريق اثني عشر يوماً ووصل يوم الاثنين ثاني عشر من الشهر، والله أعلم، ففي ذلك خلاف.

***

❋ دخول رسول الله ﷺ المدينة وفرح أهلها بقدومه ونزوله على أبي أيوب الأنصاري

ثاني عشر: عندما نزل رسول الله ﷺ المدينة كان كلما مرّ على حيّ من أحياء الأنصار سألوه النزول عندهم، فيقول لهم: **«دعوها - يعني الناقة - فإنها مأمورة»**، وأضاءت المدينة لقدومه وتلقّاه الناس وخرجوا في الطرقات الرجال والخدم والصبيان وصعدوا على السطوح حتى أن العواتق والبنات فوق البيوت يَتَرَاءَيْنَه وقد علا جميعهم الفرح والسرور، واحتفلوا به فنحروا جزوراً ولعبت الحبشة بحرابهم، وفيما ذكرناه أحاديث، وهي:

[١٣٧] عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: فقدمنا المدينة ليلاً فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله ﷺ، فقال: **«أنزِلُ على بني النجار أخوال عبد المطلب أُكرِمُهم بذلك»**، فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرّق الغلمان والخدم في الطريق ينادون: يا محمد يا رسول الله، وفي رواية يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد ﷺ.

رواه البخاري في مواضع وتقدم مطولاً بغير هذا السياق، ورواه مسلم في الزهد (١٨/١٥١) وأحمد بنحوه.

[١٣٨] وفي حديث البراء المتقدم في هجرة أوائل الصحابة، قال: ثم قدم النبيّ ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ... وفي رواية: حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء ﷺ.

رواه البخاري في تفسير (سبّح اسم ربك) وفي فضائل القرآن وفي الهجرة النبويّة (٢٦٢/٨، ٢٦٣).

[١٣٩] وقال أنس رضي الله تعالى عنه: ما رأيت يوماً قطّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة. وفي رواية: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ أضاء منها كلُّ شيء.

رواه أحمد (٢٢١/٣، ٢٦٨)، وابن ماجه (١٦٣١) بسند صحيح على شرط مسلم.

[١٤٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم النبيّ ﷺ المدينة نحروا جزوراً أو بقرة.

رواه أحمد (٣٠١/٣) بسند صحيح.

[١٤١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لَعِبَت الحبشة بحرابهم فرحاً لقدومه ﷺ.

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٢٣) بسند صحيح.

وفي هذا دليل على جواز اللعب بالمباح عند حدوث الأفراح وعلى الأخصّ الأفراح الدينية وقد استدلّ أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الإحياء» بهذا وغيره على جواز رقص الصوفية، وتبعه في ذلك السهروردي في «عوارف المعارف».

* * *

❋ سكناه ﷺ بدار أبي أيّوب الأنصاري وتأدّبه معه وتبرّكه بآثاره

ثالث عشر: قد حظي أبو أيّوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه بسكنى رسول الله ﷺ بداره، وتلك مزية وإكرام من الله ورسوله ﷺ له، وقد حدّثنا بنفسه عن حالته مع النبيّ ﷺ في جواره.

[١٤٢] فعنه قال: إن النبيّ ﷺ نزل عليه، فنزل النبيّ ﷺ **في السُّفلِ وأبو أيوب في العُلْوِ**، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة، فقال: **نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ**، فَتَنَحَّوْا فباتوا في جانب، ثم قال للنبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: **«السُّفل أرْفَقُ»**، فقال: لا أعلو سَفِينة أنت تحتها، فتحوّل النبيّ ﷺ في العُلْوَ وأبو أيوب في السفل، فكان يَصْنَعُ للنبيّ ﷺ طعاماً، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثُومٌ، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ ، فقيل له: لم يأكل، فَفَزِعَ وصعد إليه فقال: أحرامٌ هو؟ فقال النبيّ ﷺ: **«لا، ولكني أكْرَهُه»**، قال: وإني أكره ما تكره أو ما كرهتَ، قال: وكان النبيّ ﷺ يُؤتى.

رواه مسلم رقم (٢٠٥٣) في الأشربة (٩/١٤، ١٠)، وأحمد (٤١٥/٥) وغيرهما.

وقوله: «وكان النبيّ يُؤتى» مبني للمجهول، يعني: تأتيه الملائكة وهم لا يحبون الروائح الكريهة كما جاء في رواية: **«فإني أُناجي مَنْ لا تُناجي، وأن الملائكة تَتَأذَّى مِمَّا يتأذى منه بَنُو آدم»**، ففي هذا الحديث فائدتان اثنتان، أحدهما: تأدّب أبي أيوب مع رسول الله ﷺ واحترامه وتوقيره إياه حيث امتنع من السُّكنى فوق النبيّ ﷺ، وذلك عنوان منه يدلّ على تعظيم الجانب النبويّ. . . وثانيهما: تبرّكه بالآثار النبوية وابتغاؤه البركة من آثار أصابعه ﷺ، وهذا لم يختصّ به أبو أيوب فالصحابة كلهم كانوا يتبرّكون بآثاره ﷺ كما يأتي في موضعه.

* * *

❋ خلاصة ما تقدم من المبعث إلى نهاية الهجرة من الأعمال النبويّة والأحداث

جاء في الأبواب السابقة من المبعث إلى هنا عدة أعمال نبويّة وأحداث مختلفة أهمّها وأبرزها وأجلّها: تفضّل الله عزّ وجلّ على حبيبه سيّدنا

محمد ﷺ بنعمته الكبرى عليه وعلى أُمّته وهي بدء الوحي، وأول ما نزل عليه من القرآن الكريم، ثم صفة الوحي، وكيف كان يتلقّاه ﷺ ثم بداية الدعوة ومراحلها في حياته ﷺ ثم بيان السابقين للإسلام وأول من أسلم منهم، ثم الجهر بالدعوة والصدع بها للأقارب والأباعد، ثم إيذاء الكفار له ﷺ بشتّى الأنواع ثم طلب الكفار من أبي طالب أن يتدخّل في كفّ النبيّ ﷺ عن سبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم... ثم إيذاؤهم للصحابة وعدوان المشركين عليهم، وخاصّة الضعفاء والخدم منهم، ثم ذكر قول الوليد بن المغيرة في القرآن وأنه سحر... ثم تفاوض قريش مع النبيّ ﷺ وعرضهم عليه المال والنساء والمُلْك وأن يدع ما هو بصدده، ثم اقتراحهم عليه الإتيان بالآيات كانشقاق القمر وانقلاب الصفا ذهباً... ثم بدأت بشائر عزّ الإسلام تظهر؛ فأسلم حمزة بن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ وأسَدُ هذه الأمّة، ثم إسلام أبي ذرّ الغفاري وضماد الأزدي... ثم تأتي قصة إسلام الجنّ بعد أن مُنِعُوا من استراق السمع ثم بيان ما كان يفعله النبيّ ﷺ والإمام عليّ عليه السلام من تحطيم الأصنام التي كانت منصوبة على الكعبة وتلطيخها بالعذرة بواسطة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه والإمام عليّ كرّم الله وجهه، ثم جاءت الهجرة إلى الحبشة الأُولى والثانية وما صدر فيها من عزّ وانتصار للمهاجرين على عمرو بن العاص ورفيقه، ثم تقوّى الإسلام وازداد عزّاً بإسلام بطل الإسلام وعبقريه عمر الفارق رضي الله تعالى عنه، ثم جاءت المحنة النكراء حصار النبيّ ﷺ في الشّعب ومعه بنو هاشم وبنو المطلب بمؤمنهم وكافرهم، ثم الانتقام من المستهزئين، ثم قصة ابن أمّ مكتوم مع النبيّ ﷺ، ثم دعاؤه ﷺ على كفار قريش لما استعصوا بالقحط والجدب حتى أكلوا الجيفة والعظام، ثم تأتي المعجزة الإخبارية للقرآن الكريم وهي قصّة انتصار الروم على فارس بعد هزيمتها، ثم جاء عام الحزن حيث توفي عمّ النبيّ ﷺ أبو طالب، ثم وفاة خديجة وكان ذلك في سنة واحدة وشهر واحد.

ثم تزوّجه ﷺ بسودة بنت زمعة رضي الله تعالى عنها وعقده على عائشة حبيبته رضي الله تعالى عنها وهي بنت ستّ سنين، ثم خروج

النبيّ ﷺ إلى الطائف بعد أن تكالب عليه الكفار وتفاقم عليه البلاء واشتدّ أمره، ثم خروج الصدّيق رضي الله تعالى عنه مهاجراً ورجوعه في جوار ابن الدّغنة.

ثم تأتي الآية الكبرى والمعجزة العظمى، وهو حادث الإسراء والمعراج الذي كان أعظم مُسَلٍّ للنبيّ ﷺ ومُثَبِّت، ثم عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل في الأسواق ومواسم الحجّ، ثم بداية وفود الأنصار عليه ﷺ وقدومهم عليه لأول مرة يلقونه فيها، ثم بدء إسلام الأنصار، ثم بيان بيعة العقبة الأولى، ثم الثانية، ثم إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة ليدعو إلى الله ويفقه من أسلم منهم، ثم انتشار الإسلام بالمدينة وقَلَّت دارٌ من دورها ليس فيها إسلامٌ.

ثم جاءت بوادر هجرة النبيّ ﷺ فرأى في منامه دار هجرته، ثم ذكر أوّل من هاجر إليها من الصحابة، ثم ذكر قصة هجرة أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، ثم مؤامرة كفار قريش على قتله ﷺ ثم خروجه من بين أظهرهم وتعميتهم عنه، ثم لحوقه بالغار ثم جاءت الهجرة وخروجه مصحوباً بالصدّيق، فقطعا مسافة ما بين مكّة والمدينة تحت رعاية الله تعالى وحمايته، ثم وصوله إلى المدينة ونزوله بقباء أربعة عشر يوماً أسّس خلالها مسجده التاريخي، ثم نزل إلى المدينة ونزل على أبي أيّوب الأنصاري ثم فرح الصحابة به واحتفالهم بقدومه ﷺ.

هذه مضامين المرحلة الأولى من حياته ﷺ بمكّة المكرمة من المبعث إلى الهجرة، وكانت إقامته بها بعد بداية الوحي ثلاثة عشر عاماً كانت كلّها بلايا وفتناً ونكبات في سبيل تبليغ رسالته والدعوة إلى الله تعالى.

وها هو الآن بالمدينة بين أنصاره ومؤيّديه من المؤمنين به ﷺ مؤزراً منصوراً عزيزاً منيعاً.

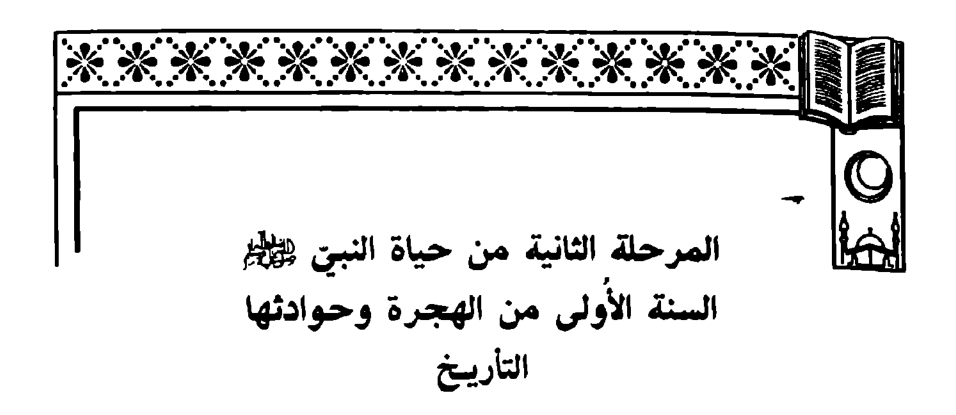
ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن دعوته بمكّة طوال هذه السنين كانت خاصّة بأصول الدين والعقيدة؛ كالدعوة إلى التوحيد وبيان دلائله من هذا الكون والدعوة إلى ترك عبادة غير الله عزّ وجلّ والأمر بالإيمان

بالملائكة والرُّسل والكتب الإلٰهيّة ثم الإيمان بالبعث والقيامة وما فيها. . . ثم الدعوة إلى مكارم الأخلاق وبيان قصص الأنبياء وغيرهم.

وكانت أكثر السور نزلت بمكّة في هذه الفترة تهتم بهذا الجانب، ولم يَبق من القرآن إلاّ ثلاث وعشرون سورة وهي السور المدنية التي تُعْنَى بالأحكام والحلال والحرام والتشريع الإسلامي العام، وتلك السور هي:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحجّ، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، للحشر، الممتحنة، الصفّ، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر، على خلاف في بعض لم تذكر.





المرحلة الثانية من حياة النبي ﷺ
السنة الأُولى من الهجرة وحوادثها
التأريخ

[١٤٣] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: ما عَدُّوا مِن مَبْعَثِ النبيّ ﷺ ولا مِنْ وفاتِهِ، ما عَدُّوا إلا من مَقْدَمِهِ المدينة.

رواه البخاري قبيل المغازي (٨/٢٦٩، ٢٧٠).

[١٤٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان التاريخ في السنة التي قدم فيها رسول الله ﷺ المدينة، وفيها وُلد عبدالله بن الزبير.

رواه الحاكم (٣/١٣، ١٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[١٤٥] وعن سعيد بن المسيّب رضي الله تعالى عنهما قال: جمع عمر رضي الله تعالى عنه الناس فسألهم: من أيِّ يوم يكتب التاريخ؟ فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك، ففعله عمر رضي الله تعالى عنه.

رواه الحاكم أيضاً (٣/١٤) وصححه ووافقه الذهبي وقال: صحيح.

كان العرب كغيرهم من الأُمم يؤرّخون بالأحداث الظاهرة، فلما توفي النبيّ ﷺ وخلفه الصديق ثم عمر رضي الله تعالى عنهما وتكوّنت الدولة الإسلامية وفتحت الأقطار والأمصار احتاجوا إلى وقت يؤرّخون منه تاريخ الإسلام، فاستشار سيّدنا عمر الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فأشار كلٌّ بما

بدا له، فاختار عمر قول عليّ رضي الله تعالى عنهما، فجعل التاريخ من هجرة النبيّ ﷺ، وإنما قدَّموه لأول السنة من المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم؛ إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجّة وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهلّ بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم، فناسب أن يجعل مبتدأً. قال الحافظ: وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم.

وما ذكرناه هو مؤدّى ما ذكر من أقوال سهل وابن عباس وعليّ وسعيد رضي الله تعالى عنهم.

* * *

مجيء عبدالله بن سلام إلى النبيّ ﷺ وإسلامه

[١٤٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمع عبدالله بن سَلام رضي الله تعالى عنه بمَقْدَم رسول الله ﷺ وهو في أرض يَخْتَرِف، فأتى النبيّ ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يَعْلَمُهُنّ إلا نبيّ، فما أوّل أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنّة؟ وما يَنْزِعُ الولدَ إلى أبيه؟ قال: **«أخبرني بهن جبريل آنِفاً»**، قال: جبريل، قال: نعم، قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

«أمّا أول أشراط الساعة فنارٌ تَحشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كَبِدِ حُوتٍ، وإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولدَ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعتْ»، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهُتٌ، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يَبْهَتُوني، فجاءت اليهود فقال: **«أي رجل عبدالله فيكم»**؟ قالوا: خَيْرُنا وابن خَيْرنا، وسيِّدُنا وابن سيدنا، قال: **«أرأيتُم إن أسلم عبدالله بن سلام»**؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قالوا: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

وفي رواية: «**يا معشر اليهود ويلكم اتّقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق أسلموا**»، فقالوا: ما نعلمه.

رواه أحمد والبخاري في التفسير وفي الأنبياء وفي الهجرة (٨/٢٧٤، ٢٧٥).

قوله: «يخترف» أي: يجني رطباً لأهله. قوله: «ينزع الولدَ» أي: جذبه إليه، وفي رواية لمسلم من حديث عائشة: «**إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه أعمامه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه أخواله**»، والمراد بالعلوّ هنا سبق الماء، وقد تقدم بعض هذا في الطهارة.

وقوله: قوم بهت ـ بضم الباء والهاء وتسكن ـ أي: يبهتون السامع بما يفترونه من الكذب.

وفي الحديث فضل عبدالله بن سلام وإنصافه وأن الله تفضّل عليه من بين اليهود وأسعده كما فيه تلك المعجزة الظاهرة من إخباره ﷺ بما كان غائباً عنه من أشراط الساعة وما يقدم أول لأهل الجنّة من الطعام، وكيف يكون الشّبه في الأولاد للأب أو الأم... ولقصة عبدالله هذا طرق سيأتي بعضها في الأدب.

* * *

بناء المسجد النبوي الشريف

[١٤٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ نزل في أعلى المدينة في حيّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم إنه أرسل إلى ملإٍ من بني النجار، قال: فجاءوا مُتَقَلِّدين سيوفَهم، قال: فكأنّي أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقي بفناء أبي أيوب، قال: فكان يصلّي حيث أدركته الصلاة ويصلّي في مرابض الغنم، ثم أمر بالمسجد فأرسل إلى

ملإٍ من بني النجار فجاءوا، فقال: «**يا بني النجار ثامنوني حائطكم هذا**»، فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، قال: وكان فيه قبور المشركين وكان فيه خرب وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ، وبالخرب فسوّيت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل إلى قبلة المسجد، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً، قال: وجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول: «**اللّهمّ لا خير إلا خيرَ الآخرة، فانصر الأنصارَ والمهاجرة**».

رواه البخاري ومسلم وقد تقدم قسم المسجد منه في الصلاة رقم (٥٥١)، وقسم نزوله ﷺ بقباء وبدار أبي أيوب تقدم أيضاً في حديث عائشة في سياق حديثها في الهجرة.

كان النبيّ ﷺ لما نزل بالمدينة كان من أوّل ما اهتمّ به بناء مسجده الشريف، ورأينا أن موضعه كان مربداً ليتيمين لأسعد بن زرارة فوهباه له بلا مقابل، وكان أسعد بن زُرارة قد اتّخذه مصلّى يصلّي فيه بأصحابه قبل مقدم النبيّ ﷺ، ولما شرعوا في بنائه شارك في بنائه النبيّ ﷺ وأصحابه، ومنهم الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم.

[١٤٨] فعن سفينة رضي الله تعالى عنه قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه رضي الله تعالى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هؤلاء ولاةُ الأمر مِنْ بَعْدِي**».

رواه الحاكم (٣/١٣) وصححه وقال الذهبي: صحيح، وكان منهم أيضاً عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه.

[١٤٩] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنا نحمل لَبِنَةً لَبِنَةً، وعمارُ لبنتين لبنتين، فرآه النّبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: «**وَيْح عمّارٍ تَقْتُلُه الفِئَةُ الباغِيَة، يَدعوهم إلى الجنّة ويَدعونَه إلى النار**»، قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

رواه البخاري في مواضع ومسلم في الفتن وغيرهما ويأتي في الفضائل

وغيرها، وتقدم في المحاربين. الفئة الباغية: هي الجماعة التي كانت تقاتل الإمام عليًا وهم معاوية وأهل الشام. وكان من صفة المسجد أيام النبيّ ﷺ وتجديده أيام الخلفاء الراشدين ما جاء في الحديث التالي:

[١٥٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللَّبِن، وسَقْفُه الجريدُ، وعُمُدُه خَشَبُ النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللَّبن والجريد وأعاد عمده خَشَباً ثم غيّره عثمان، فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج.

رواه البخاري في المساجد (٨٦/٢).

قوله: «القصة» بفتح القاف الجص. وقوله: «الساج» هو نوع من الخشب.

فهكذا كان المسجد النبويّ الأصلي بناءً بسيطاً مبنياً بالحجارة ولَبِنِ التراب وأعْمِدتُه من خشَبِ النخل، وسَقْفُه بالجريد وعِضَادَتَاه، أي جانِبا بابِهِ بالحجارة ثم تفنّن الناس في تشييده وزخرفته إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن.

وكانَ المسجدُ النبويّ من يوم أُسّس مسجداً ثانياً في الفضل تشدّ إليه الرحال، وكان إضافة إلى إقامة الصلوات الخمس فيه، جامعةً إسلاميّةً يُلْقِي فيه النبيّ ﷺ دروسه ومواعظه ونصائحه لأصحابه، وكان جبريل عليه السلام يتردّد إليه من عند الله عزّ وجلّ في كل وقتٍ وحين، وهو موضع التشريع الإسلامي، وفيه كانت تُبرم الأُمور التي يُراد تنفيذها، ومنه كانت تُبعث السرايا والجيوش لقتال الكفار، وفيه كان ﷺ يستقبل الوفود، وفيه كان يفصل بين المتخاصمين ويصدر أحكامه العادلة... وللمسجد النبوي تاريخ رائع، وله فضائل كالمدينة تقدم بعض ذلك في الحجّ، وكان ﷺ بنى حجر نسائه متّصلات بمسجده. ولِلْمَسْجد أهميّةٌ كبرى في الإسلام، ففيه يتعارف المسلمون ويتوحّدون فيقفون بين يدي الله تعالى متحدين في جوٍّ

روحاني خمس مرات في كل يوم، وعنده تَبْدُو أُبَّهة الإسلام وتؤدّى أعظم شعائره، ومنه يَسْتقي عامّة المسلمين النصائح والمواعظ والتوجيه بما يتلقّونه من العلماء في دروسهم ومَوَاعِظهم وخُطَبهم...

* * *

❁ فرضية الصلاة أربعاً بالمدينة وإبقاءُ صلاة السفر على أصلها

[١٥١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: فُرِضَت الصلاةُ ركعتين، ثم هاجر رسول الله ﷺ فَفُرِضَتْ أَرْبعاً وتُرِكَتْ صلاةُ السفر على الأوَّل.

رواه البخاري في الصلاة وفي آخر الهجرة (٢٧١/٨)، ومسلم كذلك وقد تقدم بسياق آخر في الجزء الثاني رقم (١٠٣١).

الحديث يدلّ على أن الصلاة مفروضة ركعتين غير المغرب، ولما قدم ﷺ زِيد في الحضر ركعتان أُخريتان، وبقيت صلاة السفر على أصلها تؤدّى ركعتين، وقد تقدم الكلام على هذا الموضوع في صلاة السفر من كتاب الصلاة في الجزء الثاني.

* * *

❁ إسلامُ سَلْمان الفارسِيّ

[١٥٢] عن سلمان رضي الله تعالى عنه أنه تداوله بضعة عشر من رَبٍّ إلى رب.

رواه البخاري قبيل المغازي (٢٧٩/٨).

قصة إسلام سلمان رضي الله تعالى عنه ومجيئه إلى النبيّ ﷺ بعد أن عانى شدائد في حصوله على الدين الحقّ قد تقدمت في تبشير اليهود والأحبار والرهبان به ﷺ.

* * *

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

[١٥٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩٤) وفي الأدب (٦٠٨٣) وفي الاعتصام (٧٣٤٠)، ومسلم في الفضائل (٢٥٢٩) (٨٢/١٦) وغيرهما.

[١٥٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾، قال: ورثة. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، قال: كان المهاجرون لما قدموا على النبيّ ﷺ المدينة وَرِثَ المهاجريّ الأنصارِيَّ دُون ذَوِي رَحِمِهِ للأخوّة التي آخى النبيّ ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ﴾ الآية نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ إلا النّصر والرِّفادَة والنصيحةَ وقد ذهب الميراث ويُوصَى له.

رواه البخاري في مواضع منها التفسير رقم (٤٥٨٠) وقد تقدم فيه.

[١٥٥] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قالت المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثلَ قوم قَدِمْنا عليهم أحْسَنَ بَذْلاً من كَثِير، ولا أحسنَ مُواساةً في قليلٍ، قد كَفَوْنا المَؤُونَةَ، وأشركونا في المَهْنَإِ، فقد خَشِينا أن يَذْهَبُوا بالأَجْرِ كُلِّه، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«كلّا، ما أَثْنَيْتُمْ عليهم بِهِ ودَعَوْتُمُ الله عزّ وجلّ لهمُ»**.

رواه أحمد (٢٠٤/٣)، وأبو داود في الأدب (٤٨١٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٧) وسنده صحيح على شرط الشيخين وحسّنه الترمذي وصححه.

[١٥٦] وعنه أيضاً قال: قدم عبدالرحمٰن بن عوف فآخى النبيّ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع فعَرض عليه أن يُناصِفَه أهلَه ومالَه، فقال عبدُالرحمٰن: بارك الله لك في أهلك ومالك.

الحديث تقدم في النكاح وغيره مطولاً رواه البخاري في المغازي (٨/٢٧٤) وفي مواضع، ومسلم وأبو داود في النكاح والترمذي في البرّ والصلة والنسائي وابن ماجه في النكاح.

[١٥٧] وعنه أيضاً قال: آخى النبيّ ﷺ بين أبي عُبَيْدة وبين أبي طلحة.

رواه أحمد (٣/١٥٢)، ومسلم في الفضائل (٢٥٢٨)، وأبو يعلى (٣٣٢٠).

[١٥٨] وعن أبي جُحَيْفة رضي الله تعالى عنه قال: آخى النبيّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء.

رواه البخاري في الصيام وفي الأدب والترمذي في الزهد (٢٤١٥) وتقدم في الاعتصام.

قَدِم المهاجرون من مكة المكرمة غرباء لا مال لهم ولا أهل، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يؤاخى فيما بينهم كأُخُوَّةِ النَّسَب يَتَوارَثُون ويَتَناصَرُون إلى وقتٍ ما ثُمّ نُسِخ التوارثُ وبَقِيَ التَّناصُرُ والرِّفادةُ والتَّناصُحُ والوَصِيَّةُ، وقد أبان الأنصار رضي الله تعالى عنهم عن كرمهم وشدّة إحسانهم إلى المهاجرين وإيثارهم إيَّاهم على أنفُسهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وكيف لا وقد قاسموا إخوانهم المهاجرين الأموال والنساء، فكان الأنصاري إذا كانت له زوجتان تنازل عن إحداهما لأخيه المهاجري، وهكذا يفعل في ماله، ولذلك كان النبيّ ﷺ يحبهم كثيراً ويدعو معهم ومع أولادهم وقال: **«لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار»**، وقال لهم: **«المَحْيَا مَحْيَاكم والمَمَاتُ مَماتُكم»**، وستأتي مناقبهم في الفضائل.

وفي الأحاديث المذكورة التنصيصُ على بعض من آخى بينهم النبيّ ﷺ وقد سرد الكثير منهم ابنُ إسحاق كما عند ابن هشام (٢/١٤٦، ١٤٧، ١٤٨)، وذكر ابن سعد (١/٢٣٨) أنّ الذين آخى بينهم النبيّ ﷺ

كانوا تسعين أو مائة رجل نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، قال السهيلي رحمه الله تعالى: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغُربة ويتآنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ بعضهم أُزر بعض، فلما عزّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلّهم إخوة، وأنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يعني في التوادد وشمول الدعوة. . .

ملحوظة: ذكر ابن سعد وغيره أن رسول الله ﷺ لمّا استقرّ بالمدينة بعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكّة وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ وسودة بن زمعة زوجته وأسامة بن زيد وكانت رقية بنت رسول الله ﷺ قد هاجر بها زوجها عثمان بن عفان قبل ذلك، وحبس أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول الله ﷺ وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد، وخرج عبدالله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة الخ.

***

مبايعة النبيّ ﷺ نساء الأنصار

[١٥٩] عن أمّ عطية رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيتٍ ثم بعث إليهنّ عُمرَ بن الخطاب، فقام على الباب فسلّم فردَدْنَ عليه السلام فقال: أنا رسولُ رسول الله إلَيْكُنّ، قُلْنَ: مرحباً برسول الله وبرسولِ رسولِ الله ﷺ، وقال: **«تُبايِعْن على أن لا تُشْرِكْنَ بالله شيئاً، ولا تَزْنِين، ولا تَقْتُلْنَ أولادكُنّ، ولا تأتِين ببُهتان تَفْتَرِينَه بين أيْدِيكُنّ وأرْجُلكُنّ، ولا تَعْصِينَه في معروف»**، قلنا: نَعَمْ، فمَدَدْنا أيدينا من داخل البيت، ومدّ يده من خارج البيت، ثم قال: **«اللّهمّ اشهَدْ. . .»**.

رواه أحمد (٤٠٨/٦، ٤٠٩)، وأصله في الصحيحين.

[١٦٦٠] وعن أُمَيْمَة بنت رُقَيْقَة رضي الله تعالى عنهما قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نِسْوَةٍ من الأنصار، فقلنا: نُبايِعُكَ على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني... الحديث.

رواه أحمد ومالك والترمذي والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة، وقد تقدم في الإيمان رقم (١٦٦) في الجزء الأول.

الحديثان يدلاّن على أن النبيّ ﷺ بايع نساء الأنصار عقب قدومه على هذه الشرائع، وقد تكرّرت مبايعته للرجال والنساء على شرائع الدين مرّات، وستأتي مبايعته للنساء المهاجرات بعد الحديبية.

* * *

❋ مرض بعض الصحابة مَقْدَمَهُم المدينة ودعاء النبيّ ﷺ في ذلك

[١٦٦١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلالٌ، فكان أبو بكر إذا أَخَذَتْهُ الحُمَى يقول:

كُلُّ امْرِىءٍ مُصَبَّحٌ في أَهْلِهِ ... والموتُ أَدْنَى مِن شِراكِ نَعْلِهِ

وكان بلالٌ إذا أُقْلِعَ عنه الحُمَّى يرفع عَقِيرَته يقول:

ألا لَيتَ شِعْري هل أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بوادٍ وحَوْلِي إذْخِرٌ وجَلِيلُ

وهل أَرِدَنَ يوماً مِياهَ مَجَنَّةٍ ... وهل يَبْدُو لي شامَةٌ وَطَفِيلُ

وقال: اللهمّ العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأُميَّة بن خَلَف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: **«اللّهمّ حَبِّبْ إلينا المدينة كَحُبِّنا مكّة أو أشدَّ، اللّهمّ بارك لنا في صاعنا وفي مُدِّنا، وصَحِّحْها لنا، وانْقُل حُمّاها إلى الجُحْفة»**، قالت: وقدمنا المدينة وهي أَوْبَأُ أرضِ اللهِ، قالت: فكان بُطْحانُ يجري نَجْلاً، تعني ماءً آجِناً.

رواه البخاري آخر الهجرة (١/٢٦٤، ٢٦٥) وفي المرضى وفي الدعاء، ومسلم رقم (١٣٧٦) في كتاب الحجّ.

[١٦٢] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيت كأن امرأةً سوداء ثائِرَةَ الرأس خرجَتْ من المدينة حتى قدمَتْ مَهْيَعَة وهي الجحفة فأوّلَتْ أنّ وَباءَ المدينة نُقل إليها»**.

رواه البخاري والترمذي كلاهما في التعبير والرؤيا وتقدم.

«وعك» بضم الواو وكسر العين أي: أصابه الوعك وهي الحمّى. **«شراك نعله»** بكسر الشين هو السير الذي يكون على وجه النعل. **«يرفع عقيرته»** أي صوته. **«بِوادٍ»** أي بوادي مكّة. **«إذخر وجليل»** هما نباتان. **«مياه مجنة»** كان من أسواق العرب. **«شامة وطفيل»** هما جبلان بِقُرْبِ مكّة. **«ثائرة الرأس»** أي: منتفشاً غير ممشوط. **«ومهيعة»** بفتح الميم والياء والعين وسكون الهاء.

في حديث عائشة بيان ما نزل بهم من الحُمّى، ودعاء النبيّ ﷺ بإبدالهم محبة مكّة بمحبة المدينة وأشدّ مع البركة في مكيالهم وإبدال وباء المدينة بصحتها، وإخراج ما فيها إلى الجحفة، فأجاب الله دعاءه في كل ما دعا به، فحبّب الله إليهم المدينة وألفوها وأنزل لهم البركة في طعامهم ورزقهم ونقل وباءها إلى مهيعة حتى مثّل له وباءها وحماها امرأة سوداء منتفشة الشعر، فخرجت حتى نزلت بالجحفة، والحديث يدلّ على أن الإنسان مجبول على حبّ مسقط رأسه والوطن الذي نشأ فيه، وأنه دائماً يحنّ إليه ويتفكر في ذكرياته، وهذا شيء لا نزاع فيه لا سيما مثل مكة المكرّمة حرم الله عزّ وجلّ.

* * *

❁ أوّل مولود في الإسلام في المدينة للمهاجرين

[١٦٣] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها أنها حملت بعبدالله بن الزبير بمكّة المكرمة، قالت: فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة

فنزلت قباء فولدت بقباء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تَفَل في فِيهِ، فكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ثم حنَّكَهُ بالتمرة ثم دعا له وبَرَّكَ عليه، وكان أولَ مولود وُلد في الإسلام، فَفَرِحُوا به فَرَحاً شديداً، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سَحَرَتْكم فلا يُولَد لكم.

رواه البخاري في الهجرة النبويّة (٨/٢٤٩، ٢٥٠) وفي العقيقة رقم (٥٤٦٩)، ومسلم في الأدب (٢١٤٦) زاد مسلم، قالت أسماء: ثم مسحه وصلّى عليه وسمّاه عبدالله، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايعَ رسولَ الله ﷺ وأمره بذلك الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ثم بايعه.

ورواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها مختصراً.

قولها: «وأنا متمّ» أي: مقاربة للولادة. قولها: فمضغها، وفي رواية عائشة: فلاكها، وقولها: ثم «حنّكه» «ثم تَفَلَ في فِيهِ»، ومعناه وضع في فيه التمرة، ودلك وحنّكه بها. «وبرك عليه» أي: قال بارك الله فيه.

وفي الحديث بيان أن عبدالله هذا هو أول مولود وُلد للمهاجرين بعد الهجرة، وأن الصحابة فرحوا بولادته، وفيه أن ولادته كانت بقباء لنزول أسماء به ثم نزلت به إلى المدينة فوضعته في حجر رسول الله ﷺ، وليس المراد أنها أتت به رسول الله بقباء كما يفيده ظاهر قول أسماء، بل أتت به إلى المدينة. وتحنيك الأطفال تقدم في العقيقة.

وفيه مشروعية مبايعة الأطفال على الإسلام وشرائعه، ولا ينبغي أن يُختلف فيه.

* * *

❁ بناؤه ﷺ بعائشة رضي الله تعالى عنها

[١٦٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«رأيتكِ في المنام يجيءُ بِك المَلك في سَرَقَةٍ من حَريرٍ، فقال لي: هذه**

امرأتك، فكشفتُ عن وجهك الثَّوبَ فإذا هي أنتِ، فقلت: إن يك هذا من عند الله يُمْضِهِ» وفي رواية: «رأيتك في المنام ثلاث ليال»، وفي أخرى: «أُريتك في المنام مرتين».

رواه البخاري آخر المبعث (٢٢٥/٨) وفي مواضع، ومسلم (٢٤٣٨) في النكاح.

[١٦٥] وعنها قالت: تزوّجني النبيّ ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج فوُعِكتُ فتمَزَّق شَعَري فوَفَى جُمَيْمَةً، فأتتني أمي أمُّ رُومان وإني لفي أُرْجُوحَةٍ ومَعِي صواحِبُ لي فصَرَخَتْ بي فأتيتُها لا أدري ما تريد بي، فأخذَتْ بيدي حتى أوْقَفَتْني على باب الدار، وإني لأُنْهِجُ حتى سكَن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحتْ به وجهي ورأسي ثم أدخلَتْني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسْلَمَتْني إليهنّ فأصْلَحْنَ من شأني، فلم يَرُعْنِي إلا رسولُ الله ﷺ ضحًى فأسْلَمَتْني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين. وفي رواية: ومكثت عنده تسعاً. وفي أخرى: ومات عنها وهي بنت ثمان عشْرَةَ.

رواه البخاري آخر المبعث (٢٢٤/٨)، ومسلم (١٤٢٢) في النكاح.

«سَرَقة» بفتحات هي القطعة. «فتمزّق شعري» أي: تقطع. «فوفى» أي: تربّى فكثر. «جميمة» تصغير جمّة هو مجتمع شعر الناصية، ويقال للشعر إذا بلغ المنكبين. «أنهج» بضم الهمزة أي: أتنفس تنفساً عالياً، وقولهن: «على خير طائر» أي: خير حظ ونصيب. وقولها: «فلم يَرُعْني» بضم الراء وسكون العين أي: لم يفزعني شيء إلا دخول رسول الله ﷺ عليّ.

الحديث الأوّل يدل على أن تزوّجه ﷺ بهذه السيدة كان بإذن من الله عزّ وجلّ، لأن رؤيا الأنبياء حقّ، وقد أُرِيَ ذلك مرّات متكرّرة تأكيداً له أنها زوجته.

أما الحديث الثاني، فيدلّ على أُمور: أولاً: إن عائشة ممن أصيبت بوباء المدينة فمرضت حتى سقط شعر رأسها. ثانياً: جواز تزويج البنت الصغيرة بدون استئذان لها، وهو إجماع كما تقدم في النكاح. ثالثاً:

مشروعيّة الدعاء مع الزوج بالخير والبركة وقد تقدم شيء من هذا في النكاح. رابعاً: يدلّ الحديث على أن الدخول بالزوجة ليس له وقت خاص، فهذا النبيّ ﷺ دخل بعائشة ضحى، والأمر في ذلك واسع، وكان قد بنى بها في شهر شوال كما تقدم عنها في النكاح، فيكون دخل بها بعد قدومه المدينة بستة أشهر أو سبعة. خامساً: فيه أن النبيّ ﷺ توفي ولعائشة ثمان عشرة سنة وأقامت عنده تسع سنين، وسيأتي بقية للموضوع في الفضائل إن شاء الله تعالى.

* * *

❁ بَدْءُ الأذَانِ بالمدينة

[١٦٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فَيَتَحَيَّنُون الصلوات وليس ينادي بها أحدٌ، فتكلَّموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتّخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: اتّخذوا قَرناً مثل قرن اليهود، قال: فقال عُمَرُ: أوَ لاَ تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا بلال قم فنادِ بالصلاة»**.

رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي، وتقدم في الأذان.

«يتحيّنون» أي: يُقَدِّرون أحيانَها وأوقاتها ليأتوا إليها.

وظاهر هذا الحديث أن عمر هو الذي أمر بالنّداء مِن عِندِيتِهِ، والأمرُ ليس كذلك، بل هذا مُجْمَلٌ جاء مفصّلاً في حديث عبدالله بن زيد الذي أُرِيَ الأذان في منامه، فلما قصّه على النبيّ ﷺ وأمر بلالاً أن ينادي به سمعه عمر، فجاء يسعى وأخبر أنه رأى مثل ما رأى عبدالله بن زيد، وقد تقدم ذلك مفصّلاً في الجزء الأول رقم (٥٢٧) من كتاب الأذان.

والصحيح من قولي العلماء أن الأذان كانت مشروعيّته في السنة الأُولى للهجرة، وانظر أحكامه فيما سبق من كتاب الأذان.

* * *

[١٦٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: **أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ**، فقالوا: يا أبا القاسم **إنَّا نَسألُك عن خمسةِ أشياء**، فإن أنبأتنا بهِنَّ عرفنا أنك نبيّ واتبعناك، **فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيلُ على بَنِيهِ**، إذ قال: **«الله على ما نقولُ وكيلٌ»**، قال: **«هاتوا»**، قالوا: أخبرنا عن علامة النبيّ؟ قال: **«تنام عيناهُ ولا ينامُ قلبُه»**، قالوا: أخبرنا كيف تُؤَنِّثُ المرأة وكيف تُذْكِرُ؟ قال: **«يَلْتَقِي المَاءَان فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرتْ، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أنَّثَتْ»**، قالوا: أخبرنا عما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسِه، قال: **«كان يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا فلم يجد شيئاً يُلائِمُه إلا ألبانَ الإبلِ فحرَّم لحومها»**، قالوا: صدقت، قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعْدُ؟ قال: **«ملكٌ من ملائِكة الله عزّ وجلّ مُوكَّل بالسحاب بيده أو في يده مِخْرَاقٌ من نار يَزْجُرُ به السحابَ يَسُوقُه حيث أمر الله عزّ وجلّ»**، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسْمعُ؟ قال: **«صوتُه»**، قالوا: صدقتَ، إنما بقِيَتْ واحدةٌ وهي التي نُبايِعُك إن أخْبَرْتنا بها، فإنه ليس من نبيّ إلا له ملكٌ يأتيه بالخَبَرِ، فأخْبِرْنا مَن صاحِبك؟ قال: **«جبريل عليه السلام»**، قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحَرْبِ والقتال والعذاب عدوُّنا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقَطْرِ لكان، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٧٣/١، ٢٧٤، ٢٧٨)، والترمذي في التفسير (٢٩١٥) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٣٣٦/٥) وحسّنه الترمذي وصححه، وتقدم في تفسيري البقرة وآل عمران مقطعاً.

[١٦٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: **«لو آمن بِي عَشرةٌ من اليهود لآمَنَ بي اليَهُود»**، وفي رواية: **«لو تابَعَني عَشَرةٌ من اليهود لم يَبْقَ على ظهرها يَهُودِيّ إلا أسْلَم»**.

رواه البخاري آخر المبعث (٢٧٧/٨)، ومسلم رقم (٢٧٩٣).

[١٦٩] وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ

ركب على حمار على قطيفة فَدَكِيَّةٍ، وأرْدَفَ أُسامَةَ بن زيد وراءَهُ يعودُ سعدَ بن عبادةَ في بني الحارث بن الخزرج قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قال: حتى مرَّ بمَجْلِسٍ فيه عبدُالله بنُ أُبَي ابنُ سَلُولٍ، وذلك قبل أن يُسلم عبدالله بن أبي ـ يعني المنافق ـ فإذا في المجلس أخْلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدةِ الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن رَوَاحَةَ، فلما غَشِيَتْ المجلسَ عَجَاجَةُ الدابّة خَمَّرَ عبدالله بنُ أُبي أنفَه بردائه، ثم قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدُالله بن أبي ابن سلول: أيها المرءُ إنه لا أحسنَ مِمَّا تقولُ إن كان حقّاً فلا تُؤْذِنا به في مجالسنا، ارجع إلى رَحْلِك فمن جاءك فاقْصُصْ عليه، فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسِنا، فإنا نُحِبُّ ذلك، فاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهودُ حتى كادوا يَتَثاوَرُون، فلم يزل النبيّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سكنوا، ثم ركب النبيّ ﷺ دابَّتَهُ فسار حتى دخل على سَعْدِ بنِ عُبادة، فقال له النبيّ ﷺ: **«يا سَعْدُ ألم تسمع ما قال أبو حُبابٍ** ـ يريد عبدالله بن أبيّ ـ **قال: كذا وكذا»**، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعْفُ عنه واصْفَحْ عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَةِ على أن يُتَوِّجُوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبَى الله ذلك بالحقّ الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله ﷺ.

فذكر الحديث وفيه: فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمرٌ قد توجَّه فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٨/٩) وغيره، ومسلم في السِّيَر (١٥٧/١٢، ١٥٨، ١٥٩)، ورواه مسلم أيضاً عن أنس بسياق آخر.

قوله: «قطيفة» هي دثار وفراش يكون على السَّرْج للخيل أو على الإكَافِ للحمير. والفَدَكيَّة منسوبة إلى فدك بلدة على مرحلتين من المدينة. «عجاجة» هو ما ارتفع من غبار حوافرها. «خمّر أنفه» أي غطّاه. «يخفضهم» أي: يسكنهم ويسهل الأمر بينهم. «البحرة» في رواية البحيرة والمراد بها

القرية. «أن يتوّجوه فيعصبونه بالعصابة» معناه اتّفقوا أن يجعلوه ملكاً عليهم، وكان من عادتهم إذا ملكوا إنساناً ألبسوه تاجاً وعمامة. «شرق» بكسر الراء أي غَصَّ وحسد النبيّ ﷺ.

لما تخلّص رسولُ الله ﷺ وأصحابُه من أذى المشركين بمكّة وصاروا إلى المدينة وجدوا بها عدوّاً آخر ظهر جديداً ذلكم هم اليهود والمنافقون من الأوس والخزرج، فسلك النبيّ ﷺ مع الفئتين مسلك الحكمة، فقبل من المنافقين ظواهرهم في إسلامهم، وأوكل بواطنهم إلى الله تعالى العليم بالخفيّات.

وكان المنافقون كثيرين يعدون بالمئين كما يأتي في غزوة أُحد، وكان رئيسهم وحامل لواء خبثهم هو عبدُالله بن أبي ابن سلول المذكور في حديث أُسامة، وسيأتي الكلام عليه عند موته...

أما اليهود وكانوا ثلاثة أحياء يسكنون بضواحي المدينة، وهم: بنو قُرَيْظَة، وبنو النَّضِير وبنو قَيْنُقاع، فعقد معهم عهداً مقتضاه أن لا يحاربوه ولا يكونوا عوناً عليه مع أعدائه وأن ينصروه ويقاتلوا معه عدوّه إن دهمه. في شروط ذكرها أهل السيرة في وثيقة طويلة لا تصح من حيث السند، وهي مشهورة.

لكن اليهود عليهم لعائن الله المتوالية سرعان ما نقضوا العهود وتظاهروا للإسلام والمسلمين بما كانت تكنّه ضمائرهم الخبيثة من الحسد والحقد والبغضاء وحاربوا المسلمين مع الكفار وساعدوهم فعاملهم النبيّ ﷺ بما كانوا يستحقونه كما يأتي إن شاء الله مفصّلاً في المغازي، ومخازي اليهود ومكرهم للإسلام والمسلمين وعنادهم وإنكارهم الحق وكتمهم إيّاه كل ذلك معروف في القرآن الكريم والسنّة النبويّة، وتقدم لنا حديث مسلمة بن سلامة رقم (١٠) في بعض ذلك، كما تقدم في التفسير الكثير من أخبارهم، وما ذكر في حديث أبي هريرة من أنه لو أسلم عشرة من اليهود لأسلم كلُّ اليهود أراد بالعشرة والله تعالى أعلم رؤساءهم وقتئذاك وهم كما ذكرهم الحافظ في الفتح ١٧٧/١ حيث قال: والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود ومن عداهم كان تبعاً لهم، فلم يسلم منهم إلا قليل؛ كعبدالله بن سلام، وكان من

المشهورين بالرئاسة في اليهود عند قدوم النبيّ ﷺ، قال: ومن بني النضير أبو ياسر بن أخطب، وأخوه حُيَيّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي الحُقَيْق، ومن بني قينقاع عبدالله بن حنيف، وفنحاص، ورفاعة بن زيد، ومن بني قريظة الزبير بن باطيا، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت إسلام واحد منهم وكان كل منهم رئيساً في اليهود، ولو أسلم لاتَّبَعَهُ جماعَتُهُ منهم، فيحتمل أن يكونوا المراد... أما حديث أسامة فتقدم معناه في التفسير مفرقاً.

***

نزول الإذن من الله بالقتال

[١٧٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أوّل آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الآية، ثم أذن بالقتال في آيٍ كثيرة من القرآن.

رواه النسائي في الكبرى (٤١١/٦) بسندٍ صحيح.

[١٧١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أُخْرِجَ النبيّ ﷺ من مكّة، قال أبو بكر: أخرجُوا نبيّهم لَيَهْلِكُنَّ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

رواه أحمد (١٨٦٥)، والترمذي (٩٦٦)، والنسائي (٤١١/٦)، والحاكم (٣٩٠/٢) ثلاثتهم في التفسير وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

ظاهر الحديثين يدلّ على أن هذه الآية هي أول آية نزلت تأذَنُ بالقتال بعد مَقْدَم النبيّ ﷺ المدينة، وهذا قول الجمهور؛ وكان ذلك في السنة الأولى للهجرة. وبيَّنت الآية سبب هذا القتال، وأنه ظلم الكفار للمؤمنين حيث كانوا يؤذونهم بمكّة ويسومونهم أشدّ العذاب، ثم أخرجوهم من

ديارهم لكونهم وحّدوا ربّهم، وكان النبيّ ﷺ وأصحابه بمكّة مأمورين بالعفو والصبر، ولمّا هاجروا وانتشر الإسلام وقَوِيت شوكة المسلمين وكَثر بالمدينة ناصروه أمَر الله تعالى بقتال الكفار وردّ عدوانهم، وخاصة كفار قريش ثم تَوالَى نزولُ الآيات الآمرة بقتال كل الكفار على حسب المراحل التي سبق ذكرها في بداية الدعوة، وانظر بعض ذلك في كتاب الجهاد أيضاً.

***

❋ المغازي وعدد غزوات النبيّ ﷺ

[١٧٢] عن أبي إسحاق السَّبِيعِي رحمه الله تعالى قال: قلت لزيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه: كم غزا رسولُ الله ﷺ قال: تِسْعَ عَشْرَة، فقلت: كم غزوتُ أنت معه؟ قال: سبعَ عشرةَ، قال: فقلت: فما أولُ غزوة غزاها؟ قال: العُشَيْرُ أو العُسَيْرَةُ قال: فذكر ذلك لقتادة، فقال: العُشَيْرَةُ، وفي رواية: وسبقني بغَزَاتَيْنِ.

رواه البخاري في المغازي (٢٨٢/٨، ٢٨٣) وانظر رقم (٤٤٧١)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٩٥/١٢).

الغَزوات جمع غزوة، وأصل الغزو هو القصد، والمراد بها هنا ما وقع من قصد النبيّ ﷺ الكفار بنفسه أو بجيش من قِبَلِه سواءٌ كان إلى بلادهم أو إلى الأماكن التي حلّوها، وفرّق علماء السيرة بين الغزوة والسَّرِيَّة، فالأولى ما خرج فيها النبيّ ﷺ بنفسه، والثانية ما بعثه من الجيش مُؤمّراً عليهم رجلاً منهم.

واختلف أهل المغازي في عدد غزواته ﷺ وسراياه، فذكر ابن سعد وغيره عددهن مُفَصّلاتٍ على تَرْتيبِهِنّ فبلغت سبعاً وعشرين غزاةً، وستّاً وخمسين سرية، وقاتل في تسع من غزواته وهي: بدر، وأُحد، والمُرَيْسِعُ، والخندق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحُنَيْن، والطائف... جاء ذلك في حديث لبريدة في صحيح مسلم والبخاري، غير أنه قال: قاتل في ثمان

منهنّ، وما ذكروه من عدد غزواته يخالف ما في الصحيحين الذي ذكرناه من أنها تسع عشرة، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ أول غزواته ﷺ

قال البخاري في صحيحه (٢٨١/٨) قال ابن إسحاق: أول ما غزا النبيّ ﷺ الأَبْوَاء، ثم بُواطَ، ثم العُشَيْرَة.

* * *

❋ غزوة الأبـواء

الأبواء: قرية بين مكّة والمدينة وهي إلى الجحفة أقرب، وهي وَدَّانُ بفتح الواو وتشديد الدال، فهذه هي أول غزوة غزاها، وكانت في صفر آخر السنة الأولى للهجرة، خرج يريد عيراً لقريش فوادع بني ضمرة ورجع بغير قتال.

* * *

❋ سرية حمزة

وذكر موسى بن عقبة والواقدي وغيرهما أن النبيّ ﷺ بعث سرية مكوّنة من ثلاثين رجلاً قبل غزوة الأبواء، وأمّر عليهم عمّه حمزة رضي الله تعالى عنه لِيَعْتَرِضُوا عِيراً لقريش، وكان أوّل من عُقِدَ له رايةٌ في الإسلام، فخرجوا في شهر رمضان من السنة الأُولى، فلقوا أبا جهل في جمعٍ كثير، فحجز بينهم مُجْدِي ولم يلقوا قتالاً.

* * *

❊ أحداث السنة الأولى

[١٧٣] وهي مجيء عبدالله بن سلام إلى النبيّ ﷺ، بناء المسجد النبويّ الشريف، فرضية الصلاة الحضرية أربعاً، إسلام سلمان الفارسي، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، مبايعة النبيّ ﷺ نساء الأنصار، مرض الصحابة بالمدينة، أوّل مولود وُلد في الإسلام في المدينة، بناء النبيّ ﷺ بعائشة رضي الله تعالى عنها، بدء الأذان، مناوأة اليهود والمنافقين للنبيّ ﷺ، نزول الإذن من الله بالقتال، المغازي وعدد غزوات النبيّ ﷺ، أوّل غزواته، غزوة الأبواء، سرية حمزة.

❊ ❊ ❊

❊ السنة الثانية

غزوة بواط

[١٧٤] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سِرْنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بُواط، وهو يطلب المَجْدِي بن عمرو الجُهني، وكان الناضح يعقبه منّا الخمسة والستّة والسبعة، فدار عُقبةُ رجُلٌ من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه، فتَلَدَّنَ عليه بعض التَّلَدّي، فقال له: شأ لعنك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**من هذا اللاعنُ بعيرَه**»، فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «**انزل عنه فلا تصحبنا بملعون**» الحديث يأتي في الأدب بقيّته.

رواه مسلم في الزهد والرقائق رقم (٣٠٠٩).

«بطن بواط» بضم الواو وهو جبل من جبال جهينة من ناحية رَضْوَى. «والناضح» البعير الذي يُسْتَقَى عليه. «يعقبه» أي: يركبه. «فتَلَدَّنَ» التلدّن التَّلَكُّأ والتوقّف. «شأ» هي كلمة زجر للبعير.

والحديث نصّ في أن النبيّ ﷺ أتى بواطاً يريد المَجْدِي بن عَمرو

الجهني. وقال ابن إسحاق: ثم غزا رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى أتى بُواطاً من ناحية رَضوى ورجع ولم يلقَ أحداً، ورضوى بفتح الراء وسكون الضاد مقصوراً: هو جبل مشهور بينبع.

* * *

غزوة العُشَيْرَة (٢)

وأما العُشَيْرَةُ فمصغر آخرها هاء. قال ابن إسحاق: هي بطن بينبع، وخرج إليها ﷺ في جمادى الأولى يريد قريشاً أيضاً، فوادع فيها بني مُدْلِج من كنانة. قال الواقدي وغيره: إن هذه السفرات الثلاث كان يخرج فيها ليلقى تجار قريش حين يمرّون إلى الشام ذهاباً وإياباً.

هذا بيان ما ذكره البخاري نقلاً عن ابن إسحاق في هذه الغزوات، وبناءً على ذلك فقول ابن أرقم فيما سبق من أن أول الغزوات: العشيرة يعني بذلك ما حضرها معه، ولذلك قال: وسبقني بغزاتين، ويعني بهما الأبواء وبواطاً والله تعالى أعلم.

* * *

غزوة بدر الأولى

وذكر علماء السيرة هنا غزوة بدر الأُولى، فقال ابن إسحاق: ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، يعني من غزوة العشيرة لم يُقِمْ إلا ليالي حتى أغار كرز بن جابر الفِهْرِي على سَرْحِ المدينة، فخرج النبيّ ﷺ في طلبه حتى بلغ سفران ـ بفتح السين والفاء ـ من ناحية بدر ففاته كرز. والمراد بسرح المدينة أي: الإبل والمواشي الي تسرح للرّعي بالغداة.

* * *

❋ سرية عبدالله بن جحش

[١٧٥] عن جندُب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ أنه بعث رَهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة، فلما ذهب لينطلق بكى صَبابَةً إلى رسول الله ﷺ، فجلس فبعث عليهم عبدالله بن جحش مكانه وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: «**لا تُكْرِهَنَّ أحداً من أصحابك على المَسِيرِ معك**»، فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، فخبَّرهم الخبرَ وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحَضْرَمِيّ فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

رواه ابن جرير (٣٤٩/٢، ٣٥٠)، وأبو يعلى (١٥٣٤)، والبيهقي في السنن (١١/٩، ١٢)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٩٨/٦) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

قال علماء السيرة: إن النبيّ ﷺ كان بعث هذه السرية بإمارة عبدالله بن جحش إلى نخلة بين مكّة والطائف، وكانوا ثمانية أشخاص من المهاجرين يتجسسون أخبار قريش، فلما وصلوا إلى نخلة مرّت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي مع ثلاثة آخرين، فقتلوا ابن الحضرمي وأسروا رجلين منهم، وأخذوا ما كان معهم من التجارة غنيمة، وكان ذلك آخر يوم من رجب، ولم يدروا ذلك، فلما قدموا على النبيّ ﷺ عاتبهم على القتال وشهّر الكفارُ واليهودُ بهم وأشاعوا بأنهم قتلوا وأسروا وأخذوا الأموال في الشهر الحرام، فلما أكثروا من ذلك أنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾،

فأخبرهم تعالى بأن القتال في الشهر الحرام هو شيء كبير، لكن الكفار فعلوا ما هو أعظم من ذلك وهو صدّ الناس عن دين الله مع الكفر به تعالى وبالمسجد الحرام وإخراج أهله من المؤمنين منه، فذلكم أعظم جُرْماً وأكْبَرُ ذنباً من مجرد القتل، إلى آخر ما ذكروا.

ولم يكن من هديه ﷺ البداءة بالقتال في الشهر الحرام، إلا أن يبدأه الكفار فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية.

[١٧٦] وفي حديث جابر رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَغزُو في الشهر الحرام إلا أن يُغزَى ويَغزُوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ.

رواه أحمد (٣/٣٣٤، ٣٤٥) بسندٍ صحيح، فهذا كان هديه ﷺ عملاً بالآية الكريمة، ولقوله فيها: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

* * *

❋ تحويل القبلة

[١٧٧] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ كان أوّل ما قدِم المدينةَ نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى قِبَلَ بيتِ المقدس ستَّةَ عشرَ أو سبعةَ عشر شهراً، وكان ﷺ يحبّ أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل الله عز وجلّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾، فتوجّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فصلّى مع النبيّ ﷺ رجلٌ ثم خرج بعدما صلّى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر يصلّون نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلّى مع النبيّ ﷺ وأنه توجّه نحو الكعبة، فتحرَّفَ القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة.

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير وفي مواضع، ومسلم في

المساجد والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وقد تقدم مع أحاديث أخرى في الصلاة من الجزء الأول رقم (٥٨٧)، وفي التفسير من البقرة، وانظر الكلام على الحديث وفقهه في المصدرين المذكورين.

وكان هذا أول نسخ وقع في الإسلام بالإجماع، وللنسخ مصالح وفوائد، وهو من أسرار التشريع الإلهيّ، فلا دخل للعقل فيه، وقد قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، لكن اليهود ومن لَفَّ لفَّهم ينكرونه بعقولهم السخيفة القَذِرة.

***

فرضية صوم رمضان

[١٧٨] عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان يومُ عاشوراء يوماً تَصُومُه قريشٌ في الجاهلية، وكان رسولُ الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة صامَه وأمر الناس بصيامه، فلما فُرِض رمضان كان هو الفريضة، وتُرِك يومُ عاشوراء، فمن شاء صامَه ومن شاءَ تركه.

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهما وتقدم في الصيام من الجزء الثاني رقم (١٢٨٥).

[١٧٩] وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: أُحِيلَتْ الصلاةُ ثلاثة أحوال، وأُحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فأمّا أحوال الصلاة، فإن النبيّ ﷺ قدم المدينة وهو يصلّي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس فذكر الحديث، فقال: وأما أحوال الصيام، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فصام سبعة عشر شهراً من ربيع الأول إلى رمضان من كل شهر ثلاثة أيام، وصيام يوم عاشوراء، ثم إن الله عزّ وجلّ فرض عليه الصيام، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، الحديث.

رواه أحمد (١٤٦/٥، ١٤٧)، وأبو داود (٥٠٨)، والبيهقي (٣٩١/١، ٤٢٠) وسنده صحيح غير أنهم قالوا: إن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ،

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/ ٢٥٠) وسنده صحيح، وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

«عير قريش» العير ـ بكسر العين ـ عبارة عن الإبل التي تحمل التجارة. قوله: «ينفّلكموها» أي يُعْطِيكُمُوهَا غنيمة لكم. وقوله: «فانتدبَ النّاسُ» أي: أجابوه لما دعاهم وندبهم إليه.

هذا يدلّ على أن خروج النبيّ ﷺ لم يكن بقصد القتال والحرب، وإنما خرج ليعترض قافلة أبي سفيان الذي كان قد رجع من الشام بتجارة عظيمة شارك فيها كلُّ أهلِ مكّة، وكان يريد بصنيعه هذا تضعيفَ اقتصادِ كفار قريش، وتَعْوِيض أصحابه عن أموالهم ومُمْتَلكاتهم التي خلّفوها بمكّة المكرمة واستولى المشركون عليها.

وهو يدلّ أيضاً على أن ممتلكات الكفار الحربيّين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدّت إليه أيديهم منها وما وقع تحت أيديهم من ذلك اعتبر ملكاً لهم، وهذا متفق عليه بين فقهاء الإسلام وأهل العلم.

* * *

❋ مشاورة رسول الله ﷺ أصحابه في المدينة قبل الخروج

[١٨٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلّم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلّم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخِيضَها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نَضْرِب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ فانطلقوا حتى نزلوا بدراً.

رواه أحمد (٣/١٨٨، ج ٢٢٨/٤، ج ٢٩/٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/١٢٤) مطولاً، ويأتي بقيته رقم (١٩٢).

قوله: «نُخِيضُها» يعني بذلك الخيل. و«برك الغماد» تقدم أنه موضع لجهة اليمن.

وفي الحديث مشروعية استشارة الخليفة أو نائبه أهل الحلّ والعقد من العلماء وأهل الرأي... وهذه كانت سيرة النبيّ ﷺ مع أصحابه، وقد تقدم في التفسير أمثلة من ذلك انظر قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. قال العلماء: إنما قصد النبيّ ﷺ اختبار الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدوّ، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده، فلما عرض الخروج لعِير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك، فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامّة في هذه المرّة وغيرها.

* * *

عدد أصحاب بدر وقلّة مراكبهم

[١٨٤] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما، قال: كنّا أصحاب محمد ﷺ نَتَحَدَّثُ أنَّ عِدَّةَ أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يُجاوِزْ معه إلا مؤمنٌ بِضْعَةَ عشرَ وثلاثمائة.

رواه البخاري في المغازي (٢٩٣/٨، ٢٩٤)، وابن جرير (٦٢١/٢)، والترمذي في السير (١٥٩٨).

في الحديث بيان عدد ما كان من المسلمين في غزوة بدر، وأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر كما يأتي في حديث ابن عباس، أو خمسة عشر كما جاء في رواية لعبد الله بن عمرو عند أبي داود (٢٧٤٧)، والحاكم (١٤٥/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي أو ثلاثمائة وسبعة عشر كما في رواية لأبي موسى الأشعري عند البزار قال الهيثمي (٩٣/٦) ورجاله ثقات، ولا منافاة بين هذه الأعداد إذ يمكن الجمع بينها أو ترجيح ما في الصحيح.

وعلى أيٍّ، فهذا العدد بالنسبة لكثرة الكفار وكان عددهم يتراوح ما

بين ألف وتسعمائة شيء قليل، لكن الله عزَ وجلّ نصرهم عليهم وأيّدهم بمدد من عنده، وقد قال تعالى في قصة طالوت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ الآية.

[١٨٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى قال: كنّا يومَ بدر كُلّ ثلاثةٍ على بعيرٍ، كان أبو لُبابَةَ وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما زميلَيْ رسول الله ﷺ قال: وكانت عُقْبَةُ رسول الله ﷺ، قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى مِني ولا أنا بأغنَى عنِ الأجْرِ مِنْكُمَا».

رواه أحمد (٤١١/١)، وابن حبان (١٦٨٨) بالموارد، والحاكم (٢٠/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وعزاه النور في المجمع (٦٩/٦) لأحمد والبزار، وقال: فيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وعاصم هذا هو المقرىء المشهور شيخ حفص رحمهما الله تعالى وإيانا آمين.

[١٨٦] وعن الإمام عليّ كرّم الله وجهه قال: لقد أتينا ليلة بدر وما فينا إلا نائم إلا النبيّ ﷺ، فإنه كان يصلّي إلى شجرة ويدعو، وما كان فينا فارس إلا المقداد.

رواه الطيالسي (٢٣٤٢)، وأحمد (١٢٥/١، ١٠٢٣)، وأبو يعلى (٢٧٥)، والنسائي في الكبرى (٧٣٤) بسند صحيح. وفي رواية: ما كان معنا إلا فرسانِ، فرسٌ للزبير، وفرس للمِقْداد ـ يعني يوم بدر ـ رواه الحاكم (٢٠/٣) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

«زَمِيلَيْ رسول الله» أي: كان لهم بعير يتعاقبه ثلاثتهم. وقوله: «وكانت عُقْبَةُ رسول الله. . . فقالا: نحن نمشي عنك» يعنيان يظلّ راكباً ولا ينزل فامتنع من ذلك. قوله: «وما كان فينا فارس» أي صاحب فرس.

وفي الحديثين بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه يوم بدر من ضعف مادي في العدة والعدد، فرغم ما كانوا عليه من قلّة العدد لم يكن معهم من المراكب إلا سبعون جملاً يتعاقبونها وفرس واحد، كما في حديث عليّ هذا، أو فرسان كما في رواية الحاكم، وهي زيادة صحيحة، بينما كان

المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً أو ألف رجل مُدَجَّجِين بالأَسْلِحَة ومعهم مائةُ فرسٍ وسبعُمِائة بعير، ورغم ذلك لم تُغنهم شيئاً لمّا جاء نصر الله ومدده كما يأتي مفصّلاً.

* * *

❁ ردّه ﷺ عن الخروج من لم يحتلم

[١٨٧] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: اسْتُصْغِرْتُ أنا وابنُ عُمر يوم بدر، وكان المهاجرون يومَ بدر نَيِّفاً على ستين، والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين.

رواه البخاري في المغازي (٢٩٢/٨، ٢٩٣).

«النيف» بفتح النون وكسر الياء المشدّدة هو ما بين العقدين.

[١٨٨] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ نظر إلى عُمَيْر بن أبي وقاص فاسْتَصْغَرَهُ حين خرج إلى بدر، ثم أجازه. قال سعد: فيقال إنه خانه سيفه. قال عبدالله بن جعفر: قُتل يوم بدر...

رواه البزار (١٧٧٠) مع الكشف، قال الهيثمي في المجمع (٦٩/٦) ورجاله ثقات.

كان من عادة النبيّ ﷺ ردّ صغار الأطفال عن الخروج للجهاد لضعفهم عن مقاومة الرجال والأبطال، وقد رد في بدر البراء وابن عمر وعُمَيْر بن أبي وقاص، ثم قبل الثالث وأذن له في الخروج، كما ردّ ابن عمر أيضاً في غزوة أحد، ولكنه قبل خروجه معه في الخندق كما يأتي إن شاء الله تعالى، وهذا من كمال سياسة النبيّ ﷺ وشفقته على الصغار الضعاف.

* * *

❋ عدم استعانته ﷺ بالمشرك

[١٨٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلمّا كان بِحَرّة الوَبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جُرأةٌ ونَجْدةٌ، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: **«تؤمن بالله ورسوله»**، قال: لا، قال: **«فارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»**، قالت: ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرّة، فقال له النبيّ ﷺ كما قال أول مرة، قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**، قال: ثم رجع فأدركه بالبَيْداء، فقال له كما قال أوّل مرة: **«تؤمن بالله ورسوله»**، قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: **«فانطلق»**.

رواه أحمد (٦/٦٧، ٤٩)، ومسلم في الجهاد والسِّير (١٢/١٩٨، ١٩٩)، وأبو داود (٢٧٣٢)، والترمذي في السِّيَر (١٥٥٨).

ظاهر الحديث أنه لا تجوز الاستعانة بالمشرك على المشرك، وأحرى غيره، وبذلك قال جمع من العلماء وأجاز ذلك آخرون للحاجة لحديث استعانته بصفوان بن أمية قبل إسلامه كما يأتي في موضعه، وهذا الخلاف في الاستعانة بالمشرك على المشرك. أما الاستعانة بالمشرك على المسلم، فهذا لا يجوز بالإجماع. وقد جهل المسلمون هذا أو تجاهلوه ورفضوا العمل بمقتضاه، فقاتلوا إخوانهم المسلمين واستعانوا عليهم بالكفار أعداء الله ورسوله ﷺ، والأَمثلة على هذا كثيرة في القديم والحديث.

❋ ❋ ❋

❋ رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وإنذار ضمضم لقريش

[١٩٠] قال ابن إسحاق: وحدّثني يَزِيدُ بن رُومَان عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: وقد رأت عاتكةُ بنتُ عبد المطلب رضي الله

تعالى عنها قبل قدوم ضمضم الغفاري مكّة بثلاث ليال رؤيا أفْزَعَتْها، فبعثَتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبةٌ فاكْتُمْ عنّي ما أُحَدِّثُكَ به، فقال لها: وما رأيتِ؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ له، حتى وقف بالأبْطَح، ثم صَرَخَ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لغُدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا لغُدَر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قُبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكّة، ولا دار إلا دخلتْها منها فلقةٌ. قال العباس: والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إيّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشى الحديث بمكّة حتى تحدّثت به قريش في أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبيَّةُ؟ قال: قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرُّؤيا التي رأت عاتكة، قال: فقلتُ: وما رأتْ؟ قال: يا بني عبد المطلب أمَا رَضِيتُم أن يَتَنَبَّأ رجالُكم حتى تَتَنَبَّأ نِساؤُكم قد زعمتْ عاتكةُ في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربّص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ حقّاً ما تقول فسيكون، وإن تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب. قال العباس: فوالله ما كان مني إليه لكبير، إلا أني جحدت ذلك وأنكرتُ أن تكون رأتْ شيئاً، قال: ثم تفرّقنا.

فلما أمسيتُ لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت

رواه أحمد (١/٤٠٠)، والبخاري في المغازي باب ذكر النبيّ ﷺ من يُقتل ببدر (٨/٢٨٤، ٢٨٧).

في هذا الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بقتل أُمية بن خلف، فكان كما قال، وفيه أن أُمية لم يُكَذِّبْ ما حدّثه به سعد لتيقّنه صدق النبيّ ﷺ، ولذلك قال كما في رواية: فوالله ما يَكْذِبُ محمد إذا حَدَّثَ، ولتيقّنه بوقوع ذلك فزع فزعاً شديداً. وفيه أن الحذر لا يُغْني من القدر، فما قدّره الله عزّ وجلّ لا بدّ وأن يقع، وستأتي صفة قتل أُميّة ومن قتله بإذن الله تعالى.

* * *

كم كان عدد المشركين في بدر وبيان بعض من خرج من صناديدهم

[١٩٢] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، ووردت عليهم روايا قريش، وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعُتْبَة وشَيْبَةُ وأُمَيَّةُ بنُ خَلَف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم هذا أبو سفيان، فإن تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشَيْبة وأميّة بن خلف في أُناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ورسولُ الله ﷺ قائم يُصلّي، فلما رأى ذلك انصرف وقال: **«والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدَقكم وتتركوه إذا كذَبكم»**.

أخرجه أحمد (٣/١٨٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/١٢٤)، وتقدم طرق المشاورة رقم (١٨٣).

قوله: «روايا» يعني الإبل التي يستقى عليها.

في الحديث جواز ضرب الرقيق الكافر المحارب للاستعلام. ولا

يجوز ذلك بالنسبة للمسلم لأن دمه وماله وعرضه كلّها حرام، وفيه اعتراف ذلك الغلام بأن في جيش المشركين بعض أساطين الكفر وصناديده جاءت بهم منيتهم لقليب بدر.

[١٩٣] وعن سيّدنا علي رضي الله تعالى عنه أنّه قال: لما قدمنا المدينة أصَبْنَا من ثِمارِها فاجْتَوَيْنَاها، فأصابنا فيها وعَكٌ، فكان النبيّ ﷺ يَتَخَبَّرُ عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر، وبدر بِئْرٌ، فسبقَنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم رجل من قريش، ومولى لعقبة بن أبي مُعَيْط، فأما القرشي فانْفَلَتَ، وأمّا مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القومُ؟ فيقول: هم والله كثيرٌ عدَدُهم، شديدٌ بأسُهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: **«كم القوم؟»** فقال: هم والله كثيرٌ عددُهم، شديدٌ بأسهم، فجهد رسول الله ﷺ أن يخبره فأبَى، ثم إن النبيّ ﷺ سأله كم يَنْحَرُون من الجُزُر؟ قال: عشر لكل يوم، فقال رسول الله ﷺ: **«القوم ألف، كل جزور لمائة ونيفها»**.

رواه أحمد (١١٧/١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٥) بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع (٧٦/٦) لأحمد والبزار وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة.

في الحديث بيان عدد جيش المشركين في غزوة بدر وأنهم كانوا ألف مقاتل، وسيأتي في دعائه ﷺ ليلة الغزوة عن سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه قوله: نظر نبيّ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً... وكان النبيّ ﷺ يهتمّ بإطلاعه على عددهم وقد أراهموه الله عزّ وجلّ في منامه قليلاً في رؤيا له، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وعندما تواجهوا للقتال أراهموه سبحانه كذلك لئلا يَجْبُنَ المسلمون

ويفشلوا وينهزموا، ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

* * *

إخبار النبيّ ﷺ بمصارع القوم

[١٩٤] عن أنس رضي الله عنه قال: كنّا مع عمر رضي الله تعالى عنه بين مكّة والمدينة، ثم أنشأ يُحَدِّثُنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهل بدر بالأمس، يقول: **«هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله تعالى»**، قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحقّ ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ. وفي رواية: **«هذا مصرع فلان غداً»**، ووضع يده على الأرض، **«وهذا مصرع فلان غداً»** ووضع يده على الأرض، فكان ذلك كذلك، الحديث.

رواه أحمد (٢٦/١)، والبخاري في المغازي (٣٠٢/٨، ٣٠٤)، ومسلم في كتاب الجنّة رقم (٢٨٧٣) وفي الجهاد (١٢٤/٢، ١٢٦)، والنسائي في الجنائز باب أرواح المؤمنين.

«مَصْرَع» أي: موضع صرعه وقتله.

ففي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر أصحابه بمصارع الكفار قبل الوقعة، وكان ذلك كالتثبيت لهم وتبشيرهم بالنصر على عدوّهم.

* * *

استشارته ﷺ الصحابة مرة ثانية

[١٩٥] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: شهدت من المِقْداد بن الأسود مَشْهَداً لأَنْ أكونَ صاحبَه أحبُّ إليّ مما عُدِلَ به، أتى النبيّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ

أنتَ وَرَبُّكَ﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك. فرأيت رسول الله ﷺ أشرَقَ وَجهُه وسَرَّهُ، يعني قوله.

رواه أحمد (٣٩٠، ٣٢٨)، والبخاري في غزوة بدر (٢٨٩/٨، ٢٩٠)، والحاكم (٣٤٩/٣)، فاستدركه وهو في الصحيح.

[١٩٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى النبيّ ﷺ الخبرُ عن قريش بمَسِيرِهِمْ ليمنعوا عِيرَهُمْ، فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصدّيق فقال وأحْسَنَ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحْسَنَ، ثم قام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله امْضِ لما أراكَ الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سِرْتَ بنا إلى بِرْك الغِماد لجَالَدْنا معك من دُونِهِ حتى تَبْلُغَه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«أشِيرُوا عليّ أيها الناس»**، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عددُ الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء مِنْ ذِمامِكَ حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نَصْرَهُ إلا مِمّن دَهَمَهُ بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ في بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: **«أجل»**، قال: فقد آمَنّا بك وصدَّقناك وشهِدْنا أن ما جِئت به هو الحقُّ، وأعْطَيْناكَ على ذلك عُهُودَنا ومواثِيقَنا على السَّمْع والطاعة، فامْضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لَخُضْناهُ معك، ما تَخَلَّفَ منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عَيْنُك، فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك، ثم قال: **«سِيرُوا وأبْشِرُوا، فإن الله**

تعالى قد وعَدَنِي إحدَى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٥٨/٢) بسند صحيح، وكذا رواه الطبراني كما في المجمع (٧٣/٦)، والبيهقي في الدلائل (٣٢/٣) وله شواهد في الصحيح وغيره.

لقد أبان الأنصار رضي الله تعالى عنهم عن وفائهم لرسول الله ﷺ وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فسَعِدُوا وفازُوا.

* * *

❁ رسول الله ﷺ يدعو الله عزّ وجلّ ويتضرّع إليه ليلة بدر

[١٩٧] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيّ الله ﷺ القبلة ثم مدّ يدَيْهِ، فجعل يَهْتِف بربّه: «**اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعدتني، اللّهمّ آتِ ما وعدتني، اللّهمّ إنْ تَهلِك هذه العصابةُ من أهلِ الإسلام لا تُعْبَدُ في الأرض**»، فما زال يهتف بربّه ماداً يديه مستقبلَ القبلة حتى سَقط رِداؤُه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه على منكبيه ثم التزمه مِن ورائِه، وقال: يا نبيّ الله كفاك مُناشَدَتُك ربّك، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾، فأمدّه الله بالملائكة.

رواه أحمد (٣٠/١، ٣١)، والبخاري في المغازي (٢٩٠/٨، ٢٩١)، ومسلم في الجهاد والسّير (٨٤/١٢، ٨٥)، والترمذي في التفسير (٢٨٨١) وغيرهم.

«يهتف» أي: يصيح. «ومناشدتك» أي: سؤالك. و«العصابة» الجماعة. و«الاستغاثة» طلب الغوث.

[١٩٨] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ ﷺ

في قُبَّتِهِ يوم بدر: «**اللّهمّ إني أنشدُك عهدك ووعدك، اللّهمّ إن شِئتَ لم تُعْبَد**»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخرج وهو يقول: «**سَيُهْزم الجمعُ ويُولُّون الدُّبُر**».

رواه البخاري في المغازي (٨/ ٢٩٠، ٢٩١)، وكذا أحمد (١/ ٣٢٩).

[١٩٩] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر - يعني الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظلّ تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربّه، ويقول: «**اللّهمّ إن تهلك هذه الفِئة لا تُعْبد**»، قال: فلمّا تَطَلَّعَ الفجرُ نادى: «**الصلاة عبادَ الله**»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلّى بنا رسول الله ﷺ وحضّ على القتال.

رواه أحمد وأبو داود وغيرهما بسند صحيح، وانظر ما سبق (١٩٣).

[٢٠٠] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: «**اللّهمّ إنهم جياع فأشبعهم اللّهم إنهم حُفاةٌ فاحْمِلْهم، اللّهمّ إنهم عُراةٌ فاكسُهم**»، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما مِنْهُم رجلٌ إلا وقد رجع بجَمَلٍ أو جملين واكتسوا وشبعوا.

رواه أبو داود والحاكم وغيرهما بسند صحيح، وانظر ما سبق (١٨٤).

قوله: الحَجَف - بفتحتين - هي الدرق والأتراس التي يتّقى بها في الحرب. «والطش» نوع من المطر. وفي هذه الأحاديث بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ من الالتجاء إلى الله والاستغاثة به وإلْحَاحِهِ في الدعاء للإسلام والمسلمين، فرغم أنه كان متيقّناً جازماً بأن الله ناصره، وأن جَمْعَ الكفار سَيُهْزَمُ، بات ليلَهُ يدعو لأن ذلك هو مقتضى العبودية لله عزّ وجلّ. وفي حديث عمر دليل على أن الله عزّ وجلّ وعدهم بالإمداد بملائكته كما نطقت بذلك الآية الكريمة، وسيأتي ذلك عندما نورد الأحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين في القتال.

وحديث الإمام عليّ كرّم الله وجهه يدلّ على ما أنعم الله تعالى به على المسلمين ليلة الوقعة من إنزال المطر تثبيتاً لأقدامهم في تلك الرمال وتطهيراً لهم مع إلقاء النوم عليهم أمنةً لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ الآية، كل ذلك وقع لهم لطفاً بهم ورحمة من الله عزّ وجلّ.

* * *

بداية المعركة والأمر في البداية بالرمي

[٢٠١] عن أبي أُسَيْدِ الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «إذا أكثَبُوكُمْ فارْمُوهُم واسْتَبْقُوا نَبْلَكم».

وفي رواية: «إذا أكثَبُوكُمْ فارْمُوهم بالنَّبْل، ولا تَسُلُّوا السُّيُوفَ حتى يَغشُوكُمْ».

رواه أحمد (٤٩٨/٣)، والبخاري في المغازي (٣٠٨/٨) بالرواية الأولى، وأبو داود بالرواية الثانية.

«أكثبوكم» أي: قربوا منكم وغشوكم. والحديث غير واضح، ففي معناه إشكال، فانظر فتح الباري (٣٠٨/٨).

* * *

المبـارزة

[٢٠٢] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أنا أول من يَجْثُو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة. قال قيس بن عبادة: وفيهم أُنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة، وعلي، وعُبَيْدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

رواه البخاري في المغازي (٢٩٨/٨) وغيره، وقد تقدم في التفسير.

والمراد بالخصمين أي: الفريقين: فريق أهل الإيمان وفريق أهل الكفر، وخصامهم هو معاداة كل فريق منهما للآخر، وقيّدوا هذه الأوّلية بالمجاهدين لأن المبارزة المذكورة هي أول مبارزة وقعت في الإسلام.

[٢٠٣] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: تقدم ـ يعني عتبة بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه، فنادى: من يُبارز؟ فانتدب له شبابٌ من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمّنا، فقال رسول الله ﷺ: **«قُمْ يا حمزة، قم يا عَلِيّ، قم يا عبيدة بن الحارث»**، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شَيْبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم مِلْنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة.

رواه أحمد (١١٧/١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٥) بسند صحيح، ورواه الحاكم (١٨٧/٣، ١٨٨) عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي.

خرج من جيش الكفار ثلاثة: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة يطلبون من يُبارزهم من صفّ المسلمين، فخرج إليهم بأمر من النبيّ ﷺ ثلاثة أبطالٍ من المهاجرين: حمزة أسد هذه الأمّة، والإمام عليّ سيّد الشجعان، والشهيد عبيدة بن الحارث فتبارزوا، فقتل كل من حمزة وعليّ مبارزيهما، وأما عبيدة والوليد فأثخن كل منهما الآخر ثم وثب حمزة وعليّ على الوليد فقتلاه، واحتملا عبيدة ومخ ساقه يسيل فقال: يا رسول الله ألستُ شهيداً؟ قال: «بلى»، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حيّاً لعلم أنّا أحقُّ بما قال منه، حيث يقول:

ونُسْلِمُه حتى نُصَرعَ حولَه ونَذْهَلُ عن أبْنَائِنا والحَلائِلِ

ذكره الحاكم في معرفة الصحابة (١٨٨/٣) في ترجمة عبيدة هذا، وهو ابن الحارث ابن عمّ النبيّ ﷺ، وكانت وفاته من تلك الضربة بالطريق، والنبيّ ﷺ راجع إلى المدينة.

***

❁ رمي النبيّ ﷺ كفّاً من الحصى في وجوه الكفار فانهزموا

[٢٠٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «نَاوِلْني كفّاً من حَصَى»، فناوله فرمى بها وُجُوهَ القوم فما بقي أحدٌ من القوم إلا امتلأتْ عيناه من الحصباء، فنزلت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

رواه الطبراني، قال النور في المجمع (٦/٨٤): رجاله رجال الصحيح.

[٢٠٥] وعن حكيم بن حِزام رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفّاً من الحصى، فاستقبلنا به ورمى بها، وقال: «شاهَتْ الوجوهُ»، فانهزمنا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال الهيثمي (٦/٨٤): رواه الطبراني وسنده حسن.

«شاهت الوجوه» أي قَبُحَتْ.

في الحديثين معجزتان للنبيّ ﷺ، الأولى: إيصالُ الحصى إلى وجوه جميع الكفار وامتلاء أعينهم بالحصباء. ثانيهما: انهزامهم بسبب ذلك.

وفي الآية الكريمة دليل على أن أفعال العباد كلّها مخلوقة لله وليس لهم منها إلاّ الكسب.

* * *

❁ مشاهد وأحداث من وقعة بدر: صنيع عمير بن الحُمام وقتاله

[٢٠٦] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال

رسول الله ﷺ: «لا يَقْدَمَنّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكونَ أنا دُونَهُ»، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنّة عرضُها السمٰوات والأرضُ». قال: يقول عُمَير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنّةٌ عَرْضُها السمٰواتُ والأرضُ؟ قال: «نعم»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَ أن أكونَ من أهلها، قال: «فإنك من أهلِها»، فأخرج تَمَراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهنّ ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل.

رواه أحمد (٣/١٣٦، ١٣٧)، ومسلم في الإمارة (١٣/٤٥)، وكذا ابن سعد (٢/٢٥)، والحاكم (٣/٤٢٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/٤٣).

قوله: «بخ بخ» تقدم معناها غير ما مرة، وهي تُطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

ففي الحديث الترغيب في الجهاد، وأنه يوجب دخول الجنّة، وفيه فضل ذلك الصحابي عُمَيْر بن الحمام، وأن الله عزّ وجلّ صدق ما وعده به النبيّ ﷺ من أنه من أهل الجنّة، وفيه الترغيب في المبادرة إلى فعل ما يُوجب الجنّة، كما فيه الإقدام إلى القتال بنيّة عدم الرجوع كما يفعله منفّذو العمليات المسلمون اليوم. وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: فيه جواز الانغمار في الكفار والتعرّض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء.

* * *

❁ الزُّبَيْرُ بن العوام وعُبَيْدةُ بن سعيد

[٢٠٧] عن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: لقيت يوم بدر عُبَيْدة بن سعيد بن العاص، وهو مُدَجَّجٌ لا يُرى منه إلا عيناه، وهو يُكْنَى أبا ذاتِ الكَرْشِ، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعترة فطعنتُه في عينه فمات، قال هشام: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رِجْليّ عليه ثم

تَمَطَّأَتْ فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إيَّاها رسولُ الله ﷺ فأعطاه. الحديث.

رواه البخاري في المغازي (٣١٦/٨).

«مدجَّجٌ» أي: مغطّى بالسلاح لا يظهر منه شيء. فيه شجاعة الزبير وقوّته رضي الله تعالى عنه، وله مواقف في الحروب معروفة.

* * *

❁ استشهاد حارثة بن سراقة

[٢٠٨] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمّه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنّة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع؟ فقال: **«ويحك أوَ هَبِلْتِ؟ أوَ جَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جِنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنّة الفردوس»**.

رواه البخاري في المغازي (٣٠٦/٨).

قوله: «هَبِلْتِ» بضم الهاء وتُفتح بمعنى ثكِلتِ.

وفي الحديث فضل حارثة هذا، وأنه في جنّة الفردوس وما أعظمها من بشارة، ولأُمّه أيضاً أجرٌ عظيم لصبرها واحتسابها الثواب من الله لفقدها ولدها وهو في بداية شبابه، وأمُّه هي الرُّبَيِّع - بضم الراء المشدّدة وفتح الباء ثم ياء مكسورة مشددة - بنت النضر عمّة أنس بن مالك.

* * *

❁ شجاعة رسول الله ﷺ يوم بدر

[٢٠٩] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نَلُوذُ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بَأساً.

رواه أحمد (٨٦/١) بسند صحيح وسيأتي حديث البراء في غزوة حنين الذي رواه مسلم في هذا المعنى.

وقوله: «نلوذ» أي: نلتجىء وننضمّ إليه. وقوله: «بأساً»: أي شجاعة وقوّة. شجاعة النبيّ ﷺ ونجدته وعدم مبالاته بالأعداء كل ذلك مشهور عنه مِنْ سيرته ﷺ وسيمرّ علينا من ذلك الكثير في مواطن عديدة.

* * *

قتال سعد بن أبي وقاص

[٣١٠] عن ابْنِ مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان سعد يُقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قِتال الفارس والرَّاجِلِ.

رواه البزار من طريقين أحدهما متّصل والآخر مرسل. قال الهيثمي (٨٢/٦): ورجالهما ثقات. سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه من السابقين وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وكان أول من رمى وأراق الدم في سبيل الله وهو لا يزال بمكّة وله مواقف يُشكَر عليها منها هذا المشهد في بَدْرٍ، وأنه كان يُقاتل قتال صاحب الخيل والراجل معاً.

* * *

استفتاح أبي جهل يوم بدر ثم مصرعه

[٣١١] عن عبدالله بن ثعلبة بن صُعَيْر رضي الله تعالى عنه قال: كان المُسْتَفْتِحُ يوم بدر أبو جهل، وأنه قال حين التقى القوم: اللّهمّ أيُنا كان أقطعَ للرحم وآتى لما لا نَعْرِف فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

رواه أحمد (٤٣١/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٥٠/٦)، والحاكم وصححه وتقدم في التفسير.

من أعماه الله وأضلّه رأى الشرّ خيراً، والهلاك نجاة، والشقاوة سعادة، فهذا الخاسر اللّعين مع إغراقه في الضلال والطغيان وإمامته في الشرك والوثنية كان قد زيّن له الشيطان أعماله وصدّه عن السبيل، فطلب من الله عزّ وجلّ أن يفتح عليه وعلى إخوانه بالنصر في بدر، فانقلبت دعوته عليه، ففتح على المؤمنين وقضي لهم بالنصر والظفر، وهزم المشركون وفتح لهم بالقتل والأسر والذلّ والخزي؛ فقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ إلخ، أي: إن تطلبوا الفتح والنصر لأحد الحزبين وهما حزب الله وحزب الشيطان، فقد جاءكم الفتح والنصر.

[٣١٢] وعن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا واقف في الصفّ يوم بدر نظرتُ عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حَديثةٍ أسنانُهما، تمنّيتُ لو كنت بين أضلُع منهما، فغَمَزَنِي أحدُهما فقال: يا عَمّ هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتُك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرتُ أنه يَسبُّ رسولَ الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيتُه لا يفارق سوادي سوادَه حتى يموت الأعجلُ منّا، قال: فتعجّبتُ لذلك، فغمزني الآخر فقال مثلَها. قال: فلم أنشَبْ أن نظرتُ إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت: ألا تَرَياه؟ هذا صاحبُكُما الذي تَسْألانِ عنه، قال: فابْتَدَراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: **«أيُّكما قتله»**؟ فقال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه، فقال: **«هل مسحتُما سَيفَيكُما؟»** قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: **«كلاكما قتله»**، وقضى بِسَلَبِهِ لمعاذ بن عَمْرو بن الجَمُوح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء.

رواه البخاري في المغازي (٣١٠/٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (٦١/١٢، ٦٢)، وكذا ذكره الحاكم (٤٢٥/٣).

قوله: «سوادي سواده» أي شخصي شخصه. «حتى يموت الأعجل» أي: لا أفارقه حتى يموت أحدنا وهو الأقرب أجلاً. «لم أنشب» أي لم ألبث. «يزول في الناس» أي يتحرك ويضطرب ولا يستقرّ على حاله للهول والخوف الذي حلّ به.

وفي الحديث شجاعة ذينك الغلامين وشهامتهما وغضبهما لله تعالى وشدّة محبّتهما لرسول الله ﷺ، فإنها الحامل لهما على البحث عن ذلك العدوّ وقتله، ولذلك لما أخبرهما عبدالرحمٰن بن عوف به ورأياه شدًّا عليه مثل الصَّقْرَيْن كما في رواية البخاري.

[٢١٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: **«من ينظر ما صنع أبو جهل»**؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال قتلتموه. وفي رواية: فلو غير أكّار قتلني.

رواه البخاري في المغازي (٨/٢٩٥، ٢٩٦)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٥٩، ١٦٠).

ابنا عفراء هكذا في هذه الرواية وهو من باب التغليب، وإلاّ فعفراء ليست أمّاً لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

وقوله: «حتى برد» أي: صار في حالة من مات. قوله: «وهل فوق رجل قتله قومه» أي: لا عار عليَّ في قتلكم إيّاي. قوله: «فلو غير أكار» الأكار هو الفلاّح، وقال ذلك لأن الغلامين من الأنصار وهم أهل زراعة وفلاحة فلا قيمة لهم.

[٢١٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت: أيْ عدوّ الله قد أخزاك الله، قال: وبما أخزاني من رجل قتلتموه ومعي سيف لي فجعلت أضربه ولا يحتكّ فيه شيء ومعه سيف له جيّد، فضربت يده فوقع السيف من يده، فأخذته ثم كشفتُ المِغفر عن رأسه، فضربتُ عنقه، ثم أتيت النبيّ ﷺ فأخبرته، فقال: **«الله الذي لا إله إلا هو»**، قلت: الله الذي لا إله إلا هو قال: فانْطَلِقْ فاسْتَثْبِتْ، فانطلقتُ وأنا أسْعَى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته. فقال رسول الله ﷺ: **«انطلق»**، فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: **«هذا فرعونُ هذه الأُمّة»**.

رواه أحمد (٣٨٢٤، ٣٨٥٦، ٤٢٤٦، ٤٢٤٧). والبزار (١/٢٨٨) مع

الكشف، وعزاه الهيثمي (٦/٧٩) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة، وهو ثقة.

هذه نهاية الجبابرة الطغاة المعتدين، فقد كان أبو جهل لعنه الله تعالى يُدعى سيد أهل مكّة، وكان هلاكه وقتله على يد أضعف الناس غلامان من غلمان الأنصار، وابن مسعود الذي كان أقصر الصحابة فلم يكن يتجاوز طوله متراً أو نحوه، فهؤلاء الثلاثة هم الذين اشتركوا في قتله وأهانه الله وأذلّه وأخزاه على أيديهم، وذلك جزاء الجبارين.

* * *

مصرع امية بن خلف

[٣١٥] عن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: كاتبت أُميّة بن خَلَف كتاباً بأن يَحْفَظَنِي في صِياغَتِي بمكّة، وأحفَظُه في صياغته بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمٰن قال: لا أعرف الرحمٰن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عَبْدَ عَمْرٍو، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأُحْرِزَهُ حين نام الناس فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار، فقال: أُميّة بن خلف، لا نجوتُ إن نجا أُمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فَجَلَّلُوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبدالرحمٰن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه.

رواه البخاري في الوكالة (٢٣٠١) (ج ٥/٣٨٥)، ومسلم (١٧٥٢) وهو عند ابن هشام.

وفي رواية: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإلٰه، فأجَبْتُه فأتَحَدَّثُ معه حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ

بيده قال: ومعي أدراعٌ لي قد استلبْتُها، فأنا أحمِلُها، فلما رآني قال: يا عَبْدَ عَمْرٍو فلم أُجِبْه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك، قال: قلت: نعم، هاالله، قال: فطَرحتُ الأدراع من يدي وأخذتُ بيده وبيدِ ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، أمَا لكم حاجة في اللَّبَنِ؟ ثم خرجت أمْشِي بِهِمَا.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٧٣/٢) وسنده حسن، وقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث.

هذا هو أُمية بن خلف أحد سادات أهل الوادي الذي طالما أذاق بلالاً سوء العذاب على ترك الإسلام، فكان عدوّ الله يخرجه إلى رمضاء مكّة إذا حميت فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ﷺ، فها هو الآن يقتل في صحاري بدر مع ولده بعيداً عن أهله وداره ذليلاً حقيراً مدحوراً قد صدق الله تعالى فيه وعد رسوله ﷺ، وظهرت فيه معجزته الخالدة حيث أخبر بأنه سيقتله، وكان هذا الشقيّ أحد الملأ الذين تعاقدوا باللات والعزى ومناة... أن لو رأوا النبيّ ﷺ لقاموا إليه قومة رجل واحد... فحصبهم النبيّ ﷺ فقتلوا جميعهم ببدر، وكان من السبعة الذين عيّنهم النبيّ ﷺ بالدعاء عليهم. انظر ما سبق في فصل الإيذاء، حديث رقم (٦٠).

***

شهود الملائكة غزوة بدر وقتالهم مع المسلمين

[٣١٦] عن رفاعة بن رافع الزُّرَقي رضي الله تعالى عنه قال: جاء جبريلُ إلى النبيّ ﷺ فقال: ما «**تَعُدُّون أهل بدر فيكم؟**» قال: مِنْ أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: «**وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**».

رواه البخاري في غزوة بدر (٣١٤/٨).

[٢١٧] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخِذٌ برأس فرَسِهِ عليه أداةُ الحَرْبِ**».

رواه البخاري أيضاً (٣١٥/٨).

[٢١٨] وعنه قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يَشْتَدُّ في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: «**أقْدِمْ حَيْزُوم**»، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفُه وشُقّ وَجْهُه كضَرْبَةِ السَّوْطِ فاخْضَرَّ ذلك أجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماءِ الثالثة**»، ويأتي بقيّته.

رواه مسلم في الجهاد باب الإمداد بالملائكة (٨٥/١٢، ٨٦).

«الخطم» الأثر في الأنف. «**أقْدم**» كلمة زجر للفرس. «وحيزوم» اسم فرس الملك.

[٢١٩] وعن أبي داود المازني رضي الله تعالى عنه قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربَه إذ وقع رأسُه قبل أن يَصِلَ إليه سَيْفي، فعرفتُ أنّه قَتَلَهُ غيري.

رواه أحمد (٤٥٠/٥)، وابن إسحاق كما في ابن هشام (٢٧٥/٢)، والبيهقي في الدلائل (٥٦/٣) بسندٍ حسن.

[٢٢٠] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: كنت على بئر فكنت يوم بدر أُمِيحُ وأمْتَحُ منه، فجاءت ريح شديدة، ثم جاءت ريح شديدة، فل[illegible] ريحاً أشدَّ منها إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح شديدة، فكانت [illegible]ولى ميكائيل في ألفٍ من الملائكة عن يمين النبيّ ﷺ، والثانية إسرافيل في ألف من الملائكة عن يسار النبيّ ﷺ، والثالثة جبريل في ألفٍ من الملائكة، وكان أبو بكر عن يمينه وكنت عن يساره، فلما هزم الله الكفار حملني رسول الله ﷺ على فرسه، فلما استويتُ عليه حمل بي فصرت على عُنُقِهِ، فدعوتُ الله فثبّتني عليه فطَعَنْتُ برمحي حتى بلغ الدم إبطي.

رواه أبو يعلى (٤٨٥)، قال الهيثمي (٦/٧٧): ورجاله ثقات.

قوله: «أمِيحُ وأمْتَحُ» معناه يجذب الدلو مستقياً لها ثم يُمِيحُها أي يَمْلأُهَا.

جملة هذه الأحاديث تدلّ دلالة قاطعة على أن الله عزّ وجلّ أعان أهل بدر وأيّدهم بالملائكة، وأنّ من شهد بدراً من الملائكة هم من أفضلهم كمن شهدها من الصحابة أيضاً، وكان في طليعة الملائكة سلاطينهم الثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقد أخبر القرآن الكريم بإمداد أهل بدر بالملائكة في موضعين في آل عمران وفي الأنفال، فقد قال تعالى كما تقدم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ [illegible] مُرْدِفِينَ ۝٩﴾.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ [illegible] بَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ [illegible] تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ [illegible] رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن [illegible] بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ [illegible] ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ [illegible] عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ [illegible] ۝١٢٦﴾ الآية

فأمدّهم تعالى أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف [illegible]، وكان ذلك لطفاً من الله ورحمة بهم ليَسْتَبْشِرُوا وتَطْمَئِنَّ قلوبُهم، وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ مفتتحاً بالقسم تذكيراً لهم بما أنعم عليهم في ذلك المشهد مع ضعفهم وقلّتهم عدّةً وعدداً، فلذلك قال لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: فعل ذلك بكم لتشكروه على تلك النعمة العظمى، وأيّ نعمة أعظم من نزول الملائكة من السموات وقتالهم المشركين مع المسلـ [illegible] وقد حضر الملائكة مع المسلمين من الصحابة في غير معركة: كالأحزاب وحنين وغير[illegible] أيضاً. ومع وضوح الأدلة على [illegible]ول [illegible] وقتالهم بجنب الصحابة نرى بعض العقلانيين ممن تكلّم في الـ[illegible] ينفي ذلك، فيخالف القرآن والسنة وإجماع المسلمين نعوذ بالله من العمه والضلال.

***

❋ عدد القتلى والأسارى من المشركين يوم بدر

[٢٢١] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ ﷺ وأصحابُه أصابُوا مِن المشركين يومَ بَدْر أربعينَ ومِائَةً، سَبْعين أسيراً، وسبعين قتيلاً.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٣٠٣٩) وفي المغازي (٣٩٨٦ ج ٣٠٩/٨) ويأتي مطوّلاً في غزوة أُحد.

هذا هو الصحيح في عدد القتلى والأسرى يوم بدر، وهو ظاهر في قوله تعالى في أهل أُحد: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ الآية، واتّفقوا على أن شهداء أُحد كانوا سبعين، فيكون المسلمون أصابوا من المشركين سبعين في سبعين وهو المراد، وسيأتي تعيين بعض أشخاصهم.

❋ ❋ ❋

❋ قذف القتلى في القليب ووقوف النبيّ ﷺ عليهم ونداؤه إياهم بأسمائهم

[٢٢٢] عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذِفُوا في طَوِيٍّ من أطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رَحْلُها ثم مَشَى واتَّبعه أصحابُه، وقالوا: ما نُرَى يَنْطَلِقُ إلاّ لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكِيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيَسُرُّكُم أنكم أطَعْتُم الله ورسوله، فإنّا قد وجدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقّاً**»، قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تُكَلِّمُ مِن أجْسادٍ لا أرْواحَ لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نَفْسُ مُحمّدٍ بيدِهِ ما أنتم بأسْمَعَ لما أقول منهم**».

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٠٣)، ومسلم في كتاب الجنّة (٢٠٥/١٧، ٢٠٦، ٢٠٧)، وكذا رواه عن عمر (٢٨٧٣)، وفيه: «غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً».

[٢٢٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: **«يا أبا جهلِ بنَ هِشام، يا أميةَ بن خَلف، يا عتبةَ بن ربيعةَ، يا شيبةَ بن ربيعة، أليس قد وجَدتم ما وعَدَ ربُّكم حقاً فإنّي قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً»**، فسمع عمر قول النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنّى يُجيبوا وقد جَيَّفُوا؟ قال: **«والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يَقْدِرُون أن يُجيبُوا»**، ثم أمر بهم فسُحِبُوا فأُلْقُوا في قَلِيبِ بَدْرٍ.

رواه مسلم (٢٨٧٤) في كتاب الجنّة.

قوله: «العرصة» بوزن الضربة هي كل بقعة واسعة بين الدور ليس فيها بناء. **قوله:** «صناديد» جمع صنديد ـ بكسر الصاد ـ وهو السيد الشجاع. **قوله:** «طَوِيّ» هي البئر التي طويت وبنيت بالحجارة، و«الركيّ» البئر قبل أن تُطوى، و«شفتها» طرفها. وقوله: «جيفوا» أي: صاروا جيفاً منتنة. وقوله: «فسُحِبوا» أي: جروهم وألقوهم في القليب، وهي الطوي المتقدمة.

في الحديثين عزّ لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وخزي ومقت وإهلاك للمشركين، فقد كان هؤلاء الصناديد بالأمس يجولون ويصولون ويرون أنهم الناس والأبطال والأعزّة، ويلمزون النبيّ ﷺ بالكلمات الجارحة والأقوال البذيئة، ويؤذونه وأصحابه بما شاءوا وطابت لهم به نفوسهم من أنواع الإذايات، فها هم الآن صرعى قد جيفُوا وهَمَدَتْ أجسادُهم وأصبحوا في عذاب أليم لا يُطاقُ يسمعون التَّقْرِيعَ والتَّوْبِيخَ ويتحسّرون ولا يُجيبون. . .

والحديثان يدلان على أن الموتى يشعرون ويسمعون كلام الأحياء، ولكنهم لا يقدرون على إجابة الأحياء وإسماعهم. . . وهذا أمرٌ مقطوعٌ به لا يخالف فيه إلا من لا يعقل، وما ذهبت إليه سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى

عنها في هذا الموضوع خالفت فيه الصواب. وفي حديث أبي طلحة مشروعيّة إقامة جيش المسلمين بعرصة الكفار بعد انهزامهم ثلاثة أيام إظهاراً لعزّتهم وإذلالاً للكفار. . .

* * *

هزيمة الكفار واختلاف الصحابة في الغنائم

[٢٢٤] عن عُبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ، فشهدتُ معه بدراً، فالتقى الناسُ فهَزمَ الله تبارك وتعالى العَدُوّ، فانطلقتْ طائفةٌ في آثارهم يَهْزِمُون ويَقْتُلُون، فأكَبّت طائفةٌ على المُعَسْكَر يَحْوُونَهُ ويَجْمَعُونَه، وأحْدَقَتْ طائفةٌ برسول الله ﷺ لا يُصِيب العدوُ منه غِرّةً حتى إذا كان الليل وفاء الناسُ بعضه إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين أحْدَقُوا برسول الله ﷺ: لستم بأحقّ بها منّا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخِفْنا أن يصيب العدوّ منه غرّة واشتغلنا به؛ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ على فُواقٍ بين المسلمين.

وفي رواية قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله تعالى من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على فواق، يقول: على السواء.

رواه أحمد (٣٢٢/٥، ٣٢٤)، وابن حبان (١٦٩٣) بالموارد، والحاكم (١٣٥/٢، ١٣٦، ٣٢٦)، والبيهقي في الكبرى (٢٩٢/٦)، وأورده الهيثمي (٩٨/٧ و٩٢/٦) من طريقين، وقال: رجال الطريقين ثقات.

[٢٢٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن النبيّ ﷺ قال: «**من أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا**»، فأسرع إليه الشُبّانُ وثبت الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله تعالى لهم جاء الشباب يطلُبون ما جعل

لهم، فقال الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فإنما كنا رِدْءاً لكم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

رواه أبو داود (۲۷۳۷، ۲۷۳۸، ۲۷۳۹) بألفاظ، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٩)، وابن حبان (١٧٤٣) بالموارد، والحاكم (٢/١٣١، ١٣٢، ٢٢١، ٣٢٧)، والبيهقي في الكبرى (٦/٢٩٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٢٣٦] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر جئتُ بسيفٍ فقلت: يا رسول الله ﷺ إن الله قد شَفَى صَدْرِي من المشركين أو نحو هذا، هَبْ لي هذا السيف، فقال: «**هذا ليس لي ولا لك**»، فقلت: عَسَى أن يُعْطَى هذا من لم يُبْلِ بَلائي، فجاءني رسول الله ﷺ فقال: «**سألْتَنِي وليس لي، وإنه قد صار لي وهو لك**»، قال: فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية.

رواه أحمد (١/١٨١، ١٨٦)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/٥٣، ٥٤) وغيرهما، ويأتي مطوّلاً في الفضائل.

الحديثان الأوّلان يدلان على أن آية الأنفال نزلت بسبب اختلاف الشبّان والشيوخ في الغنائم، بينما حديث سعد يدلّ على أنها نزلت بسببه، وكل ذلك كان ببدر، وليس في ذلك ما يستنكر، فإن الجميع أخبر بما شاهد أو حصل له في هذه الغزوة والأسباب قد تتعدّد كما هو معلوم في علوم القرآن.

والآية الكريمة تدلّ على أن أمر الغنائم حكمها لله ولرسوله ﷺ لا حاكمية لأحد فيها، وأن الواجب على المختلفين في ذلك وفي غيرها أن يُسَلِّمُوا الأمر لله ولرسوله ﷺ، وأن يُصْلِحوا ما وقع بينهم من النزاع.

ويدلّ حديث عبادة على أن الشيوخ كانوا يحرسون رسول الله ﷺ من الكفّار، وهو في العريش الذي هيّىء له، وأن الشبان هم الذين تولّوا القتال وهزموا الكفار، فجعلهم الله عزّ وجلّ كلّهم مجاهدين، ولذلك قسم النبيّ ﷺ الغنائم بينهم على السّواء.

وفي هذه الأحاديث بيان طبيعة الإنسان في حبّه للمال سواء الصالح منه أو غيره، فهو من الشهوات التي حُبِّبَتْ إليه؛ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾.

* * *

❋ الأُسارَى والاختلافُ في شأنهم

[٢٢٧] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: فلما أَسَرُوا الأسارى قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا بكر وعليّ وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»** فقال أبو بكر: يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّةً على الكفار، فعسَى الله أن يَهْدِيَهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«ما ترى يا ابن الخطاب؟»** قال: لا والله يا رسول الله ما أرَى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكِّنّا فنضرب أعناقهم، فتُمَكِّن عليّاً من عَقِيل فيضرب عنقه، وتمكّني من فلان نَسِيباً لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديدُها. فهوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغدِ جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: **«أبكي للذي عُرِض على أصحابك من أخذِهم الفِداءَ، لقد عُرِض عليّ عذابُهم أدْنَى من هذه الشجرة»** شجرة قريبة من النبيّ ﷺ وأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾، فأحلّ الله تعالى الغنيمة لهم، فلما كان يوم أُحد من العام

المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفرّ أصحاب النبيّ عليه الصّلاة والسلام عنه وكسرت رباعيّته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ بأخذكم الفداء.

رواه أحمد (١/٣٠، ٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/٨٤، ٨٥)، ويأتي أيضاً في غزوة أحد.

[٢٢٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**لم تحلّ الغنائم لأحد سُودِ الرُّؤُوسِ من قبلِكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكُلُها، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحلّ لهم، فأنزل الله عز وجلّ: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾» الآية.**

رواه أحمد والترمذي والنسائي في الكبرى وغيرهم بسند صحيح على شرط مسلم، وتقدم كسابقه في التفسير.

قوله: «حتى يثخن في الأرض» أي: حتى يبالغ في قتل الكفار.

[٢٢٩] والعتاب الذي حصل في الآية عن الأسرى وأخذ الفداء إنما هو عتاب على خلاف الأولى؛ لأن الله عزّ وجلّ قد سبق كتابه بإحلال الغنائم لهذه الأُمّة.

وفي حديث عمر فضيلة ظاهرة له حيث جاء القرآن موافقاً لرأيه في عدم أخذ الفداء من الكفار، وفيه مشروعية مشاورة الخليفة العلماء والصالحين ذوي الرأي في شؤون السياسة، ثم يختار ما ظهر له من الآراء. وفيه دليل على جواز اجتهاد الرسول ﷺ فيمن لم ينزل فيه وحي، وأن الله عزّ وجلّ لا يقرّه على خلاف ما شرعه الله عزّ وجلّ.

وفي الحديثين إحلال الغنائم لهذه الأُمّة دون غيرها، وقد تقدم الكلام على ذلك في الجهاد.

* * *

❁ قدوم زيد بن حارثة المدينة مبشّراً بالنصر

[٢٣٠] عن أُسامَة بن زَيْدٍ رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ النبيّ ﷺ خَلَّفَ عثمان بن عفان وأسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهم على بنتِ رسول الله ﷺ، فجاء زيد بن حارثة على العَضْباءِ ناقةِ رسول الله ﷺ بالبِشارة، قال أسامة: فسمعتُ الهَيْعَة، فخرجتُ فإذا زيدٌ قد جاء بالبشارة، فوالله ما صدَّقتُ حتى رأينا الأسارى، وضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسَهْمِهِ.

رواه الحاكم (٢١٧/٣، ٢١٨)، والبيهقي في السِّير من الكبرى (١٧٤/٩) وفي الدلائل (١٣٠/٣، ١٣١)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

في الحديث مشروعية بعث المبشّرين بانتصار المسلمين على الكفار، وفيه أن النبيّ ﷺ ضرب لعثمان حظّه من غنيمة بدر؛ لأنه تخلّف مُمَرِّضاً لزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ التي توفيت ورسول الله ﷺ في الطريق مرجعَه من بدر.

[٢٣١] وعن عبدالرحمٰن بن أَسْعَد بن زُرَارة رضي الله تعالى عنهما قال: قدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسَوْدَة بنتُ زَمْعَة زوجُ النبيّ ﷺ عند آل عَفْراء في مَناحَتِهِم على عَوْف ومُعَوِّذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يُضرب الحجابُ، قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذْ أُتِينَا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أُتِيَ بهم، فرجعتُ إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيدَ سُهَيْل بنُ عَمْرو في ناحية الحُجرة ويداه مجموعتان إلى عُنُقِهِ بحَبْلٍ، فوالله ما مَلكتُ حين رأيتُ أبا يزيد كذلك أن قلتُ: أبا يزيد أعطيتُم بأيديكم ألا متم كِراماً. فما انتبهتُ إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «**يا سودة على الله وعلى رسوله؟!**» ﷺ، فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ ما ملكتُ حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عُنُقِهِ بالحبل أن قلتُ ما قلتُ.

رواه الحاكم (٣/٢٢)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٢٨٦) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قولها: «في مناحتهم»، تعني: كانت عندهم في وقت نياحتهم على قتل ابني عفراء الذين استشهدا ببدر. قوله: «على الله ورسوله» يريد والله أعلم أتقولين له ذلك تحريضاً منك على الله وعلى رسوله ﷺ، وفيما قالته سودة رضي الله تعالى عنها لذلك الأسير شيء عظيم لولا أنها لم تشعر، ولذلك لم يؤاخذها النبيّ ﷺ.

وكان في قدوم هؤلاء الأسارى بشارة ثانية بالنصر وانهزام المشركين.

* * *

❁ فداءُ الأسارى وقَتْل عُقْبة بن ابي مُعَيْط في الطريق إلى المدينة

[٢٣٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: فادى ﷺ أُسارى بدر، وكان فداءُ كل رجل منهم أَرْبَعَةَ آلافٍ.

رواه الطبراني في الكبير (١٢١٥٢) والأوسط ورجاله رجال الصحيح، قاله نور الدين في المجمع (٦/٩٠).

[٢٣٣] وعن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كانت قريشٌ ناحتْ قتلاَها ثم ندِمتْ، وقالوا: لا تَنُوحُوا عليهم، فيَبْلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشْمَتُوا بكم وكان في الأسرى أبو وَداعة بن صَبْرَة السَّهْمي، فقال رسول الله ﷺ: **«إن له بمكّة ابناً تاجراً كيِّساً ذا مال كأنكم قد جاءكم في فداء أبيه»**، فلما قالت قريش في الفداء ما قالت، قال المطلب: صدقتم، والله لَئِن صدقتم ليُثارَبَنّ عليكم ثم انسلّ في الليل فقدم المدينة ففدَى أباهُ بأربعة آلاف درهم.

أورده الهيثمي (٦/٩٠) برواية الطبراني وقال: رجاله ثقات.

لا تنوحوا أي: لا تبكوا على قتلاكم بالنياحة المصحوبة بالندب واللّطم والخرق على عادتهم في ذلك، فيشمتوا بكم أي: يفرحوا. وقوله: ليُثارَنّ عليكم أي: ستقبح أفعالهم.

والحديثان يدلاّن على أن ثمن الفداء كان أربعة آلاف درهم لكل شخص ومن لم يكن له ما يفدي به نفسه، وكان كاتباً كان يُؤْمَر بتعليم أولاد الأنصار الكتابة كما في الحديث التالي.

[٢٣٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءَهم أن يُعَلِّمُوا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاء يوماً غلام يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضَرَبَني مُعَلِّمي، قال: الخبيثُ يطلب بِذَحْلِ بدر والله لا تأتيه أبداً.

رواه أحمد (٢٤٧/١) بسند حسن أو صحيح.

قوله: «ذَحْل» أي: ثاره وأصل الذحل الحقد والعداوة.

* * *

قتل عقبة بن أبي معيط في الطريق

[٢٣٥] وعنه قال: قتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء، قام إليه عليّ رضي الله تعالى عنه فقتله صبراً، قال: مَنْ للصِّبْيَةِ يا رسول الله؟ قال: «النار».

رواه الطبراني قال في المجمع (٨٩/٦) ورجاله رجال الصحيح، وهو عند عبدالرزاق في المصنّف رقم (٩٣٩٤) في الجهاد.

الآن حان وقت مصرع هذا العدّ اللّدود الذي كان بالأمس مع صناديده بمكّة، فقام إلى سلا جزور فوضعها على ظهر النبيّ ﷺ وجعلوا يضحكون، وهو الذي أخذ مرّة بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه وخنقه به خنقاً شديداً حتى دفعه عنه الصدّيق رضي الله تعالى عنه.

فها هو الآن في الفيافي بعيداً عن الأهل والولد والدار تضرب عنقه صبراً بين بدر والمدينة ولا ناصر له ولا مغيث، وذلك جزاء الجبابرة المتكبّرين.

* * *

قصة العباس في أسره وفدائه

[٢٣٦] عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ من الأنصار بالعبّاس قد أسَرَه، فقال العباس: يا رسولَ الله ليس هذا مَنْ أسَرَنِي، أسَرَنِي رجلٌ من القوم أنزع مِن هيئته كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «**قد آزَرَكَ الله بِمَلَكٍ كَرِيمٍ**».

رواه أحمد رقم (٦٧٦)، قال النور (٨٥/٦): رجاله رجال الصحيح، ورواه أحمد (٣٥٣/١) عن ابن عباس أيضاً لكن فيه رجل مجهول.

العباس عمّ النبيّ ﷺ كان قد أسلم بمكّة وكان يكتم إسلامه، ثم خرج مع المشركين إلى بدر، فوقع أسِيراً في أيدِي المسلمين فكُتِّفَ وأُوثِقَ في جملة الأسارى.

[٢٣٧] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر، قيل له: عليك العير ليس دونها شيءٌ، قال: فناداه العباس وهو في وَثاقِهِ: لا يَصْلُحُ لك ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «**ولِمَ**»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحْدَى الطائفتين وقد أعطاك ما وعَدَك؟ قال: «**صدَقْتَ**».

رواه أحمد والترمذي بسند صحيح، وقد تقدم في التفسير في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الآية.

فكان العباس رضي الله تعالى عنه مِمَّن أُوثِق في جملة الأسارى، رغم أنه عَمُّ النبيّ ﷺ، فإن الحقّ لا يحترم أحداً ولم يقبل منه كتم إسلامه لأنه

خرج مكثراً لسواد الكفار فعامله النبيّ ﷺ معاملة الأسارى المشركين، فأوثقه حتى قدم به المدينة وطلب منه فداء نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفه عتبة بن عمرو.

[٢٣٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلْنَتْرُكْ لابْنِ أُخْتِنا عباسٍ فِداءَه، قال: **«والله لا تَذَرُون منه دِرْهماً»**.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٢٣، ٣٢٤).

استشفع رجال من الأنصار البدريّين للعباس عند النبيّ ﷺ أن يعفوه من الفداء، فأكد لهم أخذ الفداء منه بالنهي عن تركهم شيئاً من ذلك ولو درهماً، وذلك خشية أن يكون في ذلك مُحاباةٌ له لكونه عمّه، وقول الأنصاريّين: «لابن أختنا» لأن جدّة العباس سَلْمَى بنتِ عَمْرو بن زَيْد النجارية الخزرجية كانت أُمّاً لعبدالمطلب، فأطلقوا عليها أختاً لهم لكونها من الأنصار والعباس حفيدها، فهو ابن أختهم، كما أنهم أخوال النبيّ ﷺ، هذا وذكر علماء السيرة ومنهم أبو نعيم في الدلائل (١٧١) عن ابن عباس بإسناد حسن، قال: كان فداء كل واحد أربعين أُوقية، فجعل على العباس مائة أُوقيّة، وعلى عقيل ثمانين وفيه قصة العباس في ماله الذي تركه لأم الفضل، ونزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، وانظر المجمع (٧/٢٨)، وهناك أخبار عن العباس لا أسانيد لها أو هي مجرّد بلاغات ومراسيل.

* * *

العفو عن أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ

[٢٣٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما بعث أهلُ مكة في فِداءِ أسْراهُم بعثتْ زينبُ بنتُ رسول الله ﷺ في فِداء أبِي العاص بن

الرّبيع بمالٍ، وبعثَتْ فيه قِلادةً لها كانت لخديجة أدخلتْها بها على أبي العاص حين بَنَى عليها، قال: فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّةً شديدةً، وقال: «إنْ رأيتُم أن تُطْلِقُوا لها أسِيرَها، وترُدّوا عليها الذي لها فافْعَلُوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردُّوا عليها الذي لها. وفي رواية: وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه أو وعَدَه أن يُخَلّي سبيل زينب إليه، وبعثَ رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج حتى تَمُرَّ بكما زينبُ فتَصحباها حتى تأتيا بها.

رواه أحمد (٣٧٦/٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٢)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٩٤/٢، ٢٩٥)، والحاكم (٢٣٦/٣، ٢٣) وسنده حسن صحيح وابن إسحاق صرّح بالتحديث وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقد ذكر ابن إسحاق خبراً طويلاً في قصة خروجها من مكّة ولحوقها بالمدينة، فانظره عند ابن هشام (٢٩٦/٢)، وكان رسول الله ﷺ زوج عُتْبَة بن أبي لهب ابنتَه رُقيّة أمّ كلثوم كما زوج زينب من أبي العاص بن الربيع، فلما بادَى رسولُ الله ﷺ قريشاً بأمر الله تعالى وبالعداوة مَشَوْا إلى عُتْبة بن أبي لهب فأمروه بفراق بنت النبيّ ﷺ وأن يزوّجوه أي امرأة شاء من قريش ففارقها ولم يكن دخل بها بعدُ، ثم ذهبوا إلى أبي العاص فأمروه بمفارقة زينب فقال لهم: والله إني لا أُفارق صاحِبَتِي وما أُحِبّ أن لي بامرأتي امرأةً من قريش، ولذلك كان رسول الله ﷺ يُثْني عليه خيراً في مصاهرته، وعندما وقع أسيراً مع أسارى بدر عفا عنه ﷺ وردّ عليه فداءه، وشرط عليه أن يأذن لزينب ابنته باللحوق به، ففعل ووفى بذلك ثم بعدُ مَنَّ الله تعالى عليه فأسْلم فردّ عليه زوجته.

* * *

❋ كيف تَلَقَّت قريشٌ خبر هَزِيمَتهم ببدر

[٢٤٠] قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وكان أوّل من قدم مكّة

بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبدالله الخزاعي، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة، وشيبةُ بن ربيعة، وأبُو الحكم بن هشام، وأُمَيّةُ بن خلف، وزمعةُ بن الأسود، ونَبيه ومُنَبّه ابنا الحجاج، وأبُو البَخْتَرِي بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أُمية: والله إن يعقل هذا فسلُوه عليّ؟ فقالوا: ما فعل صفوان بن أُمية؟ قال: هو ذاك جالس في الحجر قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٨٨/٢) وهو تابع لسنده الأوّل الصحيح الذي بدأ به غزوة بدر، والله تعالى أعلم.

[٢٤١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يَهابُ قومَه ويَكْرَهُ خلافَهم، وكان يكتُمُ إسلامه وكان ذا مال متفرّق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام... فلما جاءه الخبر عن مُصابِ أصحاب بدر من قريش كَبَتَه الله وأخزاه، ووجدْنَا في أنفسُنا قوّةً وعِزّاً، قال: فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هَلُمَّ إليّ، فعندك لَعَمْري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمْرُ الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لَقينا القومَ فمَنَحْنَاهم أكتافَنا يَقُودُونَنا كيف شاءوا، ويأسِرُوننا كيف شاءوا، وأيْمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس لَقِينا رجالاً بِيضاً على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنُبَ الحُجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يَدَه فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً، قال: وثاوَرْتُه فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أمّ الفضل إلى عَمُودٍ من عُمُد الحجرة، فأخذته فضربته فلعت في رأسه شجّة منكرةً، وقالت: اسْتَضْعَفْتَه أنْ غاب عنه سَيِّدُه؟ فقام مُوَلِّياً ذَلِيلاً، فوالله ما عاش إلا سَبْعَ ليالٍ حتى رماه الله بالعَدَسَةِ فقَتَلَتْهُ.

رواه ابن إسحاق كما في ابن هشام (٢٨٨/٢)، وتاريخ ابن جرير (٤٦٣/٢) غير أن في سنده حسين بن عبدالله بن عباس وهو ضعيف، والقصة ذكرتها لحسن سياقتها وفكهاتها على أنه ليس فيها ما ينكر، فهي موافقة للواقع.

قوله: «تليق» أي: لا تبقي شيئاً. قوله: «طُنُب الحجرة» بضمّتين حَبْلُها. قوله: «وثاورته» أي: وثبت عليه. وقوله: «فلعت» أي: فلقت رأسه، واستفدنا من هذه القصة إسلام العباس وأهله قبل بدر، كما استفدنا منها شجاعة أمّ الفضل حيث ضربت أبا لهب بعمود الحجرة حتى فلقت رأسه، وأنه لم يعش بعد ذلك إلا أسبوعاً فأُصيب بالعدسة وهي بثرة خضِرة كالطاعون فهلك وتبع إخوانه لجهنم.

* * *

أهل بدر لن يدخلوا النار وإن فعلوا ما فعلوا إلا أن يُشْرِكُوا

[٢٤٢] عن عليّ رضي الله تعالى عنه في قصة حاطب بن أبي بلتعة قال فيه رسول الله ﷺ: **«لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجَبَتْ لكم الجنّةُ، أو فقد غفرتُ لكم»**، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

رواه البخاري في المغازي باب فضل من شهد بدراً (٣٠٧/٨)، ورواه مسلم عن ابن عباس ويأتي مفصّلاً في غزوة الفتح إن شاء الله عزّ وجلّ.

[٢٤٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لن يَدْخُلَ النارَ رجلٌ شهد بدراً والحُدَيْبِية»**.

رواه مسلم في الفضائل (٥٧/١٦)، والترمذي في المناقب وابن ماجه ويأتي في الفضائل.

في الحديثين بشارة عظيمة لأهل بدر وأنهم مغفورٌ لهم ولن يدخلوا

النار والله لا يخلف وعده، وهذه الفضيلة ليست لغيرهم ولغير أهل الحديبية كما يأتي إن شاء الله تعالى.

* * *

اسمَاءُ مَنْ شهد بدراً من المهاجرين والأنصار

قال البخاري في صحيحه (٣٢٩/٨) باب تسمية من سمي من أهل بدر في الجامع الذي وضعه أبو عبدالله على حروف المعجم: النبيّ سيّدنا محمد بن عبدالله الهاشمي ﷺ، أبو بكر الصدّيق، عُمر، عثمان، عليّ بن أبي طالب، إياس بن البُكَيْر، بلال بن رباح، مولى أبي بكر الصدّيق، حمزة بن عبد المطلب الهاشمي، حاطب بن أبي بلتعة حليف لقريش، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي، حارثة بن الربيع الأنصاري قتل يوم بدر وهو حارثة بن سراقة كان في النظارة، خُبَيْب بن عدي الأنصاري، خُنَيْس بن حذافة السهمي، رفاعة بن رافع الأنصاري، رفاعة بن عبدالمنذر، أبو لبابة الأنصاري، الزبير بن العوام القرشي، زيد بن سهل، أبو طلحة الأنصاري، أبو زيد الأنصاري، سعد بن مالك الزهري، سعد بن خولة القرشي، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، سهل بن حُنيف الأنصاري، ظهير بن رافع الأنصاري، عبدالله بن مسعود الهذلي، عتبة بن مسعود الهذلي، عبدالرحمٰن بن عوف الزهري، عُبَيْدة بن الحارث القرشي، عبادة بن الصامت الأنصاري، عمرو بن عوف، عقبة بن عمرو الأنصاري، عامر بن ربيعة الأنصاري العنزي، عاصم بن ثابت الأنصاري، عويم بن ساعدة الأنصاري، عتبان بن مالك، قدامة بن مظعون، قتادة بن النعمان الأنصاري، معاذ بن عمرو بن الجموع، مُعَوّذُ بن عَفْراء وأخوه، مالك بن ربيعة، أو أُسَيْد الأنصاري، مرارة بن الربيع الأنصاري، معن بن عدي الأنصاري، مِسْطَح بن أُثاثَة، المقداد بن عمرو الكِنْدي، هلال بن أُمية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم.

فجملة ما ذُكِرَ هنا أربعةٌ وأربعون رجلاً، وقد اقتصر على ما وقع عنده منهم في الصحيح وفاته الكثير منهم من المشاهير كسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وزيد بن حارثة وغيرهم، وأوردهم نورالدين في المجمع (٦/٩٣، ٦ ١٠١) فبلغ عددهم (٢٣٥) رجلاً، كما ذكر الكثير منهم ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٣٢١) فما بعدها، وقد استوعبهم الحافظ ابن كثير رحمه الله في سيرته (ج ٢/٤٩٠ ـ ٥٠٧) ورتّبهم على حروف المعجم أحسن ترتيب فأوصلهم إلى أكثر من ثلاثمائة وأربعة عشر رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بمحبّتهم وجعلنا في زمرتهم، آمين.

* * *

❊ خلاصة ما اشتملت عليه غزوة بدر

إن غزوة بدر كانت أول غزوة خاضَها النبيُّ ﷺ وأصحابُه مع المشركين، وكانت الفاصلَ بين الحقّ والباطل، وكان للمسلمين فيها النصر المبين الذي لم يقع في تاريخ الإسلام مثلُه، فقد كوَّنَ أصحابُها الأبطالُ تاريخاً ومَجْداً وظَفراً ونَصْراً لكل من جاء بعدهم من الأجيال، وإتماماً للفائدة نذكر هنا خلاصة ما سبق في الغزوة تذكيراً للقارىء بما مرّ عليه من أحداثها، فنقول:

كان تاريخ الغزوة يوم الجمعة سبعة عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وكان سببها الخروج لعير قريش التي قدم بها أبو سفيان من الشام، فأرسل النبيّ ﷺ بعضَ العيون ليأتي بأخبار العِير وندَب الصحابة للخروج بعد أن استشارهم ثم انطلق وهم ثلاثمائة وبِضعَة عشر رجلاً ومعهم سبعون جملاً يتعاقبونها وليس معهم إلا فرسان وتبعه بعض الأطفال، فردّهم كما تبعه مشرك يريد إعانته، فقال له: **«لن نستعين بمشرك»**، وفي هذه الأثناء رأت عاتكة بنت عبد المطلب عمّةُ رسول الله ﷺ وهي بمكّة رؤيا هائلة أفزعتها وأزعجت كل من سمعها مَفادُها إنذارُ قريش بهلاكهم، وصادفت الرؤيا مَجِيء ضمضم من طرف أبي سفيان مستغيثاً بقريش لإنقاذ العير الذي

خرج يتعرّض له محمد وأصحابه، رغم أنه ـ أعني أبا سفيان ـ لما سمع بخروج النبيّ ﷺ حوّل طريقه إلى الساحل فأنجى عِيره، ولما جاء كفارَ قريش النذيرُ مع الرؤيا خرجوا في جيشٍ عَرَمْرَمٍ ليُغيثوا أبا سفيان وعِيرَه ومن معه، وعندما غادروا مكّة وقطعوا أشواطاً في سَفرهم علموا أن أبا سفيان قد نجا بالعير، فأرادوا الرجوع لكن أبا جهل عارض، وقال: لا بدّ وأن نَذهبَ فننزل ببدر ونَنْحَر الجُزُرَ ونَشْرب الخمر وتُغَنِّينا القَيناتُ فيسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا، فتابعوا السير إلى أن وصلوا بدراً وسبقوا المسلمين إلى الموضع المناسب، ولما وصل النبيّ ﷺ نزل بالضفة الشمالية لجهة المدينة، وهو المعبّر عنه في الآية الكريمة بالعدوة الدنيا في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾.

ومعناه أنتم كنتم بالشاطىء والجانب الأدنى أي الأقرب لجهة المدينة والكفار بالشاطىء، والجانب الأقصى أي البعيد من جهتكم وركب أبي سفيان كان أسفل منكم لجهة البحر، وهٰهنا قال الحُباب بن المنذر للنبيّ ﷺ: يا رسول الله أرأيتَ هذا المنزلَ أمنزلاً أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدّم ولا أن نتأخّر عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمَكِيدة؟ قال: «بل هو الحربُ والرأيُ والمكيدةُ»، فقال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهَضْ بالناس حتى نأتيَ أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من الآبار ثم نَبْنِي عليه حَوْضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فنهض رسول الله ﷺ وتحوّل إلى المكان الذي أشار إليه الحُباب.

رواه ابن إسحاق مرسلاً بسند صحيح ولم نذكره في صلب القصة لإرساله، ثم هيّأوا للنبيّ ﷺ عريشاً ينزل فيه، ثم شاور الصحابة مرّة ثانية، وأشار إليه المقداد وسعد بن معاذ بما سَرَّه ثم بشَّرهم بالنصر وجعل يخبرهم بمصارع القوم، وكان قد قال لهم قبل ذلك: «هذه مكة قد أخرجت لكم أفلاذ كبدها»، وبات النبيّ ﷺ ليلة الغزوة يدعو الله عزّ وجلّ ويبكي، ويقول: «يا ربّ إن تُهلك هذه العصابة فلن تُعبدَ بعدُ...»، هذا مع تَيَقُّنِهِ بوقوع النصر، لكن هذا مشهَدٌ من مشاهد عبوديّته لله تعالى... وفي الصباح اصطفّ الجيشان وبدأتْ المعركة بالمبارزة، وكان أوّلَ شهيد عُبَيدةُ بن

الحارث وأوّل قتلى المشركين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ثم التحم القتال وحَمِي الوطيسُ واختلط الجيشان، وجاء النصر من عند الله ونزلت الملائكة فلم تمض إلا ساعة من نهار حتى انهزم المشركون وظهر الحقّ وزَهق الباطل، فجعل المسلمون يقتلون ويأسرون فقتلوا منهم سبعين كان فيهم صناديدهم الجبّارون المغرورون الذين سبق ذكرهم وأسروا سَبْعِينَ وباقيهم فروا هاربين ناجين بأنفسهم، وقد سرد ابن هشام أسماء القتلى والأسارى من المشركين (ج ٢/٣٤٧، ٣٥٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً وهم أول شهداء الإسلام بعد فرضية الجهاد والأمر بالقتال، فهم أئمّة الشهداء وكان في جملتهم عُبَيدةُ بن الحارث بن المطّلب، وعُمَير بن أبي وقاص، وعُمَيْر بن الحمام، وحارثة بن سراقة، وعوف ومعوذ ابنا عفراء... ولما اشتدَّت المعركة جعل النبيّ ﷺ يتطلّع إلى ما آل إليه أمر أبي جهل، وإذا بابن مسعود قد أتاه يبشره بقتله، ورأى بلالٌ أُميّة بن خلف الذي طالما سامَه سوءَ العذاب يريد الفرار فتبِعَه في جماعة فقتلوه قتلاً جماعياً، ثم لمّا انتهت المعركة أقام ﷺ بعَرْصَةِ بدر ثلاثة أيام، ثم أمر بجماعة من قتلى المشركين، فأُلقوا في بئر ثم جعل النبيّ ﷺ يناديهم بأسمائهم توبيخاً وتبكيتاً وتقريعاً لهم قائلاً: «**يا فلان ابن فلان... هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً**»، ثم لما وقعت الهزيمة واستولى الشبان على الغنائم أرادوا الاستئثار بها دون الشيوخ الذين كانوا في حراسة النبي ﷺ، فقال الشيوخ: إنّا كنا في حراسة النبيّ ﷺ كما كنا ردءاً لكم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، ففصل النبيّ ﷺ بينهم وقسم الغنائم بين الجميع بعد أن أخرج منها الخمس، ثم جاء الاختلاف في فداء الأسارى... بعد أن استشار النبيّ ﷺ أبا بكر وعمر وعليّ رضي الله تعالى عنهم وعمل على ما أشار إليه الصديق من أخذ الفداء، فجاء العتاب الإلٰهي على ذلك، وكان ذلك على خلاف الأولى، ولذلك جاء آخر الآية يُبِيحُ لهم ذلك ويُخبر بأنه قد سبق بذلك كتاب من الله، وبعث النبيّ ﷺ إلى المدينة قبل قدومه زيد بن حارثة يبشرهم بالنصر، وفي الطريق أمر ﷺ الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه أن

يضرب عنق ابن أبي مُعَيْط الذي كان شديد الإذاية لرسول الله ﷺ، فقتله صبراً مهيناً ذليلاً مدحوراً، ولما وصل إلى المدينة أصدر حكمه ﷺ بفداء الأسارى لكل رجل أربعة آلاف درهم وعفى عن أبي العاص زوج ابنته الطاهرة سيّدتنا زينب رضي الله تعالى عنها.

أما الكفار الذين لم يحضروا بدراً من أهل مكّة، وكان منهم أبو لهب عندما بلغهم خبر هزيمة جيشهم وانتصار المسلمين فقد كُبِتُوا وأخْزُوا وذهبتْ نَخْوَتُهم وأنانيتُهم وعَضُّوا على أيديهم وماتوا بغيظهم، بل أبو لهب هلك داخل الأسبوع ولحق إخوانه إلى سقر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾، وبهذا انتهت غزوة بدر، وقد نزلت في شأنها آيات من كتاب الله عزّ وجلّ.

كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلى آخر ما سبق.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ الآية.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ الآية.

وقوله جلّ علاه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ الآية، وقد سبقت كغيرها.

هذا وقد تركت كثيراً من الأخبار والأحداث جاءت في هذه الغزوة ذكرها علماء السيرة لكونها بلاغات أو مراسيل أو أسانيدها ضعيفة فلم نذكرها لذلك، والله تعالى أعلم.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات والحمد لله على إحسانه وإنعامه وتوفيقه.

* * *

أحداث وقعت بين بدر وأُحد
غزوة قَيْنُقَاع

[٢٤٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لـمّا أصاب رسولُ الله ﷺ قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهودَ في سُوق بني قَيْنُقاع، فقال: **«يا معشرَ اليهود أسلِمُوا قبل أن يُصيبَكم ما أصاب قريشاً»**، قالوا: يا محمد لا يَغُرَّنَّك مِن نفسك أن قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً

لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنك لم تَلْقَ مثلَنا، فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

رواه أبو داود في الخراج باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٣٠٠١)، وابن إسحاق كما في ابن هشام (٣/٩)، وابن جرير (٣/١٩٢) ورجاله ثقات غير مولى زيد بن ثابت فلم يوثّقه غير ابن حبان، لكن رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (٢/٦٠٤) من طريق آخر مرسلاً فيتأيّد به، ولذلك حسّنه الحافظ في الفتح (٧/٣٣٢).

[٢٤٥] وقال ابن إسحاق: حدّثني أبي إسحاقُ بنُ يسار عن عبادةَ بن الوَليد بن عُبادة بنِ الصامت، قال: لما حاربتْ بَنُو قَيْنُقاع رسولَ الله ﷺ تَشَبَّثَ بأمرهم عبدالله بنُ أُبيّ وقام دونَهم، فمشَى عبادةُ بن الصامت إلى رسولِ الله ﷺ وكان أحَدَ بني عوف بن الخزرج لهم من حلفهم مثل الذي لهم من حلف عبدالله بن أبيّ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، فقال: يا رسول الله أتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولّى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حِلف الكفّار وولايتهم، ففيه وفي عبدالله بن أُبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

رواه ابن إسحاق في السيرة (١٢١/٢) مع الروض الأنف، ومن طريقه ابن أبي حاتم (١٥٥/٤)، وابن جرير (٢٧٥/٦) وهو مرسل حسن صحيح وله عدّة شواهد مراسيل عن عطية بن سعد والزهري رواهما ابن جرير (٢٧٥/٦) وعن عاصم بن عمر بن قتادة رواه ابن إسحاق (١٢١/٢)، وانظر ابن سعد (٣٦/٢)، وهذه وإن كانت مراسيل فإنها تتأيّد كما هو معروف في علوم الحديث.

قال علماء السيرة والمغازي: قد كان الكفار بعد الهجرة مع النبيّ ﷺ على ثلاثة أقسام: قسمٌ وادَعَهُمْ على أن لا يُحارِبُوه ولا يُؤَلِّبُوا عليه عَدُوَّه، وهم طوائف اليهود الثلاثة: قريظة والنضير وبنو قينُقاع.

وقسم حاربوه وناصبوه العداوة كقريش، وقسم تركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب، فمنهم من كان يحبّ ظهوره، ومنهم من كان معه ظاهراً، ومع عدوّه باطناً، وهم المنافقون، وكان أوّل من نقض العهد من اليهود بنو قينُقاع فحاربهم النبيّ ﷺ في شوّال بعد وقعة بدر، فحاصرهم أشدّ الحصار خمسة عشر يوماً، فألقى الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ...

وذكر ابن هشام وغيره أن أول خيانة ونقض للعهد بدَا منهم، أن امرأةً عربيَةً كانت لها بِضاعةٌ تَبِيعُها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعل اليهود يُرِيدُونَها عن كَشْفِ وَجْهِها فأبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقدَه إلى ظهرها، فلما قامت انكشفتْ سَوْءَتُها، فضحِكُوا بها فصاحت فوثبَ رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً وشدَّتْ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود فغضِبَ المسلمون، فكان ذلك أول شرّ ظهر منهم، فخرج إليهم النبيّ ﷺ وقال لهم ما في حديث ابن عباس، فأجابوه بما تُكِنُّه صُدورُهم من العداوة والبغضاء للإسلام وللمسلمين، فكان ذلك من أسباب محاصرتهم، ونزل

القرآن يخبر عنهم بأنهم سَيُغْلَبون ويُحْشَرُون إلى جهنّم، ولم يعتبروا بما حصل لإخوانهم في الكفر ببدر رغم أنه قال لهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي عِبْرة ﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ وهما جماعة المسلمين وجماعة كفار قريش.

وقد ظهرت معجزة القرآن الكريم بإخباره عمّا يؤول إليه أمر اليهود، فبعد أن حاصرهم النبيّ ﷺ حصاراً شديداً وعلموا أنهم لا طاقة لهم بمحاربته وألقى الله في قلوبهم الرعب نزلوا على حكم رسول الله ﷺ بأن له أموالهم وأن لهم النساء والذرّية، فأمر بهم فكُتِّفُوا وكلّف بتكتيفهم المُنذر بن قُدامة السُّلَمِي، فجاء ابنُ أُبَيّ ابن سلول لعنه الله، فكلّم فيهم رسول الله ﷺ وألحّ عليه في ذلك لأنهم كانوا حلفاءه، فترك قتلهم وأمر بهم أن يُجْلَوْا عن المدينة فلَحِقُوا بأذرعات من الشام، وأخذ النبيّ ﷺ مِن حِصْنِهِم سلاحاً وآلة كثيرة، فأخذ ﷺ من أموالهم صَفِيَّه والخُمُس، وقسم أربعة أخماس على أصحابه، فكان أوّل خُمُسٍ خُمِّسَ بعد بدر. انظر طبقات ابن سعد (٢٨/٢، ٢٩)، والطبري (٤٨٠/٢)، وابن هشام (٩/٣، ١٠، ١١).

ويؤخذ من حديث عبادة قوةُ إيمان عبادة بن الصامت وغيرتُه لله ولرسوله ﷺ وبغضه ليهود بني قينقاع حيث قام جهاراً بين يديّ رسول الله ﷺ فتبرّأ من اليهود وما كان له معهم من الحلف، وتولّى الله ورسوله والمؤمنين وهذا بخلاف ما فعله ابن أُبيّ المنافق من تشبّثه بحلفه معهم وقيامه بالسعاية في التشفّع لهم عند رسول الله ﷺ حتى ترك قتلهم من أجله.

***

غزوة سويق

[٢٤٦] عن عبدالله بن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنهما، وكان من أعلم الأنصار قال: كان أبو سفيان حين رجع إلى مكّة ورجع فَلُّ قريش من بدر، نذر أن لا يَمَسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يَغْزُوَ محمداً ﷺ،

فخرج في مائتي راكب من قريش لِيَبُرَّ قَسَمَه، فسلك الجندية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: ثيب من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حُيَيَّ بن أَخْطَبَ فضرب عليه بابَه فأبَى أن يَفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلاّم بن مِشْكَم وكان سيّد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقَراهُ وسَقاهُ، وبطن له من خبر الناس ثم خرج في عقب ليلة حتى أتى أصحابه، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها فحرقوا في أصوار من نخل بها ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم حتى بلغ قَرْقَرَةَ الكُدْر ثم انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث يتخفّفون منها للنجاء، وأكثر ما طرحوا من أزوادهم السويق، فهجم المسلمون على سويق كثير فسمّيت غزوة السويق.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٦/٣، ٧)، وابن سعد (٣٠/٢)، والطبري (٤٨٣/٢، ٤٨٥)، والبيهقي في الدلائل (٤٣٣/٢) وسنده حسن صحيح مع إرساله ولا يضرّ، فإن عبد الله بن كعب يروي عن والده، وخاصة وأنه ثقة من أعلم الأنصار وأولاد الصحابة.

وقوله: «فَلُّ قريش» بفتح الفاء أي: المنهزمون. قوله: «فقراه» أي: أضافه. وقوله: «وبطن له» أي: أطلعه على خبر الناس. وقوله: «أصوار» من نخل أي: جماعة النخل الصغار. وقوله: «ونذر بهم» أي: علم بهم الناس.

* * *

❁ زواج عليّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما

[٢٤٧] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: خُطِبَتْ فاطمةُ إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاةٌ لي: هَلْ عَلِمت أن فاطمةَ قد خُطِبَتْ إلى

رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خُطبتْ فما يَمنعُك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوّجك؟ فقلت: وعندي شيء أتزوّج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوَّجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدتُ بين يديه أُفْحِمْتُ، فوالله ما استطعتُ أن أتكلم جلالةً وهيبةً، فقال رسول الله ﷺ: **«ما جاء بك؟ ألك حاجة؟»** فسكتُ فقال: **«لعلك جئت تخطبُ فاطمة؟»** فقلت: نعم، فقال: **«وهل عندك من شيء تَستحلُها به؟»** فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: **ما فعلتْ دِرْعٌ سَلَّحْتُكَها؟** فوالذي نفسُ عليّ بيده إنها لحُطَمِيَّة ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت: عندي، فقال: **«قد زوَّجْتُكَها، فابعثْ إليها بها فاستَحِلَّها بها»**، فإن كانت لصداقَ فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ.

رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (١٦٠/٣) وسنده حسن صحيح.

ورواه أحمد (٨٠/١) مختصراً بلفظ: أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابْنَتَه فاطمة رضي الله تعالى عنها فقال: ما لي من شيء فكيف؟ ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه، فقال: **«هل لك من شيء؟»** قلت: لا، فقال: فأين دِرعُك الحُطَمِيَّةُ التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟ قال: هي عندي، قال: **«فأعْطِها إياها»**، وفي سنده رجل مبهم ولا يضرّ هنا.

[٢٤٨] وعنه كرّم الله وجهه قال: جَهَّزَ رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام في خَمِيلٍ، وقِرْبَةٍ، ووسادَةِ أَدَمٍ حَشْوُها إِذْخِرٌ.

رواه أحمد (١٤/١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٥٢)، والبيهقي في الدلائل (١٦١/٣) وسنده صحيح، وعطاء بن السائب لا يضرّ هنا؛ لأن حماد بن سلمة الراوي عنه هذا الحديث روى عنه قبل اختلاطه، وهو في نفسه ثقة.

[٢٤٩] وعنه أيضاً عليه السلام قال: كانت لي شارف من نَصِيبِي من المغنم يومَ بدر، وكان النبيّ ﷺ أعطاني مِمَّا أفاءَ الله عليه من الخُمُس يومئذ، فلمّا أردت أن أبْتَنِي بفاطمة عليها السلام بنتِ النبيّ ﷺ واعَدتُ

رجلاً صَوّاغاً من بني قينُقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به في وليمة عرسي، فبينما أنا أجمع لشارفي من الأقتاب، والغرائر، والحبال، وشارفاي مُناخَتَانِ إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارِفَيَّ قد أُجِبَّتْ أسْنِمَتُهما وبُقِرَتْ خَواصِرُهما، وأُخِذَ من أكبادِهما فلم أملك عيني حين رأيت المنظر، فقلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت، وهو في شِرْب من الأنصار، وعنده قَيْنَتُه وأصحابه، فقالت في غنائها: «ألا يا حمزة للشُرُف النواءِ». فوثب حمزة إلى السيف فأجَبَّ أسنمتهما، وبَقَرَ خواصرهما وأخذ من أكبادهما. قال عليّ: فانطلقت حتى أدخل على النبيّ ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف النبيّ ﷺ الذي لقيتُ، فقال: «ما لك؟» فقلت: يا رسول الله ما رأيت كاليوم عَدا حمزةُ على ناقتي، فأجَبَّ أسْنِمَتَهما وبَقَر خواصرهما وها هوذا في البيت معه شِرْبٌ، فدعا النبيّ ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه فأذن له فطفق النبيّ ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثَمِلٌ مُحْمَرَّةٌ عيناه، فنظر حمزةُ إلى النبيّ ﷺ ثم صَعَّد النظر، فنظر إلى ركبتيه ثم صعَّد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال حمزة: وهل أنتُم إلا عبيدٌ لأبي، فعرف النبيّ ﷺ أنه ثَمِلٌ، فنَكَصَ رسولُ الله ﷺ على عقِبَيْه القَهْقَرَى فخرج وخرجنا معه.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤٠٠٣) (ج ٣١٨/٨، ٣١٩) وفي مواضع، ومسلم في الأشربة رقم (١٩٧٩) (ج ١٤٣/١٣، ١٤٤).

قوله: «أفحمت» أي: سكت. وقوله: «جهز» أي: هيّأ لها وبعثها في هذه الأشياء المذكورة. وقوله: «خميلة» أي: حصير. وقوله: «وسادة أدم» أي: جلد. وقوله: «دِرعُك الحُطَمِيّة» هي الدّرع العريضة الثقيلة التي تَكْسِرُ السيوف. قوله: «الشارف» هو الجمل. قوله: «أُجِبّتْ أسنمتهما» أي: قطعت. وقوله: «في شرب» بكسر الشين أي: في قوم مجتمعين على الشراب. وقوله: «قينته» أي مغنيته. وقوله: «ثَمِلٌ» أي: أثر فيه الشراب.

كان زواج الإمام علي بمولاتنا فاطمة عليهما السلام بعد غزوة بدر،

وكان عمرها نحواً من ستة عشر أو سبعة عشر عاماً إذ ولادتها كانت قبل البعثة بقليل بنحو سنة أو أكثر، وكانت أسنّ من مولاتنا عائشة بنحو خمس سنين.

أما الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه، فكان عمره عند الزواج نحواً من أربع وعشرين سنة وأشهر، وكانت ولادته قبل بعثة النبيّ ﷺ بعشر سنوات.

وفي هذه الأحاديث فوائد وأحكام نجملها في الآتي:

منها: أن مولاتنا فاطمة عليها السلام كانت مرغوباً فيها قد خُطِبت من النبيّ ﷺ قبل الإمام عليّ عليه السلام، ومنها جواز خطبة الرجل البنت من أبيها مباشرة، وأنه لا غضاضة في ذلك ولا لوم على الجانبين، وفيها أن النبيّ ﷺ زوّج السيدة فاطمة بدون استئذان، وقد قدمنا في النكاح أن للأب أن يزوّج ابنته الصغيرة بدون أن يستشيرها، وأن ذلك هو قول عامّة العلماء. وفيها أن الصداق ليس له حدّ، وأنه يصحّ بكل ما ينتفع به سواء كان نقداً أم أثاثاً أم بضاعة... وفيها أن الصداق شرط في البناء وأن الزوجة لا تحلّ للزوج إلا إذا دفع إليها مهرها؛ لقوله ﷺ للإمام عليّ: **«قد زوّجتكها فابعث بها - أي الدّرع - إليها بها فاستحلها»**... وفي المسألة خلاف بين الفقهاء.

وفيها جواز تزويج الفقير ولا خلاف في ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، والعِبْرة في ذلك بالدين. وفيها بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ وأهل بيته من الزهد في الحياة وعدم الاهتمام بالدنيا وزينتها وزخارفها ومتاعها يدلّ على ذلك تجهيزه لابنته العروس في أُمور بسيطة جداً: حصير عادي نباتي يَجْلِسان ويَنامان عليه، وقِرْبَة مُعدّة للماء لشربهما... ووسادة يَتوسّدانِها عند النوم، وهي من الجلد المدبوغ محشُوّة بأوراق شجر الإذْخِر، هذا هو جهاز عرس سيدة نساء أهل الجنّة وابنة سيد العالمين ﷺ، فلنعتبر وليعتبر نساؤنا بذلك، ولنعلم أننا بعيدون عن هدي

النبيّ ﷺ وهدي أهل بيته، وأن من ادّعى السلفية منّا فهو مدّعي مغرور.

وفي حديث عليّ الأخير في قصة الشارفين دليل واضح على أن الصحابة رغم إسلامهم ومهاجرتهم وحضورهم أعظم غزوة في الإسلام كانوا لا تزال فيهم بقيّة من بقايا الجاهلية لم تحرم بعد، وهي الاجتماع على شرب الخمر وسماع أغاني القينات، فهذا سيّدنا حمزة وهو سيّد الشهداء وأسَدُ هذه الأمّة يجتمع في بيت مع الأنصار على شرب الخمر ومعهم قَيْنَةٌ تُغَنّيهم، الله أكبر، البشر هو البشر طبيعته واحدة، مجبولٌ على حبِّ الشهوات وسماع الأغاني والتمتّع بالنساء وشرب الكؤوس... غفرانك ربّنا وعفوك.

وما فعله سيدنا حمزة من قطع أسنمة الشارفين وبقر خواصرهما كان في حالة غيبوبة من السكر ولم يرد شيء يدلّ على أن النبيّ ﷺ ضمّنه الشارفين ولا أمَرَه بشيء، وقد يقال: إن هذا كان قبل أن تأتي الأحكام، وقد أجمع العلماء على أن ما أتلفه السكران من الأموال يلزمُه ضمانُه كالمجنون مثلاً؛ لأن الضمان كما قال العلماء لا يُشترط فيه التكليفُ، ولذلك أوجب الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم في قتل الخطأ الدّية والكفّارة، وقد قال بعض فقهاء المالكية:

لاَ يَلْزَمُ السَّكْرانَ إقْرارُ عُقُودْ بَلْ مَا جَنَى عِتْق طَلاَقٌ وحُدُودْ

***

❁ أحداث السنة الثانية

كان فيها غزوة بُواط، والعُشَيْرَة، وغزوة بدر الأُولى، وسرية عبدالله بن جَحْش، وتحويل القبلة، وفرضية صوم رمضان، ثم غزوة بدر الكبرى وأحداثها ووقائعها وما يتبعها، ثم غزوة بني قينقاع، وغزوة السويق، وزواج الإمام عليّ بمولاتنا فاطمة عليهما السلام... وفيها شُرِعَتْ زكاةُ الأموال وزكاة الفطر، وصلاة العيد.

***

❁ السنة الثالثة
مقتل كَعْب بن الأشْرَف

[٢٥٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لِكَعْبِ بن الأَشْرَف؟ فإنَّه قَدْ آذَى اللهَ ورسولَه»، فقام مُحمّد بن مَسْلَمة فقال: يا رسول الله أتُحِبُّ أن أقْتُلَه؟ قال: «نعم»، قال: فأْذَنْ لي يا رسولَ الله أن أقول شيئاً، قال: «قل»، فأتاه محمد بن مسلمة قال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّه، قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أيّ شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، فقال: نعم، ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: ارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحدُهم، فيقال: رُهِنَ بوسق أو وسقين هذا عارٌ علينا، ولكنا نرهنك اللأْمَة، قال سفيان: يعني السلاح، فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب بن الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرجُ هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة. وفي رواية: قالت: أسْمَعُ صوتاً كأنه يَقْطُر منه الدَّمُ، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريمَ لو دُعِيَ إلى طَعْنَةٍ بليل لأجاب. قال: ويُدْخِل محمد بن مسلمة معه رجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائلٌ بشعره فأشُمه ثم أُشِمُّكُم، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليهم مُتَوشّحاً وهو ينفُح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً، أي: أطيب، قال: عندي أعطر نساء العرب وأكملُ العرب، فقال: أتأذنُ لي أن أشَمّ رأسك؟ قال: نعم، فشمّه ثم أشَمَّ أصحابَه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم، فلمّا استمكن منه قال: دونكم فقتلوه ثم أتوا النبيّ ﷺ فأخبروه.

رواه البخاري في المغازي (٣٣٩/٨، ٣٤٢) وفي الجهاد، ومسلم في

الجهاد والسِّيَر (١٢/١٦٠، ١٦١)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٦٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/١٩٥، ١٩٦)، وانظر ابن سعد (٢/٣١، ٣٤)، وابن هشام (٣/١٢، ١٣).

[٢٥١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مشى رسول الله ﷺ إلى بَقيع الغَرْقَد ثم وجَّههم، وقال: «**انطلقوا على اسم الله**»، وقال: «**اللَّهمّ أعِنهم**»، يعني النَّفَر الذين وجَّههم إلى كعب بن الأشرف.

رواه أحمد (١/٢٦٦) بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (٦/١٩٦) برواية أحمد والبزار والطبراني، والحديث حسّنه الحافظ.

[٢٥٢] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يَهْجُو رسولَ الله ﷺ ويُحَرّضُ عليه كفارَ قريش في شِعْره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلُها أخلاطٌ منهم المسلمون الذين تجمعهُم دعوة رسول الله ﷺ ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود وهم أهل الحَلْقة والحُصُون، وهم حُلفاء لِلْحَيَّيْنِ الأَوْس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحَهم كلَّهم، وكان الرجل يكون مسلماً، وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذُون رسول الله ﷺ وأصحابَه أشدَّ الأذَى، فأمر الله تعالى رسولَه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا﴾.

وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

فلما أبَى كعب بن الأشرف أن ينزعَ عن أذى رسول الله ﷺ وأذى المسلمين وأمر رسولُ الله ﷺ سعدَ بن معاذ أن يبعثَ رَهْطاً ليقتلوه، فبعث إليه سَعْد... الحديث بنحو ما سبق عن جابر.

رواه أبو داود في الخراج (٣٠٠٠)، قال الهيثمي (١٩٥/٦، ١٩٦) بعد أن عزاه لأحمد: ورجاله رجال الصحيح، ولم نجده في مسند كعب من (ج ٣ وج ٦) من المسند.

قوله: «مَن لكعب» أي: من الذي ينتدب لقتله ويريحنا منه، وقوله: «عنَّانا» بتشديد النون الأولى أي: أتعبنا. قوله: «لتَمَلُّنّه» بفتح التاء والميم وضم اللام المشددة بعدها نون توكيد أي: لتسأمُنَّ منه. قوله: «ارهنوني» أي: ادفعوا إليّ شيئاً في مقابلة ما تريدون من التمر رهناً. وقوله: «وأنت أجمل العرب» يريد بذلك أن النساء يفتتن بك إذا أبصرنك. قوله: «اللأْمَة» بتشديد اللام وسكون الهمزة يعني آلة الحرب. قوله: «استمكنت» أي: تمكّنت من أخذ رأسه. قوله: «فدونكم» أي: فخذوه. قوله: «متوشّحاً» أي: ملتحفاً ومتغشياً في ثوبه أو متوشّحاً بسيفه حاملاً له. قوله عندي «أعطر» أي: أكثر نساء العرب استعمالاً للعطورات وأجمعهن لها. قوله: «بقيع الغرقد» بفتح الغين ثم راء ساكنة وهي المَقْبَرةُ المعروفة بالمدينة المنوّرة.

كان كعب بن الأشرف مزيجاً في نسبه؛ كان أبوه عربياً من طيء، وكانت أمّه يهودية من بني النضير، وكان يهجو النبيّ ﷺ بشعره ويُؤذيه أشدّ الإذاية كما كان يُشَبِّبُ بنساء المسلمين، ويُحَرِّضُ كفار قريش على محاربة النبيّ ﷺ، وخاصة بعد وقعة بدر، فندَبَ النبيّ ﷺ من يقتله فانتدب إليه رجال من الأنصار يرأسهم البَطَلُ محمد بن مَسْلَمة رضي الله تعالى عنه، فذهبوا إليه واحتالوا عليه حتى خرج إليهم في ظلام الليل فقتلوه، كما فصّل في الحديث.

وفي هذه الأحاديث من الفوائد والأحكام: مشروعية قَتْل المحاربين والطاعنين في الدّين ومقدّساته ولو غيلة كما يفعله الفدائيّون اليوم، كما فيها جواز التظاهر بالكفر والطّعن في الإسلام إذا كان ذلك يعود على الإسلام والمسلمين بمصلحة أكيدة، فإن محمد بن مسلمة تكلّم في النبيّ ﷺ بالسوء، وكان ذلك بإذن منه عليه الصّلاة والسّلام.

وفي حديث جابر مغامرة رائعة من محمد بن مسلمة ومن كان معه

تدلّ على شجاعتهم وبطولتهم، وبالتالي فناؤهم في محبّة الله ومحبّة رسوله ﷺ، وشدّة غيرتهم على مقدّسات الدين.

وفي حديث ابن عباس مشروعيّة تشييع المجاهدين والخروج معهم والدعاء لهم بالعون من الله عزّ وجلّ، وفي حديث أُبيّ بن كعب بيان منه لما كان عليه المجتمع بالمدينة بعد قدوم رسول الله ﷺ، وأنه كان خليطاً من المسلمين واليهود والوثنيّين مع ما كان بينهم من التحالف.

* * *

❋ تزوّج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر رضي الله تعالى عنهما

[٢٥٣] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: حين تأيّمَتْ حفصةُ بنت عُمر من خُنَيْس بن حُذافة السَّهْمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر، فتوفي في المدينة، فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعَرَضْتُ عليه حفصةَ بنتَ عُمر، قال: فقلتُ: إن شئتَ أنكحتُك حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثتُ ليال ثم لقيَنِي، فقال: قد بَدا لي أن لا أتزوّج يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصدّيق فقلت: إن شئتَ زوّجتُك حفصة بنت عمر، فصمتَ أبو بكر رضي الله تعالى عنه فلم يرجع إلي شيئاً، فكنتُ عليه أوجدَ مني على عثمان.

فلبثت ليالي ثم خطبها رسولُ الله ﷺ فأنكحتُها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلّك وجدتَ عليّ حين عرضْتَ عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم، قال: فإنه لم يَمْنَعْنِي أن أرْجِعْ إليك فيما عرضتَ عليّ إلاّ أنّي كنت علمتُ أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأُفْشِي سِرّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتُها.

رواه أحمد رقم (٧٤) (ج ١/١٢)، والبخاري في النكاح (١١/٨٠، ٨١، ٨٢)، وتقدم فيه رقم (٧٨٤).

كانت سيّدتنا حفصة رضي الله تعالى عنها تحت خُنَيْس بن حذافة فتوفي عنها بعد وقعة بدر بالمدينة، كما رجحه جماعة كابن سعد وابن سيّد الناس ورجحه الحافظ أيضاً في الفتح، أما في الإصابة فرجح أن خنيساً قُتل بأحد، وعلى أيٍّ فإنها تأيّمَتْ فتزوَّجها النبيُّ ﷺ أوائلَ السنة الثالثة وقَضَتْ معه حياته إلى أن تُوفي عنها كباقي نسائه، وقد قدمنا في الطلاق أنه ﷺ كان قد طلّقها، فأمره الله بإرجاعها، وقال له: إنها صوّامةٌ قوّامةٌ، وزوجتك في الجنّة، وسيأتي بقية كلام عليها وعلى أُمّهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنّ، وفي الحديث فوائد وآداب تأتي في الأدب إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ تزوّج سيدنا عثمان بن عفان بام كلثوم بنت النبيّ ﷺ

تواترت الأخبار بأن سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه تزوّج رُقيّة بنتَ النبيّ ﷺ، فلما تُوُفِّيَتْ أيامَ بَدْرٍ زوَّجَه النبيُّ ﷺ أُخْتَها أمّ كلثُوم في ربيع الأول سنة ثلاث وماتت عنده في شعبان سنة تسع، وجاء في صحيح البخاري عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ على قبرها فرأيت عينيه تدمعان، الحديث تقدم في الجنائز.

* * *

❋ غزوة أُحد

تاريخ الوقعة وسببها

اتّفق علماء السيرة على أن هذه الغزوة كانت في شوال من السنة الثالثة، واختلفوا في اليوم، فذهب ابن سعد وآخرون إلى أنها كانت يوم السبت لسبع ليالٍ خلون من شوّال، وقال ابن إسحاق: كانت في النصف منه.

وذكروا في سببها أنّه لما أُصيب مَن أُصيب من المشركين ببدر ورجع منهمزموهم مشى بعض أشراف قريش ممن قتل آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان ومَنْ كانت له في تلك العير من قريش تجارة، وكانت قيمتها خمسين ألف دينار، فقالوا: يا معشر قريش، إنّ محمداً قد وَتَرَكُمْ وقَتَل خِيارَكُم فأعِينُونا بهذا المالِ على حَرْبه لعلّنا نُدْرِك منه ثأراً، ففعلوا.

فخرجوا في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم الأحابيش وهم حلفاؤهم من بني المُصْطَلِق وبني الهَوْن بن خزيمة، وخرج معهم أعراب كِنانة وتِهامة... ومعهم مائتا فرس، وثلاثةُ آلاف بعير، ومعهم القِيّان والدُّفُوف والمَعازِفُ والخمورُ، واصْطَحب أشرافُهم نساءَهم كَيْلا يَنْهَزِمُوا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا غَرْبيّ جَبل أُحد مقابلَ المدينة عند شمالها الغَرْبيّ.

ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ خبرُهم صلّى الجمعة واستشار الصحابة في الخروج إليهم أو البقاء بالمدينة، فأشار إليه الشيوخ بالبقاء، فإذا جاءوهم قاتلوهم، بينما الشبانُ أشاروا إليه بالخروج، فاختارَ رأيَ الشبان ثم حضّهم على القتال ورغّبهم في الجهاد والشهادة وأمَرَهُم بالصّبر وبشّرهم بالنصر إن هم صبروا، ثم خرج مساء يوم الجمعة وبات بالطريق ثم صلّى الصبح بأُحد قبالة جيش المشركين لجهة الشروق، وكان حاملَ لواء المهاجرين مُصْعَب بنُ عُمَيْر، ولواءَ الخزرج الحُبابُ بن المنذر، ولواء الأوْس أُسَيْد بن الحُضَيْر، وكان عدد جيشه ألفَ رجل رجع منهم ثلاثمائة من المنافقين وضعفاء الإيمان، وإلى القرّاء الميامن تفصيلَ الغزوة وأحداثها كما جاءت في الأحاديث الشريفة.

* * *

❊ رؤياه ﷺ في شأن أُحد وما سيحصل فيها ومشاورته أصحابه في الخروج وعدمه

[٢٥٤] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «رأيتُ في رؤيايَ أني هَزَزْتُ سيفاً فانقطع صَدْرُه، فإذا هو ما أُصِيبَ من

المؤمنين يومَ أُحد، ثم هَزَزْتُه أُخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً تُذْبَحُ والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أُحد».

رواه البخاري في المغازي باب من قتل من المسلمين يوم أُحد (٣٧٩/٨) وفي مواضع، ومسلم (٢٢٧٢)، وابن ماجه (٣٩٢١) كلاهما في الرؤيا، والدارمي (٢١٦٤) وغيرهم.

[٢٥٥] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيت كأنّي في دِرْعٍ حصينةٍ ورأيت بقراً منحرة، فأوّلت أن الدّرع الحصينة المدينة، وأن البقَر هو والله خير»**، قال: فقال لأصحابه: **«لو أنّا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم»**؟ فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدْخَلُ علينا فيها في الإسلام، فقال: **«شأنكم إذاً»**، فلبس لأمَتَهُ، قال: فقالت الأنصار: رَدَدْنا على رسول الله ﷺ رَأْيَهُ، فجاءوا فقالوا: يا نبيّ الله شأنَك إذاً، فقال: **«إنّه لا ينبغي لنبيّ إذا لَبِس لأمَته أن يضعها حتى يُقاتل»**.

رواه أحمد (٣٥١/٣)، والدارمي (٢١٦٥) بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (١٠٧/٦) برواية أحمد وقال: رجاله رجال الصحيح وصححه الحافظ في الفتح أيضاً.

وعلّق البخاري بعضه في الاعتصام (١٠٣/١٧، ١٠٤) فقال: وشاور النبيّ ﷺ أصحابه يوم أُحد في المُقام والخُرُوج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم وقال: **«لا ينبغي لنبيّ يَلْبَسُ لأمَتَه فيضعُها حتى يحكمَ الله بينه وبين عدوّه»**.

[٢٥٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تَنَفَّلَ رسولُ الله ﷺ سَيْفَه ذا الفِقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحد، فقال: **«رأيت في سيفي ذي الفقار فلاً، فأوّلته فَلاً يكونُ فيكم، أي انهزاماً، ورأيت أني مُرْدِفٌ كَبْشاً فأوّلته كبش الكَتِيبَة، ورأيت أني في دِرْع**

حَصِينةٍ فأوّلتُها المدينةَ، ورأيت بقراً تُذْبَح فبقَرٌ والله خيرٌ فبقر والله خير»، فكان الذي قال رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٢٧١/١)، والترمذي في السِّيَر رقم (١٤٣١) بتهذيبي، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠٨)، والحاكم (١٢٨/٢، ٢٢١) وصححه ووافقه الذهبي وحسَّنه الترمذي والحافظ في الفتح.

قوله: «لأمَتَه» بفتح اللام وسكون الهمزة وفتح الميم هي آلة الحرب من درع ومغفر... وقوله: «ذا الفقار» بكسر الفاء سمّي بذلك لأنه كانت فيه حُفَرٌ حِسانٌ صغار. وقوله: «فَلاًّ» بفتح الفاء أي: ثلماً.

في هذه الأحاديث فوائد وأحكام:

منها: مشروعية مشاورة الخليفة أو نائبه... ذوي الرأي والخبرة والعلم في الشؤون السياسية وغيرها، ثم يختار ما يراه. ومنها: أنه كان من رأي النبيّ ﷺ البقاء بالمدينة، فإذا هاجمهم الكفار قاتلوهم ولكنه وافق رأيَ من رأى الخروج من الشباب، فخرج.

ومنها: أنه كان ﷺ إذا لبس آلته الحربية لا يرجع حتى يقضي الله أمره بينه وبين عدوّه. ومنها: تأدّب الصحابة معه ﷺ وندمهم على ما حَمَلُوه عليه من الخروج ونزولهم عن رأيهم الذي رأوه واعتذارهم إليه، ومنها: بيان أن سيفه الذي كان عنده بعد بدر كان قد أخذه من نصيبه بغنائم بدر، ومنها: وهي من الأهمية بمكان رؤياه تلك الرؤيا التي أطلعه الله فيها على ما سيؤول أمر أصحابه إليه في هذه الغزوة، فرأى أنه في دِرْع حصينة بمعنى أن صاحبها لا يوصل إليه، فعبّر ذلك بالمدينة وأنها محفوظةٌ بحفظ الله لا يصل إليها أعداؤه، كما رأى بقراً تُنْحَرُ وتُذْبَحُ فعبّر ذلك بما سيقتل من أصحابه، ورأى في سيفه ذي الفِقار فَلاًّ وثَلْماً أي انكسر منه شيء، فأوّل ذلك بهزيمة تقع منهم، كما رأى أنه هزّ سيفاً فانقطع صدره فأوّل ذلك بما حصل من الهزيمة ثم هزّه فعاد أحسن ما كان، فأوّله بما وقع من الفتح أخيراً واجتماع المؤمنين. ورأى أنه مُرْدِفٌ كبشاً، فأوّل

ذلك بأنه سيقتل كَبْش الكَتِيبَة وهو طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين، فهذه الرؤيا العظيمة كانت إخباراً من الله عزّ وجلّ بما سيحصل في تلك الغزوة، ورؤيا الأنبياء من أنواع الوحي وقد صدق الله هذه الرؤيا، فوقع كل ذلك كما رأى ﷺ، وفي تعبيره ﷺ لهذه الرؤيا إرشاد لمعرفة بعض أصول التعبير وقواعده، وقد قدّمنا ما يتعلق بذلك فيما سبق.

* * *

استعداده ﷺ بلبس درعين من حديد

[٢٥٧] عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: إن النبيّ ﷺ يومَ أُحُدٍ أَخَذَ دِرْعَيْنِ كأنه ظاهَر بَيْنَهُما.

رواه أبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، قال البوصيري: إسناده صحيح على شرط البخاري.

[٢٥٨] وعن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين ذهب لِيَنْهَضَ إلى الصخرة، وكان رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين فلم يستطع أن ينهض...

رواه الحاكم (٣/٢٥) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

ونحوه عن رجل من بني تَيْم وطلحة بن عبدالله وسعد بن أبي وقاص، وعن النعمان بن بشير، انظرها معزوّة مبيّنة رُتَبُها في المجمع (٦/١٠٩).

وفي هذه الأحاديث مشروعيّة الأخذ بالأسباب والتحفّظ من الأعداء، وإن كان الإنسان متيقّناً بالنصر والحفظ من الأعداء، واتّخاذ الأسباب لا ينافي التوكّل على الله عزّ وجلّ: «إعقلها وتوكل».

* * *

❋ من ردّه النبيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ مِن الأطفال

[٢٥٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن رسول الله ﷺ عَرَضَنِي يوم أُحُدٍ وأنا ابنُ أربَعَ عَشْرَة سَنة فلم يُجِزْني، وعَرَضَنِي يومَ الخندق وأنا ابن خَمْسَ عَشْرَة سنة فأجازني.

رواه أحمد (١٧/٢)، والبخاري في المغازي (٣٩٦/٨)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٨)، وأبو داود (٢٩٥٧، ٤٤٠٦)، والترمذي (١٢٣٢، ١٥٦٩)، وابن ماجه (٢٥٤٣) وغيرهم.

وفي الحديث مشروعية عرض الجيش على قائِدِهِ ليطّلع على من يلزمه الخروج ومن لا، وأن الأطفال لا يُسمح لهم بالخروج إلى الغزو لصغرهم وضعفهم، فإذا بلغوا الحُلم وظهرت منهم بوادر القوّة. . . أُذِنَ لهم في ذلك، وقد ردَّ في هذه الغزوة جماعة من الأطفال مع عبدالله بن عمر كالبراء بن عازب، وأبي سعيد الخدري، وسعد بن خيثمة، وزيد بن جارية وزيد بن أرقم، انظر مجمع الزوائد (١٠٨/٦).

❋ ❋ ❋

❋ خذلان عبدالله بن أبي رسول الله ﷺ، ورجوعه من الطّريق بنحو من ثلاثمائة نفر من المنافقين

[٢٦٠] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أُحُد رجع ناسٌ ممن خرج معه، وكان أصحاب رسول الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فرقةٌ تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، وقال ﷺ: «إنّها طَيْبَةُ تَنفِي الخَبَثَ كما تَنفِي النارُ خَبَثَ الفضة».

رواه أحمد (١٨٤/٥، ١٨٧)، والبخاري آخر الحجّ وفي التفسير (٣٢٥/٩)، ومسلم في الحجّ وفي صفات المنافقين (١٢٣/١٧)، والترمذي

(٢٨٣٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٥) كلاهما في التفسير.

قوله تعالى: ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أي: قلبهم وردّهم إلى الكفر، والركس نكس الشيء مقلوباً.

لمّا خرج ﷺ إلى أُحد، وكانت من أخطر الغزوات على المسلمين، خرج بـ ألف من أصحابه، فلمّا كانوا بين المدينة وأُحد انخذل ابنُ أُبَيّ ابنُ سلول، فرجع بثلث الناس من أصحابه المنافقين ومَنْ أطاعه أو اغترّ به من ضعفاء الإيمان، وقال: أطاعهم وعصاني ما نَدْرِي علامَ نَقْتُلُ أنفُسَنا هٰهُنا، واتّبعهم عبدالله بن حرام يقول: يا قوم لا تَخْذُلوا قومَكُم ونبيّكم عند من حضر من عدوّهم، فقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ الآية، فاختلف المسلمون في شأنهم ماذا يفعل بهم وقد خذلوا النبيّ ﷺ في وقتٍ كان في أشدّ الحاجة إلى من يؤازِرُه ويقاتِلُ معه، فقال بعض الصحابة: اقتلهم يا رسول الله، وقال آخرون بالعكس، فأنزل الله تعالى الآية في شأنهم، فقال لهم عزّ وجلّ: ما شأنكم أيها المؤمنون أصبحتم في شأن هؤلاء المنافقين فرقتين، والحال أنهم منافقون وقد نكسهم الله وردَّهم إلى كفرهم رأساً على عقب، أتريدون هِدَايَةَ من خذله الله وأضلَّه.

وكان إلى جانب هؤلاء المنافقين طائفتان من المؤمنين هَمَّتا بالفشل فثبّتهما الله عزّ وجلّ.

[٣٦١] فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سَلِمة وما يَسُرُّنِي أنّها لم تَنْزِلْ لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٦٠) وفي التفسير (٩/٣٩٣)، ومسلم في الفضائل ويأتي.

فلما رجع ابن سلول ومَن معه من المنافقين افترق بنو حارثة وبنو سَلمة وكادوا أن يلحقوا بالمنافقين ويجبُنُوا، فثَبَّتَهُما الله عزّ وجلّ وهداهما، فلم يرجع منهم أحد لصدقهم وإخلاصهم.

* * *

[٣٦٢] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل للنبيّ ﷺ يوم أُحد: أرأيتَ إن قُتِلْتُ فأين أنا؟ قال: **«في الجنة»**، فألْقَى تَمَراتٍ في يدِهِ ثم قاتل حتى قُتل.

رواه البخاري رقم (٤٠٤٦)، ومسلم رقم (١٨٩٩).

[٣٦٣] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسولَ الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أُحد، فقال: **«من يأخذ مني هذا؟»** فبسَطوا أيديَهم كلُّ إنسانٍ منهم يقول: أنا، أنا، قال: **«فمَن يأخذه بحقّه؟»** قال: فأحْجَمَ القومُ، فقال سِماكُ بن خَرَشَة أبو دُجانَة: أنا آخُذُه بحقّه، قال: فأخذه فَفَلَقَ به هامَ المشركين.

رواه مسلم رقم (٢٤٧٠) في الفضائل (ج ٢٤/١٦)، وهو عند أحمد (١٢٣/٣).

قوله: «فأحجم القوم» أي: كفّوا عمّا قالوا. وقوله: «هام المشركين» أي: رؤوسهم.

وجاء عن الزُّبير بأبسط من هذا.

[٣٦٤] فعنه رضي الله تعالى عنه قال: عرض رسول الله ﷺ سيفاً يوم أُحدٍ فقال: **«من يأخذ هذا السيف بحقّه»**، فقمت فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عني، ثم قال: **«من يأخذ هذا السيف بحقه؟»** فقمت فقلت: أنا يا رسول الله ثم قال الثالثة، فقام أبو دُجانَة سِماكُ بن خَرَشَة فقال: أنا آخُذُه يا رسول الله بحقّه، قال: **«ألاَّ تَقتُل به مسلماً ولا تُفَرِّبْه عن كافر»**، قال: فدفعه إليه وكان إذا أراد القتال أعلم بعصابة قال: لأنظرن إليه اليوم كيف يصنع؟ قال: فجعل لا يرتفع له شيءٌ إلا هتكه وأفْراهُ حتى انتهى إلى نِسْوَةٍ في سَفْح جبل معهن دفُوفٌ لهنّ فيهن امرأةٌ وهي تقول:

نَحنُ بناتُ طارِقْ ... نَمْشِي على النَّمارِقْ

إن تُـقْـبِـلُـوا نُـعَـانِـقْ ... ونَـبْـسُـطُ الـنَّـمَـارِقْ
إن تُـدْبِـرُوا نُـفَـارِق ... فِـراقَ غَـيْـرِ وامِـقْ

قال: فأهوى بالسيف إلى امرأة ليضربَها ثم كفَّ عنها، فلما انكشف القتال قلت له: كل عملِك قد رأيتُ ما خلا رَفْعَكَ السيفَ على المرأة، ثم لم تضربها، قال: إني والله أكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أقتل به امرأة.

رواه البزار (١٧٨٧)، والبيهقي في الدلائل (٢٣٣/٣) واللفظ له، وأورده النور في المجمع (١٠٩/٦) برواية البزار قال: ورجاله ثقات.

قولها: «وامق» أي: غير مُحبّ. وقصّة أبي دجانة تدلّ على شجاعته وشهامته وأنه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حيث وفَّى بما شرط عليه النبيّ ﷺ عند أخذه سيفَه فلم يقتلْ به مسلماً، وإنما فلق به رؤوس المشركين وأفْرَى دِماءَهم ونزَّهَه عن قتل امرأة...

[٣٦٥] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول يوم أُحد: **«اللّهمّ إنك إن تشأ لا تُعْبَدُ في الأرض»**.

رواه مسلم رقم (١٧٤٣) وتقدم نحوه في بدر.

* * *

كيف هيّا النبيّ ﷺ الجيش وسواه، وبداية المعركة وما حصل أولها من النصر ثم الهزيمة، وما وقع وقيل في ذلك

[٣٦٦] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: جعل رسول الله ﷺ على الرُّماةِ يومَ أُحُدٍ وكانوا خمسين رجلاً عبدَالله بن جُبَيْر، قال: ووضعهم مكاناً وقال لهم: **«إن رأيتُمونا تخطِفُنا الطير فلا تَبْرَحُوا من مكانكم هذا حتى أُرْسِلَ إليكم، فإن رأيتُمونا هَزَمْنا القَوْمَ وأوْطَأْنَاهم فلا تَبْرَحوا حتى أُرْسِلَ إليكم»**، قال: وسار رسول الله ﷺ ومَن معه، قال:

فهزمهم، قال: فأنا والله رأيتُ النساء يَشْدُدْنَ على الجبل بَدَتْ خلاخلُهنَّ وأسْوُقُهُنَّ رافعات ثيابهنّ، فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، قد ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال عبدالله بن جبير: أنَسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لنأتِيَنَّ الناس فنصيبنَّ مِن الغنيمة، فلما أتَوْهم صُرفتْ وجوهُهم فأقبلوا منهزمين، فذاك حيث يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غيرُ اثْنَيْ عَشَرَ رجُلاً فأصابوا منّا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً.

فقال أبو سفيان: أفي القوم محمّد؟ ثلاث مرات، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يُجِيبُوه، ثم قال: أفي القوم ابنُ أبي قُحافة؟ ثلاث مرات، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قُتِلُوا فما مَلَك عمر نفسه فقال: كذبتَ والله يا عدوَّ الله إن الذين عددتَ لأحياءٌ كلّهم، وقد بقي لك ما يسوءك، فقال: يوم بيوم بدر والحربُ سِجالٌ، إنكم سترون في القوم مُثْلةً لم آمُرْ بها ولم تَسُؤْني، ثم أخذ يرتجز: اعْلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «**ألاَ تُجِيبُوه**»؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعْلى وأجلّ**»، قال: إن لنا العزّى ولا عزّى لكم، قال رسول الله ﷺ: «**ألا تُجيبُوه؟**» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**».

رواه أحمد (٢٩٣/٤، ٢٩٤)، والبخاري في الجهاد وفي المغازي (٣٦٧/٨) وفي التفسير (٢٩٥/٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٣١٥/٦)، ونحوه عن ابن عباس رواه أحمد (٢٨٧/١، ٢٨٨)، والحاكم (٢٩٦/٢، ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبي.

[٣٦٧] وعن الزبير رضي الله تعالى عنه نحوه بزيادات، ولفظه قال: والله إني لأنظر يومئذ إلى خَدَم النساء مُشَمِّراتٍ يَسْعَيْنَ حين انهزم القوم، وما أرى دون أخذهنّ شيئاً وإنّا لنحسِبُهم قتلى ما يرجعُ إلينا منهم أحدٌ، ولقد أصِيبَ أصحابُ اللواء وصبروا عنده حى صار إلى عَبْدٍ لهم حَبَشِيّ

يقال له صواب، ثم قتل صواب فطرح اللواء فلم يقربه أحد من خلق الله حتى وثبتْ إليه عمرةُ بنت علقمة الحارثية فرفعتْه لهم وثاب إليه الناس، قال الزبير: فوالله إنا لكذلك قد علوناهم وظهرنا عليهم إذ خالفتْ الرماةُ عن أمر رسول الله ﷺ فجعلوا يأخذون الأمتعة، فأتَتْنا الخيل فحطَّمتنا وكَرَّ الناسُ منهزمين، فصَرَخَ صارخٌ يَرَوْنَ أنه الشيطانُ ألاَ إن محمداً قد قتل فأعْظَمَ الناسُ وركبَ بعضُهم بعضاً، فصاروا أثلاثاً: ثلثاً جريحاً، وثلثاً قتيلاً، وثلثاً منهزماً قد بلغت الحرب، وقد كانت الرماة اختلفوا فيما بينهم، فقالت طائفةٌ - ورأوا الناس وقعوا في الغنائم وقد هزم الله المشركين وأخذ المسلمون الغنائم -: فماذا تنتظرون؟ وقالت طائفة: قد تقدم إليكم رسول الله ﷺ ونهاكم أن تفارقوا مكانكم إن كانت عليه أوله، فتنازعوا في ذلك، ثم إن الطائفة الأُولى من الرماة أبت أن تلحق بالعسكر فتفرّق القوم وتركوا مكانهم، فعند ذلك حملت خيل المشركين.

أورده الحافظ في المطالب العالية برواية إسحاق بن راهويه في مسنده، وقال: هذا إسناد صحيح انظر رقم (٤٣١٣)، ورواه ابن إسحاق باختصار كما عند ابن هشام وسنده صحيح.

[٢٦٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: هُزِمَ المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أيْ عبادَ الله أُخْراكُم، فرجعتْ أولاهم فاجْتَلَدَتْ هي وأُخْراهُم، فنظر حذيفة بن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي أبي، قالت: فوالله ما انحجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، وفي رواية: وقد كان انهزم منهم قوم حتى لحقوا بالطائف.

رواه البخاري في المغازي باب إذ همّت طائفتان منكما... إلخ، وفي بدء الخلق وفي الفضائل.

في هذه الأحاديث بيان وتفصيل لما وقع في هذه المعركة ويتّضح ذلك في الآتي:

أولاً: كان النبيّ ﷺ قد رتّب أمور الجيش وأنزل كلاً ما يناسبه وصَفَّهم وجعل فيهم مَيْمَنةً ومَيْسَرة، وجعل أُحُداً خلفه، واستقبل المدينة

وجعل على جبل الرماة خمسين رامياً وأمَّر عليهم عبدَالله بن جُبَيْر لِيَحْمُوا ظَهْرَهُم عند الاشتباك وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء انتصر الصحابة أم هُزِموا.

ثانياً: كان قد وقع الانتصار للصحابة في البداية وانهزم المشركون بقتل أصحاب لوائهم واحداً تلو الآخر حتى بقي لا يقدر أحد على تناوله، وحملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات، وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنّبال فيتقهقرون، ورغم أن نساءهم كنّ يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف رجالهم انهزم الجميع وولّوا الأدبار، ونساؤهم يبكين ويولولن حتى صعدن الجبل كاشفات ثيابهن عن أسوقهنّ، وجعل المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب.

ثالثاً: وفي هذا المشهد وقد رآى الرماة الصحابة يجمعون الغنائم تركوا مركزهم ونزلوا ليشاركوا في أخذ الغنيمة الصحابة ولم يبقَ على الجبل إلا عشرة نفر، فلما رأى ذلك خيّالة المشركين وكان فيهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل جاءوا إلى البقية من الرماة من الوراء فقتلوهم ثم هبطوا للميدان وأتوا الصحابة المشتغلين بالغنائم، فصاروا يقتلون ويضربون فيهم ووقع لهم ارتباك ودهش فوقعت الهزيمة وجعلوا يفرّون، وفي هذه الأثناء قُتِل سبعونَ رجلاً أكثرُهم من الأنصار.

رابعاً: كان الذي نبّه الكفار والخيّالة بعد هزيمتهم هو الشيطان حيث صرخ بأعْلَى صوته وقال لهم: أي عباد الله أُخراكم، فنظروا فرأوا الجبل خالياً من الرماة، فأتوهم من الوراء.

خامساً: فيما قاله أبو سفيان بعد أن نادى بأسماء النبيّ ﷺ وصاحبيه إعجاب وزهو بما حصل لهم، وكان ذلك من نخوة جاهليّتهم وكبريائها، وفيما أجابوه بما لقّنهم النبيّ ﷺ اعتزاز بالله عزّ وجلّ بأنه نِعْم المولى لهم ونِعْم النصير، فهو الأجلّ الأعلى الأعظم، وما اغترّ به أبو سفيان وجماعته من الأصنام والأوثان هي الأدنى والأذلّ والأخزى.

سادساً: بعد تلك المحنة التي وقعت للصحابة أصبحوا فرقاً ثلاثة:

فرقة قتلى وكانوا سبعين رجلاً وكان فيهم حمزة بن عبدالمطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جبير في آخرين. وفرقة جرحى، وفرقة منهزمون وفيهم من فرّ إلى المدينة ولم يبقَ صامداً أمام العدوّ إلا النبيّ ﷺ واثنا عشر رجلاً كان منهم الخلفاء الثلاثة: الصدّيق والفاروق والإمام عليّ في آخرين رضي الله تعالى عنهم، وهٰهنا جعل الرسول يدعو المنهزمين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ الآية، كما يأتي.

* * *

❋ مشاهد مختلفة من المعركة
رجلان يدعوان فيستجاب لهما

---

[٣٦٩] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: أن عبدَالله بن جَحْشٍ قال له يوم أُحد: ألاَ تَدْعُو الله تعالى، فَخَلَوا في ناحيةٍ فدعا سعد فقال: يا ربّ إذا لقيتُ العدُوّ فلقِّنِي رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حَرْدُه، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزُقْني الظَّفَرَ عليه حتى أقتلَه وآخذَ سلبَه، فأمن عبدُ الله بن جحش. ثم قال: اللّهمّ ارزقني رجلاً شديداً حرده شديداً بأسُه أُقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيَجْدَعُ أنفي وأُذُني، فإذا لقيتك غداً قلتَ: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: يا بني كانت دعوة عبدالله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلّقان في خيط.

رواه ابن سعد (٦٣/٣)، والحاكم (١٩٩/٣) وصححه على شرطهما لولا إرساله، ووافقه الذهبي، وأورده النور في المجمع (٣٠١/٩، ٣٠٢) برواية الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح ورواه البيهقي في الكبرى (٣٠٧/٦، ٣٠٨) متّصلاً.

لقد دعا هذان الصحابيان الجليلان بدعوتيهما بصدق وإخلاص

فاستجاب الله لهما، وكانت دعوة عبدالله بن جحش أجلّ وأفضل، وفي كلٍّ خير رضي الله تعالى عنهما.

* * *

أنس بن النضر وشجاعته وشهادته

[٢٧٠] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: غاب عَمّي أنسُ بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لَئِن الله أشْهَدَنِي قتالَ المشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع، فلما كان يومُ أُحد وانكشفَ المسلمون فقال: اللّهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبْرَأُ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعدُ بنُ معاذ فقال: يا سعدُ بن معاذ الجنّة وربّ النضر إني أجد ريحها مِن دُونِ أُحُدٍ، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بِضْعَةً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثَّل به المشركون، فما عرفَه أحدٌ إلا أُختُه وهي الرُّبَيِّع بنت النضر بشامَةٍ أو ببَنانِهِ، قال أنس: كنا نَرى أو نظنّ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٣٦)، ومسلم في الإمارة (١٣/٤٧، ٤٨)، والترمذي (٢٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٣٠)، وابن جرير (٢١/١٤٦، ١٤٧)، ورواه البخاري أيضاً في المغازي وفي الجهاد.

في الحديث شجاعة هذا الصحابي وصدقُه وقوّةُ إيمانه وشدّة بأسه وتجلُّده وصبرُه على ضربات السيوف وطعَنَاتِ الرماح وآلام النّبال، بِضعٌ وثمانون ضربة وطعنة وهو صامدٌ يقاتل لم يسقط للأرض حتى استشهد رضي الله تعالى عنه، ومن هو هذا الصحابي!؟ هذا هو الرجل الذي جاء فيه قوله ﷺ: «إنَّ مِنْ عبادِ الله مَنْ لو أقْسَم على اللهِ لأبَرّه»، كما يأتي في الفضائل.

* * *

❊ استشهاد سعد بن الربيع وبه سبعون ضربة

[٢٧٦] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: «**إن رأيته فأقرئهُ مِنّي السلامَ وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تَجِدُكَ؟**» قال: فجعلتُ أطوف بين القتلى فأَصَبْتُه وهو في آخر رَمَقٍ وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تَجِدُكَ؟ قال: على رسول الله ﷺ وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عُذْرَ لكم عند الله تعالى إنْ خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم شُفْرٌ يَطْرُفُ وفاضت نفسُه رحمه الله تعالى.

رواه الحاكم (٣/٢٠١) وصححه ووافقه الذهبي وله شواهد عن عبدالرحمٰن بن أبي صعصعة، رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام والطبري (٥٢٨/٢)، والحاكم (٣/٢٠١)، والبيهقي في الدلائل بسند صحيح مع إرساله، وعن عمرو بن يحيىٰ المازني رواه إسحاق بن راهويه كما في المطالب العالية وسنده صحيح أيضاً، وعن يحيىٰ بن سعيد رواه مالك في الموطأ وابن سعد (٣/٥٢٣) وهو صحيح أيضاً، فالحديث صحيح خلافاً لمن ضعّفه.

قوله: «شُفْرٌ تطرف» هو بضم الشين وسكون الفاء واحد أشفار العين وهي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر.

هذا بطل آخر من الصحابة الأنصار أحد النقباء الاثني عشر استشهد بعد صبر جميل وصمود أمام أبطال الشّرك وعَبَدة الأوثان لم يثخنوه ويسقطوه إلى الأرض حتى أصيب بسبعين ضربة من ضربات السيوف والرماح والنّبال، وقد افتقده النبيّ ﷺ وبعث من يبحث عنه ويبلغه سلامه فيوجد في آخر رمق من حياته، فيردّ السلام على النبيّ ﷺ ويوصي قومه به ﷺ.

❊ ❊ ❊

❋ قتيل شهيد تغسله الملائكة

[٢٧٢] عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ عند قتل حَنْظَلة بن أبِي عامِر بعد أن التقى هو وأبو سفيان حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ صَاحِبَكُم تُغَسِّلُهُ الملائكةُ فاسألوا صاحِبَتَهُ»، فقالت: إنه خرج لما سمع الهائِعَة وهو جُنُبٌ، فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غسَّلَته الملائكة».

رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٢٠٤/٣، ٢٠٥)، والبيهقي في الجنائز من الكبرى (١٥/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وأورده الهيثمي في المجمع (٢٢٣/٣) برواية الطبراني وقال: إسناده حسن.

هذه مَزِيَّةٌ وخصيصة لهذا الصحابي لا تُعْرف لغيره حيث إنه استشهد وهو جُنُب، فتولّت الملائكة غسله ليلقى الله طاهراً ظاهراً وباطناً فهنيئاً له ولأصحابه الشهداء.

❋ ❋ ❋

❋ رجل استشهد ودخل الجنّة ولم يصلِّ قطّ

[٢٧٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ عَمْرو بن أُقَيْش كان له رِبًا في الجاهلية، فكره أن يُسْلِمَ حتى يأخذَه فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قال: بأحد، فلبس لأْمَتَه وركب فرسه ثم توجّه قِبَلَهُمْ، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنّا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً، فجاء سعد بن معاذ فقال لأُخته: سليه حَمِيَّةً لقومك أو غضباً لهم أم غضباً لله عزّ وجلّ؟ قال: بل غضباً لله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ، فمات فدخل الجنّة وما صلّى لله صلاة.

رواه أحمد (٤٢٨/٥، ٤٢٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٣٧) باب من

يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٧) بسند حسن، ورواه ابن إسحاق من طريق آخر ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٧) وسنده حسن كما قال الحافظ.

من سبقت له العناية لا تضرّه الجناية، فالأعمالُ بالخواتم؛ فهذا رجل تأخر إسلامه عن أهل عمومته، فلما جاء من سفره وسأل عن بني عمّه وأهل بيته أخبر بأنهم ذهبوا لأُحُد مع النبيّ ﷺ لقتال المشركين، فأخذته الغيرة على الإسلام فوفقه الله للإيمان، فآمن بينه وبين ربّه والتحق بالمسلمين، فقاتل معهم حتى قتل، فأخبر النبيّ ﷺ أصحابه بأنه دخل الجنّة.

وهذا يدلّ على إخلاصه وصدقه في إيمانه، ويدلّ على أن الإسلام يهدم كل ما كان للكافر من عقائد وأعمال سيّئة، وأنه يصبح بدخوله في الإسلام طاهراً من كل الذنوب، وهذا لا خلاف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ولقوله ﷺ لعمرو بن العاص: «**أمَا علِمْتَ أن الإسلام يَهْدِمُ ما قبله**»... رواه مسلم في الإيمان.

* * *

❊ عمرو بن الجموح وبشارته بالجنّة، وصحة رجله العرجاء

[٣٧٤] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: أتى عَمْرو بن الجَمُوح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيتَ إن قاتلت في سبيل الله حتى أُقْتَلَ أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنّة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمَرَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «**لكأنّي أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة**»، فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا في قبرٍ واحد.

رواه أحمد (٥/٢٩٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/٣١٥): رجاله رجال الصحيح غير يحيىٰ بن نصر الأنصاري وهو ثقة. أما الحافظ فاقتصر على تحسينه في الفتح.

هذا الصحابي كان له أربعة بنون مثل الأُسْد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أُحُد أرادوا حَبْسَ والدهم عن الخروج فأبى وخرج، وقال للنبيّ ﷺ: إني لأرجو أن أطأ بِعَرْجَتِي هذه في الجنّة، وكان شديد العرج، فقتل شهيداً، وقال له النبيّ ﷺ وهو قتيل: **«كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة»**، فقد صدقه الله ما رجا وتمنّى.

❋ ❋ ❋

❋ عبدالله بن حرام والد جابر تظلّله الملائكة ويكلّمه الله عزّ وجلّ كفاحاً

[٣٧٥] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: لما قُتِل أَبِي يوم أحد جعلتُ أكْشِفُ عن وجهه وأبكي، وجعل أصحابُ رسول الله ﷺ يَنْهَوْنَنِي وهو لا ينهاني، وجعلتْ عَمَّتِي تبكيه، فقال النبيّ ﷺ: **«تَبْكِيهِ أو لا تَبْكِيه ما زالت الملائكة تُظَلِّلُه بأَجْنِحَتِهَا حتى رفعتموه»**.

رواه البخاري في الجنائز (٣/٤٠٥، ٤٠٦)، وفي المغازي (٤٠٨٠)، ومسلم في الفضائل (٢٤٧١) وغيرهما، ويأتي في الفضائل.

[٣٧٦] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أُخبِرُك أن الله عزّ وجلّ كلَّم أباك كِفاحاً، فقال: يا عبدي سَلْنِي أُعطِك، قال: أسألك أن تَرُدَّنِي إلى الدنيا فأُقْتَل فيك ثانياً، فقال: إنه قَدْ سَبَقَ مِنّي أنّهم إليها لا يُرْجعُون، قال: يا ربّ فأبلِغْ مَنْ ورائي»**، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

رواه الترمذي في التفسير (٢٨١٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)

وفي الجهاد (٢٨٠٠)، والحاكم (٢٠٤/٣)، وابن جرير (١٧٣/٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو أيضاً في المسند (٣٦١/٣) من طريق ابن عقيل.

[٢٧٧] وعنه أيضاً قال: قال أبي: أرجو أن أكون في أوّل من يُصاب غداً، فأُوصيك بِبَناتِي خَيْراً، فأصيب فدفنتُه مع آخر فلم تَدَعْني نَفْسِي حتى استخرجْتُه ودفنتُه وحدَه بعد ستّة أشهر، فإذا الأرضُ لم تأكلْ منه شيئاً إلا بعضَ شحْمَةِ أُذُنِهِ.

رواه البخاري في الجنائز (١٣٥١، ١٣٥٢)، وابن سعد (١٠٦/٢/٣)، والحاكم (٢٠٣/٣) وصححه.

في هذه الأحاديث الثلاثة فضائل ومزايا وكرامات لهذا الصحابي الجليل، منها: أن الملائكة ظلّلته من الشمس بأجنحتها فَوْرَ قَتْلِهِ، وهذه كرامة ظاهرة. ومنها: أن الله عزّ وجلّ كلّمه بعد موته كفاحاً بدون واسطة إكراماً له، وأنه عزّ وجلّ قال له: «**سلني أعطك**»، فلم يجد عبدالله شيئاً يسأله من الله تعالى أحبّ إليه من الرجوع إلى الدنيا ليُقتل في الله عزّ وجلّ لما رأى من الكرامة التي يحرز عليها الشهيد.

أما الحديث الآخر، فهو يصدق قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، فها هو قد أخرج من قبره بعد ستّة أشهر فوجد كما دفن؛ لأن الحيّ لا تأكل الأرض جسده، فهذه إحدى كرامات الشهداء ومزاياهم جعلنا الله عزّ وجلّ من أشرفهم وأكرمهم على الله تعالى.

* * *

قصة مقتل حمزة سيّد الشهداء رضي الله تعالى عنه

[٢٧٨] عن جعفر بن عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِي قال: خرجتُ مع عُبَيْدالله بن عَدِي بن الخِيار، فلما قدمنا حِمْصَ قال لي عُبَيْدالله بن عَدِيّ: هل لك في وحشيّ نسأله عن قتله حمزة؟ قلت: نعم، وكان وحشيّ يَسْكُنُ

حِمْص فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظلّ قصره كأنّهُ حَمِيتٌ، قال: فجئنا حتى وقفنا عليه يسيراً فسَلَّمنا فردّ السلام، قال: وعبيدالله مُعْتَجِرٌ بعِمامَتِهِ ما يَرَى وحشي إلا عَيْنَيْهِ ورجليه، فقال عبيدالله: يا وحشي أتَعرِفُني؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله، إلا أني أعلم أن عَدِيّ بن الخيار تزوّج امرأة يقال لها أمُّ قتال بنت أبي العِيصِ فولدت له غلاماً بمكّة فكنت أسترضع له، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتُها إيّاه، فَلَكَأنّي نظرت إلى قدميك، قال: فكشف عبيدالله عن وجهه ثم قال: ألا تُخبِرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طُعَيْمَة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إن قتلتَ حمزة بعمي فأنت حُرٌّ. قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَيْنِ - وعينين جبل بجبال أُحد بينه وبينه وادٍ - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفّوا للقتال خرج سِباعٌ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أمّ أنْمَارٍ مُقَطِّعَة البظور أتُحادُّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحَرْبَتِي فأضعُها في ثُنّتِه، حتى خرجتْ من بين وِرْكَيْهِ، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكّة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً فقيل لي: إنه لا يَهِيجُ الرُسُل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني، قال: «**أنت وحشي؟**» قلت: نعم، قال: «**أنت قتلت حمزة**»؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «**فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهَكَ عنّي؟**» قال: فخرجت، فلما قُبِض رسول الله فخرج مُسَيْلمةُ الكذّابُ، قلت: لأخرجَنَّ إلى مُسَيْلمة لعلّي أقتله فأكافىء به حمزة، قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثَلْمةِ جدارٍ كأنه جَمَلٌ أوْرَقُ ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعُها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته، قال: قال عبدالله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وأمير المؤمنين قتله العبد الأسود.

رواه أحمد (٥٠١/٣)، والبخاري في المغازي باب قتل حمزة رقم (٤٠٧٢) (ج ٣٧٠/٨، ٣٧٣).

[٢٧٩] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم أُحد: «**من رأى مقتل حمزة؟**» فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، قال: «**فانْطَلِقْ أَرِنَاهُ**»، فخرج رسول الله ﷺ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شُقّ بطنُه، وقد مُثّل به، فقال: يا رسول الله مثّل به والله فكرِهَ رسولُ الله ﷺ أن ينظر إليه، ووقف بين ظهراني القتلى، فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، كفّنوهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدْمِي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك قدموا أكثرهم قرآناً فاجعلوه في اللّحد**».

رواه ابن أبي شيبة رقم (٣٦٧٨٧) (٣٧٢/٧) قال البوصيري: رواته ثقات، وأورده النور في المجمع (١١٩/٦) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح. وقوله: «**أنا شَهيد على هؤلاء**» رواه البخاري وغيره ويأتي.

[٢٨٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لمّا بلغ النبيَّ ﷺ قَتْلُ حمزة بكَى، فلما نظر إليه شَهَقَ.

أورده النور في المجمع (١١٨/٦)، وابن البزار (١٧٩٤) وقال: فيه عبدالله بن أبي عقيل وهو حسن الحديث على ضعفه.

قوله: «كأنه كميت» بفتح الكاف وكسر الميم أي: زِقٌّ كبير وهو السِّقاء. وقوله: «معتجر» بضم الميم اسم فاعِل اعتجر ومعناه مُلَفِّفٌ عمامته على وجهه. قوله: «عام عيْنين» أي: عام أُحد لأن عينين جبل هنالك. قوله: «مقطعة البظور» وكانت تختن النساء والبظور جمع بظر وهي قطعة لحم تكون في أعلى وسط شفة فرج المرأة. قوله: «وكَمَنْتُ له» أي: اختفيت. وقوله: «لا يهيج» بفتح الياء أي: لا ينالهم منه إزعاج. وقوله: «شهق» بفتحتين أي: ردّد نفسه من البكاء.

شاء الله عزّ وجلّ أن يُقْتَل سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب أَسَدُ

هذه الأُمّة بغزوة أُحد على يد وحشيّ العبد الأسود، فيفقد النبيّ ﷺ والمسلمون أحد أبطال الإسلام الذي كانت له يد طولى في إعزاز الإسلام وتقوية المسلمين.

فها هو الآن يُقتل برمية رمح ثم يمثّل به المشركون ويجدّعون أطرافه ويبقرون بطنه ويُخرجون كبده آكلين منها، فيحزن عليه ابن أخيه الرسول الكريم ﷺ ويبكي ويشهق على فقدانه، وهو سيّد الشهداء كما قال ﷺ: **«سيّد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ثم رجل قام إلى أمير جائر فأمره ونهاه فقتله»** رواه الحاكم وصححه، هذا وفي قوله ﷺ لقاتله وحشي: **«فهَلْ تَسْتَطِيع أن تُغَيِّبَ وَجْهَك عَنّي»**، دليل على ما في طبيعة الإنسان وفطرته من كراهية من يسيء إليه أو إلى أحبّته، فإن وحشيّاً وإن أسلم والإسلام يهدم ما قبله، فقد كان مكروهاً للنبيّ ﷺ حتى إنه حَرَمَهُ من مواجهته والنظر إلى طلعته ﷺ، ولهذا كان كثير من أكابر الصحابة الأوّلين يكرهون أمثال أبي سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وأضرابهم ممن حاربوا النبيّ ﷺ والمسلمين وأسرفوا في الإساءة والإذاية للمسلمين، هذا مع إسلامهم وغفران ما سبق لهم؛ لأن الإساءة لا تُنْسَى فما فعله النبيّ ﷺ مع وحشي... هو من الأعراض البشرية التي لا تتخلف إلا نادراً.

***

قتل مصعب بن عمير أوّل مهاجر في الإسلام

[٢٨١] عن خباب بن الأرتّ رضي الله تعالى عنه قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نَبْتَغِي وجهَ الله تعالى، فوقع أجْرُنا على الله، فمِنّا من مَضَى بِسَبِيلِهِ لم يأكل من أجره شيئاً منهم مُصْعَب بن عمير قُتل يوم أُحد ولم يترك إلا نَمِرَةً، كنا إذا غطّينا رأسه بدَتْ رجلاه، وإذا غطّينا رجليه بَدَا رَأسُه، فقال رسول الله ﷺ: **«غَطّوا رأسَه واجعلوا على رجليه من الإذخر»**، ومنّا من أيْنَعَتْ له ثمَرتُه فهو يَهْدِبُها.

رواه أحمد (١١٢/٥)، والبخاري في المغازي (٣٥٨/٨، ٣٧٩) في غزوة أحد وفي مواضع كالجنائز والرقاق، ومسلم (٩٤٠)، وأبو داود (٣١٥٥) كلاهما في الجنائز، والترمذي في المناقب (٣٦٢١) والنسائي في الجنائز.

قوله: «أينعت» أي: نضجت، وقوله: «يَهْدِبُها» أي: يجنيها.

[٢٨٢] وعن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه أنه أُتِيَ بطعام وكان صائماً، فقال: قُتِلَ مُصْعَب بن عمير وهو خير مني كُفِّن في بردة إن غُطِّي رأسُه بدتْ رجلاه، وإن غطِّي رجلاه بدا رأسه، وأُراه قال: وقتل حمزة وهو خير منّي، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا، أو قال: أُعْطِينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلَتْ لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

رواه أحمد (٤٠٤٥)، والبخاري في المغازي (٣٥٦/٨) وفي الجنائز.

مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه فتى مكّة شباباً وجمالاً، وكان أبواه يحبّانه، وكانت أمّه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكّة، وكان رسول الله ﷺ يقول: **«ما رأيت بمكّة أحسن لِمّة ولا أرَقَّ حُلّة ولا أنعَم نِعْمةً من مصعب بن عمير»** ذكره الحاكم (٢٠٠/٣)، ثم هداه الله للإسلام وترك كل ذلك، فكان من السابقين الأوّلين، وكان أوّل مهاجر إلى المدينة داعية ومعلّماً... ولما قدم النبيّ ﷺ حضر معه بدراً ثم أُحداً، فاستشهد بها، قتله عَمْرو بن قميئة الليثيّ، وكان لفقره وقلّة يده لم يكن له سوى بردة، ولذلك لما أرادوا تكفينه لم تكفه بردته.

وفي الحديثين فضل خباب وعبدالرحمٰن بن عوف وتواضعهما وهضمهما أنفسهما حيث إن كلاًّ منهما فضّل مصعباً على نفسه، وحديث ابن عوف يأتي في الرقاق.

* * *

❋ ما حلّ برسول الله ﷺ في هذه الغزوة من النكبات

[٢٨٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ كُسِرَتْ رَباعِيتُه يوم أُحد وشُجَّ رأسُه، فجعل يسلُت الدمَ عنه ويقول: «**كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم وكسَرُوا رَباعيته وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

رواه أحمد (٢٥٣/٣، ٢٨٨)، ومسلم في السِّيَر (١٤٩/١٣)، والترمذي (٢٨١٠)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦) كلاهما في التفسير، وابن جرير (٨٦/٤، ٨٧)، وابن أبي حاتم (٧٥٦/٣)، وعلّقه البخاري في المغازي (٣٦٨/٨).

[٢٨٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: اشتدّ غضب الله على من قتله النبيّ ﷺ اشتدّ غضب الله على قوم دمّوا وجه نبيّ الله ﷺ.

وعن أبي هريرة نحوه رواهما البخاري (٣٧٥/٨)، والثاني عند مسلم أيضاً (١٥٠/١٢).

[٢٨٥] وعن عمر رضي الله تعالى عنه في قصة بدر، قال: فلمّا كان يوم أُحد قتل منهم سبعون وفرّوا وكُسِرَت رباعيَةُ رسول الله ﷺ وهُشِمَتْ البَيْضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ الآية.

رواه أحمد (٣٠/١، ٣١) وغيره، وانظر ما سبق في غزوة بدر رقم (٢٢١).

[٢٨٦] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه وسُئِل عن جرح رسول الله ﷺ قال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكُب الماء وبما دُووِيَ، قال: كانت فاطمةُ عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله وعليّ بن أبي طالب يَسْكُبُ الماء بالمِجَنّ، فلما رأتْ فاطمةُ أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرةً أخذت قطعة من

حصير وأحرقَتْها وألْصَقَتْها فاستمسك الدمُ، وكُسِرَتْ رباعيتُه يومئذٍ، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه.

رواه أحمد (٥/٣٣٠، ٣٣٤)، والبخاري في المغازي (٨/٣٧٥)، ومسلم في السِّيَر (١٧٩٠ ج ١٢/١٤٨)، وابن ماجه (٣٤٦٤).

قوله: «رباعيته» هو بفتح الراء السنّ التي بين الثنيّة والناب. و«شجّ رأسه» أي: جُرِحَ. قوله: «وهُشِمَتْ البيضة» أي: كُسِرت. وقوله: «يسكب الماء» أي: يصبّه.

في هذه الأحاديث بيان ما أصاب النبيّ ﷺ في أثناء هذه الغزوة من النكبات والشدائد فكُسِرت سنّه الشريفة، وجُرِح رأسه حتى سال الدم على وجهه المقدّس، وذلك يدلّ على أن شؤم المعصية لا يختصّ بأصحابها، بل تعمّ المباشر لها والبريء، فإن سبب هذه المحنة التي نزلت بالصحابة وشملت حتى قائدهم حبيب الله ورسوله ﷺ كان مخالفة الرماة أصحاب الجبل لأوامر رسول الله ﷺ، ومخالفته تُوجب الفتنة والعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولذلك لما حصل ما حصل تعجّبوا من ذلك وقالوا: كيف وقع لنا هذا ومعنا رسول الله ﷺ... فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، أي: من أين جاءنا هذا وكيف وقع لنا. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم تسبّبتم فيه بمخالفتكم، فكان ما كان وما أصيب به النبيّ ﷺ في هذه الغزوة هو سنّة من السنن الإلٰهيّة في خلقه وليست مختصّة به ﷺ، فهذا القرآن يقصّ علينا من خبر الأنبياء فيقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، ويقول عن اليهود: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، إذاً فنزول هذا البلاء بالنبيّ ﷺ ليس بغريب، فإن هنالك من إخوانه الأنبياء من قتل. وحديث ابن عباس يدلّ على أن من آذى نبيّاً من الأنبياء اشتدّ عليه غضب الله عزّ وجلّ، وفي حديث سهل بن سعد بيان أن مولاتنا فاطمة كانت مشاركة لأبيها في المحنة، فكانت حاضرة معه وهي ممّن عالجت جرحه بالماء والحصير

المحروق بالنار، وسيأتي فصل خاص في بيان مواقف النساء في هذه الغزوة.

* * *

❁ دعاء رسول الله ﷺ على كفار أُحد ولعنه إياهم

[٢٨٧] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أُحد: «**اللّهمّ العنْ أبا سُفيان، اللّهمّ العن الحارثَ بن هِشام، اللّهمّ العن سُهَيل بن عَمْرو، اللّهم العن صَفْوان بن أُمَيّة**»، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، فتِيبَ عليهم كلهم. وفي رواية: فهداهم الله تعالى للإسلام.

رواه أحمد (٥٦٧٤، ٥٨١٢، ٥٩٩٧)، والبخاري في المغازي وفي التفسير (٣٩٣/٩)، والترمذي في التفسير (٢٨١١)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦) وغيرهم.

في الحديث جواز الدعاء على الكفار ولعنهم بأعيانهم، وهذا من أدلّة جواز لعن المُعَين، وخاصة إذا كان كافراً خلافاً لمن منع ذلك مطلقاً. وفي قوله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي لا تملك لهم نفعاً فتصلحهم، ولا ضرّاً فتهلكهم، فالإيجاد والإعدام والنفع والضرّ والهداية والخذلان كلٌّ بيده تعالى.

* * *

❁ دفاع الأبطال عن رسول الله ﷺ:
الأنصار السبعة

[٢٨٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أُفرِد رسول الله ﷺ يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه قال: «من يَرُدُّهم

عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة»، فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم رهِقوه أيضاً فقال: «من يردُهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنصَفْنا أصحابَنا».

رواه مسلم في غزوة أُحد من السِّير رقم (١٧٨٩ ج ١٣/١٤٧).

«رهقوه» بكسر الهاء أي: غشوه ودنوا منه.

لمّا انهزم المسلمون في أُحد انكشفوا عن النبيّ ﷺ وفرّوا وولّوا مدبرين، وبقي النبيّ ﷺ في هؤلاء السبعة الأنصاريّين مع رجلين من المهاجرين، فقاتل الأنصار السبعة دفاعاً عنه ﷺ حتى قُتِلوا جميعاً واحداً تلو الآخر، ولم يبق معه إلا الرجلان ثم بعد ذلك التفّ حوله جماعة يبلغون الاثني عشر وجعلوا يدافعون عنه ويحمونه ويقاتلون دونه، وممن كان لهم الحظّ الأوفر في ذلك اليوم الجماعة الآتون...

* * *

دفاع طلحة بن عبيدالله بين يدي رسول الله ﷺ

[٢٨٩] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركهم المشركون، فقال النبيّ ﷺ: «من للقوم؟» قال طلحة: أنا، قال: «كما أنت»، فقال رجل: أنا، قال: «أنت»، فقاتل حتى قتل، ثم التفت فإذا المشركون فقال: «من لهم؟» قال طلحة: أنا قال: «كما أنت» فقال رجل من الأنصار: أنا، قال: «أنت»، فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبيّ الله طلحة، فقال: «من للقوم»؟ قال طلحة: أنا، فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى قُطِعَتْ أصابُعه، فقال: حس، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت باسم الله لرفعتْك الملائكة والناسُ ينظرون»، ثم ردّ الله المشركين.

رواه النسائي في الجهاد باب ما يقول من يطعنه العدوّ وهو في «الكبرى» (ج ٢١/٣ ج ١٥٩/٦) بسند حسن صحيح.

هؤلاء أبطال آخرون قتلوا بين يديّ رسول الله ﷺ دفاعاً عنه، ثم يخلفهم طلحة فيُقاتل قتال عددهم حتى تُقطع يده.

[٢٩٠] بل قال قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى: رأيت يد طلحة شلاّءَ وقَى بها النبيّ ﷺ يوم أُحُدٍ.

رواه أحمد (١٦١/١)، والبخاري في المغازي (٣٦٤/٨)، وابن ماجه (١٢٨).

قوله: «شلاّء» بفتح الشين واللام المشدّدة الممدودة أي: أصابها شَلَلٌ وهو إبطال عملها.

وعن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: كان على النبيّ ﷺ يوم أُحد درعان، فنهض إلى الصخرة، فلم يستطع فقعد طلحةُ تحتَهُ حتى استَوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبيّ ﷺ يقول: «**أوجبَ طلحةُ**».

رواه أحمد (١٦٥/١)، والترمذي في الجهاد (١٥٥٢) بتهذيبي وفي المناقب (٣٥٠٩)، والحاكم (٣٧٤/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

«أوجب طلحة» أي: أوجب لنفسه الجنّة بثباته واستماتته في القتال والصمود للعدوّ، فطلحة بن عبيدالله كان من الذين ثبتوا وحموا رسول الله ﷺ وقاتلوا المشركين دونه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان أبو بكر إذا ذُكِر يوم أُحد قال: كان ذلك اليوم كلّه لطلحة، قال: كنت أول من فاء فرأيت رجلاً يقاتل عن رسول الله ﷺ قال: فقلت: كُنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي وبيني وبينه رجل من المشركين، فإذا هو أبو عبيدة فانتهينا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**دونكما صاحبكما**» يريد طلحة، قال: فإذا به بضع وسبعون أو أقلّ أو أكثر بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه، ذكره الطيالسي (٢٣٤٦ منحة) مطوّلاً.

* * *

❁ دفاع سعد بن أبي وقاص

[٢٩١] عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع النبيّ ﷺ في تلك الأيام التي كان يقاتل فيهن غيرُ طلحةَ وسَعْد.

رواه البخاري في المغازي (٣٦٢/٨) وفي المناقب، ومسلم في الفضائل.

وقوله: «لم يبق» الخ، هذا محمول على بعض الأحوال في تلك المشاهد لما سبق من السبعة الذين قاتلوا دونه حتى قُتِلوا، ومن الأحد عشر الذين قتلوا وطلحة حاضر ومما سبق ويأتي بأنه لم يبق مع النبيّ ﷺ إلا اثنا عشر، فهذا كلّه يدلّ على أنه كانت في ذلك اليوم مشاهد عدّة.

[٢٩٢] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: ما سمعت النبيّ ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك فإني سمعته يقول يوم أُحد: **«يا سَعْدُ إِرْمِ فِداكَ أَبي وأُمّي»**.

رواه أحمد (٢٩/١، ١٢٤، ١٣٦، ١٣٧)، والبخاري في المغازي (٣٦٢/٨)، ومسلم في الفضائل (١٨٢/١٥، ١٨٣)، والترمذي (٣٥٢٥)، وابن ماجه (١٢٩).

[٢٩٣] وعن سعد نفسه قال: جمع لي رسول الله ﷺ يوم أُحد أبويه كلاهما، يريد حين قال: **«فداك أبي وأمي»** وهو يقاتل...

رواه البخاري في المغازي (٣٦٢/٨) وغيره.

[٢٩٤] وعنه في رواية: نَثَلَ لِي النبيُ ﷺ كِنانَتَه يوم أُحد، فقال: **«إِرْمِ فِداك أبي وأمّي»**. وفي رواية: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبيّ ﷺ: **«ارم فداكَ أبي وأمّي»**، قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحك لي رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه.

رواه البخاري (٣٦٢/٨)، ومسلم في الفضائل (١٨٤/١٥، ١٨٥) والرواية الأخيرة له.

«نَثَلَ» أي: استخرج ما فيها. و«الكِنانة» جعبة السهام والنشاب. «أحرق المسلمين» أي: بالغ في قتالهم.

سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه من الذين كانت لهم اليد الطُولى في حماية رسول الله ﷺ في هذا اليوم ولشدّة دفاعه وقتاله دون النبيّ ﷺ واستماتته جمع له النبيّ ﷺ أبويه فداءً له، وهذه مَزِيَّةٌ لم ينلها غيره في هذا اليوم.

* * *

❋ أبو طلحة الأنصاري وشهامته

[٢٩٥] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحد انهزم ناسٌ عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يديه مُجَوِّبٌ عليه بِحَجَفَةٍ له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع كسُر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمُرُّ معه بِجَعْبَةٍ من النَّبل، فيقول رسول الله ﷺ: «**انثُرها لأبي طلحة**»، ويُشْرف النبيّ ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تُشرف يُصبْك سهمٌ من سهام القوم نحري دون نحرك.

رواه أحمد (١٠٥/٣، ٢٥٦، ٢٨٦)، والبخاري في المغازي (٣٦٥/٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٨٩/١٢).

قوله: «مجوب عليه» أي: مترس عنه. «بحجفة» بفتحات وهو التّرس والدرقة من الجلد. وقوله: «شديد النّزع» أي: شديد الرمي.

أبو طلحة هذا هو زوج أمّ سليم والدة أنس وهو صاحب بيرحاء رضي الله تعالى عنه، وكان ممن أبلى بلاءً شديداً في يوم أُحد دفاعاً عن الرسول الأعظم وحمايةً له ﷺ من المشركين عليهم لعائن الله.

* * *

❋ نزول الملائكة وقتالهم دون النبيّ ﷺ

[٢٩٦] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: رأيت عَلى يَمينِ رسولِ الله ﷺ وعلى شمالِهِ يومَ أُحُدٍ رجُلين عليهما ثيابُ بياضٍ يقاتلان عنه كأشدِّ القتال ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ، يعني جبريل وميكائيلَ عليهما السلام.

رواه البخاري في المغازي (٣٦١/٨) وغيره، ومسلم في الفضائل (٦٦/١٥، ٦٧).

الدفاع عن الرسول ﷺ لم يكن خاصّاً بالأبطال من أصحابه الذين قدَّموا أرواحهم بين يديه واستماتوا دونه، بل شارك في ذلك ملائكة الله الكرام عليهم سلام الله، فهذان جبريل وميكائيل قد نزلا ليشاركا في حماية رسول الله ﷺ، وماذا يغني بضعة عشر رجلاً أو العشرات والمئين مع ثلاثة آلاف مقاتل من المشركين كلّهم هدفهم الأعظم هو قتل النبيّ ﷺ وكبار أصحابه وأنصاره، وقد انكشف عنه أصحابه وفرّوا؛ ولذا فقد شاء الله عزّ وجلّ أن يُمِدّ رسوله ﷺ ببعض كبار سلاطين الملائكة للقتال دونه حتى لا يصل إليه أحد من الكفار، ولذا بقي محمياً حتى انصرف المشركون.

❋ ❋ ❋

❋ دور النساء الصحابيات في أُحد

[٢٩٧] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأمّ سليم، وإنهما لمُشمِّرتانِ أرى خَدَم سوقهما تَنْقُزان القِرَبَ على مُتُونِهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم. . .

رواه البخاري رقم (٢٨٨٠، ٤٠٦٤) في المغازي، ومسلم رقم (١٨١١) وقد تقدم بعضه رقم (٢٩٥).

قوله: «خدم سوقهما» بفتحتين جمع خدمة وهي الخلاخل أو أصل السوق، والسوق جمع ساق. وقوله: «تَنْقُزان القرب»... إلخ أي: تسرعان المشي، وفي رواية عند البخاري: تزفران أي تحملان القرب الثقال على ظهورهما، وفي رواية: تنقلان القرب...

[٢٩٨] وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قسم مُرُوطاً بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرْطٌ جيّد، فقال له بعضُ مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين اعْطِ هذا بنتَ رسول الله ﷺ التي عندك ـ يريدون أم كلثوم ـ بنت عليّ رضي الله تعالى عنهما، فقال عمر: أمُّ سَلِيطٍ أحقّ منها، وأمّ سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحد...

رواه البخاري في المغازي (٣٦٩/٨).

وتقدم حديث سهل بن سعد وأن مولاتنا فاطمة عليها السلام كانت تداوي النبيّ ﷺ من جراحته مع زوجها الإمام عليّ عليه السلام، انظر رقم (٢٨٦).

في هذه الأحاديث بيان موقف بعض النساء المؤمنات من هذه الغزوة وأنهن كنّ يتولين سقي الماء لشرب المقاتلين، كمولاتنا عائشة وأمّ سليم والدة أنس بن مالك وأمّ سَلِيط والدة أبي سعيد الخدريّ رضي الله تعالى عنهن، كما أن سيّدتنا فاطمة عليها السلام كانت تداوي رسول الله ﷺ وتغسل عنه الدم، ولم يكُنَّ يشاركن الرجال في القتال، كما جاء في أحاديث أُخرى أنهنّ كنّ يداوين الجرحى ويسقين الماء، كما تقدم بعض ذلك في الجهاد. وقوله: إنهما لمشمرتان، هذا كان قبل نزول الحجاب اتّفاقاً.

* * *

❊ امرأة أصيب أبوها وأخوها وزوجها ولم تبال بذلك وتسال عن رسول الله ﷺ

[٢٩٩] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها مع

رسول الله ﷺ بأُحد، فلمّا نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أمّ فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرُونِيهِ حتى أنظر إليه؟ قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَلٌ، تريد صغيرة.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام والطبري في التاريخ (٥٣٣/٢)، والبيهقي في الدلائل (٣٠٢/٣) كلاهما من طريق ابن إسحاق وسنده حسن صحيح.

هذا فناء في محبّة الرسول الكريم ﷺ من هذه السيّدة الصالحة؛ تفقد زوجها وأخاها وأباها، وهؤلاء هم أحبّة المرء، وقد علمت بإصابتهم فلم يهدأ لها بال حتى عرفت نجاة رسول الله ﷺ، وأنه لم يُصَبْ بما يسوءها، فقالت عندئذ: كل ما يصاب به المرء مع سلامتك هو شيء صغير، وهذه نهاية المحبّة التي تدلّ على كمال الإيمان؛ لقوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ماله وأهله والناس أجمعين»**، وتقدم في الإيمان (ج ١ رقم ١٨٢).

***

❁ طريقة دفن الشهداء والصلاة عليهم وعددهم وأسماؤهم: الأمر بدفنهم في مضاجعهم

[٣٠٠] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إن قتلى أُحد حُمِلوا من مكانهم، فنادى منادٍ رسول الله ﷺ: أن رُدُّوا القَتْلَى إلى مَضَاجِعها. وفي رواية: لما كان يوم أحد جاءتني عمّتي بأبي لتدفنه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: **«ردوا القتلى إلى مضاجعها»**.

رواه أحمد (٣٠٨/٣)، وأبو داود (٣١٦٥)، والنسائي كلاهما في الجنائز، والترمذي في الجهاد (١٥٧٥) بتهذيبي، وابن ماجه (١٥١٦)، وابن حبان (١٩٦) بالموارد وحسّنه الترمذي وصححه.

ففيه دليل على أن القتلى في المعركة يدفنون في مضاجعهم التي صرعوا فيها ولا ينقلون لغيرها.

* * *

❁ كيفية دفن الشهداء وهل يصلّى عليهم وكيف يُكَفَّنُون؟

[٣٠١] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد، ثم يقول: «**أيهم أكثر أخذاً للقرآن**»؟ فإذا أشير له إلى أحد قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**»، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُصلِّ عليهم ولم يُغَسَّلُوا.

رواه أحمد (٤٣١/٥)، والبخاري في المغازي (٣٧٨/٨) وفي الجنائز، والترمذي (٩٢٢)، وأبو داود (٣١٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦٣٥/١)، وابن ماجه (١٥١٤) أربعتهم في الجنائز.

[٣٠٢] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بحمزة يوم أُحد، وقد مُثِّلَ به فوقف عليه، فقال: لولا أني أخشى أن تجد صفيّة في نفسها لتركته حتى تأكله العافية فيُحْشَر من بطونها، ثم دعا بنَمِرَة فكانت إذا مدّت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدّت على رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «**مدّوها على رأسه، واجعلوا على رجليه الحرمل**»، وقلت الثياب وكثرت القتلى، فكان الرجل والرجلان والثلاثة يُكَفَّنُون في الثوب، وكان ﷺ يسأل أيهم أكثر قرآناً فيقدّمه.

وفي رواية: أن شهداء أحد لم يُغَسَّلُوا ودُفِنُوا بدمائهم ولم يُصَلِّ عليهم.

وفي رواية: أن النبيّ ﷺ مرّ بحمزة وقد مُثِّل به ولم يُصلِّ على أحدٍ من الشهداء غيرَه وهي رواية شاذة!

رواه أحمد (١٢٨/٣)، وابن أبي شيبة (٣٦٧٥٢) في المغازي، وأبو داود (٣١٣٥، ٣١٣٦، ٣١٣٧)، والترمذي في الجنائز (٩٠١) بتهذيبي، والطحاوي في معاني الآثار (٥٠٢/١، ٥٠٣)، والحاكم (٣٦٥/١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٤، ١١) بعضهم مطولاً وبعضهم مختصراً، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[٣٠٣] وعن عُقْبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ على قتلى أُحُد بعد ثماني سنين كالمُوَدِّع للأحياء والأموات... وفي رواية: فصلّى على أهل أُحد صلاته على الميّت.

رواه أحمد (١٤٩/٤، ١٥٣، ١٥٤)، والبخاري في الجنائز (٤٥٤/٣) وفي المغازي (٣٥٢/٨)، ومسلم في الفضائل في إثبات حوض نبيّنا ﷺ (٥٧/١٥) وغيرهم ويأتي في الرقائق.

قوله: «تأكله العافية» أي: السباع والطير... وقوله: «أن تجد صفية في نفسها» صفية هذه أخت حمزة وعمّة النبيّ ﷺ.

في حديثي جابر وأنس أحكام تتعلق بالشهيد نجملها في الآتي:

أولاً: إن كثر القتلى وقلّت الثياب جمعوا وأدرجوا في ثوب واحد الاثنان والثلاثة...

ثانياً: إن كان للواحد منهم ثوب أدرج فيه، فإن قَصُر عن تمام جسمه غُطّي رأسُه وما بقي من بدنه، فإن بدا شيء من رجليه أُلقِي عليهما أوراق الأشجار والنبات.

ثالثاً: يدفن الشهيد بدمه فلا يُغَسَّلُ لأنه سيبعث كذلك، فيكون الدم كصفته لكن ريحه ريح المسك.

رابعاً: لا يُصلّى على الشهيد إذا قُتل في المعركة، وهذا مذهب الجمهور وهو قول مالك والشافعي وأحمد، وذهب أبو حنيفة إلى مشروعية الصلاة عليه مستدلاً بأحاديث، لكنها كلها ضعيفة. قال النووي في شرح

المهذب (٥/٢٢٤): فاتفق أهل الحديث على ضعفها كلّها إلا حديث عقبة بن عامر... وانظر البدر المنير للحافظ ابن الملقن (٥/٢٤٣) إلى (ص ٢٥٠)، فقد أفاض في بيان ضعف ذلك، وذكر نقولاً في الموضوع عن العلماء.

أمّا ما جاء في بعض ألفاظ حديث أنس... ولم يصلّ على أحدٍ من الشهداء غيره - يعني حمزة - فهذه الرواية شاذة غير محفوظة، كما قال البخاري والترمذي والبيهقي وغيرهم. انظر علل الترمذي وسنن البيهقي وفتح الباري (٣/٤٥٣، ٤٥٤).

خامساً: قد نقل البيهقي في معرفة السنن (٣/١٤٣، ١٤٧) عن الشافعي أن الأحاديث جاءت متواترة بأن النبيّ ﷺ لم يصلّ على الشهداء.

وقال في الخلافيات: لا يصحّ عنه ﷺ أنه صلّى على أحدٍ من شهداء أُحد لا على حمزة ولا على غيره.

سادساً: أما حديث عقبة، فقال في البدر المنير (٥/٢٤٨) أجاب الحفّاظ عنه بأن المراد بالصلاة الدعاء، وقوله: صلاته على الميّت دعا لهم كدعاء صلاة الميت، قال: وهذا التأويل متعيّن وليس المراد صلاة الجنازة المعروفة بالإجماع، فإنه ﷺ إنما فعله بعد موتهم بثمان سنين، ولو كان صلاة الجنازة لما أخّرها ثمان سنين... وأصله للنووي في المجموع (٥/٢٢٤، ٢٢٥) وهو أيضاً في الفتح للحافظ في الجنائز (٣/٤٥٤).

سابعاً: في الحديث مشروعيّة دفن الشهداء دفناً جماعياً ثلاثاً وأكثر... في قبرٍ واحد إذا كَثُرت القتلى.

ثامناً: في ذلك سنّية تقديم الأقرأ للقرآن على غيره في اللَّحد لجهة القبلة، وذلك يُعدّ من فضائل حَمَلَةِ القرآن، وكم لهم من فضائل جعلنا الله تعالى من أكرمهم عنده وأحبّهم لديه، آمين.

* * *

❁ ثناء النبيّ ﷺ على ربّه ودعاؤه بعد انتهاء المعركة

[٣٠٤] عن عُبَيْدالله بن رِفاعَة الزُّرَقي رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوُوا حتى أُثْنِي على ربّي»، فصاروا خَلْفَه صُفُوفاً، فقال: «اللّهمّ لك الحمدُ كلّه، اللّهمّ لا قابِضَ لما بسطتَ، ولا باسِط لما قبضتَ، ولا هادِيَ لما أضللتَ، ولا مُضِلَّ لِمن هَدَيتَ، ولا مُعْطِي لما مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُقَرِّبَ لما باعدت، ولا مُبْعِدَ لما قَرَّبْتَ، اللّهمّ ابسُط علينا من بركاتِك، ورحمتِك، وفضلِك، ورِزقِك، اللّهمّ إنّي أسألك النعيمَ المُقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللّهمّ إني أسألك النعيم يوم القيامة، والأَمْنَ يوم الخوف، اللّهمّ إني عائذٌ بك من شَرِّ ما أعطيتَنا، وشرّ ما منعتَ منّا، اللّهمّ حَبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهمّ توفَّنا مسلمين وأَحْيِنا مسلمين وأَلْحِقْنا بالصالحين، غيرَ خزايا ولا مَفْتونين، اللّهمّ قاتِل الكفرة الذين يكذّبون رُسُلك ويصُدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رِجْزَك وعذابك، اللّهمّ قاتِل الكفرة الذين أُوتوا الكتاب، إلَهَ الحقّ».

رواه أحمد (٤١٤/٣)، والحاكم (٥٠٧/١) (ج ٢٣/٣، ٢٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي في الوضع الثاني، وأورده النور (١٢١/٦، ١٢٢) برواية أحمد، والبزار (١٨٠٠) وقال: رجاله رجال الصحيح.

هذا دعاء عظيم كلّه توحيد وتمجيد لله عزّ وجلّ وثناء عليه والتجاء إليه وإلحاح في الدعاء وتكرار فيه، وتنوّع من الأسئلة والمطالب، وهو من الجوامع في ذلك.

ففيه مشروعية الدعاء عقب الفراغ من المعارك مع الكفار، وبالأخصّ إذا وقعت للمسلمين هزيمة.

❊ ❊ ❊

❋ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون

[٣٠٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما أُصِيبَ إخوانُكم بأحد جعل الله عزّ وجلّ أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنة تأكُل من ثمارها وتأوِي إلى قناديلَ من ذهبٍ في ظلِّ العرش، فلما وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهم ومأكَلِهم وحُسْنَ مُنقَلَبِهم قالوا: يا ليتَ إخوانَنا يعلمُون بما صنع الله لنا، لئلاّ يَزْهَدُوا في الجهاد ولا ينكُلُوا عن الحرب، فقال الله عزّ وجلّ: أنا أُبَلِّغُهم عنكُم»**، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات على رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٦٥/١)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٠)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/٥)، والحاكم (٨٨/٢، ٢٩٧) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[٣٠٦] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال: أما إنا سألنا عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: **«أرواحُهم في جوف طير خُضر لها قناديل معلَّقَةٌ في العرش تَسْرَحُ من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلَعَ عليهم ربُهم اطِّلاعَةً، فقال: هل تَشْتَهُونَ شيئاً؟ فقالوا: أيَّ شيء نشتهي ونحن نَسرحُ من الجنّة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركُوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربِّ نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»**.

رواه ابن أبي شيبة ومسلم في الإمارة (٣٠/١٣، ٣١)، والترمذي في التفسير (٢٨١٧)، وابن ماجه (٢٨٠١) والدارمي وغيرهم.

الحديثان يدلاّن على أن الشهداء يدخلون الجنّة الآن ويتنعّمون فيها ويسرحون منها حيث شاءوا، وأن أرواحهم في جوف طير خضر خلقها الله

عزّ وجلّ لهم، وأنها عندما تنتهي من سرحها في الجنّة تأتي فتأوي إلى قناديل معلّقة بالعرش. أما أجسادهم فهي في مضاجعها من الأرض لا تتغيّر ولا يأكلها التراب.

والقرآن الكريم نصّ في هذه الآية من آل عمران، وفي سورة البقرة بأنهم أحياء يُرزقون، وقد تقدّمت أحكام الشهداء في الجهاد.

* * *

عدد شهداء أُحد وبعض أسمائهم

[٣٠٧] عن أُبَيّ بن كَعْب رضي الله تعالى عنه قال: إنه أُصيب من الأنصار يوم أُحد أربعة وستون، وأُصيب من المهاجرين ستّة، فيهم حمزة فمثّلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر لنُرْبِيَنَّ عليهم، فلمّا كان يوم فتح مكة نادى رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم مرّتين، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، فقال النبيّ ﷺ: **«كُفُّوا عن القَوْم»**.

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٢٧)، وأحمد (١٣٥/٥)، وابن حبان (١٦٩٥)، والحاكم (٣٥٩/٢، ٤٤٦) وصححه ووافقه الذهبي، ورواه أيضاً النسائي في الكبرى (٣٧٦/٦) وحسّنه الترمذي أيضاً وصححه.

وتقدم حديث البراء... فأصابوا منّا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، رواه البخاري.

في الحديثين أن شهداء أُحد كانوا سبعين شهيداً أكثرهم من الأنصار؛ إذ لم يقتل من المهاجرين إلا ستّة نفر، منهم: حمزة بن عبدالمطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وربيعة بن أكْثَم. وأشهر من قُتِل من الأنصار: عبدالله بن حرام والد جابر بن عبدالله، وسعد بن الربيع،

وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة، وعمرو بن الجموح، وأنس بن النضر... رضي الله تعالى عنهم جميعاً، والحديث يأتي مرّة أخرى في فتح مكّة.

* * *

خلاصة هذه الغزوة بصفة عامة

أولاً: إن هذه الغزوة تعتبر من أخطر الغزوات على النبيّ ﷺ وعلى المسلمين حيث هاجمهم الكفار في عُقْر دارهم، وجاءوا بجيش كثيف عرمرم مؤلّف من ثلاثة آلاف مدجّج، ومعهم مائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، ولولا لُطف الله وعنايته لهاجموا المدينة وفعلوا بها الأفاعيل.

ثانياً: خروج النبيّ ﷺ إلى الكفار، كان أحسن وأسَدّ رأياً من القعود بالمدينة حتى يُهَاجِمَهُمْ الكفارُ.

ثالثاً: كان في رجوع المنافقين وخذلانهم للنبيّ ﷺ حكمة بالغة؛ إذ بذلك مَحَّصَ الله عزّ وجلّ المؤمنين ومَيَّزَ بينهم وبين المنافقين الكذّابين.

رابعاً: ما فعله ﷺ من وضع خمسين رامياً على الجبل يحرسون المسلمين فيه من براعته العسكرية وعبقريته ما لا يخفى.

خامساً: كانت وصيّته للرماة بأن لا يبرحوا مكانهم، وإن حصل ما حصل من النصر أو الهزيمة وصيّة عالم بارع بالشؤون الحربية.

سادساً: كانت المرحلة الأُولى من المعركة حليفة المسلمين؛ إذ انتصروا على الكفار الكثير عددهم انتصاراً باهراً من أوّل وَهْلَةٍ، فانهزَمَ المشركون أمامَهم هاربين برجالهم ونسائهم والمسلمون وراءهم يضربون ويقتلون ويَغْنَمون، وكان ذلك نتيجة طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهذه المرحلة هي التي تحدّثت عنها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، تحسونهم أي تقتلونهم، فكان الله

﴿تصعدون﴾ قُرِئت بفتح التاء من الصعود وبضمّها بمعنى تبعدون في الأرض فارّين، وقوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تُعَرِّجُون ولا تقيمون مع أحد.

ثاني عشر: وتأتي هنا أيضاً معجزة أخرى، وهي ما في الحديث التالي:

[٣٠٨] عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: غَشِيَنا ونحن في مصافّنا يومَ أُحُدٍ النُّعاس، قال: فجعل سيفي يَسقُط من يدي وآخذُه، ويسقط من يدي فآخذه، والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَمٌّ إلا أنفُسُهم أجْبَنُ قوم وأرْعَبُه وأخْذَلُه للحق. وفي رواية: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً وآخذه، ويسقط وآخذه. وفي رواية: رفعت رأسي يوم أُحد فجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يَمِيدُ تحت حَجفَتِه من النعاس، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾.

رواه أحمد (٢٩/٤)، والبخاري في المغازي (٣٦٧/٨)، والترمذي في التفسير (٢٨١٣، ٢٨١٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٦/٦) ونحوه عن الزبير أشار إليه الترمذي ورواه ابن راهويه كما في المطالب العالية (٤٣١٥) وسنده جيد كما قال البوصيري، وقال الترمذي: حسن صحيح...

فالآية والحديث يشيران إلى ما وقع للصحابة من النِّعمة والرِّفق واللّطف بهم حيث أخذهم النعاس والأمان بعد الغمّ الذي أصابهم، وأن ذلك كان خاصّاً بالمؤمنين الصادقين. أما غيرهم من أهل الريب، فكانوا خائفين مرعوبين لا يَهمُّهم شيء إلا نجاة أنفسهم دون النبيّ ﷺ وأصحابه، ولذلك لم يصبهم نعاس.

فهذه معجزة ظاهرة إذ الوقت كان وقت خوف من هجوم المشركين، ورغم ذلك ألقى الله عليهم النعاس لطفاً بهم من الله تعالى وإكراماً للنبيّ ﷺ.

ثالث عشر: وقد ظهرت في هذه المحنة شهامة جمع من أبطال

الصحابة واستماتتهم في الدفاع عن النبيّ ﷺ وحمايته من الأعداء، وكان أشدّهم بلاء في ذلك سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وهما من المهاجرين والسابقين ومن العشرة المبشّرين بالجنّة ثم السبعة الأنصاريون الذين أُفرِدُوا مع رسول الله ﷺ ورجلين من قريش، فقُتِل الأنصار السبعة دون رسول الله ﷺ ثم الأحد عشر الذين قُتِلُوا بعد دفاع وقتال حماية لرسول الله ﷺ، وكان من أشدّهم قتالاً ودفاعاً عن رسول الله ﷺ في ذلك اليوم طلحة بن عبيدالله وأبو طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنهما وعن جميع الصحابة.

رابع عشر: وكان نزول الملائكة في هذه الغزوة من تأييد الله عزّ وجلّ ونصره لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وإمداداً لهم. وسلك الله تعالى معهم في ذلك طريق الأسباب، وإلاّ فكان في قدرة الله وإرادته أن ينصرهم ويدفع عنهم الأعداء بلا قتال ولا لجوء لنزول الملائكة، لكن الله عزّ وجلّ له سنن في كونه لا تتخلّف، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

خامس عشر: كان من نتائج هزيمة الصحابة في هذه الغزوة إعجاب الكفار وزهوهم بما حصل لهم من النصر وانهزام الصحابة، كما يتجلّى ذلك في كلمة أبي سفيان التي نادى بها النبيّ ﷺ وصاحبيه الصدّيق والفارق رضي الله تعالى عنهما، حيث اعتزّ بأصنامه القذرة وقال: «اعْلُ هُبَل»، وقوله: «إنَّ لنا العُزّى ولا عُزّى لكم»، وقوله مُتَبَجّحاً مع غرور: «يومٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ والحَرْبُ سِجالٌ».

وكان إلى جانب هؤلاء المشركين شماتة جماعة من المنافقين بالمسلمين وما نزل بهم وجعلوا يعيرون من خرج إلى أُحد ورجع فارّاً، وقالوا: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾...

سادس عشر: فيما فعله أنس بن النضر، وسعد بن الربيع من الصمود واقحام جيش الكفار وقتالهما وصبرهما حتى أُثخنا وأُجْهِزَ عليهما، رغم ما

عزّ وجلّ ذكره: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ الآية.

رواه النسائي في الكبرى (٣١٧/٦)، وابن أبي حاتم (٣١٦/٣)، وابن جرير (١٨٠/٤) كلّهم في التفسير وسنده صحيح، ورواه الطبراني في الكبير (١٦٣٢) كما أورده الهيثمي (١٢١/٦)، وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة، والحديث صححه الحافظ والسيوطي وغيرهما ولا يعلّ بإرساله.

لما رجع النبيّ ﷺ مساء يوم السبت إلى المدينة، وبات الصحابة يداوون جراحاتهم بلغهم من الغد يوم الأحد أن المشركين يريدون الرجوع إلى المدينة ليتمّموا انتصارهم، فندب ﷺ الصحابة إلى الخروج إليهم، وأمر أن لا يخرج إلا من حضر الغزوة، فأجابوه إلى ذلك، وكان ممن تقدم بين يديّ النبيّ ﷺ الصدّيق والزبير في سبعين راكباً كما في الحديث الأول، ثم تبعهم ﷺ بباقي الجيش وصار حتى بلغ حمراء الأسد، وهي من المدينة على بضعة أميال، فبلغ ذلك أبا سفيان فألقى الله في قلبه وقلوب أصحابه الرعب، فانصرفوا ثم رجع إلى المدينة سالماً، وهنالك ظفر بأبي عِزّة الشاعر الذي كان منّ عليه ببدر بعد أن تعهّد أن لا يكون على المسلمين، فأمر بقتله، فقال: يا محمد أقِلْني وامْنُنْ عليَّ ودَعْني لبناتي وأُعْطِيكَ عَهْداً أن لا أعُودَ لمِثْل ما فعلتُ، فقال ﷺ: **«لا والله لا تمسحُ عارضيك بمكّة وتقول: خدعت محمداً مرتين: لا يُلْدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين»**، ثم أمر بقتله فضُرِبت عنقه.

* * *

❋ بعض حوادث هذه السنة غير ما سبق: تَزَوُّجه ﷺ بزَيْنَب بنتِ خُزَيْمَة

ذكر المؤرخون في ترجمة زينب بنت خزيمة أنها كانت تحت عبدالله بن جحش الذي استشهد بأحد، وقيل: كانت تحت الطفيل بن الحارث بن المطلّب ثم خلف عليها أخاه عبيدة بن الحارث، فقُتل ببدر.

فخطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها، فجعلت أمرها إليه ﷺ، فتزوّجها في رمضان سنة ثلاث وأقامت عنده بضعة أشهر فماتت رضي الله تعالى عنها، وكانت يقال لها أم المساكين لأنها كانت تطعمهم وتتصدّق عليهم، وكانت أخت أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأمّها رضي الله تعالى عنهما.

* * *

ولادة الحسن بن عليّ وفاطمة عليهم السلام

ذكر ابن سعد في طبقاته وابن جرير في تاريخه وغير واحد من المؤرخين وأهل السيرة أن الإمام سيدنا الحسن بن الإمام سيدنا عليّ المطلبي الهاشمي سبط رسول الله ﷺ وريحانته وأحد سيدي شباب أهل الجنة وُلِد رضي الله تعالى عنه في نصف شهر رمضان من السنة الثالثة، وقيل غير ذلك. قال الحافظ في الإصابة: والأول أثبت. قال ابن جرير: وفيها عَلِقَتْ - يعني مولاتنا فاطمة - بالحسين عليهما السلام، وتأتي فضائلهم إن شاء الله تعالى.

* * *

تحريم الخمر

وفي هذه السنة حرّم الله تعالى الخمر، وكان ذلك تدريجياً لما كان عليه العرب من محبّتهم الشديدة لها، وكان تحريمها تابعاً لحوادث تُنَفِّر عنها وتُقَبِّحُها في نفوس مُتَعَاطِيها، فأوّل ما جاء فيها قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ فمنفعة الميسر وهو القمار التصدّق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجِسْم وقلبُ الجبان شُجاعاً وغير ذلك، وبعد هذه الآية تركها البعض وأصَرَّ آخرون على شربها، فصلّى بعض الصحابة المغرب إماماً بالناس، وكان متأثِّراً بالشراب فخلَّط في القرآن،

فنهى الله تعالى عن قرب الصلاة مع السكر، فقال عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، فكان الرجل يشربُها في الأوقات التي لا صلاة فيها؛ كبَعْد العشاء أو بعد صلاة الصبح.

ولما وقع اعتداء من بعض السكارى حيث ضرب آخر بعظم حتى شجّه نزل تحريمها بتاتاً، فجاءت الآية الكريمة من سورة المائدة تنهى عنها وتبيّن مضارها ومفاسدها، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، فكانت هذه الآية هي الفاصل النهائي لتحريمها تحريماً أبدياً. وقد ذكرت ما جاء في تحريمها من الأحاديث وبيان ما في هذه الآية من الدلائل على تحريمها في التفسير وفي كتاب الأشربة، فمن شاء التوسّع في ذلك فليرجع إليها وبالله التوفيق.

* * *

السنة الرابعة

اغتيال خالد بن سُفيان الهُذَليّ على يد عبدالله بن أُنَيس

[٣١٢] عن عبدالله بن أُنَيسٍ رضي الله تعالى عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: **«إنه قد بلغني أن خالِدَ بن سُفيان بن نَبيح يَجْمَعُ لي الناسَ لِيَغزُوَني وهو بعُرَنَة فأتِه فاقْتُلْه»**، قال: يا رسول الله انْعَتْه لي حتى أعرِفَه، قال: **«إذا رأيتَه وجدتَ له قُشَعْرِيرَة»**، قال: فخرجت مُتَوَشِّحاً بسيفي حتى وقعتُ عليه وهو بعُرَنَة مع ظُعُنٍ يرتاد لهنّ منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيتُه وجَدتُ ما وصفَ لي رسول الله ﷺ من القُشَعْريرَةِ، فأقبلتُ نحوه، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولةٌ تَشغَلُني عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أُومِيءُ برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: مَن الرجل؟ قلتُ: رجل من العرب سَمِع بك وبِجَمْعِكَ لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا

أَمْكَنَنِي حملت عليه بالسيف حتى قتلته ثم خرجت وتركت ظَعَائِنَه مُكِبَّات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: **«أفلَحَ الوَجْهُ»**، قال: قلتُ: قتلتُه يا رسول الله، قال: **«صدقتَ»**، قال: ثم قام معي رسولُ الله ﷺ فدخل بَيْتَه فأعطاني عصا، فقال: **«أمسِكْ هذه عندك يا عبدالله بن أنيس»**، قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أُمْسِكَها، قالوا: أَوَلاَ تَرْجِع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لِمَ أعْطَيْتَنِي هذه العصا؟ قال: **«آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقلّ الناس المُتَخَصِّرُون يومئذ يوم القيامة»**، فقرنها عبدالله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فصُبَّتْ معه في كفنه ثم دُفِنا جميعاً.

رواه أحمد (٣/٤٩٦)، وأبو داود في باب صلاة الطالب (١٢٤٩)، والبيهقي في الكبرى (٣/٢٥٦) من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبدالله بن أنيس عن أبيه به، واللفظ لأحمد ورجاله ثقات غير ابن عبدالله ذكره ابن أبي حاتم وسكت عن حاله. أما ابن حبان فذكره في الثقات رغم أنه لم يَرْوِ عنه إلا محمد بن جعفر، وهو وإن كان ثقة من رجال الصحيحين فإنه لا يرفع عنه الجهالة، ومع ذلك فقد سكت عنه أبو داود والمنذري وجوّده ابن كثير في تفسيره وحسَّنه الحافظ في الفتح، وأورده النور في المجمع (٦/٢٠٣، ٢٠٤) برواية أحمد والطبراني، وقال: رجاله ثقات ـ يعني رجال الطبراني ـ.

«أُنَيْس» هو مصغر أنس. «بعُرنة» ـ بضم العين ثم راء ونون مفتوحتين ـ وادٍ بحذاء عرفات. «قُشَعْرِيرَة» ـ بضم القاف وفتح الشين وسكون العين بعدها راء مكسورة فياء ثم راء مفتوحة ـ هي رعدة تصيب الإنسان من الخوف... «ظُعُن» ـ بضم الظاء والعين ـ جمع ظعينة، والمراد نساؤه. «يَرْتادُ» أي يطلب لهنّ منزلاً أو يتحرى لهم مكاناً ليّناً. «المتخصرون» أو المختصرون أي: المتكؤون على المخاصر جمع مخصرة وهي ما يُمْسِكُهُ الإنسان بيده من عصا وغيرها، والمراد به هنا الذين يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكؤون عليها.

كان من آثار ما أُصيب به المسلمون بأُحد أن تجرّأت عليهم القبائل العربية وحاولت الإغارة على المدينة لانتهاب خيرها، وحَسِبوا أن ما فيها أصبح غنيمة باردة لهم، وجعل خالد بن سفيان الهذلي يجمع الجموع من القبائل لحرب المسلمين والهجوم على المدينة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إليه أحد أبطاله الشجعان ليقتله، فخرج حتى وصل إليه بعد مراحل تربو على العشر، فخدعه بمعسول كلامه حتى وثق به، فلما تمكّن منه علاه بسيفه فقتله، ثم كرّ راجعاً ليبشّر النبيّ ﷺ بقتله.

وفي هذه القصة لاغتيال ذلك العدوّ فوائد تتجلّى في الآتي:

أولاً: في ذلك مغامرة رائقة وفداء رائع من هذا الصحابي الجليل في اغتيال ذلك العدوّ الذي كان يكيد للنبيّ ﷺ وللإسلام والمسلمين.

ثانياً: فيها مشروعية قتل من تظاهر بالعداوة للإسلام والمسلمين على غرّة وخدعة، وهذا لا خلاف فيه بين أئمّة الإسلام وعلمائه.

ثالثاً: فيما فعله هذا الصحابي من الصلاة ماشياً مع استدبار الكعبة صحة تلك الصلاة، وأن الصلاة قد تسقط بعض شروطها وفرائضها للحاجة والضرورة كهذه الحادثة، وقد سمّى الفقهاء هذه الصلاة على هذه الحالة صلاة الطالب...

رابعاً: كان من مكافأة رسول الله ﷺ لعبدالله بن أنيس على هذا الفداء أن أعطاه عصا يأتي بها يوم القيامة كعلامة بينه وبينه ﷺ حتى يخصّه بشفاعة ونفع في ذلك اليوم العظيم.

***

❁ قصة أصحاب الرجيع

---

[٣١٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عَشْرَةَ رَهْطٍ سريةً عَيْناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جدّ عاصم بن عمر، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدْأة، وهو بين عُسْفان ومكّةَ، ذُكِرُوا لِحَيّ

من هُذَيْل يقال لهم بنو لِحْيان، فنفَرُوا لهم قريباً من مائتي رجل كلُّهم رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هٰذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لَجَأُوا إلى فَدْفَدٍ، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعْطُونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً.

قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أمّا أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمّة كافر، اللّهم أخبر عنّا نبيّك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خُبَيْب الأنصاري، وابن دَثِنَة ورجلٌ آخر، فلما اسْتَمْكَنُوا منهم أطلقوا أوتار قِسِيِّهِم فأوْثَقُوهُمْ، فقال الرجل الثالث: هذا أوّل الغدر، والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأُسوة - يريد القتلى - فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخُبَيْب، وابن دَثِنَة حتى باعوهما بمكّة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، فأخبرني عبيدالله بن عياض أن بنت الحارث أخبرتْه أنهم حين أجمعوا قتله فاستعار من بعض بنات الحارث مُوسَى يَسْتَحِدُّ بها فأعارتْه، فدرج بنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه فوجدتْه مُجْلِسَه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعت فزعةً عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك.

قالت: والله ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد وما بمكّة من ثمرة.

وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحلّ، قال لهم خبيب: دعوني أصلّي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللّهمّ أحْصِهم عدداً، واقتلْهم بَدَداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

فَلَسْتُ أبالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كان لله مَصْرَعِي
وذلِكَ في ذاتِ الإلٰهِ وإنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ علَى أوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه أبو سَرْوَعَة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب سنّ لكل مسلم قتل صبراً الصلاة، فاستجاب الله تعالى لعاصم بن ثابت يوم أصيب فأخبر النبيّ ﷺ أصحابه خبرهم وما أُصيبوا، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حُدِّثوا أنه قُتِل لِيُؤْتُوا بشيء منه يُعْرَفُ، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبُعِثَ على عاصم مثلُ الظُّلَّة من الدّبْر فحَمَتْه من رسولهم. فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً.

رواه أحمد (٢/٢٩٥، ٣١٥)، والبخاري في المغازي (٨/٣٨٢، ٣٨٧) وفي مواضع، وأبو داود رقم (٢٦٦٠، ٢٦٦١) في الجهاد، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٢٣، ٣٢٥) وغيرهم.

قوله: «فدفد» بفتح الفاءين بينهما دال ساكنة هي الرابية المشرفة. وقوله: «قطفاً من عنب» أي: عنقوداً. وقوله: «بدداً» بفتحات أي: متفرّقين. وقوله: «أوصال» جمع وصل وهو العضو و«الشلو» بكسر الشين الجسد و«الممزع» أي: المقطع، ومعناه: وإن يشأ الله تعالى يبارك على أعضاء جسد يقطع. وقوله: «مثل الظلة» ـ بضم الظاء ـ السحابة. و«الدبر» ـ بفتح الدال وسكون الباء ـ هي الزنابير.

في قصة هؤلاء الشهداء العشرة فوائد، وهي كما يلي:

أولاً: فيها مشروعية إرسال الجواسيس يتجسّسون على أحوال الكفار وما يريدون... وهذا لا خلاف فيه بين سائر الدول المسلمة والكافرة القديمة والحديثة.

ثانياً: الصحيح أن هذه السرية كانت في شهر صفر أول السنة الرابعة...

ثالثاً: لا ينبغي للمؤمن أن ينزل على عهد كافر وأن يثق به، بل يجب عليه أن يصمد ويقاتل حتى يُقتل، وأن لا يستأسِرَ، وفي القضية خلاف بين الفقهاء.

رابعاً: مشروعية صلاة ركعتين لمن يقتل صبراً، ولا خلاف في ذلك يُعْرف.

خامساً: إثبات كرامات الأولياء حيث إن الله عزّ وجلّ أكرم عاصماً باستجاب دعوته فأبلغ نبيه ﷺ ما حلّ بهم من طرف الأعداء؛ هذه كرامة، وكرامة ثانية حماية الله عزّ وجلّ لجسده من الكفار بإرسال سحابة من الزنابير ظلّلت عليه حتى لم يقدروا من الدنوّ منه، ثم كرامة ثالثة؛ وقعت لخبيب حيث إن الله عزّ وجلّ كان يرزقه العنب وهو مقيّد في أسره وليس للعنب وجود بمكّة في ذلك الإبان، فهذه كرامات أكرم الله بها أولئك الكرام وما عند الله أكرم وأبقى.

* * *

قصة القراء السبعين ببئر معونة

[٣١٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: جاء ناس إلى النبيّ ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يُعلِّمونا القرآن والسُّنَّة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القرّاء فيهم خالي حرام، يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبيّ ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللّهمّ بلّغ عنّا نبيّنا أنّا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنّا، قال: وأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزت وربّ الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«إن إخوانكم قد قُتِلوا، وإنهم قالوا: اللّهم بلّغ عنّا نبينا أنّا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنّا»**.

رواه مسلم في الإمارة (٤٦/١٣، ٤٧) بهذا السياق.

وفي رواية: أن رِعْلاً وذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ وبَنِي لِحيان اسْتَمَدُّوا رسولَ الله ﷺ على عدوٍّ فأمدّهم بسبعين من الأنصار كنا نسمّيهم القراء في زمانهم، كانوا يَحْتَطِبُون بالنهار ويُصلّون بالليل حتى إذا كانوا ببئر معونة قَتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النبيّ ﷺ فقنت شهراً يدعو في الصبح على

أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً ثم إن ذلك رفع: **«بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنّا وأرضانا»**.

رواه أحمد (٣/١٦٧، ٢٥٥)، والبخاري في المغازي (٨/٣٨٩) وفي مواضع، ومسلم في المساجد (٥/١٧٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/٥٣، ٥٤).

بئر معونة موضع شرقي المدينة بين أرض بني عامر وبني سليم ناحية نجد كانت به هذه الوقعة في شهر صفر من هذه السنة عقب وقعة الرجيع، وقوله: ابعث معنا رجالاً يُعلِّمونا القرآن والسنَّة، وقوله في الرواية الأخرى: استمدّوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ إلخ، وقوله في رواية أخرى للبخاري: بعث النبيّ ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، وقوله في رواية لكعب بن مالك التي رواها عبدالرزاق رقم (١/٩٧٤)، والطبراني برجال الصحيح كما في المجمع (٦/١٢٦، ١٢٧): جاء ملاعب الأسِنَّة إلى النبيّ ﷺ فقال: فابعث إلى أهل نجد من شئت، فأنا لهم جارٌ. في هذا اختلاف وتعارض، وقد حاول الحافظ الجمع بين بعض ذلك فلم يفد شيئاً، وعلى أيٍّ فالمقصود هو أن النبيّ ﷺ بعث سبعين رجلاً من خيار المسلمين وقرّائهم للدعوة إلى الله تعالى فغدر بهم الكفار فقتلوا جميعهم إلا رجلاً أو رجلين، وحزن عليهم النبيّ ﷺ حزناً شديداً وجعل يقنت ويدعو على تلك القبائل شهراً كاملاً في جميع الصلوات الخمس بعدما يرفع رأسه من الركعة الأخيرة وأشرك معهم في القنوت بني لحيان الذين قتلوا عاصماً وأصحابه في سرية الرجيع، هذا مما لا ينبغي أن يُخْتَلف فيه، وما عدا ذلك فالروايات فيه مختلفة وارجع إلى كتب السيرة. وفي هذه القصة فوائد:

منها: ما كان عليه الصحابة من دراستهم للقرآن وقيام الليل ومساعدتهم الفقراء أهل الصفة.

ومنها: مشروعية إرسال البعوث للدعوة إلى الله تعالى بشرط أن يكونوا من أهل العلم والدين وتزكية النفوس.

ومنها: أن من كان في طريق الدعوة وقُتِل لذلك كان فائزاً سعيداً، ولذلك جاء في الرواية أن حَرَاماً ابن ملحان أخا أمّ سُلَيْم خالَ أنس لمّا قتلوه وهو يحدّثهم عن الإسلام قال: الله أكبر فزت وربّ الكعبة، ونضح الدم على وجهه ورأسه فرحاً بما ناله من الشهادة.

ومنها: إكرام الله عزّ وجلّ لأولئك القرّاء حيث لقوا الله فرضي عنهم ورضوا عنه، وسألوه أن يبلّغ نبيّه ﷺ عنهم ما نالوه من حفاوة ورضوان.

ومنها: أن الله تعالى لمّا أوحى إلى نبيّه ما نزل بهم كان ذلك قرآناً يُتلى ثم نُسخ ورُفع.

ومنها: مشروعية القنوت في سائر الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة، وبهذا قال كل الأئمّة مالك والشافعي وأحمد والظاهرية وأهل الحديث إلا أبا حنيفة رحم الله الجميع. أما مشروعيته لغير ذلك، فقال به مالك والشافعي في الصبح، وابن حزم في جميع الصلوات.

[٣١٥] وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قُتِل الذين ببئر معونة وأُسِرَ عَمْرُو بن أُمَيّة الضَّمْرِي قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل فقال له عمرو بن أُمية: هذا عامر بن فُهَيْرة، فقال: لقد رأيته بعدما قُتِل رُفِع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وُضِع...

رواه البخاري في المغازي (٣٩٣/٨، ٣٩٤) وهو وإن كان مرسلاً فالقصة واردة من طرق أخرى متّصلة.

فهذه كرامة حصلت لعامر بن فهيرة رضي الله تعالى عنه بعد موته وهو مولى لأبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه، وكان ممّن صحبهم في الهجرة. وقوله في هذه الرواية: وأُسِرَ عَمرو بنُ أُمَيّة الضَّمْرِي جاء في كتب السّيرة عند ابن إسحاق وغيره أن عمرواً هذا كان ورجلاً آخر في سرح القوم، فلما قُتل إخوانهم جاءوا وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة. أما الرجل

الأنصاري، فقاتل حتى قُتِل، وأما عمرو بن أُمية فأسَرُوه، ولما علم عامرُ بن الطفيل رئيسُ القوم أنه من مضر أطلقه بعد أن جَزَّ ناصيته واعتقه عن رقبة كانت على أمّه فيما زعم. ذكره ابن إسحاق في قصة طويلة مرسلة.

وبالجملة، فهذه الحادثة والتي قبلها كان لهما الأثر الشديد في نفس النبيّ ﷺ ونفوس أصحابه، وتألّمُوا لذلك أشدّ الألم، ولذلك دعا النبيّ ﷺ على أولئك القبائل شهراً كاملاً في جميع الصلوات الخمس: **«اللّهمّ عليك بِرِعْلٍ وذكوان وعُصَيّة عصت الله ورسوله ﷺ»**.

[٣١٦] وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قنتَ رسولُ الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعِشاء وصلاة الصبح في دُبُرِ كلِّ صلاة إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على أحياءٍ من بني سليم على رعل وذكوان وعُصية ويؤمّن مَنْ خلفه...

رواه أحمد (١/٣٠١)، وأبو داود (١٤٤٣)، والحاكم (١/٢٢٥) وصححه ووافقه الذهبي.

* * *

❋ غزوة بني النضير

[٣١٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل حتى ظنّوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها، قيل له: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قيل: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٣٩)، ومسلم في التفسير (١٨/١٦٥).

[٣١٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: حَرَّقَ رسولُ الله ﷺ نَخلَ بني النّضير وقَطَع، وهي البُوَيْرةُ فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم

﴿مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفي رواية: أن النبيّ ﷺ حرّق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت:

وهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

رواه البخاري (٣٣٥/٨، ٣٣٦)، ومسلم (١٧٤٦)، والترمذي (١٤١٩)، وأبو داود (٢٦١٥) كلّهم في الجهاد، ورواه الترمذي أيضاً في التفسير (٣٠٨٥)، وأبو داود (٢٦١٥)، وابن ماجه (٢٨٤٤).

[٣١٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت غزوة بني النضير ـ وهم طائفة من اليهود ـ على رأس ستّة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجَلاَءِ، وعلى أنّ لهم ما أقَلَّت الإبلُ والأمْتِعَة والأموالُ إلا الحلقةَ ـ يعني السلاح ـ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الآية، فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام.

رواه الحاكم (٤٨٣/٢)، والبيهقي في الدلائل (٤٤٤/٢) وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

[٣٢٠] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير، وأقرّ قريظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبيّ ﷺ فآمَنوا وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلّهم: بني قينُقاع، وهم رهط عبدالله بن سلام، ويهود بني حارثة وكل يهود المدينة.

رواه البخاري في المغازي (٣٣٣/٨، ٣٣٤).

[٣٢١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية، قال: «**اللينة** النخلة، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: **استنزلوهم من حصونهم**»، قال: وأمروا بقطع النخل فحكّ في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلَنَسْأَلَنّ رسولَ الله ﷺ هل

لنا فيما قطعنا مِن أجْرٍ، وهل علينا فيما تركنا من وِزْرٍ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً﴾ الآية.

رواه الترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٨٣/٦) بسند صحيح.

٨

بنو النضير من القبائل اليهودية الثلاث التي كانت بضواحي المدينة، وأصلهم من نسل نبيّ الله هارون عليه السلام، وكان عبدالله بن سلام الصحابي منهم، وكذا صفية أمّ المؤمنين كانت منهم. وسكن أهلها خيبر بعد جلائهم.

وقد قدمنا أن الكفار بعد هجرة النبيّ ﷺ كانوا ثلاثة أقسام: قسم وادعهم على أن لا يحاربوه، ولا يمالؤا عليه عدوّه، وهم طوائف اليهود: قَينُقاع، والنضير، وقريظة؛ وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش ومَن حالفهم، وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف العرب، فمنهم من كان يحبّ ظهوره في الباطن كخزاعة، وبالعكس كبني بكر، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوّه باطناً وهم المنافقون.

فكان أوّل من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوّال بعد وقعة بدر وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات كما تقدم.

ثم نقض العهد ثانياً بنو النضير، وكان رئيسهم حُيَيّ بن أخطب، وكان سبب ذلك انهزام المسلمين بأُحد، فإنه عقب ذلك نكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكّة وحالفوا أبا سفيان، فندب رسول الله ﷺ إلى من يقتل كعباً، فكان محمد بن مسلمة وأصحابه كما تقدم، واتّفق أن قتل عمرو بن أمية الضَّمري رجلين من بني عامر خطأً، فقال له النبيّ ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدِيَنّهما»، فخرج في جماعة من أصحابه لبني النضير ليُكَلِّمهم في إعانته على دية الرجلين، فلما أتاهم وكلّمهم في ذلك قالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، فأرادوا الغدر به بإلقاء صخرة عليه من فوق سطح بيت، فجاء رسولَ الله الخبرُ من الله تعالى بما همّوا به، فنهض سريعاً وتوجّه إلى المدينة ولحقه أصحابه فأخبرهم بما أراد اليهود، ثم أرسل إليهم

رسول الله ﷺ: «**أن اخرجوا من بلدي وقد أجّلتكم عشراً**»، فلما أرادوا التهيّؤ للخروج بعث إليهم عبدالله بن أبي المنافق: لا تخرجوا فإنكم إن قوتلتم لننصرنّكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، فعند ذلك تربّصوا وتحصّنوا في حصونهم، وظنّوا أنها مانعتهم من الله، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم ستّ ليال، ثم أمر بقطع نخيلهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من ابن أبَيّ مناصرة بل خذلهم كما خذل من قبلهم بني قينقاع، فتنازلوا وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفّ عن دمائهم ويجليهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم وأمتعتهم إلا آلة الحرب، ففعل ﷺ فجعلوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ولما خرجوا نزل بعضهم بخيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وكان رئيسهم حُيَيّ بن أخطب ممّن نزل بخيبر.

وأسلم منهم: يامين بن عمرو، وأبو سعد بن وهب.

* * *

فوائد القصة وأحكامها

اختلف أهل السِّير في وقت هذه الغزوة وتاريخها، فذهب الزهري نقلاً عن عروة بن الزبير وهو الذي روته عائشة أنها كانت قبل أُحد، وذهب ابن إسحاق وأكثر أهل المغازي أنها كانت بعد أُحُد وبئر معونة، وأيّد هذا الرأي ابن حزم في جوامع السِّير وابن القيم في زاد المعاد. قال ابن القيم: بل الذي لا شكّ فيه أنها كانت بعد أُحُد، والتي كانت بعد بدر بستّة أشهر هي غزوة بني قينُقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية.

وفي القصة مشروعيّة قطع الأشجار وتحريق المزارع... عند الجهاد لإغاظتهم، وليكون ذلك أدعى لاستسلامهم، كما فيها أن أراضي النضير ومزارعهم ونخيلهم تركوها نفلاً لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصّة لم يخمسها لأنها لم يُوجَفْ عليها بخيل ولا ركاب، فكان يأخذ منها

نفقة سنة لأهله والباقي يجعله مجعل الله عزّ وجلّ والمصالح العامّة.

وقد نزلت في هذه القصة وغزوة النضير عدة آيات، فنزل في شأن اليهود قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

وقال في الفيء: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقال في شأن المنافقين في زعمهم مناصرة اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ الآية.

قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: في أول مرة حشروا فيها للشام وأخرجوا من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذلّ والخزي قبلُ. وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾، يعني: لولا أن الله قضى عليهم بالخروج من أوطانهم بالأهل والأولاد لعذّبهم في الدنيا بالقتل كما فعل بإخوانهم قريظة، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، أي: سبب ذلك مخالفتهم لله ولرسوله وارتكابهم ما ارتكبوا من جرائم ونقض للعهود. وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، الفَيْء ما يؤخذ من الكفار من غير قتال كما وقع من بني النضير، فإن أموالهم أُخذت بدون حمل الإبل وغيرها على السير ولا ركوب عليها لقطع شقّة، وما كان كذلك كان خاصّاً لله ولرسوله ﷺ لا يخمّس ولا حظّ فيه للحاضرين على العموم، وقد قدّمنا الكلام على هذا في التفسير وفي الجهاد.

* * *

❁ غزوة بدر الثانية

[٣٢٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أحد وبلغوا الرَّوْحاء، قال أبو سفيان: لا محمد قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد أو بئر بني عُيَيْنة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، وذلك أن أبا سفيان قال للنبيّ ﷺ: مَوْعِدُك موسمُ بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجَع. وأما الشُّجاعُ فأخذ أُهْبة القتال والتجارة فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوّقوا، فأنزل الله عزّ وجلّ ذكره: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٣١٧/٦)، وابن جرير (١٨٠/٤) بسند صحيح وقد تقدم في غزوة حمراء الأسد، «الكواعب» الفتيات اللاتي برزت ونهدت ثديهن.

كانت بدر يعقد فيها سوق تجاري في شعبان من كل سنة، ولما حلّ الأجل الذي جعله أبو سفيان موعداً في بدر ولم يتيسّر له الخروج أراد أن يخذل المسلمين عن الخروج ويُرْعبهم، فاسْتأْجر نُعَيْم بن مَسْعُود الأشجعي ليأتي المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة، فقدم نعيمُ المدينة فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فلم يلتفت عليه السلام لهذا الإرجاف اتكالاً على ربّه، بل قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فخرج ﷺ بألف وخمسمائة من أصحابه ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحداً، فأقاموا ببدر لا يشاركهم في تجارته أحد، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ الآية.

[٣٢٣] وعن ابن عباس أيضاً قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِي في النار، وقالها مُحمد ﷺ حين قالوا: إن النّاس قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهُم فزادَهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٧/٩)، والنسائي في الكبرى (٣١٦/٦)، وابن جرير (١٨٢/٤).

فالآية الأولى وهي: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إلخ، جاءت في غزوة حمراء الأسد. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ جاءت في شأن بدر والخروج لها.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ المراد به نعيم بن مسعود، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ هو أبو سفيان وأصحابه، فزادهم ذلك القول إيماناً ويقيناً بالله عزّ وجلّ، ولذلك قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا أمرهم ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ المفوّض إليه الأمر هو سبحانه.

وقوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أي: رجعوا من بدر ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ بسلامة وربح في تجارتهم ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ﴾ لم يصبهم سوء لا قتل ولا جراحة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أي: القائل لكم إن الناس قد جمعوا ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ وهم الكفار ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ الآية، بمعنى أن الشيطان هو الذي حملهم على تلك المقالة فلا تخشوهم وخافون في ترك أمري إن كنتم مؤمنين.

* * *

زواجه ﷺ بأمّ سلمة رضي الله تعالى عنها

[٣٢٤] عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: لما توفي أبو سلمة وانقضت عدّتها خطبها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن فِي ثلاثَ خصال: أنا امرأةٌ كبيرةٌ، فقال رسول الله ﷺ: **«أنا أكبرُ منك»**، وأنا امرأةٌ غيورٌ، قال: **«أدعُو الله عزّ وجلّ فيُذْهِبُ غيرَتك»**، قالت: يا رسول الله وإني امرأة مَضبِيَةٌ، قال: **«هم إلى الله ورسوله»**، فتزوّجها فجعل يأتيها فوجدَها تُرْضِع فانصرف ثم أتاها فوجدها تُرضع فانصرف، قال: فبلغ ذلك عمّار بن

ياسر فأتاها[1] فقال: حُلْتِ بَيْنَ رسولِ الله ﷺ وبينَ حاجَتِهِ هلمّ الصبية، قال: فأخذها فاسترضع لها فأتاها رسول الله ﷺ فقال: «**أين زَنَابُ**»، يعني زينب، قالت: يا رسول الله أخذها عمار، فدخل بها. وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «**إني آتيكم الليلة**»، قالت: فقمت فأخرجتُ حبّاتٍ من شعير كانت في جِرابٍ وأخرجتُ شحماً فعَصَرْتُه له، قالت: فبات النبيّ ﷺ ثم أصبح، فقال حين أصبح: «**إنّ لكِ على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعتُ لكِ وإن أُسَبِّع أسَبِّع لنِسائي**».

رواه أحمد (٣٠٧/٦، ٣١٣، ٣١٤) مطوّلاً، ورواه مسلم (٢٢٠/٦، ٢٢٢)، وأبو داود، وابن ماجه بعضه، وأخرجه ابن سعد (٩٠/٨)، والبيهقي في الدلائل (٤٦٤/٣)، وللحديث طرق وألفاظ وقد قدّمنا بعض طرقه وألفاظه في التفسير وفي النكاح.

أم سلمة هي هند بنت أبي أُميّة بن المغيرة المخزومية القرشيّة أسْلَمَتْ قديماً وهاجرتْ مع زوجها وابن عمّها أبي سلمة إلى الحبشة فوُلدتْ لهما بها سَلَمةُ ثم قَدِمَا مكّة وهاجرا إلى المدينة كما تقدّم، ووُلد لها بالمدينة عُمَرُ ودرّة وزينبُ، وتوفي عنها أبو سلمة رضي الله تعالى عنه من جراحات أصابته بأُحد، فلما انقضت عدّتها من نفاس زينب تزوّجها رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة سنة أربع، كذا في الإصابة وغيرها. وقيل: توفي أبو سلمة في جمادى الآخرة وتزوّجها رسول الله ﷺ في شوّال كما عند ابن سعد (٨٧/١) وغيره، وذكره الحاكم أيضاً وسكت عنه الذهبي.

وتوفيت سنة إحدى وستين وهي آخر نساء النبيّ ﷺ موتاً، بعد أن جاءها نعي قتل الحُسين عليه السلام، وسيأتي شيء من هذا في فضائلها إن شاء الله تعالى.

وفيما أجاب النبيّ ﷺ أمّ سلمة عمّا اعتذرت به وما فعله معها وتحمله، غايةٌ في حُسْن الخلق والملاطفة والمجاملة والمعاملة الطيّبة، وكيف لا والله عزّ وجلّ يقول له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾.

---

(١) كان عمار أخاها لأمها.

❁ ولادة الإمام الحُسَيْن عليه السلام

قدَّمنا أن الحسن عليه السلام وُلد في السنة الثالثة في رمضان منها، ثم علِقَتْ سيدتنا فاطمة بالحسين عليه السلام عقب طهرها.

فوُلد في السنة الرابعة على الصحيح في شعبان منها.

والحسين هو أحد ريحانتي رسول الله ﷺ وأحد سادات شباب أهل الجنّة قُتِل شهيداً بكربلاء أيام يزيد بن معاوية على يد عامله على الكوفة والبصرة عبيدالله بن زياد، وستأتي ترجمته كأخيه الحسن في الفضائل إن شاء الله تعالى.

❁ ❁ ❁

❁ خلاصة أحداث السنة الرابعة

وهي كالآتي: اغتيال خالد بن سفيان الهذلي، قصة أصحاب الرجيع، قصة القرّاء ببئر معونة، غزوة بني النضير، فوائد القصة، غزوة بدر الثانية، زواج النبيّ ﷺ بأمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، ولادة الحسين عليه السلام.

❁ ❁ ❁

❁ السنة الخامسة
غزوةُ بني المُصْطَلِق أو غزوة المُرَيْسِيع

[٣٢٥] عن محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى عن جماعة من شيوخه كلٌ قد حدّثه ببعض حديث بني المصطلق، قال: بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم

حتى لَقِيهم على ماءٍ لهم يقال له المريسيع من ناحية قُدَيْد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقُتِل الحارث بن أبي ضِرار أبو جُوَيْرِية وقُتِل مَن قتل منهم، ونفَّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، وكان رسولُ الله ﷺ أصاب منهم سبياً كثيراً قسمه بين المسلمين، وكان فيما أصاب يومئذ جويرية بنت أبي ضِرار سيّدة قومها. . .

ذكره ابن هشام (٢٣٥/٣) وسنده صحيح غير أنه مرسل، وقال النور (١٤٢/٦): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

[٣٢٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تُسْقَى على الماء فقتل مُقاتِلَتَهم، وسَبَى ذَرَارِيهم وأصاب يومئذ جويرية.

رواه أحمد (٣١/٢، ٣٢، ٥١)، والبخاري في العتق رقم (٢٥٤١ ج ٩٧/٦)، ومسلم في الجهاد (١٧٣٠ ج ٣٥/١٢، ٣٦)، وأبو داود فيه أيضاً (٢٦٣٢)، والبيهقي في الكبرى (٥٤/٩، ١٠٧) وقد تقدّم في الجهاد.

[٣٢٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعتْ جويريةُ بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عمٍّ له، وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلْوَة مَلَاحَة، لا يراها أحدٌ إلا أخذتْ بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حُجْرَتي فكرِهْتُها وعرفتُ أنه سيرى منها ما رأيتُ، فدخلتْ عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار سيّد قومه، وقد أصابني ما لم يخف عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عمٍّ له، فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «**فهل لك خير من ذلك**»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**أقضي كتابتك وأتزوَّجُكِ**»، قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**قد فعلت**».

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوّج جويرية بنت

الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بيدهم. قالت: فلقد أُعْتِقَ بتزويجه إياها مائةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومِها منها.

رواه أحمد (٢٧٧/٦)، وأبو داود في العتق (٣٩٣١)، والحاكم (٢٦/٤)، والطبراني في الكبير (٦١/٢٤)، وسنده حسن أو صحيح.

«بنو المُصْطَلق» بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء بعدها لام مكسورة آخرها قاف؛ هم بطن من بني خزاعة. أما «المُرَيْسِيعُ» فبضم الميم وفتح الراء وسكون الياء وكسر السين هو اسم ماء لبني خزاعة من ناحية قُدَيْد بضم القاف مصغّر موضع قريب من عسفان ومرّ الظهران. وقوله: «أغار عليهم» أي: هاجمهم وهم غارون غافلون. وقولها: «حلوة ملاحة» أي: جميلة مليحة.

اختلف علماء السيرة والغزوات متى كانت هذه الغزوة على ثلاثة أقوال، فقيل: كانت سنة ستّ، قاله ابن إسحاق وتبعه جماعة؛ كابن جرير وابن عبدالبرّ وابن حزم وابن الأثير وغيرهم. وقيل: كانت في سنة أربع، ورجحه موسى بن عقبة والإمام مالك والبخاري والنووي وغيرهم. وقالت طائفة ثالثة: إنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، وقال بهذا القول ابن سعد وابن قتيبة والبلاذري وابن القيّم والذهبي وابن كثير والحافظ في آخرين، وهذا القول هو الأصح والأظهر لأدلّة ظاهرة تؤيّده، وقد ذكر بعضها في الفتح (٤٣٤/٨) من كتاب المغازي، وكان لهذه الغزوة أسباب، منها: أن هذه القبيلة ساعدت قريشاً على حرب المسلمين في أُحد. ومنها: أنهم كانوا يجمعون الجموع استعداداً لمحاربة النبيّ ﷺ، فخرج إليهم ﷺ في جمعٍ كثيف وولّى على المدينة زيد بن حارثة وخرج معه من نسائه سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، فسار ﷺ فقاتلهم وهزمهم وسبى نساءهم وذراريهم واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير والشياه خمسة آلاف، فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه.

* * *

❋ زواجه ﷺ بجويرية

وكان في جملة السبي جويرية بنت الحارث سيّد القوم، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبته فأتت النبيّ ﷺ تستعينه على ذلك، فأدّى عنها كتابتها وتزوّجها ﷺ، فكانت أعظم الناس بركةً على قومها؛ إذ عُتِقَ بسببها مائة أهل بيت من قبيلتها، ثم أسلمت القبيلة عن بكرة أبيها، فأصبحوا عوناً للمسلمين بعد أن كانوا عليهم، وهٰهنا يظهر أثر الكرم والعفو والمعاملة الجميلة مع السياسة النبيلة من النبيّ ﷺ، فإنه كان ينظر بعيداً، فلم يكن همّه التمتّع بجويرية المليحة فحسب، بل كان يرى والله تعالى أعلم أنها بنت سيّد قومها وقبيلتها كانت من القبائل العربية المشهورة التي لها بال، فأراد بزواجه ببنت سيد قومها استمالتهم إليه إذ أصبحوا أصهاره ﷺ.

❋ ❋ ❋

❋ محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المسلمين

[٣٢٨] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في غزوة، قال: يرون أنها غزوة بني المصطلق، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا لَلأنصار، وقال المهاجري: يا لَلْمُهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«ما بالُ دَعْوَى الجاهلية»**؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: **«دعوها فإنها مُنْتِنَة»**، فسمع بذلك عبدُالله بن أُبَيّ فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيّ ﷺ: **«دَعْهُ لا يتحدَّثُ الناسُ أن مُحمداً يَقتلُ أصحابه»**، وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٧٤، ٢٧٥)، ومسلم في البرّ والصلة

رقم (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٧) بتهذيبي.

[٣٢٩] وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع عمّي، فسمعت عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول يقول لأصحابه: لا تُنفِقُوا على مَن عِند رسول الله حتى يَنفَضُوا... ولئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأذلَّ.

فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك عمّي للنبيّ ﷺ، فدعاني النبيّ ﷺ فحدَّثْتُه، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أُبَيّ وأصحابه فحلَفُوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني شيء لم يصبني شيءٌ قطّ مثله، فجلستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلا أن كذّبك رسول الله ﷺ ومقَتَك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فبعث إليّ رسولُ الله ﷺ فقرأها ثم قال: **«إن الله قد صدقك»**.

رواه البخاري في التفسير ومسلم في صفات المنافقين والترمذي وغيرهم، وقد تقدم في التفسير.

قوله: «فكسع» ـ بفتحتين ـ أي: ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه. وقوله: «دعوها» أي: دعوى الجاهلية وهي الاستغاثة للانتصار. وقوله: «مُنتنة» أي: هذه الدعوى قذرة خبيثة. وفي الحديثين بيان بعض فضائح المنافقين ومكرهم وكَيْدهم للمسلمين وإرادتهم الشرّ لهم، وهكذا كان شأنهم وتصرّفاتهم في جميع مواقفهم مع المسلمين أيّاً كانوا حضراً أم سفراً، وقد بلغ من حقد عدوّ الله ابن سلول على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين أنه فاه بأنه إذا رجع إلى المدينة ليخرجنّ منها الأذلّ ـ يقصد النبيّ عليه السلام وأصحابه ـ وزاد عدوّ الله نهي الأنصار عن النفقة على المهاجرين حتى ينفضوا ويرجعوا إلى ديارهم بمكّة. هذه بعض مشاهد المنافقين ومواقفهم ضدّ الإسلام والمسلمين، وقد أنزل الله عزّ وجلّ سورة سمّيت باسمهم تسجل عليهم فضائحهم وكذبهم ومكرهم تُتلى على ألسنة المؤمنين على مدى العصور والأجيال.

وفي حديث جابر بيان سياسة النبيّ ﷺ وحكمته في صرفه عمر عن

قتل ابن أُبيّ المنافق؛ لأن السياسة تقتضي عدم قتله، لأن الإسلام كان لا يزال لم ينتشر في القبائل العربية، التي لا تزال كافرة، فإذا قتل أحداً ممن يتظاهر بالإسلام وهو منافق، أُشيع بين الناس بأن محمداً يقتل أصحابه، فيكون ذلك من أسباب عدم إسلامهم.

وقوله ﷺ: «دعوها فإنها مُنتنة» كان علاجاً لما قد كان يقع من حمية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار كما حصل مرّات، فكان ﷺ نِعْم الطبيب ونِعْم المُصلح المرشد.

هذه حادثة أولى وقعت في هذه الغزوة وهم قافلون إلى المدينة كانت من إثارة عدوّ الله رأس المنافقين ابن سلول، ثم تأتي حادثة أخرى تعتبر من أعظم الأحداث في تاريخ الإسلام، كانت أيضاً من إثارة وإشاعة ذلك العدو تلك هي:

* * *

حادث الإفك

[٣٣٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيَّتُهُنَّ خرج سَهْمُها خرج بها رسولُ الله ﷺ معه، قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزِلَ الحجابُ، فكنت أُحْمَلُ في هَوْدَجِي، وأنزلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل دنَوْنَا من المدينة قافِلِينَ آذن ليلةً بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلت إلى رَحْلِي فلمسْتُ صدْرِي فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظِفارٍ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقدي فحبَسَنِي ابتغاؤُه، قالت: وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يُرَحِّلُوني، فاحتملوا هودجي فرحَلوه على بعيري الذي كنت أركبُ عليه، وهم يحسبون أنّي فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفافاً لم يهبلن، ولم يغشَهُنَّ اللحم إنما يأكلن العُلْقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية

حديثة السنّ، فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدي بعد ما استمرّ الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها منهم داعٍ ولا مُجيب، فتيمّمت منزلي الذي كنتُ به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعونَ إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوانُ بن المُعَطّل السُلَمِي ثم الذَّكْوَانِي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم فعَرَفَني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلّمنا بكلمة، ولا سمعتُ منه كلمةً، غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلتَه، فوطِىءَ على يدها فقمتُ إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش مُوغِرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولّى كبر الإفك عبدالله بن أُبيّ ابن سلول. فذكرت الحديث بطوله.

رواه أحمد والبخاري في مواضع، ومسلم في التوبة، والنسائي في الكبرى وفي المجتبى، وقد تقدم بطوله مع شرحه والكلام عليه مبسوطاً في التفسير، فلا داعي لإيراده بطوله، فارجع إليه تستفد.

فهذه الحادثة النكراء كانت من جملة أحداث غزوة بني المصطلق خلافاً لمن جعلها في غزوة أخرى.

* * *

❊ ريح شديدة تهب لموت عظيم من المنافقين

[٣٣١] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريحٌ شديدةٌ تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله ﷺ: **«بُعِثت هذه الريحُ لموت منافق»**، فلما قدم المدينة، فإذا منافق عظيمٌ من المنافقين قد مات.

أخرجه أحمد (٣١٥/٣، ٣٤١، ٣٤٦)، ومسلم في صفات المنافقين (١٢٧/١٧)، وأبو يعلى (٢٣٠٣).

«هاجت» أي: تحرّكت ريح شديدة الهبوب. وقوله: «قدم من سفر» كان ذلك في هذه الغزوة كما رواه ابن إسحاق، ولما هبَّت تأذّى بها الصحابة وتخوّفوها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لا تخافوها...**». وقوله: «فإذا منافق عظيم» بيَّنه ابن إسحاق بأنه كان رفاعة بن زيد بن التابوت أحد مَن كان أسلم نفاقاً من يهود بني قينُقاع.

والحديث يدلّ على أن ما ينزل بهذا الكون من الكوارث والشدائد كشدة الأرياح، وكثرة الأمطار الخارجة عن العادة والسيول والفيضانات والزلازل... وغير ذلك، كل ذلك يقع من الله تعالى بإذنه يدلّ على غضب منه على عباده إما لإصرارهم على الكفر إنْ كانوا كفاراً، وإما لإسرافهم في المعاصي وتماليئهم عليها وعدم رجوعهم إلى الله عزّ وجلّ إن كانوا مسلمين، وإما لهلاك أحد أساطين الكفر والظلم والنفاق، فيغضب الله عزّ وجلّ لذلك، فيظهر أثر غضبه في هذا الكون، وهذه سنّة إلٰهيّة في عباده، والقرآن مليء بالكلام على ذلك؛ كقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾... وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل أن الله عزّ وجلّ سيغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب مثله قبله ولا بعده، وما ذلك إلا لحضور جميع الكفرة والظَّلمة والجبابرة من يوم بداية ظهورهم إلى يوم القيامة، فيكون غاضباً عليهم حتى إن أكابر عباده المختارين يخشونه ولا يتجرّؤون على مكالمته. جنّبنا الله مواقع سخطه وغضبه، آمين.



غزوة الخندق ويقال لها الأحزاب:
حفر الخندق

[٣٣٢] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم

عَبِيدٌ **يَعْمَلُون ذلك** لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجُوع قال: «**اللّهمَ إن العَيْشَ عيشُ الآخره، فاغفر للأنصارِ والمُهاجره**»، فقالوا مجيبين له: **نحنُ الذين بايعوا محمداً، على الجهاد ما بَقِينا أبَدا**.

وفي رواية قال: جعل المهاجرون يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم وهُمْ يقولون: **نحن الذين بايعوا محمداً، على الإسلام ما بقينا أبَداً**، قال: يقول النبيّ ﷺ وهو يُجيبهم: «**اللّهمّ إنه لا خَيْرَ إلا خَيْرَ الآخِره، فبارك في الأنصار والمهاجره**»، قال: يؤتون بمِلْءِ كَفَّيْ من الشعير فيصنع لهم بإهالة سَنِخَةٍ، تُوضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بَشِعَةٌ في الحلق، ولها ريحٌ مُنْتِنٌ.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٩٨)، ومسلم في الجهاد والسِّير (١٨٠٥ ج ١٢/١٧٣).

[٣٣٣] ونحوه عن سهل بن سعد بلفظ: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهمّ لا عيش إلا عيش**» الحديث.

رواه البخاري (٨/٣٩٦، ٣٩٧)، ومسلم في الجهاد (١٨٠٤).

[٣٣٤] وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ ﷺ ينقل التراب يوم الخندق وقد وَارَى التُّرابُ بياضَ بطنِهِ، وكان كثيرَ الشعر، فسمعتُه يَرْتَجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

والله لولا الله ما اهتَدَينَا ... ولا تَصَدَّقْنا وَلاَ صَلَّينَا

فأَنْزِلَنْ سَكِينَةً علَيْنَا

وَثَبِّتِ الأقْدامَ إنْ لاَقَينَا ... إنَّ الأُولى قَدْ بَغَوْا عَلَينا

إذا أرادُوا فِتْنَةً أبَيْنَا

ورفع بها صوته: «**أبَيْنا، أبَيْنَا**».

رواه البخاري (٨/٤٠٤، ٤٠٥)، ومسلم رقم (١٨٠٣).

«الإهالة» الشحم أو مطلق الدهن. وقوله: «سنخة» ـ بفتح السين وكسر النون ثم خاء مفتوحة ـ أي متغيّرة الطعم واللّون.

غزوة الخندق أو الأحزاب كانت من أخطر الغزوات على النبيّ ﷺ والمسلمين كأحد، وكانت في السنة الخامسة في شوّال على أصحّ القولين. قال ابن القيم في الهدي النبويّ: إذ لا خلاف أن أحداً كانت في شوّال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه، لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه، هذا قول أهل السّير والمغازي، وهو قول ابن سعد وابن إسحاق وعروة وقطع به الذهبي واعتمده الحافظ في الفتح، وكان من أسباب الغزوة أيضاً أن أشراف يهود بني النضير بعد أن أجلاهم النبيّ ﷺ أرادوا الانتقام منه، فذهب وفدٌ منهم لمكّة المكرمة فاتّصلوا بكفار قريش وحرّضوهم على محاربة النبيّ ﷺ والمسلمين، فتحزّبوا وجمعوا القبائل العربية من غطفان، وبني مرّة، وبني سليم، وبني أسد، وساندتهم أيضاً يهود قريظة ومن تَبِعهم، وكان القائد العام للكل أبو سفيان فزحفوا تجاه المدينة بجيش قوي عظيم مكوّن من عشرة آلاف مقاتل.

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ ما أرادوه استشارَ الصحابة في ذلك، فأشار إليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه بحفر الخندق حول المدينة، فاستحسن ذلك منه، فشرعوا يحفرون، وكانت الخندق خاصّة بشرق شمال المدينة إلى غربيّها لأنها التي كانت عارية. أما الجهة الشرقية والجنوبية، فكانت مشتبكة بالنخيل والمنازل والدور. وقد قاسى المسلمون صعوبات وشدائد جسيمة في حفر الخندق، وشارك في ذلك معهم النبيّ ﷺ، فكان ينقل التراب ويتمثّل بشعر ابن رواحة: والله لولا الله ما اهتدينا الخ، وأصابهم نصب ومخمصة حتى أنهم أكلوا الشحم المتغيّر بشيع المساغ.

***

❋ معجزتان في حفر الخندق

[٣٢٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إنّا يوم الخندق نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ، فجاءوا النبيّ ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: **«أنا نازل»**، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبيّ ﷺ المِعْوَل فضرب في الكدية فعاد كَثِيباً أَهْيَل أو أَهْيَم.

فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبيّ ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعَناقٌ، فذبحتُ العَناق وطَحَنتْ الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت رسول الله ﷺ والعجين قد انكسر، والبُرْمة بين الأثافِي قد كادت تَنْضَجُ، فقلت: طُعَيْمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: **«كم هو»**؟ فذكرت له، قال: **«كثيرٌ طيّبٌ»**، قال: قل لها: لا تنزع البُرْمة ولا الخبز من التَّنُّور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومَن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: **«ادْخُلُوا ولا تَضَاغَطُوا»**، فجعل يَكْسِرُ الخبز ويجعل عليه اللحم، ويُخَمِّرُ البُرْمة والتَّنُّور إذا أخذ منه، ويُقَرِّب إلى أصحابه ثم يُنْزِعُ، فلم يزل يَكْسِرُ الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقيت بقيّةٌ، قال: **«كُلِي هذا وأَهْدِي، فإن الناس أصابتهم مجاعة»**.

وفي رواية قال: لما حفر الخندق رأيت بالنبيّ ﷺ خَمَصاً شديداً... وفيه: فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهَيْمَةً وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال: **«يا أهل الخندق إنّ جابراً قد صنع سُؤْراً فحَيَّ هلاً بكم»**، قال: فاجريتُ له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك ثم قال: **«ادْعُ خابزةً فلتَخْبِزْ معِك واقدَحِي من برمتك ولا تُنْزِلُوها»**، وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه، وانحرفوا وإنّ بُرمتنا لتَغِطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

رواه البخاري في المغازي (٣٩٩/٨، ٤٠٢) بالروايتين، ومسلم في الأشربة (٢١٥/١٣) بالرواية الثانية.

«كدية» بضم الكاف وسكون الدال قطعة من الأرض غليظة لا تؤثر فيها الفؤوس. «معصوب» أي: مربوط عليه بعصابة. «لا نذوق ذواقاً» أي: لا نأكل طعاماً. «المعول» بكسر الميم هو الفأس. «كثيباً» أي: صار رملاً. «أهْيَل» بفتح الهمزة وسكون الهاء أي: سائلاً لا يتماسك. «عناق» بفتح العين هي الأنثى من أولاد المعز قبل أن يتمّ لها سنة. «التنّور» المخبز. «ويحك» كلمة حنان وإشفاق. «ولا تضاغطوا» أي: لا تتزاحموا. «ويخمّر البرمة» أي: يغطّيها. «مجاعة» بفتح الميم أي: جوعاً، ويقال مخمصة. «فانكفَأتُ» أي: ملتُ. «جراب» بكسر الجيم وعاء من جلد ونحوه. «فساررته» أي: كلّمته سِرّاً. «لتغط» أي لتصوت بغليانها.

في هذا الحديث الشريف معجزتان هامّتان من جملة معجزات النبيّ ﷺ أظهرهما الله عزّ وجلّ على يده الشريفة آية على عظيم قدرته وبياناً بأنه عزّ وجلّ لا يعجزه شيء أراده كائناً ما كان، إذ هو الفعّال لما يريد.

وكانت المعجزة الأُولى في تفتيت تلك الكدية التي أعْيَت المعاول وأقوياء الرجال حتى صارت رملاً سائلاً بضربة النبيّ ﷺ التي كانت مؤيّدة بقدرة الله عزّ وجلّ، وقد جاء في رواية لابن عباس أنها كانت صخرة، فقال: **«بسم الله» فضربها فوقعت فلقة ثلثها، فقال: «الله أكبر قصور الروم وربّ الكعبة»**، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة، فقال: **«الله أكبر قصور فارس والروم وربّ الكعبة»، فقال** عندها المنافقون: نحن نخندق وهو يَعِدنا قصور فارس والروم... رواه الطبراني وسنده صحيح، انظر مجمع الزوائد (١٣١/٦، ١٣٢)، فدلّت هذه الرواية على معجزتين أُخريتين ثالثة ورابعة، وهما رؤيته ﷺ قصور ملوك فارس والروم وأنها سيملكها المسلمون في مستقبل الزمان، كما جاء في أحاديث أخرى التي أخبرت بذلك صراحة.

أما المعجزة الثانية في حديث جابر، فهي البركة في تكثير الطعام ولحم عناق وصاع من شعير أشبعا ألف رجل حتى تركوا ذلك، إن هذا شيء خارق

للعادة وقد وقع مثل هذا غير ما مرّة كما يأتي في المعجزات إن شاء الله تعالى.

* * *

موقع المشركين في غزوة الخندق من المسلمين

[٣٣٦] عن سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، قالت: كان ذاك يوم الخندق.

رواه البخاري (٤٠٣/٨)، ومسلم (٣٠٢٠) في التفسير (١٥٧/١٨).

هذا بيان من الله عزّ وجلّ عن مواقع الكفار ومنازلهم عند غزوة الخندق، وما نزل بالمسلمين من الشدّة والخوف، وقد أوضح ذلك ابن إسحاق وغيره، فقال: نزلت قريش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة، ونزل عيينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أُحد بباب نعمان.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف، والخندق بينه وبين القوم، وجعل النساء والذراري في الآطام.

* * *

من مشاهد المعركة

[٣٣٧] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اشتدّ الأَمْرُ يومَ الخندق، فقال رسولُ الله ﷺ: **«ألاَ رجلٌ يأتِينا بخبر بَني قُرَيظة؟»** فانطلق الزبير فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً فذكر ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ: **«إن لكل نبيّ حواري والزبير حواريّ»**.

رواه أحمد (٣٠٧/٣، ٣١٤، ٣٦٥)، والبخاري (٨٢/٨)، ومسلم (١٨٨/١٥) كلاهما في الفضائل، وابن ماجه (١٢٢) ويأتي حديث ابن الزبير في الفضائل إن شاء الله تعالى.

حاصر الكفارُ المسلمين بضعةَ عشر يوماً، واشتدّ الحال على المسلمين وزادهم شدّة ما بلغهم عن يهود قريظة من نقضهم العهد ودعمهم لكفار قريش، فأرسل رسول الله ﷺ نحو خمسمائة رجل يحرسون المدينة خوفاً على النساء والذّراري من اليهود وغيرهم، ثم أرسل ﷺ الزبير يَسْتَجْلي له الخبر، فلما جاءهم وجدهم حانِقين أثَرُ الشرّ بادٍ على وجوههم، ونالُوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامَه، فرجع وأخبر الرسول بذلك، وهنالك اشتدّ وجَلُ المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً كما يأتي في الآيات في ذلك؛ فأراد النبيّ ﷺ أن يعطي عُيينة بن حصن ومن معه ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا، فقال له سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة: كنّا نحن وهم على الشّرك لا يطمعون منّا في شيء من ذلك، فكيف نفعله بعد أن أكرمنا الله عزّ وجلّ بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا، ما لنا بهذا من حاجة، ولا نعطيهم إلا السيف[1]. ولما اشتدّ عليهم الحصار تكلّم بعض المنافقين وأظهروا نفاقهم، وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ الآيات ستأتي. وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان، ولم يقع في هذه الغزوة حربٌ ومواجهة إلا مراماة بالنبل لكن عَمْرو بن عبد وَدّ العامري اقتحم هو ونفر معهم خيولهم من ناحية ضيّقة من الخندق، فبارزه الإمام عليّ عليه السلام فقتله، وبرز نوفل بن عبدالله المخزومي فبارزه الزبير فقتله، ورجعت بقية الخيول منهزمة، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره.

* * *

❋ محاولة بعض الكفار إذاية النساء والذراري

[٣٣٨] عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن حصن

---

(١) قصة هذه المفاوضة رواها البزار والطبراني بسند حسن كما قال النور في مجمع الزوائد (١٣٢/٦).

أحصن من حصن بني حارثة، فجعل النبيّ ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه، وقال: «إن ألمّ بكُنّ أحدٌ فألمِعنَ بالسيف»، فجاءهنّ رجل من بني ثعلبة يقال له نجدان على فرس حتى كان في أصل الحصن، ثم جعل يقول للنساء: انْزِلْنَ إلى خيرٍ لكُنّ، فحَرّكْنَ السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له ظُهَيْرُ بنُ رافع، فقال: يا نجدان أبرز، فبرز إليه فحمل على رأسه فقتله، وأخذ رأسه فذهب به إلى النبيّ ﷺ.

عزاه الهيثمي في المجمع (١٣٣/٦) للطبراني وقال: رجاله ثقات.

إن الإنسان من حيث هو في كل العصور والأجيال يحبّ أهله وأولاده بطبيعته، ولذلك تجده يفديهم بماله ونفسه ويُدافع ويقاتل دونهم.

ولذلك حصّن النبيّ ﷺ النساء والصبيان... في حصن مانع قبل مجيء الكفار، ومع ذلك فقد كان المسلمون يحرسونهن من الخارج ويراقبونهن، وقد أرشدهنّ النبيّ ﷺ إلى إظهار علامة إن رأين شرّاً، فلمّا جاء ذلك الثعلبيّ يريد بهنّ سوءاً بادر من جاءه فبرز له وقتله...

وقد ذكر ابن إسحاق كما عند ابن هشام قصة اليهودي الذي جعل يطيف بالحصن، فنزلت صفية عمّة رسول الله ﷺ بعمود فضربته به حتى قتلته، وفيها ما حصل بينها وبين حسان لكن سندها ضعيف.

* * *

١

❋ انشغال المسلمين عن الصلاة حتى غابت الشمس

[٣٣٩] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إن عمر جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله ما كِدْتُ أن أُصَلّي حتى كادت الشمسُ أن تغرُبَ، قال النبيّ ﷺ: «والله ما صلّيتُها»، فنزلنا مع النبيّ ﷺ بُطْحَانَ فتوضّأنا لها فصلّى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلّى بعدها المغرب.

رواه البخاري في المغازي (٤٠٩/٨)، ومسلم في المساجد من كتاب

الصلاة (١٣١/٥، ١٣٢)، والترمذي وابن ماجه (٦٨٦) كلاهما في الصلاة أيضاً، ورواه أحمد أيضاً (٤٠٤/١، ٤٥٦).

[٣٤٠] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: **«شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم»**، أو قال: **«قبورهم وبطونهم ناراً»**.

رواه البخاري (٤٠٩/٨)، ومسلم (١٢٧/٥، ١٢٨) وتقدّم في الصلاة.

[٣٤١] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: حُبِسْنا يوم الخندق عن الصلاة حتى كان بعد المغرب، وذلك قبل أن ينزل في القتال ما نزل. وفي رواية: قبل أن ينزل صلاة الخوف **«فرجالاً أو ركباناً»**، فلما كُفينا القتال وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أمر النبيّ ﷺ بلالاً فأقام الظهر فصلاّها كما يصلّيها في وقتها.

رواه أحمد (٢٥/٣، ٤٩، ٦٧)، وابن خزيمة (٩٩٦)، وابن حبان (٢٨٥)، والطحاوي في المعاني (٣٣١/١)، والبيهقي (٤٠٢/١) بسند صحيح.

«بطحان» ـ بضم الباء ـ وادٍ وراء جبل سلع بالمدينة.

وهذه الأحاديث الثلاث تدلّ على أن النبي ﷺ والمسلمين في بعض أيام الخندق شغلوا بمقاومة الكفار وحصارهم عن أداء عدّة صلوات في أوقاتها كالظهرين مثلاً، فإنهم لم يصلّوهما حتى غابت الشمس فصلّوهما مع المغرب، وكان هذا التفويت عن الوقت قبل أن تنزل صلاة الخوف، كما في حديث أبي سعيد. وهو يردّ على طائفتين من العلماء، فيردّ على من يستدلّ بهذه الأحاديث على جواز إخراج الصلاة عن وقتها للضرورة كالقتال مثلاً. كما يردّ على من يقول بأن غزوة الرقاع كانت قبل الخندق، فإن النبيّ ﷺ صلّى فيها صلاة الخوف كما يأتي، ويؤخذ من هذا التفويت للظهر والعصر معاً أن الحصار من الكفار كان شديداً على المسلمين، بحيث اشتدّ عليهم الأمر على طول خطّ الخندق حتى لم يتمكّنوا من أداء الصلاة، وهذا واضح من الآية الآتية: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾.

***

❁ دعاء النبيّ ﷺ على الكفار واستجابة دعوته

[٣٤٢] عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللّهمّ مُنزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهزِمْ الأَحْزابَ، اللَّهُمَّ اهزِمْهُم وزَلْزِلْهُمْ**».

رواه البخاري (٤١٠/٨) في الغزوات وفي الجهاد، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (٤٧/١٢)، وأبو داود (٢٦٣١) كذلك.

[٣٤٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله وحدَه أعَزَّ جُنْدَه، ونَصَر عَبْده، وغَلَب الأحزابَ وحدَه فلا شيء بعده**».

رواه البخاري في المغازي (٤١٠/٨)، ومسلم في الذِّكر والدعاء باب التعوّذ من شرّ ما عمل (٤٣/١٧).

قوله: «وزلزلهم» أي: حرّك قلوبهم بالخوف والرعب وأزعجهم وحرّكهم بالشدائد.

لما اشتدّ الحصار على المسلمين وطوّقهم الكفار على طول خطّ الخندق من شرق الحرّة الشرقية فشمال المدينة إلى غربيها قبالة سلع، وبلغت القلوب الحناجر من الهول والخوف التجأ النبيّ ﷺ إلى بارئه يدعوه ويستغيثه ويستنصره، فأجاب الله عزّ وجلّ دعاءه فنصره وكفى الله المؤمنين القتال، وكان ذلك بأسباب ثلاثة:

أولاً: جاء رجل اسمه نُعَيْمُ بن مسعود إلى رسول الله ﷺ وقد أسلم فعرض عليه تنفيذ أي أمر يريده ﷺ، فقال له: «**خَذِّلْ عنا إن استطعتَ، فإن الحرب خدعة**»، فخرج نعيم فأتى بني قريظة وهم يحسبونه لا يزال مشركاً، فأقنعهم أن لا يتورّطوا مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن كي لا ينصرفوا، فيبقون وحدهم في المدينة دون أي نصيرٍ لهم على محمد وأصحابه فحسّنوا رأيه، ثم خرج حتى أتى قريشاً فأنبأهم بأن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا، وأنهم قد اتّفقوا خفية مع رسول الله ﷺ على أن

يختطفوا عدداً من أشراف قريش وغطفان فيسلّموهم له ليقتلهم، فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فإيّاكم أن تسلّموهم رجلاً منكم، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش، فتألّب بعضهم على بعض وساءت الظنون وارتفعت الثقة فيما بينهم، وأصبح كل فريق منهم يتّهم الفريق الآخر بالغدر والخيانة، ذكره ابن سعد (٦٩/٢)، وابن هشام (١٧٩/٣، ١٨١) مطوّلاً.

ثانياً: جاءت الكفارَ ريحٌ صَرْصَرٌ مُخِيفةٌ في ليلة مظلمةٍ حالِكةٍ باردةٍ، فقلبتْ قُدورَهم واقتلعت خِيامَهم، وقطّعتْ أوتادَهم، وكان هذا مصداقاً لقوله ﷺ:

[٣٤٤] «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ».

رواه البخاري (١٧٤/٣)، ومسلم (١٩٧/٦) كلاهما في الاستسقاء من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ورواه البخاري في المغازي أيضاً.

«الصَّبا» ـ بفتح الصاد المشدّدة ـ الريح الشرقية، و«الدبور» الريح الغربية.

فنصر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ والمسلمين في هذه الغزوة بالريح الشرقية بعثها إليهم فأفزَعَتْهُم وأرْعَبَتْهُم وزلزلت قلوبهم، وصارت تلقي الرجل على أمّ رأسه.

ثالثاً: أرسل الله عزّ وجلّ كذلك عليهم جنداً من ملائكته، فزلزلت قلوبهم وألقت فيها الرعب والخوف، فانسحبوا منهزمين. وفي إرسال الملائكة والريح عليهم يقول عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، ويوضح هذا الفزع والرعب الذي أصاب الكفار وانهزامهم حديث حذيفة الآتي، وهو:

[٣٤٥] فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلّى رسول الله ﷺ من الليل هويّاً، ثم التفت إلينا فقال: **«مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم»**، يشترط له

رسول الله ﷺ أنه يرجع؛ أدخله الله الجنّة، فما قام رجل، ثم صلّى رسول الله ﷺ هوياً، ثم التفت إلينا فقال: **«من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع** - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - **أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنّة»**، فما قام رجل من القوم من شدّة الخوف وشدّة الفزع، وشدّة البرد، فلما لم يقم أحدٌ دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد في القيام حين دعاني فقال: **«يا حذيفةُ فاذهَبْ فادخُلْ في القوم فانظُر ما يفعلون ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتَّى تأتِينَا»**، قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل، لا تَقِرُّ لهم قِدْرٌ، ولا نارٌ، ولا بناءٌ، فقام أبو سُفيانُ بن حرب فقال: يا معشرَ قريش لينظر امرؤٌ إلى جليسه، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي جنبي، فقلت: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فما أطلق عقله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ: **«لا تُحْدِث شيئاً حتى تأتيني»** ثم شئت لقتلته بسَهْم، قال حذيفة: ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلّي في مِرْط لبعض نسائه مرجل، فلما رآني أدخلني إلى رحله، وطرح عليّ طرف المرط ثم ركع وسجد وإنه لفيه فلما سلّم أخبرته الخبر، وسمعتْ غطفانُ بما فعلت قريش وانشمروا إلى بلادهم.

وفي رواية: فمضيت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهره بالنار، فوضعت سهمي في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: **«لا تَذْعَرْهُم عليّ»**، ولو رميته لأصبته. . . الحديث.

رواه ابن أبي شيبة وأحمد (٣٩٢/٥، ٣٩٣)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٤٥/١٢)، والحاكم ((٣١/٣)، والبيهقي في الكبرى (١٥٩/٩) وفي الدلائل (٤٤٩/٣، ٤٥٤) والسياق لأحمد وغيره، وعزاه النور (١٣٦/٦) للبزار وقال: رجال ثقات.

قوله: «الكراع» - بضم الكاف - اسم لجميع الخيل. و«المرط» - بكسر الميم - تقدَّم أنه كساء من صوف أو نحوه. «مرجل» أي: فيه أرقام وخطوط. «كأنما أمشي في حمام» يعني أنه لم يجد البرد الذي أصاب الناس. «لا تَذْعَرْهم» أي: لا تحرّكهم.

فهذا الحديث بيَّن ما نزل بالأحزاب من الشدّة والرعب والفزع وما أصابهم من الفتنة والانهزام بداية من قائدهم أبي سفيان الذي كان أوّل من ركب جمله، وقام به منهزماً خائفاً لا يلوي على أحد، ثم انسحبوا من ليلتهم وكانوا كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾، وبذلك أزاح الله عزّ وجلّ عن المسلمين هذه الغمّة التي تحزّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين والحمد لله ربّ العالمين.

[٣٤٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها في حديثٍ لها عن يوم الخندق، قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له ابن العَرِقَة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العَرِقَةُ، فأصاب أَكْحَلَهُ فقطعه، فدعا الله سعد فقال: لا تُمِتْنِي حتى تَقَرَّ عَيْنِي مِن بني قريظة، قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرَقَى كَلْمَه، وبعث الله عزّ وجلّ الريح على المشركين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، فلحق أبو سفيان ومَنْ معه بتهامة، ولحق عُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ ومن معه بنَجْدٍ ورجعتْ بنو قريظة فتحصَّنوا في صَيَاصِيهِم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبّة من أدم فضُرِبت على سعد في المسجد.

الحديث رواه أحمد (١٤١/٦، ١٤٣) بسند حسن وجوّده ابن كثير في السيرة، ويأتي كاملاً في غزوة بني قريظة مع أحاديث أخرى في شأن سعد رضي الله تعالى عنه.

وهذا الحديث من تمام الكلام على انهزام الكفار وانسحابهم والتفريج على المسلمين وكشف ما نزل بهم من الشدّة والغمّة بضعة عشر يوماً.

* * *

❋ تبشير النبيّ ﷺ أصحابه بأن الكفار لا يغزونهم بعد الأحزاب

[٣٤٧] فعن سليمان بن صُرَد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول حين جَلى الأحزابُ عنه: «**الآن نَغزُوهُمْ ولا يَغزُونَنا، نَحنُ نَسِيرُ إلَيهم**».

رواه أحمد (٢٦٢/٤)، والبخاري في المغازي (٤٠٨/٨، ٤٠٩).

في هذا الحديث معجزة ظاهرة للنبيّ ﷺ حيث أخبر الصحابة بأن الكفار قد انتهى أمرهم من شنّ الغارة عليهم، وأن المسلمين هم الذين سيسيرون إليهم، فكان الأمر كما أخبر، فلم تمضِ إلا سنتان وأشهر ففاجؤوهم بفتح مكّة المكرمة، واستُؤصل الكفر فلم يَبْقَ له أثر بمكّة التي كانت محطّ نظر العرب.

❋ ❋ ❋

❋ وضع النبيّ ﷺ سلاحه بعد رحيل الكفار واغتساله واستجماره

[٣٤٨] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: لمّا رجع النبيّ ﷺ من طلب الأحزاب فنزل المدينة، وضَعَ لأْمَته، واغتسَل، واسْتَجْمَر.

عزاه النور في المجمع (١٤٠/٦) لأوسط الطبراني وقال: رجاله ثقات، وعزاه الحافظ في المطالب رقم (٤٣٢٨) لإسحاق بن راهويه وحسّنه.

«لأْمته» آلات الحرب من دروع ومغفر... واستجمر أي بَخَّر بنحو عود ونحوه.

❋ ❋ ❋

❊ خلاصة غزوة الأحزاب وبعض ما يؤخذ منها

كانت هذه الغزوة امتداداً من غزوة بدر، فإن كفار قريش بعد أن انهزموا ببدر تلك الهزيمة النّكراء لم يتحمّلوها ولم يهدأ لهم بال، ولا قرّ لهم قرار من يومها، ولم يزالوا جادّين في أخذهم الثأر من النبيّ ﷺ والمسلمين حتى مرّ حول عليهم وهم يعدّون العدّة لحربهم، فهاجموا المدينة، فكانت وقعة أُحد، ولما أصاب المسلمين ما أصابهم بها وانصرف المشركون تجرّأ على المسلمين بعض القبائل العربية ونقض بنو النضير عهدهم مع النبيّ ﷺ، فحاصرهم ﷺ ثم أجلاهم، وكان منهم رئيسهم حُيَيّ بن أخطب الذي نزل بخيبر، فذهب في جماعة من قومه إلى مكّة فقابلوا رؤساء قريش وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ ومَنَّوْهُم المُساعدة على ذلك ليأخذوا ثأرهم ويستردّوا بلادهم، فوجدوا من كفار قريش القبول لِما طلبوا ليتمّموا هم الآخرون نصرهم الذي انتصروه في غزوة أُحد، فإنهم ندموا على ذلك كما تقدم، ثم ذهب اليهود إلى قبيلة غطفان وحرّضوا رجالها أيضاً وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحاً.

فتجهّز الجميع واجتمعوا وتوجّهوا نحو المدينة بجيش جَرَّارٍ عَرَمْرَم يتكوّن من أكثر من عشرة آلاف مقاتل، مُدَعَّمِين بثلاثمائة فرس، وألفَ بعير، وكان جميعهم في هذه المرّة يريدون استئصال النبيّ ﷺ ومَنْ معه من المسلمين والقضاء عليهم وأخذ أموالهم وسَبْي نسائهم وذراريهم، ولكن الله عزّ وجلّ خيّب سعيهم وردّ مكرهم في نحورهم، فما كان عزّ وجلّ ليسلّطهم على نبيّه وأصحابه البَرَرة، فلقد فوجؤوا بحفر الخندق من الحرّة الشرقية فشمال المدينة إلى الحرّة الغربية، فعلموا أن هذه مكيدة لم يكن للعرب بها معرفة، وبذلك حصّن الله عزّ وجلّ المسلمين ومدينتهم من كَيْد الأعداء، ولم يكن كبير قتال غير مناوشات وبعض المبارزات بَيْدَ أنه اشتدّ الأمر على المسلمين لأنهم حوصروا بضعة عشر يوماً في قول أو بضعاً وعشرين يوماً في قولٍ آخر، حكاهما أهل السيرة والمغازي، انظر ابن سعد

(٦٩/٢، ٧٣)، وابن هشام (٢٧٤/٣). وازداد الأمر عليهم شدّة عندما علموا نقض قريظة عهدهم ومساعدتهم كفار قريش، ثم جاء نصر الله عزّ وجلّ وهزيمة الكفار فانسحبوا مخزيّين مدحورين، وقد نأخذ من أحداث هذه الغزوة أموراً:

منها: أن السبب فيها وإثارتها كان من يهود بني النضير، فإنهم الذين حرّكوا ما كان كامناً في قلوب قريش من حرب النبيّ ﷺ وتميمهم النصر الذي حظوا به في أُحد.

ومنها: ما شاهدنا من مشاركة النبيّ ﷺ أصحابه في حفر الخندق حتى غطّى الترابُ بياضَ بطنه الشريف، وهذا من تمام تواضعه وحُسن أخلاقه.

ومنها: صبره على الجوع كأصحابه حتى ربط بطنه بعصابة من شدّة الجوع، ولما جاءه جابر وساوره في أن يذهب معه هو ونفر من أصحابه لم يكن ليذهب في نفر قليل فيتناولوا ما يشبعهم دون غيرهم، بل نادى في الجيش بأعلى صوته: «**ألا إن جابراً صنع لنا طعاماً، فحيّ هلاً**»، فذهب بألفٍ من أصحابه، فأكل جميعهم حتى شبعوا وهذا من كمال شفقته ورحمته بأصحابه ﷺ.

ومنها: ما ظهر من تينك المعجزتين، وهما كما تقدم تفتيت تلك الصخرة التي لم تؤثر فيها المعاول بضرب النبيّ ﷺ، ثم البركة في الطعام حتى شبعَ من خُبْزِ صاعِ شَعِيرٍ، ولَحْمِ عَناقٍ ألفُ رجلٍ.

ومنها: شجاعة الزبير وشهامته حيث انتدب فذهب إلى بني قريظة ليأتي النبيّ ﷺ بخبرهم والناس في أشدّ ما يكونون من الخوف والجزع والجوع والبرد.

ومنها: جواز مصالحة الكفار على ضريبة يؤدّيها المسلمون لهم إذا اقتضت الحاجة ذلك، وكانت فيها مصلحة عامّة للمسلمين، وهذا وإن كان النبيّ ﷺ لم يفعله، لكنه هَمَّ به.

ومنها: أن الأمر في هذه الغزوة كان شديداً على المسلمين جداً كما

في القرآن الكريم، حتى إنهم في بعض الأيام لم يتمكّنوا من أداء الصلاة في وقتها، ففاتتهم صلاتا الظهر والعصر حتى غربت الشمس، وهذا كان قبل فرضية صلاة الخوف، ومن قال خلاف هذا فهو غالط.

ومنها: مشروعية الدعاء عند نزول الشدائد؛ لأن المؤمن ليس له ملجأ إلا إلى الله، وبذلك يكون عبداً خالصاً لله عزّ وجلّ.

ومنها: أن لله عزّ وجلّ جنوداً ينصر بها عباده المؤمنين كالريح والأمطار والزلازل والفيضانات والحيوانات وغيرها من خَلْقِهِ تعالى، فضلاً عن ملائكته المقرّبين الذين جعلهم قائمين على هذه الكائنات.

* * *

❋ شهداء الخندق

واستشهد في هذه الغزوة: أنسُ بن أوس بن عَتِيك، وعبدُالله بن سهل، والطُّفَيْلُ بن النُّعمان، وثَعْلَبة بن غَنَمة، وكعبُ بن زيد.

ورُمِي سعْدَ بن مُعاذ بسهم في أَكْحَلِه فمات منه بعد حكمه في بني قريظة كما يأتي، وكل هؤلاء من الأنصار رضي الله تعالى عنهم، وقد نزل في هذه الغزوة من القرآن نحو من عشرين آية بدايةً من قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَآۚ﴾ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾.

* * *

❋ غزوة بني قريظة

[٣٤٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أُصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له حِبَّانُ بنِ العَرِقَةِ رماه في الأَكْحَلِ،

فضرب النبيّ ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسولُ الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام، وهو يَنْفُضُ رأسَه من الغُبار، فقال: قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعته اخرُج إليهم، قال النبيّ ﷺ: «فأين؟» فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردّ الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن يُقتلَ المُقاتِلَةُ، وأن تُسْبَى النساءُ والذريّةُ، وأن تُقسمَ أموالُهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله عزّ وجلّ».

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١١، ٤١٦، ٤١٧)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/٩٤، ٩٥).

[٣٥٠] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زُقاق بني غَنْمٍ موكِبِ جبريل عليه السلام حيث سار رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١١) وفي بدء الخلق.

[٣٥١] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ ﷺ لما رجع من الأحزاب: «لا يُصَلِّيَنَّ أحدُ العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضَهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلّي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فلم يعنّف واحداً منهم.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١٢)، ومسلم في الجهاد (١٢/٩٧).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى سعد، فأتاه على حمار، فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيّدكم أو خيركم»، ثم قال: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك»، قال: تُقتل مقاتِلتُهم، وتُسْبَى ذريّتُهم، قال: فقال النبيّ ﷺ: «قضيت بحكم الله».

رواه البخاري (٨/٤١٥)، ومسلم (١٢/٩٣، ٩٤).

«الأكحل» عرق في الذراع.

كان السبب في غزو هؤلاء النَّتنى هو نقضهم عهد النبيّ ﷺ كما تقدم في حديث الزبير الذي ذهب إليهم ليأتي بخبرهم، ولذلك لمّا رجع النبيّ ﷺ من الأحزاب ووضع سلاحه واغتسل جاءه جبريل عليه السلام مغبرّاً رأسه وهو ينفضه، فأمره بالخروج إلى قريظة، فخرج ﷺ راكباً على حمار وأمر أصحابه أن يُسرعوا السير بحيث لا يصلّون العصر إلاّ في بني قريظة، وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم ستّة وثلاثون فرساً، ولواؤه ﷺ بيد الإمام عليّ عليه السلام. واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه، ولما وصل المسلمون إلى قريظة ورآهم اليهود تحصّنوا في حصونهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أنْ لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمرّوا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من النبيّ ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل منهم ذلك، بل قال: لا بدّ من النزول والرّضا بما يحكم عليهم، فنزلوا على حكمه ففعلوا ثم أمر برجالهم فقيدوا، فجاءه رجال من حلفائهم الأوس وسألوه ﷺ أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فقال لهم: «ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟» فقالوا: نعم، فاختار سيّدهم سعد بن معاذ فأرسل إليه، فأتي به على حمار والتفّ حوله جماعة من الأوس يقولون له: أحسن في مواليك، فقال رضي الله تعالى عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم، فلما نزل قال له النبيّ ﷺ: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك»، فقال: إني أحكُمُ أن تَقتُلوا الرجالَ، وتَسْبُوا النساء والذريَّة، فقال عليه الصّلاة والسلام: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله يا سعد»، ثم أمر بتنفيذ الحكم، فقُتل جميع رجالهم وكانوا نحواً من سبعمائة رجل، وقيل: ثمانمائة أو تسعمائة، وقيل: أربعمائة، وهذا الأخير هو الذي جاء به حديث جابر الآتي، ومن كان يشكّ فيه هل هو بالغ أم لا كشف عن عانته، فإن وجده أنبت قتله وإلا تركه، كما في الحديث التالي:

[٣٥٢] فعن عطية القُرَظي قال: كنت من سَبْيِ بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قُتِل، ومن لم يُنْبِت لم يُقتلْ، فكنتُ فيمن لم

يُنبت. وفي رواية: فكشفوا عانتي فوجدوها لم تُنبت فجعلوني في السبي...

رواه أحمد ((٤/٣١٠، ٣٨٣) و(ج ٥/٣١١، ٣١٢)، وأبو داود في الحدود (٤٤٠٤، ٤٤٠٥)، والترمذي في الجهاد والسير (١٤٥٥)، والنسائي في الطلاق، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤١) وحسّنه الترمذي وصححه.

ثم جُمِعَتْ غنائمُهم فكانت ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وحجفة، ووجد عندهم أثاث كثير وأواني وجمال نواضح وشياه، فخمس ذلك كلّه، وبعد تمام هذا الحكم وتنفيذه انفجر جرح سعد فمات كما يوضحه الآتي:

❋ ❋ ❋

❋ موت سعد بن معاذ

[٢٥٣] فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: رُمِي يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار فانتفخت يده، فحسمه أخرى فانتفخت يده فنزفه، فلما رأى ذلك قال: اللّهمّ لا تُخرج نفسي حتى تقرّ عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه فنما قطرةً قطرةً، حتى نزلوا على حكم سعد، فأرسل إليه فحكم أن تُقتل رجالهم ويستحي نساؤهم وذراريهم، يستعين بهم المسلمون، قال رسول الله ﷺ: **«أصبت حكم الله فيهم»**، وكانوا أربعمائة، فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات.

رواه أحمد (٣/٣٥٠)، والترمذي (١٤٥٣)، والدارمي (٢٥١٢) وغيرهم وحسّنه الترمذي وصححه وهو في الطب من مسلم (١٤/١٩٤) مختصراً.

وقوله: «فحسمه» أي: كواه بالنار لينقطع الدم.

[٢٥٤] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن سعداً قال: اللّهمّ إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحبّ إليَّ أن أُجاهِدَهم فيك من قوم كذّبوا رسولك ﷺ

واخرجوه، اللّهمّ فإنّي أظنّ أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيءٌ فأبقني له، حتى أُجاهِدَهم فيك، وإن كنت وضعتَ الحرب فافْجُرْها واجعل موتتي فيها، فانفجر من لَبَّتِه، فلم يَرُعْهُم، وفي المسجد خَيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قِبَلِكم، فإذا سعدٌ يغذُو جُرحُه دماً، فمات منها رضي الله تعالى عنه.

رواه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) وهو بعض حديث عائشة السابق أول الفصل.

* * *

نهاية اليهود من المدينة وما نزل بهم

[٣٥٥] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حاربت قريظة والنضير فأجْلَى بَني النَّضِير، وأَقَرَّ قُرَيظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم وقسم نساءهم، وأولادهم، وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبيّ ﷺ فأمَّنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلّهم بني قينقاع وهم رهط عبدالله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة.

رواه البخاري في حديث بني النضير من المغازي (٨/٣٣٣)، ومسلم في الجهاد (١٢/٩١)، وأبو داود (٣٠٠٥).

* * *

قتل يهودية واحدة من قريظة

[٣٥٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت: والله إنها لعندي تَتَحَدَّثُ معي تَضحكُ ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هَتَفَ هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟

قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك وما لك؟ قالت: أُقتَلُ، قالت: قلتُ: ولم؟ قالت: حَدَثاً أحدَثتُه، قالت: فانطُلِقَ بها فضُرِبَتْ عُنقُها، وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: والله ما أنسَى عَجَبِي من طِيبِ نفسها، وكثرةِ ضَحِكِها، وقد عَرفتْ أنها تُقتَلُ.

رواه أحمد (٢٧٧/٦)، وأبو داود (٢٦٧١)، والحاكم (٣٥/٣، ٣٦)، والبيهقي في الكبرى (٨٢/٩) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

* * *

فوائد أحاديث هذه الغزوة

في حديث عائشة الأول مع حديث أنس دليل على أن الملائكة لم يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة قطّ، فقد حضروا معه بدراً وأُحداً والأحزاب، وبعد أن زلزلوا كفار قريش في الخندق وأرعبوهم حتى انسحبوا منهزمين، ها هم الآن يلتحقون بالنبيّ ﷺ ويمرّون بزقاق المدينة في موكب خاصّ بهم حتى يرتفع الغبار ساطعاً من أثر خيولهم، فيأتي جبريل النبيّ ﷺ فيأمره بأمرٍ من الله عزّ وجلّ بالخروج لقريظة الغادرين.

وفي حديث ابن عمر دليل على أن المجتهد المخطىء لا يُعنَّف ولا يُلام، فإن الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين سمعوا رسول الله ﷺ يقول لهم: **«لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»** حمل ذلك بعضهم على ظاهره، فاجتهدوا ولم يصلّوا حتى خرج الوقت، وبلغوا إلى قريظة والبعض الآخر حملوه على المعنى؛ بأن المراد بذلك هو الإسراع في السير، وليس المراد بذلك الصلاة في قريظة، ولو خرج الوقت؛ فكان الصواب هنا مع من صلّوا بالطريق. أما الآخرون فأخطأوا في اجتهادهم لكن النبيّ ﷺ لم يلمهم على ما فعلوا، وهكذا يجب أن يُعامل المجتهدون المخطئون، فلا يعنّفون ولا يشتمون كما يفعله من لا دين له ولا أدب.

وفي حديث أبي سعيد دليل على مشروعيّة القيام لأهل الفضل والعلم والدين، وليس هذا من القيام المذموم. قال القاضي عياض: وليس هذا من القيام المنهيّ عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قياماً طول جلوسه. قال النووي في شرح مسلم (٩٣/١٢): القيام للقادم من أهل الفضل مستحبّ، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصحّ في النهي شيء صريح إلخ.

وأحاديث عائشة وأبي سعيد وجابر تدلّ على مشروعية نزول الكفار على حكم بعض أفراد المسلمين إذا كان أهلاً لذلك، وأنه إذا حكم فيهم ينفذ حكمه كما حصل من سعد بن معاذ بأمرِ من النبيّ ﷺ.

وفي حديث عطية القرظي دليل على جواز النظر إلى العورة لأجل الحاجة والمصلحة، ولا ينبغي أن يختلف في مثل هذا، كما فيه دليل على أن إنبات شعر العانة يدلّ على بلوغ الغلام، وأنه يعتبر رجلاً يعامل معاملة الرجال في الأحكام الشرعية...

وحديث جابر يدلّ على أن قتلى قريظة كانوا أربعمائة، بينما ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا سبعمائة. وقال غيره: إنهم كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة، وقد جمع الحافظ في الفتح بين ذلك، فانظره (٤١٨/٨).

وحديثا عائشة وجابر يدلاّن على أن سعداً كان قد رمي في أكحله بالخندق، وأنه سأل الله عزّ وجلّ أن لا يقبض نفسه حتى تقرّ عينه من بني قريظة، رغم أنهم كانوا مواليه في الجاهلية، فلما حكم فيهم ونفّذ حكمه انفجر الجرح فمات منه رضي الله تعالى عنه عقب رجوعه إلى المدينة من قريظة، وستأتي أحاديث تتعلّق به في الفضائل.

وحديث عائشة الأخير يدلّ على أن النبيّ ﷺ لم يقتل النساء إلا امرأة واحدة كانت قد سبق لها أن ألقتْ رَحَى على رجل مسلم فقتلته فقتلها النبيّ ﷺ لذلك. أما غيرها من سائر الرجال، فهم كما قال ابن إسحاق: خندقوا لهم خناديق، فضُربت أعناقهم فيها فجرى الدم في الخناديق، وقسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم بين المسلمين... وبقتل هؤلاء اليهود أراح الله

المسلمين من شرّ مجاورة اليهود الذين طالما غدروا وخانوا ومكروا وأفسدوا، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وستأتي نوبتهم بإذن الله تعالى وفي هذه الغزوة جاءت الآيتان من سورة الأحزاب وهما قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

ومعناه: وأنزل الله عزّ وجلّ اليهود من بني قريظة الذين ظاهروا كفار قريش وأعانوهم ونقضوا العهد أنزلهم من صياصيهم أي: حصونهم، وألقى في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا، فكنتم أيها المسلمون فريقاً منهم تقتلون، وهم الرجال وفريقاً تأسرونهم وهم النساء والذّرية، وأورثكم الله أرضهم وعقارهم وخيلهم وأموالهم التي تركوها وأرضاً أخرى لم تطؤها بعد وهي خيبر، وستأتي.

* * *

❁ من نتائج وراثة أرضُ قُرَيْظَة والنَّضِير

[٣٥٧] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجل يجعل للنبيّ ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، وأن أهلي أمروني أن آتي النبيّ ﷺ فأسأله الذين كانوا أعطَوْه أو بَعْضَه، وكان النبيّ ﷺ قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلاّ والذي لا إله إلا هو لا يُعْطِيكَهُم وقد أعطانيها، أو كما قالت، والنبيّ ﷺ يقول: «لكِ كذا»، وتقول: كلا والله حتى أعطاها، حسبتُ أنه قال: عشرة أمثاله، أو كما قال.

رواه البخاري في المغازي (٤١٤/٨) وفي الخمس وفي غير ذلك، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٠١/١٢)، ويأتي من طريقٍ آخر ولفظ آخر في

غزوة خيبر، وفي رواية للبخاري (٣٣٥/٨) قال: كان الرجل يجعل للنبيّ ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، فكان بعد ذلك يردّ عليهم.

كان من ثمرات غزوة قريظة والنضير أن توسّع النبيّ ﷺ وملك أرضاً ونخيلاً مما جاء في نصيبه من مغانمها، فجعل يردّ النخلات التي كان الصحابة أعطوها إياه، ومنها نَخْلُ أمّ سُلَيم أم أنس، وكان النبيّ ﷺ قد أعطى ذلك لحاضنته أم أيمن رضي الله تعالى عنها، فامتنعت من ردّها لأهلها، وصارت تحلف وتقول: كلاّ والذي لا إلٰه إلاّ هو، فجعل النبيّ ﷺ يلاطفها ويعرض عليها بدل النخلات حتى أعطاها في مقابلتها عشرة أمثالها، وهذا منه تبرّع وإكرام لها، لما لها من حقّ الحضانة، وسيأتي مزيد للكلام على أمّ أيمن في الفضائل.

* * *

❋ زواجه ﷺ بزينب بنت جحش

إرسال زيد بن حارثة لخطبتها للرسول عليه السلام

[٣٥٨] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: **«فاذكُرْهَا عليَّ»**، قال: فانطلق زيد حتى أتاهَا وهي تُخَمِّرُ عَجِينَها، قال: فلما رأيتها عظُمَتْ في صَدْري حتى ما أستطيعُ أن أنظرَ إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فولّيْتُها ظَهْري ونكَصْتُ على عَقِبِي، فقلت: يا زينبُ أرسل رسولُ الله ﷺ يَذْكُرُكِ، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامِرَ رَبّي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أَطْعَمَنا الخُبْزَ واللَّحْمَ حين امْتدَّ النهار، فخرج الناسُ وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسولُ الله ﷺ واتّبعتُه فجعل يتتبع حُجُر نسائه يُسلّم عليهنّ ويَقلنَ: يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرتُه أن القوم خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وعظوا به.

وفي رواية: أصبح رسول الله ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، قال: وكان تزوّجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، فجلس رسولُ الله ﷺ وجلس معه رجالٌ بعد ما قام القوم، حتى قام رسول الله ﷺ فمشى، فمشيت معه حتى بلغ باب حُجْرَةِ عائشة ثم ظنّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع فرجعتُ الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة، فرجع فرجعت، فإذا هم قد قاموا، فضرب بيني وبينه الستر، وأنزل الله آية الحجاب.

وفي رواية: أن أمّ سليم أهدتْ إلى رسول الله ﷺ طعاماً يوم زواج زينب، قال: تزوّج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعتْ أمّي أمّ سُلَيْم حَيْساً فجعلته في تَوْرٍ، فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بَعثتْ بهذا إليك أمي، وهي تُقرِئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله، قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنّ أمّي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله، فقال: **«ضعه»**، ثم قال: **«اذهَب فادْعُ فلاناً وفلاناً وفلاناً، ومن لقيتَ»**، وسمّى رجالاً، قال: فدعوتُ من سمّى ومن لقيت، قيل لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

قال: وقال لي رسول الله ﷺ: يا أنس **«هات التَّوْر»**، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: **«لِيَتَحَلَّقْ عشرةٌ عشرةٌ، ولْيأكلْ كلُّ إنسانٍ مِمَّا يَلِيه»**، قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلّهم، فقال لي: **«يا أنس ارفع»**، قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائفُ منهم يتحدّثون في بيت رسول الله ﷺ ورسولُ الله ﷺ جالس وزوجتُه مُوَلِّيةٌ وجهَها إلى الحائط، فثَقُلوا على رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ فسلَّم على نسائه ثم رجع، فلمّا رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنّوا أنهم قد ثَقُلوا عليه، قال: فابتدروا الباب، فخرجوا كلّهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة فلم يلبَثْ إلا يسيراً حتى خرج عليّ وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأهنّ

على الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ الآية، قال أنس: أنا أحْدَثُ الناس عَهْداً بهذه الآيات، وحُجِبْنَ نساءُ النبيّ ﷺ.

الحديث برواياته رواه البخاري في التفسير (١٠/١٤٨) وفي التوحيد رقم (٧٤٢١) وغيرهما، ومسلم في النكاح (٩/٢٢٧، ٢٣٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٣٤، ٤٣٦) بألفاظ مطوّلاً ومختصراً.

قوله: «فاذكُرْها عليَّ» أي: اخطُبْها لي. «عظُمت في صدري» يعني هابَها واسْتَجَلَّها من أجل إرادة النبيّ ﷺ تزوّجها، ولذلك تأدّب فأعطاها ظهره وكَلَّمَها. «حتى أؤامر ربّي» أي: حتى أستخير الله. قوله: «حيساً» ـ بفتح الحاء وسكون الياء ـ هو تمر يُنزع نواه ويخلط مع الأقط والسمن ويُعجن ذلك فيكون كالثريد. وقوله: «في تور» ـ بفتح التاء وسكون الواو ـ هو الآنية.

زينت بنت جحش هي بنت عمةِ رسول الله ﷺ أُمَيْمَة تزوّجها النبيّ ﷺ سنةَ خمسٍ على الصحيح زوَّجها الله عزّ وجلّ إياهُ بدون وَلِيّ ولا شهود ولا صداقٍ خصيصةً من الله تعالى له ولها، وكانت قبله تحت زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، وكانت تتعاظم عليه لكونها قرشية ذات حسب وزيد مولى فطلّقها زيد، فلمّا انقضت عدّتها بعثه إليها يخطبها له ﷺ، فأرادت أن تستخير الله في ذلك، فأنزل الله تعالى القرآن على نبيّه ﷺ يزوّجه بها، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ الآية، زيد هو ابن حارثة، والوطر الحاجة.

[٣٥٩] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبيّ ﷺ يقول: **«اتّقِ الله وأمسِكْ عليك زوجَك»**، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبيّ ﷺ تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكُنّ وزوَّجَنِي الله تعالى من فوق سبع سمٰوات.

وفي رواية: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ في شأن زينب بنت جحش، جاء زيد يشكو فهمّ بطلاقها، فاستأذن النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «أمسِكْ عليك زوجَك واتّقِ الله».

رواه البخاري في التفسير (١٤٢/١٠) وفي التوحيد (١٨٣/١٨، ١٨٤)، والترمذي (٣٠٠٣، ٣٠٠٥)، والحاكم (٤١٧/٢) وانظر ما سبق في التفسير.

لما ضاق صدر زيد بن حارثة مما كانت تعامله به السيدة زينب من التعالي عليه... همَّ بطلاقها، فأتى النبيّ ﷺ يشكوها إليه، وكان الذي زوَّجه إياها، فقال له: «اتّق الله وأمسك عليك زوجك ولا تطلّقها»، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

فكان الذي أخفاه في نفسه هو ما أوحاه الله تعالى إليه بأنه سيتزوّجها إذا طلّقها زيد، وكان يخاف إن تزوّجها أن يُعَيِّره الناسُ بأنه تزوّج زوجةَ ابنِهِ زيد حيث إنه كان ينسب إليه حتى نزل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

[٣٦٠] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال عمر: قلتُ: يا رسول الله يَدخلُ عليكَ البرُّ والفاجرُ، فلو حجبتَ أُمّهاتِ المؤمنين، فأنزل الله عزّ وجلّ آية الحجاب.

رواه أحمد والبخاري في التفسير (٣٣٥/٩ ج ١٤٦/١٠، ٢٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٣٥/٦).

[٣٦١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت آكل مع النبيّ ﷺ حَيْساً مِن قَعْبٍ، فمَرَّ عُمرُ رضي الله تعالى عنه فدعاه فأكل فأصاب أُصبعُه أصبعِي، فقال: «حَسِّ أو أوّه، لو أُطاعُ فِيكُنَّ ما رأتْكُنَّ عينٌ»، فنزل الحجاب.

رواه النسائي في الكبرى (٤٣٥/٦) وعزاه في المجمع (٩٣/٧) لأوسط الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة.

«قعنب» بفتح القاف وسكون العين قدح ضخم. وقوله: «حس» كلمة تقال إذا أصيب الإنسان بضربة أو بشيء ما عن غفلة، و«أوّه» كلمة تُقال عند التوجّع والشكاية.

الحديثان يدلاّن على أن آية حجاب نساء النبيّ ﷺ كان نزولها بسبب سيّدنا عمر، بينما حديث أنس المتقدم يذكر أنه كان بسبب زينب، وقد جمع بين ذلك إما بتعدّد النزول، أو يكون نزل بأحد السببين، ثم صادف الثاني النزول فأخبر كلٌّ بما علم، والله تعالى أعلم.

وفي حديث أنس في قصة زواج زينب بجميع رواياته أحكامٌ وآداب وفوائد:

فمنها: جواز خطبة المرأة بواسطة زوج سابق لها وقد طلّقها، وليس في ذلك غضاضة إن أطاق ذلك.

ومنها: خصيصة للنبيّ ﷺ ولزينب حيث تزوّجها بأمرِ الله تعالى بلا وليّ ولا شهود ولا صداق، بل بمجرّد نزول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وهذا شيء لم يكن ولا يكون لأحدٍ غيرهما.

ومنها: مشروعية الوليمة في العرس وأن يكون طعامها اللحم وغيره من الفواكه ونحوها، وقد تقدم حديث: «**أولم ولو بشاة**»، فانظر ذلك فيما سبق من النكاح.

ومنها: ظهور تلك المعجزة النبويّة في تكثير الطعام وبركته حتى أكل منه ثلاثمائة رجل حتى شبعوا وبقي الطعام على حالته لم ينقص منه شيء.

ومنها: مشروعية الإهداء للعروس بعض ما يحتاجه في وليمته من الطعام ونحوه.

ومنها: إرشاد المسلم إلى أنه ينبغي له أن ينصرف من الوليمة فور فراغه من تناول الطعام، وأن لا يمكث ويطيل على أهل الدار فيثقل عليهم، فإن ذلك قد يُؤذيهم أشدّ الإذاية كما صدر من أولئك النفر مع النبيّ ﷺ، حيث مكثوا بالمنزل بعد أكلهم وهو يريد أهله، وجعل يخرج ويدخل وهم جالسون حتى نزل القرآن يؤنّبهم: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

ومنها: أن حجاب نساء النبيّ ﷺ هو حجاب خاص، وذلك لأشخاصهنّ وجميع أجسامهنّ، فلا يُرى منهنّ شيء أصلاً، كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، وهذا بخلاف غيرهنّ، فإن حجابهن مقيّد بغير ما ظهر منهنّ.

ومنها: فضل زينب رضي الله تعالى عنها، وأن لها خصيصة ليست لغيرها؛ حيث تولّى الله تعالى تزويجها بدون واسطة أحد، وستأتي فضائلها في موضعه إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ خلاصة ما وقع في السنة الخامسة من الأحداث

كان في هذه السنة من الأحداث الآتي: غزوة بني المصطلق، زواجه ﷺ بجُوَيْرِيَة بنت الحارث، إثارة المنافقين الفتنة بين المهاجرين والأنصار، حادث الإفك، ريح شديدة هبّت لموت منافق عظيم، غزوة الخندق، المعجزات التي وقعت فيها. . .، انشغال المسلمين عن صلاتي الظهر والعصر حتى غربت الشمس، دعاء النبيّ ﷺ على الأحزاب واستجابة دعائه، انهزام الأحزاب بزلزلة الملائكة قلوبهم وهبوب ريح شديدة عاصفة، خلاصة غزوة الأحزاب وفوائدها، شهداء الخندق، غزوة بني قريظة، نهاية اليهود من المدينة، فوائد غزوة قريظة، من نتائج وراثة أرض النضير وقريظة، زواجه ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها.

* * *

❋ السنة السادسة

مقتل أبي رافع بن أبي الحُقَيْقِ اليهودي لعنه الله تعالى

[٣٦٢] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمّر عليهم

عبدَ الله بن عَتيكٍ، وكان أبو رافع يُؤذي رسول الله ﷺ ويُعِينُ عليه، وكان في حصنٍ له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناسُ بِسَرْحِهم، فقال عبدالله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلقٌ ومُتَلَطِّفٌ للبوَّاب لعلّي أن أدخلَ، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تَقَنَّع بثوبه كأنه يَقضي حاجةً وقد دخل الناس، فهتَف به البوابُ: يا عبدالله إن كنتَ تريد أن تدخلَ فادخُل، فإني أريد أن أُغلِقَ البابَ، فدخلتُ فكمَنتُ، فلما دخل الناس أغلق البابَ ثم علّق الأغَالِيقَ على وَتَدٍ، قال: فقمتُ إلى الأقاليدِ فأخذتُها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده، وكان في عَلالِيَ له، فلما ذهب عنه أهلُ سَمَره صعِدتُ إليه فجعلتُ كلما فتحتُ باباً أغلقتُ عليَّ من داخل، قلت: إنْ القوم نَذِرُوا بي لم يخلُصوا إليَّ حتى أقتُلَه، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مُظْلِم وسَطَ عِيالِه، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهْويتُ نحوَ الصوت، فأضربه ضربةً بالسيف، وأنا دَهِشٌ، فما أغنيتُ شيئاً، وصاح، فخرجتُ من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلتُ إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويلُ، إنَّ رَجُلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف، قال: فأضربُه ضربةً أثخَنتُه، ولم أقتُلْه، ثم وضعتُ ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفتُ أنّي قتلتُه، فجعلتُ أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيتُ إلى درجة له فوضعتُ رجلي وأنا أرى أني انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مُقْمِرةٍ، فانكسرتْ ساقي فعَصَبْتُها بعمامة، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب، فقلتُ: لا أخرج الليلة حتى أعلمَ أقتلْتُه أم لا، فلما صاح الدِّيكُ قام الناعي على السُّور فقال: أنعِي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبيّ ﷺ فحدّثتُه فقال لي: «ابسُط رجلك»، فبسطت رجلي فمسحَها فكأنها لم أشتكها قطّ.

رواه البخاري في الجهاد (٤٩٦/٦) وفي المغازي (٣٤٤/٨، ٣٤٨) من طرق.

«سرحهم» ـ بفتح السين وسكون الراء ـ أي: مواشيهم. «تقنع» أي: غطّى رأسه بثوب. «هتف» أي: ناداه وصاح به. «فكمنت» أي:

اختبأت. «الأغاليق» المفاتيح وهِيَ الأقاليد واحدها إقليد. «يسمر عنده» أي: يتحدّث الناس عنده ليلاً. «علالي» واحدها عليّة أي: غرفة. «نَذِرَ بي» - بكسر الذال - أي: علموا بي. «لم يخلصوا» أي: لم يصلوا إليّ. «فأهويت» أي: قصدت جهته. «أثخنته» أي: أوهنته. «ضبيب سيفي» - بالضاد - على وزن رغيف، وقيل: هو بالظاء وهو طرف حدّ السيف. «صاح» أي: صرخ. كان أبو رافع من كبار تجّار الجزيرة ومن أشراف اليهود وكان يسكن في حصنٍ له بخيبر أو قريب منها، وكان يُعادي رسول الله ﷺ ويؤذيه ويُؤَلِّب عليه الناس، وقد كان ممّن أعان غطفانَ وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ في الأحزاب، فبعث إليه رسول الله ﷺ مَن يقتله، وكانوا جماعة من الأنصار منهم عبدُالله بن أُنَيس الأنصاري، وعبدالله بن عتبة، ومسعود بن سنان، وأبو قتادة، وخزاعي بن أسود، وأميرهم عبدالله بن عَتِيك وهو الذي تولّى قتله.

وكان هذا الحادث في رمضان سنة ستّ على المشهور، وقيل: سنة خمس وقيل غير ذلك، وهذه هي العملية الفدائية الثالثة التي صدرت من الصحابة بإذن النبيّ ﷺ ضدّ الكفار المحاربين.

وفي الحديث جواز قتل مؤذي النبيّ ﷺ والطاعن فيه، ولا خلاف في ذلك بين العلماء. وفيه مشروعيّة هجوم القليل من المسلمين على الكثير من الكفار، وفيه جواز قتل الكافر المحارب غيلة مُبَيَّتاً بين أهله، وفيه شجاعة عبدالله بن عَتِيك ومغامرته وذكاؤه وفطنته، وفيه ما كان عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من المسارعة إلى امتثال أمر رسول الله ﷺ ولو كان فيه هلاكهم، وفيه فضل الأنصار رضي الله تعالى عنهم، فإن الذين نفَّذُوا العمليات في قتل كعب بن الأشرف، وخالد الهُذَلي، وأبي رافع بن أبي الحُقَيْق، كُلُّهم كانوا من الأنصار رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وجعل الفردوس مثواهم وإيّانا معهم.

* * *

قصَّة ثُمامَة بْنِ أثالِ الحَنَفِيِّ

[٣٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجلٍ من بني حَنِيفة يقال له ثُمامَة بن أُثال سيِّد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسولُ الله ﷺ فقال: «**ماذا عِندَكَ يا ثُمامَة؟**» فقال: عندي يا محمد خَيْرٌ، إن تَقْتُل تقتلْ ذا دم، وإن تُنعِمْ تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت؛ فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ما عندك يا ثُمامة؟**» قال: ما قلت لك، إن تُنعِم تُنعم على شاكرٍ، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنتَ تريد المال فسَلْ تُعْطَ منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلت لك، إن تُنعِم تُنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسَلْ تُعْطَ منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ: «**أطلِقوا ثُمامة**»، فانطلق إلى نخيل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلّها إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدِك، فأصبح بلَدُك أحبَّ البلاد كُلِّها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكّة قال له قائل: أصَبَوْتَ؟ فقال: لا ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حِنطةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في المساجد (١٠٢/٢، ١٠٦) وفي المغازي (١٥٠/٩، ١٥١) في وفد بني حنيفة، ومسلم في الجهاد (٨٧/١٢، ٨٩)، وأبو داود (٢٦٧٩)، والنسائي في الطهارة (٩١/١)، وقد تقدّم في المساجد مختصراً.

كان رسول الله ﷺ قد بعث محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشنّ الغارة على بني بكر بن كلاب بناحية ضَرِيَّة وهو موضع يبعد عن المدينة لجهة نجد بسبعِ ليالٍ، فساروا يكمُنُون النهار، ويَسِيرُون الليل حتى دهَمُوهم

فقتلوا منهم عشرة وهرب باقيهم، فاستاقوا النَّعَم والشِّيَاهَ وعادوا راجعين، وفي طريقهم التقوا ثمامة بن أثال وكان من عظماء بني حنيفة، فأسَرُوه وهم لا يعرفونه، فلما أتوا به رسول الله ﷺ وعرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق وهو موثق بالمسجد، وأطلق سراحه بعد ثلاث، فهداه الله عزّ وجلّ فذهب واغتسل وأشهر إسلامه واعترف للنبيّ ﷺ بما كان يكنّه قلبه له ولبلده من البغضاء، وما انقلب إليه من المحبّة، وما ذلك إلا لما عامله به النبيّ ﷺ من المعاملة الحسنة والعفو عنه.

وفي هذا الحديث من الفوائد والفقه: أن للمسلمين أن يأسروا أي كافر محارب وجدوه في بلاد الكفر، وأنه يجوز إدخال الكافر المسجد للمصلحة والحاجة والضرورة، وأن الكافر يشرع له الاغتسال عند إسلامه، وأن الإمام له الخيار في معاملة الأسير بين العفو وغيره، وأن الأسير ينبغي أن يُعامل المعاملة الحسنة ولا سيّما إذا كان سيداً في قومه، فإنه من السنّة إنزال الناس منازلهم، وخاصّة إذا كان يرجى من إسلامه اتّباع غيره له، وفيه ما صار إليه ثمامة من حبّه للنبيّ ﷺ بعد فترة وجيزة من بغضه إيّاه، وفيه صدق إيمانه ووفاؤه للنبيّ ﷺ يتجلّى ذلك في قوله لكفار مكة: والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، وثمامة هذا كان له القدم الراسخ في تثبيت قومه بني حنيفة عندما ظهر مسيلمة الكذاب وارتدّوا واتّبعوه، وكان له شأن في قتالهم.

* * *

❋ غزوة بني لحيان

[٣٦٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون: إن لهم صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، وهي العصر، فأجْمَعُوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة، وأن جبريل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بعضهم، وتقوم الطائفة الأخرى وراءهم ليأخذوا حذرهم وأسلحتهم،

ثم تأتي الأخرى فيصلّون معه، ويأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم لتكون لهم ركعة ركعة مع رسول الله ﷺ، ولرسول الله ﷺ ركعتان.

رواه أحمد (٥٢٢/٢) والترمذي في التفسير (٢٨٣٩) والنسائي في صلاة الخوف (١٤٢/٣) وحسنه الترمذي وصححه.

[٣٦٥] وعن أبي عيّاش الزُّرَقِي رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بعُسْفان فاستقبلَنا المشركون عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلّى رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غِرَّتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم وأنفسِهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخ، قال: فحضرت الصلاة، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصففنا صفّين، قال: ثم ركع، فركعنا جميعاً، ثم رفع، فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبيّ ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلمّا سجدوا وقاموا جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبيّ ﷺ والصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس جلس الآخرون، فسجدوا فسلَّم عليهم ثم انصرف، قال: فصلاّها رسول الله ﷺ مرّتين، مرّة بعُسْفان ومرة بأرض بني سُلَيْم.

رواه أحمد (٥٩/٤، ٦٠)، وأبو داود (١٢٣٦)، والنسائي في صلاة الخوف (١٤٥٨)، والحاكم (٣٣٧/١، ٣٣٨) وصححه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

«عسفان» ـ بضم العين وسكون السين ـ موضع بينه وبين مكّة نحو من سبعين كيلو. و«ضجنان» ـ بفتحتين ويسكن الجيم ـ جبل قريب من مكّة، قالوا: بينه وبين مكّة خمسة وعشرون ميلاً.

في الحديثين بيان بداية تشريع صلاة الخوف، وأن النبيّ ﷺ أوّل ما صلاّها كان بعسفان، في غزوة بني لحيان وبها نزلت آية صلاة الخوف.

وكان سببها كما قال علماء السيرة والمغازي: أنه لما أُصيب خبيب وعاصم وأصحابهما في سرية الرجيع خرج رسول الله ﷺ طالباً بدمائهم في السنة السادسة ليصيب في بني لحيان غرة، فسلك طريق الشام ليري أنه لا يريد لحيان حتى نزل بأرضهم، فوجدوا وقد حُذِرُوا وتَمَنَّعُوا في رُؤوس الجبال، فقال رسول الله ﷺ: **«لو آنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكّة»**، فخرج في مائتي راكب حتى نزل عسفان ثم بعث فارسين، حتى جاءا كراع الغميم ثم انصرفا، فكان ما حدَّث به أبو عيَّاش الزرقي وأبو هريرة من صلاة الخوف.

وقد قدمنا في صلاة الخوف ـ الجزء الثاني ـ أن النبيّ ﷺ صلاّها مرات متعدّدة، وقد ذكرت هناك حديثي جابر وصالح بن خوات أنه ﷺ صلاّها بذات الرقاع، كما ذكرت حديث ابن عباس أنه صلاها أيضاً بغزوة ذي قُرد، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك، وراجع الجزء الثاني ص (٤٨٠، ٤٨٢).

* * *

❋ قصة عُكْل وعُرَيْنَة

[٣٦٦] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن ناساً من عُكْل وعُرَيْنَة قدموا المدينة على رسول الله ﷺ وتكلّموا بالإسلام، فقالوا: يا نبيّ الله إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف واستوخموا المدينة، فأمرهم رسول الله ﷺ بذَوْدٍ وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبيّ ﷺ واستاقوا الذَّوْدَ، فبلغ النبيّ ﷺ، فبعث الطلبَ في آثارهم فأمر بهم فسمَّروا أعْيُنَهم، وقطعوا أيديهم، وتُرِكُوا في ناحية الحرّة حتى ماتوا على حالهم.

رواه البخاري في التفسير (٣٤٣/٩) وفي مواضع، ومسلم في القسامة،

وأبو داود (٤٣٦٤)، والنسائي والترمذي وغيرهم، وقد تقدم في التفسير وفي المرتدين.

و«استوخموا» هو معنى رواية مسلم، «فاجتووا المدينة» أي: لم يوافقهم هواؤها فمرضوا. وقوله: «فسمّروا أعينهم» أي: كحلها، وفي رواية: وسمل أي: فقأها. وللحديث فوائد كثيرة ويدخل في أبواب عديدة وراجع ما تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الخ. من التفسير وكتاب المحاربين وقطاع الطريق...

* * *

❁ غزوة الحديبية وبيعة الرضوان ومصالحة المشركين: وقت الحديبية

[٣٦٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربعَ عُمَر كلُّهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجّته، عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجّته.

رواه أحمد (١٣٤/٣، ٢٥٦)، والبخاري في الحجّ وفي المغازي (٤٤٥/٨)، ومسلم في الحجّ رقم (١٢٥٣)، وأبو داود والترمذي كلاهما في الحج وقد تقدم في الحجّ.

الحديبية موضع بينه وبين مكّة نحو عشرين كيلو وهي نهاية الحرم من ناحية الغروب، وكان هذا الحادث في ذي القعدة من السنة السادسة، والسبب في ذلك أنه ﷺ رأى رؤيا مُؤدّاها أنه دخل هو وأصحابه مكّة المكرمة معتمرين مُحَلِّقين ومُقَصِّرين، فنادى في الصحابة بذلك، فخرج قاصداً مكّة للاعتمار، وأحرموا من ذي الحليفة فلما وافوا الحديبية خرج المشركون فصدوهم عن الدخول إلى مكّة، وبعد مفاوضات وقع الصلح على أن يرجعوا، وأن يأتوا العام المقبل.

* * *

❋ عدد أصحاب الحديبية وبيعة الرضوان

[٣٦٨] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «**أنتم خيرُ أهلِ الأرض**»، وكنّا ألفاً وأَرْبَعمائةٍ، ولو كنتُ أُبصِر اليوم لأَرَيْتُكُمْ مكانَ الشجرة.

رواه أحمد (٣٩٦/٣)، والبخاري في غزوة الحديبية (٤٤٨/٨، ٤٤٩)، ومسلم في الإمارة (٣/١٣)، وفي رواية لهما: كنّا ألفاً وخمسمائة.

[٣٦٩] وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمائة، وكانت أَسْلَمُ ثمن المهاجرين.

رواه البخاري (٤٤٩/١)، ومسلم (٣/١٣).

حديث جابر بروايته الأولى يدلّ على أن عدد أهل بيعة الرّضوان كانوا ألفاً وأربعمائة، بينما الرواية الثانية تدلّ على أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة.

أمّا رواية ابن أبي أوفى، فتدلّ على أنهم كانوا ألفاً وثلاثمائة، وأكثر الروايات أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، ولذلك رجّحها البيهقي وغيره، أما غير ذلك فجمع بينها النووي ثم الحافظ بما فيه نظر.

❋ ❋ ❋

❋ سياق قصة الحديبية والصلح والبيعة وما يتبع ذلك

[٣٧٠] عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهَدْي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إنّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادّوك ومانعوك، فقال: «**أشيروا أيها الناس عليّ أتَرَوْنَ أن أَمِيلَ على عِيالهم وذَرارِي هؤلاء الذين يُريدون أن يَصُدُّونا عن البيت، أم ترون أن نَؤُمَّ البيت، فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قَتْلَ

أحد ولا حرباً، فتوجّه له فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟ قال النبيّ ﷺ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبيّ ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيلٍ لقريش طليعةً، فخُذُوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبيّ ﷺ حتى إذا كان بالثَّنِيَّةِ التي يَهْبِطُ عليهم منها بَرَكَتْ به راحلتُه، فقال الناس: حَلْ حَلْ فألحّتْ، فقالوا: خَلأَتْ القَصْواء، فقال النبيّ ﷺ: «ما خَلأَتْ القصواءُ وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبَسها حابِسُ الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يَسْألوني خُطَّةً يعظمون فيها حُرماتِ الله إلا أعطيتُهم إيّاها»، ثم زجرها فوثبتْ فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ قليل الماء يَتَبَرَّضُه الناسُ تَبَرُّضاً، فلم يَلْبَث الناس حتى نزحوه وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتى صَدَروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بَدِيل بن ورقاء الخُزاعي في نَفرٍ من قومه، فقال: إني تركتُ كعبَ بن لؤي، وعامرَ بن لُؤي، نزلوا أعدادَ مياه الحديبية معهم العُوذ المَطافِيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال النبيّ ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحدٍ، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لَيُنَفِّذَنَّ الله أمرَه»، قال بديل: سأبَلِّغُهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنا جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نَعرضَه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤُهم: لا حاجة لنا أن تُخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم أوَلستُم بالوالِد؟ قالوا: بلى، قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لا، قال: ألستُم تعلمون أني اسْتَنْفَرْتُ أهل عُكاظٍ فما بَلَّحُوا عليّ، جئتكم بأهلي وولدي ومن

أطاعني، قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ودعوني آته، قالوا: إيته، فأتاه فجعل يكلّم النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصلَه قبلك، وإن تكن الأخرى فإنّي والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امْصَصْ بَظْرَ اللاَّتِ نحن نفرّ وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ لك عندي لم أجزِكَ بها لأجبتُك، قال: وجعل يكلّم النبيّ ﷺ فكلما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يدَه بنصل السيف، وقال: أخِّر يدك عن لحية النبيّ ﷺ، فرفع عروة رأسَه، وقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيْ غُدَرُ ألستُ أسْعَى في غَدْرَتِك؟ وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**»، ثم إن عروة جعل يَرْمُقُ أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نُخامةً إلا وقعت في كَفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلْدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلّم خَفَضُوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أيْ قوم والله لقد وفدت على الملوك كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يُعَظِّمُه أصحابُه ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمد محمّداً، وأنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من كنانة: دعوني آته، فقالوا: إيته، فلما أشرف على النبيّ ﷺ وأصحابه قالوا: هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البُدْن فابعثوها له، فبعث له واستقبله الناس يلبّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلمّا رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلّدت وأُشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال

له مكرز بن حفص، فقال: دَعُوني آته، فقالوا: إيته، فلما أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ: «**هذا مكرز وهو رجل فاجر**»، فجعل يكلّم النبيّ ﷺ، فبينما هو يكلّمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبيّ ﷺ الكاتب، فقال له النبيّ ﷺ: «**اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم**»، فقال سُهَيْل بن عمرو: أما الرحمٰن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللّهمّ كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقال النبيّ ﷺ: «**اكتب باسمك اللّهمّ**».

ثم قال: «**هذا ما قضى عليه محمد رسول الله ﷺ**»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، اكتب محمد بن عبدالله، فقال النبيّ ﷺ: «**إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبدالله**». قال الزهري: وذلك لقوله: «**لا يسألوني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، فقال له النبي ﷺ: «**على أن تُخَلُّوا بيني وبين البيت، فنطوف به**»، فقال سهيل: والله لا يتحدّث العرب أنا أُخِذْنَا ضُغْطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منّا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددتَه إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يردّ إلى المشركين، وقد جاء مسلماً...

فبينما هم على ذلك إذ جاء أبو جُندل بن سهيل بن عمرو يرسُف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكّة حتى رمَى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبيّ ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**»، قال: فوالله إذاً لا أُصالحك على شيء أبداً، فقال النبيّ ﷺ: «**فأجزه**»، قال: ما أنا بِمُجِيز ذلك لك، قال: «**بلى فافعل**»، قال: ما أنا بفاعلٍ، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيتُ، وكان قد عذّب عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: فأتيت نبيّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيّ الله حقّاً؟ قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نعطي الدّنية في ديننا إذن؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو**

ناصري»، قلت: أوَ لست كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام»، قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نُعطِي الدَّنِيَّة في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يَعْصِي ربّه وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِه، فوالله إنه على الحقّ، قلت: أوَ ليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيتَ ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به. قال عمر رضي الله تعالى عنه: فعملتُ لذلك أعمالاً.

قال: فلمّا فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانْحَرُوا ثم احْلِقُوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرّات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها: يا نبيّ الله أتحبّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتَدْعُو حالِقَك فيَحْلِقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعى حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غَمّاً، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، فطلّق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أُميّة.

ثم رجع النبيّ ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بَصِير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيّداً، فاستَلّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جرّبتُ منه ثم جربت، فقال أبو بَصِير: أرِني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى

المدينة، فدخل المسجد يَغدُو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلمّا انتهى إلى النبيّ ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بَصِير فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذِمَّتك قد رددَتَنِي إليهم ثم نجّاني الله تعالى منهم، فقال النبيّ ﷺ: «وَيْل أُمّه مِسْعر حَرْب لو كان معه أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، قال: وتَفَلَّتَ منهم أبو جندل بن سهيل فلحَق بأبي بَصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحِقَ بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عِصابةٌ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبيّ ﷺ تناشده الله والرَّحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبيّ ﷺ إليهم وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، حتى بلغ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾.

وكانت حميتُهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ﷺ، ولم يقروا ببسم الله الرحمٰن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

رواه البخاري في الشروط مطوّلاً (٦/٢٥٧، ٢٨٠) ورواه في المغازي (٨/٤٥٠، ٤٥٩، ٤٦٠) مختصراً، ورواه أحمد (٤/٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢)، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥)، وابن حبان (١١/٢١٦، ٢٢٦) وغيرهم مطوّلاً ومختصراً.

[٣٧٩] وعن عبدالله بن معقل رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة، فذكر أمر الكتابة ثم قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعى عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله عزّ وجلّ بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحدٍ، وهل جعل لكم أحد أماناً»؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلَهم فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

رواه أحمد (٨٦/٤، ٨٧)، والحاكم وسنده صحيح على شرط مسلم.

[٣٧٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلّحين، يريدون غِرّةَ النبيّ ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

رواه أحمد (١٢٢/٣، ١٢٥)، ومسلم في الجهاد (١٨٧/١٢)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي في تفسير الفتح (٣٠٤٩).

[٣٧٣] وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر النبيّ ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكّة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نُقِرُّ بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، قال ﷺ: **«أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبدالله»**، ثم قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: **«امْحُ رسول الله»**، قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فقال رسول الله ﷺ: **«أرني مكانه حتى أمْحُوهُ»**، فمحاه وكتب مكان رسول الله ﷺ محمداً، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله أن لا يدخل مكّة بالسلاح إلا السيف في القرب ولا يخرج منها بأحد يتبعه، ولا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها... الحديث يأتي كاملاً في عمرة القضاء.

رواه أحمد والبخاري في الحجّ وفي الصلح وفي المغازي، ومسلم في صلح الحديبية (١٣٦/١٢، ١٣٧).

* * *

❋ شرح غريب حديث المسور وغيره

«الأحابيش» جمع أحبوش ـ بضم الهمزة والباء ـ هم قبائل من العرب كانوا تحالفوا مع قريش. «يركض» أي: يضرب الفرس عَدْواً. «خلأت» أي: حرنت. «حَلْ حَلْ» بفتح الحاء يقال ذلك للناقة إذا وقفت ولم تسر.

«حبسها حابس الفيل» أي: حبسها الله عزّ وجلّ عن دخول مكّة كما حبس الفيل عن دخولها. «خطة» ـ بضم الخاء ـ أي: خصلة. «ثَمَد» ـ بفتحتين ـ أي: حفيرة فيها ماء مثمود أي: قليل. «يتبرضه» أي: يأخذونه قليلاً قليلاً. «يَجِيش» بفتح الياء وكسر الجيم أي: يفور. «العوذ» ـ بضم العين ـ جمع عائذ هي الناقة ذات اللبن. «المطافيل» هي الأُمّهات التي معها أولادها، والمراد أنهم أتوا بنوقهم ذوات الألبان والأولاد، وبنسائهم وأطفالهم لإرادة طول المقام، وليكون ذلك أدعى إلى عدم الفرار. «جَمُّوا» أي: استراحوا وهو بفتح الجيم وضم الميم المشدّدة. «حتى تنفرد سالفتي» السالفة هي صفحة العنق وكنى بذلك عن القتل أي: حتى أُقتل. «استنفرت» أي: طلبت منهم النفار للقتال. «فلما بلّحوا» بفتح الباء وتشديد اللام أي: امتنعوا. «اجتاح» أي: أهلك أصله بالكلية. «أشواباً» أي: أخلاطاً. «خليقاً» أي: حقيقاً. «امصَص بظر اللات» امصص بألف وصل وصادين الأُولى مفتوحة أمر من المصّ وهو الرضاعة والبظر بفتح الباء وسكون الظاء المعجمة هي قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات اسم صنم لقريش وثقيف، وأراد أبو بكر بهذا سبّ عروة بإقامة من كان يعبد من الأصنام مقام أمّه، وكان العرب يسبّون بذلك فيقولون: امصص بظر أمك، فأقام أبو بكر اللات مقام أم عروة. «غدر» بضم الغين وفتح الدال هو معدول عن غادر مبالغة في الغدر. «جعل يرمق» بفتح الياء وضمّ الميم أي: يلحظ. «وما يجدون» بضمّ الياء أي: لا ينظرون إليه متأمّلين بل يغضون أبصارهم احتراماً له. «رجل فاجر» لأنه كان غدّاراً. «ضغطة» بضم الضاد وسكون الغين أي: قهراً. «يرسف» أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب قيده. «فلِمَ نُعْطِي الدنية» أي: الخصلة الخسيسة. «فاستمسك بغَرْزه» بفتح الغين هو للإبل بمنزلة الركب للفرس، والمراد بذلك التمسك بأمره ﷺ وترك مخالفته كالذي يركب الفرس فلا يفارقه. «حتى برد» بفتحتين أي: حتى خمدت حواسه وهو كناية عن الموت. «ذُعْراً» بضم الذال وسكون العين أي: خوفاً. وقوله في حديث أنس: «غرة» بكسر الغين أي: في غفلته. وقوله: «سلماً» بفتحتين على الصحيح أي: منقادين. «فاستحياهم» أي: لم يقتلهم.

حديث المسور حديث عظيم فيه فوائد وأحكام وآداب وقواعد تستحق الإفراد بالشرح، وأهمّ ما جاء فيه وما في الفصل الأمور الآتية:

أولاً: خروجه ﷺ قاصداً مكّة للاعتمار تصديقاً للرؤيا التي رآها، والتي سيُصَدِّقُها الله تعالى له في السنة السابعة، وفيها يقول عزّ وجلّ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾...

ثانياً: صَدُّ الكفارِ النبيّ ﷺ وأصحابه عن الدخول إلى مكّة لأداء العمرة، وكان ذلك منهم ظلماً سافراً كان من المفروض أن يُقاتلوا على ذلك، لكن حكمة الله اقتضت غير ذلك، وفي هذا المشهد يقول الله تعالى عن كفار قريش: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

فأخبر تعالى بأن قريشاً منعوا المسلمين عن الدخول إلى مكّة، والحالة أن هديهم كان معكوفاً أي محبوساً عن أن يصل محلّه ومكانه الذي يُذْبَحُ فيه وهو الحرم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الخ، يعني: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بهلاكهم مكروه لما كفّ أيديكم عنهم ولأذن لكم في فتح مكّة وقتال المشركين بها، ولو تزيلوا وتميّز بعضهم عن بعض وانفصل المؤمنون عن الكفار لعذّبنا الكافرين منهم أشدّ العذاب.

ثالثاً: ما حصل من التفاوض ومصالحة الكفار، وذلك وإن لم يُرْضِ المسلمين وصدر من بعضهم انتقاد له، فقد كان في ذلك خير كبيرٌ وفتح مبينٌ، وقد جاء ذلك مبيّناً واضحاً في الحديث التالي.

[٣٧٤] عن مُجَمِّع بن جارية رضي الله تعالى عنه قال: شهدْنَا الحديبيةَ، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كُراع الغميم، وقد

جمع الناس قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ الآية، فقال رجل: يا رسول الله أوَ فتحٌ هو؟ قال: «**إي والذي نفسي بيده إنه لفتح**».

رواه أبو داود (٢٧٣٦)، وابن جرير (٧١/٢٦)، والحاكم (٤٥٩/٢) وصححه على شرط مسلم، قال الذهبي: ولم يخرج مسلم لمجمع ولا لأبيه شيئاً، وهما صحابيان.

[٣٧٥] وعن البراء قال: أتعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤١٥٠، ٤١٥١).

قال الحافظ في الفتح: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾، المراد بالفتح هنا الحديبية لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين لما ترتّب على الصلح الذي وقع منه الأَمْنُ ورفعُ الحرب وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك إلخ.

ومن الخير العظيم الذي نشأ عن هذا الصلح أنه دخل في الإسلام في هذه السنة والسنة السابعة ما لم يدخل في السنين الأوائل الطوال، فقد كان ﷺ في هذه الغزوة في ألف وأربعمائة، وكان في غزوة الخندق في ثلاثة آلاف، ودخل مكّة في الفتح في عشرة آلاف.

رابعاً: كانت المصالحة على الشروط التالية: أولاً: أن تُوضع الحرب بين المسلمين وبين كفار قريش عشر سنين، وأن يَأْمَن الناسُ بعضهم من بعض. ثانياً: أن يرجع المسلمون عامهم ذلك وأن يأتوا العام المقبل وأن يدخلوا مكّة بلا سلاح إلا السيوف في القرب، ولا يزيدوا على إقامة ثلاثة أيام. ثالثاً: من أتى المدينة من مسلمي مكّة رُدَّ، ومن أتى مكّة من مسلمي المدينة لا يُرَدّ، وعند هذا الشرط التفت الصحابة إلى رسول الله ﷺ يسألونه: أنكتب هذا يا رسول الله؟ قال: «**إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً**»، رواه مسلم.

خامساً: كان كاتبُ الصلح الإمام عليّ عليه السلام، وعندما أَنِفَ الكفارُ من كتابة بسم الله الرحمٰن الرحيم... ورسول الله، حَمية منهم

لجاهليّتهم، وأمر النبيّ ﷺ بمَحْو ذلك امتنع وحلف على ذلك، فيؤخذ من هذا أن الأدب قد يقدم على الأمر. فعليّ عليه السلام لم يمتنع من مَحو اسم الله واسم رسوله ﷺ تكبّراً ومحادة لله ولرسوله، بل امتنع من ذلك تأدّباً مع اسم الله واسم رسوله عليه الصلاة والسلام، فأقرّه النبيّ ﷺ على ذلك فتولّى محوه بيده الشريفة نظراً لمصلحة الصلح.

سادساً: في قوله ﷺ لعليّ: «**أرني مكانه حتى أمْحُوَه**»، مع قول البراء: وليس يُحْسِن يكتبُ، دليل على أنه عليه الصّلاة والسلام لم يتعلّم الكتابة وأنه بقي على أُمّيّته التي وصفه الله بها، والتي كانت كمالاً ومعجزة في حقّه، خلافاً لمن قال بأنه كان يكتب حتى وقع بسبب ذلك شتائم وسباب وتكفير وتضليل بين بعض العلماء.

سابعاً: ما صدر من الصحابة من كراهية الصلح وعدم امتثالهم لما أمرهم به ﷺ من نحر البدن وحلق الرؤوس والاستحلال من العمرة هو شيءٌ عظيم جداً، لكن الله عزّ وجلّ عفا عنهم وسامحهم وغفر لهم ورضي عنهم؛ لأن ذلك كان فوق طاقتهم فلم يتحمّلوه.

ويؤخذ من هذه الحادثة أن في النساء من لهنّ رأيٌ صائبٌ ونَظَرٌ سديدٌ، فإن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها أشارتْ إلى النبيّ ﷺ بأمرٍ كان ناجحاً، فسَلِم الصحابة بسببه من المخالفة فنحَرُوا وحَلَقُوا...

ثامناً: قوله: ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلخ، يقتضي أن ذلك وقع في الحديبية وليس كذلك، بل جِئْنَهُ بالمدينة داخل مدةِ الصلح.

تاسعاً: جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية، حديث أنس في هبوط أناس من جبل التنعيم على رسول الله ﷺ يريدون غرّته فأسرهم المسلمون، ثم عفا عنهم ﷺ، بينما جاء في حديث ابن معقل نزولها في قصة أخرى، فمن المحتمل أن تكون نزلت عند مصادفة القصّتين، فالله تعالى أعلم.

* * *

❁ بيعة الرضوان

[٣٧٦] عن المِسْور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه في حديث الحديبية أن رسول الله ﷺ بعث عثمان إلى قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته، فخرج عثمان حتى أتى مكّة ولقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته، وحمله بين يديه وردف خلفه وأجاره حتى بلّغ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعظماءَ قريش، فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فطُفْ به، فقال: ما كنت لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، فاحتبَسَتْهُ قريشٌ عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ أنّ عثمان قد قُتِل...

رواه أحمد (٣٢٣/٤، ٣٢٦)، وابن إسحاق كما في ابن هشام (٢٦٣/٣)، وابن سعد (٩٧/٢) وسنده صحيح.

[٣٧٧] عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيتُنِي يوم الشجرة والنبيّ ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غُصْناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه أن لا نَفِرّ.

رواه أحمد (٢٥/٥)، ومسلم في الإمارة (٥/١٣).

[٣٧٨] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، فبايعناه وعمر آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهي سمرة فبايعناه غَيْرَ الجَدِّ بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره.

رواه مسلم أيضاً (٢/١٣، ٣)، وفي رواية: بايعناه على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت.

[٣٧٩] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: على أيّ شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

رواه البخاري في غزوة الحديبية (٨/٤٥٥)، ومسلم في الإمارة (٦/١٣).

[٣٨٠] وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه أنه أتاه آتٍ، فقال: هذاك ابن حنظلة يبايع الناس، فقال: على ماذا؟ قال: على الموت، قال: لا أبايع على هذا أحداً بعد رسول الله ﷺ، وكان شهد معه الحديبية.
رواه البخاري (٨/٤٥٤)، ومسلم (٦/١٣).

ابن حنظلة: هو عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري، كان أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية، فبعث إليهم جيشاً، فقام عبدالله بن حنظلة يطالب أهل المدينة أن يبايعوه على قتال جيش يزيد حتى الموت...

كان احتباس سيدنا عثمان بمكّة من طرف كفارها وإشاعة قتله سبباً في حمل النبيّ ﷺ على مبايعة الصحابة على قتال الكفار والصمود وعدم الفرار.

وقد اختلفت الأحاديث كما نرى على ماذا كان يبايعهم ﷺ.

فحديثا معقل وجابر يدلاّن على أنه بايعهم على أن لا يفرّوا من العدوّ عند القتال، وأنه يجب عليهم الصبر والصمود. أمّا حديثا سلمة بن الأكوع وعبدالله بن زيد فيدلاّن على أنه بايعهم على الموت، وقد جمع بين هذه الأحاديث جماعة من العلماء كلٌّ بما ظهر له. وحملها الترمذي على أنه بايع قوماً على الموت، وبايع آخرين على عدم الفرار، والأمر في ذلك سهل وواضح.

وأهل بيعة الرّضوان يعتبرون أفضل أهل الأرض بعد أهل بدر، فكلاهما من أهل الجنّة كما تقدم، ويأتي في الفضائل، وفي أهل بيعة الحديبية جاءت الإشادة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ الخ، فهم مَرْضِيُّون عند الله عزّ وجلّ ومن رضي عنه فلا يسخط عليه أبداً.

* * *

٦ ❊ نزول سورة الفتح

[٣٨١] عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وكان عمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عُمر عن شيء فلم يُجِبْه، فذكر الحديث وفيه: وجئت رسول الله ﷺ فسلَّمتُ فقال: **«لقد أنزلت عليَّ الليلةَ سورةٌ هي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس»**، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

رواه أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم، وتقدم في التفسير.

[٣٨٢] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: أنزلت على النبيِّ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية، مَرْجِعَه من الحديبية، فقال النبيّ ﷺ: **«لقد نزلت عليّ آيةٌ هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها»**. فتلاها رسول الله ﷺ.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد تقدم أيضاً في التفسير.

الحديثان يدلاّن على أن سورة الفتح نزلت في الطريق مرجع النبيّ ﷺ من الحديبية، خلاف ما يُفْهم من بعض الروايات أنها نزلت بالحديبية، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

❊ تفجير البئر التي نضبت بالحديبية ببركة النبيّ ﷺ

[٣٨٣] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: تعُدّون أنتُم الفتح فتح مكّة، وقد كان فتح مكّة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان يوم الحديبية كنّا مع النبيّ ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئرٌ فنَزَحْنَاهَا فلم نترك فيها قَطْرَةً، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتى فجلس على شَفِيرِها، ثم دعا بإناء من ماء منها فتوضّأ ثم مضمض ودعا ثم صبّه فيها، فتركها غير بعيد، ثم إنها أصدرتْنا نحن وركائِبَنا، وفي رواية: **«إيتوني بدلوٍ من مائها»**.

رواه البخاري (٨/٤٤٥، ٤٤٧).

«نزحناها» أي: أخذنا ماءها حتى لم يبق منه شيء. «أَصْدَرَتْنَا» أي: أنهم رجعوا عنها، وقد رووا هم وإبلهم.

[٣٨٤] وتقدم في حديث المسور الطويل قوله: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه الناس تبرّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرِّيِّ حتى صدروا عنه.

رواه البخاري وغيره وتقدم.

[٣٨٥] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، قال: فقعد رسول الله ﷺ على جَبَا الركية، فإما دعا وإما بزق فيها، فجاشت فسقينا واستقينا.

رواه أحمد (٥٢/٤، ٥٤)، ومسلم في غزوة ذي قرد (١٧٤/١٢، ١٧٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٥٢) وغيرهم.

«جبا الركية» الجبا ما حول البئر، والركية هي البئر. «وجاشت» أي: فاضت وارتفعت.

في هذه الأحاديث الثلاثة بيان ما حصل في بئر الحديبية من بركة النبيّ ﷺ في مائها بعد أن نزحوها، ففاضت ماء حتى رووا جميعهم وملأوا أسقيتهم وسقوا إبلهم وركائبهم، فهذه أول معجزة صدرت من النبيّ ﷺ في هذه الغزوة، والخلاف الواقع في كونه وضع سهماً فيها أو صبّ فيها من فضل وضوئه أو دعا أو بزق، كلّ ذلك يحتمل وقوعه فحدث كلٌّ بما شاهد ولا يكون ذلك طعناً في أصل المعجزة.

* * *

فوران الماء من بين أصابعه ﷺ

[٣٨٦] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: عطش الناسُ يوم الحديبية ورسولُ الله ﷺ بين يديه رَكْوَةٌ فتوضّأ منها ثم أقبل الناس نحوه، فقال

رسول الله ﷺ: «ما لكم»؟ قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك، قال: فوضع النبيّ ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضّأ، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

رواه البخاري في الحديبية (٤٤٧/٨، ٤٤٨)، ومسلم في الإمارة (٣/١٣، ٤).

«ركوة» بفتح الراء وسكون الكاف إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء. «يفور» أي: يخرج بتدفّق. وهذه معجزة ثانية وقعت له ﷺ غير ما سبق من جريان البئر وفيضانها؛ لأن هذه المرة فار الماء مثل فوران العيون، والينابيع من بين أصابعه الشريفة حتى شرب جميع الجيش، وصرّح جابر بأنهم لو كانوا مائة ألف لكفاهم ذلك.

* * *

❋ نموّ الطعام والماء ببركة النبيّ ﷺ

[٣٨٧] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأصابنا جَهْدٌ حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمرنا النبيّ ﷺ فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعاً فاجتمع زاد القوم على النطع، فتطاولت لأحزر كم هو فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، فأكلنا حتى شبعنا، ثم حشونا جُرُبَنا، ثم قال رسول الله ﷺ: «هل من وَضُوء»؟ فجاء رجل بإداوة له فيها فأفرغها في قدح، فتوضّأنا كلنا نُدَغفِقُه دَغْفَقَةً أربع عشرة مائة.

رواه مسلم في اللقطة (٣٣/١٢، ٣٤) قبل الجهاد.

«جهد» بفتح الجيم أي: مشقّة، أما بالضم فالمراد به الوسع والطاقة. «بعض ظهرنا» أي: جمالنا التي نَرْكَبُها. «نطعاً» بفتح النون والطاء مع سكونها هو بساط من جلد. «لأحْزُرَ» بضم الزاي أي أُقَدِّر. «كربضة العنز» بضم الراء

وكسرها أي: جثة العنز إذا بركت، والعنز أنثى المعز. «حشونا» أي: ملأنا. «جربنا» بضم الجيم والراء جمع جراب أي: مزاودنا وأوعيتنا. «ندغفقه» بضم النون وفتح الدال وسكون الغين مع كسر الفاء أي: نصبه صبّاً.

ففي هذا الحديث معجزتان، الأُولى: تكثير الطعام ونموّه حتى شبع منه ألف وأربعمائة نفر وملأوا أوعيتهم بينما لم يكن مما جمعوه من مزاودهم إلا مثل موضع بروك الشاة من التمر. المعجزة الثانية: نموّ الماء في الإداوة حتى توضّؤوا عن آخرهم، وكلهم يصبّ الماء صبّاً، فهذه المعجزات كلّها وقعت وصدرت من النبيّ ﷺ في هذه الغزوة؛ الحديبية، وكم له من أمثالها، وسيأتي لها موضع إن شاء الله تعالى.

* * *

في أعقاب الحديبية وامتحان النساء المهاجرات

[٣٨٨] عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنهما قال: كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبيّ ﷺ أن لا يأتيك منّا أحدٌ وإن كان على دينك إلا ردَدْته إلينا، وخلّيْتَ بيننا وبينه؛ فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبَى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبيّ ﷺ على ذلك فردّ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال إلا ردّه في تلك المدة وإن كان مسلماً.

وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلُها يسألون النبيّ ﷺ أن يُرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله تعالى فيهن؛ ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

رواه البخاري وتقدم مطوّلاً.

[٣٨٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من يهاجر إليه بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾

إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قالت: فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها: «قد بايعتك».

رواه البخاري في التفسير (٢٦١/١٠)، ومسلم في الإمارة (١٠/١٣) وغيرها، وانظر ما سبق في الإيمان (ج ١١٤/١، ١١٧).

بعد رجوعه ﷺ من الحديبية ونزوله المدينة جعل يأتيه رجال ونساء من مسلمي مكّة فارّين مهاجرين، فكان ﷺ من جاء منهم من الرجال ردّهم وفاءً بالعهد، أمّا النساء فكان لا يردّهنّ لأنهن لم يكنّ في جملة الصلح والعهد، وأمره الله عزّ وجلّ أن يمتحنهنّ بهذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ الخ، فمن أقرّت بذلك واعترفت بأنها ما خرجت إلا رغبةً في الله وفي رسوله ﷺ تركها ولم يردّها إلى الكفار.

وكان في جملة النّسوة المهاجرات أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، وكانت عاتِقاً، أي: قاربت الحلم واستحقت الزواج، أو التي عتقت عن الامتهان في الخروج للخدمة أو الكريمة على أهلها، فهذه المعاني كلها تحتملها العاتق، وهذه السيدة كانت قد أسلمت قديماً، ولمّا هاجرت تبعها أخواها فلم يردّها النبيّ ﷺ إليهما، وكانت لم تتزوج بعدُ فتزوجها زيدُ بن حارثة ولما قُتل تزوّجها الزبيرُ بن العوام ثم فارقها فتزوجها عبدالرحمٰن بن عوف، ولما توفي تزوجها عمرو بن العاص، فماتت عنده بعد شهر رضي الله تعالى عنها، وليكن هذا آخر الكلام على غزوة أو عمرة الحديبية، وقد تركنا أشياء وقعت فيها آثرنا تركها اختصاراً. وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه.

* * *

خلاصة ما وقع من الأحداث في السنة السادسة

وقع فيها مقتل أبي رافع اليهودي، قصة ثمامة بن أثال سيّد أهل اليمامة، غزوة بني لحيان، قصة عُكل وعُرَيْنة، غزوة الحديبية وبيعة الرضوان، وما حصل فيها من الأحداث والمعجزات، في أعقاب الحديبية.

* * *

❁ السنة السابعة

غزوة ذي قَرَد وهي غزوة الغَابَةِ

[٣٩٠] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجتُ قبل أن يُؤَذَّنَ بالأُولَى، وكانت لِقاحُ رسول الله ﷺ تَرْعَى بذي قَرَدٍ، قال: فلقيني غلامٌ لعبدالرحمٰن بن عوف فقال: أُخِذتْ لِقاحُ رسول الله ﷺ، قلت: مَنْ أخذها؟ قال: غَطَفانُ، قال: فصَرَخْتُ ثلاث صَرخَاتٍ: يا صَباحَاهُ، قال: فأسمعتُ ما بين لابَتَيْ المدينة، ثم اندفعتُ على وجهي حتى أدركتُهم وقد أخذوا يَستقُون من الماء، فجعلت أرْميهم بنَبلي، وكنت رامياً، وأقول: أنا ابنُ الأَكْوعِ، اليومُ يومُ الرُّضَّعُ، وأرْتَجِزُ حتى استنقذتُ اللِّقاحَ منهم، واستلبْتُ منهم ثلاثين بُردةً، قال: وجاء النبيّ ﷺ والناسُ فقلت: يا نبيّ الله قد حميتُ القومَ الماءَ وهم عِطاشٌ، فابعثْ إليهم الساعةَ، فقال: **«يا ابن الأكوع، ملكت فأسْجِحْ»**، قال: ثم رجعنا ويُرْدِفُني رسولُ الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة.

رواه البخاري (٤٦٦/٨، ٤٦٩)، ومسلم في الجهاد (١٧٢٧/١٢)، وكذا أحمد (٤٨/٤)، وأبو داود (٢٧٥٢).

«قَرَد» بفتحتين وبضمّتين وبضمّ أوله وفتح ثانيه وبالأول ضبطه أهل الحديث وهو ماء نحو بريد مما يلي غطفان. قوله: «قبل أن يؤذن بالأُولى» أي: بصلاة الصبح. قوله: «لقاح» بكسر اللام جمع لقحة بالكسر والفتح وهي النُّوق والإبل ذوات الدرّ واللبن. «فصرخت» أي ناديت بأعلى صوتي. وقوله: «الرضّع» بضم الراء مع شديدها وفتح الضاد المشدّدة جمع راضع وهو اللئيم، أي: هذا اليوم يوم هلاك اللّئام، وقيل فيه غير ذلك كما يعلم من الفتح (٤٦٧/٨). قوله: **«فأسْجِحْ»** بهمزة قطع وسكون السين وكسر الجيم آخره حاء، ومعناه: فأحسن وأرفق فقد حصلت النكاية.

غزوة قرد ويقال لها غزوة الغابة وهو موضع قرب المدينة من ناحية الشمال فيه أموال لأهل المدينة، قال البخاري: وهي الغزوة التي أغاروا على لقاح النبيّ ﷺ قبل خيبر بثلاث، وكانت في السنة السابعة بعد الحديبية.

وحديث سلمة هذا يبيّن سبب ذلك، وهو أن غطفان أغاروا على إبل رسول الله ﷺ وكانت عشرين لقحة، فقتلوا راعيها وأسروا امرأة وفرّوا، فتبعهم سلمة بن الأكوع وكان يسبق الخيل بعدوه فلحقهم وجعل يرميهم حتى تركوا اللقاح كلها، ثم رموا له ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً يستخفون أو لعله يتركهم، وجاءت الأمداد والخيل ورسول الله ﷺ، فلحقوا سلمة عند العشاء، فأمره رسول الله ﷺ بتركهم ثم رجعوا، والحديث التالي مع طوله يفصل ما حصل في هذا الحادث.

[٣٩١] فعن سلمة أيضاً قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فذكر ما يتعلق بها، ثم قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة فنزلنا منزلاً بيننا وبين بني لحيان جبل وهم المشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقي هذا الجبل الليلة كأنه طليعة للنبيّ ﷺ وأصحابه، قال سلمة: فرَقِيتُ تلك الليلة مرتين أو ثلاثاً، ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أُندّيه مع الظهر، فلما أصبحنا إذا عبدالرحمٰن الفَزارِي قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاسْتَاقَهُ أجْمَعَ وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح خُذْ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبدالله وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، قال: ثم قمت على أكَمَةٍ فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز أقول:

أنــــا ابــــنُ الأَكْــــوَعْ والــيــومُ يــومُ الــرُّضَّــعْ

فألحق رجلاً منهم فأصكّ سهماً في رحله حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها

وأنــــا ابــــنُ الأكْــــوع والــيــومُ يــوم الــرُّضَّــعُ

قال: والله ما زلت أرميهم وأعْقِر بهم، فإذا رجع إليَّ فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايُقِهِ علوت الجبل، فجعلت أُرَدِّيهم بالحجارة، قال: فما زلت

كذلك أتبعُهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلاَّ خَلَّفتُه وراء ظهري، وخلّوا بيني وبينه، ثم اتَّبَعْتُهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً، يستخفّون ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أتوا متضايقاً من ثنية، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يَتَفَحَّوْنَ - يعني يتغدون - وجلستُ على رأس قرة، قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرْحَ، والله ما فارقنا منذ غَلَس يَرْمِينَا، حتى انتزع كُلَّ شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعِدَ إليَّ منهم أربعةٌ في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع والذي كرَّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركتُه، ولا يطلبني رجل منكم فيُدْرِكني، قال أحدهم: أنا أظنّ، قال: فرجعوا فما برحت مكاني حتى رأيت فوارسَ رسولِ الله ﷺ يتخلّلون الشجر، قال: فإذا أوّلهم الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المِقداد بن الأسود الكِنْديّ، قال: فأخذت بعِنَان الأخرم قال: فولّوا مدبرين، قلت: يا أخرم احْذَرْهُم لا يَقْتَطِعُون حتى يَلحقَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنّة حقّ، والنار حقّ، فلا تحل بيني وبين الشهادة، قال: فخلّيْتُه فالتقى هو وعبدالرحمٰن، قال: فعقر عبدالرحمٰن فرسه وطعنه عبدالرحمٰن فقتله، وتحوّل على فرسه ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبدالرحمٰن فطعنه فقتله، فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شِعْبٍ فيه ماءٌ يقال له ذو قرد ليشربوا منه وهم عِطاشٌ، قال: فنظروا إليَّ أعْدُو وراءهم فخَلَّيْتُهُم عنه - يعني أجْلَيْتُهم عنه - فما ذاقوا منه قطْرةً، قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، قال: فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصُكُّه بسهم في نُغْضِ كتفه، قال: قلت: خذها

وأنــــا ابـــنُ الأكـــــوع   والـيــومُ يــومُ الــرُّضَّــع

قال: يا ثَكِلَتْه أُمُّه أكْوَعُه بكرة، قال: قلت: نعم يا عدوَّ نفسه أكوعُك بكرة، قال: وأرْدَوْا فرسين على ثنية، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ قال: ولحقني عامر بِسُطيحة فيها مَذْقة من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربْت ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حَلَّأْتُهم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نَحَرَنا ناقةً من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كَبِدِها وسَنامِها، قال: قلت: يا رسول الله خلني فأنتخب من القوم مائة رجل فأتَّبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلتُه، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: **«يا سلمة أتُراك كنت فاعلاً؟»** قلت: نعم، والذي أكرمك، فقال: **«إنهم الآن ليُقْرَون في أرض غطفان»**، قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً، فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: **«كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجَّالَتِنا سلمةُ»**، قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الرَّاجل، فجمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، قال: فبينما نحن نسير قال: وكان رجل من الأنصار لا يُسْبَق شَدّاً، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك، قال: فلما سمعت كلامه قلت: أما تُكْرِمُ كريماً، ولا تهاب شريفاً، قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي ذَرْني فلأسابق الرجل، قال: **«إن شئت»**، قال: قلت: أذهب إليك، وثَنَيْتُ رجليَّ فطَفَرْتُ فعدوتُ، قال: فربطتُ عليه شرفاً أو شَرَفين، ثم إني رفعت حتى ألحقَه قال: فأصُكُّه بين كتفيه، قال: قلت: قد سُبِقْتَ والله، قال: أنا أظنّ، قال: فسَبَقْتُه إلى المدينة، قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ...

رواه أحمد (٥٢/٤، ٥٤)، ومسلم في الجهاد (١٧٧/١٢، ١٨٣)، وأبو داود (٢٧٥٢) وغيرهم.

«طليعة» أي: عين يتجسّس الأخبار. «أنديه» بضم الهمزة ثم نون

مفتوحة ثم دال مكسورة مشدّدة أي: أسقيه قليلاً ثم أُرسله للمرعى ثم أسقيه... «أصك ظهره» أي: أضربه. «أرديهم بالحجارة» أي: ألقيها عليهم من فوق لتسقطهم. «فحليتهم» بالحاء أي: طردتهم عن الماء. «نغض كتفه» بضم النون وسكون الغين آخره ضاد هو العظم الرقيق على طرف الكتف. «يا ثكلته أمه» أي: يا من فقدته أمّه. «أكوعه بكرة» معناه أنت الأكوع التي كنت بكرة هذا النهار. «فطفرت» أي: وثبت وقفزت. «فربطت عليه» أي: حبست نفسي من الجري الشديد. «والشرف» ما ارتفع من الأرض.

والحديث الشريف بيّن بتفصيل ما حصل في هذه الغزوة من البداية إلى النهاية، وقد فاز فيها سلمة بن الأكوع الذي يحدّثنا عنها فهو الذي سبق الصحابة إلى الخروج خلف أولئك الذين أغاروا على لقاح الرسول ﷺ، وهو الذي قاتلهم وطردهم وهزمهم بمفرده، وهو الذي استنقذ اللقاح كاملة، وهو الذي تسبّب في تلك الغَنِيمَة من البُرُود والثياب والرماح والفرسين... وهو الذي أرْعَبَهُم وأعطاهم درساً لم ينسوه طوال حياتهم... وكل ذلك يدلّ على فضله وشجاعته وشهامته وقوّته. ومن غريب أمره الذي انفرد به عن أهل زمانه شدّةُ عدوه وجريه، فإنه كان؛ يسبِق الخيل والفرسان ولا يلحقه طالب مهما كان سواء كان راكباً أم راجلاً.

ولما صدر منه من النكاية في العدوّ واستعادة اللقاح والحصول على الغنيمة أعطاه رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل، ولذلك فقد يقال إن هذه الغزوة كانت مركّزة على سلمة هذا رضي الله تعالى عنه.

* * *

❁ قصة المرأة المسلمة التي أُسِرَتْ مع العضباء ناقة رسول الله ﷺ

[٣٩٢] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عُقَيْل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ،

وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد فأتاه، فقال: **«ما شأنك؟»** فقال: بِمَ أَخَذْتَني وبِمَ أخذت سابقة الحاج؟ فقال: **«إعظاماً لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف»**، ثم انصرف عنه فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً فرجع إليه، فقال: **«ما شأنك»**؟ قال: إني مسلم، قال: **«لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»**، ثم انصرف فناداه فقال: يا محمد يا محمد، فأتاه فقال: **«ما شأنك؟»** قال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقني، قال: **«هذه حاجتك»**، ففُدِيَ بالرجلين، قال: وأسرت امرأة من الأنصار وأُصيبت العضباء، فكانت المرأة في الوَثاق، وكان القوم يُرِيحون نَعَمهم بين يديْ بيوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوِثاق فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى تنتهي إلى العضباء فلم تَرْغُ، قال: وناقة مُنَوَّقَة، فقعدت في عَجُزِها ثم زجرتها فانطلقت، ونَذِرُوا بها فطلبوها فأعجزَتْهم، قال: ونذَرَت لله إن نجّاها الله تعالى عليها لتنحرنّها، فلما قدمت المدينة رآها الناس، فقالوا: العضباء ناقة رسول الله ﷺ، فقالت: إنها نذرت إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: **«سبحان الله بئسما جَزَتْها نذرت لله إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها، لا وفاءَ لِنذرٍ في معصية، ولا فيما لا يَمْلِكُ العبدُ»**.

رواه أحمد (٤/٤٣٣، ٤٣٤)، ومسلم في النذور (١١/٩٩، ١٠١)، والدارمي (٢٥٠٨) في السِّيَر.

«أخذتك بجريرة» أي: بجنايتهم حيث أسروا رجلين من المسلمين. «لو قلتها وأنت تملك أمرك» يعني لو أسلمت قبل أسرك لما أُسرت. «ناقة منوقة» بضمّ الميم وفتح النون والواو المشدّدة ثم قاف أي: مذلّلة. «ونذروا» بكسر الذال أي: علموا.

وفي الحديث إباحة مال الكافر المحارب أو المُوالي له، وأنه لا يستحقّه وإن أسلم، وأن الأسير الكافر إذا أسلم أحرز دمه وماله ولا تسقط عنه الرِّقّيّة، وللإمام أن يَمُنّ عليه أو يَفدِيَ به أسيراً مسلماً. وفيه أن النذر

في معصية باطل لا يصح ولا كفارة فيه عند الجمهور. . . وفيه أن النذر لا يصح فيما لا يملكه الإنسان، ولا ينبغي أن يختلف في هذا، وقد تقدم الكلام على النذر وأحكامه.

* * *

❁ غزوة خيبر تاريخ وقتها

[٣٩٣] عن المِسْور بن مخرمة رضي الله تعالى عنهما قال: انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكّة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، يعني خيبر، فقدم المدينة في ذي الحجّة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم.

رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (١٩٧/٤)، وكذا أورده ابن كثير في السيرة (٣٤٤/٣)، وابن القيم في الهدي (٣١٧/٣) وسنده حسن صحيح.

خيبر مدينة شمال المدينة بينهما مائتا كيلو كانت ذات مزارع وعيون وحصون، وكان يسكنها اليهود منذ قرون فغزاها النبيّ ﷺ عقب قدومه من الحديبية بعد أن أقام بالمدينة ثلاثة أيام، كما تقدم في حديث ابن الأكوع الذي أخرجه مسلم، وكان السبب في غزو يهود خيبر هو ما كان من تهييجهم للأحزاب ضدّ رسول الله ﷺ، وممّن كان له القدَمُ الأعلى في ذلك حُيَيّ بن أخطب سيّدُ بني النضير وقريظة الذي كان أُجْلِيَ من بني النضير وسكن خيبر، فخرج إليهم ﷺ وحاصرهم بضع عشرة ليلة، وقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن فتحها عنوةً ووجد عندهم غنائم كثيرة متنوّعة، فقسمها بين أصحابه كما أمره الله تعالى كما يأتي.

* * *

❋ استخلافه ﷺ على المدينة سِباع بن عُرْفُطة

[٣٩٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قدم المدينة في رهط من قومه والنبيّ ﷺ بخيبر، وقد استخلف سِباع بن عُرْفُطَة على المدينة، قال: فانتهيت إليه وهو يقرأ في صلاة الصبح في الركعة الأولى: بـ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، قال: فقلت لنفسي: ويل لفلان إذا اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص، قال: فلما صلّى زوّدنا شيئاً حتى أتينا خيبر، قال: فكلّم رسول الله ﷺ المسلمين فأشركونا في سِهَامِهِم.

رواه أحمد (٣٤٥/٢، ٣٤٦)، والطيالسي (٢٣٦٣) مع المنحة، والحاكم (٣٦/٣، ٣٧)، والبيهقي في الدلائل (١٩٨/٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. الحديث يأتي فقهه في قسمة غنائم خيبر وفي الفضائل.

❋ ❋ ❋

❋ خروجه ﷺ ليلاً وحُداء عامر بن الأكوع وفتحهم خيبر...

[٣٩٥] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسْمِعُنا من هُنَيْهاتِك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يَحْدُو بالقوم يقول: اللّهمّ لولا أنتَ ما اهْتَدَينا، ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا، فاغفِرْ فداءً لكَ ما اتَّقَيْنا، وثَبِّتْ الأقدامَ إن لاقَيْنَا، وألْقِين سَكِينَةً عَلَيْنا، إنا إذا صِيحَ بِنا أَبَيْنا، وبالصِّياحِ عَوَّلُوا عَلَيْنا، فقال رسول الله ﷺ: «**من هذا السائق؟**» قالوا: عامر بنَ الأكوع، قال: «**يرحمه الله**»، قال رجل من القوم: وجبَتْ يا نبيَّ الله، لولا أَمْتَعْتَنَا به فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مَخْمَصةٌ شَدِيدَةٌ، قال: إنّ الله فتحها عليكم، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبيّ ﷺ: «**ما هذه النيران؟ على أيّ شيءٍ توقدون؟**» قالوا: على لحم، قال: «**على أيّ لحم؟**» قالوا: لحم

حُمُر الإنسيَّة، قال النبيّ ﷺ: «اهْرِيقُوها واكسروها»، فقال رجل: يا رسول الله أوَ نهريقها ونغسلها، قال: «أو ذاك»، فلما تصافَّ القوم كان سيف عامر قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه، قال: فلمّا قفلوا، قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ يدي، قال: ما لك؟ قلت له: فداك أبي وأمّي، زعموا أن عامراً حَبِط عملُه، قال النبيّ ﷺ: «كَذب مَن قاله إن له أجرين وجمع بين أصبعيه، إنه لجاهد مجاهد، قلّ عربي مشى بها مثله»...

وفي رواية: فلما قدمنا خيبر خرج مَلِكُهم مَرْحَبٌ يَخْطِر بسيفه، ويقول:

قد علمتْ خيبرُ أنّي مَرْحَبُ   شَاكِي السِّلاحِ بطَلٌ مُجَرَّبُ
إذا الـحُـرُوبُ أقـبـلـتْ تَـلَـهَّـبُ

قال: وبَرَزَ عمِّي عامرٌ، قال:

قد عَلِمَتْ خيبرُ أنّي عامرُ   شاكِي السلاح بَطَلٌ مُغامِرْ

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يَسْفُلُ له، فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه، قال سلمة: فخرجت فإذا نَفَرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت النبيّ ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر، قال رسول الله ﷺ: «من قال ذلك؟» قال: قلت: ناس من أصحابك، قال: «كذب من قال ذلك بل له أجره مرتين»، ثم أرسلني إلى عليّ وهو أرْمَدُ، فقال: «لأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله أو يحبّه الله ورسوله»، قال: فأتيت عليّاً فجئت به أقوده وهو أرْمَدُ حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ وأعطاه الراية وخرج مرحب، فقال:

قد علمت خيبر أني مَرْحَبُ   شاكي السِّلاح بطلٌ مُجَرَّبُ
إذا الـحـروب أقْـبَـلـتْ تَـلَـهَّـبُ

فقال علي:

أنا الذي سمَّتْنِي أُمي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غاباتٍ كَرِيهَ المَنْظَرَهْ
أُوفِيهِم بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

رواه البخاري (٩/٣، ٤، ٥، ٦)، ومسلم (١٢/١٨٤، ١٨٦، ١٦٥)، واللفظ الأول للبخاري والثاني لمسلم.

«هُنَيْهَاتِك» جمع هُنَيْهةٍ تصغير هَنَةٍ وهو اسم جنس وقصدهم: أسمعنا من شعرك الذي تحدو وتترنّم به، والحُداء الترنّم والغناء للإبل لتسرع. «مخمصة» أي: مجاعة. «ذباب سيفه» أي: طرفه الأعلى أو حَدُّه. «ترس عامر» الترس هو الدرقة التي يلقى بها السيوف ونحوها. «أرْمَدُ» الرمد بفتحتين مرض يصيب العين فتهيج. وقول علي «حيدرة» هو اسم للأسد. «والسندرة» مكيال واسع.

وفي هذا الحديث بيان بعض أحداث غزوة خيبر، ففيه أنهم خرجوا من المدينة ليلاً، وفيه أن عامر بن الأكوع كان يحدو بهم وسيأتي حكم الحداء مع الأغاني في كتاب الأدب، وفيه أنهم حاصروا خيبر ونزلت بهم حينذاك مجاعة شديدة، وفيه تحريم الحُمُر الأهلية، وبالتالي نجاستها. وفيه أن قاتل نفسه خطأ لا حرج عليه، وأن من قتل نفسه كذلك في الجهاد كان شهيداً، وفيه فضل الإمام عليّ عليه السلام، وأنه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كما فيه شجاعته وشهامته وأن له مزية عظمى في هذه الغزوة، حيث قتل ملك يهود خيبر مرحب، وكان الفتح على يديه رضي الله تعالى عنه.

* * *

طعامهم في طريقهم إلى خيبر

[٣٩٦] عن سويد بن النعمان رضي الله تعالى عنه أخبر أنه خرج مع النبيّ ﷺ عام خيبر حتى إذا كنّا بالصهباء، وهي من أدنى خيبر صلّى

العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يُؤتَ إلا بالسويق، فأمَرَ به فثُرِيَّ، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صلّى ولم يتوضّأ...

رواه البخاري في غزوة خيبر (٣/٩) وفي الطهارة وفي مواضع، وكذا أحمد (٣/٤٦٢)، وابن ماجه (٤٩٢).

هذا طعام الصحابة وهم قاصدون محاربة اليهود إنه السويق، وهو دقيق الشعير المقلي، فليس هناك لحم ولا خبز مرقق ولا فواكه ولا مشروبات ولا مرطّبات.

***

❋ مفاجاة المسلمين يهود خيبر في الصباح

[٣٩٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قوماً بليلٍ لم يُغِرْ عليهم حتى يُصْبِح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله محمد والخميس، فقال النبيّ ﷺ: **«خَرِبَت خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذرين»**.

وفي رواية: صبحنا خيبر بكرةً، فخرج أهلها بالمساحي، فلما بصروا بالنبيّ ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس، فقال النبيّ ﷺ: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**، فأصبنا من لحوم الحمر فنادى منادي النبيّ ﷺ: **«إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحُمُر، فإنها رِجْسٌ»**.

وفي رواية: فخرجوا يسعون في السِّكَك، فقتَلَ النبيّ ﷺ المُقاتِلة وسَبَى الذّرية وكان في السبي صفيّة، فصارت إلى دِحْيَة الكلبي، ثم صارت إلى النبيّ ﷺ فجعل عِتْقَها صَداقَها. وفي رواية: إن رسول الله ﷺ غزا خيبر قال: فصلّينا عندها صلاة الغداة بغَلَس فركب نبيّ الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نَبِيُّ الله ﷺ في زُقاقِ خيبر، وإن

ركبتي لَتَمَسُّ فَخِذ نبيّ الله ﷺ، فلما دخل القرية قال: «**الله أكبر**» إلخ...

رواه أحمد (١٠٢/٣، ١٦١، ١٦٨، ٢٠٦)، والبخاري (٧/٩، ٨)، ومسلم في الجهاد (١٦٤/١٢)، والترمذي في السِّيَر رقم (١٤١٧) بألفاظ مطوّلاً ومختصراً.*

«مساحيهم» جمع مسحاة وهي آلة من آلات الحرث. «ومكاتلهم» جمع مكتل وهو القفة الكبيرة. «محمد والخميس» يعنون محمداً والجيش. «بغلس» بفتحتين وهو اختلاط بياض الصبح بالظلام.

وفي هذا الحديث أمور، أولاً: أنه ﷺ أتى خيبر ليلاً ولم يُغِز عليهم حتى صلّى الصبح ثم صبحهم وهم خارجون لمزارعهم. ثانياً: إنه ﷺ تفاءل بما رأى من آلات التخريب، فأخذ من ذلك خراب خيبر، ولذلك بشّرهم بقوله: «**إن الله فتحها عليكم**»، كما تقدم في رواية سلمة. ثالثاً: في هذه الغزوة حرّم حمر الأهلية ويأتي ما فيها. رابعاً: في قوله: فقتل المقاتلة وسبى الذرية وكان في السبي صفية؛ في هذا اختصار، وسيأتي مطوّلاً مفصلاً.

***

حملة راية النبيّ ﷺ

[٣٩٨] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأُعْطِيَنّ هذه الراية غداً رجلاً يَفْتَح الله على يديه، يُحبُّ الله ورسولَه، ويُحبُّه الله ورسوله**»، قال: فبات الناس يدُوكُون ليلتَهم: أيُّهم يُعْطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعْطاها، فقال: «**أين عليّ بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأُتِي به فبصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه ودعا له خيراً، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال عليّ: يا رسول الله أُقاتِلُهم حتى يكونوا مِثْلَنا، فقال: «**انفُذْ على رسلِك حتى تنزل بساحتهم ثم**

ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لأن يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مِنْ أن يكون لك حُمْرُ النَعَم».

رواه أحمد (٥/٣٣٣)، والبخاري في غزوة خيبر (٩/١٧)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٧٧) وفي الباب عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص كلاهما عند مسلم، وعن عليّ عند البخاري وعن سلمة بن الأكوع عند البخاري ومسلم، وسيأتي بعضها في الفضائل.

«يدُوكُون» أي: يخوضون. والحديث يدلّ على أن الراية كانت عند الإمام عليّ بمفرده، وقد جاء أنه ﷺ كان قد أعطاها لأبي بكر فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع، وأنه أعطاها بعده عمر فقاتلهم في نفر من الصحابة فرجعوا مهزومين، رواهما الحاكم (٣/٣٧) الأول من حديث بريدة، والثاني من حديث عليّ، وصححهما ووافقه الذهبي.

ثم بعد ذلك قال: وفعل ما جاء في هذا الحديث، وكان ذلك آخر أيام خيبر، وعلى يدي الإمام عليّ وقع الفتح كما تقدم، وفي الحديث دليل على مشروعية الدعوة مطلقها ولو كانوا ممن بلغتهم، وفيه فضل الدعوة إلى الله تعالى وأن من هدى الله على يديه ولو رجلاً واحداً كان خيراً له من اكتساب أنفس الإبل وهي الحُمْر.

* * *

❁ الأعرابي الشهيد

[٣٩٩] عن شداد بن الهاد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبيّ ﷺ فآمن به واتّبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبيّ ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر أو حنين غنم النبيّ ﷺ سَبْياً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبيّ ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبيّ ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: **«قسمته لك»**، قال: ما على

هذا اتّبعتك، ولكني اتّبعتك على أن أُرْمَى إلى هٰهنا ـ وأشار إلى حلقه بسهم ـ **فأموت فأدخل الجنة**، فقال: («**إن تَصْدُق الله يَصْدُقْك**»، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبيّ ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبيّ ﷺ: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**»، ثم كفّنه النبيّ ﷺ في جبّة النبيّ ﷺ، ثم قدمه فصلّى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللّهمّ هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتل شهيداً أنا شهيد على ذلك**».

رواه النسائي في الجنائز في الصلاة على الشهداء (٤/٤٩)، والطحاوي في المعاني (١/٢٩١)، والحاكم (٣/٥٩٥، ٥٩٦)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٥، ١٦) وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على صدق ذلك الأعرابي في إيمانه وهجرته وخروجه مع النبيّ ﷺ، وأنه صدق الله فصدقه فختم له بالشهادة ودخول الجنّة كما تمنّى.

❊ ❊ ❊

❊ رجل شجاع يقاتل مع المسلمين يموت ومآله النار

[٤٠٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**»، فلما حضر القتال قاتَل الرجل أشدّ القتال حتى كَثُرَتْ به الجراحةُ، فكادَ بعضُ الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أَسْهُماً فنحر بها نفسه، فاشتدّ رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله، صدّق الله حديثك انتحر فلان فقتل نفسه، فقال: «**قم يا فلان فأذّن إنه لا يَدخُل الجنّة إلا مؤمنٌ، إن الله يؤيّد الدين بالرجل الفاجر**».

رواه البخاري في غزوة خيبر (٩/١٠)، ومسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٢/١٢٢).

[٤٠٩] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره مال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يدع لهم شاذّة إلا اتّبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنه من أهل النار»**، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبداً، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجُرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت فوضع نصل السيف بالأرض وذُبابه بين ثَدْيَيْه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: **«وما ذاك؟»** قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً إنه من أهل النار فأعظم الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه حتى جُرح جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثديَيْه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«إن الرجلَ ليعملُ عمَلَ أهلِ الجنّة فيما يَبْدُو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمَلَ أهلَ النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنّة»**.

رواه البخاري (١٢/٩، ١٣)، ومسلم في الإيمان (١٢٣/٢، ١٢٤).

قوله: «لا يدع شاذة» الشاذ والشاذة الخارج والخارجة عن الجماعة، ويعبّرون به عن الشجاع إذا كان لا يلقاه أحد إلا قتله. وقوله: «ذباب السيف» أي: طرفه الأسفل الحادّ، وأما طرفه الأعلى فمقبضه.

بين الحديثين تغاير، فإن في الأول: فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، بينما جاء في الثاني: فوضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، الخ. فيحتمل أن تكون القصة وقعت لرجلين، ويحتمل أن يكون ذلك وقع من تصرّف الرواة، والله تعالى أعلم.

غير أن من تكلّم على الحديثين جعلهما لرجلٍ واحد كان منافقاً يقال له قزمان الظفري، قاله الخطيب البغدادي. وقوله في الحديث الأول: «إن الله يؤيّد الدين» الخ، يدلّ على أن الدين قد يتأيّد ويتقوّى وينتشر بسبب الكافر

والمنافق والعالم الفاجر... وهذا باب واسع، فإن التأييد يكون بأمور شتّى، وليس خاصّاً بالقتال.

وفي قوله ﷺ في الحديث الثاني: إن الرجل ليعمل إلخ، دليل على أن الأعمال بالخواتيم وأن الظواهر لا تدلّ على الشقاوة ولا السعادة، غير أن من خُتِم له بالشقاوة ممن كان ظاهره الإيمان والالتزام يكون غالباً في إيمانه دخن وفي قلبه دغل، وقد تقدم شيء من هذا في القدر.

وفي الحديثين معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بمآل الرجل، فوقع كما أخبر فصدّقه الله تعالى فيما قال.

* * *

❁ رجل يغل من الغنيمة فيموت فلا يصلّي عليه النبيّ ﷺ

[٤٠٢] عن زيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صلُّوا على صاحِبِكم**»، فتغيَّرتْ وجوهُ الناس لذلك، فقال: «**إنَّ صاحبَكم غَلَّ في سبيل الله**»، ففتَّشنا متاعَه فوجدنا خَرَزاً من خَرَزِ يهودٍ لا يُساوِي درهمين.

رواه أحمد (١١٤/٤ ج ١٩٢/٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٧١٠)، والنسائي في الجنائز (٥٢/٤)، وابن ماجه (٢٨٤٨)، والحاكم (١٢٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠١/٩) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث عظم وزر الغلول من الغنيمة وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقد تقدَّم حكم الغلول في التفسير وفي الجهاد.

* * *

❁ تحريم المتعة والحمر الأهلية بخيبر

[٤٠٣] عن عليّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية.

رواه البخاري (٢١/٩) و(ج ٧١/١١)، ومسلم (١٨٩/٩)، والترمذي (١٠٠٣)، وابن ماجه (١٩٦١).

وفي رواية لمسلم عن عليّ أنه سمع ابن عباس يُلَيِّنُ في مُتعةِ النساء، فقال: مَهْلاً يا ابن عباس، فإن رسولَ الله ﷺ نهى عنها يومَ خيبر، وعن لحوم الحُمُر الإنسيّة...

[٤٠٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخّص في الخيل.

رواه البخاري (٢٢/٩)، ومسلم (٩٥/١٣) كلاهما في الصيد.

وفي الباب عن أنسٍ وابن أبي أوفى والبراء وابن عمر وابن عباس وزاهر الأسلمي، وكلها في الصحيح.

متعة النساء تقدّم الكلام عليها مستوفًى في كتاب النكاح، وقلنا باتّفاق تحريمها بين العلماء والأئمّة إلا الشيعة. أما الحمر الإنسية، فالإجماع على تحريمها. وأما الخيل، فمذهب الشافعي وأحمد وأهل الحديث على إباحتها، وقد تقدم ذلك في الأطعمة بما أغنى عن إعادته.

❁ ❁ ❁

❁ إباحة شحم أهل الكتاب، وجواز أكل المجاهد ما يحتاجه من طعام الكفار

[٤٠٥] عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: أصبتُ جِراباً من شحمٍ يومَ خيبر، قال: فالتزمتُه، فقلت: لا أعطي اليوم أحداً من هذا

شيئاً، قال: فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مُبْتَسِماً. وفي رواية: رُمِي إلينا جرابٌ فيه طعام وشحمٌ يومَ خيبر، فوثبتُ لآخذه فالتفتُّ، فإذا رسول الله ﷺ فاستحييتُ منه.

رواه البخاري (٢١/٩) في خيبر، ومسلم (١٠٢/١٢)، وأبو داود (٢٧٠٢) كلّهم في الجهاد.

في الحديث إباحة أكل طعام الغنيمة في دار الحرب، وقد حكى القاضي عياض الإجماع على ذلك ما دام المسلمون في دار الحرب، فيأكلون قدر حاجتهم.

* * *

شأن اليهود بعد انهزامهم وما آل إليه أمرهم

[٤٠٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألْجَأَهُم إلى قَصْرِهِم، فغلَبَ على الأرض والنخل والزَّرع، فصالحوه على أن يُجْلَوْا منها، ولهم ما حَمَلَتْ رِكابُهم ولرسول الله ﷺ الصفراءُ والبيضاءُ والحلَقَة ويخرجوا منها، فاشترط عليهم أن لا يَكْتُمُوا شيئاً، ولا يُغَيِّرُوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذِمَّةَ لهم ولا عِصْمَة، فغَيَّبُوا مسكاً فيه مالٌ وحليٌّ لِحُيَيِّ بن أخطب، كان احتَمَلَه معه إلى خيبر حين أُجْلِيَتْ النَّضِيرُ، فقال رسولُ الله ﷺ لعمّ حُيَيّ سعية: **«ما فَعَلَ مِسْكُ حُيَيّ الذي جاء به مِنَ النَّضِير؟»** فقال: أذهبَتْه النفقاتُ والحروبُ، فقال رسول الله ﷺ: **«العهدُ قريبٌ، والمالُ أكثرُ من ذلك»**، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمَسَّهُ بعذاب، وكان حُيَيّ قبل ذلك قد دخل خربة، فقال: قد رأيت حُيَيّاً يطوف في خربةٍ هٰهُنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابنَيْ أبي الحُقَيْق وأحدُهما زوج صفيّة بنت حُيَي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريَهم وقسم أموالهم للنكث الذي نكثوا، وأراد أن يُجْلِيَهُم منها، فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نُصْلِحُها، ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه

غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يتفرّغون أن يقوموا عليها؛ فأعطاهم خيبر على أن لهم الشَّطْر من كل نخل وزرع وشيءٍ ما بدا لرسول الله ﷺ، وكان عبدالله بن رواحة يأتيهم كل عام يَخْرُصُها عليهم ويُضَمِّنُهم الشطر، قالوا: فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدّة خَرْصِهِ وأرادوا أن يَرْشُوه، فقال: يا أعداء الله أتُطْعِمُونِي السُّحتَ؟ والله لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إليّ، ولأنتم أبغض الناس إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بُغْضي إياكم وحبّي إياه على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السمٰوات والأرض.

قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: «**يا صفية ما هذه الخضرة**»؟، فقالت: كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق وأنا نائمة فرأيت كأن قمراً وقع في حجري فأخبرتُه بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب؟ قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إليَّ قتل زوجي وأبي، فما زال يعتذر إليّ ويقول: إن أباك ألّب عليَّ العرب، وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي. وكان رسول الله ﷺ يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقاً من تمر كل عام، وعشرين وسقاً من شعير، فلما كان زمن عمر بن الخطاب غَشُّوا المسلمين وألقوا ابن عمر من فوق بيت فَفَدَعُوا يديه، فقال عمر بن الخطاب: من كان له سهم من خيبر فليحضر حتى نقسمها بينهم، فقسمها بينهم، وقال رئيسهم: لا تُخْرِجنا دعنا نكون فيها كما أقرّنا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، فقال عمر لرئيسهم: أتراه سقط عني قول رسول الله ﷺ: «**كيف بك إذا أفضَتْ بك راحلتُك نَحْوَ الشام يوماً ثم يوماً**»، وقسمها عمر بين من كان شهد خيبر من أهل الحديبية...

رواه ابن حبان (١٦٩٧) بالموارد، والبيهقي في الدلائل (٢٢٩/٤، ٢٣٠) كاملاً وسنده صحيح، وروى أطرافاً منه أحمد (٢٢/٢، ٢٧)، والبخاري في مواضع، ومسلم (١٥٥١)، وأبو داود (٣٤٠٨)، والترمذي (١٣٨٣)، وابن ماجه (٢٤٦٧) وتقدّم بعضه في المساقاة.

«الصفراء والبيضاء» هما الذهب والفضّة. «والحلقة» بفتحات وتسكن اللام هي السلاح. «فغيّبوا مسكاً» المسك بفتح الميم الجلد، ومعناه: أخفوا

جلداً مملوءاً بالمال. قوله: «فمسّه عذاب» أي: جعل يعذّبه ليعترف بما أخفوه. قوله: «فَفَدَعُوا» أي: كسروا يديه.

في هذا الحديث فوائد، وهي كالآتي:

أولاً: جوازٌ تعذيب الأسير الكافر لأجل المصلحة العامة إذا أنكر ما هو معلوم لقائد الجيش، وأراد منه الاعتراف.

ثانياً: من نكث العهد من الكفار للمسلمين قتالهم وسبيهم.

ثالثاً: فيه مشروعية المزارعة والمساقاة، وقد تقدم ذلك في موضعه.

رابعاً: في قوله: وكان يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين، في رواية لأحمد وغيره: مائة وثمانين.

خامساً: قوله: فقال عمر: من كان له سهم من خيبر إلخ، في رواية عند أحمد وغيره: فلمّا قام عمر قسم خيبر فخيّر أزواج النبيّ ﷺ أن يقطع لهن من الأرض أو يضمن لهن الوسوق كل عام، فاختلفوا؛ فمنهنَّ من اختارت أن يقطع لها الأرض، ومنهن من اختارت الوسوق، وكانت حفصة وعائشة ممن اخترن الوسوق، وفي ذلك من عدالة الفاروق وأدبه مع أمّهات المؤمنين ما لا يخفى رضي الله تعالى عنه وعنهنّ وعنّا معهم، آمين.

سادساً: وفيه تنفيذ عمر وصية رسول الله ﷺ بإجلاء اليهود من الحجاز؛ لأن إقرارهم بخيبر من النبيّ ﷺ كان مؤقتاً لكنهم لما اعتدوا على عبدالله بن عمر رأى عمر من المصلحة تعجيل إجلائهم.

* * *

❋ قصة صفية بنت حُيَيّ وسبيها وتزوّج النبيّ ﷺ بها

[٤٠٧] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فذكر الحديث كما سبق، فقال: وأصبناها عَنْوَةً، وجمع السَّبي، فجاءه دِحْيَةُ فقال: يا رسول الله أعطني جارية من السبي، فقال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حُيَيّ، فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ الله أعطيت دحية صفية بنت حُيَيّ سيد قريظة والنضير ما تصلح إلا لك، قال: **«ادعوه بها»**، قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبيّ ﷺ قال: **«خذ جارية من السبي غيرها»**، قال: وأعتقها وتزوّجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها أعتقها وتزوجها حتى إذا كان بالطريق جَهَّزَتْها له أمُّ سُلَيم فأهدتها له من الليل فأصبح النبيّ ﷺ عروساً، فقال: **«من كان عنده شيء فليجيء به»**، قال: وبسط نِطْعاً قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حَيْساً، فكانت وليمة رسول الله ﷺ.

وفي رواية: وهزمهم الله عزّ وجلّ ووقعت في سهم دحية جارية جميلة، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أمّ سليم تصنعها له وتهيّؤها، قال: وأحسبه قال: وتعتدّ في بيتها، وهي صفيّة بنت حُيَيّ، قال: وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، فُحِصَتْ الأرض أفاحِيصَ، وجيء بالأنطاع فوُضِعَتْ فيها، وجيء بالأقط والسمن فشبع الناس، وقال الناس: لا ندري أتزوّجها أم اتّخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أمّ ولد، فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عَجُز البعير فعرفوا أنه قد تزوّجها، فلما دنوا من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا فعثرت الناقة العضباء ونَدَرَ رسولُ الله ﷺ وندرتْ، فقام فسترها، وقد أشرفت النساء فَقُلْنَ: أبعد الله اليهودية، قال: قلت: يا أبا حمزة أوَقَع رسولُ الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع.

وفي رواية: صارت صفية لدحية في مقسمه وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ، قال: ويقولون: ما رأينا في السبي مثلها، قال: فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد، ثم دفعها إلى أمي، فقال: **«أصلحيها»**، قال: ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى إذا جعلها في ظهره نزل ثم ضرب عليها القبّة، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: **«من كان عنده فضل زاد فليأتنا به»**، قال: فانطلقنا حتى إذا رأينا جُدُرَ المدينة هَشِشْنا إليها فرفعنا مَطِيَّنا، ورفع رسول الله ﷺ قال: فعثَرَتْ مَطِيَّتُه، قال: وصفية خلفه قد

أردفها رسول الله ﷺ، قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فصُرِعَ وصُرِعَتْ، قال: فليس أحدٌ من الناس ينظر إليه ولا إليها حتى قام رسول الله ﷺ فسترها، قال: فأتيناه فقال: «لم تُضَرّ»، قال: فدخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يَتَرَاءَيْنَها، وَيَشْمَتْن بِصَرْعَتِها.

رواه مسلم في النكاح (٢١٩/٩، ٢٢٧) بجميع هذه الروايات، ورواه البخاري في المغازي (١٩/٩، ٢٠) مختصراً بلفظ: قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن ذُكِر له جمال صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، وقد قُتِل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها النبيّ ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا الصهباء حلّت، فبنى بها رسول الله ﷺ...

وفي رواية: قام النبيّ ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته وما كان فيها من خبزٍ ولحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع فبُسِطت، فألقى عليها التمر والأقط والسمن...

قوله: «عنوة» أي: قهراً. «جهَّزَتْها له» أي: أصلحت من أمرها وهيّأتها له ﷺ. قوله: «وتعتدّ في بيتها» المراد بالعدّة هنا الاستبراء بحيضة. وقوله: «فحصت الأرض» بضم الفاء وكسر الحاء أي: كشف التراب من أعلى الأرض وحفرت يسيراً ليضعوا عليها الأنطاع. «وندر» بفتحتين أي: سقط. وقوله: «في مقسمه» أي: قسمته من الغنيمة. قوله: «هَشَشْنا» أي: نشطنا وانبعثت نفوسنا إليها.

في هذا الحديث الشريف بيان لقصة صفية وزواج النبيّ ﷺ بها، وفي ذلك أمور:

أولاً: كانت صفية هذه بنت سيّد قومها حُيَيّ بن أخطب، وكانت من أجمل النساء وأظرفهنّ يضرب بجمالها المثل.

ثانياً: لما وقعت في السبي أخذها دحية الكلبي بإذن من النبيّ ﷺ، ثم لما أُخبر بأنها سيّدة شريفة في قومها أمره بالتنازل عنها وعوّضه عنها سبعة رؤوس من المغنم فيهم جارية غيرها، وإنما فعل ذلك إكراماً لها لأن

أمثالها لا تكون إلا لسيّد القوم وأشرفهم، ولا أشرف وأكرم منه ﷺ، ثم إنها مع شرفها كانت قد أُصيبت في والدها وزوجها الذي كان لا يزال عروساً بها، فأراد ﷺ أن يجبر خاطرها ويسلّيها ويكرمها بتزوّجها بها، وقد كان الأمر كذلك، فقد انقلب بغضها له ﷺ حبّاً وحزنها فرحاً وأصبحت أُمّاً للمؤمنين وزوجاً لسيد العالمين.

ثالثاً: فيه مشروعية البناء بالزوجة في السفر، ولا يعرف في ذلك خلاف بين العلماء.

رابعاً: فيه بيان عدم وجوب الذبح في الوليمة، وأنه قد يكتفى فيها بأي طعام خلافاً لابن حزم الذي يوجب الوليمة بالذبح ولو بشاة.

خامساً: فيه أن الأنبياء بشر كسائر البشر في جواز طروء الأعراض البشرية عليهم كما وقع للنبيّ ﷺ من الصرع والسقوط عن ناقته مع صفية زوجته، وأن مثل ذلك لا يخدش في نبوّته ومقامه.

سادساً: فيه ما عليه النساء وخاصة الضرائر، لا سيما الشواب من شدة الغيرة والحسد. . . فأولئك النّسوة لما سمعن بصفية وجمالها وأن النبيّ ﷺ تزوجها غِرْن منها وحسدنها، ولذلك لما بلغهنّ صرعها عن الناقة شمتن بها وفرحن بذلك، وفي الحديث غير ذلك من الفوائد.

* * *

❊ وضع اليهود السم للنبيّ ﷺ في الشاة

[٤٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما فُتِحَت خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: **«اجمعوا لي مَنْ هٰهنا مِنَ اليهود»**، فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ: **«إني سائِلكم عن شيء، فهل أنتم صادِقُوني عنه؟»** فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«مَن أبوكم؟»** قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: **«كذبتم، بل أبوكم فلان»**، قالوا: صدقت وبررت، فقال: **«هل أنتم**

صادقوني عن شيء إن أنا سألتكم عنه»؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبْناكَ عرفت كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم أبداً»، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم، فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟» فقالوا: نعم، فقال: «ما حَمَلكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبيّاً لم يضرّك.

رواه أحمد (٤٥١/٢)، والبخاري في الهدية وفي الطبّ وفي الجزية وفي المغازي (٣٧/٩، ٣٨) مطوّلاً ومختصراً، ورواه أيضاً أبو داود في الديات (٤٥٠٩)، والدارمي في المقدمة (٧٠).

[٤٠٩] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، قالت: أردت لأقتلك، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ على ذلك أو عليّ»، قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في الهبة (٢٦١٧) (ج ١٥٩/٥)، ومسلم في الطب (١٧٨/١٤)، وأبو داود (٤٥٠٨).

ونحوه عند أبي داود والدارمي (٦٩) من حديث جابر، وفيه: فأخذ النبيّ ﷺ منها الذراع فأكل منها وأكل الرهطُ من أصحابه معه، ثم قال لهم النبيّ ﷺ: «ارفعوا أيديكم»، وفيه: فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجم النبيّ ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة... وهو وإن كان فيه انقطاع فإنه يتأيّد بسابقيه.

[٤١٠] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهَرِي من ذلك السم».

رواه أحمد (١٨/٦)، وذكره البخاري في وفاة النبيّ ﷺ معلقاً (١٩٥/٩)، والدارمي في المقدمة (٦٨)، وكذا رواه البزار والحاكم والإسماعيلي، كما ذكره الحافظ في الفتح.

قوله: «الهَوَات» جمع لهاة وهي اللحمة الحمراء المعلّقة في أصل الحنك كان السم بقي سواداً يُعرف في لهواته. «كاهِلِه» الكاهل أعلى الظهر. وقوله: «فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري» الأبهر عرق في الظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

وفي هذه الأحاديث بيان مكر اليهود بالنبيّ ﷺ وإرادتهم قتله، وكان ذلك باتّفاق رؤسائهم بعثوا إليه امرأة بشاة مملوءة سمّاً كهدية له ﷺ، لكنّ الله عزّ وجلّ أطلعه على ذلك بعدما تناول منها لقمة ومات بعض أصحابه من ذلك، فلما جمع اليهود وسألهم عن ذلك صارحوه بما أرادوا من قتله.

واختلف العلماء رحمهم الله تعالى هل قتل النبيّ ﷺ تلك اليهودية أم لا؟، الذي ذكرناه عن صحيح مسلم أنه لم يقتلها، وكذا ما جاء في حديث جابر أنه عفا عنها، وورد في بعض الآثار أنه قتلها لما توفي بشر بن البراء والصحيح الأول، وانظر شرح مسلم للنووي (١٧٩/١٤)، والشفا للقاضي عياض بتهذيبي (١١٩)، وشرح الزرقاني على المواهب (٢٤٢/٢)، وفي قوله ﷺ: «ما أزال أجد ألم الطعام... انقطاع أبهري» هو يدلّ على أنه توفي بسبب تلك اللقمة المسمومة، وأنها كانت تؤلمه المرّة بعد المرّة حتى مات بها ﷺ، وسيأتي مزيد لهذا في وفاته.

❋ ❋ ❋

❁ كيف قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر

[٤١١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهماً. قال: فسره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فله سهم.

رواه أحمد (٢/٢/٦٢، ٧٢، ٨٠)، والبخاري (٩/٢٤)، ومسلم (١٢/٨٣)، وأبو داود (٢٧٣٣)، والترمذي (١٤٢٢).

ففيه أن الفارس يأخذ ثلاثة أسهم والراجل يأخذ سهماً واحداً، وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد والجمهور عملاً بهذا الحديث.

[٤١٢] وعن بشير بن أبي حثمة رضي الله تعالى عنه قال: قسم رسول الله ﷺ خيبر نصفين نصفاً لنوائبه وحاجته، ونصفاً بين المسلمين، قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً.

رواه أبو داود في الخراج من سننه (٣٠١٠) بسند حسن.

الحديث ظاهر في أنه ﷺ أخذ من مغانم خيبر نصفها والنصف الآخر قسمه بين الصحابة.

وقوله: قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً، لأنها كانت خاصة بمن حضر الحديبية، وهم كانوا أربع عشرة مائة وكان معهم مائة فرس، فإذا قسم عليهم كانت ألفاً وثمانمائة سهم كل سهم يقسم على مائة، فثمانية عشر سهماً تأتي ثمانمائة سهم؛ للراجل سهم وللفارس سهمان، وكان معهم مائتا فرس وحظهم أربعمائة سهم.

* * *

❊ سهم ذوي القربى

[٤١٣] عن جُبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه جاء هو وعثمان بن عفان يكلّمان رسول الله ﷺ فيما قسم الخمس بين بني هاشم وبني المطلب، فقلت: يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً، وقرابتنا وقرابتهم منك واحدة، فقال النبيّ ﷺ: **«إنما بنو هاشم وبنو المطلب واحد»**، قال جُبير: ولم يقسم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل من ذلك الخمس، كما قسمت لبني هاشم وبني المطلب، قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم رسول الله ﷺ غير أنه لم يكن يعطي قربى

رسول الله ﷺ ما كان النبيّ ﷺ يعطيهم، قال: وكان عمر بن الخطاب يعطيهم منه، وعثمان بعده.

رواه أحمد (٨١/٤، ٨٣، ٨٥)، والبخاري في غزوة خيبر (٤٢٢٩)، وأبو داود في الخراج (٢٩٧٨، ٢٩٨٠)، والنسائي وابن ماجه (٢٨٨١) وغيرهم.

في الحديث دليل على أن خمس ذوي القربى من الغنيمة خاص بقرابته ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، أمّا غيرهم من بني عبد شمس وبني نوفل الذين كان منهم عثمان وجبير بن مطعم فلا حظّ لهم في ذلك، وعلّل النبيّ ذلك بأن بني هاشم وبني المطلب كانوا شيئاً واحداً في الجاهلية والإسلام، حتى إنهم دخلوا مع النبيّ ﷺ الشعب وقاسوا معه ما قاسى، وهذا بخلاف بني عمهم بني نوفل وبني عبد شمس، فإنهم كانوا مع الكفار.

* * *

❋ حديث الحجاج بن علاط مع العباس وأهل مكّة

[٤١٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا فتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حلٍّ إن أنا نِلْتُ منك؟ وقلت شيئاً، فأذِن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندكِ، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد اسْتُبِيحُوا، أو أصِيبتْ أموالُهم، قال: ففشا ذلك في مكّة فانقمع المسلمون وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس رضي الله تعالى عنه فعُقِر وجعل لا يستطيع أن يقوم، قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له قثم فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول: حِبِّي قُثم، شَبِيهُ ذي الأنْفِ الأشَمّ، نَبِيّ ربِّ ذِي النِّعَم، بِرَغْمِ أنْفِ من رغم، قال ثابت عن أنس: ثم

أرسل غلاماً له إلى الحجاج: ويلك ما جئت به وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوت لآتيه فإن الخبر على ما يَسُرُه، فجاءه غلامُه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثَبَ العباسُ فَرِحاً، حتى قبَّل بين عينيه فأخبره بما قال الحجاج فأعتقه، قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّةَ بنتَ حُيَيّ فأخذها لنفسه وخيّرها أن يُعتقها وتكون زوجته، أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لما كان لي هٰهنا أردت أن أجمعَه فأذهب به، فاستأذنتُ رسولَ الله ﷺ فأذِنَ لي أن أقول ما شئتُ، فاخْفِ عني ثلاثاً ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأتُه ما كان عندها من متاع وحلي فجمعته، فدفعتْه إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرتْه أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل لقد شقَّ علينا الذي بلغك، قال: أجل لا يخزيني الله ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لكِ حاجة في زوجكِ فالحَقِي به، قالت: أظنّك واللهِ صادقاً، قال: فإني صادق الأمر على ما أخبرتُكِ، قال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبْنِي إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاجُ بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى صفيّة لنفسه، وقد سألني أن أُخفِي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هٰهنا ثم يذهب، قال: فردّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين وخرج المسلمون ومَنْ كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس فأخبرهم الخبر، وسُرَّ المسلمون وردّ الله تبارك وتعالى ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين.

رواه عبدالرزاق في المصنف رقم (٩٧٧١)، وأحمد (١٣٨/٣، ١٣٩)،

وأبو يعلى (٣٤٧٩)، وابن حبان (١٦٩٨) بالموارد وغيرهم بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (٦/١٥٤، ١٥٥) برواية أحمد وأبي يعلى والبزار والطبراني، قال: ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في سند أحمد: على شرط الشيخين.

هذه قصة عجيبة من هذا الصحابي تدلّ على دهاء عظيم منه ومكر بكفار قريش وما فعله وقاله من كذب وطعن في رسول الله ﷺ يدلّ على جواز مثله إن كانت فيه مصلحة عامّة للمسلمين، بل يجوز للإنسان أن يتظاهر بالكفر للمصلحة كما قال العلماء.

وكان فيما أخفاه وأبداه العباس بشارة عظيمة للمسلمين وفرح وسرور لهم بفتح خيبر وانتصار رسول الله ﷺ على اليهود.

* * *

رجوع رسول الله ﷺ من خيبر وقصة الغالّ من الغنيمة

[٤١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فلم نغنم ذهباً ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضُّبَيْبِ يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ غلاماً يقال له: مدعم، فوجه رسولُ الله ﷺ إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القُرى بينما مِدْعَم يحطّ رحلاً لرسول الله ﷺ إذا سهمٌ عائر فقتلَه، فقال الناس: هنيئاً له الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: **«كلا والذي نفسي بيده إن الشَّمْلَةَ التي أخذها يومَ خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لَتَشْتَعِلُ عليه ناراً»**، فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبيّ ﷺ، فقال: **«شراك من نار أو شراكان من نار»**.

رواه البخاري في الأيمان والنذور وفي المغازي (٩/٢٩، ٣٠)، ومسلم في الإيمان (٣/١٢٨)، وأبو داود (٢٧١١) وغيرهم.

في الحديث عظم جرم الغلول من الغنيمة، وأن الغال يعذّب ولو كان

صحابياً وقد قدمنا حكم هذا في الجهاد. وقصّة هذا الغال هنا غير ما تقدم من الغال الذي لم يصلّ عليه، والله تعالى أعلم.

* * *

نوم الصحابة عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس

[٤١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكَرَى عرَّسَ، وقال لبلال: **«اكلأ لنا الليل»**، فصلّى بلال ما قُدِّرَ له ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مُواجِهَ الفجر فغلبتْه عيناه وهو مُسْتَنِدٌ إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسولُ الله ﷺ أوّلَهم استيقاظاً، ففزع رسولُ الله ﷺ فقال: **«أي بلال»**، فقال بلال: أخذ بنفسي الذي بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخذ بنفسك، قال: **«اقتادوا»**، فاقتادوا رواحلهم شيئاً ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة فصلّى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: **«من نسي الصلاة فليُصَلِّها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾»**.

رواه مسلم (١٨١/٥، ١٨٣، ١٩٣)، وأبو داود (٤٣٥، ٤٣٦)، والترمذي (٢٩٥٩)، وابن ماجه (٦٩٧).

ورواه البخاري في الصلاة (٢١١/٢) عن أنس، وقد قدمنا في الصلاة أن هذه القصة رواها أبو قتادة وعمران بن حصين وغيرهما.

قوله: «الكَرَى» بفتحتين النّعاس. «فعَرَّس» بفتحات مع تشديد الراء أي: نزل آخر الليل للنوم. «اكلأ» احفظ. «اقْتادُوا» سوقوا رواحلكم.

كان في نوم النبيّ ﷺ كالصحابة حتى طلعت الشمس تشريع من الله عزّ وجلّ لهذه الحالة، علماً بأن النبيّ ﷺ كان تنام عيناه ولا ينام قلبه، ولكنه في هذه الحالة نام قلبه ليشرع لنا حكم من نام عن صلاته غلبة.

وقوله: «اقتادوا» في رواية لمسلم: «فإن بهذا الوادي شيطاناً»، والحديث يدلّ على أنه لا تفريط في النوم إذا عمل النائم الاحتياط للقيام في الوقت، كأن كلف من يوقظه أو هيّأ لذلك جهازاً ينبّهه. أما إذا لم يحتط وينام حتى يخرج الوقت كان آثماً أشدّ الإثم، ويزيد هذا تفصيلاً حديث أبي قتادة الآتي، هو:

[٤١٧] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكُم تَسِيرُون عَشِيَّتَكُمْ وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غداً»، فانطلق الناس لا يَلْوِي أحدٌ على أحد، قال: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابهارَّ الليلُ وأنا إلى جَنْبِهِ، قال: فنعَسَ رسولُ الله ﷺ فمالَ عن راحلته فأتيته فدَعَّمْتُه من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، قال: ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مالَ ميلة هي أشدّ من الميلتين الأولتين حتى كاد ينجفل فأتيته فدعَّمته فرَفَعَ رأسَه، فقال: «من هذا؟» قلت: أبو قتادة، قال: «متى كان هذا مَسِيرُك مِنّي؟» قلت: ما زال هذا مسيري منذ الليلة، قال: «حَفِظَك الله بما حَفِظتَ به نبيه»، ثم قال: «هل ترانا نخفى على الناس»، قال: «هل ترى من أحد»؟، قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر حتى اجتمعنا فكنّا سبعة ركب، فمالَ رسولُ الله ﷺ عن الطريق، فوضع رأسه ثم قال: «احفظوا علينا صلاتنا»، فكان أوّل من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، قال: فقمنا فزعين ثم قال: «اركبوا»، فركبنا فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، قال: فتوضّأ منها وضوءاً دون وضوء، قال: وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال لأبي قتادة: «احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ»، ثم أذن بلال بالصلاة فصلّى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلّى الغداة فصنع كما كان يصنع كل يوم، قال: وركب رسول الله ﷺ وركبنا معه، قال: فجعل بعضنا يهمس إلى بعض: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ ثم قال: «ما لكم فيّ أسوة»، ثم قال: «أما إنه ليس في النوم تفريطٌ، إنما التفريط على من لم يُصَلِّ حتى يَجيءَ وقتُ الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليُصَلِّها حين ينتبه لها، فإذا كان من الغد فليصلّها عند

وقتها» ثم قال: «ما ترون الناس صنعوا»؟ قال ثم قال: **«أصبح الناس فقدوا نبيّهم»**، فقال أبو بكر وعمر: رسول الله بعدكم لم يكن لِيُخَلِّفكُم، وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا، قال: فانتهينا إلى الناس حين امتدّ النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشنا، فقال: **«لا هلك عليكم»**، ثم قال: **«أطْلِقُوا لي غُمَرِي»**، قال: ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: **«أحسنوا الملأ كلكم سيروى»**، قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصبّ وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، قال: ثم صبّ رسول الله ﷺ فقال لي: **«اشرب»**، فقلت: لا أشربُ حتى تشربَ يا رسول الله، قال: **«إنّ ساقي القوم آخرُهُم شرباً»**، قال: فشربت وشرب رسولُ الله ﷺ، قال: فأتى الناس الماءَ جامِّين رواء.

رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٢٠٦/٢، ٢٠٧) مختصراً، ومسلم قبيل صلاة المسافرين (١٨٣/٥، ١٨٩)، وأبو داود رقم (٤٣٧، ٤٣٨)، ورواه مسلم من حديث عمران بن حصين بنحوه مطوّلاً.

قوله: «لا يَلْوِي أحدٌ على أحد» أي: لا يعطف. «ابهارّ الليل» أي: انتصف. «فدعَمته» أي: أقمت ميله وصرت تَحته كالدعامة للبناء. «ينجفل» أي: يسقط. «دون وضوء» أي: خفيفاً. «يهمس» بفتح الياء وكسر الميم هو الكلام الخفيّ. «لا هلك» بضم الهاء وسكون اللام من الهلاك. «أطلقوا لي غُمَري» بضم الغين وفتح الميم هو القدح الصغير. «أحسنوا المَلأَ» الملأ بفتح الميم واللام آخره همزة الملأ هو الخُلُق والعشرة. «جامّين رواء» أي: نشاطاً مستريحين.

في هذا الحديث الشريف معجزات للنبيّ ﷺ وأحكام وفوائد:

ففيه إخباره ﷺ بأن الميضأة سيكون لها نبأ، وكان الأمر كذلك، وهذه معجزة، كما فيه تكثير الماء القليل ببركته ﷺ، وهذه معجزة ثانية، ومعجزة ثالثة في قوله ﷺ: **«كلكم سيُرْوى»**، ومعجزة رابعة في قوله: قال

أبو بكر وعمر كذا وقال الناس كذا، ولم يكونوا معهم. ومعجزة خامسة في قوله ﷺ: «**إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء**»، وكان كذلك ولم يكن أحد من الصحابة يعلم ذلك.

وفيه أنه ﷺ لما ناموا عن صلاة الصبح ارتحلوا وذهبوا حتى ارتفعت الشمس ثم نزلوا، فأذّن بلال وصلّى النبيّ ﷺ الفجر ثم صلّى بهم الغداة، كما كان يصنع كل يوم، وبهذا قال جمهور أهل العلم، وفيه أن وقت الصلاة يمتدّ حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى، وهو عام في كل الصلوات إلا الصبح، فيخرج بطلوع الشمس، وفيه أن ساقي القوم يشرب آخرهم، وفيه غير ذلك.

* * *

عودة مهاجري الحبشة وقسمة الرسول لهم من المغانم وما جاء في فضلهم رضي الله تعالى عنهم

[٤١٨] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: بلغنا مَخْرَج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرُهما أحدهما أبو بُردة، والآخر أبو رُهْم، إما قال بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، قال: فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هٰهنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسْهم لنا ـ أو قال: أعطانا منها ـ وما قَسَم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم، قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة، قال: فدخلت أسماءُ بنت عُمَيْسٍ وهي ممن قَدِم معنا على حفصةَ زوج النبيّ ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرتْ إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخَل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من

هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه، فقالت أسماء: نعم، فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضِبَتْ وقالت كلمة: كذبتَ يا عمر كلاَّ والله كنتم مع رسول الله ﷺ يُطْعِم جائعكم، ويَعِظُ جاهلكم، وكنّا في دار أو في أرض البُعَداء البُغَضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيم الله لا أَطْعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ ونحن كنا نُؤْذَى ونخافُ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك، قال: فلما جاء رسول الله ﷺ قالت: يا نبيّ الله إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسولُ الله ﷺ: **«ليس بأحقّ بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»**، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هُمْ به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ، قال أبو بردة: فقالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليَسْتَعِيدُ هذا الحديثَ مِنّي.

«كذبت» أرادت أخطأتَ. «أرض البُعَداء» تعني في النسب. «البغضاء» تعني الحبشة لأنهم كانوا مسيحيين، وكان النجاشي مسلماً يخفي إسلامه ويُوَرِّي.

في هذا الحديث دليل على أن النبيّ ﷺ أسهم لأهل السفينة ولم يُسْهم لغيرهم ممن لم يحضر غزوة خيبر، هكذا قال أبو موسى، وقد قدَّمنا في حديث أبي هريرة رقم (٣٩٤) أنه قدم هو وأصحابه من اليمن على رسول الله ﷺ وهو بخيبر فأشركهم في الغنيمة.

وفي الحديث فضل هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا في السفينة وأن لهم فضلاً على الصحابة الذين هاجروا مع النبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة حيث إنه كانت لهم هجرتان، فكانوا بذلك أحقّ وأولى بالنبيّ ﷺ من غيرهم، ومن أبرز هؤلاء جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأبو موسى الأشعري وأخوه أبو بردة رضي الله تعالى عنهم، وستأتي فضائلهم في الفضائل.

* * *

❁ رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير عند قفولهم ونهي النبيّ عن ذلك

[٤١٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر - أو قال: لما توجّه رسول الله ﷺ - أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «**إربَعُوا على أنفسكم إنكم لا تدعُون أصَمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم**»، قال: وأنا خلف دابّة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، فقال لي: «**يا عبدالله بن قيس**»، قلت: لبّيك رسول الله، قال: «**ألا أدلّك على كلمة من كنوز الجنّة؟**» قلت: بلى يا رسول الله فداك أبي وأمّي، قال: «**لا حول ولا قوّة إلا بالله**».

رواه أحمد (٤٠٢/٤)، والبخاري في المغازي وفي الدعوات، ومسلم في الذكر وغيرهم وقد تقدم في الأذكار والدعوات من الجزء الثاني حديث رقم (١٦٠٠)، وانظر تهذيبي للجامع (٣٢٣٥).

الحديث يدلّ على أنه لا ينبغي للمسلم أن يتعب نفسه في رفع صوته بذكر الله وندائه، فإنه عزّ وجلّ قريب سميع بصير معنا أينما كنّا، ولذلك لما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: أقريبٌ ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

وفي الحديث فضل لا حول ولا قوّة إلا بالله، لأن فيها تبرّي العبد من حوله وقوّته، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً إلا بالله، وأنه متّصف بالضعف والعجز... وقد تقدم شيء من هذا في الأدعية.

❁ ❁ ❁

❁ ردّ المهاجرين المنائح التي أعطاهم الأنصار إيّاها

[٤٢٠] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم المهاجرون من مكّة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار،

فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تُدعى أمّ سُلَيم، وكانت أمّ عبدالله بن أبي طلحة كان أخاً لأنس لأُمه، وكانت أعطتْ أمُّ أنس رسولَ الله ﷺ عِذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمّ أيْمَن مَولاتَه أم أُسامة بن زيد، قال: لمّا فرغ رسول الله ﷺ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، قال: فردّ رسول الله ﷺ إلى أمّي عِذاقَها وأعطى رسولُ الله ﷺ أمّ أيمن مكانَهنّ من حائطه.

قال ابن شهاب: وكان من شأن أمّ أيمن أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفة لعبدالله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ بعد ما توفي أبوه فكانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر.

رواه البخاري في الهبة (٢٦٣٠)، ومسلم في الجهاد (٩٩/١٢).

قوله: «العذاق» بكسر العين جمع عذق والمراد بذلك النخيل. «والمنائح» جمع منيحة وهي المنحة والعطيّة.

وفي الحديث فضل الأنصار وكرمهم وإيثارهم المهاجرين على أنفسهم، وقد مدحهم الله على ذلك في كتابه الكريم، حيث قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وتأتي فضائلهم ومناقبهم.

وفي الحديث ما كان عليه النبيّ ﷺ من إكرام ذويه ومَنْ أحْسَنَ إليه، فهذه أمّ أيمن وصيفَةُ والده وحاضنَتُه كان يبالغ في البُرُورِ بها والإحسان إليها ويعاملُها معاملة أمّه، وكان يصبر على أذاها وسوء أدبها معه، وكانت تجعله في المعاملة كولدها رضي الله تعالى عنها، وصلّى الله وسلم وبارك على نبيّه وعلى آله وصحبه، والحديث قد تقدم في غزوة بني النضير بنحوه.

***

❋ شبع الصحابة من التمر بعد فتح خيبر

[٤٣١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر.

رواه البخاري في غزوة خيبر (٣٦/٩)، ونحوه عنده عن ابن عمر بلفظ: ما شَبِعْنا حتى فَتَحْنَا خَيْبَر، إنما قالاَ ذلك لأنهم كانوا قد أحرزوا على نخيل كثير وخيبر كانت معروفة بكثرة التمر، فوسّع الله عزّ وجلّ على الصحابة بعد أن كانوا في ضيقٍ وقلّة.

❋ ❋ ❋

❋ تامير النبيّ ﷺ على أهل خيبر أحد الأنصار

[٤٣٢] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: إن رسول الله ﷺ بعث أخا بني عدي من الأنصار إلى خيبر فأمّره عليها.

رواه البخاري في المغازي (٣٧/٩) مُعلَّقاً، ووصله أبو عوانة والدارقطني كما في الفتح.

والحديث يدلّ على أن اليهود بخيبر كانوا قد أصبحوا تحت حكم رسول الله ﷺ ونفوذه يأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه... ولذلك بعث إليهم أميراً من الأنصار.

❋ ❋ ❋

❋ خلاصة ما جاء في غزوة خيبر بإيجاز

كان يهود خيبر أشجع قوم وأعظمهم شكيمة وأكثرهم قوّة وأغنى يهود الجزيرة، وكل ذلك لم يُغنهم شيئاً بعد أن عثوا في الأرض فساداً وألَّبُوا العرب على النبيّ ﷺ، وخاصة في غزوة الأحزاب، فغزاهم النبيّ ﷺ وحاصرهم أياماً وليالي متوالية حتى استسلموا رغم عدّتهم وقوّتهم وشجاعتهم لأنهم رأوا ما لا طاقة لهم به، فقد فتحت حصونهم الكثيرة واحدة إثر الأخرى، وكلما فتح

حصن انتقلوا إلى الذي يليه، فنزلوا على شروط شرطها عليهم النبيّ ﷺ، وأراد أن يُجليهم كما أجلى مَنْ قبلهم من بني النضير... لكنهم استعطفوا النبيّ ﷺ وطلبوا منه البقاء بخيبر على أن يعملوا بها وللنبيّ ﷺ وللمسلمين نصف دخلها ومحصولاتها، فأبقاهم حتى غدروا أيام الفاروق رضي الله تعالى عنه فأجلاهم وأخرجهم من الجزيرة كباقي اليهود الآخرين.

وبفتح خيبر وانهزام يهودها انكسرت شوكة اليهود، وخاف العرب المجاورون للمدينة سطوة النبيّ ﷺ وأصبحوا حذرين، وخاصة قبيلة غطفان تلك القبيلة العدوّة اللدودة التي طالما حاربت النبيّ ﷺ وأعانَتْ عليه... وفاز النبيّ ﷺ بالنصر المبين ورجع بمغانم كثيرة، ووسّع الله تعالى على المسلمين بما غنموه في هذه الغزوة وأنجز الله وعده ونصر عبده وهزم عدوّه والحمد لله وحده.

وأبرز ما في هذه الغزوة من الأحداث زواج النبيّ ﷺ بصفية رضي الله تعالى عنها، وتحريم زواج المتعة، وتحريم الحمر الإنسية، ورجوع مهاجري الحبشة وكان فيهم ابن عمّ الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وفرح النبيّ ﷺ بقدومه حتى قال مبتهجاً: **«والله ما أدري بأيّهما أفرحُ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»** رواه الحاكم (٢١١/٤)، والطبراني كما في المجمع (٢٧٢/٩) وصححه الحاكم، وللحديث طرق يحسن بها. ومن أظهر أحداثها تلك المعجزات النبويّة المتوالية، ونومهم عن صلاة الصبح حتى أشرقت الشمس. وصلّى الله وسلَّم وبارك على نبيّه ومصطفاه وعلى آله وزوجه وصحبه أبد الآبدين.

* * *

❁ فتح وادي القرى وصلح أهل فدك وتيماء[1]

ذكر أهل المغازي أن النبيّ ﷺ لما رجع من فتح خيبر مرّ على

(١) وادي القرى وفدك مساكن لليهود، كانت بين تبوك وخيبر. وتيماء بفتح التاء وسكون الياء بلدة بين وادي القرى والشام كذا في معجم البلدان.

وادي القرى، وكان يسكنه اليهود، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى الاستسلام فأبَوْا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها رسول الله ﷺ وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يخرج منها، وأرسل عليه الصّلاة والسلام من يطلب من يهود فدك الانقياد والطاعة، فصالحوا رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال، وكانت أرض فدك هذه لرسول الله ﷺ خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بني هاشم ويزوّج منها أيِّمَهُم، ولما بلغ يهود تيماء ما فعله المسلمون بيهود خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على أداء الجزية وأن يمكثوا في بلادهم مطمئنين. هذا خلاصة ما ذكره الطبري وابن سيّد الناس وابن كثير وصاحب المواهب وشارحها وابن القيم والبيهقي، ولم يصح شيء من ذلك على طريقة المحدثين، وإن صح ذكر هذه الثلاث وادي القرى، وفدك، وتيماء في الأحاديث الصحيحة. وذكرها على هذا النهج ليس من شرط كتابنا، وإنما ذكرناها لورود مصاريف متوجاتها ودخلها في الأحاديث الصحيحة والله تعالى أعلم.

* * *

سَرِيَّةُ أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى نَجْد قِبَل بَنِي فَزارة

[٤٢٣] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر أَمَّرَهُ رسولُ الله ﷺ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعةٌ، أَمَرنا أبو بكر فعرَّسنا ثم شنَّ الغارة، فورد الماء فقتل من قتل عليه، وسبى، وأنظر إلى عنُقٍ من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم، معها ابنة من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «يا

سلمة هبْ لي المرأة»، فقلت: يا رسول الله والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: «يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك»، فقلت: هي لك يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوباً؛ فبعث بها رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أُسِرُوا بمكّة.

رواه أحمد (٤٦/٤)، ومسلم في الجهاد (٦٧/١٢، ٦٨)، وأبو داود (٢٦٩٧)، والبيهقي في الدلائل (٢٩٠/٤).

«فعرّسنا» أي: نزلنا آخر الليل للاستراحة والنوم. «شن الغارة» أي: هاجمهم في حالة غفلتهم. «عنق من الناس» أي: جماعة. «الذراري» هم النساء والأطفال. «عليها قِشْعٌ» أي: نِطَعٌ من الجلد. «فنفَّلني» أي: أعطانيها نافلة. «وما كشفت لها ثوباً» هو كناية عن عدم جماعها.

في الحديث ما فُطِرَ عليه الرجال من إعجابهم بالجمال والحسن، وفيه صبر ابن الأكوع وحبس نفسه عن البنت مع حسنها وجمالها وصغرها، وفيه جواز تبادل الأسرى وفداء الرجال المسلمين بالنساء الكافرات، ولا يجوز فداؤهم بالنساء المسلمات إطلاقاً.

* * *

سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى الحُرُقاتِ من جُهَيْنَة

[٤٢٤] عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحُرُقاتِ من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أقال لا إله إلا الله وقتلته؟»** قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: **«أفلا كشفت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»**، فما زال يكرّرها عليّ حتى تمنّيت أني أسلمت يومئذ.

رواه أحمد (٢٠٧/٥)، والبخاري في المغازي (٥٨/٩)، ومسلم في الإيمان (٩٩/٢، ١٠٠، ١٠١)، وأبو داود (٢٦٤٣).

«الحرقات» بضم الحاء والراء.

في الحديث تحريم قتل الكافر إذا قال لا إله إلاّ الله، وإن قالها تعوّذاً فإننا لا ندري ما ينطوي عليه قلبه، ولذلك عاتب النبيّ ﷺ أسامة على قتله الرجل الذي قال لا إله إلاّ الله بعد أن قتل جماعة من المسلمين كما في رواية عند مسلم، وقال له: «أفلا كشفت على قلبه» الخ.

وزاد أهل المغازي: أنهم غنموا في هذه السرية الشاء والنَّعم والذرية، وكانت سهمانهم عشرة أبعرة لكل رجل أو عدلها من النعم.

***

سرية أخرى لغالب الليثي لبني الملوّح بالكَدِيد

[٤٢٥] عن جندب بن مكيث الجهني قال: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبدالله الكلبي ـ كلب ليث ـ إلى بني المُلَوَّح بالكَدِيدِ، وأمره أن يُغِيرَ عليهم فخرج فكنت في سريته، فمضينا حتى إذا كنا بقديد لقينا بها الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء اللّيثي، فأخذناه فقال: إني جئت لأُسلم، فقال غالب بن عبدالله: إن كنت إنما جئت مسلماً، فلن يضرّك رباط يوم وليلة، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك، قال: فأوثقه رباطاً، ثم خلف عليه رجلاً أسود كان معنا، فقال: امكث معه حتى نمرّ عليك، فإن نازعك فاحتزّ رأسه، قال: ثم مضينا حتى أتينا بطن الكديد، فنزلنا عشيشيه بعد العصر، فبعثني أصحابي في ربيئة، فعمدت إلى تلّ يطلعني على الحاضر فانبطحت عليه، وذلك المغرب، فخرج رجل منهم فنظر فرآني منبطحاً على التل، فقال لامرأته: والله إني لأرى على التل سواداً ما رأيته أوّل النهار، فانظري لا تكون الكلاب اجترّت بعض أوعيتك، قال: فنظرت فقالت: لا والله ما أفقد شيئاً، قال: فناوليني قوسي وسهمين من كنانتي، قال: فناولته فرماني بسهم فوضعه في جنبي، قال: فنزعته فوضعته ولم أتحرك، ثم رماني بآخر فوضعه في رأس منكبي، فنزعته ووضعته ولم أتحرك، فقال لامرأته:

والله لقد خالطه سهامي، ولو كان دابّة لتحرك، فإذا أصبحت فابتغي سهميّ فخذيها لا تمضغهما عليّ الكلاب، قال: وأمهلناهم حتى راحت رائحتهم حتى إذا احتلبوا وعطنوا أو سكنوا وذهبت عتمة من الليل شننا عليهم الغارة فقتلنا من قتلنا منهم واستقنا النعم، فوجهنا قافلين، وخرج صريخ القوم إلى قومهم مغوثاً، وخرجنا سراعاً حتى نمرّ بالحارث بن البرصاء وصاحبه فانطلقنا به معنا، وأتانا صريخ الناس فجاءنا ما لا قِبَل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي أقبل سيل حال بيننا وبينهم، بعثه الله تعالى من حيث شاء، ما رأينا قبل ذلك مطراً ولا حالاً، فجاء بما لا يقدر أحد أن يقوم عليه، فلقد رأيناهم وقوفاً ينظرون إلينا ما يقدر أحد منهم أن يتقدم، ونحن نحوزها سراعاً حتى أسندناها في المشلل، ثم حددناها عنا فأعجزنا القوم بما في أيدينا.

رواه أحمد (٣/٤٦٧، ٤٦٨) مطوّلاً، وأبو داود (٢٦٧٨) مختصراً، وعزاه الهيثمي (٦/٢٠٢) لأحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات، فقد صرّح ابن إسحاق بالسماع في رواية الطبراني، وهو عند ابن سعد أيضاً (٢/١٢٤) من طريقه.

«الكديد» بفح الكاف وكسر الدال بينه وبين مكّة تسعون كيلو وهو من ديار بني الملوّح. «قُدَيْد» بضم القاف وفتح الدال وسكون الياء هو وادٍ فيه عيون وقرى لبني سُلَيْم وغيرهم بينه وبين مكّة نحو من مائة وعشرين كيلو. «ربِيئَةٌ» هو العين والطليعة يتجسّس الأخبار للقوم. «احتلبوا» أي: حلبوا مواشيهم. «عتمة من الليل» أي: ذهبت مدة من ظلمة الليل. «قافلين» أي: راجعين. «مغوثاً» أي: طالباً الإغاثة. «المشلل» اسم جبل يهبط منه إلى قديد.

وفي هذا الحديث ما كان عليه الصحابة من التجلّد والصبر في سبيل الله وتحمّل المتاعب... وفيه تحيّن الأوقات للهجوم على الكفار، وذلك في أوقات غفلتهم أو نومهم، وفيه تلك الكرامة التي أكرم الله بها هذا الجيش حيث بعث الله تعالى إليهم سيلاً عارماً حالَ بينهم وبين عدوّهم، ولولا

لطف الله تعالى بهم بذلك السَّيْل لأفناهم الكفار وأبادوهم لكثرتهم وقلّة المسلمين، لكن لله جنود السمٰوات والأرض.

* * *

* سريَّةُ بَطْنِ إضَمٍ

[٤٢٦] عن عبدالله بن أبي حَدْرَد رضي الله تعالى عنه قال: بعَثَنا رسولُ الله ﷺ إلى إضَم، فخرجت في نفرٍ من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعيّ ومُحَلِّم بن جَثَّامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنّا ببطن إضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعُود له مع مُتَيِّع له ووَطْبٍ من لبن، فسلَّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتاعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر، فنزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

رواه أحمد (١١/٦)، وابن سعد (١٣٣/٢)، وابن جرير (٢٢٢/٥)، وابن أبي حاتم (ج ١٠٤٠/٣)، والبيهقي في الدلائل (٣٠٥/٤)، وعزاه النور في المجمع (٨/٧) لأحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات.

«إضم» ـ بكسر الهمزة وفتح الضاد ـ موضع بينه وبين المدينة ثلاثة بُرُد. «قعود» بفتح القاف البعير المتّخذ للركوب. «متيع» تصغير متاع. «وطب» بفتح الواو وسكون الطاء وعاء اللبن.

والحديث كالآية يدلأن على عدم قتل من تظاهر بما يدلّ على إسلامه، وأن الواجب في ذلك أن نتثبّت ولا نقول إنه ليس بمسلم من أول وهلة، وقد جاءت الآية الكريمة تعاتب من قتل من ألقى إليهم السلم، وأن من قتله كان قصده أخذ ما كان معه من الجمل والمتاع.

* * *

سرية عبدالله بن حذافة السهمي

[٤٢٧] عن عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبدالله بن حذافة السهمي إذْ بعَثَهُ النبيُّ ﷺ في سرية.

رواه أحمد رقم (٣١٢٤)، والبخاري في التفسير (٣٢٢/٩)، ومسلم في الإمارة (٢٣٣/١٢)، وأبو داود (٢٦٢٤)، والترمذي... كلاهما في الجهاد والنسائي في البيعة.

[٤٢٨] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: إنّ رسولَ الله ﷺ بعث علقمة بن مُجَزِّز على بَعْثٍ وأنا فيهم، فلما انتهى إلى رأس غزاته أو كان ببعض الطريق استأذن منه طائفةٌ من الجيش، فأذن لهم وأمّر عليهم عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً ليَصْطَلُوا أو ليَصْنَعُوا عليها صنيعاً، فقال عبدالله وكانت فيه دعابَةٌ: أليس لي عليكم السمعُ والطاعةُ؟ قالوا: بلى، قال: فما أنا بآمِرِكُم بشيء إلا صَنَعْتُمُوه؟ قالوا: نعم، قال: فإني أعْزِمُ عليكم إلا تواثَبْتُم في هذه النار، فقام ناس فَتَحَجَّزُوا فلما ظنّ أنهم واثبون قال: أمسِكُوا على أنفسكم، فإنما كنت أمزح معكم، فلما قدمنا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أمَرَكُمْ منهم بمعصية الله فلا تطيعوه»**.

رواه أحمد (٦٧/٣)، وابن ماجه (٢٨٦٣)، وابن حبان (١٥٥٢) بالموارد، والحاكم (٦٣٠/٣، ٦٣١)، وأبو يعلى (١٣٤٩)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وكذا صححه البوصيري في الزوائد.

«فتحجزوا» أي: ربطوا أُزرهم في أوساطهم تأهّباً للدخول في النار. **«ليَصْطَلُوا»** أي: ليستدفئوا من البرد. **«فيه دعابة»** أي: مزاح.

سرية عبدالله بن حذافة هذه جاءت في البخاري (٣٢٢/٩)، ومسلم في الإمارة (٢٢٣/١٢).

[٤٢٩] عن ابن عباس وعند أحمد (١/٨٢)، والبخاري ومسلم (١٢/٢٢٦، ٢٢٧) في الإمارة عن الإمام عليّ عليه السلام بلفظ آخر مغاير لحديث أبي سعيد وسياقه كما عند مسلم، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتُطِيعُوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه وطَفِئَتْ النارُ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: **«لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»**، وفي رواية: **«لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة»**، فالقصة واحدة وقعت لعبدالله بن حذافة، فتصرف الرواة في نقلها كما يقع كثيراً في الأحاديث؛ إذ قد يروون الحديث بالمعنى فيقع فيه التصرف، وقد يحدث الراوي بالحديث من حفظه، فيطول عليه العهد فيأتي به بلفظ آخر بزيادة ونقصان، وإذا صحّت الأسانيد فلا بدّ من قبول الجميع ويجب الجمع بين ما تعارض ولا يجوز طرح بعضها أو الطعن في الرواة الثقات، وقد تقدم الكلام على طاعة الإمام في الجهاد، كما تقدم الكلام على الآية في التفسير.

* * *

❋ غزوة ذات الرقاع

وهي غزوة مُحارِب خصفة من بني ثعلبة من غطفان، قال البخاري (٨/٤٢١) وهي التي صلّى فيها النبيّ ﷺ صلاة الخوف، وتسمّى أيضاً «غزوة نجد».

[٤٣٠] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ في غزاة ونَحْنُ في تسعة نَفَر بَيْنَنا بعيرٌ نَعْتَقِبُه، فنَقِبَتْ أقدامُنا، ونَقِبَتْ قدَمَايَ، وسقطت أظفاري، فكنّا نَلُفُّ على أرْجُلِنا الخِرقَ، فسُمِّيت

غزوة ذاتِ الرِّقاع، لما كنا نَعْصِبُ من الخِرَق على أرجلنا.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤٢٥)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٩٧).

محارب: هو ابن خَصَفَة بن قيس غيلان، وغطفان قبيلة عظيمة من القبائل المجاورة للمدينة، وكانت لهم يد كبرى في مساعدة كفار قريش في الخندق، ولهم مع النبيّ ﷺ أحداث.

وقوله: «نعتقبه» أي: نركبه مناوبة. «نقبت» بكسر القاف أي: قرح من الحفى وتَنَفَّطَتْ.

الحديث يدلّ على أن هذه الغزوة كانت بعد خيبر، لأن أبا موسى لم يأتِ مع أصحاب السفينة إلا أيام خيبر، وهذا القول هو الراجح كما قال البخاري وأيّده ابن كثير في السيرة والحافظ في الفتح، وقبله ابن القيم في الهدي، ويؤيّده أيضاً حديث أبي هريرة، وهو:

[٤٣١] ما رواه أحمد (٢/٣٢٠)، والنسائي، وابن حبان (٥٨٥) عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة: هل صلّيت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم، فقال له: متى؟ قال: عام غزوة نَجْدِ قام رسول الله ﷺ لصلاة العصر وقامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابلة العدوّ، فذكر الحديث في صفة صلاة الخوف، وسنده صحيح.

وأبو هريرة إنما جاء زمن خيبر، وقد قدمنا حديث قدومه سابقاً، وخالف أهل المغازي هذا التاريخ، وقالوا: إنها كانت قبل خيبر. قال الحافظ: والأولى الاعتماد على ما ثبت في الصحيح. وقول أبي موسى: فسمّيت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا، هذا هو القول الصحيح في تسميتها بذلك، وقيل غير ذلك، كما أن قوله: «ونحن في سبعة نفر» لا يدلّ على أن رجال الغزوة كانوا مجرد هذا العدد، بل مراده أن السبعة كانوا متصاحبين يتعاقبون البعير.

* * *

❋ من أحداث هذه الغزوة:
صلاة الخوف

[٤٣٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد فوازَيْنا العدو فصافقنا لهم. وفي رواية: إن رسول الله ﷺ صلّى بإحدى الطائفتين والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا فقاموا في مقام أصحابهم، فجاء أولئك فصلّى بهم ركعة ثم سلّم عليهم، ثم قام هؤلاء فقضوا ركعتهم، وقام هؤلاء فقضوا ركعتهم.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤٣٠).

وقد تقدم في صلاة الخوف أحاديث في الموضوع؛ كحديث جابر قال: كنا مع النبيّ ﷺ بذات الرقاع وأقيمت الصلاة فصلّى بطائفة ركعتين الخ، رواه البخاري ومسلم، وحديث صالح بن خوات عمّن صلى مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرّقاع صلاة الخوف الخ، روياه أيضاً. وحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ صلّى بذي قرد وصفّ الناس خلفه صفّين الخ، رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه. وهنالك الكلام على صلاة الخوف بتفصيل، فارجع إلى ذلك في الجزء الثاني ص (٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢).

قوله: «فوازّينا» أي: قاتلنا.

❋ ❋ ❋

❋ محاولة غورث اغتيال النبيّ ﷺ

[٤٣٣] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أخبر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فلما قَفَل رسولُ الله ﷺ قفل معه، فأدركتْهُم القائلةُ في وادٍ كثير العِضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّقَ الناسُ في العِضاةِ يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرةٍ فعلّق بها سيفه، قال جابر: فنِمْنا نَوْمَةً ثم إذا رسولُ الله ﷺ يَدْعُونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي

جالسٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ هذا اخْتَرَطَ سَيفي وأنا نائمٌ فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً، فقال لي**»: من يمنعك مني؟ «قلت: الله، **فها هوذا جالس**»، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ.

وفي رواية: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا بذات الرقاع قال: كنّا إذا أتينا على شجرة ظَلِيلةٍ تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسولِ الله ﷺ مُعَلَّقٌ بشجرةٍ، فأخذ سيف نبيّ الله ﷺ فاخْتَرَطَهُ، فقال لرسول الله ﷺ: أَتَخافُنِي؟ قال: «**لا**»، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «**الله يَمْنَعُنِي منك**»، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف وعلّقه، ثم ذكر صلاة الخوف.

رواه البخاري باللفظ الأول في المغازي (٨/٤٣١)، وأحمد (٣/٣٦٤)، ومسلم في صلاة الخوف (٦/١٢٩) باللفظ الثاني وعلّقه البخاري (٨/٤٣٢).

قوله: «قِبَل نجد»؛ لأن غطفان من نجد. «القائلة» هي وسط النهار وقت القيلولة والاستراحة. «كثير العضاة» قيل: هو ما عظم من السمر؛ وهي الشجرة الكثيرة الورق، وقيل: العضاة كل شجر يعظم له شوك.

وقوله: «ظليلة» أي: كثيرة الظلّ.

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث حفظ من ذلك الأعرابي بعد أن تمكّن من أخذ سيفه وإشهاره في وجهه، فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ.

[٤٣٤] فعن جابر قال: قاتل رسول الله ﷺ محاربَ خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غِرّةً، فجاء رجل منهم يقال له غَوْرَثُ بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «**الله**»، فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ، قال: «**أتشهد أن لا إله إلاّ الله**»؟ قال: لا، ولكني أُعاهدك أن لا أُقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلوك، فخلّى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه قال: قد جئتكم من عند خير الناس. . .

رواه أحمد (٣/٣٦٥) بسند صحيح.

قوله: «غورث» بفتح الغين وسكون الواو ثم راء مفتوحة آخره ثاء، وهذا الحديث بين الأعرابي الذي أبهم في الرواية الأولى.

وفي الحديث ما كان عليه النبيّ ﷺ من التسامح والعفو ومقابلة الجاهلين بالصفح الجميل، وبذلك ملك القلوب، وأحبّه ألدُّ أعدائه ﷺ.

* * *

قصة الحارسين مع المشرك

[٤٣٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً وجاء زوجها وكان غائباً، فحلف أن لا يَنْتَهِي حتى يُهْرِيق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبيّ ﷺ، فنزل النبيّ ﷺ منزلاً فقال: **«من رجل يَكْلَؤُنا؟»** فانتدَبَ رجلٌ من المهاجرين ورجلٌ من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: **«فَكُونا بِفَم الشِّعْبِ»**، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فَم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أيُّ اللّيل أحبُّ إليك أن أكْفِيكَهُ أوّلَه أو آخِرهُ؟ قال: اكفني أوّله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلّي، وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه رَبِيئَةُ القوم فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائماً، ثم عاد له بثالث فوضعه فيه فنزعه ووضعه ثم ركع وسجد ثم أهَبَّ صاحِبَه، فقال: اجلس فقد أُوتيتُ، فوثب فلما رآهماالرجل عرف أن قد نَذِرُوا به، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله ألا أهْبَبْتَني؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أُحِبَّ أن أقطعَها حتى أُنفِذَها، فلما تابع الرمي ركعت فأريتُك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها وأُنفِذَها.

رواه أحمد (٣٤٤/٣، ٣٥٩)، وأبو داود (١٩٨)، والبيهقي في الكبرى (١٥٠/٩) وفي الدلائل (٣٧٩/٣) بسند حسن.

«يكلؤنا» يحفظنا. «ربيئة القوم» أي: طليعتهم التي تحرسهم. «نذروا به» علموا به وفطنوا له.

وفي الحديث مشروعية حراسة الجيش وأخذ الحذر من العدوّ، وفيه فضل ذلك الأنصاري وعظم محبّته لله عز وجلّ وتعظيمه لكتابه، وبالتالي صبره على ألم السهام الثلاث وصموده قائماً يتلذّذ بتلاوة كتاب الله تعالى، ولم يقطع قراءته إعظاماً لصلاته وتقديراً لتلك السورة، ويزيد فيحلف فيقول: لولا أن رسول الله ﷺ أمره بالحراسة، وخشي إن استرسل في صلاته أن يضيع ما أمر به لما ركع وسجد وسلّم، فهكذا كان يقين الصحابة وهكذا كانت عزائمهم رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❋ قصة جمل جابر مع النبيّ ﷺ

[٤٣٦] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة فأبطأ بي جملي، فأتى عليّ رسول الله ﷺ فقال لي: **«يا جابر»**، قلت: نعم، قال: **«ما شأنك؟»** قلت: أبطأ بي جملي وأعْيَا فتخلّفتُ فنزل فحَجَنَه بمِحْجَنَة، ثم قال: **«اركب»**، فركبتُ فلقد رأيتني أكفه عن رسول الله ﷺ، فقال: **«أتزوّجتَ؟»** فقلت: نعم، فقال: **«بكراً أم ثيباً»**؟ فقلت: بل ثيبٌ، قال: **«فهلاً جاريةً تلاعِبُها وتلاعبُك»**، فقلت: إن لي أخواتٍ فأحببت أن أتزوّج امرأة تَجْمَعُهُنّ وتَمْشِطُهُنّ وتقوم عليهنّ، قال: **«أما إنك قادم، فإذا قدمت فالكَيْسَ الكَيْسَ»**، ثم قال: **«أتبيع جملك؟»** قلت: نعم، فاشتراه مني بأُوقية، ثم قدم رسول الله ﷺ وقدمت بالغداة، فجئت المسجد فوجدته على باب المسجد فقال: **«الآن حيث قدِمتَ؟»** قلت: نعم، قال: **«فدع جملك وادخل فصلِّ ركعتين»**، قال: فدخلت فصليت ثم

رجعت، فأمر بلالاً أن يزن لي أوقية، فوزن لي بلال، فأرجح في الميزان قال: فانطلقت فلما وليت قال: «ادعُ لي جابراً» فدُعِيتُ فقلتُ: الآن يردّ عليَّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليَّ منه، فقال: «خذ جمَلَك ولك ثَمنُه».

رواه أحمد (٢٩٩/٣، ٣٠٣، ٣١٤)، والبخاري في البيوع (٢٢٤/٥) وفي مواضع، ومسلم في النكاح وفي المساقاة (٣٠/١١، ٣١، ٣٦)، وأبو داود (٢٥٠٥) وباقي أهل السنن وغيرهم بألفاظ مطوّلاً ومختصراً، وقد تقدم في البيوع، في بيع المركوب واشتراط ركوبه إلى موضعٍ ما.

قوله: «في غزاة» جاء التصريح ببيان أنها غزوة ذات الرقاع، كما رواه ابن إسحاق بسند حسن صحيح. «أبطأ جملي» أي: تأخر. «وأعْيا» أي: عجز عن السير. «بمحجنة» المحجنة هي عصا معكوفة. وقوله: «الكيس الكيس» هو بفتح الكاف وسكون الياء؛ هو العقل والفطنة والظرافة، كأنه قال له: كن فطناً عاقلاً.

وفي الحديث فوائد: منها: جواز بيع المركوب واشتراط ركوبه إلى وقت ما، ومنها: استحباب واستحسان التزوّج بالأبكار وبالثيبات إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، ومنها: سنة البداءة بصلاة ركعتين في المسجد لمن قدم من سفر، ومنها: كرم النبيّ ﷺ وسخاؤه الذي لا مثيل له، ومنها: معجزته ﷺ في سير الجمل ونشاطه ببركته ﷺ وأثر عصاه التي حجنه بها، فكان بعد ذلك لا يُسْبق، وفيه غير ذلك.



عمرة القضاء
وما حصل فيها من أحداث

[٤٣٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابُه فقال المشركون: إنه يَقدم عليكم وقد وهَنَتْهُم حُمَّى يثرب، فأمرهم

رسول الله ﷺ أن يرموا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلَّها إلا الإبقاء عليهم.

وفي رواية: لما قدم النبيّ ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «ارملوا ليرى **المشركون قوّتكم**»، والمشركون من قِبل قعيقعان.

وفي رواية: إن قريشاً قالت: إن محمداً وأصحابه قد وهنتهم حمى يثرب، فلما قدم رسول الله ﷺ لعامه الذي اعتمر فيه قال لأصحابه: **«ارملوا بالبيت ثلاثاً ليرى المشركون قوّتكم»**، فلما رملوا قالت قريش: ما وهنتهم؟

وفي رواية: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجْلدُ من كذا وكذا.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٥٠، ٥١) وفي الحجّ، ومسلم في الحج رقم (١٢٦٦)، وأبو داود (١٨٨٦)، والنسائي كلاهما في الحجّ أيضاً، وأخرجه أحمد (٣٠٦/١) بالرواية الثالثة وسنده صحيح.

«وهنتهم» بتخفيف الهاء وتشديدها أي: أضعفتهم. «ويثرب» اسم للمدينة في الجاهلية. «الإبقاء عليهم» أي: الرفق بهم والإشفاق عليهم.

قد تقدّم أن النبيّ ﷺ لما صدّه الكفار عام الحديبية تصالحوا على أن يرجع ويأتي العام المقبل، وشرطوا عليه شروطاً في ذلك كما في الحديث التالي وما بعده.

[٤٣٨] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبّوا، فاعتمر من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج، فخرج.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٤٩/٩).

[٤٣٩] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: لمّا اعتمر

النبيّ ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكّة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فذكر الكتاب قال: فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله، لا يدخل مكّة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها، فلما دخلها ومضى الأجل أتوْا عليّاً، فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنّا، فقد مضى الأجل، فخرج النبيّ ﷺ فتبعتْه ابنةُ حمزة تنادي: يا عمّ، يا عمّ، فتناولها عليّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونكِ ابنةَ عمكِ احمليها، فاختصم فيها عليّ، وزيد، وجعفر، قال علي: أنا أخذتها، وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبيّ ﷺ لخالتها، وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**»، وقال لعليّ: «**أنت مني وأنا منك**»، وقال لجعفر: «**أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقِي**»، وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**»، وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: «**إنها ابنة أخي من الرضاعة**».

رواه البخاري في عمرة القضاء (٤٢/٩، ٤٩)، ومسلم في الجهاد في صلح الحديبية (١٣٥/١٢، ١٣٨).

فهذان الحديثان يبيّنان ما شرطوا عليه ﷺ إذا أتى معتمراً في العام المقبل وقد وفَى لهم بذلك، فقد جاء في هذه السنة السابعة في ذي القعدة منها ودخل مكّة هو وأصحابه وطافوا وسعوا بين الصفا والمروة وحلقوا وقصروا تصديقاً للرؤيا التي رآها ﷺ في السنة الماضية، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الآية، وبعد أن مضى الأجل المضروب، أمروه بالخروج، فخرج ﷺ.

وفي حديث البراء اختصام الإمام عليّ وأخيه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم في بنت حمزة رضي الله تعالى عنهما أيّهم يكفُلُها، فأعطاها النبيّ ﷺ جعفر؛ لأن خالتها أسماءَ بنتَ عُمَيْس كانت عنده، وقال: «**إن الخالة بمنزلة الأم**»، فهي أحقّ بالحضانة من غيرها، ثم طيّبَ ﷺ خواطرَ جميعهم بما يليق بهم، قال للإمام عليّ: «**أنت مني وأنا**

منك» يعني في النَّسب والصهر والمحبّة والسابقة في الإسلام، وقال لجعفر: **«أشبهت خلقي وخُلقي»**، وهي منقبة لجعفر، أما قوله لزيد: **«أنت أخونا»** أي: في الإيمان، **«ومولانا»** أي: حيث إنه أعتقه، وقد جاء في الحديث الصحيح: **«إن مولى القوم منهم»**، وتقدم في الزكاة.

وقد جاء في رواية عند أحمد عن عليّ ومرسل محمد الباقر أن جعفر قام فحَجِل حول رسول الله ﷺ دار عليه، فقال النبيّ ﷺ: **«ما هذا؟»** قال: شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم، ذكره الحافظ في الفتح قال: وحجِل - بفتح المهملة وكسر الجيم - أي: وقف على رجل واحدة وهو الرقص بهيئة مخصوصة.

[٤٤٠] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ دخَلَ مكّة في عُمْرة القضاء، وعبدُالله بن رواحة بين يَدَيْه يَمْشي، وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ ... اليَوْم نَضْرِبْكُم عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عن خَلِيلِهِ

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسولُ الله ﷺ: **«خَلِّ عنه يا عمرُ، فهي أسرعُ فيهم من نَضْحة النَّبل»**.

رواه الترمذي آخر الأدب رقم (٢٦٥٦) بتهذيبي، والنسائي في الحجّ باب إنشاد الشعر في الحرم، وابن حبان (٢٢٠، ٢٢١)، والترمذي في الشمائل رقم (٢٤٥)، وأبو يعلى (٣٤٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٨/١٠) وحسّنه الترمذي وصححه.

«الهام» جمع هامة وهو أعلى الرأس. «عن مقيله» أي: موضعه. **«ويُذْهِلُ»** أي: يُنسي.

وفي الحديث إباحة إنشاد الشعر في الحرم، وهجو الكفار به، وأنه يُعتبر من جهاد اللّسان، كما أنه قد يكون أشدّ على الكفار من رَمْيهم وضربهم بالأسلحة.

[٤٤١] وعن ابن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: لما اعتمر رسولُ الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٥٠)، وأبو داود (١٩٠٣)، وابن ماجه (٢٩٩٠) كلاهما في الحجّ.

كانوا يسترونه خوفاً عليه من السفهاء والصبيان أن يرموه بِشَيْءٍ فيؤذوه، وقد حفظه الله تعالى فلم يصب بسوء ﷺ.

* * *

❁ تزوّجه ﷺ بميمونة

[٤٤٢] عن ميمونة رضي الله تعالى عنها قالت: تزوّجني النبيّ ﷺ ونحن حلالان بِسَرِف.

رواه مسلم (٩/١٩٧)، وأبو داود (١٨٤٣)، والترمذي (٧٥١)، وابن ماجه (١٩٦٤) كلّهم في الحجّ، وأحمد (٦/٣٣٣، ٣٣٥).

وفي رواية للترمذي وغيره: تزوّجها وهو حلال، وبنى بها حلالاً، وماتت بسرف ودفناها في الظلّة التي بنى بها فيها.

«سرف» بفتح السين وكسر الراء؛ موضع خارج مكّة بنحو من خمسة عشر كيلو في طريق المدينة، وهنالك قبرها، والحديث يدلّ على أن النبيّ ﷺ تزوّجها ودخل بها وهو حلال، ويؤيّده حديث أبي رافع، وهو:

[٤٤٣] عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه قال: تزوّج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حَلالٌ، وبَنَى بها وهو حلال، وكنتُ أنا الرسولَ فيما بينهما.

رواه أحمد (٦/٣٩٢، ٣٩٣)، والترمذي في الحجّ (٧٤٩) وحسّنه، وهو كما قال.

فالحديث صريح كسابقه في أنه تزوّجها وبنى بها وهو حلال، وكان

ذلك في هذه العمرة، وخالف هذا ابن عباس في الحديث الآتي:

[٤٤٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تزوّج النبيّ ﷺ ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال، وماتت بسرف. وفي رواية: في عمرة القضاء.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٥١)، ومسلم في النكاح (٩/١٩٦، ١٩٧)، وأبو داود (١٨٤٤)، والترمذي (٧٥٠)، والنسائي وابن ماجه (١٩٦٥) وغيرهم، ولم يُوافق ابن عباس على ما قال، والجمهور من العلماء على خلافه.

* * *

❋ تزوّجه ﷺ بامّ حبيبة

وفي هذه السنة تزوّج النبيّ ﷺ أمّ حبيبة رَمْلَة بنت أبي سفيان رضي الله تعالى عنها، وكان من خبرها أنها أسلمتْ قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عُبَيْدالله بن جَحْشٍ فتنصّر زوجُها وارتدَّ ففارقَتْه وكانت رأت كأن آتٍ أتاها في نومها، فقال: يا أمّ المؤمنين، ففزعت لذلك فما هو إلا أن انقضت عدّتها، فبعث النبيّ ﷺ يخطبها، فزوّجه إيّاها النجاشي وأصدقها أربعمائة دينار ثم جهّزها وبعث بها في جماعة إلى رسول الله ﷺ ومعها ابنتها حبيبة التي وُلدت لها بالحبشة، وكان ذلك في السنة السابعة، وقيل: السادسة، والأول أشهر، وسيأتي بعض كلام عليها في ذكر أمّهات المؤمنين إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ خلاصة ما وقع من أحداث في السنة السابعة

حصل في هذه السنة أحداث، وهي:

غزوة ذي قُرَد ويقال لها غزوة الغابة، وقصة المرأة التي أُسِرَتْ مع

ناقة النبيّ ﷺ العضباء وفرّت بها، وغزوة خيبر وفيها أحداث عدّة كقصص الأعرابي الشهيد، والرجل البطل الذي كان مآله النار، والغالّ من الغنيمة الذي مات ولم يصلّ عليه النبيّ ﷺ، وتحريم المتعة والحُمر الإنسية، ومآل اليهود بعد انهزامهم، وتزوّج النبيّ ﷺ بصفية بنت حُيَيّ، ووضع السمّ للنبيّ ﷺ في الشاة، وكيف قسم النبيّ ﷺ مغانم خيبر، وقصة الحجاج بن علاط مع أهل مكّة، ونوم الصحابة عن صلاة الصبح في قفولهم، وعودة مهاجري الحبشة، وردّ المهاجرين منائحهم إلى الأنصار، وفتح وادي القرى ومصالحة أهل فدك وتيماء، ثم سرية أبي بكر إلى بني فزارة، وسرية غالب بن عبدالله الليثي إلى الحرقات، ثم سريّته إلى بني الملوّح بالكدِيد، ثم سرية بطن إضَم، ثم سرية عبدالله بن حذافة، ثم غزوة ذات الرقاع وأحداثها، كصلاة الخوف، وقصة غورث الذي أراد الفتك بالنبيّ ﷺ، وقصة الحارسين مع ذلك المشرك الذي أُسِرَتْ زوجته، وقصة جابر في الجمل، ثم عمرة القضاء، ثم تزوّجه ﷺ بميمونة، وتزوّجه ﷺ بأُمّ حبيبة رضي الله تعالى عنها وعن سابقتها.

* * *

السنة الثامنة

مكاتبته ﷺ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام

[٤٤٥] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله ﷺ كَتَبَ إلى كِسْرَى، وإلى قَيْصَر، وإلى النَّجاشيّ، وإلى كُلِّ جبارٍ، يَدْعُوهُمْ إلى الله تعالى، وليس النجاشي الذي صلّى عليه النبيّ ﷺ.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١١٢)، والترمذي في الأدب (٢٥٣١)، والنسائي في الكبرى وغيرهم.

«كسرى» بفتح الكاف وكسرها لقب من ملك الفرس، و«قيصر» لقب لمن ملك الروم، و«النجاشي» لقب من ملك الحبشة، و«العزيز» لكل من

ملك مصر، و«فرعون» لكل من ملك القبط وهي ألقاب قديمة.

والحديث يدلّ على أن النبيّ ﷺ كاتب المشركين من المجوس والنصارى يدعوهم إلى الله تعالى والتديّن بالدين الحقّ. وهذه السنة ينبغي أن ينهجها أمراء المسلمين في كل العصور، فيراسلون رؤساء الكفار وزعماءهم يدعونهم إلى الإسلام ويبيّنون لهم محاسنه. . .

* * *

رسالته عليه السلام إلى هرقل ملك الروم

[٤٤٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدّثني أبو سفيان من فيه إلى فيّ، قال: انطلقت في المُدّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبيّ ﷺ إلى هرقل، قال: وكان دِحْيَةُ الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فذكر الحديث وفيه: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرىء فإذا فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى هِرَقْل عظيم الروم سلامٌ على من اتّبَعَ الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام أسْلِم تَسْلَمْ، وأسلم يُؤتك الله أجرك مرّتين، فإن توليتَ فإن عليك إثم الأرِيسِيّين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال: فلمّا فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فأُخْرِجْنَا، قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة إنه ليخافه مِلِكُ بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

رواه أحمد (٢٦٣/١)، والبخاري في بدء الخلق وفي الجهاد وفي

التفسير (٢٨١/٩، ٢٩٠)، ومسلم في الجهاد (١٠٣/١٢، ١١١)، والترمذي في الأدب (٢٥٣٢) مطوّلاً ومختصراً، وقد تقدم في التفسير مطوّلاً.

وكان ردّ هرقل على الكتاب ردّاً جميلاً، وكاد أن يُسلم لكنه آثر المُلْك والرئاسة على الإسلام، فبقي كافراً حتى مات على كفره فخسر دنياه وآخرته.

***

* رسالته ﷺ إلى كسرى ملك الفرس

[٤٤٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبدالله بن حُذافة السَّهْمِيّ فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزّقه، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ أن يُمَزَّقُوا كل مُمَزَّق.

رواه أحمد (٢٤٣/١، ٣٠٥)، والبخاري في آخر المغازي (١٩١/٩).

وكسرى هذا هو ابن هرمز بن أنوشَرْوان. قوله: «مزّقه» أي: قطّعه. قوله: «أن يمزَّقوا كل ممزّق» أي: يتفرّقوا ويتقطّعوا، وكان الأمر كذلك فقد استجاب الله دعاء نبيّه ﷺ فاغتيل كسرى هذا قتله ولده زربان ثم تقطع ملكهم ومزّق على أيدي الجيوش الإسلامية أيام الصدّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما.

***

* رسالته ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر

[٤٤٨] عن عبدالرحمٰن بن عبدٍ القاري رحمه الله أن رسولَ الله ﷺ بعث حاطبَ بن أبِي بَلْتَعَةَ إلى المُقَوْقِسِ صاحب الإسكندرية، فمضى بكتاب

رسول الله ﷺ إلى المقوقس فقبَّل الكتاب وأكرم حاطباً، وأحسَن نُزُلَه وسرَّحه إلى النبيّ ﷺ، وأهدى له مع حاطب كسوةً وبغلةً بسَرْجِهَا، وخادمتين، إحداهما أمّ إبراهيم، وأمّا الأخرى فوهبها رسول الله ﷺ لجهم بن قيس العبْدي.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام والبيهقي في الدلائل (٣٩٥/٤) وسنده حسن صحيح مع إرساله، بيد أن له شاهداً يتأيّد به رواه البيهقي في الدلائل (٣٩٥/٤، ٣٩٦) من حديث حاطب وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وإن كان ضعيفاً فإنه لم يُتّهم بكذب وليس ضعفه بشديد.

وكتابه ﷺ إلى المقوقس وما أجابه به وصالحه عليه مشهور قد يُقارب التواتر.

[٤٤٩] وقد جاء عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم سَتَفْتَحُون أرْضاً يُذْكَرُ فيها القِيرَاطُ فاسْتَوْصُوا بأهْلِهَا خيْراً، فإن لهم ذِمّةً ورَحِماً**».

رواه مسلم (٩٦/١٦، ٩٧).

فهذه الأرض المُشار إلى فتحها هي مصر، وقوله: «فإن لهم ذمّة» أي: عهداً بما عاقده ﷺ مع المقوقس. وقوله: «ورحماً» لأن هاجر عليها السلام كانت مصرية وهي أمّ نبيّ الله إسماعيل عليه السلام. وفي رواية «فإن لهم صهراً» ومعناه: أن مارية أم إبراهيم عليه السلام منهم أيضاً، فهم أصهار النبيّ ﷺ، وهذه أُمور كلّها معلومة ضرورة عند علماء السيرة والمغازي.

* * *

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

[٤٥٠] عن عمرو بن العاص قال: لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأُمور علوّاً كبيراً منكراً، وإني

قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن ألحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف فلن يأتينا منهم إلا خيرٌ، فقالوا: إن هذا الرأي، قال: فقلت لهم: فأجْمِعُوا له ما نُهْدِي له، وكان أحبّ ما يُهْدى إليه من أرضنا الأدُم، فجمعنا له أُدُماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاء عَمرو بن أُميّة الضَّمْري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأتْ قريشٌ أني قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد ﷺ، قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، قال: ثم قدّمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيّها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب ثم مدّ يده فضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقّت الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألْتُكَهُ، فقال له: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ فقال: ويحك يا عَمْرو أطعني واتَّبِعْه، فإنه والله لعلى الحقّ وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: فبايعني له على الإسلام، قال: نعم فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عمّا كان عليه وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأُسلم، فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكّة، فقلت: إيه يا أبا سليمان، قال: والله لقد استقام المنسم، وأن الرجل لنبيّ اذهب إليه والله أسلم فحَتَّى مَتَى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأُسلم، قال: فقدمنا على رسول الله ﷺ، فقدم

خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ـ ولا أذكر وما تأخر ـ، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله، وأن الهجرة تجبّ ما كان قبلها»**، قال: فبايعته ثم انصرفت. قال ابن إسحاق: وقد حدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما أسلم حين أسلما.

رواه أحمد (١٩٨/٤، ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥)، والحاكم (٤٥٤/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم في رواية لأحمد، وآخره وهو: **«فإن الإسلام يجبّ ما قبله»** إلخ في الإيمان من صحيح مسلم رقم (١٢١).

في الحديث أن إسلام هؤلاء كان في هذه السنة قبل الفتح، وفيه أن إسلام عمرو بن العاص كان سببه إرشاد النجاشي، والله تعالى إذا أراد شيئاً هيّأ أسبابه وهٰهنا كلام طويل لأهل المغازي في إسلام عمرو وخالد أضربنا عنه لأنه ليس على شرطنا.

* * *

❋ غزوة مؤتة

[٤٥١] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **«إن قُتِل زيدٌ فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر فعبدُالله بن رواحة»**، قال عبدالله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا فيه بضعاً وتسعين من طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ، وفي رواية: ليس منها شيء في دبره ـ يعني في ظهره ـ.

رواه البخاري في المغازي (٥٢/٩، ٥٣).

[٤٥٢] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: خطب رسولُ الله ﷺ

فقال: «**أخذ الراية زيدٌ فأُصيبَ، ثم أخذها جعفر فأُصيبَ، ثم أخذها عبدُالله بن رواحة فأُصيب، ثم أخذها خالدُ بن الوليد عن غير إمْرَةٍ ففُتِح عليه، وما يسرُّني ـ أو قال ـ ما يسرهم أنهم عندنا**»، قال: وأن عَيْنَيْهِ لتَذْرِفان، وفي رواية: إن النبيّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتي خبرهم، وفيه: «**حتى أخذ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**».

رواه البخاري في المغازي (٩/٥٤) وفي علامات النبوّة.

[٤٥٣] وعن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية.

رواه البخاري في المغازي (٩/٥٧).

[٤٥٤] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنهم جلس رسول الله ﷺ يُعْرف فيه الحُزْنُ، قالت: وأنا أطلع من صائر الباب ـ تعني من شقّ الباب ـ فأتاه رجل فقال: أي رسول الله إن نساء جعفر، قال: فذكر بكاءهنّ فأمره أن ينهاهنّ. . .

رواه البخاري (٩/٥٥، ٥٦).

[٤٥٥] وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال: «**عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة**»، فذكره بنحو ما تقدم في حديث أنس، وفيه: «**ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمّر نفسه**»، فوضع رسول الله ﷺ أصبعه وقال: «**اللّهمّ هو سيفٌ من سيوفك فانصره**»، فيومئذ سمّي خالد سيف الله، ثم قال النبيّ ﷺ: «**انفِرُوا فأمِدُّوا إخوانكم ولا يَتَخَلَّفَنَّ أحدٌ**»، فنفر الناسُ في حرٍّ شديدٍ مُشاةً ورُكْباناً.

رواه أحمد (٥/٢٩١، ٣٠٠، ٣٠١)، والنسائي في الكبرى (٥/٦٩) بسند صحيح.

[٤٥٦] وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة من المسلمين في غزوة مؤتة، ووافقني مددي من اليمن ليس معه غير سيفه، فنحر رجل من المسلمين جزوراً، فسأله المددي طابقة من جلده، فأعطاه إياه فاتّخذه كهيئة الدرقة ومَضَيْنا فلقينا جموعَ الروم، وفيهم رجلٌ على فرسٍ له أشْقَر عليه سرجٌ مُذَهَّب، وسلاح مذهبٌ، فجعل الرُّوميُّ يُغْرِي بالمسلمين، وقعد له المَدَدِي خَلْفَ صَخْرَةٍ، فمرّ به الرومي فعَرْقَب فرسَه فخرَّ وعلاهُ فقتله، وحاز فرسَه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه السَّلَبَ. قال عوف: فأتيته فقلت: يا خالد، أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسَّلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكني استكثرته، فقلت: لَتَرُدَّنَّه إليه ولأعَرِفَنَّكَهَا عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: «**يا خالد رُدّ عليه ما أخذتَ منه**»، قال عوف: فقلت: دونك يا خالد ألم أفِ لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذاك؟**» فأخبرته فغضب رسول الله ﷺ وقال: «**يا خالد لا تَرُدَّ عليه، هل أنتم تاركو أمرائي؟ لكم صَفْوَةُ أمْرِهِم وعليهم كَدَرُه**».

رواه أحمد (٢٦/٦، ٢٧، ٢٨)، ومسلم في الجهاد باب استحقاق القاتل سلب القتيل (٦٤/١٢، ٦٥)، وأبو داود في الجهاد كذلك (٢٧١٩).

«مؤتة» بضم الميم وسكون الواو وتهمز هي بالقرب من البلقان من الأُردن.

وكانت هذه الغزوة في جمادى الأُولى من السنة الثامنة باتّفاق أهل المغازي إلا من لا يعتدّ به، وكان السبب فيها أن شرحبيل بن عمرو الغسّاني وهو من أمراء قيصر على الشام قتل رسولاً أرسله النبيّ ﷺ إلى صاحب بصرى، فجهّز إليهم النبيّ ﷺ جيشاً مكوّناً من ثلاثة آلاف مقاتل وأمّر عليهم في البداية زيد بن حارثة، وأمَرهم إن قُتل أن يؤمّروا جعفر، فإن قُتل أمّروا ابن رواحة، فساروا حتى وصلوا لمؤتة بأطراف الشام، فوجدوا هنالك

جموعاً من الروم تقدّر بمائة وخمسين ألفاً، فالتحم القتال وقاتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتال الأبطال، فأصيب زيد وكانت الراية بيده، فأخذها جعفر فأُصيب بعد صبرٍ عظيم، ثم أخذها ابن رواحة فأُصيب وهؤلاء الثلاثة هم أمراء النبيّ ﷺ، ثم أخذ الراية بدون أمر من النبيّ ﷺ خالد بن الوليد فكان الفتح على يديه، يقال: إنه غير الجيش فالمقدمة جعلها مؤخرة والعكس، والميمنة جعلها ميسرة، فلما أصبحوا ورأى الروم ذلك دخلهم الرعب فظنّوا أن المسلمين قد جاءهم المدد، فانهزموا وجعلوا يولّون الأدبار، فكان ذلك فتحاً على المسلمين ونصراً لهم ثم دفنوا من قُتِل من المسلمين هنالك، وجعلوا الأمراء الثلاثة في حفرة واحدة ثم رجعوا قافلين.

وقد أوحي إلى النبيّ ﷺ ما نزل بالجيش وقتل أمرائه الثلاثة، فأخبر أصحابه بذلك قبل أن يصل الجيش وعيناه تذرفان بالدموع وحَزِن لذلك حزناً شديداً ﷺ، وفي جملة هذه الأحاديث التي ذكرناها فوائد، وهي:

أولاً: مشروعية قتال الكفار ومهاجمتهم إذا صدر منهم قتل لبعض المسلمين واعتداء عليهم، كسفير مثلاً أو بريد أو داعية ونحو ذلك.

ثانياً: في ذلك مشروعية تأمير شخص أو أشخاص على الجيش من طرف الخليفة.

ثالثاً: في ذلك صبر جعفر وصموده أمام الجيوش الكافرة وعدم انهزامه ولم يولّهم ظهره قطّ حتى سقط مقبلاً، وفيه بضع وتسعون ما بين طعنة وضربة ورمية، وذلك يدلّ على شجاعته رضي الله تعالى عنه.

رابعاً: فيها جواز الائتمار على الجيش بدون إذن الخليفة إذا اقتضت المصلحة ذلك، وكان المؤتمر كفؤاً في ذلك عالماً بشؤون الحرب وخداعها.

خامساً: فيها منقبة لخالد بن الوليد حيث سمّاه النبيّ ﷺ سيف الله.

سادساً: كان لخالد في تلك الغزوة الفضل والمنّة على ذلك الجيش؛

لأنه بمهارته وفطنته ومعرفته بالشؤون الحربية أنقذ ذلك الجيش المسلم القليل من الجيش الكافر العرمرم السيّال، وأين تقع ثلاثة آلاف من مائة ألف وخمسين ألفاً فقد لطف الله بالمسلمين ونصرهم في ذلك المشهد نصراً عزيزاً، ولولا لطف الله ورحمته ثم مهارة خالد لأُفنِيَ جيشُ المسلمين وقُتِلَ جميعُهم.

سابعاً: كان لخالد مواقف عظيمة في الفتوحات الإسلامية كما كان ذلك له أيام كفره.

ثامناً: في حديث عوف دليل على أن المسلمين كانت لهم مغانم في هذه الغزوة، وذلك يدل على نصرهم في الجملة.

تاسعاً: في حديث عائشة دليل على النهي عن البكاء على الميّت، وهو محمول على النياحة ورفع الصوت على عادات الجاهلية، وذلك معلوم تحريمه ضرورة.

وستأتي بعض فضائل هؤلاء الأصحاب الأمراء في الفضائل إن شاء الله تعالى.

* * *

غزوة ذات السلاسل

[٤٥٧] عن عَمرو بن العاص قال: بعث إليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «**خذ عليك ثيابَك وسِلاحَك ثم ائتِنِي**»، فأتيتُه وهو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأ فقال: «**إني أُريد أن أبعَثك على جيشٍ فيُسَلِّمُك الله ويُغْنيك، وأرغب لك من المال رغبةً صالحة**»، قال: قلت: يا رسول الله ما أسْلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبةً في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عَمرو، نِعْم المالُ الصالحُ للمرْء الصالحِ**».

رواه أحمد (١٩٧/٤، ٢٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، وابن حبان (٢٢٧٧) بالموارد، والحاكم (٢٣٦/٢) وصححه الحاكم والذهبي

وعزاه النور في المجمع (٣٥٢/٨) لأحمد وكبير الطبراني وأوسطه وأبي يعلى قال: ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

[٤٥٨] وعنه رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ بعثه في ذات السلاسل، فسأله أصحابه أن يُوقِدُوا ناراً فمنعَهم، فكلّمو أبا بكر فكلّمه في ذلك، فقال: لا يُوقِدُ أحدٌ منهم ناراً إلا قذفتُهُ فيها، قال: فلَقَوْا العَدُوَّ فهَزَمَهم فأرادوا أن يَتْبَعُوهم فمَنَعَهُم، فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فسأله، فقال: كرهتُ أن آذنَ لهم أن يُوقدوا ناراً فيرى عدُوُّهم قِلّتَهُم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مَدَدٌ فحمِدَ أمْرَه، فقال: يا رسول الله من أحبُّ الناس إليك؟ قال: **«عائشة»**، قلت: من الرجال؟ قال: **«أبوها»**، قلت: ثمّ مَنْ؟ قال: **«عمر»**، فعدّ رجالاً فسكت مخافة أن يَجْعَلَنِي في آخرهم.

رواه الترمذي في المناقب في فضل عائشة (٣٦٤٧)، وابن حبان (١٦٦٥) بالموارد.

وآخره رواه أحمد (٢٠٣/٤)، والبخاري في فضل أبي بكر (٢٢/٨، ٢٣) وفي المغازي (١٣٧/٩)، ومسلم رقم (٢٣٨٤) بلفظ: إن النبيّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحبّ إليك؟ قال: **«عائشة»**، فقلت: من الرجال؟ قال: **«أبوها»**، قلت: ثم من؟ قال: **«ثم عمر بن الخطاب»**، فعدّ رجالاً، فسكتُّ مخافةَ أن يجعلني في آخرهم.

[٤٥٩] وعنه قال: احتَلَمْتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشْفَقْتُ إن اغتسلتُ أن أهْلِكَ، فتيمْمتُ، ثم صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: **«يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنتَ جُنُبٌ؟»** فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك رسولُ الله ﷺ ولم يقل شيئاً. . .

وفي رواية عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص: أن عَمْراً كان على سريّة فأصابهم بردٌ شديدٌ لم يروا مِثْلَه، فخرج لصلاة الصبح، فقال:

احتلمت البارحة، ولكني والله ما رأيتُ برداً مثل هذا، فغسل مغابنه وتوضأ للصلاة ثم صلى بهم، فلما قدم على رسول الله ﷺ سأل رسول الله ﷺ أصحابَه: «كَيف وجَدتُم عَمْراً وصُحبَتَه؟» فأثنوا عليه خيراً، وقالوا: يا رسول الله صلّى بنا وهو جنب، فأرسل إلى عمرو فسأله، فأخبره بذلك وبالذي لقي من البرد وقال: إن الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾...

رواه أحمد (٢٠٣/٤، ٢٠٤)، وأبو داود (٣٣٤، ٣٣٥)، وابن حبان (٢٠٢) بالموارد، والحاكم (١٧٧/١)، والبيهقي (٢٢٥/١، ٢٢٦) كلّهم في الطهارة وسنده صحيح وصححه الحاكم وافقه الذهبي وصححه جماعة وهو في البخاري معلقاً في التيمّم باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت إلخ (٤٧١/١)، وتكلّم عليه الحافظ وقوّاه (٤٧٢/١).

«فصعَّد في النظر» أي: تأمّل فيه ناظراً إلى أعلاه وأسفله. «فغسل مغابنه» هي: بواطن الفخذين.

قوله: «ذات السلاسل» هو موضع وراء وادي القرى بينه وبين المدينة عشرة أيام وسمّي بذلك إما لارتباط المشركين بعضهم إلى بعض كالسلسلة لئلاً يفروا، وإما لرمال هنالك كالسلسلة، وإما لماء يقال له السلسل، أقوال، وهي من بلاد بَلِّي، وعُذْرة، وبني القَيْن وهي قبائل وبطون من قضاعة، ويقال لها أيضاً: غزوة لَخْم وجُذاع، وكان سبب هذه الغزوة على ما ذكره ابن سعد (ج ١٣١/٢)، أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاعة قد تجمّعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن يمرّ به من بَلِيٍّ وعُذْرة وبُلْقَيْن، فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مُكِيث الجُهَني إلى رسول الله ﷺ يَسْتَمِدُّه فبعث إليه أبا عُبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن

يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو قال: وسار حتى وطيء بلاد بَلِيّ ودوّخها، حتى أتى إلى أقصى بلادهم، وبلاد عذرة وبَلقِين، ولقي في آخر ذلك جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرّقوا، فلم يتبعهم، فجمعوا غنائمهم ورجعوا سالمين ظافرين، وكانت هذه الغزوة عند الجمهور في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة.

وفي جملة ما ذكرناه من الأحاديث أحكام وفوائد:

فمنها: جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا كان في المفضول صفة تتعلق بالولاية ليست في الفاضل، فإن تأمير النبيّ ﷺ عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر كان لما فيه من العلم والمعرفة بالشؤون الحربية.

ومنها: منقبة لعمرو بن العاص؛ حيث أمّره النبيّ ﷺ على أكابر المهاجرين والأنصار وساداتهم، غير أن ذلك لا يدلّ على أفضليّته عليهم، ولكنه يقتضي أن له فضلاً في الجملة.

ومنها: مدح المال الحلال للرجل الطيّب الروح، وأنه يكون له بلغة وعوناً على دينه، وهذا بخلاف الرجل الخبيث النفس، فإن المال يزيده طغياناً وفساداً، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: فضل الصدّيق وعائشة رضي الله تعالى عنهما وأنهما كانا أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وهذا قد يحمل على الناس الأجانب. أما الأقارب، فأحبّ الناس إليه بضعته مولاتُنا فاطمة، وريحانتاه سيّدنا الحسن وسيّدنا الحسين، وأبوهما الإمام عليّ عليهم السلام، وهم أصحاب الكساء الذين جلّلَهُم به، وقال: **«اللّهمّ هؤلاء أهلُ بَيْتِي فأَذْهِبْ عَنهم الرِّجْسَ وطَهِّرْهُم تطهيراً»**.

ومنها: أن عمرو بن العاص لما رأى ما فعله معه رسول الله ﷺ من تقديمه في الإمارة واختياره على غيره، ظنّ أن له فضلاً على غيره، وأنه أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، فسأل النبيّ ﷺ عن أحبّ الناس إليه،

فذكر له ما في الحديث، فسكت خشية أن يجعله آخر الناس، ومع ذلك فإن له فضلاً ومزية.

ومنها: جوازِ التيمّم خوفاً من التضرّر بالماء البارد، وهذا قد تقدم في الطهارة.

ومنها: وقوع الاجتهاد أيام النبوّة وجواز العمل بعموم النصوص، وهذا مما لا ينبغي أن يُختلف فيه لتضافر الأدلة على ذلك.

***

❊ غزوة سيف البحر وهي غزوة جيش الخَبَط

[٤٦٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عير قريش، فأقمنا بالساحل نصف شهر، فأصابنا جوع شديد، حتى أكلنا الخبط، فسمّي ذلك الجيش جيش الخبط، فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنّا من ودَكِهِ حتى ثابت إلينا أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضِلَعاً من أضلاعه فنصبه، فعمَد إلى أطول رجل معه. وفي رواية: وأخذ رجلاً وبعيراً فمرّ تحته، قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جَزائر، ثم نحر ثلاث جزائِر، ثم نحر ثلاث جزائِر، ثم إن أبا عبيدة نهاه.

وفي رواية: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبَل الساحل، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، فخرجنا وكنا ببعض الطريق فَنِي الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجُمِعَ فكان مِزْوَدَ تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرةٌ تمرةٌ، فقلت: وما تُغني عنكم تمرةٌ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنِيَت، ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظَّرِب، فأكل منه القوم ثمان عشرة ليلة.

وفي رواية: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «كلوا

رزقاً أخرجه الله، **أطعمونا إن كان معكم»، فأتاهُ** بعضهم بعضو فأكله.

وفي رواية: بعثنا رسول الله ﷺ **وأمّر** علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزوّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نَمصُّها كما يَمَصُّ الصبيُّ، ثم نشرب عليها من الماء فتَكْفِينا يومَنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط، ثم نَبُلُّه بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: مَيْتَةٌ، ثم قال: لا بل نحن رُسُل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضْطُرِرْتُم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سَمِنَّا، قال: ولقد رأيتُنا نغترف من وَقْب عينه بالقِلال الدُّهْنَ، ونقتطع منه القِدَر كالثَّوْر أو كَقَدْر الثور، فلقد أخذ منّا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقْبِ عينه، وأخذ ضِلَعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحَّلَ أعظمَ بعير معنا فمرّ من تحتها وتزوّدنا من لحمه وشائِقَ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: **«هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتُطْعِمُونا»**، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله.

وفي رواية: بعث رسول الله ﷺ بعثاً إلى جهينة واستعمل عليهم رجلاً.

رواه البخاري في الشركة (٢٤٨٣) وفي الجهاد (٢٩٨٣) وفي المغازي (٤٣٦٠، ٤٣٦١) (ج ١٤٠/٩، ١٤٤) وفي الذبائح (٥٤٩٣، ٥٤٩٤)، ومسلم في الصيد والذبائح باب إباحة ميتات البحر (٨٤/١٣، ٨٩)، واختصّ بالروايتين الأخيرتين.

«سِيف البحر» بكسر السين هو ساحله. قوله: «نرصد» بضم الصاد في رواية: «نتلقى عيراً لقريش»، وفي رواية لمسلم: «بعثنا إلى أرض جهينة»، ويأتي الجمع بين ذلك. قوله: «نأكل الخبط» بفتح الخاء والباء هو ورق السلم. «فأكلنا منه نصف شهر» في رواية للبخاري في الجهاد: «ثمانية عشر

يوماً»، وفي رواية لمسلم: «فأقمنا عليه شهراً» وقد جمع بين هذه الروايات القاضي عياض في إكمال المعلم (٣٧٧/٦)، والنووي في شرح مسلم (٨٨/١٣)، والحافظ في الفتح (١٤١/٩) ورجح النووي رواية الشهر لأنها زيادة.

«بِوَدَكِهِ» الودك بفتحتين هو دسم اللحم. «جزائر» جمع جزور وهو الجمل. «وقب عينه» بفتح الواو هي القِطَع. «وشائق اللحم» هي أن تغلى غلاء قبل نضجها ثم تحمل في الأسفار لئلا تنتن.

كانت هذه الغزوة في رجب من السنة الثامنة، بعث النبيّ ﷺ ثلاثمائة مقاتل إلى بلاد جُهَيْنَة لِتَرَقُّبَ عِيرَ قريش وتَرْصُده، غير أن في ذلك إشكالاً من ناحيتين: من ناحية كون ذلك الوقت كان النبيّ ﷺ لا يزال مهادناً لكفار قريش وهو لا يتصوّر منه نقض العهد أبداً. ومن ناحية أخرى كان ذلك في شهر رجب وهو من أشهر الحرم، وقد يُجاب عن الأول بأنه يحتمل أن يكون وقع ذلك بعد ما نقض كفار قريش العهد بمساعدتهم لبني بكر على خزاعة، وما وقع فتح مكة إلا بسبب ذلك، وقد كان الفتح في رمضان وهو قريب من رجب، أفاده ولي الدين العراقي في «شرح التقريب». أما الثاني، فقد يكون بعد نسخ النهي عن القتال في الأشهر الحرم أو يكون في أواخر رجب بحيث لا يصلون إلى مقصدهم إلا في شعبان... ولا مناص من هذا التأويل.

وفي الحديث مشروعية المواساة عند اشتداد المجاعة، وفيه حصول البركة في طعامهم القليل واكتفاؤهم في يومهم بتمرة واحدة يمصّونها ويشربون عليها الماء، وتلك كرامة أكرمهم الله تعالى بها، وفيه لطف الله ورفقه بهم، حيث أخرج لهم من البحر تلك الدابّة العظيمة حتى أكلوا منها شهراً حتى سمنوا وصحّوا، وهي كرامة أخرى تفضّل الله بها عليهم.

وفيه إباحة ما يرميه البحر من حيوانه ولا ينبغي أن يُختلف في شيء من ذلك كيفما كان نوعه أو شكله؛ لعموم قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، وللفقهاء أنظار في ذلك لا ينبغي أن يشتغل بها ويُعتمد

عليها بعد هذه الآية، وبعد قول النبيّ ﷺ: **«هو الطهُور ماؤه الحِلُّ مِيتَتُه»**، رواه أحمد وأهل السنن وتقدم في الطهارة.

* * *

الفتح الأكبر فتح مكة المكرمة
وقت هذه الغزوة

[٤٦١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومَن معه من المسلمين إلى مكّة يصوم ويصومون حتى بلغ الكَدِيد، وهو ماء بين عسفان وقُدَيْدٍ أفطر وأفطروا.

رواه البخاري في المغازي (٦٣/٩، ٦٥) وفي الصيام رقم (١٩٤٨، ١٩٤٤)، ومسلم في الصيام (٢٣١/٧، ٢٣٢) وتقدم في الصيام، وفيه: أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر.

«الكديد» بفتح الكاف وكسر الدال، وقديد بضم القاف مصغراً، وقد تقدم بيان موضعهما كعسفان.

الحديث يدلّ على أن الفتح كان في رمضان وهو إجماع، وإنما اختلفوا في اليوم؛ فعند ابن إسحاق عن مشايخه أنه كان في عَشْرٍ بقين من رمضان في يوم الجمعة، وعلى هذا الجمهور وقيل غير ذلك، وفيه أن الصحابة الذين رافقوا النبيّ ﷺ في هذا الفتح كانوا عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار وأقوام من أسلم وغِفار، ومزينة وجُهينة وسُليم.

وقوله: «على رأس ثمان سنين ونصف» قال الحافظ وغيره: وهو وهم، والصواب على رأس سبع سنين ونصف، وهذا متّفق عليه بين علماء السيرة وغيرهم، وفيه أن النبيّ ﷺ وأصحابه خرجوا من المدينة صائمين حتى وصلوا الكديد، فأفطر ﷺ وأمر أصحابه أن يُفْطروا ودخلوا مكّة مُفطرين ومكثوا فيها بقية رمضان مفطرين.

[٤٦٢] وكان لهذه الغزوة سبب باتّفاق علماء السيرة وهو ما رواه ابن إسحاق بسند صحيح كما نقله ابن هشام (٤/٣٠)، والبيهقي في الدلائل (٥/٥، ٧)، وابن كثير في السيرة (٣/٥٢٦) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه ومروان بن الحكم أنهما حدّثا قالا: كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش أنه من شاء يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عقد محمد ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة والثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماءٍ لهم يقال له الوتير قريب من مكّة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معه للطعن على رسول الله ﷺ، فركب عمرو بن سالم إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما حصل وأنشده أبياتاً من شعره، منها قوله:

يا ربّ إنّي ناشدٌ محمداً ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا

قد كنتم ولداً وكنّا والدا ... ثُمَّةَ أسْلَمْنا فلم نَنْزِعْ يدَا

فانصر رسول الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

إلى آخر ما قال. فقال رسول الله ﷺ: **«نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم»**، فما برح رسول الله ﷺ أن مرّت عَنانَةٌ في السماء، فقال ﷺ: **«إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»**، ولهذه القصة شواهد.

فكان سبب هذه الغزوة إذاً؛ نَكْثُ كفار قريش عهد النبيّ ﷺ بقتالهم حلفاءه خزاعة.

* * *

❋ رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى كفار قريش

[٤٦٣] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: **«انْطَلِقُوا حتى تأتُوا رَوْضَةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظَعينَةً معها**

كِتابٌ فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تَعادَى بنا خَيلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرِجي الكتاب فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخْرِجنَّ الكتاب أو لنُلْقِيَنَّ الثياب، فأخرجته من عِقاصِها. وفي رواية: فأنخناها فالتَمَسْنا فلم نرَ كتاباً، فقلنا: ما كذَب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنُجَرْدَنَّكِ، فلما رأت الجدَّ أهْوَتْ إلى حُجَزتِها وهي محتجزة بكِساءٍ، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى ناس بمكّة من المشركين يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«يا حاطب ما هذا؟»** قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ إني كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً، ولم أكن من أنْفُسِها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يَحْمُون أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتّخذ عندهم يداً يَحْمُون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنه قد صَدَقَكُمْ»**، فقال عمر: يا رسول الله دَعْنِي أضربْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال: **«إنه قد شهد بدراً، ما يدريك لعلّ الله اطّلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**، فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ①﴾.

رواه أحمد (١/٨٠)، والبخاري في الجهاد وفي المغازي وفي غزوة بدر (٨/٣٠٧) وفي التفسير (١٠/٢٥٨، ٢٥٩)، ومسلم في الفضائل (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠، ٢٦٥١)، والترمذي في التفسير (٣٠٨٨) وقد تقدم في التفسير وما فيه فأغنى عن إعادة ذلك، وسيأتي أيضاً في الفضائل.

والشاهد منه هو كتابة حاطب الرسالة إلى قريش يُخبرهم بسرّ من أسرار رسول الله ﷺ، وتلك خيانة عظمى وجريمة شنعاء، ولولا أنه بدري وأهل بدر مغفور لهم لكان له وللنبيّ ﷺ شأن.

***

❋ سياقة قصة الفتح وما حصل قبله وعنده وبعده من أحداث: كتمان الرسول وجهته عن أصحابه

[٤٦٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل عليها وهي تُغَرْبِلُ حنطة، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم فتَجَهَّزْ، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمّى لنا شيئاً غير أنه قد أمَرَنا بالجِهَازِ.

رواه ابن إسحاق - ابن هشام (٣٨/٤) بسند صحيح، وأورده الهيثمي (١٦١/٦) من طريقٍ آخر، وعزاه لأبي يعلى ورجاله رجال الصحيح غير حزام بن هشام بن حبيش، وقد وثّقهما ابن حبان.

في الحديث مشروعية تعمية الأخبار عن الأعداء وكتمان سرّ وِجْهة الجيوش، وقد كان ذلك من هديه ﷺ، كما في هذا الحديث، فإنه أمر أهله بالجهاز للسفر وما بيَّن لهم وِجهة اتجاهه، وهكذا جاء في حديث كعب بن مالك الطويل الآتي في غزوة تبوك، حيث قال: «كان إذا سافر ورّى بجهته»... يعني عمل التورية.

❋ ❋ ❋

❋ إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن أبي أمية وأبي سفيان بن صخر قبل الفتح

[٤٦٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن الحصين بن عتبة الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كانوا بالكَدِيد بين عسفان وأميح أفطر ثم مضى حتى نزل مَرّ الظَّهران في عشرة آلاف من المسلمين، فسبَّعَتْ سُلَيْمٌ، وألَّفَتْ مُزَيْنَةُ وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وقد عَمِيَتْ الأخبارُ على قريش، فلا

يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع، وكان أبو سفيان بن الحارث، وعبدالله بن أبي أُمَيَّة بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ بثنية العقاب فيما بين مكّة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلَّمتْه أمُّ سلمة رضي الله تعالى عنها فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمّتك، وصهرك، فقال: «**لا حاجة لي فيهما، أمّا ابنُ عَمّي فهتك عِرْضِي، وأما ابن عمّتي وصِهري فهو الذي قال لي بمكّة ما قال**»، فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له، فقال: والله لَيَأْذَنَنَّ رسول الله ﷺ أو لآخُذَنَّ بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عَطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقّ لهما فدخلا عليه، فأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه، فقال: لعَمْرُكَ إني يوم أحمل راية، لِتُغلِب خيل اللات خيل محمد، لَكَالْمُدْلَجِ الحَيْران أظْلَمَ ليلُه، فهذا أوانُ الحقّ أهدي وأهتدي، فقُل لثقيف لا أريد قتالَكم، وقل لثقيف تلك عندي، فأوعدي، إلى آخر ما قال.

فلما أنشد رسول الله ﷺ إلى الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «**أنتَ طردْتَني كُلَّ مُطَّرَدِ**»، قال:

فلما نزل رسول الله ﷺ بمرّ الظهران قال العباس: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوَةً قبل أن يستأمِنُوه إنه لهلاك قريش آخر الدهر. قال العباس: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لعلّي ألْقَى بعض الحطّابة، أو صاحبَ لبَنٍ، أو ذا حاجةٍ، يأتي مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيَسْتَأْمِنُوهُ قبل أن يدخلَها عَنوةً، قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمِسُ ما خرجتُ له، إذ سمعت كلام أبي سفيان، وبُدَيْل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قطّ نيراناً ولا عسكراً، قال: يقول بُدَيْل: هذه والله نيران خزاعة قد حمشها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة والله أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فقلت: يا أبا حنظلة تعرفُ صوتي؟ فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: هذا والله رسول الله ﷺ في الناس، واصَبَاحَ قريش، قال: فما

الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب عجز هذه البغلة، فركب ورجع صاحباه، فخرجت به فكلّما مررت بنار من نيران المسلمين، فقالوا: ما هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمّه العباس قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمّه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: والله عدوّ الله الحمد لله الذي أمكن منك، فخرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ ودخل، ورفعت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابّة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر، فقال: هذا عدوّ الله أبو سفيان قد أمكن الله منه في غير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فقلت: قد أجرته يا رسول الله، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني، فلما أكثر عمر قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان رجلاً من بني عدي ما قلت هذا، ولكنه من بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس، لا تقل هذا فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباس، اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به»، فذهبت به إلى الرحل فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلاّ الله؟» فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد، فقال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»، فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، أما هذا فكان في النفس منها حتى الآن شيء، قال العباس: فقلت: ويلك أسلم واشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يُضرب عُنُقك، فشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، قال العباس: فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً، فقال: «نعم، من دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن أغْلَقَ بابَه فهو آمن»، فلما انصرف إلى مكة لِيُخْبِرَهُم قال

رسول الله ﷺ: «احبسه بمضيق من الوادي عند حطم الخيل حتى تمرّ به جنود الله تعالى»، فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ فمرّت القبائل على ركابها، فكلما مرت قبيلة قال: من هذه؟ فأقول: بنو سُلَيْم، فيقول: ما لي ولبني سُليم، ثم تمرّ أخرى فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، فلم يزل يقول ذلك حتى مرّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، والله لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليومَ لعظيمٌ، فقلت: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوّة، قال: فنعم إذاً، فقلت: النجاء إلى قومك، فخرج حتى أتاهم بمكّة فجعل يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمّد قد أتاكم بما لا قِبَل لكم به، فقامت امرأته هند بنت عتبة وأخذت بشاربه فقالت: اقتلوه الحَمِيت، الدَّسِم، فبئس طليعة قوم، فقال أبو سفيان: لا يغرنّكم هذه من أنفُسِكم، من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ، فقالوا: ويحك ما تغني عنّا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

رواه الحاكم (٣/٤٣، ٤٤) مختصراً وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وأورده النور برواية الطبراني مطوّلاً (٦/١٦٤، ١٦٧)، وقال: رجاله رجال الصحيح، وجاء بسياق آخر وهو الآتي:

* * *

❁ دخول النبيّ ﷺ من كَدَاءٍ بأعلى مكة وركزت الراية بالحجُون

[٤٦٦] عن عروة رضي الله تعالى عنه قال: لمّا سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشاً خرج أبو سُفيان بن حَرب، وحَكِيم بن حِزام، وبُدَيْل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما

هذه؟ لكأنها نيران عرفة؟ فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ، فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: «**احبس أبا سفيان عند خَطْم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين**»، فحبسه فجعلت القبائل تمرّ مع النبيّ ﷺ تمر كتيبة كَتِيبة على أبي سفيان، فمرّت كتيبة قال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار، فذكر مثل ما تقدم من الكتائب، ثم قال: حتى أقبلت كتيبة لم يَرَ مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبَّذا يومُ الذِّمارِ، ثم جاء كتيبةٌ وهي أقلّ الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه وراية النبيّ ﷺ مع الزبير بن العوَّام، فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: «**ما قال؟**»، قال: كذا وكذا، فقال: «**كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يُعَظِّمُ الله فيه الكعبة، ويوم تُكْسَى فيه الكعبة**»، قاله وأمر رسول الله ﷺ أن تُركَز رايته بالحَجُون.

رواه البخاري في فتح مكّة من المغازي (٩/٦٥، ٦٩)، والحديث وإن كان ظاهره الإرسال فإنه متّصل عن نافع بن جبير عن العباس كما في آخر الحديث.

[٤٦٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبيّ ﷺ دخل عام الفتح من كَداء بأعلى مكّة.

رواه البخاري (٩/٧٩) ومثله عنده عن الزبير رضي الله تعالى عنه.

***

❋ كيف رتب النبيّ ﷺ الجيش عند دخوله مكّة وماذا قال لهم وما صدر من الأنصار بعد الفتح وماذا قال لهم النبيّ ﷺ وطوافه بالبيت

[٤٦٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه ذكر فتح مكّة، فقال: أقبل رسولُ الله ﷺ حتى قدم مكّة، فبعث الزبير على إحْدَى المُجَنِّبَتَيْن،

وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر **فأخذوا** بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبة، قال: فنظر فرآني فقال: **«أبو هريرة!»** قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: **«اهتف لي بالأنصار»**، وفي رواية: **«لا يأتيني إلا أنصاري»**، قال: فأطافوا به، ووبَّشَتْ قريشٌ أوباشاً لها وأتباعاً، فقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنّا معهم، وإن أصيبوا أُعطينا الذي سُئِلنا، فقال رسول الله ﷺ: **«تَرَوْنَ إلى أوْباش قريش وأتباعهم»**، ثم قال بيده إحداهما على الأخرى، ثم قال: **«حتى توافوني بالصفا»**، قال: فانطلقنا، فما شاء أحدٌ منا أن يقتل أحداً إلا قتله، وما أحدٌ منهم يوجّه إلينا شيئاً، قال: فجاء أبو سفيان، فقال: يا رسولَ الله أُبِيحَتْ خَضراءُ قريش لا قريشَ بعد اليوم، ثم قال ﷺ: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»**، فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته ورأفةٌ بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طَرْفَه إلى رسولِ الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: **«يا معشر الأنصار»**، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: **«قلتم: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته»**، قالوا: قد كان ذاك، قال: **«كلا، إني عبدُ الله ورسولُه هاجرتُ إلى الله وإليكم، والمَحْيَا مَحْيَاكم، والمَماتُ مَماتُكم»**، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضَّنَّ بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله ورسولَه يُصَدِّقَانِكم ويَعْذِرانِكُمْ»**، قال: فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق الناس أبوابهم، قال: وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل إلى الحَجَر فاسْتَلَمَه ثم طاف بالبيت، قال: فأتى على صَنَم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، قال: وفي يَدِ رسول الله ﷺ قوسٌ وهوَ آخذ بِسِيَةِ القوس، فلما أتى على الصنم جعل يَطْعُنُهُ في عينه، ويقول: **«جاء الحقّ وزهق الباطل»**، فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعَلاَ عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه، فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو. وفي رواية: **«يا معشر الأنصار هل ترون أوباش قريش؟»** قالوا: نعم، قال: **«انْظُرُوا إذا لَقِيتُمُوهُم غداً أن تَحْصُدُوهُم حَصْداً»**، وأخْفَى بيده ووضع يمينه على شماله،

وقال: **«موعدكم الصفا»**، قال: فما أشرف يومئذ لهم أحدٌ إلا أنَامُوهُمْ، وفيه... ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١٢٦، ١٢٣)، وأبو داود في الخراج (٣٠٢٤)، وكذا أحمد (٢/٥٣٨).

قوله: «المجنِّبتين» بضم الميم وفتح الجيم وكسر النون المشدّدة تثنية مجنبة، المجنبة من الجيش هي الميمنة، فإن للجيش ميمنة، وميسرة ومقدمة، ومؤخرة، والوسط يكون فيه القائد. وقوله: «الحسر» بضم الحاء وفتح السين المشددة هم الرجالة الذين لا دروع عليهم. قوله: «ووبشت» بفتحات مع تشديد الباء أي: جمعت أوباشاً وجموعاً من قبائل شتّى. وقوله: «احصدوهم حصداً» بضم الصاد وكسرها أي: اقتلوهم قتلاً وأبيدوهم. وقوله: «المحيا محياكم» إلخ، معناه محل حياتي وموتي معكم بالمدينة. وقوله: «فما أشرف يومئذ لهم أحد إلا أناموه» أي: فما ظهر أحد يريد القتال إلا قتلوه وطرحوه على الأرض كالنائم.

* * *

❋ الإذن لرسول الله ﷺ بالقتال بمكّة وتحطيمه الأصنام ودخوله الكعبة وصلاته بها

[٤٦٩] عن أبي شُرَيْح العدويّ رضي الله تعالى عنه أنّه قال لعَمْرو بن سعيد وهو يَبْعَثُ البُعُوثَ إلى مكّة: ائذن لي أيُّها الأميرُ أُحَدِّثْك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغدَ من الفتح سمعَتْه أُذُنايَ، ووعَاهُ قَلْبي، وأبصرتْه عَيْنايَ حين تكلّم به، أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«إن مكّة حرّمها الله تعالى ولم يُحرِّمها الناسُ، لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفكَ بها دماً، ولا يَعْضِد بها شجراً، فإن أحدٌ تَرَخّص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: إن الله أَذِنَ لرسول الله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلّغ الشاهد الغائب»**.

رواه البخاري في المغازي (٩/٨١)، ومسلم في الحج (٩/١٢٧، ١٢٨)، والترمذي وغيرهم.

[٤٧٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما فتح الله عزّ وجلّ على رسول الله ﷺ مكّة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إن الله حبس عن مكّة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحلّ لأحدٍ كان قبلي وأنها أُحلّت لي ساعة من نهار، وأنها لن تحلّ لأحد بعدي**» الحديث.

رواه البخاري في العلم وفي الحجّ، ومسلم فيه (٩/١٢٨، ١٢٩) وتقدم كسابقه ولاحقه في الحجّ.

[٤٧١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة: «**إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لا يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار**».

رواه البخاري (٤/٤٠٨، ٤٢٠)، ومسلم (٩/١٢٣، ١٢٦) كلاهما في الحجّ.

«**أن يسفك**» أي: يُريق بها دم مسلم ظلماً و«**لا يعضد**» أي: لا يقطع. «**حبس عن مكّة**» أي: منعه من هدم الكعبة واستحلال الحرم.

[٤٧٢] وعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخل النبيّ ﷺ مكّة يوم الفتح وحول البيت ستّون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يَطْعُنُهما بعود في يده، ويقول: «**جاء الحق وزُهِق الباطل**»، ﴿**جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴾.

رواه البخاري في المغازي (٩/٧٧) وفي التفسير، ومسلم في الجهاد (١٢/١٣٣)، والترمذي في تفسير بني إسرائيل (٢٩٣٦).

[٤٧٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دَخَلَ النبيّ ﷺ البيت، وجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم، فقال ﷺ: «**أمّا لهم فقد**

سَمِعُوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم».

وفي رواية: لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحِيَتْ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: **«قاتَلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قطّ».**

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥١، ٣٣٥٢)، وأبو داود (٢٠٢٧) والروايتان للبخاري.

[٤٧٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: دخلنا مع النبيّ ﷺ مكّة في البيت، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً تُعبد من دون الله، قال: فأمر بها رسول الله ﷺ فكُبَّتْ كلّها لوجوهها، ثم قال: **«جاء الحقّ وزَهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»**، ثم دخل رسول الله ﷺ البيت، فصلّى ركعتين فرأى فيه تمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد جَعَلوا في يد إبراهيم الأزلام يستقسم بها، فقال رسول الله ﷺ: **«قاتَلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام»**، ثم دعا رسول الله ﷺ بزعفران فلطخه بتلك التماثيل.

رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٠٣/٧) رقم (٣٦٩٠٥) في المغازي وحسّنه الحافظ في المطالب العالية والبوصيري في الإتحاف.

[٤٧٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسولَ الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكّة على راحلته مردفاً أُسامة بن زيد ومعه بلال ومعه عثمان بن طلحة من الحَجَبَة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أُسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبدالله بن عمر أوّل من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائماً فسأله: أين صلّى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلّى فيه، قال عبدالله: نسيت أن أسأله كم صلّى سجدة؟

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٨٨) وفي الصلاة وفي المغازي باب

حجة الوداع رقم (٤٤٠٠) وغيرها، ومسلم (٨٣/٩)، وأبو داود (٣٠٢٣)، والنسائي (١٧١/٥)، وابن ماجه (٣٠٦٣) كلّهم في الحجّ.

* * *

إسلام والد أبي بكر الصديق، ومن أهدر رسول الله دماءهم وإجارة أم هانيء رجلين من أقاربها واغتسال النبيّ بعد الفتح وصلاته ثمان ركعات

[٤٧٦] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: لمّا وقف رسول الله ﷺ بذِي طُوَى قال أبو قحافة لابنةٍ له من أصغر ولده: أي بنيّة أظهِرِي بي على أبي قبيس، قالت: وقد كُفَّ بصَرُه، قالت: فأشرفت به عليه، قال: يا بنيّة ماذا تَرَيْنَ؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً، قال: يا بنيّة ذلك الوازع ـ يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ـ ثم قالت: قد والله انتشر السواد، فقال: قد والله إذا دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي فأغطت به وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفي عنق الجارية طوق لها من ورقٍ، فتلقّاها رجل فاقتطعه من عنقها، قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكّة ودخل المسجد آتاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **«هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه»**، قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدرَه، ثم قال له: **«أسْلِمْ»** فأسلَمَ ودخل به أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ ورأسه كأنه ثَغَامَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: **«غَيّرُوا هذا من شَعْرِهِ»**، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته، فقال: أنْشُدُ بالله وبالإسلام طوق أختي فلم يجبه أحدٌ، فقال: يا أُخَيَّةُ احتسبي طوقك.

رواه أحمد وابن حبان (١٧٠٠) بالموارد، والحاكم (٤٦/٣، ٤٧)، والبيهقي في الدلائل (٩٥/٥، ٩٦) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه

الذهبي، وأورده الهيثمي (١٧٣/٦، ١٧٤) برواية أحمد والطبراني وقال: رجالهما ثقات.

قوله: «أُظْهِرِي» أي: إصْعَدِي بي على الجبل. «طَوْقٌ من ورِق» عقد من حلي يُعلّق في العنق. «ثغامة» بفتح الثاء هو شجر أبيض الزهر طيّب الرائحة.

[٤٧٧] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكّة وعلى رأسه المغفر، فلما وضعه عن رأسه، قيل: هذا ابن خَطَل متعلّق بأستار الكعبة، قال: **«اقْتُلُوه»**.

رواه البخاري في الجهاد وفي المغازي (٧٦/٩) وفي اللباس، ومسلم في الحجّ (١٣١/٩) كالبخاري أيضاً، والترمذي في الجهاد (١٥٥٢) وباقي الجماعة.

«المغفر» بكسر الميم وسكون الغين ثم فاء مفتوحة وراء، هو غطاء من حديد للرأس كان يُلبس قديماً.

[٤٧٨] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم فتح مكّة أمَّنَ رسول الله ﷺ الناس إلا أربعةَ نَفَرٍ وامْرأتين، وقال: **«اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خَطَل، ومَقِيس بن صُبابَةَ، وعبدالله بن أبي سَرْحٍ»**، فأمّا عبدالله بن خطل فأُدْرِك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر فَسَبَقَ سَعِيدٌ عمّاراً وكان أشبَّ الرجلين فقتَلَهُ، وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصِفٌ فقال أصحاب السفينة: أخْلِصُوا فإن آلهتكم لا تُغْنِي شيئاً هُهنا، فقال عكرمة: والله لئن لم يُنَجِّنِي من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البرّ غيره: اللّهمّ إن لكَ عليَّ عَهْداً، إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجِدَنّه عَفُوّاً كريماً، فجاء فأسلم، وأما عبدالله بن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسولُ الله ﷺ إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبيّ ﷺ، قال: يا

رسول الله بايع عبدالله، قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «**أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيَقتُلَه؟**» فقالوا: وما يُدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلاَّ أوْمَأْتَ إلينا بعينك؟ قال: «**إنه لا ينبغي لنبيّ أن يكون له خائِنةُ أعْيُنٍ**».

رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٨٣) وفي الحدود (٤٣٥٩)، والنسائي في تحريم الدم (٩٧/٧، ٩٨)، وأبو يعلى (٧٥٧)، والطحاوي في المعاني (٣٣٠/٣)، والحاكم (٤٥/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأورده النور في المجمع مطوّلاً (١٦٨/٦، ١٦٩) برواية أبي يعلى والبزار قال: ورجالهما ثقات.

[٤٧٩] وعن أمّ هانئ رضي الله تعالى عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدْتُه يغتسل وفاطمة ابنتُه تسترُه، قالت: فسلَّمتُ عليه فقال: «**من هذه؟**» فقُلْتُ: أنا أُمُ هانئ بنتُ أبي طالب، فقال: «**مرحباً بأمّ هانئ**»، فلمّا فرغ من غسله قام فصلّى ثمانِي رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفاً في ثوبٍ واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابنُ أُمي عليٌّ أنه قاتِلٌ رجلاً قد أجَرْتُه فلان بن هُبَيْرة، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجَرْنَا مَنْ أجَرْتِ يا أمّ هانئ**»، قالت أم هانئ: وذاك ضحى.

رواه البخاري في الصلاة رقم (٣٥٧) وفي الجزية والموادعة (٣١٧١) وغيرهما، ومسلم في الصلاة (٢٢٩/٥، ٢٣١، ٢٣٣)، وأبو داود في أمان المرأة من الجهاد (٣٧٦٣)، والترمذي في السِّيَر (١٤٥٠) بتهذيبي، وابن ماجه في الطهارة (٤٦٥) وغيرهم.

* * *

مبايعة النبيّ ﷺ الناس يوم الفتح

[٤٨٠] عن مُجَاشِعِ بن مَسْعود رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ النبيّ ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله جئتك بأخي لتبايِعَه على

الهجرة، قال: **«ذَهَبَ أهلُ الهجرة بما فيها»، فقلت**: على أيِّ شيء تبايعه؟ قال: **«أبايِعُه على الإسلام، والإيمان، والجهاد»**.

رواه أحمد (٤٦٨/٣)، والبخاري في المغازي (٨٦/٩)، ومسلم في الإمارة (٧/١٣) وقد تقدم في الإيمان.

[٤٨١] وعن الأسود بن خلف رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبيّ ﷺ يبايع الناس يوم الفتح، قال: فجلس عند قرب دار سمرة، قال الأسود: فرأيت النبيّ ﷺ جلس فجاءه الناس؛ الصغار والكبار والنساء فبايعوه على الإسلام والشهادة، فقلت: فما الإسلام؟ قال: الإيمان بالله، فقلت: وما الشهادة؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

رواه أحمد (٤١٥/٣ ج ١٦٨/٤)، والحاكم (٢٩٦/٣) وسنده حسن أو صحيح.

* * *

❋ لا تُغزى مكة بعد فتحها، ولا يُقتل قرشي صبراً بعد ذلك

[٤٨٢] عن الحارث بن مالك اللّيثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكّة: **«لا تُغزَى هذه بعد هذا اليوم أبداً إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٤١٢/٣) (ج ٣٤٣/٤)، والترمذي في السير (١٤٧٦)، وابن حبان والحاكم (٦٢٧/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

[٤٨٣] وعن مُطِيع بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكّة: **«لا يُقْتَلُ قُرشيّ صَبْراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٤١٢/٣)، ومسلم في الجهاد (١٣٤/١٢).

قوله: «صَبْراً» أي: يقتل حبساً.

* * *

❁ مدة إقامته ﷺ بمكّة بعد الفتح

[٤٨٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقام النبيّ ﷺ بمكّة تِسْعَةَ عَشَرَ يوماً يُصَلّي رَكْعَتَيْنِ.

رواه أحمد (٢٢٣/١)، والبخاري في المغازي (٨٢/٩)، وأبو داود (١٢٣٠)، والترمذي في قصر الصلاة (٤٩٤)، وابن ماجه (١٠٧٥).

❁ ❁ ❁

❁ خلاصة ما جاء في أحاديث الفتح وما فيها من فوائد

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى في الهدي النبوي: الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به دينه، ورسوله، وجُنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضُرِبَتْ أطْنابُ عزّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجهُ الأرض ضياءً وابتهاجاً...

أقول: لما بلغ النبيّ ﷺ معاونةُ قريش حلفاءَهم بني بكر على حلفاء النبيّ ﷺ خُزاعة جعل ذلك نكثاً للعهد ونقضاً لما صالحهم عليه، فاستحقّوا لذلك القتال، فأمر أصحابه بالجهاز للسفر وأخفى وجهته وعمّى ذلك على العيون والأعداء، فجمع الجموع والجيوش من المهاجرين والأنصار وممن أسلم من القبائل العربية؛ كغفار وبني سُليم وجُهَيْنة... وأمّرَ على المدينة أبا رُهْم كُلْثوم بن حُصَيْن الغِفارِيّ وخرج سنة ثمان لعشر مضين من رمضان في عشرة آلاف مقاتل، ولم يتخلّف عنه أحد من المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم، فساروا وهم صيام ولا يعلم كفار قريش عنهم شيئاً حتى وصلوا الكَدِيد، فأفطر رسول الله ﷺ وأفطر أصحابه.

[**٤٨٥**] وجاء في رواية لم تتقدم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أنّه قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: **«إنكم قد دَنَوْتُم مِن عَدُوِّكم والفِطْر أقْوَى لكم»**، فكانت رخصة؛ منّا مَنْ صام ومنّا مَن أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال: **«إنكم مُصَبِّحُوا عَدُوِّكُم والفِطْر أقْوَى لكم فأفْطِرُوا»**، فكانت عزمة فأفطرنا. . .

رواه أحمد (٣/٣٥)، والبيهقي في السنن (٤/٢٤٢)، وعزاه لمسلم وهو عنده مختصر.

وعندما نزل ﷺ بمرّ الظهران أوقدوا النيران، وكان أبو سفيان قد خرج هو ورجلان يتجسّسون الأخبار فأُسِر أبو سفيان، وأُتِيَ به النبيُّ ﷺ فأسلم وأمر النبيّ ﷺ عمّه العباس أن يحبسه في موضع لتعرض عليه جيوش المسلمين، فجعلت تمرّ عليه الكتائب كَتِيبَةً كَتِيبَةً، فلما مرّت عليه كتيبة النبيّ ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، فسبق الجيوش إلى مكة يُنْذر أهلها بمجيء النبيّ ﷺ ومن معه من الجيوش العرمرة الجرّارة، وقال لهم: يا معشر قريش هذا محمد قد أتاكم بما لا قِبَلَ لكم به، وكان النبيّ ﷺ قد أمّنه وأمّن كل من دخل داره، وكلِ من ألقى السلاح أو دخل بيته، ولما وصل النبيّ ﷺ إلى أطراف مكّة قسم الجيش، فأرسل بعضه ليدخل من أسفل مكّة وكان فيهم خالد بن الوليد، ودخل ﷺ من كداء ـ بفتح الكاف والمدّ ـ من أعلى مكّة في جماعة، وركز رايته بالحجون قرب المعلاة مقبرة أهل مكّة وأمر أصحابه بقتال كل من تعرّض لهم، وقال لهم: **«اللقاء عند الصفا»**، فانتشروا ووقع قتال في طريق خالد بأسفل مكّة، ودخل النبيّ ﷺ وسار حتى جاء البيت فحطّم ما كان عنده من نُصُب وكانت ستّين وثلاثمائة، فجعل يطعنُها ويتلو قوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾، ثم طاف بالبيت وأمر بالصور التي كانت داخل الكعبة فأزيلت ثم دخلها وصلّى فيها ما شاء الله، ثم خرج وأتى الصفا حتى نظر إلى البيت، فجعل يحمد الله تعالى ويدعوه، وأمر بقتل

أشخاص من الناس كان منهم من يهجو النبيّ ﷺ، ومنهم من كان أسلم فارتدّ فقُتِل من قُتِل منهم، وأسْلم من أسلم كابن أبي سَرْح، وعكرمة بن أبي جهل، ودخل النبيّ ﷺ دار أمّ هانيء أو غيرها، فاغتسل وفاطمة تستره، ثم صلّى ثمان ركعات وكان وقت الضحى شكراً لله تعالى على هذا الفتح العظيم.

وخطب ﷺ الناس ثاني يوم الفتح عند الكعبة خطبة بليغة ذكر فيها كثيراً من شرائع الدين وأحكامه، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وقال: **«لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»**، ذكر حُرمة مكة، وأن الله أحلّ له منها ساعة من نهار، وقال: إن أعتى الناس على الله عزّ وجلّ ثلاثةٌ: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل في الجاهلية، وقال: **«يا أيها الناس إنه ما كان من حِلْفٍ في الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدّة، ولا حِلْف في الإسلام ولا هجرة بعد الفتح، والمسلمون يدٌ على مَنْ سواهم، تتكافؤ دماؤهم، يُجِيرُ عليهم أدناهم ويَرُدُّ عليهم أقصاهم، لا يُقتل مؤمنٌ بكافر، وديةُ الكافر نصفُ دية المسلم»**، وقال: **«إن كل مأثرةٍ كانت في الجاهلية ودم ومالٍ تحت قدمَيَّ هاتين إلا ما كان من سِقاية الحجّ وسَدانة البيت، فإنّي أُمْضِيها لأهلها على ما كانت»**، وقال: **«إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقي أو فاجر شقيّ»**، وقال: **«كلُّكم من آدم وآدم من تراب»** إلى غير ذلك مما قاله في ذلك اليوم العظيم.

وبايع الناس يومه رجالهم ونساءهم وأطفالهم على أصول الدين وقواعده وشرائعه، وجمع قريشاً وقال لهم: **«ما تظنّون أني فاعل بكم؟»** قالوا: خيراً أخٌ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**، فلما عفا عنهم أسلم جميعهم، وكان ممن أسلم في هذا اليوم أبو قحافة والد أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنهما، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما.

وبعد هذا اليوم أقام بمكّة المكرّمة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويتمّ

من خلفه من أهل مكّة، وكان نازلاً بالأبطح بأعلى مكّة، بخيف بني كِنانة حيث تقاسم الكفار على مقاطعته ﷺ وتعاهدوا على الكفر.

* * *

من فوائد أحاديث الفتح

في قصة حاطب مع الظعينة معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بما فعل حاطب وبالمرأة الحاملة رسالته لقريش، وفيها فضل أهل بدر، وأن من سبقت له من الله العناية لا تضرّه الجناية، وفيها جواز تفتيش المرأة المتّهمة ولو بالاطّلاع على زينتها وعورتها الداخلية، وفيها ما كان عليه العرب من احترام المرأة وعدم التعرّض لها... وفي قصة إسلام أبي سفيان ابن عمّ النبيّ ﷺ وأبي سفيان بن حرب ظهور عفوه وصفحه ﷺ عن ألدّ أعدائه وحلمه معهم، وهم الذين كانوا بالأمس يؤذونه ويحاربونه ويهاجمونه في عقر داره ويؤلّبون عليه الجموع والجيوش وفيما فعل النبيّ ﷺ بإيقاف أبي سفيان لعرض جيوش المسلمين عليه إرهاب له وتعريفه بكثرة ما جاء به ﷺ من الكتائب، ولذلك لما شاهد تلك الجيوش أرعب وقال مفصحاً: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، وذهب مُسْرعاً يُنذر قومه.

وفيما ذكرناه أن النبيّ ﷺ دخل مكّة في رمضان، وكان ذلك يوم الجمعة في عشرين خلت منه على المشهور، وأنه دخلها مُحِلاً غير محرم على رأسه المغفر، ولما وضعه كانت على رأسه عمامة سوداء كما في الصحيح ويأتي في الشمائل، وفيها: أنه دخلها من أعلاها فسلك طريق الحجون ثم المعلاة ثم نزل حتى أتى البيت ولم يَلْق حرباً في طريقه، وفيها: أن الجيوش فرقها ﷺ وأمرهم أن يقاتلوا من تعرّض لهم، وفيها: أنه ﷺ فتح مكّة عنوةً لا صلحاً، وهو قول جمهور العلماء والأئمّة، ويدلّ لذلك قوله لأم هانيء: **«قد أجرنا مَن أجرتِ»**، وقوله: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...، ومن ألقى السلاح فهو آمن»**، فلو كانوا كلهم آمنين لم يحتج إلى هذا، ولو كان صلحاً لما وقع قتال ولما قال ﷺ: **«أحْصُدُوهم**

حَصْداً»، وفيها: تطهير الكعبة من النصب التي كانت منصوبة عليها ومن صور الأنبياء داخلها، وفيها: اجتناب مواضع الصور وأنه لا يدخل إليها، وخاصة لمن يريد الصلاة، وفيها: مشروعية قتل المرتدّ ومن يسبّ النبيّ ﷺ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين، فإن ابن خطل كان يهجو النبيّ ﷺ مع مغنيته، وابن أبي سرح كان أسلم ثم ارتدّ، وتكلّم في النبيّ ﷺ وهكذا غيرهم، وفيها جواز الصلاة داخل الكعبة ولا خلاف فيها بالنسبة للنافلة، واختلف في صلاة الفريضة داخلها أو في الحجر، فمنعها الجمهور وأجازها البعض، وهو مقتضى القياس، وفيها غير ذلك من الفوائد والأحكام الواضحة.

وفي هذه الغزوة حرّم النبيّ ﷺ زواج المتعة تحريماً أبديّاً كما قدّمنا في النكاح.

* * *

* بَعثُ النبيّ ﷺ خالداً إلى بني جَذِيمَة

[٤٨٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: بعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمَة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منّا أسيره حتى إذا كان يوم، أمر خالد أن يقتل كل رجل منّا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قَدِمنا على النبيّ ﷺ، فذكرناه فرفع النبيّ ﷺ يديه فقال: «**اللّهمّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» مرّتين.

رواه أحمد (١٥١/٢)، والبخاري في المغازي (١١٨/٩، ١١٩)، والنسائي في القضاء (٢٠٨/٨، ٢٠٩) وغيرهم.

«جَذِيمَة» بفتح الجيم وكسر الذال من بني عامر كانوا بأسفل مكّة من ناحية يَلَمْلَم، وهذا البعث كان في شوّال عقب فتح مكّة قبل الخروج إلى

حنين، فأتاهم خالد في ثلاثمائة نفر وفيهم عبدُالله بن عمر، فلما رأوْهم قالوا لهم: صَبَأنا صَبأنا ـ يعنون أسلمنا ـ فلم يُحْسِنُوا التَّعْبِير فأمر خالد أصحابَه بأسْرهم وتوثيقهم، ودفع لكل رجل واحداً منهم ثم سار مسافة، فأمر كل رجل بقتل أسيره، فامتنع ابن عمر ومنع أصحابه من ذلك وقتل خالد بعضهم، فلما أُخبر النبيّ ﷺ بذلك تبرّأ مما صنع خالد لأنه قتل ناساً قد أسلموا، وكان ذلك خطأً منه.

* * *

* غزوة حُنَيْن

مشاهدُ من الغزوة وانهزامُ بعضِ الصَّحابةِ ثُمَّ وُقُوع النَّصْرِ

[٤٨٧] عن العباس رضي الله تعالى عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلَزِمْتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاء أهداها له فَرْوَةُ بن نُفاثَة الجُذامِي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بغلَتَه قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخِذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادةَ أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخِذٌ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أي عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة»**، فقال العباس: وكان رجلاً صَيِّتاً، فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة، قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطفةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لَبَّيْك، يا لَبّيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوةُ في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا حينُ حَمِي الوَطِيسُ»**، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار، ثم قال: **«انهزموا وربِّ محمد»**، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته

فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدَّهم كَلِيلاً وأمْرَهُمْ مُدْبِراً. . .

رواه مسلم في الجهاد (١١٣/١٢، ١١٧)، والنسائي في الكبرى (١٩٥/٥).

«أصحاب السَّمرة» هم أهل بيعة الرضوان. «حَمِي الوَطِيسُ» الوطيس هو التَّنور ويعبّرون بذلك عن اشتداد القتال. «حدُّهم» بفتح الحاء وفتح الدال المشدّدة أي: قوّته ضعيفة.

[٤٨٨] وعن أبي إسحاق السَّبِيعِي رحمه الله تعالى قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتُم ولَّيتُم يوم حنين يا أبا عُمارة، فقال: أشهد على نبيّ الله ﷺ ما ولّى، ولكنه انطلق أخِفَّاءُ من الناس وحُسَّرٌ إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرموا برَشْقٍ من نبل كأنها رجل من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث يقود بغلته، فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول:

«أنــا الــنَّــبِــيُّ لا كَــذِبْ أنـا ابـنُ عَـبْـد الـمُـطَّـلِـبْ»

«اللّهمّ نصرك». قال البراء: كنّا والله إذا احمرّ البَأْس نتّقي به، وأن الشجاع منّا للذي يُحاذِي به - يعني النبيّ ﷺ -.

رواه مسلم في الجهاد أيضاً (١١٧/١٢، ١١٨، ١٢٠، ١٢١).

وفي رواية: وأنّا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبَبْنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام.

«أخِفَّاءُ» جمع خِفّ أي: ليس معهم سلاح يثقلهم. «والحسر» بضم الحاء وفتح السين المشدّدة جمع حاسّر وهو الذي لا درع له. «والرشق» الرّمي. «رجل من جراد» أي: جماعة منها.

[٤٨٩] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: لما غشّوا رسول الله ﷺ يوم حُنين نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب من

الأرض ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوّا مدبرين.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١٢١، ١٢٢) مطوّلاً.

«حُنَيْن» موضع بين مكّة والطائف وراء عرفات كانت به هذه الوقعة، وكان ذلك في أوائل شوّال بعد فتح مكة المكرمة، وسبب ذلك أنه لما فتح النبيّ ﷺ مكة المكرمة وأسلم منهم مَنْ أسلم سمعت بذلك هوازن، فاجتمعوا وأجمعوا على محاربة النبيّ ﷺ وكان رئيسهم مالك بن عوف النضري، فجمع القبائل من هوازن ومَن وافقه من ثقيف، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف ممن جاء معه من المدينة ثم من أسلم من أهل مكّة، ولمّا وصل إلى حُنَيْن وجد مالك بن عوف قد خرج ومَنْ معه بكل ما يملكون من إبل وشِياه ونساء وأطفال، ثم التحم القتال فوقع ما وقع من الهزيمة.

[٤٩٠] قال أنس رضي الله تعالى عنه: افتتحنا مكّة ثم إننا غزونا حنيناً فجَلَّى المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصُفَّت الخيل، ثم صُفَّت المُقاتلةُ، ثم صُفَّت النساءُ من وراء ذلك، ثم صُفَّت الغنمُ، ثم صُفَّت النَّعَمُ... وفي رواية: أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بذراريهم ونَعمهم ومع النبيّ ﷺ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي وحده...

رواه مسلم في الزكاة في إعطاء المؤلّفة قلوبهم (٧/١٥٣، ١٥٤).

[٤٩١] وفي حديث لابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ يوم حُنين، قال: فولّى الناس وثَبَت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فنكصنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولّهم الدُّبر...

رواه أحمد (١/٤٥٤)، والحاكم (٢/١١٧) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، فهو يدلّ على أنه بقي مع النبيّ عليه الصلاة والسلام ثمانون رجلاً.

وفي حديث البراء أن هوازن انكشفوا في البداية، فلما اشتغل الصحابة بالغنائم استقبلوهم بالسّهام، فانهزموا وولّوا مدبرين، ولم يَبْق مع النبيّ ﷺ إلا القليل، ثم أمر العباس أن ينادي بالأنصار، فنادى فاجتمعوا واجتمع باقي الجيش ونزل النبيّ ﷺ عن بغلته وأخذ حصيات فرمى بها القوم، وقال: **«شاهت الوجوه»**، فلم يبقَ أحد من جيش المشركين إلا أُصيب من تلك الحصيات، وقال ﷺ: **«انهزموا وربّ محمد»**، فضَعُفَتْ قُوَّتُهم وانهزموا وولّوا مدبرين.

* * *

❋ بشارة النبيّ ﷺ أصحابه بغنائم هوازن

[٤٩٢] عن سَهْلِ بن الحَنْظَلِيّة رضي الله تعالى عنه قال: إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين فأطنبوا السير حتى كانت عشيةً، فحضرتُ الصلاةَ عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلٌ فارسٌ، فقال: يا رسول الله إنّي انطلقتُ بين أيديكم حتى طلعتُ على جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بِكْرَة أبيهم بظُعُنِهم، ونَعَمهم، وشاتهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: **«تِلك غَنِيمَةُ المسلمين غداً إن شاء الله تعالى»**...

قوله: «فأطْنَبُوا السير» أي: بالغوا وأسرعوا. قوله: «بكرة أبيهم» بكسر الباء وسكون الكاف أي: جميعهم ولم يتخلّف منهم أحد.

فهذه كانت بشارة من النبيّ ﷺ بانهزام المشركين وانتصار المسلمين وأخذهم غنائمهم، فكان الأمر كذلك، لقد صدق الله وَعْد رسوله ﷺ، فبعد أن انهزم المشركون تركوا وراءهم كل ما جاءوا به من مال وأهل، فأمر النبيّ ﷺ بجمع ذلك السّبي والغنائم، وكانت كما قال أهل المغازي أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية من الفضّة، والشيء الكثير من النساء والأطفال فأخذ الجميع وأنزله بالجعرّانة.

وكان المشركون بعد انهزامهم تفرّقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس.

* * *

غزوة أوطاس

[٤٩٣] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: لمّا فرغ النبيّ ﷺ من حُنين بعث أبا عامر - يعني الأشعري على جيش إلى أوطاس، فلقي دُرَيْد بن الصِّمَّة، فقُتِل دُريد وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر فرُمي أبو عامر في ركبته؛ رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته، وانتهيت إليه، فقلت: يا عمّ، من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدتُ له فلحقتُه، فلما رآني ولّى، فاتّبعتُه وجعلت أقول له: ألاَ تَسْتَحِي؟ ألا تثبُت؟ فكفَّ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتُه، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبَك، قال: فانزع هذا السّهم، فنزعته فنَزَى منه الماءُ فقال: يا ابن أخي أقرىء النبيّ ﷺ السلام، وقل له: يستغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبيّ ﷺ في بيته على سرير مُرَمَّلٍ وعليه فراش قد أثَّر رمال السرير بظهره وجَنْبَيْه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقلت له: قال لي: قل له يستغفر لي، فدعا بماء فتوضّأ ثم رفع يديه، وقال: **«اللّهمّ اغفر لعُبَيْدٍ أبي عامر»**، حتى رأيتُ بياض إبطيه، ثم قال: **«اللّهمّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس»**، فقلت: ولي فاستغفر، فقال: **«اللّهمّ اغفر لعبدالله بن قيس ذنبَه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»**، قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى.

رواه البخاري في المغازي (١٠٣/٩، ١٠٤) وفي الجهاد، ومسلم في الفضائل (٥٩/١٦، ٦٠).

«أوطاس» قال العلماء: هو وادٍ في ديار هوازن وبه كانوا عسكروا هم وثقيف، ثم التقوا بحُنين، ولما انهزموا ذهبت طائفة منهم إلى هذا الوادي

الثانية، فانصرف ﷺ بالمسلمين فسألوه أن يدعو على ثقيف من أهل الطائف، فقال كما في الحديث التالي:

[٤٩٩] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله أحرقَتْنا نبالُ ثَقِيف فادْعُ الله عليهم، فقال: «**اللّهمّ اهْدِ ثَقيفاً**».

رواه أحمد (٣/٣٤٣)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٥) وحسَّنه وصححه. فاستجاب الله دعاءه فبعد انصرافه ﷺ وذهابه إلى المدينة أسلموا وبعثوا وفداً لهم إليه كما يأتي في مبحث الوفود، ولما كان محاصراً للطائف نزل إليه جماعة من الرقيق فأسلموا وأعتقهم ولم يردَّهم إلى ساداتهم بعد إتيانهم مسلمين، وكان منهم أبو بكرة كما في حديث البخاري المتقدم.

[٥٠٠] فعن رجل من ثقيف أن رسول الله ﷺ كان يطلق من يأتيه من العبيد، قال: فسألنا رسول الله ﷺ أن يردّ علينا أبا بكرة وكان عبداً لنا أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر ثقيف فأسلم فأبى أن يردّه علينا، فقال: «**هو طليق الله ثم طليق رسوله ﷺ**».

رواه أحمد (٤/١٦٨) بسند صحيح.

* * *

تقسيم غنائم حُنين وإعطاء المؤلّفة قلوبهم ومقولة الأنصار في ذلك وقول النبيّ ﷺ لهم

[٥٠١] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال وهو يتحدّث عن غزوة حُنين: فانهزم المشركون وأصاب يومئذ غنائم كثيرة، فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدةٌ فنحن نُدعَى ويُعْطَى الغنيمة غيرُنا، فبلغه ذلك فجمعهم في قُبَّةٍ، فقال: «**يا معشر الأنصار ما حديثٌ بَلَغَنِي عنكم؟**» فسكتوا، فقال: «**يا معشر الأنصار، ألا ترضون أن يَذهبَ الناسُ بالدنيا، وتَذْهَبُون برسول الله ﷺ تَحوزُونَه إلى**

بُيوتِكم»؟ قالوا: بلى، فقال النبيّ ﷺ: «**لو سَلَكَ الناس وادِياً وسلكتْ الأنصارُ شِعْباً لأخذتُ شِعَبَ الأنصارِ**».

رواه البخاري في المغازي (٩/١١٥، ١١٦، ١١٧)، ومسلم في الزكاة (٧/١٥٠، ١٥٣).

[٥٠٢] وعن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله تعالى عنه قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قَسَمَ في الناس في المؤلّفة قلوبُهم، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً، فكأنّهم وجدوا إذ لم يُصِبْهُم ما أصاب الناس فخطبهم، فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي، وكنتم عالةً فأغناكم الله بي**»؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنُّ، ثمّ قال: «**ألاَ ترضون أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير، وتَذهبون بالنبيّ ﷺ إلى رِحالِكُم، لولا الهجرة لكنتُ امْرءاً من الأنصار، ولو سلك الناسُ وادياً وشِعْباً لسلكتُ وادِيَ الأنصار وشِعْبَها، الأنصارُ شِعارٌ، والناس دِثارٌ، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**».

رواه البخاري في المغازي (٩/١٠٩، ١١٤) وفي المناقب، ومسلم في الزكاة (٧/١٥٧)، وابن ماجه (١٦٤).

[٥٠٣] وعن رافع بن خَدِيج رضي الله تعالى عنه قال: أَعْطَى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حربٍ، وصَفْوانَ بن أُمَيَّة، وعُيَيْنَة بن حِصْنٍ، والأقرعَ بن حابِسٍ، كل إنسانٍ منهم مائةً من الإبل، وأعطى عباسَ بن مِرْداسٍ دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـ ... ـدِ بين عُيَيْنَةَ والأقرعِ
فما كان بَدْرٌ ولا حَابِسٌ ... يَفُوقانِ مِرداسَ في المَجْمَعِ
وما كنتُ دون امْرِىءٍ مِنْهُمَا ... ومَن تَخْفِضِ اليومَ لا يُرْفَعِ

قال: فأتمّ له رسول الله ﷺ مائةً.

رواه مسلم في الزكاة (٧/١٥٥، ١٥٦).

[٥٠٤] وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم حُنَيْن آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عُيَيْنة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمةٌ ما عُدِلَ فيها، وما أُرِيدَ فيها وجهُ الله، قال: فقلت: والله لأُخْبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: فأتيتُه فأخبرته بما قال، فتغيّر وجهُهُ حتى كان كالصِّرفِ، ثم قال: **«فمن يَعْدِل إن لم يعدل الله ورسولُه ﷺ»**، ثم قال: **«يَرْحَمُ الله موسى قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبر»**، قال: قلت: لا جَرَمَ ولا أرفع إليه بعدها حديثاً.

رواه البخاري (٦٣/٧) في فرض الخُمُس وفي المغازي (١١٦/٩، ١١٧)، ومسلم في الزكاة (١٥٧/٧، ١٥٨).

«الطُّلقاء» هم الذين منَّ عليهم النبيّ ﷺ وأطلقهم يوم الفتح، فأسلموا. «المؤلّفة قلوبهم» هم الذين كانوا حديثي عهدهم بالإسلام. «الأنصار شعار والناس دثار» الشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدِّثار الذي يكون فوقه، ومعناه: أن الأنصار هم البطانة والخاصة والأصفياء... وستأتي لهذا بقيّة في الفضائل.

وفي هذه الأحاديث مشروعيّة إعطاء المؤلّفة قلوبهم من الفَيْء والغنيمة وإيثارهم على غيرهم، وذلك لتحبيبهم في الإسلام وتعريفهم بأن الإسلام دين المواساة والرحمة والصفح والعفو، وفيها أنه يقدم في ذلك أشرافهم ورؤساؤهم، فإن أبا سفيان كان من كبار أشراف أهل مكّة، وكذا صفوان بن أميّة والأقرع وعيينة وعباس بن مرداس كانوا من رؤساء القبائل العربية وأشرافها، فأراد ﷺ بما أعطاهم استمالة قلوبهم وقلوب ذويهم للإسلام وتحبيبهم في الله ورسوله ﷺ، ولذلك لما عتب الأنصار على ما صنع قال لهم: **«إن قريشاً حديثُ عهدٍ بجاهلية ومُصِيبة، وإني أردت أن أَجْبُرَهُم وأتألّفَهُم»**.

رواه مسلم عن أنسٍ في الزكاة (١٥٢/٧)، فكان ما فعله مع أولئك المؤلّفة قلوبهم الطلقاء من جملة حِكَمِهِ ﷺ وسِياسَتِهِ الشرعيّة.

أمّا ما قاله ذلك الرجل في شأن قسمة النبيّ ﷺ وعدم مؤاخذته بما قال فيه، ونسبته إلى الظلم والجور، فقد تقدم حكمه في الكلام على الخوارج، ويأتي شيء من هذا لاحقاً.

***

❁ مجيء هوازن مسلمين وردّ السَّبي عليهم

[٥٠٥] عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفدُ هوازن مُسْلِمِين، فسألوه أن يَرُدَّ إليهم أموالَهم وسَبْيَهُم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«معي من ترون، وأَحَبُّ الحديث إليَّ أَصْدَقُهُ، فاختاروا إحْدَى الطائفتين: إما السَّبي، وإما المال، وقد كنت اسْتَأْنَيْتُ بكم»**، وكان أَنْظَرَهُم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبيَّن لهم أن رسول الله ﷺ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: **«أما بعد، فإن إخْوَانَكُم قد جاءُونا تَائِبِينَ، وإني قد رأيت أن أرُدَّ إليهم سَبْيَهُم، فمن أَحَبَّ منكم أن يُطَيِّب ذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكونَ على حَظِّه حتى نُعْطِيَه إياه من أوّل ما يُفِيءُ الله علينا فليفعل»**، فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«إنّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ في ذلك مِمَّن لَمْ يَأْذَنْ، فارجعوا حتى يَرفَعَ إلينا عُرفاؤُكم أمْرَكم»**، فرجع الناس فكلَّمَهُم عُرفاؤُهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبُوا وأذِنُوا.

رواه البخاري في المغازي (٩/٩٤، ٩٥) وفي الوكالة وفي مواضع.

«عرفاؤكم» جمع عريف بفتح العين وكسر الراء المخفّفة هو الذي يتعرّف شؤون القوم. وقوله: «اسْتَأْنَيْتُ» أي استنظرت وأخّرت قسم السبي لِتَحْضُرُوا فأبْطَأْتُم.

لما فرغ النبيّ ﷺ من غزوة حُنين أخذ الغنائم وذهب إلى الجعرّانة

ولم يقسمها، فبعث أبا عامر إلى أوطاس ثم خرج في جيشه إلى الطائف وحاصرها أربعين يوماً ثم قفل، فرجع إلى الجعرانة وتأخّر مدة ثم قسم الغنائم، ثم بعد ذلك جاءه وفد هوازن مسلمين تائبين يطلبون منه ﷺ ردّ سبيهم وما أخذه منهم، وكان في هذا الوفد تسعة نفر من أشرافهم فأسلموا وبايعوا ثم كلّموه، فقالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمّهات، والأخوات، والعمّات، والخالات، وهنّ مخازي الأقوام، فقال ﷺ: **«سأطلب لكم وقد وقعت المقاسم، فأي الأمرين أحبّ إليكم السبي أم المال؟»**، فاختاروا الأهل والأولاد، فمنّ عليهم النبيّ ﷺ بما كان عنده... وخيّر أصحابه بين تنازلهم عمّا عندهم وبين أن يكونوا على نصيبهم حتى يكافئهم مما يفيء الله عليه، فلبّى كُلّ المسلمين ما دعاهم إليه ﷺ إلا بعض جفاة الأعرابِ فامتنعوا من ردّ ما عندهم. وقول أولئك النفر: إن فيما أصبتم الأمّهات والأخوات: يعنون بذلك ما سباه من بني سعد، وقد كان مسترضعاً عند حليمة السعدية وهم أهل قبيلتها، ويقال: إنه كان في السبي أخوه وأخته من الرضاعة، ولا يصح في ذلك شيء وإن ذكره أهل المغازي والسِّيَر.

* * *

فوائد غزوة حنين وما يتبعها وما في ذلك من عِبَر وحكم ودروس

أولاً: كان النبيّ ﷺ استعار من صفوان بن أُميّة وهو على شِرْكِهِ آلاتٍ من الآلات الحربية كما في الحديث التالي:

[٥٠٦] فعنه أن رسول الله ﷺ استعار منه أدراعاً يوم حُنين، فقال: أغَصْبٌ يا محمد؟ فقال: **«لا بل عارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»**.

رواه أحمد (٤٠١/٣ و٤٦٥/٦)، وأبو داود (٣٥٦٢)، والحاكم (٤٢/٢)، والبيهقي في السنن (٨٩/٦) وهو صحيح لغيره، وقد تقدّم في البيوع.

واستدلّ بهذا الحديث من أجاز الاستعانة بالكافر على الكافر، وفي ذلك خلاف بين الفقهاء، وقد جازاه النبيّ ﷺ جزاء وافياً بعد نصره بحُنين حتى أصبح أحبّ الناس إليه.

[٥٠٧] فعن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح فتح مكّة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحُنَين، فنصر الله دينه والمسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوانَ بن أُمية مائة من النَّعم، ثم مائة، ثم مائة، قال: والله لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما بَرِحَ يُعْطِيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ.

رواه أحمد (٤٦٥/٦)، ومسلم في الفضائل (٧٣/١٥)، والترمذي في الزكاة في المؤلّفة قلوبهم (٥٨٩).

قوله: «وإنه لأبغض الناس إليّ» لأن والده أُميّة بن خلف وولداً له كانا قُتِلا ببدر، فكان ذلك حاملاً له على بغضه ﷺ، لكن هذا البغض سرعان ما انقلب محبّة لإحسانه ﷺ ومعاملته الجميلة معه.

ثانياً: كان من أسباب هزيمة المسلمين بحُنين إعجابهم بكثرتهم وغفلتهم عن نصر الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

[٥٠٨] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا اجتمع يوم حنين أهلُ مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتُهم، فقال القوم: اليوم والله لا نُقاتَلُ حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا، ما أعجبهم من كثرتهم.

رواه الحاكم وصححه، فالإعجاب بالقوة والكثرة من أسباب الهزيمة، وهذا درس بليغ لكل الأجيال من المسلمين، وأنهم يجب عليهم أن يتعلقوا بالله عزّ وجلّ وأن يعتمدوا عليه في جميع أُمورهم ولا يعتمدوا على قوّتهم أو عدد جيوشهم مهما كانت، فإن النصر ليس في ذلك، وإنما هو من عند الله، فقد ينصر القليل على الكثير كما فعل بهم ببدر، وقد يهزم الكثير

بالقليل كما حصل بحُنين، فإن عددهم بهذه الغزوة لم يتقدم له مثيل قبلها، ومع ذلك انهزموا لإعجابهم واعتمادهم على قوّتهم.

ثالثاً: في ذلك شجاعة النبيّ ﷺ وصموده أمام جيوش المشركين وثباته وعدم تزعزعه عن مكانه، رغم أن أكثر المسلمين انهزموا وتفرّقوا ولم يبق معه ثابتاً إلا القليل من نحو ثمانين نفراً، وهو يقول: **«أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**.

رابعاً: معجزة له ﷺ، بل معجزتان: إيصال الحصى والتراب إلى أعين الكفار كافّة وانهزامهم بقوله: **«انهزموا ورب محمد»**، مع دعائه ﷺ بالنصر.

خامساً: معجزة له قبل المعركة بإخباره ﷺ بأن كل ما جاء به المشركون سيكون غداً غنيمة للمسلمين، فكان كما قال.

سادساً: كان الطُلقاء والأعراب الذين جاءوا معه ﷺ هم الذين انهزموا أولاً، وتبعهم غيرهم، ولذلك لما نادى العباس بأصحاب السمرة التفوا حوله بِسُرْعَةٍ وهم يُجيبون: يا لبيك يا لبيك، وفي هذا تنبيه للمسلمين في أن لا يصحبوا معهم في مهمة أو مشهد إلا من كان مؤمناً موثوقاً به، وإلا أفسد عليهم ما يريدون.

سابعاً: كان عقب تلك الهزيمة من المسلمين نصر الله لرسوله ﷺ ونزول السكينة عليه وعلى مَن حوله من المؤمنين، وأنزل جنوداً من عنده عزّ وجلّ تحمي رسوله وتدعمه، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الآية.

ثامناً: ثبت في هذه الغزوة أن أمّ سليم كان معها خنجر فشكاها زوجها إلى النبيّ ﷺ فدار بينهما ما في الحديث التالي:

[٥٠٩] فعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن أمّ سُلَيْم اتّخذت يوم حُنين خنجراً، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أمّ سليم

معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتّخذته إن دنا مني أحدٌ من المشركين بقَرْتُ به بطنَه، فجعل رسول الله ﷺ يَضحكُ، قالت: يا رسول الله أقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: «يا أمّ سُليم إن الله قد كفى وأحْسَن».

رواه أحمد (١٩٠/٣)، ومسلم في الجهاد (١٨٧/١٢ ، ١٨٨).

«خنجر» بكسر الخاء وفتحها وهو: سكين كبيرة ذات حدّين.

وفيه جواز الغزو بالنساء ولا خلاف في ذلك، فقد كان نساء النبيّ ﷺ ونساء الصحابة يخرجن مع الرجال، قالت أم سليم: فيسقين الماء ويداوين الجرحى، رواه مسلم وغيره. ولم يثبت في حديث ما أن امرأة قاتلت مع النبيّ ﷺ في صفّ الرجال ودخولها المعارك وما ورد في ذلك فباطل كما قدمنا في غزوة أُحد، ولذلك لما استأذنته عائشة في الجهاد قال لها: **«عليكن جهاد لا قتال فيه: الحجّ والعمرة»**.

أمّا اتّخاذ أم سليم للخنجر، فكان منها احتياطاً للدفع عن نفسها، وهذا لا خلاف في جوازه.

تاسعاً: في حديث بَعْثِ أبي عامرٍ إلى أوطاس، فضلُه وفضلُ ابن أخيه أبي موسى الأشعري، حيث إن النبيّ ﷺ دعا لهما بتينك الدعوتين العظيمتين، ودعاؤه ﷺ مستجاب.

عاشراً: لمّا لم يتمكن المسلمون من فتح الطائف وطالت المحاصرة ورأى النبيّ ﷺ المصلحة في الانصراف دعا معهم بالهداية فهداهم الله وجاءوه إلى المدينة مسلمين، كما يأتي.

حادي عشر: كان في تقسيمه ﷺ الغنائم وإيثاره أشراف الطلقاء ورؤساء العرب على غيرهم من المهاجرين والأنصار سياسة دينية؛ لأنه كان في ذلك مصلحة عظيمة رجعت على الإسلام بخير كبير، على أن المؤلّفة قلوبهم قد جعل الله عزّ وجلّ لهم حصّة خاصة تعطى لهم من الزكاة، فهم

من مصاريفها الثمانية المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

ثاني عشر: فضل الأنصار على غيرهم وعِظَمُ محبّةِ الرسول ﷺ لهم، وأنهم خواصُّه وشِعارُه، وأن الناس سيرجعون إلى ديارهم بالمال والشاه، وهم سيرجعون إلى ديارهم وبلادهم برسول الله ﷺ وحبيبه، وأنه سَيَبْقى معهم حتى يُدفنَ بين أظهرهم، وقد أزال عنهم تلك الوساوس التي خطرت لهم حتى فاه بها بعض أحداثهم، بالمَزِيَّة العُظمى التي نالوها بوجوده ﷺ عندهم، فنَدِموا على ما قالوا وفاضت دموعهم ورضوا بما قال لهم نبيّ الله ﷺ.

* * *

عمرته ﷺ مِن الجِعْرانة

[٥١٠] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَر كلّهنّ في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجّته: عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة، حيث قسم غنائم حُنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته.

رواه أحمد (٣/١٣٤، ٢٥٦)، والبخاري في الحجّ وفي المغازي (٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣)، وأبو داود (١٩٩٤) كلّهم في الحجّ، ورواه الترمذي عن ابن عباس.

[٥١١] وعن مُحَرِّشٍ الكعبي الخزاعي أن النبيّ ﷺ خرج ليلاً من الجعرانة حين أمسى معتمراً، فدخل مكّة ليلاً فقضى عمرته ثم خرج من تحت ليلته، فأصبح بالجعرانة كبائت حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن سرف حتى جاء الطريق طريق المدينة بسرف، قال: فلذلك خفيت عمرته على كثير من الناس. وفي رواية: فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضّة.

رواه أحمد (٤٢٦/٣، ٤٢٧)، وأبو داود (١٩٩٦)، والترمذي (٨٣٢)، والنسائي (١٥٧/٥) وسنده حسن.

«الجعرانة» بكسر الجيم والعين وفتح الراء المشدّدة وتسكن العين مع تخفيف الراء هو: موضع شرق شمال مكّة المكرمة بينه وبينها نحو من عشرين كيلو، نزلها النبيّ ﷺ بغنائم حنين وبها قسمها، ثم لما جاءه هوازن تائبين وردّ عليهم سبيهم أحرم هو وأصحابه بعمرة من هذا الموضع ونزلوا مكّة فقضوا عمرتهم، ثم رجع ﷺ إلى الجعرانة من ليلته وأصبح بها، فلما زالت الشمس خرج حتى نزل بسرف ثم اتّجه قافلاً إلى المدينة. وذكر علماء المغازي أنه ﷺ جعل عتاب بن أسيد عاملاً على مكّة وخلف بها معاذ بن جبل يعلّمهم شرائع الدين، وجعل على من أسلم من أهل الطائف مالك بن عوف النضري بعدما أسلم.

ملحوظة: تضافرت الأحاديث الصحاح بأن النبيّ ﷺ اعتمر من الجعرانة وقد خفي ذلك على ابن عمر ونافع مولاه وغيرهما فنفوا ذلك. قال ابن كثير: وقد أطبق النقلة ممن عداهما على رواية ذلك من أصحاب الصحاح والسنن كلهم.

* * *

❋ سرايا ذكرها علماء المغازي هاهنا في هذه السنة ليست لها أسانيد معتمدة

منها: سرية خالد بن الوليد بعثه النبيّ ﷺ إلى هدم العُزَّى وهو صنم كان بنخلة تعظّمه قريش وكنانة ومضر، فانتهى إليها خالد فهدمها، وكان هنالك بيت فخرجت منه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فعلاها بالسيف حتى قتلها، وكان ذلك في خمس بقين من رمضان من هذه السنة بعد الفتح.

ومنها: سرية عمرو بن العاص، بعثه النبيّ ﷺ إلى سواع وهو صنم

كان على ثلاثة أميال من مكّة، فذهب إليه فهدمه وكسره، وكان ذلك أيضاً آخر رمضان.

ومنها: سرية سعد بن زيد الأشهلي بعثه النبيّ ﷺ إلى تهديم مناة وهو صنم للأوس والخزرج كان بالمُشَلَّل، فخرج بعد الفتح في عشرين فارساً حتى انتهى إليها، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فضربها سعد بن زيد فقتلها وأقبل على الصنم ومعه أصحابه فهدموه.

أورد هذه السرايا كل من ابن إسحاق وابن سعد.

* * *

❊ خلاصة ما وقع في السنة الثامنة من أحداث

في هذه السنة من الأحداث: مكاتبته ﷺ للملوك، رسالته إلى هرقل، رسالته إلى كسرى، رسالته إلى المقوقس، إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، غزوة مؤته، غزوة ذات السلاسل، غزوة سيف البحر، الفتح الأكبر فتح مكة المكرمة، رسالة حاطب إلى أهل مكّة، كتمان الرسول وِجهته، خروجه من المدينة متوجّهاً إلى مكة، نزوله الكديد وإفطاره، نزوله بمرّ الظهران، إسلام أبي سفيان بن حرب، دخول النبيّ ﷺ مكة من كَداء بأعلاها، كيف رتّب الجيش عند دخوله مكة، الإذن من الله لرسوله بالقتال في مكّة ساعة من نهار، تحطيمه الأصنام ودخول الكعبة، إسلام أبي قُحافة والد أبي بكر، اغتساله عليه السلام وصلاته ثمان ركعات بعد الفتح، إهداره دماء جماعة من الكفار، مبايعته الناس على شرائع الدين، إخباره بأن مكّة لا تُغزى، مدة إقامته بمكّة بعد الفتح، بعث النبيّ ﷺ إلى بني جَذِيمة، غزوة حُنين، بشارة النبي بالنصر وأخذ الغنيمة، غزوة أوطاس، غزوة الطائف، تقسيم الغنائم، مجيء هوازن مسلمين تائبين، عمرته ﷺ من الجعرانة، سرايا ذكرها أهل المغازي ليست على شرطنا.

* * *

السنة التاسعة
جمع الصدقات

[٥١٢] عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللُّتْبِية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: **«ما بالُ عامِلٍ أبعَثُه فيقول: هذا لكم، وهذا أُهْدِيَ لي، أفَلاَ قعدَ في بيت أبيه أو بَيْتِ أُمّه حتى يَنْظُرَ أيُهْدَى إليه أم لا؟ والذي نفسُ محمد بيده، لا ينالُ أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يَحْمِلُه على عُنُقِهِ إن كان بعيراً له رُغاءٌ، أو بقرةً لها خُوارٌ، أو شاة تَيْعَرُ»**، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتَي إبْطَيْه ثم قال: **«اللَّهمّ هَلْ بَلَّغْتُ»** مرّتين.

رواه أحمد (٥/٤٢٣)، والحميدي (٨٤٠)، والبخاري في مواضع في الجمعة وفي الأيمان والنذور رقم (٦٦٣٦) وفي الحيل (٦٩٧٩) وفي الأحكام (٧١٧٤) باب هدايا العمال، ومسلم في الإمارة (١٢/٢١٨، ٢١٩)، وأبو داود في الخراج (٢٩٤٦) وغيرهم.

«اللُّتْبِية» بضم اللام المشدّدة وسكون التاء. و«الأزد» بفتح الهمزة؛ أزد شنوءة اليمنية. «تَيْعَرُ» بفتح التاء وسكون الياء ثم عين مكسورة ومفتوحة أي: شاة تصيح.

لما قدم النبيّ ﷺ المدينة بعد فراغه من الفتح وحُنين وأوطاس والطائف، وقَسْم الغنائم واعتماره ودخلت السنة التاسعة بعث رسول الله ﷺ رجالاً جباة يجمعون الزكوات من الأعراب الذين أسلموا، وكان ابن اللُّتبية من بينهم، فلما جاء بالصدقة وقد أهدي إليه شيء، بين ذلك للنبيّ ﷺ، فلم يقبل ذلك منه بل أنكر عليه وأخبر بأن من فعل مثل فعله جاء يوم القيامة حاملاً ذلك على عنقه، وفي هذا دليل على أن ما يأخذه الموظف مع الدولة من هدايا لأجل عمله يعدّ غلولاً أو رشوة، فلا يجوز له أخذ ذلك

وليضعه في حساب الدولة الإسلامية، وقد قدّمنا شيئاً من هذا سابقاً في الإمارة في باب هدايا العمال والموظفين.

***

إسلام عدي بن حاتم الطائي

[٥١٣] عن عَدِيِّ بْنِ حاتِم رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث الله عزّ وجلّ النبيّ ﷺ فَرَرْتُ منه حتّى كنت في أقْصَى أرْضِ المسلمين مما يَلِي الرُّومَ، قال: فكرهتُ مكاني الذي أنا فيه حتى كنت له أشدَّ كراهيةً له مني من حيث جئت، قال: قلت: لآتينَّ هذا الرجُلَ فوالله إنْ كان صادقاً فلأسمعنّ منه، وإن كان كاذباً ما هو بِضائري، قال: فأتيتُه واستشرفني الناس وقالوا: عدي بن حاتم، قال: فقال لي: «**يا عدي بن حاتم أسْلِمْ تَسْلَمْ**»، قال: قلت: إني من أهلِ دين، قال: «**يا عدي بن حاتم أسلم تسلم**»، قال: قلت: إني من أهل دين قالها ثلاثاً، قال: «**أنا أعلم بدينك منك**»، قال: قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «**نعم**»، قال: ألَيسَ تَرْأسُ قَوْمَكَ؟ قال: قلت: بلى، قال: «**فإنّه لا يَحِلُّ في دينك المِرْباعُ**»، قال: فلما قالها تواضعت لها، قال: «**وإني قد أرى أنَّ مِما يَمْنَعُك خصاصة تراها مِمَّن حولي، وأن الناس علينا إلْباً واحداً هل تعرف مكان الحيرة؟**» قال: قلت: قد سمعت بها ولم آتها، قال: «**لَتُوشِكَنَّ الظَّعِينَةُ أن تخرج منها بغير جِوَارٍ حتى تطوفَ بالكعبة، ولتوشكن كنوز كسرى بن هُرْمُز تُفْتَحُ**»، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز**» ـ ثلاث مرات ـ «**وليوشكن أن يَبْتَغِي من يقبل ماله منه صدقة فلا يجد**»، قال: فلقد رأيت اثنتين؛ قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل التي أغارت على المدائن، وأيم الله لتكونَنَّ الثالثةُ إنه لحديث رسول الله ﷺ حدّثنيه. . .

رواه أحمد (٣٧٧/٤، ٣٧٨)، وابن حبان (٢٢٨٠) بالموارد، والحاكم (٥١٨/٤، ٥١٩)، والبيهقي في الدلائل (٣٤٣/٥) بسند حسن وهو صحيح

لطريق آخر له رواه أحمد (٣٧٨/٤)، والطبراني قال الهيثمي (٢٠٨/٦) ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حُبَيْش وهو ثقة.

وقوله: «لتوشكن الظعينة»... «ولتوشكن كنوز كسرى» الخ، هو في الصحيح ويأتي في التنبوآت النبوية من المعجزات.

وعدي بن حاتم مشهور كوالده بالكرم والجود.

* * *

غزوة تبوك وهي غزوة العسرة وهي آخر غزواته ﷺ

إخباره ﷺ عن وجهة خروجه لتبوك

[٥١٤] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، استقبل سَفراً بعيداً، ومَفازاً، استقبل غزو عَدَدٍ كبيرٍ، فجلاّ للمسلمين ليتأهّبوا أُهْبَةَ عَدُوِّهم، أخبرهم بوجهه الذي يريده.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٤٨) هكذا مختصراً، ورواه مسلم في التوبة (٢٧٦٩) ويأتي مطوّلاً.

تبوك مدينة مشهورة وكانت في القديم أرضاً قاحلة وموقعها شمال المدينة بينهما نحو من سبعمائة كيلو، وهي إلى الأردن أقرب.

وكان سبب هذه الغزوة أن النبيّ ﷺ بلغه أن الروم جمعوا له جموعاً وجيوشاً ليغزوه فجهّز لهم جيشاً جرّاراً مكوّناً من ثلاثين ألف مسلم، وكان من عاداته إذا أراد غزو قوم ورّى وأوْهَم بغير جِهَتِهِ، ولما كانت هذه الغزوة أظهر شأنَها للناس ليتأهّبُوا ويَسْتَعِدُّوا لسفر طويل وعدو كثير.

* * *

❊ أمر النبيّ ﷺ بالصدقة والإنفاق استعداداً للغزوة ولإعداد الجيش

[٥١٥] عن عبدالرحمٰن بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء عثمان إلى النبيّ ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبيّ ﷺ جيش العسرة، قال: فصَبَّها في حجر النبيّ ﷺ، فجعل النبيّ ﷺ يُقَلِّبُها بِيَدِهِ ويقول: **«ما ضَرَّ ابنَ عفَّانَ ما عَمِلَ بعدَ اليوم»**، يردّدها مراراً.

رواه أحمد (٦٣/٥)، والترمذي في مناقب عثمان (٣٤٧٣) وحسّنه، والحاكم (١٠٢/٣) وصححه ووافقه الذهبي، والحديث صحيح لشواهده ويأتي بعضها في الفضائل.

لما حضّ النبيّ ﷺ على الإنفاق لتجهيز الجيش، تسابق المسلمون إلى الإنفاق وتنافسوا في ذلك، وكان أكثرهم نفقةً وتجهيزاً على الإطلاق عثمان رضي الله تعالى عنه، فأتى بألف دينار فوضَعَها في حجر النبيّ ﷺ حتى بَشَّرَه بأنه لا يَضرُّه أيُّ عملٍ عَمِلَه بعد هذا الإنفاق.

[٥١٦] بل قد جاء عن عبدالرحمٰن بن خبَّاب السُّلَمِي رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فحثَّ على جيش العُسْرة، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة بعير بأحلاسِها وأقْتَابِها، قال: ثم حثّ، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حثّ فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت النبيّ ﷺ يقول بيده هكذا يحرّكها كالمتعجب: **«ما على عُثمانَ ما عَمِلَ بَعْدَ هذا»**.

رواه أحمد (٧٥/٤)، وأصله في البخاري في الوقف (٣٣٦/٦) وفي الفضائل (٥٤/٨) معلّقاً ووصله الإسماعيلي بسند صحيح بلفظ: «... ألستم تعلمون أنه قال: من جهّز جيش العسرة فله الجنّة فجهَّزته...»، ويأتي في الفضائل كاملاً.

❊ ❊ ❊

❁ البَكّاءُون الذين اسْتَحْمَلُوا النبيَّ ﷺ فلم يَجِد ما يَحْمِلُهم عليه

[٥١٧] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبيّ الله إنّ أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «والله لا أحْمِلُكم على شيء»، ووافقته وهو غضبانُ ولا أشْعُرُ، ورجعت حَزيناً من منع النبيّ ﷺ ومِن مخافةِ أن يكون النبيّ ﷺ وجد في نفسه عليّ، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم الذي قال النبيّ ﷺ، فلم ألْبَثْ إلا سُوَيْعَةً إذ سمعتُ بلالاً ينادي: أيْ عبد الله بن قيس، فأجبته فقال: أجِبْ رسول الله ﷺ يدعوك، فلمّا أتيته قال: «خذ هذين القَرِينَيْنِ، وهذين القَرِينَيْن لِسِتَّةِ أبعِرَةٍ ابْتَاعَهُنّ حينئذ من سعد، فانطلِقْ بهنّ إلى أصحابك، فقل: إن الله أو قال: إن رسول الله ﷺ يَحْمِلُكم على هؤلاء فاركبوهن»، فانطلقت إليهم بهن فقلت: إن النبي ﷺ يحملكم على هؤلاء ولكني والله لا أدَعُكم حتى يَنْطَلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ لا تظنّوا أني حدّثتكم شيئاً لم يَقُلْه رسول الله ﷺ، فقالوا لي: والله إنكَ عندنا لمُصَدّقٌ ولنَفعلنَّ ما أحببَت، فانطلق أبو موسى بنَفَرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ منعه إيّاهم ثم إعطاءهم بعدُ فحدّثوهم بمثل ما حدّثهم به أبو موسى.

رواه البخاري في غزوة تبوك (١٧٥/٩) وفي فرض الخمس رقم (٣١٣٣)، ومسلم (١٠٨/١١، ١١١)، وأبو داود والنسائي ثلاثتهم في الأيمان والنذور وقد تقدم في التفسير بلفظ آخر.

الحديث يوضح لنا حالة الصحابة عند هذه الغزوة، وأنهم كانوا مُعْسِرِين في المركوب كما كانوا معسرين في النفقة، بل وفي الماء أيضاً مع القَيْظ والحرّ الشديد، ولذلك سمّيت الغزوة بغزوة العسرة. وهؤلاء الأصحاب الذين أتوا النبيّ ﷺ يستحملونه فلم يجدوا عنده شيئاً يحملهم عليه فرجعوا وهم يبكون، ثم بعد بعث إليهم فحملهم على أبعرة اشتراها،

وقد ذكر علماء المغازي وغيرهم أنّ من البكّائيين هؤلاء الأشعريّين، وأبناء مُقَرِّن وهم سُويد، ومَعْقِل، والنُّعمان، ومنهم جماعة من الأنصار.

* * *

تاريخ خروجه ﷺ إلى تبوك

[٥١٨] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحبّ أن يخرج يوم الخميس.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٥٠) مختصراً هكذا، ويأتي مطوّلاً مع بيان تخريجه.

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة قبل حجّة الوداع بلا خلاف، وكان خروجه ﷺ يوم الخميس، وكان يحبّ خروجه في أسفاره يومه.

* * *

تشييع الإمام عليّ النبيّ ﷺ واستخلافه على أهل البيت

[٥١٩] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن عليّاً رضي الله تعالى عنه خرج مع النبيّ ﷺ حتى جاء ثَنيّة الوداع، وعَلِيّ رضي الله تعالى يبكي ويقول: تُخَلِّفُني مع الخوالف، فقال: **«أوَ ما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوّة»**.

رواه أحمد (١/١٧٠) بسندٍ صحيح.

[٥٢٠] وعنه قال: خلّف رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله أتُخَلِّفُني في النساء والصبيان؟

فقال: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيّ بعدي»**...

رواه أحمد (١/١٨٢، ١٨٥) وفي مواضع، والبخاري في غزوة تبوك (١٧٦/٩) وفي الفضائل، ومسلم في الفضائل (١٥/١٧٥، ١٧٦) وغيرهما، وهو حديث متواتر ويأتي في الفضائل كاملاً.

في الحديثين دليل على أن الإمام عليّاً لم يخرج مع النبيّ ﷺ إلى تبوك، بل جعله خليفة بعده على أهله وعلى المدينة وبشره بأنه وزيره وخليفته في حياته كما كان هارون مع أخيه موسى عليهما السلام. وفي الحديث الأول بيان أن الإمام خرج مع النبيّ ﷺ مودعاً له حتى وصل معه إلى ثنيّة الوداع، وهو موضع قريب من الحرم الشريف يبعد عنه بأقلّ من ميلين.

* * *

❋ مروره ﷺ على الحجر؛ بلاد ثمود وأمره بالبكاء عند الدخول إليها ونهيه عن الشرب... من مائها

---

[٥٢١] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ لما مرّ بالحِجْر قال: **«لا تَدْخُلوا على هؤلاء المُعَذَّبين»**. وفي رواية: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم»**، ثم تَقَنَّع بردائه وهو على الرحل، وفي رواية: ثم زجر فأسرع حتى خلّفها.

رواه أحمد (٢/٦٦، ٧٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (١٩٠/٧) وفي المغازي (١٨٩/٩)، ومسلم في الزهد (١١١/١٨)، والنسائي في الكبرى (٣٧٣/٦) وقد تقدّم في التفسير.

[٥٢٢] وعنه أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود الحجر

فاستقوا من بئرها واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهْرِيقوا ما استقوا من بئرها، وأن يَعْلِفُوا الإبل العجينَ وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردُها الناقةُ.

رواه البخاري في الأنبياء رقم (٣٣٧٩)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٠) وغيرهما.

«أصحاب الحجر» هم ثمود قوم صالح عليه السلام، وقد تقدمت قصته معهم، وأن الله عزّ وجلّ عذّبهم وأهلكهم بعد أن عقروا الناقة. والحديثان يدلاّن على وجوب الابتعاد عن دور المغضوب عليهم ومساكن المعذَّبين والمرور عليها بسرعة، وأنّ مَن دخلها ينبغي له أن يعتبر بأهلها ويبكي خشية أن يصيبَه مثلُ ما أصابهم، والعاقل من وُعِظ بغيره، وفيهما عدم تناول مياههم لأنها من آثار المغضوب عليهم، وقد أخذ العلماء من حديث ابن عمر هذا، تحريم الدخول إلى دور الكفار والظلمة وأهل الطغيان والفجور، وانظر ما تقدم في تفسير سورة إبراهيم، وراجع لهذا المعنى زاد المعاد لابن القيّم... عند تكلمه على هذه الغزوة.

* * *

بعض ما أصاب الصحابة في طريقهم لتبوك من الشدّة والفرج

[٥٢٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل لعمر رضي الله تعالى عنه: حدّثنا من شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابَنا فيه عَطَشٌ حتى ظننّا أن رِقابَنا سَتَنْقَطِعُ، حتى إن كان الرجلُ ليذهبُ يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظنّ أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيَعْصِر فرثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله إن الله عزّ وجلّ قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: **«أتحبّ ذلك؟»** قال:

نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

رواه ابن حبان (١٧٠٧) بالموارد، والحاكم (١٥٩/١) بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (١٩٤/٦، ١٩٥) برواية البزار وأوسط الطبراني وقال: رجال البزار ثقات، وهو في دلائل النبوّة للبيهقي (٢٣١/٥).

«العُسرة» بضم العين الشدّة. «قيظ» بفتح القاف وسكون الياء هو الحرّ. «يلتمس» أي: يطلب. «سكبت» أي: صبّت. في الحديث بيان ما نال الصحابة من الشدّة العظيمة والعُسرة في هذه الغزوة، كما فيه معجزة للنبيّ ﷺ حيث أمطرهم الله عزّ وجلّ الماء الغزير ولم يتعدّ الجيش.

[٥٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادّهنا، فقال عمر: يا رسول الله إن فعلت قلَّ الظهرُ ولكن ادْعُهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة، لعلّ الله أن يجعل في ذلك بلاغاً، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فدعا بِنَطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتي بكف ذُرَة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم»، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه فأكلوا حتى شَبِعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحْجَبُ عن الجنّة».

رواه مسلم في الإيمان (٢٢١/١، ٢٢٦).

«نواضحنا» أي جمالنا وهي الإبل التي يُستقى عليها. «أزوادهم» واحدها زاد وهو ما يتزوّده المسافر من مأكل «نطع» بفتح النون والطاء ويكسر النون وسكون الطاء وغيرها لغات، وهي جلد الإبل أو غيره المدبوغ المسبوت شعره أو وبره. «وفضلت فضلة» أي: بقيت بقيّة. «غير شاكّ» أي: غير مرتاب بل مستيقناً من قلبه.

هذا لون آخر من العسرة حصل للصحابة رضي الله تعالى عنهم في طريقهم لتبوك؛ ذلك هو الجوع وقلّة الزاد حتى همّوا بنحر جمالهم ليقتاتوا بها، لكن الرسول ﷺ نَدَبَهُمْ إلى جمعِ ما بقي عندهم من أزواد فجمعوه فوضعه على جلد، فدعا الله عزّ وجلّ وبرك عليه فأمرهم أن يملؤوا أوعيتهم ففعلوا حتى ما بقي وعاء في الجيش إلا ملؤوه، فكانت هذه معجزة أخرى تضاف إلى سابقتها.

* * *

❋ مروره ﷺ على حديقة امرأة بوادي القرى، وإخباره بهبوب ريح عاصفة بتبوك، ونهيه أصحابه عن القيام

[٥٢٥] عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأةٍ، فقال: **«اخْرُصُوها»**، فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عَشرة أوْسُق، وقال: **«احْصِيها حتى نَرجَع إليك إن شاء الله»**، فانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: **«سَتَهُبُّ عليكم الليلةَ ريحٌ شديدةٌ، فلا يقم فيها أحدٌ منكم، ومن كان له بعير فليشدّ عِقاله»**، فهبّت ريحٌ شديدةٌ فقام رجل فحمله الريح حتى أَلْقَتْه بجبل طَيِّءٍ، ثم أقبلنا حتى قَدِمنا وادي القرى فسأل رسول الله ﷺ المرأة عن حديقتها: **«كم بلغ تمرها؟»** فقالت: بلغ عشرة أوسق.

رواه أحمد (٥/٤٢٤)، والبخاري في الزكاة (١٤٨١)، ومسلم في الفضائل في معجزاته ﷺ (١٥/٤١، ٤٣)، وأبو داود (٣٠٧٩) وغيرهم.

«وادي القرى» موضع كان يسكنه اليهود بين خيبر وتبوك. «اخرصوها» أي: قدروا كم فيها من تمر، وأصل الخرص التخمين والظنّ.

وفي هذا الحديث معجزتان للنبيّ ﷺ، أولاهما: مطابقة الواقع لخرصه الحديقة، فإنّه خرصها عشرة أوسق، فخرج كذلك. ثانيهما: إخباره

بهبوب تلك الريح الشديدة فهبّت كما أخبر، وفيه عقاب مخالف نهيه ﷺ، فإنه نهى عن القيام عند ما تأتي الريح، فخالف رجل ذلك، فقام فطارت به وألقته بجبل فهلك.

* * *

قصة عين تبوك وما وقع فيها من بركة النبيّ ﷺ وإخباره عن تبوك بانها ستصبح جناناً

[٥٢٦] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فقال: **«إنكم سَتَأْتون غداً إن شاء الله عينَ تَبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحِيَ النهار، فمن جاءها فلا يَمَسّ من مائها شيئاً»،** فأتاها والعينُ مثلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بشيء من ماء، فغرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فخرجت العين فاستقى الناسُ، ثم قال رسول الله ﷺ: **«يُوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن تَرَى ما هاهُنا قد مُلِيءَ جناناً».**

رواه مسلم (٥/٢٣٧، ٢٣٨) و(ج ١٥/١٥، ٤٠، ٤١) في الفضائل.

«حتى يُضحِي» أي: حتى يرتفع النهار إلى وقت الضحى. «تَبِض» بكسر الباء أي: تسيل. «يوشك» أي: يقرب أو يسرع. «ملىء جناناً» أي: بساتين.

في هذا الحديث أربع معجزات: إخباره ﷺ الصحابة بأنهم سيدخلون تبوك غداً، وأنهم سيصلون إليها وقت الضحى، ثم بركته في الماء القليل حتى جرت العين ونبعت، ثم إخباره بأن تبوكاً ستصبح في المستقبل ذات بساتين وقد صدق هذا الواقع، فتبوك اليوم مدينة ذات مياه وبساتين وسكان... فصلّى الله وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم الزكيّ الطاهر وعلى آله وأصحابه.

* * *

❁ مدة إقامته ﷺ بتبوك

[٥٢٧] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: أقام رسول الله ﷺ بتَبُوك عِشرين يوماً يقصر الصلاة.

رواه عبدالرزاق (٤٣٣٥)، وأحمد (٢٩٥/٣)، وأبو داود (١٢٣٥)، وابن حبان رقم (٥٤٦) بالموارد، والبيهقي في الكبرى (١٥٢/٣) بسند صحيح وصححه جماعة كابن حزم والنووي وغيرهما.

لما نزل ﷺ بتبوك جعل ينتظر الكفار الذين كانوا يريدون غزوه، فمكث ينتظرهم عشرين يوماً، فألقى الله في قلوبهم الرعب وجَبُنُوا فانصرفوا وتفرّقوا فرجع ﷺ سالماً غانماً ظافراً، وقول جابر هنا: يقصر الصلاة، هذا قد تقدم في كتاب الصلاة فارجع إليه تستفد.

وقد حصل للنبيّ ﷺ في هذه الغزوة انتصار وفتح كما في الآتي.

❁ ❁ ❁

❁ إهداء ملك أيْلَة للنبيّ ﷺ بغلةً

[٥٢٨] عن أبي حُمَيْد السَّاعِدي رضي الله تعالى عنه قال في حديثه السابق قبل حديثين: وأهدى ملك أيلة للنبيّ ﷺ بغلة بيضاء، وكَسَاهُ بُرْداً، وكتب له بِبَحْرِهِم.

رواه البخاري في الزكاة (١٤٨١) وغيره.

«أَيْلَةُ» بهمزة مفتوحة ثم ياء ساكنة فلام مفتوحة؛ مدينة في أطراف الحجاز على ساحل البحر الأحمر وسط بين المدينة المنوّرة ودمشق.

قال علماء المغازي: لما كان رسول الله ﷺ نازلاً بتبوك أتاه يُوحَنَّا بن رُؤْبَة صاحب أيْلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وأهدى للنبيّ ﷺ بغلةً بيضاء، وأثابه النبيّ ﷺ فكساه برداً وكتب له كتاباً جاء فيه: «بسم الله

الرحمٰن الرحيم، هذه أَمَنَةٌ من الله ومُحمّدٍ النبيّ رسولِ الله ﷺ لِيُحَنَّة بن رُؤبة وأهل أيْلة سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحر، لهم ذمّة الله ومحمّد النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من برّ أو بحر».

***

❁ قصة أُكَيْدِر صاحِب دُومَة الجَنْدَل وإهداؤه للنبيّ ﷺ حُلَّةً من سُنْدُسٍ

[٥٢٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن أُكَيْدِر دُومَة الجَنْدَل أهْدَى لرسول الله ﷺ حُلّةً من سُنْدُس فعَجِب الناس منها، فقال: **«والذي نفسُ محمد بيدِهِ إنَّ مناديلَ سَعْد بن معاذ في الجنة أحْسَنُ من هذا»**.

رواه أحمد (١١١/٣، ١٢٢، ٢٠٧، ٢٢٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣/١٥)، ورواه البخاري ومسلم (٢٢/١٥)، والنسائي في الكبرى (٦٢/٥)، والترمذي في المناقب عن البراء.

«أُكَيْدر» بضم الهمزة وفتح الكاف ثم ياء ساكنة فدال مكسورة. «ودومة» بضمّ الدال وفتحها ثم واو ساكنة فميم مفتوحة. «والجندل» بفتح الجيم وسكون النون ثم دال مفتوحة.

أُكيدر كان ملكاً عظيماً من طرف هرقل بدُومة الجندل، وهو حصن وقرى من أطراف الشام، فبعث إليه النبيّ ﷺ خالد بن الوليد في جيشٍ، قيل: كانوا أربعمائة فارس، فأُخِذَ وبِمَنْ وُجِدَ معه فأُتِيَ به النبيّ ﷺ فأهدى له حُلّة سُندسٍ وصالحه على أداء الجزية، وقد ذكر علماء المغازي قصّته في ذلك، وهي مع شهرتها ليست على شرطنا إلا ما ذكرناه من إهدائه الحلّة إلى النبيّ ﷺ، وفي الحديث فضل سعد بن معاذ وتأتي مناقبه.

***

❋ استهزاء المنافقين بآيات الله وبرسوله وبقرّاء المؤمنين

[٥٣٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسِنَةً، ولا أجْبَنَ عند اللّقاء، فقال رجل في المجلس: كذبتَ ولكنك منافقٌ، لأُخْبِرَنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله: فأنا رأيته متعلّقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكيه، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب، والنبيّ ﷺ يقول: **«أبِالله وآياته ورسُولِهِ كُنتُم تَسْتَهزِءُون»**.

رواه ابن جرير (١٧٢/١٠)، وابن أبي حاتم (١٨٣٩/٦) في تفسيريهما وسنده صحيح.

«بِحَقَب» بفتحتين الحزام الذي يلي حقو البعير. **«تَنْكِيه»** أي: تجرحه.

إن المنافقين قد مكروا مكرهم في هذه الغزوة وعاثوا فساداً بطعنهم في مقدّسات الإسلام واستهزائهم بالله وبرسوله وبالمؤمنين، بل بلغ بهم الحال أن أرادوا الفَتْك برسول الله ﷺ كما يأتي قريباً. وهذا الطاعن هنا واحد منهم وقد رماه الصحابة بالحجارة، وهو مستجير بناقة رسول الله ﷺ عندما علموا باستهزائه.

[٥٣١] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال محشي بن حمير: لودِدْتُ أنّي أُقاضَى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن، فقال رسول الله ﷺ لعمَّار بن ياسر: **«أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسَلْهم عمّا قالوا، فإن هم أنكروا وكتموا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا»** فأدركهم، فقال لهم، فجاءوا يعتذرون فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ الآية، فكان الذي عفا الله عنه محشي بن حمير فتسمّى عبدالرحمٰن، وسأل الله تعالى أن يُقتل شهيداً، وألا يعلم بمقتله، فقتل في اليمامة لا يُعلم مقتله ولا من قتله ولا يُرى له أثرٌ ولا عين.

رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٣١/٦) بسند حسن صحيح لحال ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث.

[٥٣٢] وعنه أيضاً قال: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين، وما قال رسول الله ﷺ قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن أشرّ من الحمير، قال: فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ أحسنُهم عندي أثراً أو أعزُّهم على أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لتفضحنّك، ولئن سكتُّ عنها لتهلِكنّي، ولأحدهما أشرُّ عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له مقال الجلاس، فحلف بالله ما قال ولقد كذب عليّ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ الآية.

رواه ابن إسحاق، ومن طريقه ابن أبي حاتم (١٨٤٣/٦) وسنده حسن وهو صحيح لشاهدين عن زيد بن أرقم وابن عباس رواهما ابن أبي حاتم (١٨٤٣/٦)، وانظر ابن جرير (١٨٥/١٠).

في المنافقين من تخلّف عن هذه الغزوة واعتذر كذباً، ومنهم من خرج طمعاً في الغنيمة، وكان الخارجون يعيثون خبالاً الآونة بعد الآونة، ويتكلّمون في الإسلام ويشتمون رسول الله ﷺ وينتقصونه ويسخرون من المؤمنين، ففضح الله الطائفتين وأنزل فيهم قرآناً يُتلى، بيّن مكرهم وخداعهم وأبان عوارهم وأظهر كفرهم وسجّل عليهم الخزي والهوان واللعنة والطرد من رحمة الله تعالى.

وسورة التوبة مليئة بالكلام عليهم، وقد تقدم بعض هذا في التفسير.

***

❋ محاولة المنافقين اغتيال رسول الله ﷺ

[٥٣٣] عن أبي الطفيل رضي الله تعالى عنه قال: لمّا أقبلَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك أمَر منادياً فنادى: إنَّ رسولَ الله ﷺ آخِذٌ

بالعَقَبةِ فلا يأخُذْها أحدٌ، فبينما رسولُ الله ﷺ يَقودُه حُذيفة، ويسوقُه عمَّار، إذ أقبل رهطٌ مُتَلَثِّمُون على الرواحل، فغَشَوْا عماراً، وهو يَسُوق برسول الله ﷺ وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ» حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي فلما هبط ورجع عمار، قال: «يا عمار هل عرفتَ القوم؟» قال: قد عرفت عامّة الرواحل والقوم متلثّمون، فقال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن يُنَفِّرُوا برسولِ الله فيَطْرَحُوه».

قال: فسأل عمّار رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الإثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله ﷺ في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

رواه أحمد (٥/٤٥٣) بسندٍ صحيح، قال النور (٦/١٩٥): ورجاله رجال الصحيح.

ورواه مسلم في صفات المنافقين (١٧/١٢٥) مختصراً.

هذا اللون من المكر الذي صدر من هؤلاء المنافقين خطير، فهو أقبح وأشنع ما أرادوا فعله به ﷺ، فلم يكفهم لعنهم الله ما كانوا يؤذون به رسول الله ﷺ من وقتٍ لآخر من الشتائم والكلام البَذِيء، وما كانوا يُوقدونه من الفتن والعداوة بين المسلمين حتى أرادوا هٰهنا الفتك بالنبيّ ﷺ وإلقاءه عن راحلته في الجبل، لكن الله عزّ جلّ كان حافظاً نبيّه، لم يَكِلْه إلى أعدائه منذ أن اصطفاه واختاره لرسالته.

* * *

✵ معجزة النبيّ ﷺ في طريقه إلى المدينة من غزوة تبوك

[٥٢٤] عن فَضالة بن عبيدٍ الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: غزونا

مع النبيّ ﷺ غزوة تبوك فجهد بالظهر جهداً شديداً، فشكوا إلى النبيّ ﷺ ما بظهرهم من الجهد، فتَحَيَّنَ بهم مَضيقاً، فسار النبيّ ﷺ فيه، فقال: **«مُرُّوا باسْم الله»**، فمرّ الناس عليه بظهورهم، فجعل ينفخ بظهرهم **«اللّهمّ احملهم عليها في سبيلك إنك تَحْمِلُ على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البرّ والبحر»**، قال: فما بلغنا المدينة حتى جعلت تنازعنا أزِمَّتها.

رواه أحمد (٦/٢٠) بسند حسن وله طريق آخر رواه البزار والطبراني بسند ضعيف، كما في المجمع (٦/١٩٣).

«جهد بالظهر» بلغت المشقّة والتعب بالإبل أقصاها. «فتحيّن» أي: قصد أن يسير بهم في موضع ضيّق. «ينفخ بظهرهم» أي: ينفخ في الإبل ويدعو الله تعالى.

ففي الحديث معجزة له ﷺ، ولولا دعاؤه مع الإبل لهلك الجيش ورواحلهم لأنها جهدت وأعيت وكادت أن تسقط إلى الأرض، ولذلك لما دعا الله عزّ وجلّ بالحمل عليها قوّاها الله تعالى فأسرعت السَّيْر ونشطت...

* * *

❋ ما قاله ﷺ حين أشرف على المدينة مرجعه من تبوك

[٥٣٥] عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: أقبلنا مع النبيّ ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة، قال: **«هذه طابة وهذا أُحُدٌ جبل يحبّنا ونحبّه»**.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤٤٢٢) وهو عنده في الزكاة، ومسلم في الفضائل وغيرهما مطوّلاً وتقدم بعضه برقم (٥٢٥).

كان النبيّ ﷺ يحبّ المدينة كثيراً، وكان إذا قدم من سفر فرآها أسرع في السَّيْر، وهٰهنا قال: هذه طابة ـ يعني طيبة ـ وهذا جبل أُحد يحبّنا

ونحبّه، كل ذلك قاله فرحاً بقدومه إلى مدينته الحبيبة التي ألفها وأحبّها وأحبَّ أهلها الأنصار.

* * *

❊ استقبال الناس النبيّ عليه السلام عند قدومه عند ثنيّة الوداع

[٥٣٦] عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قدم النبيّ ﷺ من غزوة تبوك تلقّاه الناس، فلقيته مع الصبيان على ثنيّة الوداع.

رواه أحمد (٣/٤٤٩)، والبخاري (٦/٥٣٢)، وأبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٧٦) كلّهم في الجهاد في تلقّي الغزاة والغائب.

هكذا تلقّى المسلمون رجالاً ونساء وأطفالاً النبيّ ﷺ فرحاً بقدومه سالماً من هذه الغزوة الشاقّة والسفر الطويل الذي غاب فيه هو وأصحابه أكثر من خمسين يوماً، ولا تسأل عن فرح المسلمين بقدومه ﷺ شأنهم في كل مشاهده وأسفاره التي كان يغيب فيها عنهم رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❊ حديث كعب بن مالك في توبته وتوبة صاحبيه وما فيه من عِبَر وفوائد

[٥٣٧] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: وهو يحدث حين تَخَلَّفَ عن قصة تبوك لم أتخلَّفْ عن رسول الله في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفْتُ في غزوة بدر، ولم يُعاتِبْ أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسولُ الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة،

حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قطُّ، حتى جمعتُهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدوّاً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبُوا أُهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يَجمعُهم كتابٌ حافظٌ ـ يريد الدِّيوانَ ـ قال: فما رجلٌ يريد أن يَتَغَيَّبَ إلا ظنّ أن سَيَخْفَى له ما لم ينزل فيه وحيُ الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظِّلالُ، وتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّز معهم، فأرجع ولم أقْضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يَتَمادَى بي حتى اشتدّ بالناس الجِدُّ فأصبح رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقْضِ من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوتُ بَعْدَ أن فَصَلُوا لأتَجهَّز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُم، وليتني فعلتُ، فلم يُقَدَّرْ لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحْزَنَنِي أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يَذْكُرْني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فَعَلَ كَعْبٌ؟» فقال رجل مِن بَني سَلِمَة: يا رسول الله حبسه بُرْدَاهُ ونَظَرُهُ في عِطْفَيْهِ، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسولُ الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجُلاً مُبَيِّضاً يزول به السَّرابُ، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خَيْثَمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدّق بصاع التمر حين لَمَزَهُ المنافقون.

قال كعب: فلمّا بلغني أنه توجّه قافلاً حضرني همّي وطفقت أتذكّر

الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِهِ غداً، واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاحَ عني الباطلُ، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذبٌ، فأجمعتُ صِدْقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووَكَل سرائرهم إلى الله تعالى، فجئته فلما سلَّمت عليه تبسَّم تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: **«تعالَ»**، فجئت أمشِي حتى جلست بين يديه، فقال لي: **«ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»** فقلت: بلى إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنْ سأخرجُ من سخطه بعُذْر، ولقد أعطيت جَدَلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنّي لَيُوشِكَنّ الله أن يُسْخِطَك عليَّ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عُذْرٍ، والله ما كنت قطّ أقوى، ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، قال رسول الله ﷺ: **«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يَقْضِيَ الله فيك»**، فقمتُ وثار رجال من بني سلمة فاتّبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزْتَ أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المُتَخَلِّفُون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يُؤَنِّبونَنِي حتى أردت أن أرجعَ فأُكَذِّبَ نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الرَّبيع العَمْري، وهلالُ بن أُميّة الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين مَنْ تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكَّرَتْ في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحِبايَ فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج

فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلّمني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسَلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه فأُسارقُه النَّظَرَ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تَسَوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمّي وأحب الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحِبَك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَةٍ فالحَقْ بنا نُواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمت بها التنور فسَجَرْتُه بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أُميّة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أُميّة شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «**لا، ولكن لا يَقْربكِ**»، قالت: إنه والله ما به حركةٌ إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يُدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنْتُه فيها وأنا رجل شابٌّ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا؛ فلما صلّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا،

فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت، سمعت صوت صارخ أَوْفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعبُ بنَ مالك أبْشِر، قال: فخررْتُ ساجداً وعرفت أن قد جاء فَرَجٌ.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشّروننا، وذهب قِبَل صاحبيَّ مُبشّرون، وركَضَ إليّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرعَ من الفرس، فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت له ثوبي فكسوْته إياهما ببشْراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يُهَنِّئونني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس فقام إليَّ طلحةُ بن عُبيدالله يُهَرْوِل حتى صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيرهُ ولا أنساها لطلحة، قال: فلما سلَّمْتُ على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك**»، قال: قلت: أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا بل من عند الله**»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنّه قِطعةُ قمَر، وكنّا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إنّ مِن توبتي أن أنخَلِعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسولِ الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**أمسِكْ عليك بعضَ مالك فهو خيرٌ لك**»، قلت: فإني مُمْسِك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجّاني بالصّدق، وإن من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلا صِدقاً ما بَقِيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكر ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، إني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمةٍ قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ

أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال: وكنا تخلّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الذين ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

وفي رواية: فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر وما من شيء أهمّ إليّ من أن أموت فلا يصلّي عليّ النبيّ ﷺ أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يُكلّمني أحد منهم ولا يصلّي عليّ، فأنزل الله تبارك وتعالى توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أمّ سلمة وكانت أمّ سلمة مُحْسِنَةً في شأني مَعْنِيةً في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أمّ سلمة تِيبَ على كعب»، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره؟ قال: «إذاً يَحْطِمُكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة»، حتى إذا صلّى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا، قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خُلّفُوا عن الأمر الذي قُبِل من هؤلاء الذين اعتذروا حين أنزل الله لنا التوبة، فلما ذكر بشرّ ما ذكر به أحد، قال الله سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

رواه البخاري في المغازي وفي التفسير (٤١٢/٩، ٤١٣) وفي أكثر من ستّة مواضع، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧، ٩٧)، وأبو داود والترمذي والنسائي مطوّلاً ومختصراً وقد تقدم في التفسير بأخصر من هذا.

* * *

❁ بيان غريب ما في الحديث

«تواثقنا على الإسلام» أي: تعاهدنا. «فجَلّى للمسلمين» أي: أظهر لهم جهة سفره. «ليتأهّبوا» أي: ليستعدوا. «مغموصاً عليه» مطعوناً عليه. «السراب» هو ما يظهر للإنسان في البرية كأنه ماء. «ابتعت ظهرك» أي: اشتريت راحلة تركبها. «فسجرته» أي: أحرقته. «أبلاه الله» أي: أنعم عليه.

* * *

❁ خلاصة غزوة تبوك وما فيها من فوائد وعِبَر

كانت هذه الغزوة أكبر غزواته وأشقّها على الصحابة وأبعدها مسافة وآخرها غزاة، كان الروم قد جمعوا جموعاً كثيرة وأرادوا غزو النبيّ ﷺ، فآذن ﷺ بالخروج إليهم وحثّ الصحابة على الانفاق وأمرهم بالاستعداد وجلى لهم الأمر، وكانوا في وقت عُسْرٍ شَديدٍ، فخرج ﷺ في ثلاثين ألفاً ولم يتخلف عنه إلا المنافقون وأصحاب الأعذار والثلاثة الذين تاب الله عليهم، وكان خروجه يوم الخميس في رجب من السنة التاسعة، وخلّف على أهله وعلى أهل المدينة الإمام علياً عليه السلام، فسار ومرّ في طريقه على الحجر وديار ثمود، كما مرّ على وادي القرى ثم تابع السير إلى أن بلغ تبوك، وقد قطع هذه المسافة في أربع عشرة مرحلة، فنزل تبوك وجعل ينتظر الروم عشرين يوماً فألقى الله في قلوبهم الرُّعْبَ وتفرّقوا، وفي أيام نزوله ﷺ بتبوك أتاه ملك أيْلَة وأهدى إليه ﷺ بغلة وصالحه على أداء الجزية، وكتب له ﷺ كتاباً في ذلك بيَّن له فيه بعض ما أعطاه وما شرط عليه، ثم بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر دُومَة الجَندل فأُتِي به وأهدى إلى النبيّ ﷺ حلّة حرير وصالحه أيضاً على أداء الجزية، ثم رجع ﷺ قافلاً وحدثت في مقدمه أحداث كإرادة المنافقين الفتك به ﷺ فحفظه الله عزّ وجلّ، ووقوع البركة في الظهور والرواحل بعد أن جهدوا جهداً شديداً، كما وقعت له معجزات أخرى في ذهابهم من إمطارهم منفردين دون غيرهم

وإمدادهم بالبركة في الطعام وجري عين تبوك بالماء وإخباره ﷺ بأنها ستكون بها جنان إلى غير ذلك مما حصل من الأحداث.

وفي الغزوة من الفوائد مشروعية التعمية على الأعداء والتورية في الأمور، كما فيها إظهار قائد الجيش الجهة التي يريدها إذا اقتضى الأمر ذلك، وكان فيه مصلحة أكيدة، وفيها التنافس في الصدقة في سبيل الله وتجهيز المجاهدين، وفيها فضل سيّدنا عثمان، وأنه مغفور له لا يضرّه ما عمل بعد أن جهّز المسلمين تجهيزاً لا مثيل له.

وفيها وجوب الخروج للجهاد إذا تعيّن كهذه الغزوة، وأنه لا يجوز التخلّف عنه إلا لعذر كمرض مثلاً أو ضعف... وفيها: فضل الإمام عليّ عليه السلام حيث جعله النبيّ ﷺ عنده بمثابة هارون من موسى، وفيها: أن أرض الغضب أو العذاب لا يجوز الإقامة بها ولا سكناها ولا الشرب من مائها، وأن داخلها يجب عليه أن يدخلها وهو باكٍ مع إسراعه فيها، كما وقع منه ﷺ في ديار ثمود. وفيها: مشروعية خرص الثمار وغيرها لأجل الزكاة أو الجزية كما خرص النبيّ ﷺ حديقة تلك المرأة بوادي القرى، كما في ذلك معجزة له ﷺ حيث خرج العدد الذي خرصه ﷺ. وفيها: هبوب تلك الريح العاصفة التي أخبر بها ﷺ قبل وقوعها وأخذت رجلاً فألقته في جبال طيء لمخالفته للنهي النبويّ. وفيها: مشروعية مصالحة أهل الكتاب على أداء الجزية وقبول هداياهم، فإن ملك أيلة، وأُكَيْدِراً كلاهما كانا نصرانيّين. وفيها كفر من استهزأ بآيات الله أو بالله أو برسوله، ولو كان هازلاً كما يحصل اليوم من الممثّلين والممثلات فقد قال الله تعالى لأولئك المنافقين: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وقد كانوا قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

أما حديث كعب، فقد أخذ منه العلماء أحكاماً وفوائد وعبراً، وهذه خلاصتها:

ففيه: جواز طلب أموال الكفار من الحربيّين، وجواز الغزو في الشهر الحرام، وأن الذين تخلّفوا عن هذه الغزوة بدون عذر كانوا آثمين قد أتوا

كبيرة. وفيه: عظم المعصية، وأنها موقع غضب الله، فإن أولئك الثلاثة ما أمر النبيّ ﷺ بمقاطعتهم إلا لما أتوا من الذنب العظيم تأديباً لهم وزجراً لغيرهم، وفي ذلك: مشروعيّة هجران العاصي المجاهر بقدر الحاجة إذا كان في هجره مصلحة وزجر له، وفي ذلك عبرة لنا ولكل الأجيال المنحرفة المدّعية للإسلام، والإسلامُ بريء منها؛ فهؤلاء الصحابة ما تعاملوا بالرّبا وأكلوا الحرام، ولا سفكوا دماء الأبرار، ولا أظهروا الفساد في الأرض، ولا كانت لهم مراقص يرقص فيها رجالهم ونساؤهم عرايا، ولا كانت لهم دور مفروشة مهيّأة للزّنا والفجور، ولا كانت لهم أندية وحانات يجتمع فيه العراة والعرايا وشربة الخمر، وإنما صدر منهم أمرٌ واحد لا يعبؤ به الناس وهو التخلّف عن الغزو مع الرسول ﷺ، ومع ذلك فانظر ماذا فعل معهم النبيّ ﷺ والمسلمون.

فماذا نقول نحن مسلمي اليوم، وقد ارتكبنا كل أنواع الجرائم والفواحش وانحللنا من قيود الشريعة، فلم يَبْق لنا من الإسلام إلا الأسامي والدعاوى والشعارات... وفيه فضل هؤلاء الثلاثة حيث تاب الله تعالى عليهم وغفر لهم ورحمهم وأنّى لأحدنا بما تفضّل عليهم، وفيه خسارة أولئك المنافقين الذين اعتذروا لرسول الله ﷺ كذباً وزوراً ومخادعة، ففضحهم الله عزّ وجلّ وأخبر عنهم بأنهم رجس ومأواهم جهنم. وفيه مشروعية بداية المسافر بالمسجد عند قدومه وصلاته فيه ركعتين، وفيه الخروج لملاقاة الغزاة والمسافرين، وفيه عِظَم مكانة الصِّدْقِ في القول والفعل، وأن مآله الفرجُ والسعادةُ، وفيه صحة صلاة المنفرد، خلافاً لابن حزم الذي يشترط الجماعة، وفيه غير ذلك مما يدرك بالإمعان فيه.

* * *

قدوم وفد ثقيف على النبيّ ﷺ بالمدينة

[٥٣٨] عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن شأن ثَقِيف إذْ بايَعَتْ، قال: اشْتَرَطَتْ على النبيّ ﷺ أنْ لا صدَقَةَ عليها ولا جِهادَ، وأنَّهُ

سمعَ النبي ﷺ بعد ذلك يقول: «**سَيَتَصَدَّقُون ويُجاهِدُون إذا أسْلَمُوا**».

رواه أبو داود في الخراج والإمارة والفَيْء (**٣٠٢٥**) وسنده حسن صحيح.

[**٥٣٩**] وعن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكونَ أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا على النبيّ ﷺ أن لا يُحْشَرُوا، ولا يُعْشَروا، ولا يُجَبُّوا ولا يُستعمل عليهم غيرهم، فقال: «**إنّ لكم أن لا تُحْشَروا ولا تُعْشَروا ولا يُسْتَعمل عليكم غيركم**»، وقال النبيّ ﷺ: «**لا خير في دين لا ركوع فيه**»، قال: وقال عثمان بن أبي العاص: يا رسول الله علّمني القرآن واجعلني إمام قومي.

رواه أحمد (٢١٨/٤)، وأبو داود (**٣٠٢٠**) في الإمارة والخراج وسنده صحيح إلاّ ما قيل في عدم سماع الحسن البصري من عثمان بن أبي العاص، غير أن معنى الحديث ثابت.

قوله: «لا يحشروا» بضمّ الياء وسكون الحاء وفتح الشين أي: لا يجمعون إلى الغزو، ولا تضرب عليهم البعوث، وقيل: لا يجمعون إلى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم، بل يأخذها في أماكنهم. وقوله: «ولا يُعْشَروا» هو في الشكل كسابقه، أي: لا يؤخذ عشر أموالهم. وقوله: «ولا يُجَبُّوا» بضم الياء وفتح الجيم ثم باء مضمومة مشدّدة. والتجبية أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: هو السجود ومرادهم بذلك أن لا يصلّوا.

لما أسلم مالك بن عوف النضري الذي كان يرأس هوازن أنعم عليه النبيّ ﷺ وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزوا ثقيفاً ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول في الإسلام فأسلموا مصداقاً لقوله ﷺ: «**اللّهمّ اهد ثقيفاً**»، فبعثوا وفداً منهم إلى رسول الله ﷺ مكوّناً من بضعة عشر رجلاً، وكان فيهم رئيسهم كنانة بن عبد ياليل وعثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، فقدموا على النبيّ ﷺ في رمضان فور مقدمه من تبوك، فأنزلهم بالمسجد وأكرم نزلهم، فبايعوه ﷺ على الإسلام وشرط لهم رسول الله ﷺ شروطاً... فقالوا له: لا تضرب علينا البعوث للغزو، ولا

تأخذ منّا عشر أموالنا، ولا تأمرنا بالصلاة، ولا تستعمل علينا غيرنا، فأجابهم إلى ما قالوا، غير أنه قال لهم: لا خير في دين لا ركوع فيه، يعني: ليس فيه صلاة، وأخبر ﷺ بأنهم إذا تمكّن الإسلام من قلوبهم سيتصدّقون ويجاهدون... وفي هذه القصة إشارة إلى أنه ينبغي أن يُتَسامَح مع من يريد الدخول في الإسلام، وأن لا يكثر عليه من بيان التكاليف، فإنه إذا خالط الإيمان قلبه فسوف يأتي بجميع التكاليف بدون كبير كلفة ولا إكراه.

* * *

❋ تامير النبيّ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف

[٥٤٠] عن عثمان بن أبي العاص قال: لمّا استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أُصلّي، فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ فقال: **«ابن أبي العاص؟»** قلت: نعم يا رسول الله، قال: **«ما جاء بك»**؟ قلت: يا رسول الله عرض لي شيء في صَلاتي حتى ما أدري ما أصلي، قال: **«ذاك الشيطان أُدْنُه»**، فدنوت منه فجلست على صدور قدمي، قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي، وقال: **«أخرُجْ عدُوّ الله»**، ففعل ذلك ثلاث مرات ثم قال: **«الْحَقْ بِعَمَلِك»**، قال: فلَعَمْري ما أحسبه خالطني بعد.

رواه ابن ماجه في الطب رقم (٣٥٤٨)، قال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

[٥٤١] في الحديث أن عثمان هذا كان عاملاً على الطائف وإماماً لقومه، وقد جاء في حديث له، قلت: يا رسول الله اجعلني إمام قومي، فقال: **«أنتَ إمامُهم واقتدِ بأضعفِهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً»**.

رواه أحمد (٢١٧/٤)، وأبو داود (٥٣١)، والنسائي وابن ماجه (٩٨٧) بسند صحيح، وتقدم في الصلاة بالاقتصار على الأذان، انظر (ج ٢٩٦/١) رقم حديث (٥٣٨).

وفيه أن الشيطان قد يحول بين الإنسان وبين صلاته، وقد تقدم في الأذان ما يدلّ على ذلك، وهذا الشيطان الذي كان يوسوس عثمان هذا كان جنياً طارئاً وليس قرينه، ولذلك أخرجه النبيّ ﷺ برقياه وتفله، بل هو شيطان خاص بالصلاة للحديث التالي:

[٥٤٢] عن عثمان بن أبي العاص رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، قال: فقال ﷺ: **«ذاك شيطان يقال له: خِنْزَبٌ، فإذا أحْسَسْتَه فتَعَوَّذْ بالله منه واتْفِلْ عن يَسارِك ثلاثاً»**، قال: ففعلت، فأذهبه الله عني.

رواه أحمد (٢١٦/٤)، ومسلم في السلام رقم (٢٢٠٣).

فهذا الحديث مطابق للحديث السابق، ذكر هناك مطوّلاً وهنا مختصراً، وبيّن فيه هنا أن اسم هذا الشيطان خِنْزَبٌ ـ بكسر الخاء وسكون النون وفتح الزاي ـ وأنه شيطان الصلاة، وفيه دليل على أن التَّفْلَ في الصلاة لا يُبْطلها.

* * *

حجّ أبي بكر بالناس في السنة التاسعة وإردافه بالإمام علي رضي الله تعالى عنهما

[٥٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجّة في مؤذّنين يوم النحر بمنى أن لا يحجّ بعدَ العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيتِ عُريانٌ. ثم أردف رسولُ الله ﷺ بِعَلِيّ بن أبي طالب، وأمره أن يُؤَذّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذّن معنا عليٌّ يومَ النّحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان إلا الذين عاهدتم من المشركين.

رواه البخاري في التفسير (٣٨٨/٩، ٣٩٠) وفي مواضع، ومسلم في الحج (١١٥/٩، ١١٦) وغيرهما.

[٥٤٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بعث النبيّ ﷺ

أبا بكر وأمَرَهُ أن يُنادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتْبَعَه عليّاً، فبَيْنا أبو بكر في بعض الطريق إذ سمع رُغَاءَ ناقةِ رسول الله ﷺ القَصْواء، فخرج أبو بكر فَزِعاً فظنّ أنه رسول الله ﷺ، فإذا عليّ فدفع إليه كتابَ رسول الله ﷺ وأمر عليّاً أن يُنادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجّا فقام عليٌّ أيام التشريق، فنادى: ذمّة الله ورسوله ﷺ بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يَحُجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يَطوفنَّ بالبيت عُريان، ولا يدخل الجنّة إلا مؤمن، وكان عليّ ينادي فإذا عيي قام أبو بكر فنادى.

رواه الترمذي في التفسير (٣٨٩١) بتهذيبي بسند صحيح.

[٥٤٥] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: بعث النبيّ ﷺ ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا يَنْبَغِي لأحدٍ أن يُبَلِّغَ هذا إلا رجلٌ مِن أهلي، فدعا عليّاً فأعطاه إيّاه.

رواه الترمذي أيضاً (٢٨٩٠) بسند صحيح على شرط مسلم.

بعد أن فتحت مكّة المكرمة أصبحت دار إسلام والسلطة فيها للإسلام والمسلمين، ولمّا حضر موسم الحجّ في السنة التاسعة بعث النبيّ ﷺ الصدّيق رضي الله تعالى عنه أميراً على الحجّ، وأمَرَه أن يُنادي في الموسم بأن لا يحجّ بعد ذلك العام أحد من المشركين، ولا يطوف ببيت الله عريان كما كان الحال في الجاهلية، ولما خرج وكان في بعض الطريق لحقهُ الإمام عليّ عليه السلام وإذا به قد بعثه النبيّ ﷺ مردفاً لأبي بكر بنفس ما بعثه به، فتعاونا على ذلك مع جماعة من مساعديهم كما قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، وقد تقدم لنا شيء من هذا في التفسير.

* * *

❋ وفود القبائل العربية على النبيّ ﷺ في السنة التاسعة

كانت القبائل العربية تنتظر سكان الحرم من أهل مكّة إلى ماذا سيؤول أمرهم تجاه النبيّ ﷺ، فلما فتحت مكّة وأسلم أهلها علمت هذه القبائل

أن النبي ﷺ قد انتصر على أهل الحرم، وأن أمره في انتشار، وازدادوا هلعاً بعد انهزام هوازن ومن شايعها أمام جيوش الإسلام، فلم يجدوا عند ذلك بدّاً من إشهارهم إسلامهم ومبايعتهم النبيّ ﷺ عليه، ودخولهم معه فيما دخل فيه أشراف العرب وهم سكان الحرم، فجعلوا يبعثون إليه ﷺ الوفود تبايعه نيابةً عنهم، وكان أوّل وفد قدم عليه وفد ثقيف من أهل الطائف كما تقدم، وبعد حجّة الصدّيق والإمام عليّ رضي الله تعالى عنهما وأذانهما في الحرم بأنه لا يَقْرَبُ البَيْتَ بعدَ هذا العام مشركٌ ولا يطوفُ به عريانٌ، توالت الوفود على النبيّ ﷺ. . . وهم بضعة عشر وفداً، وسنذكرها وفداً وفداً بإذن الله تعالى وعونه.

* * *

وفد بني تميم

[٥٤٦] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على النبيّ ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «**اقْبَلُوا البُشْرى يا بَنِي تَمِيم**»، قالوا: قد بشرتنا فأعطِنا مرّتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «**اقبَلُوا البُشْرى يا أهل اليمن إن لم يَقْبَلْها بنو تميم**»، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: قد جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذّكر كل شيء وخلق السموات والأرض**».

رواه البخاري والترمذي والنسائي في الكبرى، وقد تقدم في التفسير وغيره.

قوله: «نسألك عن هذا الأمر» يعنون هذا العالم، وما فيه، ومن خلقه، وكيف كان الشأن قبله، لذلك أجابهم النبيّ ﷺ بأنه كان الله وحده ولم يكن شيء معه ولا أحدٌ سواه، ثم خلق هذا العالم. وانظر ما سبق في بدء الخلق.

[٥٤٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لا أزال أحبّ بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: **«هم أشدُّ أمّتي على الدجّال»**، وكانت فيهم سَبِيَّةٌ عند عائشة فقال: **«أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل»**، وجاءت صدقاتهم فقال: **«وهذه صدقات قومي»**.

رواه البخاري في المغازي (١٤٦/٩)، ومسلم في الفضائل ويأتي هنالك.

«سبية» بفتح السين وكسر الباء ثم ياء مشدّدة وتُخفّف أي: جارية مسبية.

وفي الحديث جواز استرقاق العرب، وقد تقدم ذلك في الجهاد، وفيه فضل هذه القبيلة وقد قدّمنا في التفسير أنه تخاصم الصديق والفاروق رضي الله تعالى عنهما في تأمير القعقاع بن معبد، والأقرع بن حابس وكانا من بَني تميم.

* * *

❁ وفد بني عامر

[٥٤٨] عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله تعالى عنه أنه وَفَد إلى النبيّ ﷺ في رَهْطٍ من بَنِي عامر، قال: فأتيناه فسلّمنا عليه، فقلنا: أنت وليّنا، وأنت سيّدنا، وأنت أطول علينا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت الجَفْنَة الغراءُ، فقال: **«قولوا قولتكم ولا يَسْتَجِرَنّكُمْ الشيطانُ»**، وربما قال: **«ولا يَسْتَهْوِيَنّكُمْ»**.

رواه أحمد (٢٥/٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٧٠/٦).

ما قاله هؤلاء في النبيّ ﷺ كلّه حقّ، ولكنّه تواضع فحذّرهم من ذلك لئلا يقيسوا غيره عليه ﷺ فيمدحوه بما لا يجوز بما ليس فيه. وبنو

عامر هؤلاء هم الذين كان منهم عامر بن الطُّفيل رئيسهم الذي غدر بالقرّاء السبعين حتى قُتِلوا عن آخرهم، كما تقدم في غزوة بئر معونة.

* * *

وفد ضمام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر

[٥٤٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بعث بنو سعد بن بكر ضِمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد، ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جَلداً أشْعَر ذا غَدِيرَتَيْنِ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»**، قال: محمد، قال: **«نعم»**، فقال: ابنَ عبدِ المطلب إني سائلك ومُغْلِظٌ في المسألة، فلا تجِدَنَّ في نفسك، قال: **«لا أجِدُ في نفسي فَسَلْ ما بَدا لك»**، قال: أنشدك الله إلٰهك وإلٰه مَن كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال: **«نعم»**، قال: أنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك، وإلٰه مَن هو كائنٌ بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نُشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: **«اللّهمّ نعم»**، قال: فأنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلّي هذه الصلوات الخمس؟ قال: **«اللّهمّ نعم»**.

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة، والصيام، والحجّ، وشرائع الإسلام كلها يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص.

قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولّى: **«إن يَصْدُقْ ذو العَقِيصَتَيْنِ يدخل الجنة»**، قال: فأتى إلى بعيره فأطلق عِقاله

ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلَّم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضمام اتّق البَرَص والجُذامَ، اتّق الجنون. قال: ويلكم إنهما والله لا يَضُرّان، ولا يَنْفَعان، إن الله عزّ وجلّ قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضلَ من ضمام بن ثَعلبة.

رواه أحمد (٢٦٤/١)، وأبو داود في الصلاة (٤٨٧)، وابن سعد (٢٩٩/١)، والحاكم (٥٤/٣، ٥٥) وصححه ووافقه الذهبي، وتقدّم نحوه من حديث أنس في كتاب الإيمان وهو في الصحيحين وغيرهما.

قوله: «رجلاً جلداً» بفتح الجيم وسكون اللام أي: قوياً. «أشعر» أي: كثير الشعر. «غديرتين» أي: ضفيرتين وهما العقيصتان. قوله: «أنشدك بالله» أي: أسألك بالله رافعاً صوتي بطلب ذلك.

كان ضمام هذا جافياً لا يعرف كيف يخاطب الرسول الكريم ﷺ على عادات سكان البادية الذين يغلب عليهم الغلظة والقساوة والجفاء، ومع ذلك فقد كان سؤاله سؤال الحكماء، وكان خير وافد لقومه، فقد أسلموا بدعوته عن آخرهم، والحديث يدلّ على أن الحجّ كان مفروضاً في هذه السنة، وقد قدّمنا ما في ذلك في الحجّ وغيره.

* * *

❋ وفد عبد القيس

[٥٥٠] عن مزيدة العصري رضي الله تعالى عنه قال: بينا النبيّ ﷺ يحدّث أصحابه إذ قال لهم: **«سيطلعُ عليكم من هٰهنا ركبٌ هم خَيرُ أهل المشرق»**، فقام عمر فتوجّه نحوهم فلقي ثلاثة عشر راكباً فقال: مَن القوم؟ قالوا: من بني عبد القيس، قال: فما أقدمكم هذه البلاد أتجارة؟ قالوا: لا،

قال: أما إن النبيّ ﷺ قد ذكركم آنفاً فقال خيراً، ثم مشى معهم حتى أتوا النبيّ ﷺ، فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدونه، فرمى القوم بأنفسهم من ركائبهم، فمنهم من مشى إليه، ومنهم من هَرْول، ومنهم من سعى حتى أتوا النبيّ ﷺ، فأخذوا بيده فقبّلوها، وتخلّف الأشجُ في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد الرسول ﷺ فقبّلها، فقال له النبيّ ﷺ: **«إن فيك خلّتَين يحبهما الله ورسولُه»**، فقال: جُبِلٌ جُبِلْتُ عليه أم تخلّقاً مني؟ قال: **«بل جبلٌ»**، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحبّ الله ورسوله.

رواه أبو يعلى (٦٨١٥)، والبيهقي في الدلائل (٣٢٧/٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٥) عن الوازع بن عامر مختصراً، وأورده النور (٣٨٨/٩) برواية الطبراني وأبي يعلى قال: ورجالهما ثقات وفي بعضهم اختلاف، فالحديث حسن جيد.

تقدم لنا حديث ابن عباس في مجيء وفد عبد القيس إلى النبيّ ﷺ في كتاب الإيمان بأبسط وأحسن من هذا، وهو في الصحيحين وغيرهما.

غير أن حديث الباب فيه أن الوفد قبّلوا يد النبيّ ﷺ، وهي فائدة وزائدة عزيزة تدلّ على جواز تقبيل يد الأكابر والصالحين، وقد جمع العلماء الأحاديث والآثار في ذلك من آخرهم المحدث السيد عبدالله بن الصديق رحمه الله تعالى له كتاب «إعلام النبيل بجواز التقبيل» ويأتي لهذا موضوع في الأدب.

* * *

❋ شغل وفد عبد القيس النبيّ ﷺ عن راتبة الظهر

[٥٥١] عن كُرَيْبٍ رحمه الله تعالى أن ابن عباس والمسور بن مخرمة وعبدالرحمٰن بن أزهر رضي الله تعالى عنهم أرسلوه إلى عائشة رضي الله

تعالى عنها، فقالوا: اقرأ عليها السلام منا جميعاً وسلها عن الركعتين بعد صلاة العصر، وقل لها: إنا أُخْبِرْنا أنك تصلّيهما، وقد بلغنا أن النبيّ ﷺ نهى عنهما، وقال ابن عباس: وكنت أضرب الناس مع عمر بن الخطاب عنهما، قال كُرَيْب: فدخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها فبلّغْتُها ما أرسلوني، فقالت: سَلْ أمّ سلمة، فخرجت إليهم فأخبرتهم بقولها، فردّوني إلى أمّ سلمة بمثل ما أرسلوني إلى عائشة، فقالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها: سمعت النبيّ ﷺ ينهى عنهما، وأنه صلّى العصر ثم دخل عليّ وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار فصلاّهما، فأرسلنا إليه الخادم فقلت: قُومي إلى جنبه فقولي: تقول أم سلمة: يا رسول الله ألم أسمعْك تنهى عن هاتين الركعتين فأراك تصلّيهما، فإن أشار بيده فاسْتَأْخِري، ففعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: يا بنت أبي أُمَيّة سألت عن الركعتين بعد العصر، إنه أتاني أناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان.

رواه البخاري في الصلاة رقم (١٢٢٣) وفي المغازي (١٤٨/٩، ١٤٩)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٨٣٤)، وأبو داود في الصلاة (١٢٧٣).

كان النبيّ ﷺ يحافظ على الرواتب، كالصلاة قبل الظهر وبعدها كما تقدم في النوافل من الصلاة، فلما قدم عليه وفد عبد القيس انشغل معهم في شأن إسلامهم... حتى حضرت العصر، فصلّى العصر ثم قضى الركعتين اللتين فاتتاه بعد الظهر ثم داوم عليهما؛ لأنه ﷺ كان إذا صلّى صلاة أثبتها وحافظ عليها، ويعدُّ ذلك من خصائصه كما قالوا.

وفي الحديث جواز الإشارة في الصلاة لإفهام الغير، وفيه اهتمام النبيّ ﷺ بالمسلمين الجُدُد، وأنه قدَّم كلامَه معهم في شؤون الإسلام على صلاة النافلة، لأن ذلك كان أهمّ وأعمّ منفعة من تلك الصلاة.

* * *

❊ وفد بني حنيفة وخبر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي

[٥٥٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قدم مُسَيْلِمَةُ الكذّاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جَعل لي مُحمّد الأمرَ مِن بعده تبعْتُه، وقدِمَها في بَشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابِتُ بنُ قيس بن شمّاس، وفي يد رسول الله ﷺ قِطْعَةُ جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتَنِي هذه القطعة ما أعْطَيْتُكَها، ولن تَعْدُوَ أمْرَ الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعْقِرَنَّك الله، وإني لأراك الذي أُرِيتُ فيه ما رأيت وهذا ثابت يُجيبك عني ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: **«وإني لأراك الذي أُرِيتُ فيه ما رأيت»**، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمّني شأنُهما، فأوحى إليَّ في المنام أن انفُخْهُما، فنفختُهما فطارا، فأوّلتُهما كذابين يخرجان من بعدي؛ أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»**.

وفي رواية: **«بينما أنا نائمٌ أُتِيتُ بخزائن الأرض فوضع في كفّي سواران من ذهب فكَبرا عليّ، فأوحي إليَّ أن أنفخهما فنفخْتُهما فذهبا فأوَّلتهما الكذّابين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»**.

رواه البخاري في المغازي (٩/١٥١، ١٥٢)، ومسلم في الرؤيا وغيرهما، وقَدْرُ الرؤيا منه تقدم في الرؤيا.

«مُسَيْلمة» بضم الميم وفتح السين وسكون الياء ثم لام مكسورة هو الكذاب الذي ادّعى النبوّة أيام النبيّ ﷺ باليمامة، وتبعه قومه بنو حنيفة، ولما توفي النبيّ ﷺ ارتدَّ كثير من الأعراب والتحقوا به واتّبعوه فبعث إليه الصدّيق رضي الله تعالى عنه جنود الله، فوقعت معارك طاحنة بينه وبينهم أودت بقتله وانهزام جنده، وكان وفد على النبيّ ﷺ وطلب منه أن يجعل الخلافة له بعده، فقال له النبيّ ﷺ: **«لو سألتني هذه القطعة - يعني من جريد النخل - لما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك...»** إلى آخره، فكان كما أخبر.

أما «العنسيّ»، فكان ادّعى النبوّة باليمن بمدينة صنعاء فقتل أيضاً على يد جنود الله تعالى، قتله فيروز بمساعدة المرزبان زوجة العنسي، وكان ذلك آخر حياة النبيّ ﷺ، وسيأتي مزيد لقصة مسيلمة في فضائل الصدّيق رضي الله تعالى عنه.

* * *

❋ وفد الأشعريّين

[٥٥٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَقْدم عليكم أقوامٌ هم أرَقُّ منكم قلوباً»**، قال: فقدم الأشعريّون فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون يقولون: غداً نَلْقَى الأَحِبَّة مُحمداً وحِزْبَهْ.

رواه أحمد (١٠٥/٣، ١٨٢، ٢١٢، ٢٦٢) وفي مواضع، وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل (٣٥١/٥) وإسناده صحيح.

[٥٥٤] وعن جُبَيْر بن مُطْعم رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بطريق مكّة؛ إذ قال: **«يطلُع عليكم أهلُ اليمن كأنهم السَّحابُ هم خِيارُ مَنْ في الأرض»**، فقال رجل من الأنصار: ولا نحن يا رسول الله؟ فسكت، قال: ولا نحن يا رسول الله ﷺ فسكت قال: ولا نحن يا رسول الله ﷺ فقال في الثالثة كلمة ضعيفة: **«إلا أنتم»**.

رواه أحمد (٨٤/٤)، والطبراني وأبو يعلى (٧٣٦٤)، قال النور في المجمع (٥٥/١٠): وإسناده حسن.

في الحديثين فضل أهل اليمن من الأشعريّين وغيرهم، وأنهم من خيار أهل الأرض، وذلك لقوّة إيمانهم ورقّة قلوبهم وشدّة محبّتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، وسيأتي مزيد لهذا في الفضائل، وقول أنس: فيهم أبو موسى الأشعري يحتمل أن يكون وهماً، ويحتمل أن يكون أبو موسى بعدما جاء أيام خيبر رجع إلى بلاده فجاء مع الوفد.

* * *

✻ وفد مُزَيْنَة

[٥٥٥] عن النُّعْمان بن مُقَرّن رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة، فأمرنا رسول الله ﷺ بأمره، فقال بعض القوم: يا رسول الله ما لنا طعام نتزوّده؟ فقال النبيّ ﷺ لعمر: «زَوِّدْهُمْ»، فقال: ما عندي إلا فاضلةٌ من تَمْر وما أراها تُغني عنهم شيئاً، فقال: «انطلق فزوّدهم»، فانطلق بنا إلى عُلِّيَّةٍ له، فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق، فقال: خذوا، فأخذ القومُ حاجتَهم قال: وكنتُ أنا في آخر القوم، قال: فالتفتُّ وما أفْقِدُ موضعَ تمرة، وقد احتمل منه أربعُمِائة رجلٍ...

رواه أحمد (٥/٤٤٥) بسند صحيح، إن صح سماع سالم بن أبي الجعد من النعمان، لكنه له شاهد عن دكين بن سعد، قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن أربعون وأربعمائة نسأله الطعام فذكره بنحوه. رواه أحمد (٤/١٧٤) من طرق بعضها صحيحة، وعزاه النور (٨/٣٠٤، ٣٠٥) كسابقه لأحمد والطبراني وقال: رجالهما رجال الصحيح...

قوله: «فاضلة» أي: الباقي منه. «وما أراها» بضم الهمزة أي: ما أظنها. «تُغني» أي: تُجزي. «عُلِّيَّة» بضمّ العين وكسرها بعدها لام مشدّدة مكسورة ثم ياء مشدّدة مفتوحة هو بيت منفصل عن الأرض. «البكر» بفتح الباء الفتي من الإبل. «الأورق» هو ما فيه بياض إلى سواد، ومراده بهذا التشبيه أن ذلك التمر قليل.

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ ظهرت في طعام عمر وتمره بنمائه وبركته حتى تزوّد منه أربعمائة نفر، وبقي كما كان لم ينقص منه شيء.

* * *

✻ وفد دَوْسٍ قوم أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

[٥٥٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء الطُّفيل بن عمرو

إلى النبيّ ﷺ فقال: إن دوساً قد هلكت عَصَتْ وأبَتْ، فادْعُ الله عليهم، فقال ﷺ: **«اللّهمّ اهْدِ دَوْساً وائتِ بِهِم»**.

رواه البخاري في المغازي (١٦٤/٩) وفي الجهاد وفي الدعوات، ومسلم في الفضائل (٧٧/١٦).

«دوس» بفتح الدال وسكون الواو بلدة باليمن كان منهم أبو هريرة، والطُّفيل بن عمرو . أما الطفيل، فكان قد أسلم قديماً، والنبيّ ﷺ لا يزال بمكّة لم يهاجر بعد، ثم وفد إليه بالمدينة أيام الوفود وأخبره عن عصيان دوس، فدعا معهم ﷺ بالهداية فوفقهم الله فأسلموا.

❋ ❋ ❋

❋ وفد نَجْـرَان

[٥٥٧] عن حُذَيْفة رضي الله تعالى عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيّاً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قال: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: **«لأبعثن معكم رجلاً أميناً حَقَّ أمين»**، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: **«قم يا أبا عُبَيدة بن الجراح»**، فلما قام قال رسول الله ﷺ: **«هذا أمِينُ هذه الأمّة»**.

رواه أحمد (٣٩٨/٥، ٤٠٠)، والبخاري في المغازي (١٥٦/٩، ١٥٧) وفي الفضائل، ومسلم في الفضائل (١٩٢/١٥)، والترمذي في المناقب أيضاً. . . وابن ماجه (١٣٥) وغيرهم، ونحوه عن ابن مسعود رواه أحمد (٤١٤/١)، والحاكم (٢٦٧/٣) بسندٍ صحيح.

«نجران» بلد كبير بين الحجاز واليمن وهو إلى اليمن أقرب، وهو في حدود المملكة العربية الآن كان يسكنه قديماً النصارى والآن يسكنه الشيعة بكثرة.

وكان قد وفد منه إلى النبيّ ﷺ هذان الرجلان من كِبار المسيحيّين، وأرادا ملاعنته ﷺ كما أمره الله تعالى بذلك فخافا من ذلك على أنفسهما وعلى عقبهما من الهلاك، فصالحا النبيّ ﷺ على أداء الجزية، وكان ذلك ألفي حلّة: ألفاً في رجب، وألفاً في صفر، ومع كل حلّة أوقية من فضّة، وفي سنن أبي داود (٣٠٣٦) عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام صالحهم على ألفي حلّة وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردّوها عليهم. . . على أن لا تهدم لهم بيعةٌ ولا يخرج لهم قَسٌّ ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الرّبا، ويقال: إن هذين العاقب والسيد أسلما بعد ذلك كما ذكره ابن سعد.

والمباهلة قدمنا معناها في التفسير عند قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية، والكلام على أبي عبيدة يأتي في الفضائل.

* * *

وفد كندة والأشعث بن قيس

[٥٥٨] عن الأشعث بن قيس رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفضَلَهم، فقلت: يا رسول الله ألستم منّا؟ فقال: «**نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمّنا ولا ننتفي من أبينا**».

قال: فكان الأشعث بن قيس يقول: «لا أُوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدّ».

رواه أحمد (٥/٢١١، ٢١٢)، وابن ماجه وغيرهما وسنده صحيح وتقدم في نسب النبيّ ﷺ رقم (١).

الأشعث بن قيس سيد كندة وأميرها في الجاهلية والإسلام وفد على

النبيّ ﷺ في جمع من قومه وأسلم، ولما كانت أيام الصديق امتنع كقومه من أداء الزكاة، فبعث إليهم مَن قاتلهم وأتي بالأشعث موثقاً إلى أبي بكر، فراجع شأنه وحَسُن إسلامه فزوّجه الصدّيق أُخته وحضر المشاهد والفتوحات وأبلى البلاء الحسن، ثم كان مع الإمام عليّ عليه السلام، فشهد معه صفّين والنهروان وتوفي بعد مصالحة الحسن عليه السلام معاوية عام ٤٠، وله أخبار كثيرة مشهورة في كتب التاريخ.

* * *

قُدُومُ جَرِيرِ بنِ عبدِالله البَجَليّ

[٥٥٩] عن جرير بن عبدالله البجليّ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا دنوت من المدينة أنَخْت راحلتي ثم حللت عيبتي، ثم لبست حلّتي، ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ذكرك بأحسن الذِّكر بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: **«يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفجّ من خير ذي يمن ألا إن على جبهته مسحة ملك»**، قال جرير: فحمدت الله عزّ وجلّ على ما أبلاني.

رواه أحمد (٣٥٦/٤، ٣٦٠، ٣٦٤)، والحميدي (٨٠٠) وغيرهما بسند صحيح.

[٥٦٠] وعنه قال: ما حجبني عنه رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسّم.

رواه أحمد (٣٥٨/٤، ٣٦٥)، والبخاري في المناقب (١٣٢/٨)، ومسلم في الفضائل (٣٤/١٦، ٣٥)، والترمذي (٣٥٩١)، وابن ماجه (١٥٩).

جرير بن عبدالله البجلي كان من خثعم اليمنية أسلم في هذه السنة مؤخراً، وكان من أشراف قومه جميل الصورة طويلاً، كانت قامته ثلاثة

أمتار، ولذلك لمّا قدم على النبيّ ﷺ ودخل المسجد رماه الناس بأبصارهم ينظرون إليه تعجّباً من طوله وجمال صورته، وفي الحديثين فضيلة له حيث أثنى النبيّ ﷺ عليه وأنه كان لا يحجبه عنه، كما كان لا يراه إلا تبسّم ﷺ.

* * *

❋ بعث النبيّ ﷺ جريراً لِتَخْرِيب ذي الخَلَصةِ

[٥٦١] عن جرير رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألاَ تُرِيحُنِي من ذي الخَلَصة»، فقلت: بلى، فانطلق في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أَثْبُتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فَضَرَبَ يدَهُ على صَدْرِي وقال: «اللّهمّ ثَبِّتْه، واجعله هادياً مهديّاً»، قال: فما وقعت عن فرس بعد، قال: وكانت ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة في نُصُبٍ تُعْبَدُ يقال لها الكعبة - يعني اليمانية - قال: فأتاها فحرّقها بالنار وكسرها، قال: ولمّا قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام، فقيل له: إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لَتُكَسِّرنّها ولتشهدَنّ أن لا إله إلا الله أو لأضربنّ عنقك، قال: فكسّرها وشَهِدَ. ثم بعث جريرٌ رجلاً من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلى النبيّ ﷺ يبشره بذلك، فلما أتى النبيّ ﷺ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ ما جئت حتى تركتها كأنها جملٌ أجربُ، قال: فبرك النبيّ ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.

رواه أحمد (٣٦٢/٤، ٣٦٥)، والحميدي (٨٠١)، والبخاري في المغازي (١٣٢/٩، ١٣٥)، ومسلم في الفضائل (٣٥/١٦، ٣٦)، وأبو داود والترمذي في المناقب وابن ماجه.

«ذو الخلصة» - بفتحات - هو اسم صنم كان ببيت في أرض خثعم، وكانوا يسمّونها الكعبة اليمانية. وقوله: «كأنها جمل أجرب» هو عبارة عن

تهديمها وتفريق حجارتها ونزع زينتها وإذهاب بهجتها، وأصبحت كأنها سوداء لما وقع فيها من التحريق.

وفي الحديث وجوب تهديم أثر الشرك وإزالة علاماته وتحريق ذلك، وفيه فضل جرير وقومه الأحمسيين حيث دعا معهم النبيّ ﷺ خمس مرات، وفيه تخصيص جرير بالدعاء معه بالثّبات على الخيل، وأن يكون هادياً لغيره مهديّاً في نفسه.

* * *

❊ بعثُ النبيّ ﷺ بُعُوثاً إلى اليَمَن للدَّعْوَةِ إلى الله تعالى إرسال عليّ وخالد إلى هَمْدان

[٥٦٢] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، فقال: «**مُرْ أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعَقِّب معك فليعقب، ومن شاء فليُقْبِل**»، فكنتُ فيمن عقَّب معه قال: فغنِمْتُ أواقي ذوات عدد. زاد في رواية: فكنت ممن عقب معه، فلما دَنَوْنا من القوم خرجوا إلينا فصلّى بنا عليّ وصفّنا صفّاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدانُ جميعاً، فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال: «**السلام على همدان**».

رواه البخاري في المغازي (١٢٧/٩) بالرواية الأُولى، والإسماعيلي في المستخرج على البخاري بالزيادة الثانية كما أفاده الحافظ.

قوله: «من شاء أن يُعَقِّب» أي: يرجع إلى اليمن ليصيب غزوة أخرى، وقيل: يرجع إلى بلده ليخلفه غيره... وكلاهما محتمل. وفي الحديث مشروعيّة إرسال الدُّعاة إلى الله تعالى والقتال على الإسلام، وفيه مشروعية سجود الشكر وقد تقدم ذلك في الصلاة، وقد جاءت أحاديث أخرى تتعلّق

ببعث الإمام عليّ إلى اليمن تقدّم بعضها في الجهاد وفي الحجّ، وتأتي أخرى في الفضائل.

* * *

إرسال معاذ وأبي موسى إلى اليمن

[٥٦٣] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت إلى النبيّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريّين أحدهما عن يميني، والآخر عن شمالي، وكلاهما سأل العمل والنبيّ ﷺ يستاك، فقال: **«ما تقول يا أبا موسى؟ أو يا عبدالله بن قيس»**؟ قلت: والذي بعثك بالحقّ ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته، فلهث وقال: **«لن نستعمل أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبدالله بن قيس»**، فبعثه على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل، قال: فلما قدم عليه معاذ قال: انزل، وألقى له وسادة، وإذا رجل عنده مُوثَقٌ، قال: ما هذا؟ قال: كان يهودياً فأسلم ثم رجع إلى دينه دين السوء قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله، قال: نعم اجلس، قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله ـ ثلاث مرات ـ فأمر به فقُتِل ثم تذاكروا قيام الليل فقال معاذ: أما أنا فأنام وأقوم، أو أقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي.

وفي رواية: بعث النبيّ ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن، فقال: **«يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، وَتَطاوَعا»**، فقال أبو موسى: يا نبيّ الله إن أرضنا فيها شراب من الشعير المِزْرُ، وشرابٌ من العسل البِتْعُ، فقال: **«كل مسكر حرام»**، فانطلقا فقال معاذ لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائماً وقاعداً، وعلى راحلتي وأتَفَوَّقُه تفوُّقاً. قال: أما أنا فأنام وأقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.

وضرب فسطاطاً فجعلا يتزاوران فزار معاذ أبا موسى، فإذا رجل موثق فقال: ما هذا؟ فقال أبو موسى: يهودي أسلم ثم ارتدّ، قال معاذ: لأضربنّ عنقه.

رواه أحمد (٤/٤١٠، ٤١٦، ٤١٧)، والبخاري في المغازي (١٢٢/٩، ١٢٣، ١٢٥) وفي الأدب وفي الأحكام، ومسلم في الأشربة وابن ماجه فيه (٣٣٩١).

في الحديث بروايتيه أمور، أولاً: عدم توظيف أحد في شؤون الدولة ممن يطلبها، وقد تقدّم ذلك في الخلافة. ثانياً: قتل المرتدّ، وهذا لا خلاف فيه. ثالثاً: الاقتصاد في العبادة. رابعاً: مشروعية التيسير على الناس وتبشيرهم بدل التشديد والتيئيس، وذلك يختلف باختلاف المدعوّين والزّمانِ والمكان. خامساً: تحريم كل شراب يسكر من أيّ نوع كان، وقد تقدم هذا في الأشربة مبسوطاً.

***

❊ وصية النبيّ ﷺ معاذاً عند إرساله إلى اليمن

[٥٦٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حيث بعثه إلى اليمن: **«إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليه صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»**.

رواه أحمد (٢٣٣/١)، والبخاري في الزكاة وفي المغازي (١٢٦/٩)، ومسلم في الإيمان (١٩٦/١)، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٥٥٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٢) وفي المجتبى (٣/٥)، وابن ماجه (١٧٨٣) كلّهم في الزكاة، وتقدم مختصراً في أول الزكاة من الجزء الثاني ص (٥٢٨).

وفي الحديث بيان ما يُدْعَى إليه أهل الكتاب من الشرائع، وفيه

وجوب تجنّب كرائم أموال الناس في أخذ الزكاة، **وفيه التحفّظ** من الظلم خشية دعوة المظلوم، فإنها مقبولة عند الله لا تُرَدّ وإن كان فاسقاً.

***

❋ خروج النبيّ ﷺ مع معاذ يودّعه ويخبره بأنه لن يراه بعدُ

[٥٦٥] عن عاصم بن حُمَيْد السكوني رضي الله تعالى عنه أن معاذ بن جبل لمّا بعثه النبيّ ﷺ إلى اليمن، فخرج النبيّ ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: **«يا معاذ إنَّكَ عَسَى أنْ لا تَلْقاني بعدَ عامي هذا، ولعلَّك أن تَمُرَّ بمسجدي وقبري»**، فبكى معاذ خاشعاً لفراق النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: **«لا تَبْكِ يا معاذ، البكاء ـ أو إن البكاء ـ من الشيطان»**.

رواه أحمد (٥/٢٣٥)، وابن حبان (٢/٤١٤) مع الإحسان، والبيهقي في السنن (١٠/٨٦) وفي الدلائل (٥/٤٠٤، ٤٠٥)، وعزاه النور (١٠/١٣١، ١٣٢) للطبراني وقال: إسناده جيّد وأورده أيضاً (٩/٢٢) وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال الإسنادين رجال الصحيح غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد وهما ثقتان، فالحديث صحيح، وللحديث زيادة ستأتي في موضع آخر.

في الحديث عَلَمٌ من علامات النبوّة حيث أخبر ﷺ معاذاً، وقد بعثه إلى اليمن بأنه سوف لا يلقاه بعد عامه ذاك، وأنه سوف يأتي فيجده قد توفي ﷺ فيأتي مسجده وقبره الشريف، فكان الأمر كذلك، فكانت تلك آخر رؤية رآه فيها، فتوفي ﷺ ومعاذ باليمن.

وفيه: البكاء من فراق الأحبّة، وقوله عليه السلام: **«لا تبك إن البكاء من الشيطان»** ليس هذا على إطلاقه، فإن البكاء المذموم هو ما كان فيه شقّ الثياب، ولطم الخدود وسلق اللّسان، وما عدا ذلك فمحمود، لا سيما

البكاء شوقاً إلى الله وإلى رسوله ﷺ، بل ذلك يعدّ من أشرف الأحوال جعلنا الله تعالى من أهله، آمين. ولعل معاذاً ظهر مع بكائه ما يذم عليه.

* * *

❁ من أحداث هذه السنة (٩)

هلاك ابن أُبيّ المنافق

[٥٦٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لما تُوُفّي عبدُالله بن أُبَيّ ابن سلول جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه إيّه فأعطاه، ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه، فقال رسول الله ﷺ: **«إنما خيّرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، وسأزيده على سبعين»**، قال: إنه منافق، فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٤٠٣/٩، ٤٠٨)، ومسلم في الفضائل (١٦٧/١٥) وفي صفات المنافقين (١٢١/١٧) وغيرهما.

وقد تقدم في التفسير مع حديثٍ آخر لعمر رضي الله تعالى عنه.

كان عبدالله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين شريراً خبيثاً له مواقف شهيرة في الطعن في الإسلام وعداوة النبي ﷺ ومصادقته لليهود ضدّ الإسلام، وهو الذي أثار قصة الإفك وقذف السيدة عائشة بصفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنهما، وكان له ولد اسمه عبدالله صادقاً في إسلامه تأسّف على والده بعد موته منافقاً، وأراد أن تلحقه بركة النبيّ ﷺ، وهيهات هيهات، فسأل النبيّ ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفّنه فيه فأعطاه إيّاه ثم طلب منه أن يصلّي عليه عسى الله أن يرحمه فصلّى عليه فنزل القرآن

ينهاه عن الصلاة على المنافقين وعن القيام على قبورهم، وذلك لكفرهم وفسقهم، وكان ذلك من موافقات عمر الذي أراد أن يمنع النبيّ ﷺ من الصلاة على ذلك الخبيث.

أمّا القميص الذي أعطاه النبيّ ﷺ عبدالله، فكان بسبب يدٍ له عند النبيّ ﷺ كما في الحديث التالي:

[٥٦٧] فعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا كان العباس بن عبد المطلب بالمدينة طلبت الأنصار ثوباً يكسونه فلم يجدوا قميصاً يصلح عليه إلا قميص عبدالله بن أُبيّ فكسوه إياه. وفي رواية: لما كانوا يوم بدر أُتِي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبيّ ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبدالله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبيّ ﷺ إيّاه، فلذلك نزع النبيّ ﷺ قميصه الذي ألبسه.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: كانت له عند النبيّ ﷺ يَدٌ فَأَحَبَّ أن يكافئه...

رواه البخاري في الجهاد باب الكسوة للأسارى رقم (٣٠٠٨).

* * *

خلاصة ما وقع في السنة التاسعة من أحداث

وقع فيها بدايةً جمع الصدقات، وإسلام عدي بن حاتم الطائي، وغزوة تبوك وفيها أحداث: كإخباره بوجهة خروجه، وأمره بالصدقة استعداداً للغزوة، وذكر البكّائين، واستخلافه الإمام عليّاً على المدينة، ومروره ﷺ على بلاد ثمود، وما أصاب الصحابة في طريقهم من الشدّة، ومرورهم على حديقة امرأة بوادي القرى وإخباره ﷺ بهبوب ريح عاصفة وما حصل في عين تبوك من بركة النبيّ ﷺ، ومدة إقامته بتبوك، وإهداء ملك أيلة للنبيّ ﷺ بغلة بيضاء، وقصة أُكيدر دومة الجندل، واستهزاء المنافقين بالله وبآياته ورسوله، ومحاولتهم الفتك برسول الله ﷺ، وبركته ﷺ في الإبل

والرواحل بعد جهدها، ثم دخوله ﷺ المدينة واستقبال الناس إياه بثنيّة الوداع، ثم ذكر حديث كعب بن مالك الطويل في توبة الله على الثلاثة الذين خلّفوا، ثم قدوم وفد ثقيف على النبيّ ﷺ مسلمين، ثم تأمير النبيّ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف، ثم حجّ أبي بكر بالناس، ثم وفود القبائل العربية على النبيّ ﷺ كوفد بني تميم، ووفد بني عامر، ووفد ضمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد الأشعريين ووفد مزينة، ووفد دوس، ووفد نجران، ووفد كندة، وقدوم جرير بن عبدالله البجلي، ثم بعثه لتخريب ذي الخلصة، ثم بعث النبيّ ﷺ الإمام عليّاً وخالد بن الوليد وأبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن، ثم وصيّة النبيّ ﷺ معاذ بن جبل وخروجه معه مشيّعاً له، ثم هلاك ابن أُبيّ المنافق.

* * *

❋ السنة العاشرة
حجّة الوداع

أهم أحداث السنة العاشرة حجّة النبيّ ﷺ التي سُمّيت حجة الوداع، وقد تقدّمت بما فيها في كتاب الحجّ.

* * *

❋ بعض خطبه ﷺ في هذه الحجّة غير ما تقدم

[٥٦٨] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: «**أليس ذو الحجة؟**»

قلنا: بلى، قال: «**فأي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فمكث حتى ظننا أنه سيسمه بغير اسمه فقال: «أليس» قلنا بلى، قال: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فمكث حتى ظننا أنه سيسمه بغير اسمه، فقال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلى، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربّكم فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه**»، ثم قال: «**ألا هل بلّغت**» مرتين.

رواه أحمد (٥/٣٧، ٧٣)، والبخاري في العلم وفي الحجّ وفي بدء الخلق وفي التفسير (٩/٣٩٤)، ومسلم (١١/١٦٧).

[**٥٦٩**] وعن عمرو بن الأحوص رضي الله تعالى عنه أنه شهد حجّة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال: «**أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟**» فقال الناس: يوم الحج الأكبر يا رسول الله، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا لا يَجْنِي جانٍ إلا على نفسه، ولا يَجْنِي والِدٌ على ولدِهِ، ولا وَلَدٌ على والِدِهِ، ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحلّ لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحلّ من نفسه، ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم، لا تَظْلِمُون ولا تُظْلِمُون، غير ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأول دم وُضِع من دماء الجاهلية دم الحارث بن عبدالمطلب، كان مُسْتَرْضعاً في بني ليث فقَتَلَتْه هُذَيل، ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عَوانٌ عندكم ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنةٍ، فإن فعلن فاهجروهنّ في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئن من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وإن حقهنّ عليكم أن تُحسنوا إليهنّ في كسوتهن وطعامهن**».

رواه أحمد (٣/٤٩٩)، والترمذي في الفتن (٢٩٩٠) وفي التفسير (٢٨٨٨)، وابن ماجه في الحجّ (٣٠٥٥)، والبيهقي في السنن (٨/٢٧)، وحسّنه الترمذي وصححه في الموضعين. وزاد في الموضع الأول: «**ألا وإن الشيطان قد أَيِسَ أن يُعْبد في بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فيرضى به**»، وهذه الزيادة جاءت في مسلم...

[**٥٧٠**] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو على ناقته المُخَضْرَمَة بعرفات، فقال: «**أتدرون أيّ يوم هذا؟ وأيّ شهرٍ هذا؟ وأيّ بلدٍ هذا؟**» قالوا: هذا بلدٌ حرام، وشهر حرام، ويومٌ حرام، قال: «**ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام كحرمة شهركم هذا، في يومكم هذا، ألا وإني فرطكم على الحوض، وأكاثرُ بكم الأمم، فلا تُسَوّدوا وجهي، ألا وإني مستنقذ أناساً، ومستنقَذٌ مني أُناسٌ فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**». رواه ابن ماجه (٣٠٥٧) وسنده صحيح.

[**٥٧١**] وفي الباب عن ابن عمر في البخاري وفيه: «**ألا هل بلّغت**» ثلاثاً، كل ذلك يجيبونه: ألا نعم، قال: «**ويحكم - أو - ويلكم لا تَرْجِعُنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**».

[**٥٧٢**] وعن أبي أُمامة رواه أحمد (٥/٢٥١)، والترمذي في الصلاة، وابن حبان (٧٩٥)، والحاكم (١/٩، ٣٨٩) وصححه ووافقه الذهبي وفيه: «**اتّقوا الله ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنّة ربكم**»... «**إن الله قد أعطى كل ذي حقّ حقّه، فلا وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله التابعة إلى يوم القيامة، لا تنفق المرأة شيئاً من بيتها إلا بإذن زوجها**»، فقيل: يا رسول الله ولا الطعام؟ قال: «**ذلك أفضل أموالنا**»، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**العارية مؤدّاة، والمنحة مردودة، والدَّين مقضيّ، والزعيم غارم**»، ومن أشهر خطبه في حجة الوداع خطبته الواردة في حديث جابر في صفة حجّته ﷺ وهي كنحو حديث ابن الأحوص، وفيها زيادة: «**وقد**

تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده، إنِ اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيْت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها: «**اللّهمّ اشهد، اللّهمّ اشهد...**» ثلاث مرات... رواه مسلم في الحج (٨/ ١٧٠، ١٩٤) في صفة حجّة النبيّ ﷺ.

خطبه ﷺ في حجّة الوداع كانت يوم سابع الحجّة قبل يوم التروية ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم ثانيه بمنى، وكانت أجمعهنّ خطبة يوم عرفة، ويلاحظ في هذه الخطب أنه جاء فيها كثير من الأحكام والوصايا والمواعظ، وقد تقدم الكثير من أجزائها مفرّقاً في الكتب والأبواب فيما سلف، وسيأتي الكلام على بعضها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

وفي هذه الخطب دليل على أن الخطيب أو الداعية ينبغي له أن يُذَكِّرَ الناس بالكلام الجامع المشتمل على سائر جوانب أُمور الديانة من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق والشؤون الزوجية والجنائية وما إلى ذلك، وخاصة إذا كانت المجامع عامّة كموسم الحجّ وأيام العيد والجُمَع... اقتداءً بالنبيّ ﷺ كما في هذه الخطب وغيرها.

* * *

السنة الحادية عشرة
بعث النبيّ ﷺ أُسامة بن زيد إلى فلسطين

[٥٧٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما فطعن الناس في إمْرَتِهِ، فقام رسول الله ﷺ ـ يعني على المنبر ـ فقال: «**إن تطعنوا في إمْرَتِهِ فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبلُ، وايم الله إن كان لخليقاً للإِمْرَةِ، وإن كان لَمِنْ أحبِّ الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده**»، وفي رواية: «**أُوصِيكُم به، فإنّه من صالحيكم**».

رواه أحمد (٢/٢٠، ٨٩، ١٠٦، ١١٠)، والبخاري في المغازي (٩/٢١٨) وفي المناقب وفي الأحكام، ومسلم في الفضائل (١٥/١٩٥، ١٩٦)، والترمذي في المناقب (٣٥٨٧) بتهذيبي.

«بعث بعثاً» أي: أرسل جيشاً. «وأمّر» بتشديد الميم مع فتحها أي: جعله عليهم أميراً.

لمّا حجّ النبيّ ﷺ قدم المدينة آخر ذي الحجّة ومكث المحرم، ولما كان آخر صفر ندب الصحابة لغزو الروم، وكان ابتداء ذلك قبل مرضه ﷺ ودعا أُسامة فقال: **«سِرْ إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتُك هذا الجيش وأَغِز صباحاً على أُبْنَى وحَرِّق عليهم وأَسْرِعْ المَسِير تسبق الخير، فإن ظفَّرك الله بهم فأقِلّ اللّبثَ فيهم»**، وفي رواية عند ابن إسحاق: وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهّز الناسُ، إلخ... فبدأ برسول الله ﷺ وجعُه في اليوم الثالث، فعقد لأُسامة لواءً بيده فأخذه أُسامة فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف، وكان الجيش مكوّناً من ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل أكثر من ذلك، وكان ممن انتدب مع أُسامة كبار المهاجرين والأنصار، منهم: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، وسعد، وسعيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، فتكلّم في ذلك قوم فردّ عليهم عمر وأخبر النبيّ ﷺ، فخطب ﷺ بما ذكر في الحديث، ثم اشتدّ الوجع برسول الله ﷺ فتأخر الجيش وانتظر حتى توفي رسول الله ﷺ واستخلف الصدّيق رضي الله تعالى عنه فجهّزه وساروا عشرين ليلة إلى الجهة التي أمروا بها فقاتلوا وغَنِمُوا ورجعوا سالمين، وكان الصدّيق وعمر رضي الله تعالى عنهما تخلّفا لمصلحة المسلمين وللمصيبة العظمى التي أصابتهم بموت النبيّ ﷺ.



❋ بداية مرضه ﷺ ووفاته

[٥٧٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أوّل ما اشتكى

رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، وفي رواية: لما ثَقُل رسولُ الله ﷺ واشتدّ به وجعه استأذن أزواجه أن يُمَرَّضَ في بيتي فأَذِنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين تخطّ رجلاه في الأرض بين عباس بن عبدالمطلب، وبين رجل آخر، قال ابن عباس: هو عليّ.

قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتدّ به وجعه قال: «**اهريقوا عليّ من سبع قِرَبٍ لم تُحْلَلْ أوكيتُهن لعلّي أعْهَدُ إلى الناس**»، فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبيّ ﷺ، ثم طفقنا نصبّ عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أنْ قد فعلتُنَّ، قالت: ثم خرج إلى الناس فصلّى بهم وخطبهم.

رواه أحمد (١١٧/٦)، والحميدي (٢٣٣)، والبخاري في مرض النبيّ ﷺ ووفاته (٢٠٦/٩، ٢٠٧)، ومسلم في الاستخلاف في الصلاة...

«المخضب» جفنة يُغسل فيها الثياب.

[٥٧٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَك فمسسْته بيدي، فقلت: يا رسول الله إنك لتُوعك وعكاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «**أجل إني أُوعَك كما يوعك رجلان منكم**»، قال: فقلت ذلك أن لك أجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**أجل**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرضٍ فما سواه إلا حطّ الله به سيئاتِهِ كما تَحُطُّ الشجرةُ وَرَقَها**».

رواه أحمد (٤٥٥/١)، والبخاري في المرض وغيره، ومسلم في البرّ والصّلة وقد تقدم.

«الوَعَك» ـ بفتحتين ـ شدّة الحمّى ووجعها.

[٥٧٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيتُ رجُلاً اشتدَّ عليه الوجعُ من رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (١٨١/٦)، والبخاري في المرض (١٤/١٢)، ومسلم في البرّ والصلة رقم (٢٥٧٠)، والترمذي في الزّهد (٢٢١٧)، وابن ماجه (١٦٢٢) في الجنائز وقد تقدم أيضاً.

[٥٧٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خطب النبيّ ﷺ فقال: **إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله**، فبكى أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فقلت في نفسي: ما يُبْكِي هذا الشيخ إن يكن الله خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعْلَمَنا، قال: **«يا أبا بكر لا تَبْكِ إن من أمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمّتي لاتّخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودّته، لا يَبْقينَّ في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»**.

رواه البخاري في الصلاة وفي المناقب (١٢/٨، ١٤)، ومسلم في الفضائل (١٤٩/١٥، ١٥١)، والترمذي في المناقب (٣٤٣٣).

[٥٧٨] وفي رواية: خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه ونحن في المسجد عاصباً رأسه بخرقة حتى أهوى نحو المنبر، فاستوى عليه وابتغاه قال: **«والذي نفسي بيده إني لأنظر إلى الحوض مِن مَقامي هذا»**، ثم قال: **«إن عبداً عُرِضَتْ عليه الدنيا وزينتُها فاختار الآخرة»**، قال: فلم يفطن لها غيرُ أبي بكر فذرفت عيناه فبكى، ثم قال: بل نفديك بآبائنا وأمّهاتنا وأنفسنا وأموالنا يا رسول الله، قال: ثم هبط فما قام عليه حتى الساعة.

رواه الدارمي في المقدمة باب وفاة النبيّ ﷺ رقم (٧٨) وسنده عنده حسن.

❋ ❋ ❋

❋ اهتمامه ﷺ بالصلاة وأمره أبا بكر أن يصلّي بالناس

[٥٧٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ثقل النبيّ ﷺ فقال: **«أصلّى الناس؟»** قلنا: لا هم ينتظرونك، قال: **«ضعوا لي ماء في المِخْضَب»**، قالت: ففعلنا فاغتسل فذهب لِيَنُوءَ فأُغْمِيَ عليه ثم أفاق، فقال ﷺ: **«أصلّى الناس»**؟ قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس

عكوف في المسجد ينتظرون النبيّ ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبيّ ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمُرُك أن تصلّي بالناس، فقال أبو بكر: وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر صلِّ بالناس، فقال عمر: أنت أحقُّ بذلك، فصلّى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبيّ ﷺ وجَدَ من نفسه خِفَّةً فخرج بين رجلين أحدُهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلّي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخّر فأومأ إليه النبيُّ ﷺ بأن لا يتأخّر، فقال: «أجْلِسانِي إلى جَنْبِهِ»، فأجلساه إلى جَنْبِ أبي بكر قال: فجعل أبو بكر يصلّي وهو يأتمّ بصلاة النبيّ ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبيّ ﷺ قاعدٌ...

رواه البخاري في الجماعة من الصلاة (٢/٢٩٢، ٢٩٥) وفي الوفاة النبوية (٩/٢٠٦)، ومسلم (٤/١٣٦، ١٣٨)، والنسائي (٢/٧٨) كلاهما في الصلاة.

[٥٨٠] وعنها في رواية قالت: لما ثَقُل رسولُ الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: «مُرُوا أبا بكر فلْيُصَلِّ بالنّاس»، قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أَسِيف وإنه متى يَقُمْ مقامَك لا يُسْمِع الناس فلو أمرتَ عُمر، فقلت له، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّكُنَّ لأنتن صواحبُ يوسفَ، مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس»، قالت: فأمروا أبا بكر يصلّي بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خِفَّة فقام يُهادَى بين رجلين ورجلاه تَخُطّانِ في الأرض، قالت: فلما دخل المسجد سمع أبو بكر حِسَّه ذهب يتأخّر فأومأ إليه رسولُ الله ﷺ: قِمْ مكانك، فجاء رسولُ الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلّي بالناس جالساً، وأبو بكر قائماً يقتدي أبو بكر بصلاة النبيّ ﷺ ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر...

رواه أحمد (٦/٢١٠، ٢٢٤)، والبخاري ومسلم (٤/١٤٠).

قوله: «رجل أسِيف» أي: سريع الحزن والبكاء رقيق القلب.

* * *

❋ اجتماع نسائه عنده ﷺ ومساررته لمولاتنا فاطمة ابنته عليها السلام

[٥٨١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: اجتمع نساء النبيّ ﷺ فلم يغادر منهنّ امرأةً، فجاءت فاطمةُ تمشي كأنَّ مشيتَها مشيةُ رسولِ الله ﷺ، فقال: «**مرحباً بابنتي**»، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أَسَرَّ إليها حديثاً فبكت فاطمة، ثم إنه سارَّها فضحكت أيضاً، فقلت لها: ما يُبكيكِ؟ فقلت: ما كنت لأُفشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، فقلت: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصَّكِ رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين. وسألتها عمّا قال، فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله ﷺ حتى إذا قُبِض سألتها فقالت: إنه كان حدّثني «**أنّ جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرّة، وأنه عارضه به في العام مرّتين، ولا أُراني إلا قد حضر أجلي وأنكِ أوّلُ أهلي لحوقاً بي، ونعم السلفُ أنا لك**»، فبكيت لذلك، ثم إنه سارّني فقال: «**ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمّة**»، فضحكت لذلك.

رواه البخاري في علامات النبوّة وفي الوفاة النبوية (٩/٢٠٠، ٢٠١) وفي المناقب، ومسلم في الفضائل (١٦/٥/٦، ٧).

❋ ❋ ❋

❋ محاورة عليّ والعباس في شان الولاية

[٥٨٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ عليّ بنَ أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجَعِهِ الذي تُوفّي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا، وإني والله لأرَى رسول الله ﷺ سوف يتوفّى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ

فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال عليّ عليه السلام: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمَنَعَناها لا يُعطِيناها الناسُ بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

رواه عبدالرزاق في المصنّف رقم (٩٧٥٤)، وابن سعد في الطبقات (٢/٢٤٥) وهو في البخاري في الاستئذان وفي الوفاة النبويّة (٩/٢٠٨).

* * *

❋ إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي

[٥٨٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّه قال: يومُ الخميس وما يَوْمُ الخميس، ثم بكى حتى بلَّ دمعُه الحَصَى، فقيل: يا ابن عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «**إيتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي**»، فتنازعوا وما ينبغي عند نبيّ تنازع، وقالوا: ما شأنه؟ أَهَجَر؟ استفهموه، قال: «**دعوني فالذي أنا فيه خير، أوصيكم بثلاث: أخرِجُوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**»، قال: وسكت عن الثالثة أو قالها فنسيتها. وفي رواية: لما حُضِرَ رسولُ الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال النبيّ ﷺ: «**هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده**»، فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللّغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال: «**قوموا**».

رواه أحمد (١/٢٢٢، ٣٢٤، ٣٥٥)، والحميدي (٥٢٦)، والبخاري في الوفاة النبويّة (٩/١٩٧، ٢٠٠) وفي العلم وفي الجهاد وفي الاعتصام، ومسلم في الوصية (١١/٨٩، ٩٠)، وأبو داود (٣٠٢٩).

* * *

❊ اشتداد المرض عليه ﷺ وما حصل له بعد ذلك وما كان يقول

[٥٨٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا ثَقُل النبيّ ﷺ جعل يَتَغَشَّاهُ، فقالت فاطمةُ عليها السلام: واكَرْبَ أباهُ، فقال: **«ليس على أبيكِ كربٌ بعد اليوم»**، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل نَنْعاه، فلما دُفِن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب.

رواه أحمد (١٤١/٣، ١٩٧)، والبخاري في الوفاة النبويّة (٢١٥/٩)، والترمذي في الشمائل (٣٧٩)، والنسائي في الجنائز وابن ماجه (١٦٢٩، ١٦٣٠)، والدارمي في المقدمة (٨٨).

[٥٨٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: **«إنه لم يُقْبَضْ نبيٌّ قطُّ حتى يَرَى مقعده من الجنّة، ثم يُحيا أو يُخيَّر»**، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غُشي عليه، فلما أفاق شَخَصَ بصَرُه نحو سقف البيت، ثم قال: **«اللّهمّ في الرفيق الأعلى»**، فقلت: إذاً لا يُجَاوِرُنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدّثنا وهو صحيح.

رواه البخاري في الوفاة النبويّة (٢٠٣/٩)، ومسلم في الفضائل (٢٠٩/١٥) وغيرهما.

[٥٨٦] وعنها قالت: كنت أسمع أنه لن يموت نبيّ حتى يخيّر بين الدنيا والآخرة، قالت: فسمعت النبيّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه وأخذته بُحّةٌ يقول: **«مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»**، قالت: فظننته خُيِّر حينئذٍ.

رواه أحمد (٤٨/٦، ١٧٦، ٢٠٠، ٢٧٤)، والبخاري (٢٠٢/٩)، ومسلم في الفضائل وابن ماجه (١٦٢٠).

❊ ❊ ❊

❁ من آخر وصاياه

[٥٨٧] عن عليّ عليه السلام قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

رواه أحمد (٧٨/١، ٣٨٨)، وأبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨) وسنده صحيح لغيره، فإن له شواهد، وانظر تهذيبي للخصائص رقم (٦٨٢).

❁ ❁ ❁

❁ خروجه على الصحابة وابتسامه ثم دخوله فلم يخرج إلى يوم القيامة

[٥٨٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أبا بكر كان يصلّي لهم في وجَعِ رسولِ الله ﷺ الذي تُوُفِّيَ فيه حتى إذا كان يومُ الاثنين، وهم صفوفٌ في الصلاة كَشَفَ رسولُ الله ﷺ ستر الحُجْرة فنظر إلينا وهو قائم كأنَّ وَجْهَه ورقةُ مُصْحَف ثم تبسَّم رسول الله ﷺ ضاحكاً، قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من فرحٍ بخروج رسول الله ﷺ، ونَكَصَ أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظنَّ أن رسول الله ﷺ خارجٌ للصلاة، فأشار إليهم رسولُ الله ﷺ بيده «أن أتِمُّوا صلاتكم»، قال: ثم دخل رسول الله ﷺ وأرخى السِّتر قال: فتوفي من يومه ذلك.

رواه أحمد (١١٠/٣، ١٦٣، ١٩٦، ٢١١)، والبخاري في الوفاة النبوية (٢٠٩/٩) وفي الصلاة وفي مواضع، ومسلم في الاستخلاف في الصلاة (١٤٣/٤) والنسائي والترمذي وغيرهما.

❁ ❁ ❁

❁ آخر لحظاته من الحياة وموته عند سيّدتنا عائشة

[٥٨٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تقول: إن من نِعَم الله

تعالى عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْرِي ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ريقي وريقِه عند موته، ودخل عليَّ عبدُالرحمٰن وبيده السواكُ وأنا مُسْنِدَةٌ رسولَ الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحبّ السواك، فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولتُه فاشتدّ عليه وقلت: أُلَيِّنُه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليَّنته فأمرَّه وبين يديه ركوة أو عُلْبة، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه يقول: «**لا إلٰه إلا الله إن للموت سكرات**»، ثم نصب يده فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**» حتى قُبِض ومالت يده.

رواه أحمد (٦/٤٨، ١٢١، ٢٠٠)، والبخاري في الوفاة النبوية (٩/٢١٠) وفي مواضع، والنسائي في الجنائز باب شدّة الموت.

❋ ❋ ❋

❋ خلاصة هذه الأحاديث في مرضه وموته ﷺ

أحاديث هذا الفصل تشتمل على أُمور:

أولاً: كان ابتداء مرضه ﷺ وهو في بيت ميمونة رضي الله تعالى عنها وجعل يسأل أين أنا غداً... فعرف نساؤه أنه يريد بيت عائشة، فأذنَّ له أن يُمَرَّض عندها لما كان يجد منها من البرور والإحسان.

ثانياً: اختلف علماء السيرة وغيرهم متى ابتدأ به المرض، وكم كانت مدّته؟ فقيل: ابتدأه يوم الاثنين أو السبت والأكثر على أنه مرض ثلاثة عشر يوماً وتوفي يوم الاثنين بلا خلاف، والجمهور على أن ذلك كان في الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، وأنه عاش بعد حجّته ﷺ ثمانين يوماً، وقيل غير ذلك.

ثالثاً: كان في مرضه يوعك وَعْكاً شديداً خلاف غيره ﷺ، حتى إنه كان توضع له ركوة فيها فيضع فيها يده ويمسح بها وجهه الشريف، ويقول: «**إن للموت سكرات**» أي: غشياناً.

وأمر نساءه أن يفرغن عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، فالله أعلم ماذا كان يريد بذلك، هل كان يبتغي بها تخفيف الألم؟ وهو الظاهر أم غير ذلك...

رابعاً: من خصائص الأنبياء أن الله عزّ وجلّ كان يخيّرهم بين الدنيا والآخرة، وهكذا فعل بنبيّنا ﷺ، فخيّره الله تعالى بين الدنيا وزينتها... وبين الآخرة، فاختار ما عند الله وأخبر أصحابه بذلك وأبهم عليهم المخيَّر، فلم يفطن لذلك إلا الصدّيق ولذلك بكى، وقال له: نفديك بآبائنا وأمّهاتنا.

خامساً: في أمره ﷺ الصدّيق رضي الله تعالى عنه بالصلاة بالناس دليل على ترشيحه للخلافة بعده، وأنه كان أهلاً للإمامة في الدِّين والدنيا قبل غيره، ولذلك أدلّة كثيرة بعضها كالصريحة في ذلك، كما ذكرت ذلك مفصّلاً في «فضائل الصحابة».

سادساً: استدلّ جماعة من الأئمّة كمالك وغيره بصلاته ﷺ في مرضه قاعداً والصحابة وراءه قياماً على نسخ صلاته من قعود وأمره ﷺ من صلّى خلفه بالقعود، وقد اختلف الأئمّة في ذلك والذي نختاره وجوب اتّباع الإمام في القيام والقعود وصلاته ﷺ هذه في مرضه لم تكن عادية، وهي قضية عين وصلاة طارئة...

سابعاً: في اجتماع أزواجه وابنته رضوان الله تعالى عليهن عنده ﷺ ومسارّرته لابنته دليل على فضلها عليهنّ، وذلك لا خلاف فيه، وسيأتي مزيد لهذا في الفضائل.

ثامناً: كان آخر خروجه وآخر نظرة نظر إليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم عندما قام وكشف ستارة البيت ونظر إليهم وهم صفوف يصلّون بإمامة الصدّيق وهو عاصبٌ رأسه ووجهه يتلألأ نوراً يميل إلى صفة ورق المصحف، فكاد الصحابة يفتنون فرحاً ببروزه وخروجه ثم تبسّم ابتسامته الشريفة فرحاً باجتماع الصحابة صفوفاً في أداء صلاتهم خلف الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أرخى الستر ودخل.

تاسعاً: عندما اشتدّ عليه المرض أخذته بحّة في حلقه وهو مستند إلى

حبيبته مولاتنا عائشة رأسه عند نحرها وسحرها، ويرفع بصره إلى السماء ويقول: «**اللّهمّ الرفيق الأعلى**» ويقول: «**إن للموت سكرات**»، وكان آخر ما صنع أن تسوَّك بسواك عبدالرحمٰن بن أبي بكر ثم نطق قائلاً: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين**». ففاضت روحه الشريفة ولم تشعر عائشة بموته، بل ظنته مغشيّاً عليه، فكان أوّل مَنْ دخل عليها عمر والمغيرة بن شعبة، فاستأذنا فأذِنَتْ لهما فاحتجبتْ فنظر إليه عمر وقال: ما أشدَّ غشيَ رسول الله ﷺ، ثم قاما فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر مات رسولُ الله ﷺ، فقال له: كذبتَ، ثم جاء أبو بكر فنظر إليه وقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ، فقبّله وخرج إلى المسجد فخطب الناس، كما يأتي.

عاشراً: في شأن قوله ﷺ: «**إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً**» إلخ، اختلف العلماء في الكتاب الذي همَّ النبيّ ﷺ به، والظاهر أنه الذي جاء في الحديث التالي:

[٥٩٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «**ادْعُ لي أبا بكر وأخاكِ حتى أكتبَ كتاباً، فإني أخاف أن يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ، ويقول قائل: أنا أَوْلَى ويأبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر...**».

رواه أحمد (٣٤/٦، ١٤٤)، والبخاري في الأحكام (٧٢١٧) وفي المرض (٥٦٦٦)، ومسلم في الفضائل (١٥٥/١٥).

فهذا الذي أمر به عائشة هنا هو الذي أراده بقوله فيما سبق: «**إيتوني بكتاب**» إلخ، وكل ما يقال سوى هذا فبعيد عن الحقّ، وبهذا يعرف صواب ما قاله عمر رضي الله تعالى عنه: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله... فكان ذلك من فقهه وفضائله ودقيق نظره، كما قال النووي رحمه الله تعالى وغيره وما جاء في الحديث من قول بعضهم: أهَجَر رسول الله، كان على وجه الاستفهام؛ لأن الرسول ﷺ لا يصدر منه الهَجَر وهو الهذي والكلام الساقط. وعلى أيٍّ، فالأولى بالمسلم أن يغضّ الطرف عن مثل هذه الحادثة ولا يتعرّض للطعن في كبار أصحاب

رسول الله ﷺ كما هو شأن الروافض عافانا الله تعالى مما ابتلوا به، وانظر لهذا الموضوع النووي على مسلم (١٥/١٥٥).

حادي عشر: لم يثبت عنه ﷺ أنه أوصى بالخلافة نصّاً لأحد لا للإمام عليّ عليه السلام ولا لغيره، وإنما أوصى بكتاب الله عزّ وجلّ وبالصلاة وبالممالك وما يدّعيه الإمامية الروافض وغيرهم من الوصاية بالخلافة للإمام عليّ كل ذلك باطل لا يصح منه شيء عند أهل العلم بالحديث، ولا يوجد ذلك إلا في كتبهم الخرافية، وها هما عليّ والعباس رضي الله تعالى عنهما يتحاوران في شأن الخلافة فيمتنع الإمام عليّ عليه السلام من سؤال النبيّ ﷺ إيّاها وهو في آخر اللحظات من حياته.

* * *

❋ ما بعد موته ﷺ

[٥٩١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلّم الناس حتى دخل على عائشة، فتيَمَّمَ رسولَ الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوب حِبَرَةٍ فكشف عن وجهه، ثم أكَبَّ عليه فقبَّلَه وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّهَا.

وفي رواية: إن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنح ـ تعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنّه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله، فقال: بأبي أنت وأمّي طِبْت حياً وميتاً، والله الذي نفسي بيده لا يُذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألاَ من كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾،

وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قال: فَنَشَجَ الناس يبكون... ثم ذكرت قصة الخلافة في سقيفة بني ساعدة.

رواه البخاري في الفضائل وفي المغازي (٩/٢١١، ٢١٢)، والنسائي وابن ماجه (١٦٢٧) كلاهما في الجنائز.

[٥٩٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أبا بكر خرج وعمر يكلّم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبَى عُمر أن يَجْلِس فأقبل الناسُ على أبي بكر وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، مَن كان يعبد منكم محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقّاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. قال عُمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعُقِرْت حتى ما تُقِلُّني رجلايَ وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبيّ ﷺ قد مات.

رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٢) وفي المغازي (٤٤٥٤).

«السُّنح» بضم السين مع تشديدها ثم نون ساكنة آخره حاء مهملة، هو من عوالي المدينة، وكانت سكنى الصدّيق رضي الله تعالى عنه ولمّا توفي النبيّ ﷺ لم يحضره، ولما جاء على فرسٍ له وجد المسجد غاصّاً بالصحابة وعمر يخطبهم وينكر موت النبيّ ﷺ، فدخل أبو بكر بيت عائشة حيث يوجد النبيّ ﷺ ولم يكلّم أحداً حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ، فعلم أنه توفي فاسترجع وفداه بأبيه وأُمّه وقبّله وخاطبه قائلاً: طِبْت حياً وميتاً، ثم خرج إلى الناس وأسكت عمر فخطبهم وثبّتهم وطمأنهم وعرّفهم بأن من كان عبداً لله عزّ وجلّ فالله لا يزال حياً لا يموت، ومن كان عبداً

للرسول فالرسول قد جاءه أجله، وذهب إلى رضوان الله تعالى، ثم ذكّرهم بالآيتين الكريمتين آية الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وآية آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، فصحا الناس ورجعوا إلى أنفسهم وتيقّنوا وفاة النبيّ ﷺ ولم يعودوا يتردّدون في ذلك حتى عمر الذي كان شديداً في إنكار موته ﷺ رجع عندما سمع ما تلاه الصدّيق من القرآن الكريم، ونزل به من الأسى والحزن ما كاد يسقط معه على الأرض، وهنا تظهر قوة الصدّيق وعظيم يقينه وشدّة ثباته، فقد كان لخطبته إثر الوفاة النبويّة الأثرُ العظيم في تثبيت الصحابة وإرجاعهم إلى رشدهم.

وعقب هذه الخطبة والنبيّ ﷺ لا يزال مُسَجّى في بيته اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يريدون تأمير سعد بن عبادة، فذهب إليهم أبو بكر وعُمر في جماعة المهاجرين، وبعد مراجعات وأخذ وردّ بايعوا الصدّيق خليفةً للمسلمين عن رسول الله ﷺ، وقد قدّمنا ما في ذلك في كتاب الخلافة.

* * *

كيف غسل رسول الله ومن تولّى ذلك

[٥٩٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما أرادوا غسل النبيّ ﷺ قالوا: والله ما ندري أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرّد موتانا أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عزّ وجلّ النوم عليهم حتى ما فيهم رجل إلا وذَقَنُه في صدره، ثم كلّمَهم مُكَلّمٌ من ناحية البيت لا يدرون من هو أن اغسلوا النبيّ ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصُه، يَصُبُّون الماء فوق القميص ويَدلُكُونَه بالقميص دون أيديهم، فكانت عائشة تقول: لو استَقْبَلْتُ من أمْري ما استَدْبَرْتُ ما غسّله إلا نساؤه.

رواه أحمد (٦/٢٦٧)، وأبو داود (٣١٤١)، وابن ماجه (١٤٦٤)،

وابن حبان (٦٥٩٣، ٦٥٩٤) بالإحسان، وبالموارد (٢١٥٦)، والحاكم (٥٩/٣)، والبيهقي (٣٩٨/٣) كلّهم في الجنائز، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

[٥٩٤] وعن عليّ عليه السلام قال: غسَّلت رسول الله ﷺ فذهبتُ أنظر ما يكون من الميت فلم أرَ شيئاً، وكان ﷺ طيّباً حياً وميتاً.

رواه ابن ماجه (١٤٦٧)، والحاكم (٣٦٢/١)، والبيهقي (٥٣/٤) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الحديث الأول يدلّ على أن النبيّ ﷺ غسّلوه في قميصه ولم يُجرّدوه، وكان ذلك بإرشاد من مُتكلّم لم يعرفوا من هو، وتلك خصيصة خصّ بها ﷺ من قبل الله تعالى، بينما الحديث الثاني يدلّ على أن الذي تولّى تغسيله هو الإمام عليّ عليه السلام مع بعض أهل بيته، كما جاء في حديث سالم بن عبيد عند ابن ماجه وغيره: غسله بنو أبيه، وفيه أنه لم يُرَ منه شيءٌ مما يخرج من الميت، بل كان طيّباً مطيّباً.

***

❋ كيف كفّن وكيف صُلّي عليه وأين دُفِن؟

[٥٩٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بِيض سَحُولية من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة.

أما الحلّة، فإنما شبّه على الناس فيها أنها اشتريت له لِيُكَفَّنَ فيها، فتركت الحلة، كُفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبدالله بن أبي بكر فقال: لأحبسنّها حتى أُكَفِّن فيها نفسي، ثم قال: لو رضيها الله عزّ وجلّ لنبيّه لكفّنه فيها فباعها وتصدّق بثمنها.

رواه أحمد (٤٠/٦، ٩٣، ١١٨، ١٣٢، ٢١٤، ٢٦٤)، والبخاري (٣٧٨/٣)، ومسلم (٧/٧، ١٠) والأربعة وغيرهم.

قوله: سحولية - بفح السين - والكرسف - بضم الكاف والسين بينهما راء ساكنة - هو القطن، وجاء في رواية لأحمد: «جُدُدٌ أدرج فيها إدراجاً»، الحديث يدلّ على أن نبيّنا ﷺ أُدرج ولُفّ في ثلاثة أثواب ولم يكن فيها قميص ولا إزار ولا رداء ولا عمامة، بل لُفَّ في الثلاثة لَفّاً.

وفي قول عائشة في شأن الحلة ردّ على من يقول بأنه كفُن في حلة من إزار ورداء، بل ذلك باطل.

[٥٩٦] وعن سالم بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال الصحابة لأبي بكر: يا صاحب رسول الله ﷺ **أيُصَلَّى على رسول الله ﷺ**؟ قال: نعم، قالوا: وكيف؟ قال: يدخل قوم فيكبّرون ويصلّون ويدعون ثم يخرجون، ثم يدخل قوم فيكبّرون ويصلون ويدعون ثم يخرجون حتى يدخل الناسُ، قالوا: يا صاحب رسول الله، يُدْفَنُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: أين؟ قال: في المكان الذي قَبَض الله فيه روحه، فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيّب، فعلموا أنْ قد صدق.

رواه الترمذي في الشمائل (٣٧٨) مطوّلاً، وابن ماجه في الصلاة (١٢٣٤) مختصراً، والطبراني في الكبير (٦٣٦٧) كاملاً وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على أن الصحابة كانوا يصلّون عليه ﷺ أفراداً، فيدخلون أرسالاً فيدعون وينصرفون ولم يؤمّهم أحد، كما أنه يدلّ على أنه عليه الصلاة والسلام دُفن في المكان الذي قُبِضت فيه روحه، وهو بيت مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

[٥٩٧] وجاء عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قُبِض رسولُ الله ﷺ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيتُه، قال: **«ما قَبَضَ الله نبياً إلا في الموضع الذي يُحِبُّ أن يُدْفَنَ فيه»**، ادفنوه في موضع فراشه.

رواه الترمذي (٩٠٣) بتهذيبي بسند ضعيف، لكنه صحيح لشواهده عند أحمد (٧/١، ١٦٠)، وابن ماجه (١٦٢٨)، والترمذي في الشمائل (٣٧١).

***

✻ كيف حُفِر قبرُه ومن تَوَلَّى دفنَه ومتى دُفِنَ

[٥٩٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما مات رسول الله ﷺ اختلفوا في اللَّحد والشقّ حتى تكلَّموا في ذلك وارتفعت أصواتهم، فقال عمر: لا تَصْخَبُوا عند رسول الله ﷺ حيّاً ولا ميتاً ـ أو كلمة نحوها ـ فأرسلوا إلى الشقاق واللاحد فجاء اللاحد فلحد لرسول الله ﷺ ثم دُفِن ﷺ.

رواه ابن ماجه (١٥٥٨)، قال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

[٥٩٩] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال في مرضه الذي هلك فيه: الحدوا لي لَحْداً وانصبوا عليَّ اللَّبِن نصْباً كما صُنِع برسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٩٦٦)، والنسائي (٦٦/٤)، وابن ماجه (١٥٥٦) ثلاثتهم في الجنائز.

[٦٠٠] وعن عليّ عليه السلام قال: ولي دفنه وإجْنانَه دون الناس أربعةٌ: عليّ والعباس والفضل وصالح مولى رسول الله ﷺ، ولحد رسول الله ﷺ لحداً، ونصب عليه اللبن نصباً.

رواه ابن ماجه (١٤٦٧)، والحاكم (٣٦٢)، والبيهقي (٥٣/٤) وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٦٠١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دخل قبر رسول الله ﷺ العباسُ وعليّ والفضلُ وشقّ لحده رجلٌ من الأنصار...

رواه ابن الجارود (٥٤٧)، وابن حبان (٢١٦١) بالموارد، والبيهقي في الدلائل (٢٥٤/٧) وسنده صحيح.

[٦٠٢] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين ودُفن ليلة الأربعاء.

رواه أحمد (٦/١١٠) رجاله ثقات وله شاهد مرسل صحيح، رواه الترمذي في الشمائل (٣٧٦).

[٦٠٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جُعِل في قبر رسول الله ﷺ قطيفةٌ حمراءُ.

رواه أحمد (١/٢٢٨، ٣٥٥)، ومسلم (٩٦١)، والترمذي (٩٣٤)، والنسائي (٤/٦٧) كلّهم في الجنائز.

جملة هذه الأحاديث تدلّ على أن قبر النبيّ ﷺ كان لحداً، وقد تقدم بيانه في الجنائز، وأنه فرشت له قطيفة حمراء، فرشها مولاه شقران كما رواه الترمذي (٩٣٣)، وأن الذي تولّى دفنه وإدخاله قبره عليّ والعباس والفضل بن العباس وصالح مولاه رضي الله تعالى عنهم، وأن دفنه كان ليلة الأربعاء، وعلى هذا جمهور أهل العلم، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة كما تقدم ويأتي.

❊ ❊ ❊

❊ من آثار وفاته ﷺ على الصحابة

[٦٠٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نَفَضْنا عن النبيّ ﷺ الأَيْدِي حتى أنكرنا قلوبنا.

رواه أحمد (٣/٢٦٨، ٢٨٧)، والترمذي في المناقب (٣٣٩٣) وفي الشمائل (٣٧٤)، والدارمي (٨٩)، وابن ماجه (١٦٣١)، وابن حبان (١٦٢) بالموارد، والحاكم (٣/٥٧) بسند صحيح.

«أضاء» أي: أشرق. «أنكرنا قلوبنا» يعني فقدواما كانوا يجدونه من الصفاء ونور النبوّة، والإضاءة هنا والظلمة معنويّتان، وليس معناه ظهور الأنوار والظلام حسياً؛ فمعنى الحديث أنه لما قدم عليهم النبيّ ﷺ المدينة حصلت الأنوار في القلوب واطمأنّت واتّحدت وتحابت وصارت المدينة

كأنها مضيئة بوجوده ﷺ بينهم، وبالعكس من ذلك عند موته، فما كانوا يجدونه من النور العظيم في قلوبهم والمحبة التامّة والإلفة... فقدوا بعضه ولذلك أنكروا قلوبهم لتغيّرها عمّا كانت عليه، وحقّ لهم ذلك فإن موته ﷺ كانت أعظم مصيبة أُصيب بها المسلمون إلى يوم القيامة.

وقد قالت الحبيبة الطاهرة بضعة الحبيب مولاتنا فاطمة عليها السلام عندما دُفِن عليه الصّلاة والسّلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تَحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب؟! وهذا ما حمل الصحابة على دفنه ﷺ ليلاً بعد أن نام الناس خشية من أن يحصل نزاع في دفنه وعدمه، فإن فراقه كان شديداً على المسلمين، ولا سيما أهل بيته. فصلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأزواجه في الأوّلين والآخرين أبد الآبدين.

***

❋ ميراث النبيّ ﷺ

[٦٠٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث ما تركنا صَدَقة**»، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال، وإنّي والله لا أُغَيِّر شيئاً من صدقةِ رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأَعْمَلنَّ فيها بما عمل به رسولُ الله ﷺ، فأَبَى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً، فوجدتْ فاطمةُ على أبي بكر في ذلك، قال: فهجرته فلم تكلّمه حتى تُوفّيت، وعاشتْ بعد رسول الله ﷺ ستة أشْهُر، فلما توفيت دفنها زوجها ابن أبي طالب ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلّى عليها عَلِيّ، وكان لعليّ من الناس وِجْهَةٌ حياةَ فاطمة، فلما تُوفّيت استنكر وجوهَ الناس فالتمس مصالحةَ أبي بكر ومبايعتَه، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحدٌ، فقال عمر: والله لا تدخل

عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بي إني والله لآتينَّهم، فدخل عليهم أبو بكر فتشهّد عليّ بن أبي طالب ثم قال: إنّا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولم نَنْفَسْ عليك خيراً ساقهُ الله إليك، ولكنك استَبْدَدْتَ علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ، فلم يزل يكلّم عليٌّ أبا بكر حتى فاضت عينا أبي بكر، فلمّا تكلّم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده لقرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينك من هذه الأموال فإني لم آلُ فيها عن الحقّ، ولم أتركْ أمْراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعُه فيها إلا صنعتُه، فقال عليّ لأبي بكر: مَوعدُك العشية للبيعة، وعَذَرَه بالذي اعتذر إليه ثم استغفر وتشهّد عليٌ بن أبي طالب، فعظم حقّ أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسةً على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضّله الله به، ولكنّا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً، فاستبِدَّ علينا به، فوجدنا في أنفسنا، فسرّ المسلمون وقالوا: أصبتَ، فكان المسلمون إلى عليّ قريباً حين راجع الأمر المعروف.

رواه أحمد (٦/١، ٩)، والبخاري في المناقب (٣٧١١) وفي فرض الخُمُس (٣٠٩٢) (ج ٧/٦، ١٠) وفي المغازي غزوة خيبر (٤٢٤٠)، ومسلم في الجهاد في قول النبيّ: لا نورث (٧٦/١٢، ٨١).

[٦٠٦] وعن مالك بن أوْس رضي الله تعالى عنه قال: أرسل إليّ عُمَرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فجئته حين تعالى النهار، قال: فوجدته في بيته جالساً على سرير مُفْضِياً إلى رماله، متّكئاً على وسادة من أدم، فقال: يا مال إنه قد دفّ أهل أبيات من قومك، وقد أمرتُ فيهم برَضْخٍ فخذه فاقسمه بينهم، قال: قلت: لو أمرتَ بهذا غيري؟ قال: خذه يا مالِ. قال: فجاء يَرْفَأ، فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان، وعبدالرحمٰن بن عوف، والزبير، وسعد؟ فقال عمر: نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعليّ؟ قال: نعم، فأذن لهما. فقال عباس: يا أمير المؤمنين اقضِ بيني وبين هذا الكذاب الآثم الغادر الخائن، فقال القوم: أجل يا أمير المؤمنين، فاقضِ بينهم وأرِحْهُم. قال مالك بن أوس: يُخَيَّل إليّ أنهم قد كانوا قدموا لذلك. فقال عمر: اتَّئِدَا

أنشدُكُم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: **«لا نُورث ما تركنا صدقةٌ»**، قالوا: نعم، ثم أقبل على العباس وعليّ فقال: أُنشدُكُما بالله الذي بإذنه تقوم السماءُ والأرضُ أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورثُ ما تركناه صدقة»**؟ قالا: نعم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الله عزّ وجلّ كان خصّ رسوله ﷺ بخاصّته لم يُخَصِّصْ بها أحدٌ، قال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا؟ قال: فقسَمَ رسولُ الله ﷺ بينكم أموالَ بني النضير، فوالله من اسْتَأْثَرَ عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقةَ سنةٍ، ثم يجعلُ ما بقي أسوةَ المالِ، ثم قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد به القوم أتعلمان ذلك؟ قالا: نعم، قال: فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا وليُّ رسولِ الله ﷺ فجِئتُما، تطلب ميراثاً من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبوبكر: قال رسول الله ﷺ: **«ما نورث ما تركنا صدقة»**، فرأيتُماه كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم أنه لصادق بارّ راشد تابع للحق. ثم توفي أبو بكر وأنا وليُّ رسول الله ﷺ ووليّ أبي بكر فرأيتُماني كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم أني لصادق، بارّ، راشد، تابع للحقّ، فوليتها ثم جئتني أنت وهذا وأنتما جميعٌ وأمْرُكُما واحد، فقلتما: ادفعها إلينا، فقلت: إن شئت دفعتها إليكما على أنَّ عليكما عهد الله أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله ﷺ فأخذتماها بذلك، قال: أكذلك؟ قالا: نعم، قال: ثم جئتماني لأقضي بينكما، ولا والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتُما عنها فردّاها إليّ.

رواه أحمد (٤٧/١، ٤٩، ٦٠، ١٦٢، ١٦٤، ١٩١، ٢٠٨)، والحميدي (٢٢)، والبخاري في الخمس (١٠/٧، ١٥) وفي الفرائض، ومسلم في الجهاد في حكم الفَيْء (٧١/١٢، ٧٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٦٣، ٢٩٦٤، ٢٩٦٥)، والترمذي في السِّير (١٤٧٦)، والنسائي في الفيء وغيرهم.

قوله: «تَعَالَى النَّهار» أي: ارتفع. «مفضياً» بضم الميم وسكون الفاء أي: ليس بينه وبين رماله شيء. «يا مال» بكسر اللام مرخم يا مالك. «دفّ أهل أبيات» أي: جاءوا لما نزل بهم من الفاقة. «رضخ» أي: عطية قليلة. «يرفأ» بفتح الياء وسكون الراء وفتح الفاء هو حاجب سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه. «اتّئدا» هو أمر من اتَّأَدَ أي: تمهّلا وتأنّيا. «أنتما جميع» أي: متّحدان. «وأمرُكُما واحد» أي: مطلوبكما وهو طلبهما دفع الفَيْء إليهما.

دلّ حديثا عائشة ومالك بن أوس على أُمور:

أولاً: وعليه مدار الحديثين شأنُ ميراث النبيّ ﷺ ومجيء مولاتنا فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه تطلب منه ميراث أبيها.

[٦٠٧] وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر، فقالت: من يرثك؟ قال: أهلي وولدي، قالت: فما لي لا أرث أبي؟ قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا نورث**» ولكن أعولُ مَنْ كان رسولُ الله ﷺ يَعولُه، وأُنفِقُ على من كان رسول الله ﷺ يُنفِقُ عليه.

رواه الترمذي (١٤٧٥) بتهذيبي بسند حسن وهو صحيح لغيره.

ثانياً: إن الصدّيق رضي الله تعالى عنه لم يكن ظالماً لمولاتنا فاطمة عليها السلام في امتناعه من دفع نصيبها من تركة النبيّ ﷺ، بل كان عادلاً في ذلك بارّاً تابعاً للحقّ، ولذلك استدلّ عليها بأنه ﷺ لا يورث، وأن ما تركه صدقة، وذلك هو شأن سائر الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام كما قال ﷺ في حديث أبي الدرداء الذي تقدّم في العلم: «**إن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورّثُوا العلم**»... رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وبهذا قال أكثر العلماء. ولذلك فنبيّنا عليه السلام لا يورث بالإجماع، والحديث الذي استدلّ به الصدّيق متواتر، رواه جمع غفير من الصحابة منهم الصدّيق والفاروق وعليّ وعثمان والزبير وعبدالرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والعباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم.

ثالثاً: هجران مولاتنا فاطمة عليها السلام الصدّيق كان اجتهاداً منها لشدّة موجدتها على الصدّيق، كما أن الصدّيق لم يكن ظالماً لها ولا داخلاً في وعيد حديث: «**يُغْضِبُها ما يغضبني**»، لأنه كان محقاً بارّاً عاملاً بما سمع وشاهد من النبيّ ﷺ.

رابعاً: بالنسبة للإمام عليّ عليه السلام كان قد تأخّر عن بَيْعة الصدّيق في جماعة من بني هاشم وغيرهم لعدم مشاورتهم في ذلك، واستبداد الشيخين وغيرهما بالأمر دون قرابة النبيّ ﷺ، وكانوا يرون أن لهم حقاً في الخلافة، لكن الإمام عليّ عليه السلام أدرك الأمر وتصالح مع الصدّيق ووافق جمهور الصحابة فبايع ودخل فيما دخل فيه الناس وتبعه كل من كان تأخّر، ووقع الإجماع بعد ذلك على خلافة الصدّيق رضي الله تعالى عنه وعرفوا له فضله وأنه كان أحقّ الناس وأوْلاهم بالأمر.

خامساً: التركة النبويّة التي وقع فيها التنازع هي صدقة المدينة التي أفاء الله تعالى على نبيّه ﷺ من بَنِي النَّضِير، وأراضي فَدَك بفتح الفاء والدّال، وكانت لليهود صالحهم النبيّ ﷺ فحقن دماءهم وأمَّنَهُم وأجلاهم، وبقيت الأراضي له ﷺ، ثم سهمه من خيبر.

وكان النبيّ ﷺ يأخذ من ذلك لأهله نفقة سنة، وما عدا ذلك يجعله في المصالح العامّة والسلاح والكراع عدة في سبيل الله.

فكان الصدّيق يعمل على ذلك، فكان يُنفق على نساء النبيّ ﷺ وأهل بيته والباقي يجعله في المصالح العامّة، ثم كان الأمر كذلك سنتين من خلافة عمر يعمل في ذلك ما كان يفعله رسول الله ﷺ والصدّيق بعده، ثم جاءه العباس والإمام عليّ رضي الله تعالى عنهما يسألانه حظّهما من ذلك فدفع إليهما مال بني النضير وأخذ عليهما عهد الله أن يعملا فيها بما كان يعمل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر بعده، ثم حصل نزاع بين العباس وعليّ رضي الله تعالى عنهما في ذلك، فأتيا عمر ليفصل بينهما، فقال لهما ما ذكر في الحديث.

أما فدك وسهم خيبر، فتركهما تحت تصرّفه رضي الله تعالى عنه كما

في رواية لعائشة عند البخاري في الخمس (٩/٧). وأما خيبر وفدك، فأمسكهما عمر وقال: هما صدقة رسول الله ﷺ كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه، وأمرهما إلى من ولي الأمر، وقد تقدم نحو ما ذكرناه هنا في الجهاد وغيره.

سادساً: ما جاء في قول العباس لعليّ في بعض الروايات: الكذاب الآثم الغادر الخائن، وقول عمر لهما أيضاً: فرأيتماه كاذباً آثماً غادراً خائناً.

كل ذلك يجب حمله على غير ظاهره، فلم يكن عليّ كذّاباً ولا آثماً ولا غادراً ولا خائناً، كما أن الخليفتين لم يكونا كذلك، بل كلّهم بارُون صادقون صالحون من كبار أهل الجنّة رضي الله تعالى عنهم.

سابعاً: قصة مولاتنا فاطمة والإمام عليّ والعباس رضي الله تعالى عنهم في شأن ميراث النبيّ ﷺ تدلّ على أن البشر لا يخرج عن طبيعته التي خُلِق عليها وغرائزه التي جُبِل عليها، وهي حبّ المال والرياسة... فهؤلاء سادات الأمّة ومعدن الشرف، وأهل بيت النبوّة يتنازعون على الدنيا ويتخاصمون على متاعها... فما بالك بغيرهم وصدق الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

ثامناً: كان ما حصل من إقصاء الإمام عليّ عن الخلافة، ومنع الصدّيق فاطمة إرثها أصلاً ومرجعاً لغلوّ الشيعة وتطاولهم على الصحابة، وخاصة الخلفاء الثلاثة وباقي العشرة، وأصبح الشيعة وخاصة أهل الرفض منهم لا يخرج مذهبهم عن الكلام على انتزاع الخلافة من عليّ مع ظلم فاطمة في زعمهم فضلّوا بذلك ضلالاً كبيراً، وكتبوا في ذلك مئات المجلّدات، كلّها خرافات، وأكاذيب، وأباطيل، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وأتباعه ومحبيه أبد الآبدين.

وبهذا تمّ الكلام على السيرة النبويّة العَطِرة ويليها شمائل النبيّ ﷺ.

* * *

❁ جملة من صفات النبيّ ﷺ وشمائله وأخلاقه

جرت عادة علمائنا الذين ألّفوا في السيرة النبويّة أن يذكروا ضمن ذلك شمائله ﷺ وأخلاقه، إمّا سابقاً أو لاحقاً.

فكما اهتمّوا رحمهم الله تعالى بحياته ﷺ وغزواته حتى التحاقه بالرفيق الأعلى، كذلك وجّهوا عنايتهم لشمائله وصفاته....

وكان لذلك لا يخلو كتاب من كتب السنّة المشرّفة على اختلاف أنواعها ومناهج مؤلّفيها من ذكر شمائله ﷺ، إما مفرّقة فيها أو مفردة على حِدة في أبواب خاصة بها، لا سيما الجوامع منها كصحيح البخاري مثلاً في المناقب وصحيح مسلم في الفضائل، وجامع الترمذي في المناقب، والنسائي في الكبرى... زيادة على ما ذكروه في مختلف الكتب والأبواب، كما أفردوها بالتأليف، وجمعوا فيها ما وصلهم منها بأسانيدهم إلى أصحاب رسول الله ﷺ. وكان ممن كتب في ذلك أبو العباس المستغفري، وأبو بكر المقري، وأبو الشيخ الأصبهاني، وأبو عيسى الترمذي وكتابه أشهر ما أُلّف في ذلك بل وأحسنها وأحلاها، ولذلك اعتنى العلماء عبر العصور بشرحه والتعليق عليه واختصاره، واهتمّوا بقراءته وسماعه وإسماعه، وطُبع عدة طبعات مفرداً ومع شروحه... «وأخلاق النبيّ» ﷺ لأبي الشيخ ابن حيّان الأصبهاني وإن كان أكبر منه وأوسع، وقد طُبع عام (١٣٧٨) لم يهتمّ به الناس كاهتمامهم بشمائل إمامنا أبي عيسى الترمذي طيّب الله ثراه.

وها نحن بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه نذكر في هذا الجامع عيون ذلك، ونلخّص ما جاء في الموضوع من صحيح وحسن من غير إخلال ولا إملال، والله الموفّق الهادي.

هذا والشمائل: جمع شمال وهي في الأصل الطبائع والسجايا. وأطلقها العلماء على صفات النبيّ ﷺ الخَلْقِيّة ـ بفتح الخاء وسكون اللام ـ من طوله وقصره، وبياضه وشعره، وصفة عينيه وأنفه، ويديه، ورجليه، وأصابعه، ورأسه ووجهه... كما أطلقوها على خُلُقِهِ ـ بضم الخاء واللام ـ

وهي سجيّته وطبيعته، وذلك كحلمه وتحمّله الأذى وصبره وكرمه وتواضعه وعفّته وزهده وشجاعته إلى غير ذلك من أخلاقه الكريمة، ثم توسّعوا فأضافوا إلى ذلك كل ما له تعلّق به ﷺ كأكله وشربه ولباسه وضحكه ومزاحه وكلامه ونومه وحجامته وتعطّره واتّكائه وجلوسه إلى غير ذلك مما ذكروه وأدرجوه في شمائله.

وقد تقدم لنا كثير منها في كتب وأبواب سابقة، كأنواع عبادته من صلاة وصيام وقيام وتلاوة وذكر ودعاء، وكأكله وما كان يأكله من أنواع الأطعمة، وشرابه وما كان يشربه، وأنواع الألبسة التي كان يلبسها إلى غير ذلك مما تقدم، فهذه لا نوردها هٰهنا ولا نُعيدها.

ثم إن المقصود من ذكر شمائله ﷺ والاطّلاع عليها أمران اثنان: أولاً: التعرّف على صفة هذا النبيّ العظيم ظاهراً وباطناً وخَلْقاً وخُلُقاً، ثانياً: الائتساء به ﷺ في أخلاقه الكريمة واتّباع أثره، وتلك هي السعادة العظمى؛ لأن اتّباعه والاقتداء به ﷺ من مُوجبات محبّة الله عزّ وجلّ وغفران الذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

فالرسول الأكرم ﷺ هو القدوة لكل مؤمن يرجو الله واليوم الآخر ويذكر الله كثيراً؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ الآية.

* * *

صفة خَلْقِ رسولِ الله ﷺ الظاهرةُ

[٦٠٨] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبْيَض الأمْهَقِ، ولا بالجَعْدِ القَطِط، ولا بالسَّبِطِ. بعَثَه الله تعالى على رأس أربعين سنةً، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفّاه الله على رأس ستّين سنة، وليس في رأسه

ولِحْيَتِهِ عِشْرون شَعرةً بَيْضاء... وفي رواية: كان رسولُ الله ﷺ رَبْعَةً ليس بالطويل ولا بالقصير، حَسَنَ الجسْم وكان شَعَرُه ليس بجَعْدٍ ولا سَبِطٍ (أسمرَ اللون)، إذا مشى يتكفّأ. وفي رواية: كان أزهر اللون ليس بأبْيَض أمْهَقَ ولا آدم، وفي أخرى: كان أزهر اللون كأنَّ عرقَه اللؤلؤ إذا مشى تَكَفَّأَ.

رواه أحمد (٢٤٠/٣)، ومالك في الجامع من الموطأ (١٧٧٢)، والبخاري في المناقب (٣٧٧/٧، ٣٧٩)، ومسلم في الفضائل (٩٩/١٥، ١٠٠)، والترمذي في اللّباس (١٦١٠) وفي المناقب وفي الشمائل (٢/١) بألفاظ.

«الطويل البائن» أي: الظاهر. «الأمهق» أي: الشديد البياض كالجصّ مثلاً. «ولا آدم» أي: ليس أسمر. «الجعد» بفتح وسكون. «القطط» بفتح القاف والطاء وتكسر الطاء وهو الكثير الجعودة والانقباض كشعر الحبشة. «ولا بالسبط» بفتح السين وكسر الياء هو الشعر المسترسل كشعر الروم. «ربعة» بفتح الراء وسكون الباء أي: متوسّطاً بين الطول والقصر. «أسمر اللون» هي رواية شاذّة، ففي الصحيحين: «أزهر اللون» أي: لونه كلون الزهر. «إذا مشى يتكفّأ» أي: يتمايل.

[٦٠٩] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ رجلًا مربوعاً بَعيد ما بين المنكبين، عَظِيمَ الجُمَّةِ إلى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ عليه حُلَّةٌ حمراءُ ما رأيتُ شيئاً قطّ أحسنَ منه.

وفي رواية: ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حُلَّة حمراءَ أحسنَ من رسول الله ﷺ له شَعْرٌ يَضربُ مَنكبَيْه بَعِيد ما بين المنكبين لم يكن بالقصير ولا بالطويل.

وفي رواية ثالثة: كان رسول الله ﷺ أحْسَنَ الناسِ وَجْهاً وأحْسَنهم خَلْقاً.

رواه أحمد (٢٨١/٤، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٣)، والبخاري في المناقب (٣٨١/٨)، ومسلم في الفضائل (٩١/١٥، ٩٢)، وأبو داود (٤٠٧٢)، والترمذي (١٥٨١) في اللباس، ورواه أيضاً في المناقب (٣٤١٠) بتهذيبي وفي الشمائل (٢٥/٣).

«بعيد» ورد بضم الباء وفتح العين، وفتح وكسر. «عظيم الجمّة» أي: شعر رأسه ﷺ يصل إلى شحمة أذنيه. «حلة حمراء» الحلّة عند العرب ما كان فيه إزار ورداء. «ذي لمّة» بكسر اللام صفة لنوع من الشعر الطويل. «وأحسنهم خَلْقاً» بفتح الخاء وسكون اللام هي الصورة الظاهرة للجسم.

[٦١٠] وعن عليّ عليه السلام قال: لم يكن النبيُّ ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شَثْنَ الكفَّيْن والقدمين، ضَخْمَ الرأس، ضَخْمَ الكَراديس، طويل المَسْرُبة، إذا مشى تَكَفَّأ تَكَفُّؤاً كأنّما يَنْحَطُّ من صَبَبٍ، لم أرَ قبلَه ولا بَعْدَه مِثْلَه ﷺ.

رواه الطيالسي (٢٤٠٩)، وأحمد (٩٦/١، ١٠١، ١٢٧، ١٥١)، وعبدالله في زوائد المسند (١٦٦/١، ١٦٧)، والترمذي في المناقب (٣٤١٢) بتهذيبي وفي الشمائل (٥)، وابن سعد (٤١١/١)، والحاكم (٦٠٦/٢) من طرق بعضها صحيحة أو حسنة وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم والذهبي.

«شَثْن الكفّين» بفتح الشين وسكون الثاء أي: غليظهما. «ضخم الكراديس» جمع كردوس بضم الكاف هي رؤوس العظام، ومعناه أنه كان عظيم الأعضاء والعظام كالركبتين والمرفقين والمنكبين. «طويل المسربة» بفتح الميم وسكون السين وضمّ الراء ثم باء مفتوحة هو الشعر الدقيق الممتد من الصدر إلى السرّة. «إذا مشى تكفّأ تكفؤاً» أي: تمايل تمايلاً. «كأنما ينحط من صبب» أي: كأنما ينزل من أعلى إلى أسفل، والانحطاط هو الانحدار والنزول.

[٦١١] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ ضَلِيعَ الفَمِ أشْكَلَ العَيْنِ مَنْهُوسَ العَقِب.

قال شعبة: قلت لسماك: ما ضليع الفم؟ قال: عظيم الفم. قلت: ما أشكل العين؟ قال: طويل شقّ العين. قلت: ما منهوس العقب؟ قال: قليل اللحم.

رواه أحمد (٨٦/٥، ٨٨، ٩٧، ١٠٣)، ومسلم في الفضائل

(٩٣/١٥)، والترمذي في المناقب (٣٤٢١) بتهذيبي وفي الشمائل (٨).

[٦١٢] وعنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إِضْحَيَانٍ وعليه حُلَّةٌ حمراءُ، فجعلتُ أنظر إليه وإلى القمر فلهُو عِنْدِي أحسنُ مِن القمر.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٦١٥) وفي الشمائل (٩)، والدارمي (٥٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (١٠٧)، والخطيب في التاريخ (٣٥٤/٢)، والحاكم (١٨٦/٤) وحسّنه الترمذي وصححه البخاري والحاكم ووافقه الذهبي.

«إضحيان» بكسر الهمزة وسكون الضاد أي: ليلة مُقْمِرة.

[٦١٣] وعن البراء بن عازب أنه سُئِل: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مِثْلَ السَّيف؟ قال: لا، بَلْ مِثْلَ القَمَرِ.

رواه أحمد (٢٨١/٤)، والطيالسي (٢٤١١) والبخاري في صفة النبيّ ﷺ (٣٨١/٧)، والترمذي في المناقب (٣٤١١) وفي الشمائل (١٠) وحسّنه وصحّحه.

[٦١٤] ونحوه عن جابر بن سمرة قال له رجل: أكان رسول الله ﷺ وجهُه مثل السّيف؟ قال: لا، بل مِثْلَ الشَّمْسِ والقمر مُسْتَدِيراً.

رواه مسلم (٩٧/١٥).

[٦١٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أبْيَضَ كأنّما صِيغَ من فِضَّةٍ رجِلَ الشَّعْرِ.

رواه الترمذي في الشمائل (١١) ورجاله ثقات غير صالح بن الأخضر فضعيف، لكن الحديث صحيح لشواهده في الباب.

«كأنما صيغ من فضة» أي: كأنه أخذ منها لصفائه وجودة لونه ﷺ.

[٦١٦] وعن مُجَرّشِ الكَعْبِي رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر النبيّ ﷺ من الجعرانة ليلاً، فنظرتُ إلى ظَهْرِهِ كأنه سَبِيكَةُ فِضَّةٍ.

رواه أحمد (٤٢٦/٣، ٤٢٧) من طرق صحيحة.

«سبيكة» أي: قطعة من فضة أُذيبت وأُفرغت في قالبها، وذلك غاية في الصفاء.

[٦١٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيتُ شيئاً أَحْسن من رسول الله ﷺ كأنَّ الشَّمْسَ تجري في وجْهِهِ.

رواه الترمذي (٣٤١١) في المناقب وفي الشمائل (١١٥)، وابن سعد (٣٧٩/١، ٣٨٠)، وابن حبان (٢١١٨) وسنده صحيح عند بعضهم، وابن لهيعة قد تُوبع.

[٦١٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ما رأيت أحداً أَنْجَدَ ولا أَجْوَدَ ولا أَشْجَعَ ولا أَضْوَأَ ولا أَوْضَأَ من رسول الله ﷺ.

رواه الدارمي (٦٠) بسند صحيح.

«أنجد» أي: أعظمُ نَجْدَةً وعوناً. و«أجود» أي: أكثر جوداً. و«أضوأ» أي: أشدّ نوراً. و«أوضأ» من الوضاءة وهي اللّمعان.

[٦١٩] وعن أبي الطُّفَيْل رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ وما بقي على وجه الأرض أحدٌ رآه غيري، قلت له: صفه لي، قال: كان أبيضَ مَلِيحاً مُقَصَّداً.

رواه أحمد (٤٥٥/٥)، ومسلم في الفضائل (٩٣/١٥)، وابن سعد(٤١٧/١)، والترمذي في الشمائل (١٣).

«مَليحاً» أي: حسناً من الملاحة وهي الحُسْن والصباحة. «ومقصداً» بضم الميم وفتح القاف والصاد المشدّدة أي: وسطاً في جسمه.

[٦٢٠] وعن عليّ عليه السلام: كان رسول الله ﷺ أَبْيَضَ مُشَرَّباً بحُمرة ضخم الهامة أهدب الأشفار، وفي رواية: كان أبيض مشرباً بياضه بحمرة وكان أسودَ الحَدقةِ أهْدَبَ الأشْفار. وفي رواية: أدعج العينين.

رواه ابن سعد (٤١٠/١، ٤١٢)، والبيهقي في الدلائل (٢١٢/١، ٢١٣)، ورواه أحمد (٩٦/١، ١١٦، ١٢٧، ١٣٤) مفرّقاً وهو بطرقه حسن

صحيح، وجاء في رواية لعبدالله بن أحمد (١٥١/١)، وابن سعد (٤١١/١) أغرَّ أبْلَجَ أهْدَبَ الأشْفار.

«مشرّباً بحمرة» بضم الميم وفتح الشين والراء المشدّدة أي بياضه ممزوج بحمرة وهو الأزهر الوارد في الصحيحين أزهر اللون. «ضخم الهامة» أي: عظيم الرأس. «أهدب الأشفار» أي: طويل شعر أجفان العينين. «أسود الحَدَقة» بفتحات حدقة العين هي سوادها الداخلي، فكانت له ﷺ شديدة السواد. «أدعج العينين» الدعَج بفتحتين شدّة سواد العين مع سَعَتِهَا وطول شقّها كما تقدم أنه أشكل العين. «أغَرُّ» أي: أبيض. «أبْلَج» أي: مُشْرِقٌ مُضِيءٌ.

[٦٣١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ شَبْحَ الذِّرَاعَيْن، بَعِيد ما بَيْن المَنْكبَيْن، أهْدَب أشْفارِ العَيْنين، لم يكن سخَّاباً في الأسواق ولا فَحَّاشاً ولا مُتَفَحِّشاً، كان يُقْبِلُ جميعاً ويُدْبِرُ جميعاً.

رواه الطيالسي (٢١٣)، وأحمد (٣٢٨/٢) بسند صحيح وصالح مولى التوأمة روى عنه ابن أبي ذئب قبل اختلاطه.

«شبح الذراعين» بفتح الشين وسكون الباء آخره حاء أي: طويلهما أو عريضهما. «سخاب» بفتح السين ويقال بالصاد ثم خاء مشدّدة أي: لم يكن ممن يرفع صوته في الأسواق كعادة الرِّعاع وعامّة الناس والتجار. «فحاش» أي: لم يكن ينطق بالسفاهة والفحش. «متفحش» أي: ليس ممن يتكلّف ذلك فكان بريئاً ومنزّهاً من الأمرين. «يقبل جميعاً» معناه: إذا أقبل أقبل بجميع جسده وإذا أدبر كذلك.

فهذه الأحاديث استوعبت أغلب صفة خلقته ﷺ الظاهرة، ففيها أنه كان مربوع القامة لا طويلاً ولا قصيراً حسن الوجه، بل أحسن الناس وجهاً أبيض ممزوجاً بحمرة أزهر اللّون مليحاً مضيئاً مشرقاً مثل الشمس والقمر، كأنَّ الشَّمس تجري في وجهه وكأنه صِيغَ من فِضّة وضيئاً واسعَ الفم عَظِيمَه ضخم الرأس، عظيم الركبتين، والقدمين، والمرفقين، ورؤوس أصابعه، وجميع مفاصله، طويل الذراعين، واسع ما بين المنكبين، ظهره في الصفاء

كأنه قطعة سُبِكَتْ من فضّة، قليل لحم عَقِبَيْه، كان شعَرُه وسطاً؛ لا جعد كشعر الحبشة، ولا سبطاً كشعر الروم له جُمّة ولمّة تصل إلى شحمة أذنيه وطرفيهما، وله شعر متّصل من صدره إلى سرّته كالقضيب أدعج العينين، أي: شديد سواد حدقتي عينيه مع سعتها، طويل شعر أجفانهما أي: أهدب أشعارهما.

وجاء في حديث أمّ معبد المتقدم في الهجرة النبويّة أنها وصفته ﷺ بصفات هذه خلاصتها، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه ـ مضيئاً مشرقاً ـ حسن الخَلْق، لم تَعِبْه ثَجْلَةٌ ـ أي: ضخامة البطن ـ ولم تُزرِ به ـ أي: لم تنقصه وتعبه ـ صُعْلَةٌ ـ أي: رقّة ونحول وصغر في الرأس ـ وَسِيمٌ، قسيمٌ، في عينيه دَعَجٌ ـ شديد سوادها مع سعتها ـ وفي أشفاره وَطَفٌ ـ أي: طول ـ وفي صوته صَهَلٌ ـ أي: حدّة وصلابة ـ وفي عنقه سطع ـ أي: ارتفاع وطول ـ وفي لحيته كثافة، أَزَجُّ ـ تعني أن حاجبيه فيهما تقوّس مع طول وامتداد في طرفيهما ـ أقرنُ ـ تعني أن شعرهما مقرون ببعضه ـ وهذا أصح مما ورد: «سوابغ في غير قرن»، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلّم سمَاهُ وعلاَه البَهاءُ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلاً، لا نَزْر ولا هَذَر ـ أي: لا قليل ولا كثير ـ كأن مَنطِقَه خرزات نظم يتّحدون، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غُصْنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً... وقد قدّمنا أن حديث قصة أم معبد صحيح فاعلم ذلك، وقد جاءت صفات له ﷺ كثيرة في حديث هند بن أبي هالة الطويل الذي رواه الترمذي في الشمائل رقم (٧)، والبيهقي في الدلائل (٢٥٨/١) وغيرهما، ولولا أنه ضعيف جداً لأوردته.

هذا وقد أجمع العلماء على أن الله عزّ وجلّ لم يخلق خلقاً أحسن وأجمل وأكمل ظاهراً وباطناً من هذا الرسول الأكرم ﷺ، حتى قال القسطلاني في المواهب: من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلقُ آدَمِي مِثلُه.

ورحم الله تعالى القائل:

وأجمَل مِنكَ لم تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وأكْمَلَ مِنكَ لم تَلِدِ النِّساءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّءاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كأنَّك قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشاءُ

ويرحم الله البوصيري حيث يقول في بردته:

فَهْوَ الذي تَمَّ مَعْناهُ وصُورَتُه ... ثمَّ اصْطَفاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عن شَريك في محاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ
كالشَّمْسِ تَظْهَر لِلعَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغِيرَةً وتَكِلُّ الطَّرْفَ مِن أمَمِ
وكَيْفَ يُدْرِكُ في الدُّنْيا حَقِيقَتَهُ ... قَوْمٌ نيامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بالحُلُمِ

يبقى الأمر في قول أنس في الحديث الأول: فأقام بمكّة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفّاه الله على رأس ستّين سنة.

والصحيح المتفق عليه بين العلماء أنه أقام بمكّة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشراً كما قدَّمنا، وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة، رواه أنس نفسه وعائشة وابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم كما في صحيح مسلم في الفضائل (١٥/١٠١، ١٠٢، ١٠٣)، فكلّهم قالوا: أقام رسول الله ﷺ بمكّة ثلاث عشرة وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستّين سنة، وما عدا ذلك فغلط أو مؤوّل كما قال العلماء.

* * *

صفة خاتم النبوة

[٦٢٢] عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنهما قال: ذهبت بي خالتي إلى النبيّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله إنَّ ابْنَ أُخْتِي وجعٌ فمسح ﷺ رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضأ فشربتُ من وَضوئِهِ، وقمتُ خلف ظهره فنظرتُ إلى الخاتم بين كَتِفَيْهِ فإذا هو مِثْلُ زِرِّ الحَجَلةِ.

رواه البخاري في الطهارة وفي المرض وفي صفة النبيّ ﷺ (٣٧٣/٧)، ومسلم في الفضائل (٩٧/١٥، ٩٨)، والترمذي في المناقب (٣٤/٨) وفي الشمائل (١٥).

«زر» بكسر الزاي والراء المشدّدة. و«الحَجَلَةُ» بفتحات إما بيت كالقبة له أزرار يعد للعروس يكون أعلاه مثل البيضة أو المراد بالزّرّ والحَجَلة بيض الطير المعروف.

[٦٢٣] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت الخاتم بين كَتِفَيْ رسولِ الله ﷺ غُدَّةٌ حمراءُ مثل بيضة الحمامة.

رواه أحمد (٩٥/٥، ٩٨، ١٠٧)، ومسلم (٩٧/١٥)، والترمذي (٣٤١٩) وفي الشمائل (١٦)، وابن سعد (٤٢٥/١)، والحاكم (٩٥/٢).

«غدّة» بضم الغين وفتح الدال المشدّدة؛ قطعة لحم ناتئة تتحرك بتحرك الإنسان.

[٦٢٤] وعن عبدالله بن سَرْجِسٍ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً، أو قال ثريداً، قال: فقلت: استغفر لك النبيّ ﷺ؟ قال: نعم ولكم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾، قال: ثم دُرْتُ خلفه فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه عند ناغِضِ كتفه اليسرى جُمْعاً عليه خِيلانٌ كأمثال الثآليل. وفي رواية: فدُرْتُ هكذا من خلفه فعرف النبيّ ﷺ الذي أريد، فألقى الرداء عن ظهره، فرأيت موضع الخاتم على كتفيه.

رواه أحمد (٨٢/٥)، ومسلم (٩٨/١٥، ٩٩)، والترمذي في الشمائل (٢٢).

«ناغض كتفه» أي: عند أعلاه. «جُمْعاً» بضم الجيم وسكون الميم يريد مثل جمع الكفّ. «خيلان» بكسر الخاء جمع خال وهي الشامة في الجسم. «الثآليل» بفتح الثاء المشدّدة بعدها همزة ممدودة جمع ثؤلول وهو خراج صغير يظهر على الجسد له نتوء.

[٦٢٥] وعن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: **«يا أبا زيد، ادنُ مني فامسح ظهري»**، فمسحت ظهره فوقعتْ أصابعي على الخاتم، قلت: وما الخاتم؟ قال: شعراتٌ مجتمعات. في رواية: شعر مجتمع على كتفه.

رواه أحمد (٧٧/٥، ٣٤١)، وابن سعد (٤٢٦/١)، وابن حبان (٢٠٩٦)، والحاكم (٦٠٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

[٦٢٦] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن خاتم رسول الله ﷺ ـ يعني خاتم النبوّة ـ فقال: كان في ظهره بَضْعَةً ناشِزَةً.

رواه أحمد (٦٩/٣)، والترمذي في الشمائل (٢١) من طريقين وهو بهما حسن صحيح.

«بَضْعَة» بفتح الباء أي: قطعة لحم. «ناشزة» أي: مرتفعة.

هذا جملة ما صحّ في خاتم النبوّة التي كانت للنبيّ ﷺ في أعلى ظهره، وحاصلها أنها كانت شبه غُدَّةٍ شاخصة مرتفعة في أعلى كتفه الأيسر الشريف قدر بيضة الحجلة أو الحمامة أو جمع كف اليد عليها ثآليل وشعيرات.

وقد أخبر كلٌ بما شاهد وظهر له، وهذا الخاتم كان من خصائصه ﷺ، وكان أهل الكتاب يعرفونه من كتبهم التي جاءت صفته ﷺ فيها، وانظر ما سبق في قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه.

* * *

❋ شَعره ﷺ وشيبه وخضابه وترجّله

[٦٢٧] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان شعر رسول الله ﷺ إلى أنصاف أُذُنَيهِ. وفي رواية: كان يَضربُ شعرُه منكبَيْه. وفي أخرى: بين أُذُنَيْه وعاتِقِهِ.

رواه مسلم في الفضائل (٩٢/١٥) بجميع رواياته، ورواه أحمد (١١٣/٣، ١٢٥، ١٤٢، ١٥٧، ١٦٥، ٢٠٣) من طرق وألفاظ، ورواه الترمذي في الشمائل (٢٣)، وأبو داود في الترجّل (٤١٨٦)، وابن ماجه (٣٦٣٤) ببعضها.

[٦٢٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناءٍ واحد، وكان له شَعَرٌ فوقَ الجُمَّةِ ودُون الوَفْرَةِ.

رواه أحمد (١٠٨/٦، ١١٨)، والترمذي في اللّباس (١٩١٢) وفي الشمائل (٢٤)، وأبو داود (٤١٨٧/٧٧) بسند صحيح، وجملة الغسل رواه الشيخان كما تقدم في الطهارة.

[٦٢٩] وعن أُمّ هانيء رضي الله تعالى عنها قالت: قدم رسولُ الله ﷺ مكّة قِدْمةً، وله أربعُ غدائِر، وفي رواية: ضَفائِر.

رواه أحمد (٣٤١/٦)، وأبو داود (٤١٩١)، والترمذي في اللباس (١٦٣٤) وفي الشمائل (٢٥)، وابن ماجه (٣٦٣١) بسندٍ صحيح.

اختلفت الأحاديث في صفة شعره ﷺ طولاً وقصراً، ويرجع ذلك لاختلاف أحواله، فكان في وقتٍ جُمةً يصل إلى منكبيه ويضرب عاتقه، وفي وقتٍ كان وفرةً يبلغ شحمة أُذنيه، وفي وقتٍ آخر كان يتركه حتى يطول فيتّخذه ضفائر أربعاً كما كان عند فتح مكّة، وتقدم أنه كان عظيم الجمّة وأن شعره كان وسطاً لا جَعْداً ولا سَبِطاً.

[٦٣٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يَسْدِلُ شَعرهُ، وكان المشركون يَفْرُقُون رُؤُوسَهم، وكان أهل الكتاب يسدِلُون رؤوسهم، وكان يُحِبُّ موافقةَ أهلَ الكتاب فيما لم يُؤْمَر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله ﷺ رأسَه.

رواه أحمد (٢٨٧/١، ٣٢٠، ٢٦١)، والبخاري في المناقب (٣٨٤/٧)، ومسلم في الفضائل (٩٠/١٥)، وأبو داود (٤١٨٨)، والترمذي في الشمائل (٢٩)، والنسائي في الزينة (١٨٤/٨)، وابن ماجه (٣٦٣٢).

«يفرقون» بكسر الراء وضمّها. «يسدلون» وسدل الشعر هو إرساله على الناصية أو إلى القفا، والفرق هو جعله فرقتين إلى جانِبَيْ الرأس.

والحديث يدلّ على أنه ﷺ كان يسدل شعر رأسه أولاً موافقة لأهل الكتاب، ثم خالفهم ففرق وهو الذي استقرّ عليه عمله إلى انتقاله ﷺ.

[٦٣١] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّما كان شَيْبُ رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شَعْرَةً بَيْضاءَ.

رواه أحمد (٢/٩٠)، والترمذي في الشمائل (٣٩)، وابن ماجه (٣٦٣٠) قال البوصيري: إسناده صحيح.

[٦٣٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شِبْتَ، قال: «شَيَّبَتْني هُودٌ والواقعةُ والمُرسلاتُ وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كُوِّرت».

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٨٠) وفي الشمائل (٤٠)، وأبو يعلى (٦٥/١)، والحاكم (٣٤٣/٢، ٣٧٦) وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أبي جُحَيْفة رواه الترمذي في الشمائل (٤١)، وأبو يعلى (٣٦٣/١) بلفظ: «شَيَّبَتْني هُودٌ وأخَوَاتُها»، إنما خصّ هذه السور بأنها شيّبته لما فيها من القوارع، وذكر أهوال يوم القيامة، وتغيّر هذا العالم، واضمحلاله وقيام الناس للبعث... وفي هود قوله عزّ وجلّ خطاباً له ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخ، فبِتَفَكُّرِهِ ﷺ في هذه السور ظهر فيه الشَّيْب.

[٦٣٣] وعن جابر بن سمرة أنه سُئِل عن شَيْب رسول الله ﷺ فقال: كان إذا دَهَنَ رأسَه لم يُرَ منه شَيْبٌ، وإذا لم يَدْهن رُؤِيَ منه شيءٌ.

وفي رواية: كان قد شَمِط مُقَدَّم رأسه ولحيته، وكان إذا ادَّهَن لم يَتَبَيَّنْ وإذا شَعِثَ رأسُه تَبَيَّن، وكان كثيرَ شَعْرِ اللِّحية. وفي رواية: لم يكن في رأس رسول الله ﷺ شَيْبٌ إلا شَعَراتٌ في مَفْرِقِ رأسِهِ إذا ادَّهن واراهُنَّ الدُّهنُ.

رواه مسلم (٩٧/١٥)، والترمذي في الشمائل (٤٣/٣٨).

قوله: «شَمِط» بفتح الشين وكسر الميم أي: ابْيَضَّ شعرُ مقدَّمِ رأسه.

[٦٣٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إنما كان البياض في عَنْفَقَتِهِ، وفي الصُّدْغَيْن، وقال: ما شانَهُ الله ببيضاء، وفي رواية: لو شئت أن أعدّ شَمَطاتٍ كُنَّ في رأسه فعلتُ.

رواه مسلم (١٥/٩٥، ٩٦).

قوله: «عنفقته» بفتح العين وسكون النون ثم فاء وقاف مفتوحتين هو الشعر النابت بين الشفة السفلى والذقن. وقوله: «الصدغين» تثنية صدغ بضم الصاد وسكون الدال هو ما بين الأذن والعين ويسمى الشعر النابت عليه أيضاً صدغاً. «ما شانه» أي: ما عابه. «شمطات» بفتحات والمراد بها شعرات بيض خالَطْن سوادَ شعر رأسِه.

الأحاديث الصحيحة تدلّ على أنه ﷺ لم يشب من شعر رأسه ولحيته إلا شعيرات لم تبلغ عشرين شعرة، كما قال أنس: وتوفي وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وهكذا قال ابن عمر. وكان ذلك في مفرق ومقدم رأسه، وفي عَنْفَقته وفي صُدْغَيْهِ، وكان إذا دَهَن شعره خَفِي الشَّيب وصار أحمر، وإذا تَرَكَه بَدا وظَهر.

[٦٣٥] ولذلك قال أبو رِمْثَة رضي الله تعالى عنه: وله شعرٌ قد علاه الشَّيبُ وشَيْبُه أحمرُ.

رواه أبو داود (٤٠٦٥)، والترمذي في الشمائل (٤٢)، والحاكم (١٠٧/٢) وغيرهم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقد تكون تلك الحمرة من الخضاب بالحناء، فقد صحّ ذلك عنه ﷺ.

[٦٣٦] فعن عثمان بن موهب قال: دخلت على أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها فأخرجت إليّ شعراً من شعر رسول الله ﷺ مخضوباً بالحنَّاء والكَتَم.

رواه البخاري في اللّباس (١٢/٤٧٣، ٤٧٤)، وابن ماجه (٣٦٢٣).

«الكتم» بفتحتين ورق شجر يصبغ به يجعل الشعر مائلاً إلى الحمرة الشديدة.

[٦٣٧] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت شعر رسول الله ﷺ مخضوباً.

رواه الترمذي في الشمائل (٤٧) بسند صحيح.

وتقدم لنا في اللباس حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه ﷺ كان يصبغ بالصفرة ثيابه ولحيته.

فهذه الأحاديث تدلّ على أنه ﷺ خضب بالحناء وبالصفرة غير أنه جاء ما يعارضها وهو ما رواه مسلم وغيره:

[٦٣٨] فعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل: هل خَضَبَ رسولُ الله ﷺ؟ قال: لم يبلغ ذلك إنما كان شيباً في صدغيه. وفي رواية: ولم يختضب رسول الله ﷺ إنما كان البياض في عَنْفَقَتِهِ وفي الصُّدْغَيْنِ.

رواه مسلم (١٥/٩٤، ٩٦)، وأبو داود والترمذي في الشمائل (٣٦).

ولما اختلفت الأحاديث كما ترى في خضابه ﷺ وعدمه ذهب فريق من العلماء إلى الترجيح، وذهب آخرون إلى الجمع بينهما بأنه ﷺ صحّ عنه الأمران: خضب وترك، واختار هذا القول كثيرون منهم النووي في شرح مسلم (١٥/٩٥)، فقال: والمختار أنه ﷺ صبغ في وقت، وتركه في معظم الأوقات فأخبر كلٌّ بما رأى وهو صادق.

[٦٣٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أُرَجِّلُ رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٤٩٠) وغيره، ومسلم في الطهارة (٣/٢٠٩)، وعند أبي داود (٤١٨٩): كنت إذا أردت أن أفرقَ رأس رسول الله ﷺ صَدَعْتُ الفَرْق مِن يافُوخِهِ وأُرْسِلُ ناصيتَه بين عَيْنَيْه.

قولها: «أُرجل» ترجيل الشعر تسريحه ومشطه. وقولها: «صدعت

الفرق» أي: شققت فرق الشعر. و«اليافوخ» هو وسط الرأس.

ففي الحديث مشروعية ترجيل الشعر وتسريحه وجواز مباشرة الحائض ذلك، والترجيل مطلوب لأنه من النظافة غير أنه يكره الإكثار منه بالنسبة للرجال؛ لحديث:

[٦٤٠] عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: **نهى رسول الله ﷺ عن الترجّل إلا غِبّاً.**

رواه أبو داود (٤١٥٩)، والترمذي في اللباس (١٦١٣) وفي الشمائل (٣٤)، والنسائي (١١٤/٨)، وابن حبان (١٤٨٠) بسند صحيح، ودعوى انقطاعه مدفوعة، انظر تهذيبي للجامع (١٦١٣).

«إلا غِبّاً» بكسر الغين وتشديد الباء أي يفعل يوماً ويترك يوماً. ففي الحديث النهي عن الإكثار من تسريح الشعر والمواظبة عليه كل يوم لأن ذلك نوع من التّرف والرفاهية، وقد جاء في حديث لفضالة بن عبيد كان رسول الله ﷺ ينهانا عن كثيرٍ من الإرفاه، فالاهتمام بتزيين الهيئة كل حين من شأن النساء والمختّثين.

* * *

❋ طِيب عَرَقه ﷺ وتعطّره

[٦٤١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون كأنّ عَرَقه اللُّؤْلُؤُ إذا مشى تَكَفَّأ، ولا مسِسْتُ دِيبَاجَةً ولا حَرِيراً ألْيَن من كفّ رسول الله ﷺ ولا شَمِمْتُ مِسْكَةً، ولا عنبراً، أطيب من رائحة رسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٨٥/١٥، ٨٦)، والدارمي (٥٢)، والترمذي في البرّ والصلة (١٨٥٨) وفي الشمائل (٣٣٨)، وكذا أحمد (٢٠٠/٣، ٢٢٢) وفي مواضع، وأبو داود.

«أزهر اللون» أي: أبيض مشرّب بحمرة وهو أحسن الألوان. «كأن عرقه اللؤلؤ» يعني في البياض والصفاء. «تَكفَّأ» أي: مال. «دِيباجَة» هو الثوب الذي يكون سداه ولحمه حريراً.

في الحديث أربع صفات للنبيّ ﷺ لونه ومشيه وليونة كفّه ﷺ، وأنها كانت ألين من الدِّيباج والحرير، وطيب رائحته وأنه كان أطيب من المسك والعنبر ولا أطيب منهما في الدنيا.

[٦٤٢] وعنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فقَالَ عندنا، فعَرق وجاءت أُمِّي بقارورة فجعلت تَسلُتُ العَرَق، فاستيقظ النبيّ ﷺ فقال: «**يا أمّ سليم ما هذا الذين تَصْنَعِين؟**» قالت: عَرَقٌ نَجعلُه لطِيبنا وهو أطيبُ الطِّيب.

وفي رواية: إن النبيّ ﷺ كان يأتي أمّ سليم فيقيل عندها فتبسُطُ له نَطْعاً فيقيل عليه، وكان كثير العرق، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطِّيب والقوارير، فقال: «**يا أم سليم ما هذا**»؟ قالت: عرقك أَدُوفُ به طيبي.

رواه مسلم (١٥/٨٦، ٨٧) بلفظَيْه.

«فقال عندنا» أي: نام بمنزلنا في وقت القيلولة وهو وسط النهار. «قارورة» أي: زجاجة. «تَسْلُت» أي: تمسح العرق بأصبعها. «فاستيقظ» أي: قام من النوم. «نَطْعاً» بفتح النون بساط من جلد. «أدوف» بفتح الهمزة وضمّ الدال أي: أخلطه به.

وفي الحديث بروايتيه بيان طيب رائحة عرقه ﷺ، وأنه كان أطيب الطِّيب حتى كانت أمّ سليم تتطيّب به وتجمعه في قارورة طيبها.

[٦٤٣] وعن جابر بن سمرة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ الصلاة الأُولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدانٌ، فجعل يمسح خَدَّيْ أحدِهم واحداً واحداً، قال: وأمّا أنا فمسح خدي قال: فوجدت ليده بَرْداً أو رِيحاً كأنما أخرجها من جُؤْنَةِ عطّار.

رواه مسلم (١٥/٨٥).

«جؤنة عطار» بضم الجيم بعدها همزة ساكنة هي سُلَيْلة مُغَشَّاةٌ بالأُدم تكون عند بائعي العطورات والرياحين.

[٦٤٤] وعن أبي جُحَيفة رضي الله تعالى عنه قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثَّلج، وأطيبُ رائحةً من المسك.

رواه البخاري في المناقب (٣٨٢/٧).

فهكذا كان ﷺ كلّه طيباً، بل عرقه وأثر يده أطيب من ريح المسك، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وزوجه وصحابته وعنّا معهم آمين.

وكان مع رائحته الطيبة في جسمه الطاهر يُكثر من استعمال الطِّيب.

[٦٤٥] فعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان لرسول الله ﷺ سُكَّةٌ يتطيّب منها.

رواه أبو داود (٤١٦٢)، وابن سعد (٣٩٩/١)، وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ (٩٨) بسندٍ صحيح على شرط مسلم.

«سكة» بضم السين والكاف المشدّدة المفتوحة وعاء يوضع فيه الطِّيب.

وقد تقدمت أحاديث في كتاب اللباس تتعلّق بالطِّيب.

والطِّيب محبوب للنفوس، منعش، تحبّه الملائكة والأرواح الطيّبة، وتكرهه وتنفر منه الأرواح الخبيثة الشرّيرة.

ولذلك استحبّ العلماء تبعاً للسنة استعماله في المجامع العامّة والمحافل، ويوم الجمعة وأيام العيد، وعند قراءة القرآن وذكر الله تعالى، ويتأكّد استعماله لأهل القرآن والعلم إكراماً لما يحملونه من كتاب الله تعالى والحكمة.

* * *

❁ كلامه ﷺ في الشِّعر وغيره

[٦٤٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قيل لها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيءٍ من الشعر؟ قالت: كان يتمثّل بشعر ابن رواحة ويتمثّل بقوله: ويأتِيكَ بالأخْبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ...

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٧)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٧) وفي الشمائل (٢٤١) وحسّنه وصححه وذلك لطريقين له.

«من لم تزوّد» بضم التاء وكسر الواو المشددة من التزويد وهو إعطاء الزّاد. ومعناه: أنه قد يأتيك بالأخبار من لم تعطه شيئاً من الزاد، وأوّل البيت:

ستُبْدِي لكَ الأَيّامُ ما كنتَ جاهِلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّد

وهو صادق في ذلك، والبيت من جنس ما ورد فيه: «إنَّ من الشِّعر لحِكْمَةً».

[٦٤٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: **«أشعَرُ كَلِمَةٍ تكلمتْ بها العربُ»**، وفي رواية: **«أصْدَقُ كلِمَةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لَبِيدٍ، قوله: ألاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خلا الله باطِلٌ. وكاد أُمية بن أبي الصَّلْتِ أن يُسْلِمَ»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٥٩)، ومسلم فيه (١٥/١٣)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٨) وفي الشمائل (٢٤٢)، وابن ماجه (٣٧٥٧).

لبيد: هو ابن أبي ربيعة العامريّ كان من فصحاء العرب في الجاهلية وشعرائهم قدم على النبيّ ﷺ ثم سكن الكوفة وتوفى سنة (٤١) وله من العمر (١٤٠) سنة، وقد أخبر النبيّ ﷺ عن قوله هذا: ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ، بأنه أصدق ما قاله العرب والشعراء وهو من الحِكَم الشعريّة، وإنما قال ذلك فيه لغلبة الكذب، والخنا، والفحش، والأمور الخيالية الباطلة على كلامهم، فكان أصدق ما قالوه كلمة لبيد هذه؛ لأن كل ما سوى الله أيّاً كان هو هالك فانٍ باطل لا ثبات له. وقوله: «كاد أُمية» الخ أُمَيَّةُ هذا كان في الجاهلية يتكلم في التوحيد، ويذكر البعث والآخرة... ولما جاء نور الإسلام خذله الله فكفر.

[٦٤٨] وعن جُنْدُب بن سفيان البَجَلي رضي الله تعالى عنه قال: أصاب حَجَرٌ إصبعَ النبيّ ﷺ فدَمِيَتْ، فقال:

هَـلْ أَنْـتِ إلاَّ إِصْـبَـعٌ دَمِـيـتْ وفـي سَـبِـيـلِ الله مـا لَـقِـيـتِ

رواه البخاري ومسلم في الجهاد، وتقدَّم.

[٦٤٩] وعن جابر بن سمرة قال: جالستُ النبيّ ﷺ أكثر من مِائَةِ مرّة، وكان أصحابه يتناشدون الشّعر، ويَتذاكَرُون أشياء من أَمْرِ الجاهلية وهو ساكتٌ، وربما تبسَّم معهم.

رواه أحمد (١٠٥/٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٩) وفي الشمائل (٢٤٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي بسياق آخر كلّهم في الصلاة.

[٦٥٠] وعن عمرو بنِ الشريد عن أبيه قال: كنت رِدْفَ النبيّ ﷺ فأنشدتُه مائةَ قافيةٍ من قول أُميّة بن أبي الصّلت الثقفي كلما أنشدته بيتاً قال لي النبيّ ﷺ: «هِيه»، حتى أنشَدتُهُ مائة - يعني بيتاً - فقال النبيّ ﷺ: **«إن كادَ لَيُسْلِمُ»**.

رواه أحمد (٣٨٨/٤، ٣٨٩)، ومسلم (٢٢٥٥)، والترمذي في الشمائل (٢٤٨) وابن ماجه...

«ردف» بكسر الراء وسكون الدال أي: راكباً خلفه. «هيه» بكسر الهاء الأُولى أي: زِدْني... كان النبيّ ﷺ أفصح العرب على الإطلاق لكن الله عزّ وجلّ نزّهه عن قول الشعر وإنشاده، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، لأن الشعر أكثره سفاهة وأعذبه أكذبه. والنبيّ ﷺ يُجلّ عن ذلك. نعم كان ينشد بعض أبيات غيره ويتمثل بها، وما جاء من كلامه الموزون ليس من الشعر، وفي حديثي جابر والشريد جواز سماع أشعار الجاهلية إذا كانت خالية من السقطات والكلام الفاحش... وسيأتي في الأدب الكلام على الشعر. أما صفة كلامه ﷺ في تحديثه... فقد تقدمت في الجزء الأول من كتاب العلم.

* * *

[٦٥١] عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت أحداً أكثرَ تَبَسُّماً من رسول الله ﷺ. وفي رواية: ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تَبَسُّماً.

رواه أحمد (٤/١٩٠، ١٩١)، والترمذي في المناقب (٣٤١٦) وفي الشمائل (٢٢٧) وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (ص ٩٠) بسند صحيح.

[٦٥٢] وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إني لأعلمُ أولَ رجلٍ يَدخلُ الجنة وآخِرَ رجلٍ يَخرُجُ من النار يُؤتَى بالرجل يوم القيامة فيُقال: اعْرِضُوا عليه صغار ذنوبه، وأخْبِئُوا عنه كِبارَها، فيقال له: عَمِلْتَ يومِ كذا كذا وكذا وهو مُقِرٌّ لا يُنكِر، وهو مُشْفِقٌ من كبارِها، فيقول: أعْطُوه مكان كلِّ سيئةٍ حسَنَةً، فيقول: إن لي ذنوباً لا أَراها هُهُنا**»، قال أبو ذرّ: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضَحِكَ حتى بدَتْ نواجِذُه...

رواه أحمد (٥/١٥٧، ١٧٠)، ومسلم في الإيمان رقم (١٩٠)، والترمذي في صفة جهنّم (٢٤١٥) بتهذيبي وفي الشمائل (١٢٩).

كان الحبيب ﷺ بشراً يطرأ عليه ما يَعْرِضُ لسائر البشرية من الغرائز والأعراض، فكان يحزن ويبكي، ويفرح ويضحك، وكان أكثر ضحكه التبسُّم، وصحّ في أحاديث تناهز العشرين أنه ضحك حتى ظهرت نواجذه الشريفة، وقد جمعها في رسالة لطيفة أستاذنا الحافظ سيدي أحمد الصدّيق رحمه الله تعالى أسماها «شوارق الأنوار المُنيفَة، بظهور النواجذ الشريفة»، طُبِعت عدّة مرات، وتقدَّم لنا في التفسير والأذكار حديث الإمام عليّ عليه السلام في ركوبه وقوله في ذلك وضحكه، وقوله: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك، فقلت: من أيِّ شيءٍ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: «**إن ربّك ليعجب من عبده إذا قال ربِّ اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب أحدٌ غيرُهُ**»، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم بسندٍ صحيح. ويأتي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في الرقاق، والذي

فيه التحدّث عن آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنّة، **وأن الله عزّ وجلّ** سيدخله الجنّة ويعطيه ما تمنّى وعشرة أضعاف الدنيا، **فيقول لله عزّ وجلّ**: أتسخر بي وأنت الملك أو ربّ العالمين، فضحك النبيّ ﷺ حتى بدَتْ نواجذه وهو في الصحيحين.

«النواجذ» الأضراس.

[٦٥٣] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن كان رسول الله ﷺ لَيُخَالِطُنا حتى يقول لأخٍ لي صَغِير: **«يا أبا عُمَير ما فعل النُّغَيرُ»**.

رواه البخاري (٢٠٤/١٣، ٢٠٥) ومسلم (١٢٨/١٤) كلاهما في الأدب، والترمذي في البرّ (١٨٣٤) وفي الشمائل (٢٣٦)، وابن ماجه (٣٧٢٠)، والنسائي في اليوم والليلة.

«النُّغَيْر» تصغير النُّغَر بضم النون وفتح الغين طائر صغير.

كان لأنس أخٌ صغير وكان له طائر يلعب به فمات فحزن عليه، فمازحه النبيّ ﷺ بقوله: **«يا أبا عُمَير ما فعل النُّغَير»**.

[٦٥٤] وعنه قال: إن رجلاً اسْتَحْمَلَ رسول الله ﷺ فقال: **«إنّي حامِلُك على ولدِ النّاقة»**، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال ﷺ: **«وهَلْ تَلِدُ الإبلُ إلا النُّوقَ»**.

رواه أحمد (٢٦٧/٣)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٨)، والترمذي في البرّ (١٨٣٧) وفي الشمائل (٢٣٨) وحسّنه وصححه وهو صحيح عنده على شرطهما.

«استحمله» أي: طلب منه أن يحمله على جَمل.

مازح النبيّ ﷺ هذا الرجل وأوهمه أنه سيحمله على صغير من النوق، فتوهم الرجل أن الولد لا يطلق إلا على الصغير الذي لا يُركب، فبيّن له ﷺ أنه إنما أراد مداعبته وأن كل أنواع الإبل صغارها وكبارها هنّ أولاد النّوق.

فكان ﷺ يمازح ولا يقول إلا حقاً، كما صحّ عنه.

[٦٥٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله إنَّك تُدَاعِبُنا، قال: **«نعم، غيرَ أنّي لا أقول إلا حقاً»**.

رواه الترمذي في البرّ (١٨٣٥) وفي الشمائل (٢٣٧)، وأحمد (٢/٣٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥) وحسّنه الترمذي وصححه.

«تداعبنا» أي: تمازحنا.

[٦٥٦] وعن أنسٍ أن رجلاً من أهلِ البادية كان اسمه زاهراً، وكان يُهْدِي إلى النبيّ ﷺ هَدِيَّةً من البادية فيُجَهِّزُه النبيّ ﷺ إذا أراد أن يَخْرُجَ، فقال النبيّ ﷺ: **«إن زاهراً بادِيَتُنا ونحن حاضِرُوه»**، وكان ﷺ يحبّه، وكان رجلاً دَمِيماً، فأتاه النبيّ ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه فاحتضنه مِن خلفه وهو لا يُبْصِرُه، فقال: من هذا؟ أرسلني، فالتفت فعرف النبيّ ﷺ فجعل لا يألو ما أَلْصَق ظَهْره بِصَدْرِ النبيّ ﷺ حين عرفه، فجعل النبيّ ﷺ يقول: **«من يشتري هذا العبد؟»** فقال: يا رسول الله إذاً والله تجدني كاسداً، فقال النبيّ ﷺ: **«لكن عند الله لستَ بكاسدٍ»**، أو قال: **«أنت عند الله غالٍ»**.

رواه أحمد (٣/١٦١)، والترمذي في الشمائل (٢٣٩)، وابن حبان (٢٢٧٦) بالموارد بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

«باديتنا» أي: نستفيد منه ما يستفيد الرجل من باديته، والبادي المقيم بالبادية. «حاضروه» أي: يستفيد منا إذا جاءنا. «دميماً» بفتح الدال أي: قبيح الصورة مع كونه مليح السيرة محبوباً عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ. قوله: «لا يألو» أي: لا يقصر، في رواية ابن حبان: جعل يلزق ظهره بصدره.

فما صدر منه ﷺ مع هذا الأعرابي الجليل غاية في المداعبة والمباسطة والتواضع والمعاملة الجميلة، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وزوجه.

***

✽ جُلوسُه واتِّكاؤه ﷺ

[٦٥٧] عن قَيْلَة بنت مَخْرَمة أنها رأت رسولَ الله ﷺ في المسجد وهو قاعدٌ القُرْفُصاء، قالت: فلما رأيتُ رسولَ الله ﷺ المُتَخَشِّع في الجِلْسةِ فأُرْعِدْتُ من الفَرَق. زاد في رواية: يا مِسْكِينَةُ عَلَيْكِ السَّكِينَة.

رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٧٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٤٧)، والترمذي في الشمائل (١١٩) بسندٍ حسن، وقال الحافظ في الأدب من الفتح: سنده لا بأس به، ورواه الطبراني مطوّلاً وفيه: يا مسكينة، قال النور في المجمع (١٢/٦): رجاله ثقات.

«القرفصاء» بضم القاف والفاء بينهما راء ساكنة هي؛ أن يجلس الإنسان على إليتيه ويلصق فخذه ببطنه ويضع يديه على ساقيه قابضاً إحداهما بالأخرى ومنها الحَبْوَةُ؛ بأن يجمع بين ظهره وساقيه بثوبٍ فيعتمد على ذلك، وقد صحّ في أحاديث أنه كان يحتبي ﷺ في جلوسه بيده وغيرها. «فأرعدت» مبني للمجهول أي: حصلت لي رعدة من الفرق ـ بفتحتين ـ أي: الخوف والفزع.

[٦٥٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة محتبياً بيده هكذا.

رواه البخاري في الأدب من صحيحه (٣٠٦/١٣).

[٦٥٩] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس احتبى بيديه.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٦) بسندٍ صحيح ونحوه عنده (٤٠٧٥) عن جابر قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو مُحْتَبٍ بشملة قد وَقَع هَدبُها على قدميه، وتقدّم في اللباس بل جاء نحوه في البخاري عن ابن عمر وفي مسلم عن ابن عباس، فالاحتباء كما يكون بالثوب يكون باليدين وهو القرفصاء.

فكان ذلك من صفات جلوسه ﷺ وتقدم في الأطعمة أنه قال:

«أجلس كما يجلس العبد»، يعني بذلك جلسة المتواضعين.

[٦٦٠] وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبيّ ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

رواه الشيخان، ويأتي في الأدب.

ففيه جواز الاستلقاء على القفا ولو في المسجد، وما جاء من النهي عن ذلك محمول على من يخشى انكشاف عورته، وانظر تهذيبي للجامع (٢٥٧٧، ٢٥٧٨).

[٦٦١] وعن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله ﷺ متّكئاً على وسادة على يساره.

رواه أحمد (٥/٨٦، ٨٧)، وأبو داود (٣١٤٣)، والترمذي في الأدب (٢٥٨١) وفي الشمائل (١٢٢) بسند صحيح على شرط مسلم، ويأتي في الزهد وغيره أحاديث في هذا المعنى.

وقد صحّ في غير ما حديث اتّكاؤه؛ كحديث: **«ألا أُحدّثكم بأكبر الكبائر»**، وفيه: وكان متّكئاً، وهو في الصحيحين ويأتي في الأدب مطوّلاً كاملاً إن شاء الله تعالى.

لكنه لم يكن يأكل متّكئاً كما قدمنا في الأطعمة: **«أما أنا فلا آكل متكئاً»**، وهو في البخاري.

* * *

❋ خفّه ونعله ﷺ

[٦٦٢] عن بُرَيْدة رضي الله تعالى عنه أن النجاشيّ أهْدَى النبيَّ ﷺ خُفَّيْنِ أسْوَدَيْن سَاذِجَيْنِ، ثم توضّأ ومسح عليهما.

رواه أبو داود (١٥٥)، والترمذي في السنن (٢٦٣٠) وفي الشمائل (٦٩)، وابن ماجه (٥٤٩، ٣٦٢٠) وفيه دلهم بن صالح فيه ضعف لكنه

تابَعَه يَحْيَى بنُ كثير كما في أخلاق النبيّ ﷺ لأبي الشيخ (ص ١٣٣) فيتأيّد به، ولذا حسَّنه الترمذي.

قوله: «ساذجين» بفتحات وتكسر الذال أيضاً تثنية ساذج أي: خالصين في السواد، والنجاشي هذا ملك الحبشة التي أكرم الصحابة المهاجرين إليه وحماهم، وكان قد أسلم وتوفي في السنة التاسعة وصلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب، وتأتي ترجمته في الفضائل.

[٦٦٣] وعن المغيرة بن شعبة قال: أهدى دحية للنبيّ ﷺ خفّين فلبسهما.

رواه الترمذي في السنن (١٦٢٤) وفي الشمائل (٧٠) بسندٍ صحيح، ورواه أبو الشيخ (١٠٥) من طريقٍ آخر.

الخفّ غِشاءٌ للرجل يُغَطِّي الكعب يكون من الجلد مخروزاً ومُبَطّناً بقُطن أو كِتّانٍ أو نحو ذلك.

والحديثان يدلاّن على أن النبيّ ﷺ كان يلبس الخفّين ويمسح عليهما في الوضوء، ولا خلاف في ذلك بين الأئمة والعلماء، كما أن فيهما قبول الهدايا، وقد جاء في ذلك غير ما حديث تقدّم بعضها، ويأتي البعض الآخر.

[٦٦٤] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ كان نَعْلاَهُ لَهُما قِبالاَنِ.

رواه البخاري (٤٣٠/١٢)، وأبو داود (٤١٣٤)، والترمذي (١٦٢٧)، والنسائي (١٩٢/٨)، وابن ماجه (٣٦١٥) كلهم في اللباس وهو في الشمائل للترمذي (٧١).

[٦٦٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان مَثْنِيٌّ شِرَاكُهُما.

رواه الترمذي في الشمائل (٧٢)، وابن ماجه (٣٦١٤) بسند صحيح.

القِبال ـ بكسر القاف ـ ويسمّى شِسْعاً وهو السير والزمام الذي يكون للنعل بين أُصْبُعَيْ الرجلين أحدهما بين الإبهام والتي تليها، والآخر بين الوسطى وأختها. والشِّراك ـ بكسر الشين ـ سير يكون على وجه النعل، فكان لنعله ﷺ قبالان وشراكان.

* * *

❁ صفة مشيه ﷺ

[٦٦٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت شيئاً أَحْسَنَ من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ، كأنّما الأرضُ تُطْوَى له، إنا لنُجْهِدُ أنفسنا وإنه لغير مكترث.

رواه أحمد (٢/٣٥٠)، والترمذي (٣٤١١) وفي الشمائل (١١٥)، وابن حبان (٢١١٨)، وابن سعد (١/٣٧٩، ٣٨٠) وسنده صحيح عند بعضهم وابن لهيعة قد تُوبع.

«لنجهد» بضم النون وكسر الهاء أي: لنكلف أنفسنا ونحمّلها فوق طاقتنا لنساويه في المشي. «غير مكترث» بضم الميم وكسر الراء أي: غير مُبالٍ.

في الحديث صفتان للنبيّ ﷺ إحداهما حسن صورة وجهه الشريف، وأنه كان كالشمس تجري فيه لتلألؤه ولمعانه واستنارته، ثانيهما: صفة مشيه ﷺ وأنه كان يسرع في ذلك لا يُدرك، رغم أن الصحابة الذين كانوا يماشونه كانوا يبالغون جهدهم في السير معه وهو غير مُبالٍ، بل كان يمشي مشياً عادياً، وتلك معجزة له ﷺ في طيّ الطريق. . . وقد قدمنا سابقاً في صفته أنه كان إذا مشى تكفّأ تكفّؤاً كأنما ينحط من صبب.

* * *

[٦٦٧] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: ألستُم في طعامٍ وشرابٍ ما شِئتُم؟ لقَدْ رأيتُ نَبِيَّكُم ﷺ وما يجدُ من الدَّقَل ما يَمْلأُ بطنَه.

رواه أحمد (٢٦٨/٤)، ومسلم في الزهد (١٠٩/١٨)، والترمذي فيه (٢١٩٠) وفي الشمائل (١٣١).

«الدقل» - بفتحتين - التمر الرديء اليابس.

[٦٦٨] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ لم يَجْتَمِعْ عِنْده غداءٌ ولا عَشاءٌ من خُبز ولحم إلا على ضَفَفٍ، وفي رواية: ما شبع من خبز قطّ ولا لحم إلا على ضَفَفٍ. قال مالك بن دينار: سألت رجلاً من أهل البادية ما الضفف؟ قال: أن يتناول مع الناس.

رواه أحمد (٢٧٠/٣)، والترمذي في الشمائل (١٣٨)، وابن سعد (٤٠٤/١)، وأبو الشيخ في الأخلاق (ص ٢٧٨) بسندٍ صحيح على شرط الشيخين، والرواية الثانية رواها الترمذي في الشمائل عن مالك بن دينار مرسلاً وسنده صحيح.

«الضفف» - بفتحتين مع تشديد الضاد - هو الطعام الذي كثُرت عليه الأيدي.

ومعنى الحديث أنه ﷺ لم يكن يجتمع عنده غَداءٌ ولا عَشاءٌ من خبز ولحم إلا إذا كان عنده ضيوف أو غيرهم، فكان لذلك يشبع من خبز ولحم مما كان يُهْدى إليه، وما عدا ذلك فكان لا يجد أحياناً ما يملأ بطنه ويشبعه حتى التّمر الرديء.

[٦٦٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إن كان آل محمد ﷺ نمكُث شهراً ما نستوقد بنار، إنْ هُوَ إلا التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منائحُ فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيَسْقِينَاهُ.

رواه البخاري في الهِبة وفي الرقاق، ومسلم في الزهد (١٠٦/١٨، ١٠٧)، والترمذي في الشمائل (١٣٢)، وأبو الشيخ (٢٧٤).

«المنائح» جمع منيحة وهي الناقة أو الشاة الحلوب يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها، ثم يردها إلى صاحبها عند نفاد لبنها.

فهكذا كان عيش رسولنا الأكرم ﷺ لا يجد ما يُشْبعه من رديء التمر، ولا تُوقد النار في بيت من بيوت نسائه لتهيئة الطعام وطبخه شهراً كاملًا، وما كان طعامه مع أهله إلا التمر والماء، ولم يجتمع عنده ما يتناوله في الغداء أو في العشاء من خبزٍ ولحم إلا إذا أكل مع ضيف أو نحوه. وسيأتي بقايا في الزهد والرقائق وغيرها.

* * *

خبز رسول الله ﷺ

[٦٧٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ.

رواه مسلم (١٠٦/٨)، والترمذي (٢١٧٧)، وابن ماجه، ثلاثتهم في الزهد وهو في الشمائل (١٤٥).

[٦٧١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهلُه ثلاثاً تباعاً من خبز البرّ حتى فارق الدنيا.

رواه البخاري في الأطعمة، ومسلم (١٠٨/١٨، ١٠٩)، والترمذي (٢١٧٨) كلاهما في الزهد، وابن ماجه (٣٣٤٣).

[٦٧٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثرُ خبزهم خبزَ الشعير.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٨٠) وفي الشمائل (١٤٧)، وابن ماجه في الأطعمة (٢٣٤٧) وحسّنه الترمذي وصححه.

«طاوياً» أي: جائعاً.

[٦٧٣] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: أَكَلَ رسولُ الله ﷺ النَّقِيّ ـ يعني الحُوَّارَى ـ فقال: ما رأى رسول الله ﷺ النقيّ حتى لقي الله عزّ وجلّ، فقيل له: هل كانت لكم مناخلُ على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: ما كانت لنا مناخل، قيل: كيف كنتم تصنعون بالشعير؟ قال: كنا نَنْفُخُه فيَطِيرُ منه ما طار ثم نُثَرِّيه ثم نَعْجِنُه.

رواه أحمد (٣٧٢/٥)، والبخاري في الأطعمة (٤٨١/١١)، والترمذي في الزهد (٢١٨٤) وفي الشمائل (١٤٨)، وابن ماجه (٣٣٧٥)، وابن سعد (٤٠٨/١).

الحُوارى ـ بضم الحاء وفتح الواو المشدّدة آخره راء ثم ألف مقصورة ـ هو الدقيق المنخول المرقّق الأبيض.

فهذه الأحاديث تدلّ بجملتها على أن أكثر خبز رسول الله ﷺ كان من الشعير، ومع ذلك فلم يكن يشبع منه ولا من غيره كالبرّ يومين أو ثلاثاً متواليين. أما الخبز النقيّ المعمول من الدقيق المنخول الرقيق فلم يرَه قطّ فضلاً عن أن يأكله، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وزوجه وصحبه وعنّا معهم، آمين.

* * *

فراش رسول الله ﷺ

[٦٧٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إنما كان فِراشُ رسول الله ﷺ الذي يَنامُ عليه من أَدَمٍ حَشْوُهُ لِيفٌ.

رواه البخاري في الرقاق (٧٣/١٤)، ومسلم في اللباس (٥٨/١٤)،

والترمذي (١٦١٨)، وأبو داود (٤١٤٧)، والترمذي في الشمائل أيضاً (٣٢١).

«أدم» بفتحتين جمع أديم وهو الجلد المدبوغ. «والليف» ليف النخل والجمار.

فراش رسولنا الأعظم الذي كان ينام عليه من الجلد محشوّ بليف النخل، فلم يكن له فراش من كتّان أو قطن أو صوف بل جلد مدبوغ، فكيف لو رأى فرشنا ووسائدنا وأغطيتنا، فاللّهمّ عفوك وغفرانك.

[٦٧٥] وعن أبي بردة رضي الله تعالى عنه في قصة أبي عامر وأبي موسى الأشعري في غزوة أوطاس، وقول أبي موسى: فلما رجعت إلى النبيّ ﷺ دخلت عليه وهو في بيت على سرير مُرْمَلٍ وعليه فراش وقد أثّر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبه.

رواه البخاري (١٠٤/٩)، ومسلم في الفضائل (٦٠/١٦)، وقد تقدم في المغازي.

[٦٧٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في سؤاله عُمَرَ عن قوله تعالى؛ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، فذكر الحديث وفيه عن عمر: فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل أذن لك، قال: فدخلت فإذا رسول الله ﷺ مُتَّكِيءٌ على رَمْلِ حَصِيرٍ، فرأيت أثره في جنبيه... الحديث يأتي مطوّلاً في الزهد، وتقدم مختصراً في التفسير، وهو في الصحيحين. والسرير المرمل المنسوج بشريط وحبل.

فهكذا كان فراش رسول الله ﷺ إما جِلْدٌ مَحْشُوٌّ بليف النخل، أو سريرٌ منسُوجٌ بحِبال حتى تؤثر في ظهره وجنبه الشريف؛ فراشٌ بسيطٌ للغاية لا ينام أو يجلس عليه في العادة إلا من بلغ بهم الفقر والحاجة النهاية، فلنقارن نحن معاشر أُمّته وأتْباع سنّته حالتَنا بما كان عليه ﷺ من الإعراض عن الدنيا وزينتها ومستلذّاتها... ويأتي مزيد لهذا في الرّقاق والزهد.

* * *

❁ أخلاقه ﷺ

[٦٧٧] عن سعد بن هشام رحمه الله تعالى قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: أمَا تَقْرَأُ القُرْآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خُلُقُه القرآن.

رواه أحمد (٩١/٦، ٩٣)، ومسلم في صلاة الليل (٢٥/٦، ٢٦).

«خُلُق» بضمّتين هو السجية والطبيعة.

فقول السيدة هنا: كان خُلُقه القرآن، تعني أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً وخبراً سجية وصفة له تَطَبُّعَهُ، وترك طَبْعَه الجِبلِيّ، فمهما أمره القرآن بشيء امتثله، ومهما نهاه عن شيءٍ تركه وابتعد عنه مع ما كان مجبولاً عليه من قبل الله عزّ وجلّ من التخلّق بكل خلق سَنِيّ، كما يأتي.

ولذلك أثنى الله عزّ وجلّ عليه ونوّه به بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، فلا أعظم في الدنيا من الخلق الذي أشاد الله تعالى به ووصف به نبيّه وحبيبه الخاتم ﷺ.

[٦٧٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صالحَ الأخْلاق»**، وفي رواية: **«مكارم الأخلاق»**.

رواه أحمد (٣٨١/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وابن سعد (١٩٢/١)، والحاكم (٦١٣/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، قال ابن عبدالبرّ: هو حديث صحيح متّصل من وجوه صحاح.

ومعنى الحديث أنه بُعِث إلى الناس ليُكَمِّلَ تَخَلُّقاً وتبليغاً ما كان قد تَبَقَّى من الأخلاق الصالحة الكريمة التي لم يكن مُتَّصِفاً بها أحدٌ من الأنبياء أو غيرهم من العرب أو سائر الأجناس والأُمم قبله ﷺ، فقد أتمّ ذلك بأخلاقه وأقواله عليه السلام.

❁ ❁ ❁

❁ حُسْن عشرته ومعاملته الطيّبة

[٦٧٩] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أُفٍّ قط، وما قال لي، لشيء صنعتُه لِمَ صنعتَه، ولا لشيء تركتُه لِمَ تركْتَه، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً.

رواه البخاري ومسلم والدارمي والترمذي مطوّلاً، وقد تقدم بسياقٍ آخر في طيب جسمه ﷺ.

هذا غاية في حسن المعاشرة ومعاملة الخادم، فعَشَرةُ أعوام من خدمة أنس له ﷺ لم يَرَ منه فيها عِتاباً أو تَعْنِيفاً لشيء فعله أو تركه وما تأفّفَ منه طوال هذه المدة، وكيف لا وهو أحسن الناس خلقاً بشهادة الله عزّ وجلّ.

[٦٨٠] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال: «بئس أخو العشيرة»، فلما خرج قلت: يا رسول الله قلت ما قلت، ثم ألنتَ له القول فقال: «يا عائشة إن مِنْ شرّ الناس مَنْ تَرَكَهُ الناس أو وَدَعَه الناس اتّقاءَ فُحْشِهِ».

رواه أحمد (٦/٣٨، ٨٠، ١٥٨، ١٧٣)، والبخاري (١٣/١٤٤)، ومسلم (١٦/١٤٤)، والترمذي (١٨٤١)، وأبو داود (٤٧٩١) كلّهم في الأدب وهو في شمائل الترمذي (٣٤٣).

ما فعله ﷺ مع ذلك المنافق هي مجاملة مشروعة في معاملة الآخرين ولو كانوا كافرين أو فاسقين، وهي من تمام حسن الأخلاق وليست من النّفاق، كما قد يتوهّم. قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين وهي: خفض الجناح للناس ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول... ويأتي مزيد لهذا في الأدب.

❁ ❁ ❁

* حلمه ﷺ وعفوه مع المقدرة

[٦٨١] عن عائشة رضي الله تعالى عنه قالت: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ في أمرين قطّ إلا اختار أيسَرهُما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهَك حُرْمَةُ الله تعالى، فَيَنْتَقِمُ لله بها.

وفي رواية: ما رأيت رسول الله ﷺ مُنْتَصِراً من مَظْلِمَةٍ ظُلِمَها قطّ ما لم تكن حُرمةٌ من محارم الله، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً ولا امرأة.

رواه أحمد (٦/٣٢)، والبخاري في المناقب (٧/٣٨٥، ٣٨٦) وفي الأدب، ومسلم في الفضائل (١٥/٨٤)، والترمذي في الشمائل (١٩٩) بألفاظ وزيادة ونقصان.

«أيسرهما» أي: أسهلهما. «مظلمة» بكسر اللام وفتحها.

هكذا كان خلقه مع الآخرين لا ينتقم لنفسه ممن ظلمه أو اعتدى عليه، ولم يعرف عنه أنه ضرب أحداً لا زوجة من زوجاته، ولا بنتاً من بناته، ولا خادماً ولا عبداً ولا أمة فضلاً عن غيرهم، وإنما كان ينتقم ويغضب لله إذا رأى حرمة من حرمات الله انْتُهِكت.

[٦٨٢] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فَجَبَذَهُ أعرابيّ بردائه جَبْذَةً شديدة، حتى أثّرت حاشيةُ البرد في صَفْحَةِ عُنُقِهِ، ثم قال: يا محمد مُرْ بي من مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه النبيُّ ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٣٩٠)، ومسلم في الزكاة (٧/١٤٦) وغيرهما.

هذا سوء أدب كبير من هذا الأعرابي، وإذاية شديدة منه للنبيّ ﷺ، ومع ذلك قابله بالضحك والعطاء ولم يصنع معه شيئاً يَسُوءُه.

[٦٨٣] وعن جَعْدَةَ قال: أُتِيَ النبيّ ﷺ برجل فقيل له: هذا أراد أن يقتلك، فقال له النبيّ ﷺ: **«لم تُرَعْ ولو أردْتَ ذلك لم يُسَلِّطْكَ الله عليَّ»**.

رواه أحمد (٤٧١/٣) بسندٍ صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٢٧/٨) برواية أحمد والطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي إسرائيل الجشمي وهو ثقة.

«لم ترع» مبنيّ للمجهول أي: لا تفزع لمكروه ولا تخف. وهذا نهاية ما يكون من الحلم والعفو، وقد تقدّمت أحاديث في حلمه وعفوه ﷺ في غضون السِّيرة؛ كحديث ابن عمرو عن التوراة: ولا يجزىء السيّئة بالسيّئة، ولكن يعفو ويصفح، وحديث ابن السعنة اليهودي وفيه: يسبق حلمه جهله. وحديث عفوه عن غورث الذي اخترط سيفه وأراد قتله، وحديث عفوه عن اليهودية التي سمّته، وحديث عفوه عن ابن أُبيّ المنافق، وحديث عفوه عمّن قال له: اعدل يا محمد، فإنّ هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله، إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرةً.

❋ ❋ ❋

❋ جوده وسخاؤه وكرمه ﷺ

[٦٨٤] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: ما سُئِل رسول الله ﷺ عن شيء فقال: لا.

رواه البخاري في الأدب (٦٥/١٣)، ومسلم في الفضائل (٧١/١٥)، والدارمي (٧١).

[٦٨٥] وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان النبيّ ﷺ أجْوَد الناسِ بالخير، وأجودَ ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيَهُ جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الريح المُرْسلة.

رواه أحمد (٣٦٣/١، ٢٨٨)، والبخاري في بدء الوحي (٣٤/١، ٣٥) وفي الإيمان وفي الصيام... ومسلم في الفضائل (٦٨/١٥، ٦٩).

[٦٨٦] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل النبيّ ﷺ فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أَسْلِمُوا فإن محمداً يُعْطِي عطاءَ من لا يَخْشَى فاقة.

رواه مسلم في الفضائل (٧٢/١٥).

الفاقة: الفقر.

هكذا كان كرمه ﷺ، فكانت الدنيا عنده أحقر شيء وأصغره في عينيه، فلم يكن يعبأ بها ولا بما سيق له منها، فلذلك كان يعطي منها أُعْطِية خياليّة، وقد قدمنا في غزوة حنين أنه أعطى أبا سفيان والأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصن وصَفوان بن أُميّة مائة مائة من الإبل، وردّ على هوازن ألوف الأنعام، وكان ذلك عادة له حتى قبل النبوّة صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه.

* * *

❊ شجاعته ﷺ

[٦٨٧] قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: ما رأيت أشجعَ ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ.

رواه الدارمي في مقدمة سننه (٦٠) بسندٍ صحيح.

[٦٨٨] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كنّا والله إذا احْمَرَّ البأس نتقي به، وأما الشجاع منّا الذي يحاذى به - يعني النبيّ ﷺ -.

رواه مسلم (١٢٠/١٢).

[٦٨٩] وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بَأْساً.

رواه أحمد (٨٦/١) بسندٍ صحيح.

[٦٩٠] وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: فلما التقى المسلمون

والكفار ولّى المسلمون مُدْبِرين، فطفِقَ رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بغلَتَهُ نحوَ الكفار، وأنا آخِذٌ بلجامها أَكُفُّهَا إرادةَ أن لا تُسْرِع، وأبو سفيان ـ يعني ابن الحارث ابن عمّ الرسول ـ آخِذٌ بركابه ثم نادى بالمُسْلِمِين. . .

رواه مسلم في السِّير (١٣/١١٧، ١١٨) وفي رواية للبراء: والنبيّ ﷺ يقول: **«أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**، رواه البخاري ومسلم وقد تقدم في غزوة حُنين.

[٦٩١] وقال أنس رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فَزِعَ أهلُ المدينة ليلةً فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت فتلقَّاهم رسولُ الله ﷺ راجعا قد سَبَقَهم إلى الصوت، وقد استبرأ الخبرَ على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ والسيف في عُنقه، وهو يقول: **«لن تُراعُوا»**.

رواه أحمد (٣/١٤٧، ١٨٥، ٢٧١)، والبخاري في الجهاد (٦/٤٦٣) وفي مواضع، ومسلم في الفضائل (١٥/٦٧، ٦٨).

«لن تراعوا» أي: لا تفزعون ولا تخافون.

هذه نماذج من شجاعته ﷺ ونجدته، وأنه كان لا يُجارَى في ذلك، وحَسْبُك أن الصحابة كانوا إذا اشتدّ القتال اتّقوا به ﷺ، وأيّ شجاعة أعظم من صموده أمام جيوش هوازن. . . وركوضه نحوهم وقد انهزم عنه الصحابة وهو على بغلته يقول بكل شجاعة: **«أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**، فلم يكن ولا يكون أشجع منه ﷺ.

* * *

❁ حياؤه ﷺ

[٦٩٢] عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العَذْراءِ في خِدْرِها، وكان إذا كره شيئاً عُرِفَ في وَجْهِهِ.

روا أحمد (٧١/٣، ٧٩، ٩٢) وفي مواضع، والبخاري في المناقب (٣٨٧/٧، ٣٨٨)، ومسلم في الفضائل (٧٨/١٥)، والترمذي في الشمائل (٣٥١)، وأبو الشيخ في الأخلاق (٣٩/٤٠).

«العذراء» هي البنت البكر. و«الخدر» بكسر الخاء محل تسترها.

فالعذراء في خدرها إذا فاجأها أحد فيه احمرَّت وخَجِلَتْ وحصل لها تغيُّرٌ، وهذا الخلق خاصّ بالبنت العفيفة البعيدة عن مخالطة الرجال المَصُونَة. أما البنت التي تعتاد الخروج ومزاحمة الرجال، فلا يكون لها هذا خلقاً، بل تكون صفيقة الوجه وقحة، وعلى أيّ فالنبيّ ﷺ كان من خُلُقِهِ هذا الحياء الشديد، ولذلك كان لا يواجه أحداً بما يكره كما في الحديث التالي.

[٦٩٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أنه دخل عليه رجل به أثر صُفْرَةٍ، فلم يَقُلْ له شيئاً، وكان لا يواجه أحداً بما يكره، فلما خرج قال: **«لو قلتم له: يغسل هذا أو ينزعها»**.

رواه أحمد (١٣٣/٣، ١٥٤، ١٦٠)، وأبو داود في الأدب (٤١٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٣٦)، وأبو الشيخ (٧٠) وسنده صحيح لولا سلم العلوي فمُختلف فيه.

وكان إذا بلغه شيء عن قوم خطب فقال: **«ما بال أقوام يقولون كذا وكذا أو يفعلون كذا»**، ولا يسمّي أحداً، وهذا من عظيم حيائه ﷺ، وذلك وارد في الصحيحين وغيرهما، فالحياء خُلُقٌ كريم، وهو من أعظم شعب الإيمان وكله خير، وانظر ما سبق في كتاب الإيمان من الجزء الأول ص (٩٧).



❊ وفاؤه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه

[٦٩٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا أُتِيَ

بهديّة قال: **«اذهَبُوا بها إلى بَيْتِ فلانة، فإنها كانت صَدِيقة لخديجة، إنها كانت تُحِبُّ خديجة»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (**٢٣٢**)، وابن حبان (١٥/٤٦٧) مع الإحسان، والحاكم (٤/١٧٥) وصححه ووافقه الذهبي.

[٦٩٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة لِما كنتُ أسْمَعُه يذكرُها، وإن كان لَيَذْبَحُ الشاة فيُهْدِيها إلى خَلاَئِلِها.

رواه البخاري في المناقب (٨/١٣٥، ١٣٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/٢٠٠، ٢٠١)، والترمذي في المناقب (**٣٦٥٢**) وفي البرّ والصلة.

[٦٩٦] وعنها قالت: استأذنت هالة بنت خُوَيْلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرفها استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: **«اللّهمّ هالةُ بنتُ خويلد»**.

رواه البخاري (٨/١٤٠)، ومسلم (١٥/٢٠١، ٢٠٢) كلاهما في فضائل الصحابة.

قوله: «فارتاح» أي: هَشَّ وسُرَّ بها لأنه تذكر بها حبيبته الأُولى خديجة.

[٦٩٧] وعنها أيضاً قالت: جاءت عجوز إلى النبيّ ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: **«من أنت؟»** قالت: أنا جثّامة المُزَنِيَّةُ، قال: **«بل أنتِ حسّانَةُ المُزَنِيَّة، كَيفَ أنتُم؟ كيف حالُكُم؟ كيف كنتم بَعْدَنا؟»** قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال، قال: **«إنها كانت تأتينا زمنَ خديجة وإن حُسْنَ العَهْدِ مِن الإيمان»**.

رواه الحاكم (١/١٦) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/١٠٢)، والبيهقي في الشعب (٦/٥١٧) من طرق هو بها صحيح.

«حسن العهد» أي: العهد الحسن وهو الوفاء به ورعاية الحُرْمة، فهكذا كان ﷺ وفيّاً بصحبته لخديجة، فلم ينسها طوال حياته رغم أن الله عزّ وجلّ أبدله نساء كريمات حساناً؛ لأن خديجة آزرته ونصرته وقطعت معه أشواطاً صَعْبَةً من حياته، وكانت نعمت الناصر المؤيّد له ﷺ، يُضاف إلى ذلك ما رزق له معها من الأولاد لذلك كان يكرم صديقاتها وأقاربها ويُحْسن إليهنّ. . .

[٦٩٨] وعن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ آلَ بني فلان ليسُوا لي بأولياء، غيرَ أن لهم رَحِماً سأبُلُّها بِبِلاَلِها**».

رواه البخاري في الأدب من صحيحه (٢٤/١٣، ٢٥، ٢٦)، ومسلم في الإيمان (٨٧/٣).

«سأبلّها ببِلالها» والمراد بالبِلال هنا صلة الرحم، ومنها الشفاعة يوم القيامة، واختلف في المراد بآل فلان هنا من هم؟ فقيل: آل العاص، وقيل: آل أبي طالب الكفار كما جاء مصرّحاً به في مستخرج أبي نعيم على البخاري بسندٍ صحيح بلفظ: «**إن لبني طالب رحماً أبلّها ببلالها**»، والله تعالى أعلم.

[٦٩٩] وعن عمر بن السائب رحمه الله تعالى: أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمّه فوضع لها شقّ ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام ﷺ فأجلسه بين يديه.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٤٥) وهو مرسل صحيح وهو مشهور في كتب السيرة. وهذا هو اللائق بأخلاقه ﷺ مع الأباعد، فكيف بأبيه وأمّه وأخيه من الرضاعة. . . وقد تقدم ما كان يعامل به أمّ أيمن حاضنته من الملاطفة والتذلّل لها والتواضع البالغ معها.

* * *

❊ تواضعه ﷺ

التواضع ضدّ التكبّر وهو بالنسبة للنبيّ ﷺ باب واسع جاءت فيه أخبار عدّة في مناسبات وأحوال، فلنقرأها بإمعان وتبصّر، فما أحوجنا إلى التخلّق بها والائتساء به ﷺ فيها، فإن التواضع من صفات العبودية لله عزّ وجلّ.

[٧٠٠] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُطْرُوني كما أطْرَتْ النّصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا عبدُ الله ورسوله»**.

رواه أحمد (٢٣/١، ٢٤، ٥٥)، والبخاري في ذكر عيسى من أحاديث الأنبياء (٣٠٠/٧) وغيرها.

«الإطراء» المبالغة في المدح والتجاوز فيه بالباطل والتغالي في ذلك، فنهيه عن الغلوّ في مدحه، وقوله: «إنما أنا عبد» إلخ، من تواضعه وتنازله عن مقامه السامي، وفي قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى» إلخ، إشارة إلى جواز مدحه ما لم يبلغ إلى حدّ الشرك والكفر مثل ما فعل النصارى في عيسى عليه السلام.

[٧٠١] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن امرأة كانَ في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله إنَّ لي إليك حاجةً، فقال: **«يا أمَّ فلان انظُري أيَّ السِّكك شئتِ حتى أقضي لك حاجتك»**، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغتْ من حاجتها.

رواه أحمد (١١٩/٣، ١٧٤، ٢١٤)، ومسلم في الفضائل (٨٢/١٥، ٨٣)، وأبو داود (٤٨١٨، ٤٨١٩)، والترمذي في الشمائل (٢٨٥)، وذكره البخاري معلّقاً في الأدب، ورواه في النكاح (٢٤٦/١١) مختصراً.

«السكك» جمع سكة وهي الطريق، وقوله: فخلا معها، هذا ليس من الخلوة المنهيّ عنها، لأنه كان في الطريق بعيداً من سماع الناس كلامها، وكانوا يرونه واقفاً معها.

وما صنعه مع هذه المرأة نهاية في تواضعه ﷺ، فلا يفعل مثل ذلك ويتنازل له إلا المتواضعون. أما الأنانيون والمتعاظمون فلا يتصوّر صدور ذلك منهم.

[٧٠٢] وعن أنسٍ أيضاً قال: كان النبيّ ﷺ **يُدْعَى إلى خُبز الشَّعيرِ والإهَالةِ السَّنِخَةِ فيُجيبُ**، ولقد كان له دِرْعٌ **عند يهودي فما وجد ما يَفُكُّها** حتى مات.

رواه البخاري (٥/٥٠٦)، والنسائي (٧/٢٥٤)، والترمذي في السنن (١٠٩٧) وفي الشمائل (٣٢٦)، وابن ماجه (٢٤٣٧) وغيرهم.

«الإهالة السَّنخة» هو الشحم المتغيّر.

ففي الحديث تنازله وإجابته داعيه لتناول خبز الشعير والشحم المتغيّر وعدم تأففه من ذلك وتأخّره عن الإجابة، وذلك من كمال تواضعه، والدّرع التي دفعها رهناً لليهودي كانت في مقابل ثلاثين صاعاً من الشعير، وتوفي والدّرع مرهونة، ويأتي هذا في الرقائق إن شاء الله تعالى.

[٧٠٣] وعن أنسٍ أيضاً قال: حجّ رسول الله ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ، وعليه قطفةٌ لا تُساوِي أربعةَ دراهم، فقال: **«اللّهمّ اجعله حجّاً لا رِياءَ فيه ولا سُمْعة»**.

وفي رواية: كنّا نرى ثمنها أربعة دراهم، فلما استوت به راحلتُه قال: **«لبّيك بحجّة لا سُمْعَة فيها ولا رياء»**.

رواه الترمذي في الشمائل (٣٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٠)، وابن سعد (٢/١٧٧) وهو وإن كان ضعيفاً فإنه صحيح لطرقه ولشاهدين له عن ابن عباس رواه الطبراني في الأوسط، وعن بشر بن قدامة رواه النسائي في الكبرى (٤/٣٣٢، ٣٣٣).

ورواه البخاري في الحجّ بسياقٍ آخر، وفيه: حجّ على رحل إلخ.

«الرحل» هو للبعير كالسرج للفرس. و«الرث» البالي.

وأي تواضع أعظم من هذا، رحله رثّ وفراشه عليه لا يساوي أربعة دراهم، وهو يخاف أن يكون حجّه غير مقبول، فيدعو الله عزّ وجلّ أن يجعله خالصاً لوجهه لا يخالطه رياءٌ ولا سمعة، فكيف يا ترى يكون حال مترفي زماننا وذوي السلطة منهم في أيام حجّهم مما يستحيي الشيطان أن يكون عليه.

[٧٠٤] وعنه قال: لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأَوْه لم يَقُومُوا لِما يَعْلَمُون من كراهَتِهِ لذلك.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٣)، والترمذي في الأدب (٢٥٦٧) وفي الشمائل (٣٢٨)، وأبو الشيخ في الأخلاق (٦٣) وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي وغيره، ولذلك قال فيه: حسن صحيح.

كان يكره القيام له لأن ذلك من عادات الجبابرة والظَّلمة، فكان يبتعد عن التشبّه بهم تواضعاً منه ﷺ، وقد ثبت عنه الأمر بالقيام لسعد بن معاذ كما تقدم في غزوة بني قريظة، وصحّ في الصحيحين أن طلحة بن عبيدالله قام لكعب بن مالك ولم يُنْكر عليه النبيّ ﷺ، وقد أُلِّف العلماء في مشروعيّة القيام لأهل الفضل وتحريمه لغير ذلك.

وقوله: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ» هذا شيء متواتر عنهم رضي الله تعالى عنهم وصارت به الركبان، ولذلك كانوا يؤثرونه على أنفسهم... وهاجروا في رضاه أوطانهم وقدّموا بين يديه أرواحهم وقاتلوا معه آباءهم وأبناءهم وعشائرهم، حتى إن أبا عبيدة قتل أباه ومصعب بن عمير أخاه، وعمر خاله فضلاً عن أعمامهم وبنيهم وأخوالهم... ولذلك كانوا أفضل الناس بعد الأنبياء، وكان جميعهم في الجنّة كما قال تعالى عنهم: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

[٧٠٥] وعن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو أُهْدِيَ إليّ كُراعٌ لقبلتُ، ولو دُعيتُ عليه لأجبتُ»**.

رواه أحمد (٢٠٩/٣)، والترمذي في الأحكام (١٢١٢) وفي الشمائل

(٣٣٠) وقال: حسن صحيح، ورواه البخاري في الهبة (١٢٧/٦) وفي النكاح، وأحمد (٤٢٤/٢، ٥١٢) عن أبي هريرة.

«الكراع» بضم الكاف ما رقَّ من الرجلِ وهو مرغوب عنه في العادة، ومع ذلك يقول الحبيب الأكرم ﷺ: **«لو أهدي إليّ لقبلت، ولو دُعيت عليه لأجبتُ»**، وهل لهذا مثيل في التواضع؟ لا والله.

[٧٠٦] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاءني رسولُ الله ﷺ ليس بِراكِبِ بَغْلٍ ولا بِرذَوْن، وفي رواية: أتاني رسولُ الله ﷺ يَعُودُني وأبو بكر وهما ماشيان.

رواه أحمد (٣٧٣/٣)، والبخاري في المرضى (٢١٨/١٢)، وأبو داود (٣٠٩٦)، والترمذي وفي الشمائل (٣٣١).

«برذون» بكسر الباء وسكون الراء والواو بينهما ذال مفتوحة هو نوع من الدَّوابِّ يشبه الحمير عظيم الخلقة. وفي الحديث بيان تواضعه ﷺ من جهة زيارته لأصحابه ماشياً لم يتكلّف ركوب الخيل أو البغال بل ولا الحمير، وهذا بخلاف المتعاظمين، فإنهم يستنكفون المشي على الأقدام لمثل ذلك، ولا سيما إذا كان المزور بعيد الدار كجابر هنا، فإن منزله كان في بني سلمة وبينها وبين بيوت النبيّ ﷺ أكثر من ثلاثة أميال.

[٧٠٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنه أنها سُئِلت: هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: نعم، كان رسولُ الله ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَه، ويَخِيطُ ثَوْبَه، ويَعْمَلُ في بَيْتِهِ كما يَعْمَلُ أحدُكم في بَيْتِهِ.

رواه أبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (ص ٦٢)، وعبدالرزّاق في المصنّف (٢٠٤٩٢) ومن طريقه البغوي في شرح السنّة (٣٦٧٥) وسنده صحيح على شرطهما.

«يخصف نعله» أي: يخرزها وهذا غاية في تواضعه ﷺ، فإن مثل هذه الأشياء لا يباشرها العظماء والكبراء لتكبّرهم وأنانيتهم وتعاظمهم.

[٧٠٨] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ

يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضَّيف.

رواه أبو الشيخ في أخلاق النبيّ (ص ١٢٩)، والحاكم (٦١/١) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وللحديث طرق وشواهد.

فهذه الخصال لا يتّصف بها إلا الطبقة الفقيرة ذات الفاقة، أما طبقة الأغنياء أو العظماء من ذوي السلطة، فمن المستحيل عادة أن يتخلّقوا بذلك. ومن عظيم تواضعه ﷺ أنه كان يتأخّر في الطريق عن أصحابه ويقدّمهم أمامه، ولا يتقَدَّمهم كعادة عظماء أهل الدنيا، وحضرني الآن في هذا ثلاثة أحاديث، وهي:

[٧٠٩] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى مَشَى أصحابُه أمامه، وتركُوا ظَهْره للملائكة.

رواه ابن ماجه (٢٤٦)، والحاكم (٢٨١/٤) وصححه على شرط الشيخين، وقال البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات.

[٧١٠] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه قال: ما رُئِيَ رسول الله ﷺ يأكُل مُتَّكِئاً قَطُّ، ولا يَطأُ عقِبَه رجُلان.

رواه أحمد (١٦٥/٢، ١٦٧)، وأبو داود (٣٧٧٠)، وابن ماجه (٢٤٤)، وابن سعد (٣٨٠/١)، وأبو الشيخ (٢١٣) وسنده حسن صحيح.

[٧١١] وعن جابر رضي الله تعالى عنه حدّث: أنّ رسولَ الله ﷺ كان يتخلّف في المسير، فيُزْجِي الضعيف ويُرْدِفُ ويدعو لهم.

رواه أبو داود (٢٦٣٩)، والحاكم (١١٥/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

«فيزجي» أي: يسوق. و«يردف» أي: يجعله راكباً خلفه ردفه.

فهذه الأحاديث دالّة على أنه ﷺ كان لا يتقدم أصحابه في المسير ابتعاداً من التشبّه بالجبابرة والمتكبّرين والمعجبين بأنفسهم، وتخلّقاً بأخلاق عباد الله المتواضعين.

وبهذا تمّ ما أردنا كتابته من شمائل نبيّنا وأخلاقه ﷺ، وقد تقدم كثير منها في غضون الكتاب كما سبق أن أشرنا إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وأتباعه ومحبيه.

* * *

خاتمة هامة

إتماماً للفائدة واقتداء بعلمائنا الذين كتبوا في السيرة رأينا أن نتبع الشمائل بذكر زوجات النبيّ ﷺ وسراريه وأولاده، ومواليه، وخدمه، وكتّابه، كما ذكره علماء السيرة والمحدّثون والمؤرخون.

أما زوجاته، فاللائي دخل بهن إحدى عشرة امرأة وهنّ سيداتنا وأُمّهاتنا:

خديجة بنت خويلد، ثم سودة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم زينب بنت خزيمة، وتوفيت في حياته، ثم أمّ سلمة، ثم زينب بنت جحش، ثم جُوَيْرِية بنت الحارث، ثم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، ثم صفية بنت حيي الإسرائيلية، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية وهي آخر من تزوّج بها، تزوّجها في عمرة القضاء.

فهؤلاء نساؤه المعروفات اللائي دخل بهنّ بدون خلاف.

وأمّا من خطبها ولم يتزوّجها أو وهبت نفسها له ولم يتزوجها فأبلغهن بعضهم إلى ثلاثين، والمعروف الصحيح أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها فدخل عليها فاستعاذت منه فأعاذها ولم يتزوّجها، وكذلك التي دخل عليها ورأى بكشحها بياضاً فأمرها بالانصراف ولم يدخل بها، وما عدا ذلك فلا يُعرف.

واتّفقوا أنه توفي عن تسع نسوة باستثناء خديجة وزينب بنت خزيمة اللتين توفيتا في حياته ﷺ، وكان أوّل زوجاته لحوقاً به زينب بنت جحش توفيت سنة عشرين، وآخرهنّ موتاً أمّ سلمة توفيت سنة اثنتين وستين رضي الله تعالى عنهنّ، ويأتي لهنّ مزيد في الفضائل.

وأما سراريه اللاتي كان ينكحهنّ بملك اليمين، فأربع: مارية القبطية أمّ ولده إبراهيم، وريحانة النضرية أو القرظية، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السبي.

وأما مواليه، فأوصلهم بعضهم كابن عساكر في تاريخ دمشق (ج ١٧٢/٤، ٢٠٤) إلى تسع وثلاثين، وأشهرهم: زيد بن حارثة، وأبو رافع، وثوبان، وصالح، وشُقران، وأبو كبشة، وسفينة، وأنجشة، وأفلح، وريحانة، ورضوى، وسلمى أمّ رافع، ومارية. ومولاته وحضينته أمّ أيمن رضي الله تعالى عنهم.

وأما خدّامه، فمنهم أنس بن مالك، وعبدالله بن مسعود كان صاحب نعليه وسواكه، وعقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته، وبلال بن رباح، وأبو ذرّ الغفاري، وأيمن ابن أمّ أيمن حاضنته كان على مطهرته... رضي الله تعالى عنهم.

وأما كتابه، فمنهم الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وعامر بن فهيرة، وأُبي بن كعب، وعبدالله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وزيد بن ثابت وكان ألزمهم لهذا الشأن وأخصّهم به رضي الله تعالى عنهم.

وكل من ذكرنا موجودة تراجمهم وأخبارهم في «الإصابة» و«الاستيعاب» و«أسد الغابة».

وأما أعمامه، فكانوا اثني عشر، أشهرهم: حمزة، والعباس، وأبو طالب، وأبو لهب، وقثم، ولم يُسْلم منهم إلا حمزة والعباس رضي الله تعالى عنهما.

وأما عمّاته، فكنَّ ستاً، أسلم منهنّ صفية أم الزبير بن العوام، واختلف في إسلام عاتكة وأروى.

وأما أولاده، فأوّلهم القاسم، وبه كان يكنى، مات طفلاً.

وزينب، قيل: هي أكبر أولاده، ثم رقية وأم كلثوم ثم فاطمة وهي أصغرهن، وقيل غير ذلك. ثم وُلد له عبدالله وكان يقال له الطيّب والطاهر، وكلّهم من خديجة، ثم وُلد له إبراهيم من مارية القبطية، وكلّهم توفوا في حياته إلا فاطمة، فعاشت بعده سِتّة أشهر، وكل هذا لا خلاف فيه.

وبهذا تمّ قسم السيرة والشمائل، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وأتباعه أبد الآبدين.

في كتاب السيرة العطرة من الأحاديث الزائدة على الصحيحين مائتان وبضعة عشر حديثاً، ويليه المناقب والفضائل.





فهرس الأحداث العامة

الموضوع	الصفحة





الفهرس المفصل

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

